

للإمام العالم العلامة أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي

المتوفى ٤٢٧ هـ

تحقيق

الشيخ سيد كسروي حسن

الجزء الرابع

المحتوى:

من أول سورة الإسراء - إلى آخر سورة القصص

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4410-3



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

(بنى اسرائيل)

مكية. وهى ستة آلاف وأربعمائة وستون حرفًا،
وألف وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة، ومائة وإحدى عشرة آية

روى زيد بن أسلم عن أبى أُمامة عن أبيه أُبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة بنى إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين أُعطى فى الجنة قنطارين من الأجر والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية والأوقية منها خير من الدنيا (وما فيها)».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ عن طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله. قال: «تنزيه الله عن كل سوء» ويكون سبحان بمعنى التعجب.

قال الأعشى:

أقول لما جاءنى فخر ... سبحان من علقمة الفاخر

وفى بعض الحديث تفسير سبحان الله: براءة الله من السوء.

فالآية متضمنة للمعنيين جميعًا.

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. اختلفوا فيه: قال بعضهم: كان إسراء رسول الله ﷺ من مسجد مكة.

يدل عليه ما روى قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة أن النبى ﷺ قال: «بينما أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتانى جبرائيل بالبراق..» وذكر

حديث المعراج .

وقال الآخرون : عرج برسول الله ﷺ من دار أم هانئ بنت أبى طالب أخت على (رضى الله عنه) وزوجها هبيرة بن أبى وهب المخزومى .

وقالوا : معنى قوله ﴿مِنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ من الحرام ، لأن الحرم كله مسجد .

يدل عليه ما روى الكلبى عن أبى صالح عن باذان عن أم هانئ بنت أبى طالب أنها كانت تقول : ما أسرى رسول الله ﷺ إلاّ وهو فى بيتى نائم عندى تلك الليلة فصلى فى بيتى العشاء الآخرة فصليت معه ، ثمّ قمت فنمت وتركته فى مصلاه فلم انتبه حتّى أنبهنى لصلاة الغداة ، قال : «قومى يا أم هانئ أُحدثك العجب» .

فقلت : كل حديثك العجب بأبى أنت وأمى فقام وصلى الغداة فصليت معه فلما انصرف قال : «يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بعد نومك ثمّ أتانى جبرائيل وأنا فى مُصلاى هذا فقال : يا محمّد اخرج فخرجت إلى الباب فإذا بملك راكب على دابة فقال لى : اركب فركبت فسارت بى إلى بيت المقدس ، فإذا أتيت على واد طالت يدا الدابة وقصرت رجلاها ، فإذا أتيت على عقبة طالت رجلاها وقصرت يداها حتّى إذا انتهيت إلى بيت المقدس فصليت فيه ثمّ صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترونى» .

قال مقاتل : كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة .

﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ يعنى بيت المقدس ، سمِّى أقصى لأنه أبعد المساجد التى تزار ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ بالماء والأنهار والأشجار والثمار .

وقال مجاهد : سمّاه مباركًا لأنه مَقَرّ الأنبياء ، وفيه مهبط الملائكة والوحى ، وهو الصخرة ، ومنه يحشر الناس يوم القيامة .

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَـٰتِنَآ﴾ عجائب أمرنا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ .

وأما حديث المسرى ، فاقتصرت به على الأخبار المأثورة المشهورة دون المناكير والأحاديث الواهية الأسانيد وجمعتها على نسق واحد مختصر ، ليكون أعلى فى الاستماع وأدنى إلى الانتفاع ، وهو ما روى الزهرى عن ابن سلمة بن عبد الرحمن قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : قال رسول الله ﷺ .

وروى السدى عن محمّد بن السائب عن باذان عن ابن عبّاس عن النبى ﷺ : دخل كلام بعضهم فى بعض قالوا : قال رسول الله ﷺ : «لما كانت ليلة أسرى بى وأنا بمكة بين النائم واليقظان ، جاءنى جبرائيل (عليه السلام) فقال يا محمّد قم فقمت فإذا جبرائيل ومعه ميكائيل

فقال جبرائيل لميكائيل : ائتنى بطست من ماء زمزم لكيما أعطر قلبه وأشرح له صدره قال : فشق بطنى فغسله ثلاث مرات واختلف إليه ميكائيل بثلاث طشات من ماء زمزم، فشرح صدرى ونزع ما كان فيه من غل وملأه حلمًا وعلمًا وإيمانًا وختم بين كتفىَّ بخاتم النبوة، ثمّ أخذ جبرائيل بيدى حتّى انتهى بى إلى سقاية زمزم فقال الملك : ائتنى بتور من ماء زمزم ومن ماء الكوثر، فقال: توضأ فتوضأت ثمّ قال لى : انطلق يا محمّد. قلت: إلى أين؟ قال : إلى ربك ورب كل شيء، فأخذ بيدى وأخرجنى من المسجد فإذا أنا بالبراق دابة فوق الحمار ودون البغل ـ خده كخد الإنسان وذنبه كذنب البعير وعرفه كعرف الفرس وقوائمه كقوائم الإبل وأظلافه كأظلاف البقر وصدره كأنه ياقوتة حمراء وظهره كأنه درة بيضاء عليه رحل من رحائل الجنة، وله جناحان فى فخذيه يمر مثل البرق خطوه منتهى طرفه فقال لى : اركب، وهى دابة إبراهيم التى كان يزور عليها البيت الحرام.

قال : فلما وضعت يدىَّ عليه شمس واستعصى علىَّ، فقال جبرائيل : مه يا براق، فقال البراق : يا جبرائيل مس ظهرى، فقال جبرائيل : هل مسستَ ظهراً.

قال : لا والله إلاّ أنى مررت يومًا على (نصاب إبل) فمسحت يدى على رءوسهما وقلت : إن قومًا يعبدونكما من دون الله ضلال. فقال جبرائيل : يا براق أما تستحى فوالله ما ركبك مذ كنت قط نبى أكرم على الله من محمد ﷺ قال : فارتعش البراق وانصب عرقًا حياءً منى، ثمّ خفض لى حتى لزق بالأرض، فركبته واستويت عليه قام بى جبرائيل نحو المسجد الأقصى بخطو البراق مدَّ البصر يرسل إلى جنبى لا يفوتنى ولا أفوته حينا أنا فى مسيرى إذ جاءنى نداء عن يمينى قال : يا محمّد على رسلك اسلك ـ يقولها ثلاثًا ـ فلم أرفق عليه ثمّ مضيت حتّى جاوزته، فإذا أنا بامرأة عجوز رفعت لى عليها من كل زينة وبهجة تقول : يا محمّد إلىَّ، فلم ألتفت إليها وقلت : يا جبرائيل من هذا الذى نادانى عن يمينى؟ فقال : داعية اليهود والذى نفسى بيده لو أجبته لتهودت أُمتك من بعدك والذى ناداك من يسارك داعية النصارى، والذى نفسى بيده لو أجبت لتنصّرت أُمتك من بعدك، فأما التى رفعت لك بهجتها وزينتها فهى الدنيا لو التويت إليها لاختارت أُمتك الدنيا على الآخرة.

ثمّ أتيت بإناءين أحدهما اللبن والآخر خمرة فقيل لى : اشرب أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربته. فقال لى جبرائيل : أصبت الفطرة أنت وأمتك، أما إنك لو أخذت الخمر لخمرت أمتك من بعدك قال : ثمّ سار رسول الله ﷺ وسار معه جبرائيل فأتى على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم واحد، كلما حصدوا عاد كما كان فقال النبى ﷺ : من هؤلاء؟ فقال : هؤلاء

المهاجرون فى سبيل الله يضاعف لهم الحسنة سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

قال : ثمّ أتى على قوم يرضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيئًا . قال : ما هؤلاء يا جبرائيل؟ قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة . ثمّ أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع فيسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع ، والزقوم قد صف جهنم وحجارتها فقال : ما هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت : ٤٦) .

ثمّ أتى على قوم بين أيديهم لحم فى قدر نضيج طيب ولحم آخر خبيث ، فجعلوا يأكلون الخبيث ويدعون النضيج الطيب ، قال : ما هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال : هذا الرجل من يكون عنده المرأة حلالاً طيبًا فأتى امرأة خبيثة فيبيت معها حتّى يصبح ، فالمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيبًا فتأتى الرجل الخبيث فتبيت معه حتّى تصبح ، ثمّ أتى على (امرأة) فى الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شىء آخر إلا فتّته . فقال : ما هذا يا جبرائيل؟ قال : هذا مثل أمتك يقعدون على الطريق فيقطعون مثلاً ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ (الأعراف : ٨٦) الآية ثمّ أتى على رجل جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال : ما هذا يا جبرائيل؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يزيد عليها ، ثمّ أتى على قوم يقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت . قال : ما هؤلاء يا جبرائيل؟ قال هؤلاء خطباء الفتنة ، ثمّ أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع .

قال : ما هذا؟ قال : هذا الرجل من أمتك يتكلم الكلمة العظيمة ثمّ يندم عليها ولا يستطيع أن يردها . قال : ثمّ أتى على واد فوجد ريحًا طيبة باردة وصوتًا . قال : ما هذه الريح الطيبة وما هذا الصوت؟ قال : هذا صوت الجنة ، فقال : ربّ أرنى بما وعدتنى فقد كثر غُرَفى وإستبرقى وحريرى وسندسى وعبقرى ولؤلؤى ومرجانى وفضتى وذهبى وأكوابى وصحافى وأباريقى وفواكهى وعسلى ولبنى وخمرى ومائى ، فأتنى بما وعدتنى . فقال : لك كل مؤمن ومؤمنة من آمن بى وبرسلى وعمل صالحًا ولم يشرك بى ولم يتخذ من دونى أندادًا ، ومن خشينى فهو آمن ومن سألنى أعطيته ومن أقرضنى جزيته ومن توكل علىّ كفيته ، إنى أنا الله لا إله إلاّ أنا لا أخلف الميعاد قد أفلح المؤمنون تبارك الله أحسن الخالقين قال : قد رضيت . قال ثمّ أتى على واد فسمع صوتًا منكرًا ووجد ريحًا منتنة فقال : ما هذا يا جبرائيل؟ قال : هذا صوت جهنم تقول :

(يا ربّ آتنى) ما وعدتنى فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى وحميمى وضريعى وغساقى وعذابى، وقد بعد قعرى واشتد حرّى ائتنى بما وعدتنى، قال: لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة وكل خبيث وخبيثة وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب.

قالت: قد رضيت يا رب، ثمّ سار ومعه جبرائيل فقال له جبرائيل: انزل فصل. قال: فنزلت وصليت، فقال: أتدرى أين صليت؟ صليت بطيبة وإليها المهاجرة إلى الله. ثمّ قال: انزل فصلّ قال فنزلت فصليت فقال: أتدرى أين صليت! صليت بطور سيناء حيث كلّم الله موسى ثمّ قال: انزل فصل، قال: فنزلت فصليت. فقال: أتدرى أين صليت؟ صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى (عليه السلام) قال: ثمّ مضينا حتّى أتينا بيت المقدس فلما انتهيت إليه إذا أنا بملائكة قد نزلوا من السماء يتلقوننى بالبشارة والكرامة من عند رب العزة يقولون: السلام عليك يا أول ويا آخر ويا حاشر، قال: قلت يا جبرائيل ما تحيتهم إياى؟ قال: إنك أول من تنشر عنه الأرض وعن أمتك، وأول شافع وأول مشفع وإنك آخر الأنبياء وإن الحشر لك وبأمتك يعنى حشر يوم القيامة».

قال ﷺ: «ثمّ جاوزناهم حتّى انتهينا إلى باب المسجد، فأنزلنى جبرائيل وربط البراق بالحلقة التى كانت تربط بها الأنبياء (عليهم السلام) بحطام عليه من حرير الجنة، فلما دخلت الباب إذا أنا بالأنبياء والمرسلين».

وفى حديث أبى العالية: «أرواح الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله قبلى من لدن إدريس ونوح إلى عيسى قد جمعهم الله عزّ وجلّ، فسلموا علىَّ وحيونى بمثل تحية الملائكة قلت: يا جبرائيل من هؤلاء؟ قال: إخوتك الأنبياء، زعمت قريش أن لله شريكًا، واليهود والنصارى أن لله ولدًا، سل هؤلاء المرسلين هل لله شريك؟ وذلك قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (الزخرف: ٤٥) فأقروا بالربوبية لله تعالى ثمّ جمعهم والملائكة صفوفًا فقدمنى وأمرنى أن أُصلى بهم فصليت بهم ركعتين. ثمّ إن الأنبياء أثنوا على ربهم فقال إبراهيم (عليه السلام) الحمد لله الذى اتخذنى خليلاً وأعطانى مُلكًا عظيمًا وجعلنى أُمة قانتًا يؤتم بى وأنقذنى من النار وجعلها علىّ بردًا وسلامًا. ثمّ إن موسى (عليه السلام) أثنى على ربّه فقال: الحمد لله رب العالمين الذى كلمنى تكليمًا وجعل هلاك فرعون منه ونجاة بنى إسرائيل على يدىّ، وجعل من أمتى قومًا يهدون بالحق وبه يعدلون. ثمّ إن داود (عليه السلام) أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذى جعل لى ملكًا عظيمًا وعلمنى الزبور وألاَنَ لى الحديد وسخر لى الجبال يسبحن والطير وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب. ثمّ

إن سليمان (عليه السلام) أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذى سخر لى الرياح وسخر لى جنود الشياطين يعملون لى ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجوانب وقدور راسيات، وعلمنى منطق الطير وآتانى من كل شيء فضلاً وآتانى ملكًا عظيمًا لا ينبغى لأحد من بعدى وجعل ملكى ملكًا طيبًا ليس علىّ فيه حساب.

ثمّ إن عيسى (عليه السلام) أثنى على ربه فقال: الحمد لله ربّ العالمين الذى جعلنى كلمة منه وجعلنى أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وجعلنى أبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ورفعنى وطهرنى وأعاذنى وأُمّى من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان علينا سبيل.

ثمّ إن محمداً ﷺ قال: كلكم قد أثنى على ربه وأنا مثن على ربى فقال: الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وأنزل علىّ القرآن (فيه بيان كل شيء) وجعل أُمتى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠) وجعل أُمتى ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) وجعل أُمتى هم الأولون والآخرون وشرح لى صدرى ووضع عنى وزرى ورفع لى ذكرى وجعلنى فاتحًا وخاتمًا.

فقال إبراهيم (عليه السلام): بهذا أفضلكم محمّد، ثمّ أتى بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها: إناء فيه ماء فقيل له: اشرب فشرب منه يسيراً، ثمّ دفع إليه إناء آخر فيه لبن فقيل له: اشرب فشرب منه حتّى روى، ثمّ دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له: اشرب، فقال: لا أريده قد رويت. فقال له جبرائيل: قد أصبت أما إنها ستحرم على أُمتك، ولو شربت منها لم يتبعك من أُمتك إلاّ قليل، ولو رويت من الماء لغرقت وغرقت أمتك ثمّ أخذ جبرائيل (عليه السلام) بيدى فانطلق بى إلى الصخرة فصعد بى إليها فإذا معراج إلى السماء لم أر مثله حسنًا وجمالاً لم ينظر الناظرون إلى شيء قط أحسن منه. ومنه تعرج الملائكة أصله على صخرة بيت المقدس ورأسه ملتصق بالسماء إحدى عارضتيه ياقوتة حمراء والأخرى زبرجدة خضراء درجة من فضة ودرجة من ذهب ودرجة من زمرد مكلل بالدر والياقوت وهو المعراج الذى ينطلق منه ملك الموت لقبض الأرواح (. . . .)[1]، فاحتملنى جبرائيل حتّى وضعنى على جناحه ثمّ ارتفع بى إلى سماء الدنيا من ذلك المعراج، فقرع الباب فقيل: مَن؟ قال: أنا جبرائيل. قال: ومن معك؟ قال: محمّد.

قال: أوَقد بعث محمّد؟ قال: نعم. قال: مرحبًا به حيّاهُ الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ففتح الباب ودخلنا. قال: فبينما أنا أسير فى السماء الدنيا إذ رأيت ديكًا له زغب أخضر ورأس أبيض بياض ريشه كأشد بياض ما رأيته قط، وزغب أخضر تحت ريشه كأشد خضرة ما رأيتها قط وإذا رجلاً فى تخوم الأرض السابعة السفلى ورأسه عند العرش مثنىّ عنقه تحت العرش له جناحان من منكبيه إذا نشرهما جاوز المشرق والمغرب فإذا كان فى بعض (الميل) نشر جناحيه وخفق بهما، وصرخ بالتسبيح لله عزّ وجلّ يقول سبحان الملك القدوس الكبير المتعال لا إله إلاّ هو الحى القيوم، فإذا فعل ذلك سبّحت ديكة الأرض كلها وخفقت بأجنحتها وأخذت فى الصراخ فإذا سكن ذلك الديك فى السماء سكنت ديكة الأرض كلها، ثمّ إذا هاج بنحو ما فعلوا فى السماء صاحت ديكة الأرض جوابًا له بالتسبيح لله عزّ وجلّ بنحو قوله.

قال رسول الله ﷺ: «لم أزل منذ رأيت ذلك الديك مشتاقًا إليه أن أراه ثانية».

قال: ثمّ مررت بملك نصف جسده مما يلى رأسه نار والنصف الآخر ثلج وما بينهم رتق، فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار، وهو قائم ينادى بصوت له حسن رفيع: اللهم مؤلف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين.

فقلت: يا جبرائيل من هذا؟ قال: ملك من الملائكة يقال له حبيب وكله الله بأكناف السموات وأطراف الأرضين، ما أنصحه لأهل الأرض هذا قوله منذ خلقه الله تعالى. قال: ثمّ مررت بملك آخر جالس على كرسى قد جمع الدنيا بين ركبتيه، وفى يديه لوح مكتوب من نور ينظر فيه لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً ينظر فيه كهيئة الحزين. فقلت: من هذا يا جبرائيل؟ ما مررت أنا بملك أنا أشد خوفًا منه شيء من هذا؟ قال: وما يمنعك كلّنا بمنزلتك، هذا ملك الموت دائب فى قبض الأرواح وهو أشد الملائكة عملاً وأدأبهم. قلت: يا جبرائيل كل من مات نظر إلى هذا؟ قال: نعم. قلت: كفى بالموت من طامة. فقال: يا محمّد ما بعد الموت أطمّ وأعظم، قلت: يا جبرائيل أُدننى من ملك الموت أسلم عليه وأسأله فأدنانى منه فسلمت عليه فأومأ إلىّ فقال له جبرائيل: هذا محمّد نبى الرحمة ورسول العرب فرحب بى وحيانى وأحسن بشارتى وإكرامى. وقال: أبشر يا محمّد فإنى أرى الخير كله فى أمتك. فقلت: الحمد لله المنان بالنعم، ما هذا اللوح الذى بين يديك؟ قال: مكتوب فيه آجال الخلائق.

قلت: فأين أسماء من قبضت أرواحهم فى الدهور الخالية؟ قال: تلك فى لوح آخر قد علمت خلقها، ولذلك أصنع بكل ذى روح إذا قبضت روحه خَلفت عليها، فقلت: يا ملك الموت سبحان الله كيف تقدر على قبض أرواح جميع أهل الأرض وأنت فى مكانك هذا لا

تبرح؟ قال: ألا ترى أن الدنيا كلها بين ركبتى وجميع الخلائق بين عينى ويداى يبلغان المشرق والمغرب وخلقهما فإذا نفد أجل عبد من عباد الله نظرت إليه وإلى أعوانى فإذا نظر أعوانى من الملائكة إلىّ فنظرت إليه عرفوا أنه مقبوض فعمدوا إليه يعالجون نزع روحه فإذا بلغ الروح الحلقوم علمت ذلك ولا يخفى علىّ شيء من أمرى، أمددت يدى إليه فقبضته فلا يلى قبضه غيرى، فذلك أمرى وأمر ذوى الأرواح من عباد الله.

قال: إنما أبكانى حديثه وأنا عنده ثمّ جاوزنا فمررنا بملك آخر ما رأيت من الملائكة خلقًا مثله عابس الوجه كريه المنظر شديد البطش ظاهر الغضب، فلما نظر رعبت منه شيئًا وسألته فقلت: يا جبرائيل من هذا؟ فإنى رعبت منه رعبًا شديداً قال: فلا تعجب أن ترعب منه كلنا بمنزلتك فى الرعب منه، هذا مالك خازن النار لم يتبسم قط ولم يزل منذ ولاّه الله عزّ وجلّ جهنم يزداد كل يوم غضبًا وغيظًا على أعداء الله عزّ وجلّ وأهل معصيته لينتقم منهم، قلت: ادننى منه. فأدنانى منه فسلم عليه جبرائيل فلم يرفع رأسه فقال جبرائيل: يا مالك هذا محمّد رسول العرب فنظر إلىّ وحيانى وبشرنى بالخير. فقلت: مُذّ كم أنت واقف على جهنم؟ فقال: مذ خلقت حتّى الآن وكذلك إلى أن تقوم الساعة فقلت: يا جبرائيل مره ليرنى طرفًا من النار فأمره ففعل فخرج منه لهب ساطع أسوط معه دخان مكدر مظلم امتلأ منه الآفاق فرأيت هولا عظيمًا وأمرًا فظيعًا أعجز عن صفته لكم فغشّى علىّ وكاد يذهب نَفسى، فضمّنى جبرائيل وأمر أن يرد النار فردّها.

قال ﷺ: «فجاوزناها فمررنا بملائكة كثيرة لا يحصى عدتهم إلاّ الله عزّ وجلّ منهم وجوه بين كتفيه ووجوه فى صدره فى كل وجه أفواه وألسن، فهو يحمد الله ويسبحه بتلك الألسن ورأيت من أجسامهم وخلقهم وعبادتهم أمرًا عظيمًا، ثمّ جاوزناها فإذا برجل تام الخلق لم ينقص من خلقه شيء كما ينقص من خليقة الناس عن يمينه باب تخرج منه ريح طيبة وعن شماله باب تخرج منه ريح خبيثة إذا نظر إلى الباب الذى عن يمينه ضحك فإذا نظر إلى الباب الذى عن شماله بكى بحزن، فقلت: يا جبرائيل من هذا وما هذان البابان؟ قال: هذا أبوك آدم (عليه السلام) هذا الباب عن يمينه باب الجنة إذا نظر إلى من يدخل من ذريته الجنة ضحك واستبشر، والباب الذى عن شماله باب جهنم إذا نظر إلى من يدخل من ذريته جهنم بكى وحزن قال: ثمّ صعدنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبرائيل (عليه السلام) فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل ومَن معك؟ قال: محمّد، قيل: وقد أرسله الله.

قال: نعم. قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء،

فدخلنا فإذا بشابين فقلت : يا جبرائيل من هذان الشابان؟ فقال : هذا عيسى ويحيى أبناء الخالة .

قال : ثمّ صعدت إلى السماء الثالثة فاستفتح فقالوا : من هذا؟

قال : جبرائيل . قيل ومَن معك؟ قال : محمّد . قالوا : وقد أُرسل محمّد؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، فدخلنا فإذا برجل قد فُضّل على الناس بالحسن كفضَل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب قلت : من هذا يا جبرائيل؟ قال : هذا أخوك يوسف (عليه السلام)» .

قال ﷺ : «ثمّ صعد بى إلى السماء الرابعة فاستفتح قالوا : من هذا؟ قال : جبرائيل ، قالوا : ومن معك؟ قال : محمّد . قالوا : وقد أُرسل محمّد؟ قال : نعم . قالوا : حيّاه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، فدخلنا فإذا برجل من حاله (كذا) فقلت : من هذا يا جبرائيل؟ قال : «هذا إدريس رفعه الله مكانًا عليًا وهو مسند ظهره إلى دواوين الخلائق التى فيها أمورهم .

قال : ثمّ صعد بى إلى السماء الخامسة فاستفتح قالوا : من هذا؟ قال : جبرائيل . قالوا : من معك؟ قال : محمّد قالوا : وقد أُرسل محمّد؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء .

قال : ثمّ دخلنا فإذا برجل جالس وحوله قوم يقصُّ عليهم فقلت : يا جبرائيل من هذا؟ ومن هؤلاء الذين حوله؟ قال : هذا هارون (المحبب) وهؤلاء الذين حوله بنو إسرائيل» .

قال : «ثمّ صعدنا إلى السماء السادسة فاستفتح فقالوا : من هذا؟ قال : جبرائيل . قالوا : ومن معك؟ قال : محمّد؟ قالوا : وقد أُرسل محمّد؟ قال : نعم قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ثمّ دخلنا فإذا برجل جالس فجاوزناه فبكى الرجل فقلت : يا جبرائيل من هذا؟ قال : هذا موسى . قلت : فماله يبكى؟ قال : يزعم بنو إسرائيل أنى أكرم بنى آدم على الله عزّ وجلّ ، وهذا رجل من بنى آدم وقد خلفنى فى دنياه وأنا فى آخرتى فلو أنه بنفسه لم أبال ولكن مع كل نبى أمته» .

قال : «ثمّ صعد بى إلى السماء السابعة فاستفتح فقيل من هذا؟ قال : جبرائيل . قيل ومن معك؟ قال : محمّد . قالوا : وقد أرسل محمّد؟ قال : نعم . قالوا : حيّاه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ثمّ دخلنا فإذا برجل (أشمط) جالس على كرسى عند باب الجنة وعنده قوم جلوس (بيض) الوجوه أمثال القراطيس ، وقوم فى ألوانهم

شىء (. . . .)[1] فقام الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خلص من ألوانهم شىء، ثمّ دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم وصارت مثل ألوان أصحابهم فجاءوا فجلسوا إلى جنب أصحابهم فقلت: يا جبرائيل من هذا الأشمط ومن هؤلاء وما هذه الأنهار؟ قال: هذا أبوك إبراهيم (عليه السلام) أوّل من شمط على الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، فأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فقوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا فتابوا فتاب الله عليهم، وأما الأنهار الثلاثة فأولها رحمة الله والثانى نعمة الله والثالث سقاهم ربهم شرابًا طهوراً قال: فإذا إبراهيم مستند إلى بيت فسألت جبرائيل، فقال: هذا البيت المعمور يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم. قال: فأتى بى جبرائيل حتّى انتهينا إلى سدرة المنتهى فإذا أنا بشجرة لها أوراق الواحدة منها مغطية الدنيا بما فيها وإذا شقها مثل قلال هجر تخرج من أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسألت عنها جبرائيل فقال: أما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ويخرج أيضًا من أصلها ﴿أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ (محمد: ١٥) وهى على حد السماء السابعة مما يلى الجنة وعروقها وأغصانها تحت الكرسى.

قال رسول الله ﷺ: «انتهيت إلى سدرة المنتهى وأنا أعرف أنها سدرة المنتهى وأعرف ورقها وثمرها فغشيها من نور الله ما غشيها وغشيتها الملائكة كأنهم جراد من ذهب من خشية الله تعالى فلما غشيها ما غشيها تحولت حتّى ما يستطيع أحد منعها، قال: وفيها ملائكة لا يعلم عدّتهم إلاّ الله عزّ وجلّ، ومقام جبرائيل فى وسطها فلما انتهيت إليها قال لى جبرائيل: تقدم. فقلت: أقدم من؟ تقدم أنت يا محمّد فإنك أكرم على الله منى، فتقدمت وجبرائيل على أثرى حتّى انتهى بى إلى حجاب فراس الذهب فحرك الحجاب. فقال: من ذا؟ قال: أنا جبرائيل ومعى محمد، قال الملك: الله أكبر فأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملنى خلف جبرائيل فقلت له: إلى أين؟ قال: يا محمّد وما منا إلاّ له مقام معلوم إن هذا منتهى الخلائق، وإنما أذن لى فى الدنو إلى الحجاب لاحترامك وجلالك».

قال: «فانطلق بى الملك أسرع من طرفة عين إلى حجاب اللؤلؤ فحرك الحجاب. قال الملك: من وراء الحجاب: من هذا؟ قال: أنا صاحب فراس الذهب وهذا محمّد رسول العرب معى.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فقال الملك: الله أكبر وأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملني حتّى وضعني بين يديه فلم أزل كذلك من حجاب إلى حجاب حتّى جاوزوا بي سبعين حجابًا غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام وما بين الحجاب إلى الحجاب مسيرة خمسمائة عام، ثمّ دلّى لي رفرف أخضر يغلب ضوءه ضوء الشمس فالتمع بصري ووضعت على ذلك الرفرف ثمّ احتملني حتّى وصلني إلى العرش فلما رأيت العرش اتضح كل شيء عند العرش فقربني الله إلى سند العرش وتدلى لي قطرة من العرش فوقف على لساني فما ذاق الذائقون شيئًا قط أحلى منها فأنبأني الله عزّ وجلّ بها نبأ الأولين والآخرين وأطلق الله لساني بعدما كلّ من هيبة الرحمن، فقلت: التحيات لله والصلوات والطيبات. فقال الله تعالى: سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقلت: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فقال: يا محمّد هل تعلم فيم اختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: أنت أعلم يا رب بذلك وبكل شيء وأنت علام الغيوب. قال: اختلفوا في الدرجات والحسنات، فهل تدري يا محمّد ما الدرجات وما الحسنات؟

قلت: أنت أعلم يا رب. قال: الدرجات إسباغ الوضوء في المكروهات والمشي على الأقدام إلى الجماعات وانتظار الصلوات بعد الصلاة والحسنات إفشاء السلام وإطعام الطعام والتهجد بالليل والناس نيام ثمّ قال: يا محمّد آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه؟ قلت: نعم أي رب. قال: ومن؟ قلت: والمؤمنين ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥) كما فرقت اليهود والنصارى. فقال: ماذا قالوا؟

قلت: قالوا: سمعنا قولك وأطعنا أمرك. قال: صدقت فسل تعط. قال: فقلت: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥) قال: قد غفرت لك ولأمتك سل تعطه؟

فقلت: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: قد رفعت الخطأ والنسيان عنك وعن أمتك وما استكرهوا عليه، قلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال: قد فعلت ذلك بك وبأمتك. قلت ربنا ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ من الخسف ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ من القذف ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ من المسخ ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦) قال: قد فعلت ذلك لك ولأُمتك، ثمّ قيل لي: سل.

فقلت: يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليمًا، ورفعت إدريس مكانًا عليًا، وآتيت سليمان ملكًا عظيمًا، وآتيت داود زبورًا، فما لي يا رب؟

قال ربي: يا محمّد اتخذتك خليلي كما اتخذت إبراهيم خليلاً وكلمتك كما كلمت موسى تكليمًا وأعطيتك فاتحة الكتاب وخواتيم البقرة وكانا من كنوز العرش ولم أعطهما نبيًا قبلك، وأرسلتك إلى أهل الأرض جميعًا أبيضهم وأسودهم وإنسهم وجنّهم ولم أرسل إلى جماعتهم

نبيًا قبلك وجعلت الأرض كلها برّها وبحرها طهوراً ومسجداً لك ولأمتك وأطعمتك وأمتك الفىء ولم أطعمه أمة قبلهم ونصرتك بالرعب على عدوك مسيرة شهر، وأنزلت عليك سيد الكتب كلها ومهيمنًا عليها قرآنًا فرقناه ورفعت لك ذكرك فتذكر كلما ذكرت فى شرائع دينى، وأعطيتك مكان التوراة المثانى ومكان الإنجيل المبين ومكان الزبور الحواميم، وفضلتك بالمفصّل وشرحت لك صدرك ووضعت عنك وزرك وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس وجعلتهم أمة وسطًا وجعلتهم الأولين وهم الآخرون فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين».

قال ﷺ: «ثمّ فوّض لى بعهد بعدها أمور لم يؤذن لى أن أخبركم بها ثمّ فرضت علىَّ وعلى أُمتى فى كل يوم وليلة خمسون صلاة فلما شهد إلىَّ بعهده وتركنى عنده ما شاء قال لى: ارجع إلى قومك فبلغهم عنى فَحملنى الرفرف الأخضر الذى كنت عليه يخفضنى ويرفعنى حتّى أهوى بى إلى سدرة المنتهى فإذا أنا بجبرائيل (عليه السلام) أبصره خلفى بقلبى كما أبصره بعينى أمامى، فقال لى جبرائيل: أبشر يا محمّد فإنك خير خلق الله وصفوته من النبيين حياك الله بما لم يحى به أحداً من خلقه لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً ولقد وضعك مكانًا لم يصل إليه أحد من أهل السموات والأرض فهنّاك الله كرامته وما حباك من المنزلة الأثيرة والكرامة الفائقة، فخذ ذلك واشكر فإن الله منعم يحب الشاكرين.

فحمدت الله على ذلك ثمّ قال لى جبرائيل: انطلق يا محمّد إلى الجنة حتّى أُريك ما لكَ فيها فتزداد بذلك فى الدنيا زهادة إلى زهادتك وفى الآخرة رغبة إلى رغبتك فسرنا نهوى منفضين أسرع من السهم والريح حتّى وصلنا بإذن الله إلى الجنة فهدأت نفسى (وثاب) إلىَّ فؤادى وأنشأت أسأل جبرائيل عما كنت رأيت (فى الجنة) من البحور والنار والنور وغيرها، فقال: سبحان الله تلك سرادقات عرش رب العزة التى أحاطت بعرشه فهى سترة الخلائق من نور الحجب ونور العرش لولا ذلك لأحرق نور العرش ونور الحجب من تحت العرش من خلق الله وما لم تره أكثر وأعجب، قلت: سبحان الله ما أكثر عجائب خلقه.

قلت: يا جبرائيل ومن الملائكة الذين رأيتهم فى تلك البحور الصفوف بعد الصفوف كأنهم بنيان مرصوص؟

قال: يا رسول الله هم الروحانيون الذين يقول الله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ (النبأ:٣٨) ومنهم الروح الأعظم، ثمّ بعد ذلك قلت: يا جبرائيل فمن الصف الواحد الذى فى البحر الأعلى فوق الصفوف كلها قد أحاطوا بالعرش؟ قال: هم الكروبيون أشراف الملائكة وعظماؤهم ولا يجترئ أحد من الملائكة أن ينظر إلى ملك من الكروبيين وهم أعظم شأنًا من

أن أصف صفتهم لك وكفى ما رأيت منهم، ثمّ طاف بى جبرائيل فى الجنة بإذن الله فما نزل منها مكانًا إلاّ رأيته وأخبرنى عنه فرأيت القصور من الدر والياقوت والإستبرق والزبرجد ورأيت الأشجار من الذهب الأحمر قضبانهم اللؤلؤ وعروقهم الفضة راسخة فى المسك فلأنا أعرف بكل قصر وبيت وغرفة وخيمة ونهر وثمر فى الجنة منى بما فى مسجدى هذا.

قال: ورأيت نهرًا يخرج من أصله ماء أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل على رضراض دُرّ وياقوت ومسك أذفر. فقال جبرائيل: هذا الكوثر الذى أعطاك الله عزّ وجلّ وهو التسنيم يخرج من دورهم وقصورهم وبيوتهم وغرفهم يمزجون بها أشربتهم من اللبن والعسل والخمر فذلك قوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ۝ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: ٢٧، ٢٨) الآية.

ثمّ انطلق بى يطوف فى الجنة حتّى انتهينا إلى شجرة لم أر شجرة مثلها، فلما وقفت تحتها رفعت رأسى فإذا أنا لا أرى شيئًا من خلق ربى غيرها لعظمها وتفرق أغصانها ووجدت فيها ريحًا طيبة لم أشم فى الجنة ريحًا أطيب منها فقلّبت بصرى فيها فإذا ورقها حلل طرايف من ثياب الجنة من بين أبيض وأحمر وأخضر وثمارها أمثال القلال العظام من كل ثمرة خلقها الله فى السموات والأرضين من ألوان شتى وطعوم شتى وريح شتى، فعجبت من تلك الشجرة وما رأيت من حسنها. قلت: يا جبرائيل ما هذه الشجرة؟ قال: هذه التى ذكرها الله عزّ وجلّ ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٍ﴾ (الرعد: ٢٩) ولكثير من أمتك ورهطك فى ظلها حسن مقيل ونعيم طويل ورأيت فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كل ذلك مفروغ عنه معدّ إنما ينتظر به صاحبه من أولياء الله عزّ وجلّ وما غمنى الذى رأيت قلت: لمثل هذا فليعمل العاملون.

ثم عرض علىّ النار حتّى نظرت إلى أغلالها وسلاسلها وحيّاتها وعقاربها وغساقها ويحمومها، فنظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثمّ يجعل فى أفواههم صخرًا من نار تخرج من أسافلهم. قلت: يا جبرائيل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا. ثمّ انطلقت فإذا أنا بنفر لهم بطون كأنها البيوت وهم على سابلة آل فرعون فإذا مرّ بهم آل فرعون ثاروا فيميل بأحدهم بطنه فيقع فيتوطأهم آل فرعون بأرجلهم وهم يعرضون على النار غدوًا وعشيًا. قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥) ثمّ انطلقت فإذا أنا بنساء معلقات بثديهن منكسات أرجلهن. قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هن اللاتى يزنين ويقتلن أولادهن.

ثمّ أخرجنى من الجنة فمررنا بالسموات منحدراً من السماء إلى السماء حتّى أتيت على موسى فقال: فما فرض الله عليك وعلى أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. فقال موسى: أنا أعلم بالناس منك وإنى سرت الناس - بنى إسرائيل - وعالجتهم أشد المعالجة وإن أمتك أضعف الأمم فارجع إلى ربك واسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لن تطيق ذلك. قال: فرجعت إلى ربى.

وفى بعض الأخبار: «فرجعت فأتيت سدرة المنتهى فخررت ساجداً، قلت: يا رب فرضت علىَّ وعلى أمتى خمسين صلاة ولن أستطيع أن أقوم بها ولا أمتى فخفّف عنى عشراً. فرجعت إلى موسى فسألنى فقلت: خفف عنى عشراً. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك أضعف الأمم فإنى قد لقيت من بنى إسرائيل شدة. قال: فرجعت فردّها إلى ثلاثين فما زلت بين ربى وبين موسى (عليه السلام) حتى جعلها خمس صلوات فأتيت موسى (عليه السلام) فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقلت: فإنى قد رجعت إلى ربى حتّى استحيت وما أنا براجع إليه، قال: فنوديت أنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، ولا يبدل القول لدى فخمسة بخمسين فقم بها أنت وأمتك إنى قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى وأجزى بالحسنة عشر أمثالها لكل صلاة عشر صلوات. قال: فرضى محمد ﷺ كل الرضا وكان موسى (عليه السلام) من أشدهم عليه حين مرَّ به وخيرهم له حين رجع إليه.

ثمّ انصرفت مع صاحبى وأخى جبرائيل لا يفوتنى ولا أفوته حتَّى انصرف بى إلى مضجعى وكان كل ذلك ليلة واحدة من لياليكم هذه فأنا سيد ولد آدم ولا فخر، وبيدى لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وإلىَّ مفاتيح الجنة يوم القيامة ولا فخر، وأنا مقبوض عن قريب بعد الذى رأيت فإنى رأيت من آيات ربى الكبرى ما رأيت وقد أحببت اللحوق بربى عزّ وجلّ ولقاء من رأيت من إخوانى، وما رأيت من ثواب الله لأوليائه ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ (القصص: ٦٠).

قال: فلما رجع رسول الله ﷺ ليلة أُسرى به وكان بذى طوى قال: «يا جبرائيل إن قومى لا يصدقوننى».

قال: يصدقك أبو بكر وهو الصديق (رضى الله عنه).

قال ابن عبّاس وعائشة رضى الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «لما كانت ليلة أُسرى بى وأصبحت بمكة قطعت بأمرى وعرفت أن الناس تكذبنى».

قال: فقعد رسول الله ﷺ معتزلاً حزينًا فمرَّ به أبو جهل عدو الله فأتاه فجلس إليه، وقال كالمستهزئ: هل استفدت من شيء؟ قال: «نعم إنى أُسرى بى الليلة» قال: إلى أين؟ قال:

«إلى بيت المقدس» قال: ثمّ أصبحت بين ظهرانينا. قال: «نعم» فكان أبو جهل ينكر مخافة أن يجحده، الحديث. قال: أتحدث قومك ما حدثتنى؟

قال: «نعم» قال أبو جهل: يا معشر بنى كعب بن لؤى هلمّوا.

قال: فانتقضت المجالس فجاءوا حتّى جلسوا إليهما. قال: حدِّث قومك ما حدثتنى قال: «نعم إنّى أُسرى بى الليلة». قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس». قال: ثمّ أصبحت بين ظهرانينا قال: «نعم». قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجبًا للكذب، فارتد ناس ممن كان آمن به وصدقه وسعى رجال من المشركين إلى أبى بكر (رضى الله عنه) فقالوا: هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس؟.

قال: أوقد قال؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس فى ليلة وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء فى غدوه وروحه. فلذلك سمى أبو بكر الصديق (رضى الله عنه).

قال: وفى القوم من قد سافر هناك ومن قد أتى المسجد، فقالوا: هل تستطيع أن تصف لنا المسجد؟ قال: «نعم».

قال: فذهبت أنعت وأنعت فما زلت أنعت حتّى التبس علىَّ.

قال: فجىء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتّى وضع دون دار عقيل أو عقال فنعت المسجد وأنا أنظر إليه. فقال القوم: أما النعت فوالله قد أصاب.

ثمّ قالوا: يا محمّد أخبرنا عن عيرنا فهى أهم إلينا من قولك، هل لقيت فيها شيئًا؟ قال: «نعم مررت على عير بنى فلان وهى بالروحاء وقد أضلوا بعيرًا لهم وهم فى طلبه وفى رحالهم قعب من ماء فعطشت فأخذته فقربته ثمّ وضعته كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء فى القدح حين رجعوا إليه».

قالوا: إن هذه آية واحدة. قال: «ومررت بعير فلان وفلان وفلان راكبان قعودًا لهما ببنى مرة ففرا بكرهما منى فرمى بفلان فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك.

قالوا: وهذه آية أخرى.

قالوا: أخبرنا عن عيرنا نحن؟ قال: «مررت بها بالتنعيم». قالوا: فما عدتها وأحمالها وغنمها؟ قال: «كنت فى شغل من ذلك ثمّ مثلت لى فكأنه بالجزورة وبعدتها وأحمالها وهيئتها ومن فيها» فقال: «نعم هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان تقدمها جعل أورق عليه خزارتان مخيطتان يطلع عليكم عند طلوع الشمس».

قالوا: وهذه آية، ثمّ خرجوا يشدّون نحو (الثلاثة) وهم يقولون: والله لقد قص محمّد شيئًا وبينه حتّى أتوا كدًا فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبون، إذ قال قائل منهم: هذه الشمس قد طلعت. وقال الآخر: وهذه الإبل قد طاعت يتقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال لهم، فلم يؤمنوا ولم يفلحوا وقالوا: ما سمعنا بهذا قط إن هذا إلاّ سحر مبين.

آخر المعراج ولله الحمد والمنة.

فإن قيل: إنما قال الله ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ فَلِم قال: إنه أسرى إلى السماء.

فالجواب أنه قال: إنما قال: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ كان ابتداء أمر المعراج كان المسرى، والعروج كان بعد الإسراء، وقد أخبر الرسول ﷺ وهو الصادق المصدق، والحكمة فيه والله أعلم أنه لو أخبر ابتدأ بعروجه إلى السماء لاشتد إنكارهم وعظم ذلك فى قلوبهم ولم يصدقوه، فأخبر بيت المقدس بها فلما تمكن ذلك فى قلوبهم وبَان لهم صدقه وقامت الحجة عليهم له، أخبر بصعوده إلى السماء العليا وسدرة المنتهى وبقرينة حتّى دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ كما أسرينا بمحمد ﷺ، ﴿وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية يعنى ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ ربًا وشريكًا وكفيلاً.

قرأه العامّة: (يتخذوا) بالياء، يعنى قلنا لهم لا يتخذوا.

وقرأ ابن عبّاس ومجاهد وأبو عمر: بالياء واختاره أبو عبيد قال: لأنه خبر عنهم ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فأنجيناهم من الطوفان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

قال المفسرون: كان نوح (عليه السلام) إذا لبس ثوبًا أو أكل طعامًا أو شرب شرابًا. قال: الحمد لله فسمّى عبدًا شكورًا.

روى النضر بن شقى عن عمران بن سليم قال: إنما سمى نوح (عليه السلام) عبدًا شكورًا لأنه كان إذا أكل طعامًا قال: الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء أجاعنى، فإذا شرب قال: الحمد لله الذى سقانى ولو أشاء أظمأنى وإذا اكتسى قال: الحمد الله الذى كسانى ولو أشاء أعرانى، فإذا اهتدى قال: الحمد لله الذى هدانى ولو أشاء لما هدانى فإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذى أخرج عنى الأذى فى عافية ولو شاء لحبسه.

❖ ❖ ❖

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝﴾

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿حَصِيرًا﴾.

روى سفيان بن سهيل عن منصور بن المعتمر عن ربعى بن خراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ «إن بنى إسرائيل لما اعتدوا وعتوا وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم ملك فارس بختنصر، وكان الله ملكه سبعمائة سنة فسار إليهم حتّى دخل بيت المقدس فحاصرها ففتحها وقتل على دم يحيى بن زكريا (عليه السلام) سبعين ألفًا، ثمّ سبى أهلها وسلب حلى بيت المقدس واستخرج منها سبعين ألفًا ومائة عجلة من حلى (حتى أورده بابل)».

قال حذيفة: يا رسول الله لقد كان بيت المقدس عظيمًا عند الله قال: «أجل بناه سليمان ابن داود من ذهب وياقوت وزبرجد، وكان بلاطه بلاطة من ذهب وبلاطة من فضة أعطاه الله ذلك وسخر له الشياطين يأتونه بهذه الأشياء فى طرفة عين فسار بختنصر بهذه الأشياء حتّى نزل بها بابل وأقام بنو إسرائيل فى يديه مائة سنة يستعبدهم المجوس وأبناء المجوس فهم الأنبياء وأبناء الأنبياء، ثمّ إن الله تعالى رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس يقال له كورش وكان مؤمنًا أن سر إلى بقايا ببنى إسرائيل حتّى يستنقذهم فسبا كورش بنى إسرائيل وحلى بيت المقدس حتّى رده إليه، فأقام بنو إسرائيل مطيعين لله مائة سنة ثم إنهم عادوا فى المعاصى فسلط عليهم ملكًا يقال له: إنطياخوش فغزا بنى إسرائيل حتّى أتى بهم بيت المقدس فسبا أهلها وأحرق بيت المقدس وقال لهم: يا بنى إسرائيل إن عدتم فى المعاصى عدنا عليكم بالسبى، فعادوا فى المعاصى فسلط الله عليهم ملك رومية يقال له: ماقسير بن إسبيانوس فغزاهم فى البر والبحر فسباهم وسبا حلى بيت المقدس وأحرق بيت المقدس».

قال رسول الله ﷺ: «فهذا من صفة حلى بيت المقدس ويرده المهدى إلى بيت المقدس وهو

ألف سفينة وسبعمائة سفينة يرمى بها على يافا حتّى ينقل إلى بيت المقدس هديها يجمع الله الأولين والآخرين».

وقال محمّد بن إسحاق بن يسار: كان مما أنزل الله على موسى فى خبر عن بنى إسرائيل فى أحداثهم وما هم فاعلون بعده ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿حَصِيرًا﴾ فكانت بنو إسرائيل وفيهم الأحداث والذنوب، وكان الله فى ذلك متجاوزًا عنهم متعطفًا عليهم محسنًا إليهم، فكان أول ما أنزل بهم بسبب ذنوبهم من تلك الوقائع كما أخبر على لسان موسى (عليه السلام) أن ملكًا منهم كان يدعى صديقة كان الله عزّ وجلّ إذا ملك الملك عليهم بعث الله نبيًا يسدده ويرشده ويكون فيما بينه وبين الله تعالى، فيتحدث إليهم فى أمرهم لأنزل عليهم الكتب، إنما يؤمرون باتباع التوراة والأحكام التى فيها وينهونهم عن المعصية ويدعونهم إلى ما تركوا من الطاعة، فلما ملك الله ذلك الملك بعث الله أشعياء بن أمصيا وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى، وأشعياء هو الذى بشّر بعيسى ومحمّد ﷺ فقال: أبشروا (. . . .)[1] الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده راكب البعير، فملك ذلك الملك بنى إسرائيل وبيت المقدس زمانًا، فلما انقضى ملكه عظمت الأحداث وأشعياء معه، بعث الله عليهم سنحاريب ملك بابل مع ستمائة ألف راية، فأقبل سائرًا حتّى أقبل حول بيت المقدس والملك مريض فى ساقه قرحة فجاء إلى أشعياء فقال: يا ملك بنى إسرائيل إن سنحاريب ملك بابل قد نزل هو وجنوده بستمائة ألف قد هابهم الناس وفرقوا منهم، فكبر ذلك على الملك. فقال: يا نبى الله هل أتاك وحى من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وبسنحاريب وجنوده.

فقال له النبى (عليه السلام): لم يأت وحى فبينا هم إلى ذلك أوحى الله تعالى إلى أشعياء النبى (عليه السلام) أن ائت ملك بنى إسرائيل فمره أن يوصى بوصيته ويستخلف على ملكه من شاء من أهل بيته، فأتى أشعياء صديقه وقال له: إن ربك قد أوحى إليك أن آمرك أن توصى بوصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فإنك ميت. فلما قال ذلك أشعياء لصديقه أقبل على القبلة وصلى ودعا وبكى فقال وهو يصلى ويتضرع إلى الله تعالى بقلب مخلص متوكل رصين وظن صادق: اللهمَّ رب الأرباب وإله الآلهة قدوس المتقدس يا رحمن يا رحيم يا رءوف الذى لا تأخذه سنة ولا نوم أكرمتنى بعملى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منى بسرى وعلانيتى لك وأن الرحمن استجاب له وكان عبدًا صالحًا، فأوحى الله إلى أشعياء وأمره أن يخبر صديقه الملك أن ربه قد استجاب له

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وقبل منه ورحمه وقد أخر أجله خمس عشرة سنة فأنجاه من عدوه سنحاريب ملك بابل وجنوده فأتاه أشعياء النبى (عليه السلام) وأخبره بذلك، فلما قال ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن وخر ساجداً وقال: يا إلهى وإله آبائى لك سجدت وسبّحت وكرمت وعظمت، أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، عالم الغيب والشهادة أنت الأوّل والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين، أنت الذى أجبت دعوتى ورحمت ضرى فلما رفع رأسه أوحى الله إلى أشعياء أن قل للملك صديقه فيأمر عبداً من عبيده فيأتيه بالتين فيجعله على قرحه فيشفى ويصبح قديراً، ففعل ذلك فشفى، وقال الملك لأشعياء: سل ربك أن يجعل لنا علماً بما هو صانع بعدونا هذا. فقال الله لأشعياء: قل له إنى قد كفيتك عدوك وأنجيتك منهم وأنهم سيصبحون موتى كلهم إلاّ سنحاريب وخمسة نفر من كُتّابه.

فلما أصبحوا جاءه صارخ فصرخ على باب المدينة: يا ملك بنى إسرائيل إن الله قد كفاك عدوك فاخرج فإن سنحاريب ومن معه هلكوا، فلما خرج الملك التمس سنحاريب فلم يوجد فى الموتى فبعث الملك فى طلبه فأدركه الطلب فى مفازة ومعه خمسة من كُتّابه أحدهم بختنصّر، فجعلوهم فى الجوامع ثمّ أتوا بهم ملك بنى إسرائيل فلما رأوهم خرَّ ساجداً حين طلعت الشمس إلى العصر، ثمّ قال لسنحاريب: كيف ترى فعل ربنا بكم؟ ألم نقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون؟ فقال سنحاريب: قد أتانى خبر ربكم ونصره إياكم ورحمته التى رحمكم بها قبل أن أخرج من بلادك فلم أطع مرشداً ولم يلقنى فى الشقوة إلاّ قلة عقلى ولو سمعت وأطعت ما غزوتكم ولكن الشقوة غلبت علىَّ وعلى من معى. فقال صديقه: الحمد لله ربّ العزة الذى (كفاناكم) بما شاء أن يبقيك لى من معك لكرامة لك عليه وإنما أبقاك ومن معك ليزدادوا شقوة فى الدنيا وعذاباً فى الآخرة ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا، فلذلك ودم من معك (آتون) على الله من دم قراد لو قتلت، ثمّ إن ملك بنى إسرائيل أمر أمير جيشه فقذف فى رقابهم الجوامع وطاف بهم سبعين ما حول بيت المقدس، وكان يرزقهم فى كل يوم خبزتين من الشعير لكل رجل منهم.

فقال سنحاريب لملك بنى إسرائيل: القتل خير مما يفعل بنا فافعل ما أُمرت، فأمر بهم الملك إلى سجن القتل فأوحى الله إلى أشعياء النبى (عليه السلام): أن قل لملك بنى إسرائيل ليرسل سنحاريب ومن معه لينذروا من وراءهم وليكرمهم ويحملهم حتى يبلغوا بلادهم، فبلغ أشعياء (للملك ذلك) ففعل، فخرج سنحاريب ومن معه حتّى قدموا بابل فلمّا قدموا جمع

الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده، فقال له كهانته وسحرته: يا ملك (بابل) قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحى الله إلى نبيهم فلم تطعنا، وهى أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم، وكان أمر سنحاريب مما خوفوا، ثمّ كفاهم الله إياه تذكرة وعبرة ثمّ لبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ثمّ مات، واستخلف (بعده) ابن ابنه على ما كان عليه، فعمل فيهم بمثل عمل جده وقضى فى الملك حتّى قتل بعضهم (بعضًا عليه) ونبيهم أشعياء معهم لا يذعنون إليه ولا يقبلون منه، فلما فعلوا ذلك قال الله لأشعياء: قم فى قومك أوح على لسانك.

فلما قام النبى (عليه السلام) أطلق الله لسانه بالوحى، فقال: يا سماء استمعى ويا أرض أنصتى، فإن الله يريد أن يقص شأن بنى إسرائيل الذين رباهم بنعمه واصطنعهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده واستقبلهم بالكرامة وهم كالغنم الضائعة التى لا راعى لها، فآوى شاردتها وجمع ضالتها وجبر كسرها وداوى مريضها وأسمن مهزولها وحفظ سمينها، فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضهم بعضًا حتّى لم يبق منها عظم صحيح يجبر إليه آخر كسير، فويل لهذه الأُمة الخاطئة الذين لا يدرون من أين جاءهم الخير، إن البعيد مما يذكر وطنه فينتابه وإن الحمار مما يذكر الآرى الذى يشبع عليه فيراجعه وإن الثور مما يذكر المرج الذى سمن فيه فينتابه وإن هؤلاء القوم لا يدرون من أين جاءهم الخير وهم أولو الألباب والعقول ليسوا بقرًا ولا حميرًا، وإنى ضارب لهم مثلاً فليستمعوا، قل لهم: كيف ترون فى أرض كانت خواء زمانًا خربة مواتًا لا عمران فيها وكان لها رب حكيم قوى، فأقل عليها بالعمارة وكره أن تخرب أرضه فأحاط عليه جدارًا وشيد فيها قصرًا وأنبط نهرًا وصنف فيها غراسًا من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وألوان الثمار كلها، وولى ذلك واستحفظه قيمًا ذا رأى وهمة ومتعة حفيظًا قويًا أمينًا وانتظرها فلما أطلعت جاء طلعها خروبًا قالوا: بئست الأرض هذه، نرى أن يهدم جدارها وقصورها ويدفن نهرها ويقبض قيّمها ويحرق غرسها حتّى تصير كما كانت أول مرة خرابًا مواتًا لا عمران فيها.

قال الله لهم: فإن الجدار ذمتى وإن القصر شريعتى وإن النهر كتابى وإن القيّم نبيّى وإن الغراس هم وإن الخروب الذى أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة وإنى قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم، وأنهم مثل ضربه الله تعالى لهم يتقربون إلىّ بذبح البقر والغنم وليس ينالنى اللحم ولا آكله، ويدعون أن يتقربون إلىّ بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التى حرمتها فأيديهم مخضوبة منها، وثيابهم متزملة بدمائها، يشيدون لى البيوت مساجد ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها، فأى حاجة إلى تشييد البيوت ولست

أسكنها، أم أى حاجة إلى تزويق المساجد ولست أدخلها إنما أُمرت برفعها لأُذكر فيها وأُسبّح ولتكون مَعلَمًا لمن أراد أن يصلى فيها، يقولون: لو كان الله يقدر على أن يجمع ألفَتَنا لجمعها، ولو كان الله يقدر على (أن) يفقّه قلوبنا لفقهها فاعمد إلى عودين يابسين، ثمّ ائت بهما ناديهما فى أجمع ما يكونون فقل للعودين: إن الله يأمركما أن تكونا عوداً واحداً ففعل، ذلك فى مجلسه اختلطا فصارا واحداً، فقال الله لهم: إنى قد قدرت على أن أفقه العيدان اليابسة وعلى أن أؤالف بينهما فكيف لا أقدر على أن أجمع إلفتهم إن شئت، أم كيف لا أقدر على أن أفقّه قلوبهم وأنا الذى صورتها.

يقولون: صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تقبل صلاتنا وتصدقنا فلم تزك صدقاتنا، ودعونا بمثل (حنين الحمام) وبكينا مثل عواء الذئب فى مكان ذلك لا نسمع ولا يستجاب لنا قال الله: فاسألهم ما الذى يمنعنى أن أستجيب لهم، ألست أسمع السامعين وأُبصر الناظرين وأُقرب المجيبين وأرحم الراحمين؟ الآن ذلّت يدى؟

قلت: كيف ويداى مبسوطتان بالخير أُنفق كيف أشاء ومفاتح الخزائن عندى لا يفتحها غيرى أو لأن رحمتى ضاقت فكيف ورحمتى وسعت كل شىء، إنما يتراحم المتراحمون بفضلها أو لأن (البخل يعترينى) أو لست أكرم الأكرمين والفتاح بالخيرات؟ أجود من أعطى وأكرم من سئل لو أن هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم بالحكمة التى نورت فى قلوبهم فنبذوها واشتروا بها الدنيا إذاً لأبصروا من حيث أتوا وإذاً لأيقنوا أن أنفسهم (هى) أعدى العُداة فيهم، فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور (ويتقوون) عليه بطعمة الحرام؟ وكيف أُنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحاربنى وينتهك محارمى، أم كيف تزكو عندى صدقاتهم؟ وهم يتصدقون بأموال غيرهم وإنما أُؤجر عليها أهلها المغصوبين، أم كيف أستجيب لهم دعاءهم؟ وإنما هو قول بألسنتهم والفعل من ذلك بعيد وإنما أستجيب للداعى اللين وأنا أسمع قول المستضعف المسكين، وإن من علامة رضاى رضا المساكين، فلو رحموا المساكين وقربوا الضعفاء وأنصفوا المظلوم ونصروا المغصوب والمغلوب وأعدلوا الغائب (وأدوا) إلى اليتيم والأرملة والمسكين وكل ذى حق حقه، ثمّ لو كان ينبغى أن أكلم البشر إذاً لكلّمتهم، وإذاً لكنت نور أبصارهم وسمع آذانهم ومعقول قلوبهم وإذاً لدعمت أركانهم وكنت قوة أيديهم وأرجلهم، وإذاً لثبت ألسنتهم وعقولهم.

يقولون لمّا سمعوا كلامى وبلغتهم رسالاتى: إنها أقاويل متقولة وأحاديث متوارثة وتأليف كما يؤلف السحرة والكهنة، وزعموا أنهم لو شاءوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا وأن يطلعوا

على علم الغيب، لاطلعوا بما توحى إليهم الشياطين وكلمهم ويستخفى بالذى يقول ويسرّ وهم يعلمون أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما يبدون وما كانوا يكتمون وإنى قد قضيت يوم خلقت السماء والأرض قضاء أثبته على نفسى وجعلت دونه أجلاً مؤجلاً لا بد أنه واقع، فإن صدقوا بما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه أو فى أى زمان يكون وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل القدرة التى بها أمضيت فإنى مظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وإن كانوا يقدرون على أن يقولوا ما يشاءون فليألفوا مثل الحكمة التى أُدبر بها أمر ذلك القضاء إن كنتم صادقين فإنّى قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض أن أجعل النبوة فى الإجراء وأن أجعل الملك فى الدعاء والعز فى الأذلاء والقوة فى الضعفاء والغنى فى الفقراء والثروة فى الأقلاء (والمدائن فى الفلوات) والأجام فى المغوز والبردة فى الغيطان، والعلم فى الجهلة والحكَم فى الأميين فسلهم متى هذا ومن القيّم بها وعلى يد مَن أسنّه ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون، فإنى باعث لذلك نبيًا أُحيا ليس أعمى من عميان ولا ضالاً من ضالين وليس بفظ ولا غليظ ولا (بصخاب) فى الأسواق (ولا متزين بالفحش) ولا قوال للخنى أُسدده لكل جميل أهب له كل خلق (كريم) أجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل والمعروف سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والإسلام ملته وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة، ثمّ أرفع به بعد (الخمالة) وأشهر به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد المعيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به قلوبًا مختلفة وأهواء متشتتة وأُممًا متفرقة وأجعل أمته خيراً أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إيمانًا بى وتوحيداً لى وإخلاصًا بى يصلون لى قيامًا وقعوداً وركعًا وسجوداً ويقاتلون فى سبيلى صفوفًا وزحوفًا ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضوانى، ألهمتهم التكبير والتوحيد والتسبيح والحمد والمدحة والتمجيد لى فى مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم، يكبرون ويهللون ويقدسون على رءوس الأسواق ويطهرون لى الوجوه والأطراف ويعقدون فى الأنصاف، قربانهم دماؤهم وأناجيلهم فى صدورهم رهابين فى الليل ليوث فى النهار، ذلك فضلى أُوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم.

فلما فرغ نبيهم أشعياء إليهم من مقالته عَدَوْا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة وانفلقت له فدخل فيها (وأدرك الشيطان الشجرة) فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا

المنشار فى وسطها فنشروها حتّى قطعوها وقطعوه فى وسطها، (فاستخلف الله) على بنى إسرائيل بعد قتلهم أشعياء رجلاً منهم يقال له ناشية بن أموص وبعث لهم الخضر نبيًا - واسم الخضر أرميا بن حلفيا - وكان من سبط هارون بن عمران فأما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام (عنها وهى تهتز) خضراء، فقال الله لأرميا حين بعثه نبيًا إلى بنى إسرائيل: يا أرميا من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصورك فى بطن أمك قدستك ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، وذكر الحديث بطوله فى خطبة أرميا لقومه وفتياه التى أفتى به، ودخول بُختنصر وجنوده بيت المقدس فوطئ الشام كما ذكرنا فى سورة البقرة.

فلما رأى أرميا ذلك طار حتّى خالط الوحش ودخل بختنصّر وجنوده بيت المقدس فوطئ الشام وقتل بنى إسرائيل حتّى أفناهم وخرب بيت المقدس، ثمّ أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم قربته ترابًا ثمّ يقذفه فى بيت المقدس فقذفوا فيه التراب حتّى ملئوه، ثم انصرف راجعًا إلى أرض بابل واحتمل معه سبايا بنى إسرائيل وأمرهم أن يجمعوا من كان فى بيت المقدس كلهم فجمعوا عنده كل صغير وكبير من بنى إسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبى.

فلما خرجت غنائم جنده وأراد أن يقسمهم فيهم قالت له الملوك الذين كانوا معه: أيها الملك لك غنائمنا كلها (واقسم بيننا) فلولا الصبيان الذين اخترتهم من بنى إسرائيل، ففعل فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمة وكان من أولئك الغلمان دانيال، وحنانيا، وعزاريا، وماشايل وسبعة آلاف من أهل بيت داود وأحد عشر ألفًا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه ابن يامين، وثمانية آلاف من سبط أشر بن يعقوب، وأربعة عشر ألفًا من سبط زبالون بن يعقوب (ونفتال) بن يعقوب وأربعة آلاف من سبط (يهوذا) بن يعقوب (وأربعة) آلاف من سبط (روبيل ولاوى) ابنى يعقوب ومن بقى من بنى إسرائيل جعلهم بختنصر ثلاث فرق: فثلثًا أقر بالشام وثلثًا سُبى وثلثًا قتل.

وذهب بأبيه بيت المقدس حتّى أقدمها بابل وذهب بالصبيان التسعين الألف حتّى أقدمهم بابل، فكانت هذه الواقعة الأولى التى أنزل الله ببنى إسرائيل بأحداثهم وظلمهم وذلك قول الله ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعنى بختنصر وأصحابه.

ما يروى عن حجاج عن ابن جريج عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال: كان رجل من بنى إسرائيل يقرأ حتّى إذا بلغ ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بكى وفاضت عيناه ثمّ أطبق المصحف وقال: أى رب أرنى هذا الرجل الذى جعلت هلاك بنى إسرائيل على يديه فأرى فى المنام مسكينًا ببابل يقال له: بختنصر فانطلق بمال (وبأعبد له) وكان رجلاً موسراً

(وقيل له أين) تريد؟

قال : أريد النجارة حتّى نزل داراً ببابل (فأستكبر) إلهًا ليس فيها أحد غيره فجعل يدعو المساكين ويتلطف بهم حتى لا يأتيه أحد فقال : هل بقى غيركم مسكين؟ قالوا : نعم مسكين (يفتح الفلان مريض) يقال له : بختنصر ، فقال لغلمانه : انطلقوا حتى أتاه ، فقال : ما اسمك؟ قال : بختنصر ، فقال لغلمانه احتملوه فنقل عليه فمرّضه حتّى برأ فكساه وأعطاه نفقة ثمّ أذن الإسرائيلى بالرحيل فبكى بختنصر ، فقال الإسرائيلى : ما يبكيك؟

قال : أبكى أنك فعلت بى ما فعلت ولا أجد شيئًا أجزيك ، قال : بلى شيئًا يسراً إن ملكت أطعتنى فجعل لا يتبعه فيما سأل فقال : تستهزئ بى ولا يمنعه أن يعطيه ما سأل إلاّ أنه يرى أنه يستهزئ به قبلى الإسرائيلى ، فقال : لقد علمت ما يمنعك أن تعطينى ما سألتك إلاّ أن الله يريد أن ينفذ ما قد قضى وكتب فى كتابه وضرب الدهر من ضربه .

قال صيحورا ملك فارس ببابل : لو أنا بعثنا طليعة إلى الشام قالوا : وما ضرك لو فعلت؟ قال فمن ترون قال : فلا فبعث رجلاً وأعطاه مائة ألف وخرج بختنصر فى مطبخه لا يخرج إلاّ ليأكل فى مطبخه .

فلما قدم الشام رأى صاحب الطليعة أكثر أرض الله فرسًا ورجالاً (جاء وقد كسر) ذلك فى ذرعه فلم يسأل قال : فجعل بختنصر يجلس مجالس أهل الشام فيقول : ما يمنعكم أن تغزوا بابل فإذا غزوتموها ما دون بيت ما لها شىء .

فلما قدم الشام رأى صاحب الطليعة أكثر أرض الله فرسًا ورجالاً (جاء وقد كسر) ذلك فى ذرعه فلم يسأل قال : فجعل بختنصر يجلس مجالس أهل الشام فيقول : ما يمنعكم أن تغزوا بابل فإذا غزوتموها ما دون بيت مالها شىء .

قال : لا نحسن القتال ، قال : ولو أنكم غزوتم قالوا : لا نحسن القتال ولا نقاتل حتّى أنفذ مجالس أهل الشام ، ثمّ رجعوا فأخبر الطليعة ملكهم بما رأى وجعل بختنصر يقول لفوارس الملك : لو دعانى الملك لأخبرته غير ما أخبره فلان ، فرفع ذلك إليه فدعاه فأخبره الخبر وقال : إن فلانًا لما رأى أكثر أرض الله فرسًا ورجالاً جلدًا كبر ذلك فى روعه ولم يسألهم عن شىء ، قال : لم أدع مجلسًا شيئًا بالشام (الآجال واصلة) فقلت لهم : كذا وكذا ، فقالوا لى : كذا وكذا .

قال سعيد بن جبير : وقال صاحب الطليعة لبخت نصر : إن صحبتنى أعطى لك مائة ألف وتنزع عما قلت . قال : لو أعطيتنى بيت مال بابل لما نزعت فضرب الدهر من ضربة ، فقال

الملك: لو بعثنا جريدة خيل إلى الشام، فإن وجدوا مساغًا وإلا انثنوا ما قدروا عليه، قال: وما ضرّك لو فعلت، قال: فمن ترون؟ قالوا: فلان. قال: هل الرجل الذى (أخبرنى بما أخبرنى) فدعا بختنصر فأرسله وانتخب معه أربعمائة ألف من فرسانهم فانطلقوا ﴿فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ (فسبوا) ما شاء الله ولم (يخرّبوا) ولم يقتلوا، ومات (صيحون فقالوا): استخلفوا رجلاً، قالوا: على رسلكم حتّى يأتى أصحابكم فإنهم فرسانكم لن ينقضوا عليكم شيئًا، أمهلوا فأمهلوا حتّى جاء بختنصر (بالسبى) وما معه فقسمه فى الناس، فقالوا: ما رأينا أحدًا أحق بالملك من هذا فملكوه.

وقال السدى بإسناده: إن رجلاً من بنى إسرائيل رأى فى النوم أن خراب بيت المقدس هلاك بنى إسرائيل (خلى إلىَّ) غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل يدعى بختنصر وكانوا يصدقون فيصدق، فأقبل يسأل عنه حتّى (نزل على أبيه) وهو يحتطب فلما جاءوا على رأسه حزمة من حطب ألقاها ثمّ قعد فى جانب من البيت فكلمه ثمّ أعطاه ثلاثة دراهم، فقال: اشتر بهذا طعامًا وشرابًا واشتر بدرهم لحمًا وبدرهم خبزًا وبدرهم خمرًا، فأكلوا وشربوا حتّى كان اليوم الثانى فعل به مثل ذلك، حتّى إذا كان اليوم الثالث فعل به مثل ذلك، ثمّ قال: إنى أحب أن (تكتب لى أمانًا) إن كنت ملكت يومًا من الدهر، فقال: أتسخر منى؟ قال: إنى لا أسخر بك (ولكن ما عليك لن تتخذ) بها عندى مريدًا فكلمته آية، فقالت: يا ملك إن كان مالاً لم ينقصك شيئًا فيكتب به أمانًا، فقال: أرأيت إن جئت والناس حولك قد حالوا بينى وبينك فاجعل لى آية تعرفنى بها، قال: ترفع صحيفتك على قصبة فأعرفك بها فكساه وأعطاه.

ثمّ إن ملك بنى إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا (عليهما السلام) ويدنى مجلسه ويستشيره فى أمره ولا يقطع أمرًا دونه (فإنه هوى) أن يتزوج بنت امرأة له، فسأل عن ذلك يحيى فنهاه عن نكاحها، قال: لست أرضاها لك، فبلغ ذلك أمها فحقدت على (يحيى) حين نهاه أن يتزوج ابنتها (فذهبت إلى جارية) حين حس الملك على شرابه، فألبستها ثيابًا رقاقًا خضراء وطيبتها وألبستها من الحلى وألبستها فوق ذلك كساء أسود فأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه وأن تتعرض له فإن راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته، فإذا أعطاها ذلك سألته أن يأتى برأس يحيى بن زكريا (عليهما السلام) فى طست، ففعلت فجعلت تسقيه وتعرض له فلما أخذ منه الشراب راودها عن نفسها، فقالت: لا (أقبل) حتّى تعطينى ما أسألك، قال: ما تسألين؟ قالت: أسألك أن تبعث إلىَّ يحيى بن زكريا فتأتى برأسه فى هذا الطست، فقال الملك: سلينى غير هذا.

قالت: ما أُريد إلاّ هذا، فلما أبت عليه بعث إليه فأتى برأسه (والرأس يتكلم) فى الطست حين وضع بين يديه وهى تقول (لا يحل لك)، فلما أصبح إذ دمه يغلى فأمر بتراب فألقى عليه فرمى الدم فوقه فلم يزل يلقى عليه من التراب حتّى بلغ سور المدينة وهو يغلى وبلغ صحابين فثار فى الناس وأراد أن يبعث إليهم جيشًا أو يؤمر عليهم رجلاً.

فأتاه بختنصر فكلمه وقال: إن الذى كنت أرسلته تلك المرة ضعيف وإنى قد دخلت المدينة وسمعت كلام أهلها (فابعثنى) فبعثه فسار بختنصر حتّى إذا بلغوا ذلك المكان (تحصنوا) منه فى مدائنهم فلم يطقهم فلما اشتدّ عليهم المقام وجاع أصحابه أرادوا الرجوع، فخرجت إليه عجوز من عجائز بنى إسرائيل فقالت: أين أمير الجند؟ فأتى بها إليه فقالت له: إنه قد بلغنى أنك تريد (. . . .)[1] ثمّ ترجع بجندك قبل أن تفتح هذه المدينة، قال: نعم، قد طال مقامى وجاع أصحابى لست أستطيع المقام فوق الذى كان منى، فقالت: أرأيتك إن فتحت لك المدينة أتعطينى ما أسألك (فتقتل) من أمرتك بقتله وتكف إن أمرتك أن تكف؟ قال لها: نعم، قالت: إذا أصبحت فاقسم جندك أربعة أرباع ثمّ أقم على كل زاوية ربعًا ثمّ ارفعوا أيديكم إلى السماء فنادوا: إنا نستفتحك يا الله بدم يحيى بن زكريا فإنها سوف تتساقط، ففعلوا فتساقطت المدينة ودخلوا من جوانبها فقالت له: كف يدك وأقبل على هذا الدم حتى يسكن وانطلقت به إلى دم يحيى وهو على (تراب كثيرة) فقتل عليه حتّى سكن فقتل سبعين ألفًا فلما سكن الدم، قالت له: كف يدك فإن الله تعالى إذا قتل نبى لم يرض حتّى يقتل من قتله ومن رضى قتله، وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفة فكف عنه وعن أهل بيته وخرب بيت المقدس وأمر أن يطرح الجيفة فيه، وقال: من طرح جيفة فيه فله جزيته تلك السنة وأعانه الله على خرابة الروم من أجل أن بنى إسرائيل قتلوا يحيى.

فلما خربه بختنصر ذهبت معه بوجوه بنى إسرائيل وأشرافهم وذهب بدانيال وعليا وعزاريا وميشائيل هؤلاء كلهم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت، فلما قدم أرض بابل وجد صحابين قد مات فملك مكانه وكان أكرم الناس عليه دانيال وأصحابه حسدهم المجوس على ذلك فوشوا بهم إليه وقالوا: إن دانيال وأصحابه لا يعبدون إلهك وإنما يعبدون غيره ولا يأكلون ذبيحتك فدعاهم فسألهم فقالوا: أجل إن لنا ربًا نعبده ولسنا نأكل من ذبيحتكم فأمر بخد فخدّ لهم فألقوا فيه وهم ستة وألقى معهم سبعًا ضاريًا ليأكلهم ففعلوا ذلك فانطلقوا ليأكلوا ويشربوا فذهبوا فأكلوا وشربوا ثمّ راحوا فوجدوهم جلوسًا والسبع مفترش ذراعيه

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

بينهم لم يخدش منهم أحدًا ولم ينكأه شيئًا ووجدوا معهم رجلاً فعدوهم فوجدوهم سبعة فقالوا: ما بال هذا السابع وإنما كانوا ستة فخرج إليهم السابع وكان ملكًا من الملائكة فلطمهُ لطمة فصار فى الوحش ومسخه الله سبع سنين فيه.

ثمّ إن بختنصر رأى رؤيا عبّرها له دانيال (عليه السلام)، وهو ما روى إسماعيل بن عبد الكريم عن عبد الصمد بن معقل أنه سمع راهبًا يقول: إن بختنصر رأى فى آخر زمانه صنمًا رأسه من ذهب وصدره من فضة وبطنه من نحاس وفخذاه من حديد وساقاه من فخار، ثمّ رأى حجرًا من السماء وقع عليه قذفه ثمّ أتاه الحجر حتّى ربا فملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأى شجرة أصلها فى الأرض وفروعها فى السماء ثمّ رأى رجلاً بيده فأس، وسمع مناديًا ينادى: اضرب بجذعها لتفرق الطير من فروعها وتفرق الدواب والسباع من تحتها، وأنزل (. . . .)[1] عبرها له دانيال (عليه السلام).

قال: أما الصنم الذى رأيت فأتيت الرأس الذهب فأنت أفضل الملوك، وأما الصدر الذى (رأيت) من فضة فابنك يملك من (بعدك)، وأما البطن الذى رأيت من نحاس فذلك يكون من بعد (ابنك) وأما ما رأيت من الفخذ من حديد فهو ملك أهل فارس يكون ملكهم شديدًا مثل الحديد، وأما الرجل من فخار فتفرق أهل فارس فرقتين ولا يكون فيهم حينئذ قوام كما لم يكن قوام الصنم على رجلين من فخار، وأما الحجر الذى ربا حتّى ملأ ما بين المشرق والمغرب فنبى يبعثه الله فى آخر الزمان فيفرق ملكهم كله فيربو ملكه حتّى يكون ما بين المشرق والمغرب.

وأما الشجر الذى رأيت والطير الذى عليها والسباع والدواب التى تحتها وما أمر (بقطعها فيذهب) ملكك فيردك الله طائرًا يكون شر ملك الطير ثمّ يردك ثورًا ملك الدواب ثمّ يردك الله أسدًا ملك السباع والوحش سبع سنين كان مسخه كله سبع سنين. فى ذلك كله قلبك قلب إنسان حتّى تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وهو يقدر على الأرض ومن عليها، وما رأيت أصلها (قائمًا) فإن ملكك قائم، فمسخ بختنصر نسرًا من الطير وثورًا من الدواب وأسدًا من السباع ثمّ ردّ الله إليه ملكه فأمن ودعا الناس إلى الله.

(وسئل وهب بن منبه) أكان مؤمنًا؟ قال: وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فيه، فمنهم من قال: مات مؤمنًا، ومنهم من قال: أحرق بيت الله وكتبه وقيد الأنبياء، وغضب الله عليه غضبًا، فلم يقبل منه حينئذ توبته.

وقال بختنصر لما رجع إلى صورته ثانية بعد المسخ (فردّ الله) إليه ملكه: كان دانيال

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وأصحابه أكرم الناس عليه فحسدتهم المجوس وقالوا لبخت نصر: إن دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه أن يبول، وكان ذلك فيهم عاراً فجعل لهم بختنصر طعامًا فأكلوا وشربوا وقال للبواب: انظر أول من يخرج عليك ليبول فاضربه بالطبرزين وإن قال: أنا بختنصر، فقل: كذبت بختنصر أمرنى به فحبس الله عن دانيال البول وكان أول من قام من القوم يريد البول بختنصر وكان مدلاً وكان ليلاً، فقام يسحب ثيابه فلما رآه البوّاب شد عليه فقال: أنا بختنصر قال: كذبت بختنصر أمرنى أن أقتل أول من يخرج فضربه فقتله.

وأما محمّد بن إسحاق بن يسار فإنه قال: فى هلاك بختنصر غير ما قال السدى، وذلك أنه قال بإسناده: لما أراد الله (. . . .)[1] ليبعث فقال لمن كان فى (. . . .)[1] وكان يعذبه من بنى إسرائيل: أن أتمم هذا البيت الذى خربته وهؤلاء الناس الذين قلت من هم وما هذا البيت، فقالوا: هذا بيت الله ومسجد من مساجده وهؤلاء أهله، كانوا من (ذرارى الأنبياء) وظلموا (وتعذروا) وعصوا عليهم بذنوبهم وكان ربهم رب السموات والأرض ورب الخلق كلهم يكرههم ويمنعهم (ويحرمهم)، فلما فعلوا ما فعلوا أهلكهم الله وسلط عليهم غيرهم.

قال: فأخبرونى ما الذى يطلع بى إلى السماء العليا لعلى أطلع عليها فأقبل من فيها وأتخذها ملكًا فإنى قد (فرغت) من الأرض ومن فيها، قالوا: ما يقدر عليه أحد من الخلائق، قال: لتفعلن (أو لأقتلنكم عن آخركم) فبكوا إلى الله وتضرعوا إليه، فبعث الله عليه بقدرته بعوضة ليرى ضعفه وهوانه فدخلت فى منخره ثمّ سلفت فى منخره حتّى عضت بأم الدماغ، فما كان (يقر ولا يسكن) حتّى توجأ له رأسه على أم دماغه فلما عرف الموت قال لخاصته من أهله: إذا مت فشقوا رأسى وانظروا ما هذا الذى قتلنى، فلما مات شق رأسه فوجد البعوضة عاضة بأم دماغه، ليرى الله العباد قدرته وسلطانه ويحيى الله من كان بقى فى يديه من بنى إسرائيل وترحم عليهم وردهم إلى إيليا والشام فبنوا فيها وأربوا وكثروا حتّى كانوا على أحسن ما كانوا عليه.

ويزعمون أن الله تعالى اختار توليت الموتى الذين قتلوا ولحقوا بهم، ثمّ إنهم لما رجعوا إلى الشام وقد أحرق التوراة (وليس معهم عهد) من الله جدد الله توراته وردها عليهم على لسان عزير (عليه السلام) وقد مضت القصة، فهذا الذى ذكرت جميع أمر بختنصر على ما جاء فى التفسير المعتمد فى أخبار الأنبياء، إلاّ أن رواية من روى أن بختنصر هو الذى غزا بنى إسرائيل عند (قتلهم) يحيى بن زكريا غلط (أهل السير) والأخبار والعلم بأُمور الماضين من أهل الكتاب

(١) بياض بالأصل المخطوط.

والمسلمين، ذلك أنهم مجمعون على أن بختنصر غزا بنى إسرائيل عند قتلهم نبيهم أشعياء وفى عهد أورميا بن حلفيا (عليه السلام) وهى الوقعة الأولى التى قال الله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعنى بختنصر وجنوده، قالوا ومن عهد أورميا وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى عهد يحيى بن زكريا أربعمائة وإحدى وستون سنة، وذلك أنهم يعدون من لدن تخريب بختنصر بيت المقدس إلى حين (عمارته فى عهد كوسك) سبعين سنة، ثمّ من بعد عمرانه إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس وحيازة ملكها إلى مملكة الإسكندر ثمانيةً وثمانين سنة، ثمّ من بعد مملكة الإسكندر إلى موت يحيى بن زكريا (عليه السلام) بثلاثمائة وثلاث وستين، ويروى بثلاثمائة سنة وثلاث سنين.

وإنما الصحيح من ذلك ما ذكر محمّد بن إسحاق بن يسار قال: كثر عن بنى إسرائيل بعدما عمرت الشام وعادوا إليها بعد إخراب بختنصر إياها وسبيهم منها، فجعلوا بعد ذلك يحدثون الأحداث بعد مهلك عزير (عليه السلام) ويتوب الله عليهم وبعث الله فيهم الأنبياء وفريقًا يكذبون وفريقًا يقتلون حتّى كان آخر من بعث الله فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى وكانوا من بيت آل داود، فمات زكريا وقتل يحيى بسبب رغبة الملك عن نكاح ابنته، فى قول عبد الله بن الزبير وبنت أخته فى قول السدى وبنت أخيه فى قول ابن عبّاس.

وهو الأصح إن شاء الله، لما روى الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير قال: بعث عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس، وكان مما نهوهم نكاح بنت الأخ، قال: وكانت لملكهم بنت أخ تعجبه يريد أن يتزوجها وكانت لها فى كل يوم حاجة يقضيها، وذكر الحديث بطوله فى مقتل يحيى.

رجعنا إلى حديث ابن إسحاق، فلما رفع الله موسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى بن زكريا، وبعض الناس يقول: قتلوا زكريا انبعث عليهم ملك من ملوك بابل يقال له: خردوس فسار إليهم بأهل بابل حتّى دخل عليهم الشام، فلما ظهر عليهم أمر رأسًا من رؤوس جنوده يدعى (نبور زاذان) صاحب القتل فقال له: إنى قد كنت حلفت بإلهى لئن أنا ظهرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتّى تسيل دماؤهم فى وسط عسكرى، إلاّ أنى لا أجد أحدًا أقتله، فأمره أن يقتلهم حتّى يبلغ ذلك منهم نبور زاذان، فدخل بيت المقدس وكان فى البقعة التى كانوا يقربون فيها قربانهم (فوجد فيها دمًا يغلى) فسألهم عنه، قالوا: هذا دم قربان قربناه فلم يقبل منا فلذلك هو يغلى كما تراه ولقد قربنا منذ ثمانمائة سنة القربان فتقبل منا إلاّ هذا القربان، قال: ما صدقتمونى الخبر قالوا له: لو كان كأول زماننا لقبل منا ولكنه قد انقطع منا الملك

والنبوة والوحى فلذلك لم يتقبل منا فذبح منهم (نبور زاذان) على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رأسًا من رؤسائهم فلم يهدأ فأمر بسبعة آلاف من شيعهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يبرد ولم يهدأ فلما رأى نبور زاذان أن الدم لا يهدأ قال لهم: ويلكم يا بنى إسرائيل اصدقونى واصبروا على أمر ربكم (فقد طال) ما ملكتم فى الأرض، تفعلون فيها ما شئتم قبل أن لا أترك نافخ نار لا أنثى ولا ذكر إلا قتلته فلما (رأوا الجهد) وشدة القتل صدقوهُ القول فقالوا له: إن هذا دم نبى منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله فلو أطعناه فيها لكان أرشد لنا وكان يخبرنا بالملك فلم نصدقه فقتلناه فقال لهم نبور زاذان: ما كان اسمه؟ قال: يحيى بن زكريا، قال: وهل صدقتمونى، بمثل هذا ينتقم منكم ربكم، فلما رأى نبور زاذان أنهم قد صدقوه خرَّ ساجدًا وقال لمن حوله: أغلقوا أبواب المدينة واجمعوا من كان هاهنا من جيش خردوس وخلا فى بنى إسرائيل.

قال: يا يحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم من أجلك فاهدأ بإذن الله قبل أن لا يبقى من قومك أحد، فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله، ورفع نبور زاذان عنهم القتل (وقال: آمنت بما آمنت به بنو إسرائيل وصدقت به وأيقنت أنه لا رب غيره، ولو كان معه آخر لم يصلح ولو كان له شريك لم تستمسك السموات والأرض، ولو كان له ولد لم يصلح، فتبارك وتقدس وتسبح وتكبر وتعظم ملك الملوك الذى له ملك السموات السبع والأرض وما فيهن وما بينهن، وهو على كل شىء قدير فله الحكم والعلم والعزة والجبروت وهو الذى بسط الأرض وألقى فيها رواسى لئلا تزول، فكذلك ينبغى لربى أن يكون ويكون ملكه) فأوحى الله تعالى إلى رءوس من رءوس بقية الأنبياء أن نبور زاذان حبور صدوق.

وإن نبور زاذان قال لبنى إسرائيل: يا بنى إسرائيل إن عدو الله خردوس أمرنى أن أقتل منكم حتّى تسيل دماؤكم وسط عسكره وإنى لست أستطيع أن أعصيه قالوا له: افعل ما أُمرت به فأمرهم فحفروا خندقًا وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحها حتّى سال الدم فى العسكر وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم حتّى كانوا فوقهم، فلم يظن خردوس إلا أن ما كان فى الخندق من بنى إسرائيل فلما بلغ الدم عسكره أرسل إلى نبور زاذان أن ارفع عنهم القتل فقد بلغنى دماؤهم (وقد انتقمت منهم لما فعلوا) ثمّ انصرف عنهم إلى بابل وقد أفنى بنى إسرائيل أو كاد، وهى الوقعة الأخيرة التى أنزل الله ببنى إسرائيل فى قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿مَرَّتَيْنِ﴾ الآيات.

وكانت الوقعة الأولى: بختنصر وجنوده ثمّ ردّ الله لهم الكرة عليهم وكانت الوقعة الأخيرة خردوس وجنوده فلم (. . . .)[1] همام بعد ذلك (. . . .)[1] فانتقل الملك بالشام ونواحيها إلى الروم واليونان، ثم إن بنى إسرائيل كثروا وانتشروا بعد ذلك وكانت لهم ببيت المقدس (بزواجها) على غير وجه الملك وكانوا فى أُهبة ومنعَة إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث وانتهكوا المحارم وضربوا الحدود فسلط الله عليهم ططوس بن سيبانو الرومى، فأخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم الملك والرئاسة وضرب عليهم الذلة، فليسوا فى أمة من الأمم إلاّ وعليهم (الصغار) والملك فى غيرهم وبقى بيت المقدس خرابًا إلى أيام عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) عمّره المسلمون بأمره.

وروى أبو عوانة عن أبى بشير قال: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآيات، فقال: أما الذين ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ فكان مرحا بن الجزرى ﴿فَإِذَا جَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿تَتْبِيرًا﴾ فكان جالوت الجزرى شعبة من (. . . .)[1].

ثمّ قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿تَتْبِيرًا﴾ قال: هذا بختنصر الذى خرب بيت المقدس.

ثمّ قال لهم بعد ذلك ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ (على هذا ثمّ) ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ قال فعادوا فعيد عليهم فبعث الله عليهم ملك الروم ثمّ عادوا أيضًا فعيد عليهم فبعث الله عليهم ملك (. . . .)[1] ثمّ عادوا أيضًا فعيد عليهم سابور ذو الأكتاف.

قتادة فى هذه الآية (وقضينا) قضى على القوم كما تسمعون فبعث عليهم فى الأولى جالوت، فسبى وقتل وخرب ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾، ثمّ رددنا لكم يا بنى إسرائيل الكرة عليهم والملك فى زمان داود (عليه السلام) ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ آخر الكرتين بعث الله عليهم بختنصر أبغض خلق الله، فسبى وقتل وخرب بيت المقدس وسامهم سوء العذاب، ثمّ قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ فعاد الله إليهم برحمته ثمّ عاد (الله إليهم بشر بما عذبهم، فبعث الله عليهم ما شاء أن يبعث من آفته وعقوبته، ثمّ بعث الله عليهم هذا الحى من العرب كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ (الأعراف: ١٦٧) (. . . .)[1].

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أى أخبرناهم وعلمناهم ما آتيناهم من الكتب.

وقال ابن عبّاس وقتادة: يعنى وقضينا عليكم، وعلى هذا التأويل يكون (إلى) بمعنى

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

(على) وبمعنى بالكتاب اللوح المحفوظ، ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ قيل: لام القسم مجازه: والله لتفسدن ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ بالمعاصى ﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾ ولتستكبرن ولتظلمن الناس ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ يعنى أولى المرتين واختلفوا فيها فعلى قول قتادة: إفسادهم فى المرة الأولى ما خالفوا من أحكام التوراة (وحكموا) ربهم ولم يحفظوا أمر نبيهم موسى (عليه السلام) وركبوا المحارم وتعدوا على الناس.

وقال السدى: فى خبر ذكره عن أبى مالك وأبى جهل عن ابن عبّاس وعن أمية الهمذانى عن ابن مسعود: إن أول الفسادين قتل زكريا.

وقال ابن إسحاق: إن إفسادهم فى المرة الأولى قتلهم أشعياء بن أمصيا فى عهد أرمياء فى الشجرة.

وقال ابن إسحاق: إن بعض أهل العلم أخبره أن زكريا مات موتًا ولم يقتل وأن المقتول هو أشعياء (عليه السلام).

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ يعنى (جالوت الجزرى) وجنوده وهو الذى قتله داود.

قال قتادة: وهى رواية العوفى عن ابن عبّاس، وقال أبو المعلى ويعلى عن سعيد بن جبير: هم صحاريب من أهل نينوى، وهى الموصل.

أبو بشير عنه: صرخان الخزرى، وقال ابن إسحاق: بختنصر البابلى وأصحابه.

﴿أُو۟لِى بَأْسٍ﴾ يعنى بطش، وفى الحرب ﴿شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟﴾ أى خافوا وداروا.

قال ابن عبّاس: مشوا، الفراء: قتلوكم بين بيوتكم.

وأنشد لحسان:

ومنا الذى لاقى بسيف محمّد فجاس به الأعداء عرض العساكر

أبو عبيدة: طلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أى يطلبها.

القتيبى: (عاشوا وقتلوا) وأفسدوا.

ابن جرير: طافوا من الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين فجمع التأويلات.

وقرأ ابن عبّاس: ﴿فَجَاسُوا۟﴾ بالهاء ومعناها واحد.

﴿خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ قضاء كائنًا لا خلف فيه ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ الرجعة والدولة ﴿عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ عددًا.

قال القتيبى: والنفير من نفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته، يقال: النفير والنافر، وأصله القدير والقادر.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ يا بنى إسرائيل ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لها ثوابها ونفعها ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أى فعليها كقوله: ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ﴾ (الواقعة: ٩١) أى عليك.

وقال محمّد بن جرير: قالها كما قال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ (الزلزلة: ٥) أى إليها، وقيل: فلها الجزاء والعقاب.

وقال الحسين بن الفضل: يعنى فلها رب يغفر الإساءة.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أى المرة الآخرة من إفسادكم وذلك على قصدهم قتل عيسى (عليه السلام) يحيى حين رُفع، وقتلهم يحيى بن زكريا (عليه السلام) فسلط الله عليهم الفُرس والروم (. . . .)[1] قتلوهم وسبوهم ونفوهم عن بلادهم وأخذوا بلادهم وأموالهم فذلك قوله ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أى ليحزن، واختلف القراء فيه، فقرأ الكسائى: (لنسوء) بالنون وفتح الهمزة على التعظيم اعتباراً، وقضينا وبعثنا ورددنا وأمددنا وجعلنا.

وروى ذلك عن على (رضى الله عنه): وتصديق هذه القراءة قرأ أُبى بن كعب: (لنسوءنّ) وجوهكم بالنون وحرف التأكيد.

وقرأ أهل الكوفة: بالياء على التوحيد، ولها وجهان: أحدهما: ليسوء الله وجوهكم، والثانى: ليسوء (العدو) وجوهكم.

وقرأ الباقون: (ليسؤ وجوهكم) بالياء وضم الهمزة على الجمع، بمعنى ليسؤ العباد أولى بأس شديد وجوهكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ يعنى بيت المقدس ونواحيه ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ وليهلكوا أو ليدمروا ﴿مَا عَلَوْا﴾ غلبوا عليه (تدميرا) ﴿تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ﴾ لعلّ ﴿رَبُّكُمْ﴾ يا بنى إسرائيل ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد انتقامهم منكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾.

قال ابن عبّاس: وإن عدتم إلى المعصية عدنا إلى العقوبة، فعادوا فبعث الله عليهم محمداً رسول الله ﷺ يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ معيناً سجنًا ومحبسًا من الحصر وهو الحبس، والعرب تسمى (النخيل) حصوراً والملك حصيراً، لأنه محجوب ومحبوس عن الناس.

قال لبيد:

وقماقم غلب الرقاب كأنهم ... جن لدى باب الحصير قيام

أى باب الملك ومنه: انحصر فى الكلام إذا (احتبس عليه) وأعياه، والرجل الحصور عن النساء وحصر الغائط.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال الحسن ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أى فراشًا ومهادًا، ذهب إلى الحصير الذى يفرش، وذلك أن العرب تسمى البساط الصغير حصيرًا، وهو وجه حسن وتأويل صحيح.

❖ ❖ ❖

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أى الطريقة التى (هى أسد وأعدل وأصوب) ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وهو الجنة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهى النار ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ﴾ حذفت الواو هنا فى اللفظ والخط ولم تحذف فى المعنى لأنها فى موضع رفع وكان حذفها باستقالتها اللام الساكنة كقوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (العلق: ١٨)، ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ (الشورى: ٢٤)، ﴿يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النساء: ١٤٦)، ﴿يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ (ق: ٤٧)، ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (القمر: ٥) ومعنى الآية ويدع الإنسان على (ماله وولده ونفسه بالسوء) وقوله عند الضجر والغضب: اللهم العنه اللهم أهلكه ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أى كدعائه ربه أن يهب له العافية والنعمة ويرزقه السلامة فى نفسه وماله وولده (بالشر لهلك) ولكن الله بفضله لا يستجيب له فى ذلك، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ (يونس: ١١)، ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ عجلاً بالدعاء على ما يكره أن يستجاب له فيه.

قال مجاهد وجماعة من المفسرين، وقال ابن عبّاس: (يريد) ضجرًا لا صبرًا له على سراء ولا ضرّاء.

وقال قوم من المفسرين: أراد بالإنسان آدم.

قال سلمان الفارسي: أول ما خلق الله من آدم رأسه، فجعل ينظر وهو يخلق جسده فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لم يبث فيها الروح، فقال: يا رب عجّل قبل الليل فذلك قوله ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾.

وروى الضحاك عن ابن عبّاس قال: لما خلق الله رأس آدم نظر إلى جسده فأعجبه، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ وقيل: المراد آدم فإنه لما اهتدى للصح إلى سترته ذهب لينهض فسقط. يروى أنه علم وقع أسيرًا إلى سودة بنت زمعة فرحمته لأنينه فأرخت من كتافه فهرب فدعا النبي عليها بقطع اليد ثم ندم فقال: اللهم إنما أنا بشر فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له فنزلت هذه الآية.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ دلالتين وعلامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا وعدد السنين والحساب ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال أبو الطفيل: سأل ابن الكواء عليًا (رضي الله عنه) فقال: ما هذا السواد في القمر؟ فقال علي: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ وهو المحو.

وقال ابن عباس: الله نور الشمس سبعين جزءًا ونور القمر سبعين جزءًا فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءًا فجعله مع نور الشمس فالشمس على مائة وتسعة وثلاثين جزءًا والقمر على جزء واحد.

﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ وهي الشمس ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ منيرة مضيئة.

وقال أبو عمرو بن العلاء: يعني بصرها.

قال الكسائي: هو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء وصار بحالة يبصرها.

وقال بعضهم: هو كقولهم: (رجل خبيث مخبث إذا كان أصحابه خبثاء ورجل مضعف إذا كانت دوابه ضعافًا فكذلك النهار مبصرًا إذا كان أهله بصراء)[1].

﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ بيناه تبيينًا.

مقاتل بن علي عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى لما أبرم خلقه فلم يبق من خلقه غير آدم خلق شمسًا من نور عرشه وقمرًا فكانا جميعًا شمسين فأما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمسًا فإنه خلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كان في سابق علمه أن يطمسها فيحولها قمرًا فخلقها دون الشمس من العظيم ولكن

(١) بياض بالأصل المخطوط. وما بين القوسين من القرطبي (١٠/ ٢٢٩).

إنما يرى صغرهما من شدة ارتفاع السماء وبعدهما عن الأرض، فلو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل ولا كان يدرك الأجير إلى متى يعمل ومتى يأخذ أجره ولا يدرى الصائم إلى متى يصوم ومتى يفطر، ولا تدرى المرأة كيف تعتد ولا يدرى المسلمون متّى وقت صلاتهم ومتى وقت حجهم، ولا يدرى الديان متّى يحل دينهم ولا تدرى الناس متى يبذرون ويزرعون لمعاشهم ومتى يسكنون لراحة أبدانهم فكان الرب سبحانه أنظر لعباده وأرحم بهم فأرسل جبرائيل (فأمّر) جناحه على وجه القمر وهو يومئذ شمس فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (والسواد) الذى ترونه فى جوف القمر يشبه الخطوط، فهو أثر المحو.

﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال ابن عباس: وما قدر عليه (من خير وشر) فهو ملازمه أينما كان.

الكلبى ومقاتل: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به (وتلا الحسن: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (ق:١٧)) ثمّ قال يا بن آدم بسطت لك صحيفتك ووكل بك ملكان أحدهما عن يمينك والآخر (عن يسارك فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا).

مجاهد: عمله ورزقه، وعنه: ما من مولود يولد إلاّ وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى أو سعيد.

وقال أهل المعانى: أراد بالطائر ما قضى عليه (أنه) عامله فيما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة، وإنّما عبر عنه بالطائر على عادة العرب كما كانت تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها.

أبو عبيد والعينى: أراد بالطائر حظه من الخير والشر من قولهم طار منهم فلان بكذا أى جرى له الطائر بكذا.

وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء: ﴿طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ بغير ألف وإنّما خص عنقه دون سائر أعضائه، لأن العنق موضع السمات وموضع القلائد والأطراف وغير ذلك مما يشين أو يزين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة إلى الأعناق فيقولون هذا فى عنقى حتّى أخرج منه وهذا الشىء (لازم صليت) عنقه.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا﴾ قرأ الحسن ومجاهد وابن محيصن ويعقوب: (ويخرج) بفتح الياء وضم الراء على معنى ويخرج له الطائر يوم القيامة كتابًا على الحال، ويحتمل أن يكون معناه ويخرج له الطائر فيصير كتابًا.

وقرأ أبو جعفر: (ويخرج) بضم الياء وفتح الراء على غير تسمية الفاعل ومجازه ويخرج له الطائر كتابًا.

وقرأ يحيى بن وثاب: (ويخرج) أى ويخرج الله.

وقرأ الباقون: بنون مضمومة وكسر الراء على معنى ونحن نخرج له يوم القيامة كتابًا ونصب ﴿كِتَـٰبًا﴾ بإيقاع الإخراج عليه واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله ﴿أَلْزَمْنَـٰهُ﴾.

﴿يَلْقَىٰهُ﴾ قرأ أبو عامر وأبو جعفر: (تلقاه) بضم التاء وتشديد القاف يعنى تلقى الإنسان ذلك الكتاب أى (يؤتا). وقرأ الباقون: بفتح الياء أى يراه.

﴿مَنشُورًا﴾ نصب على الحال.

عن بسطام بن مسلم قال: سمعت أبا النباج يقول سمعت أبا السوار العدوى يقرأ هذه الآية ثمّ قال: نشرتان وعليه ما حييت يا ابن آدم فصحيفتك منشورة فاعمل فيها ما شئت، فإذا مت طويت ثمّ إذا بعثت نشرت.

﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ﴾ يعنى فيقال له اقرأ كتابك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ محاسبًا مجازيًا.

قتادة: سيقرأ يومئذ كل من لم يكن فى الدنيا مُجازيًا.

وقال الحسن: (قد عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك).

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لها نوليه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن عليها عقابه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا يحمل حامله عمل آخر من الأثام ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إقامة للحجة عليهم بالآيات التى تقطع عذرهم ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾.

قرأ عثمان النهدى وأبو رجاء العطاردى وأبو العالية (وأبو جعفر) ومجاهد: (أمّرنا) بتشديد الميم أى خلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم.

وقرأ الحسن وقتادة وأبو حياة الشامى ويعقوب: (أمرنا) ممدودة أى أكثرنا.

وقرأ الباقون: بكسر الميم، أى أمرناهم بالطاعة فعصوا، ويحتمل أن يكون بمعنى جعلناهم أمرًا لأن العرب تقول أمر غير مأمور أى غير مؤمر، ويجوز أن يكون بمعنى أكثر ما يدل عليه قول النبى ﷺ: «خير المال مهرة مأمورة أو سكة مأبورة» أراد بالمأمورة كثرة النسل ويقال للشىء الكثير: أمر، والفعل منه أمر يأمرون أمرًا إذا كثروا.

وقال لبيد:

كل بنى حـرة مصيرهـم قل وإن أكثرت من العدد
إن يغبطوا يهبطوا وإن أمروا يومًا يصيروا للهلك والنفد

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم وقرأه العامّة.

وقال أبو عبيد: إنما اخترنا هذه القراءة، لأن المعانى الثلاثة تجتمع فيها يعنى الأمر والإمارة والكثرة، ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ (. . . .)[1] وهم أغنياؤها ورؤساؤها ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ يوجب عليها العذاب ﴿فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ فجزيناهم (وأهلكناهم إهلاكًا بأمر فيه أُعجوبة).

روى معمر عن الزهرى قال: دخل رسول الله ﷺ يومًا على (زينب) وهو يقول: «لا إله إلاّ الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون، قال: «نعم إذا كثر الخبث».



﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ تخوف كفار مكة ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ وقد اختلفوا فى مبلغ مدة القرن:

قال عبد الله بن أُبى: وفى القرن عشرون ومائة سنة، فبعث رسول الله ﷺ فى أول قرن كان

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وآخرهم يزيد بن معاوية.

وروى محمّد بن القاسم عن عبد الله بن بشير المازنى أن النبى ﷺ وضع يده على رأسه وقال: «سيعيش هذا الغلام قرنًا» فقلت: كم القرن؟ قال: «مائة سنة».

قال محمّد بن القاسم: ما زلنا نعدّ له حتّى (تمت) مائة سنة ثمّ مات.

وقال الكلبى: القرن ثمانون سنة.

وروى عمر بن شاكر عن ابن سيرين قال: قال رسول الله ﷺ: «القرن أربعون سنة».

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يعنى الدنيا فعبرنا بحرف عن الاسم، أراد بالدار العاجلة ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ من البسط والتقدير ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ أن يفعل به ذلك (أوّل) إهلاكه، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ فى الآخرة ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخلها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مبعدًا ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ وعمل لها عملها ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مقبولاً غير مكفور ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أى نمد كلا الفريقين، من يريد العاجلة ومن يريد الآخرة فيرزقهما جميعًا ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ ثمّ يختلف بهما الحال فى المآل ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعًا (محبوسًا) عن عباده ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمّد ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فى الرزق والعمل، يعنى طالب العاجلة وطالب الآخرة ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب إلى النبى ﷺ والمراد به غيره ﴿فَتَقْعُدَ﴾ فتبقى ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝ ۞ وَقَضَىٰ﴾ أمر ﴿رَبُّكَ﴾.

قال ابن عبّاس وقتادة والحسن قال زكريا بن سلام: جاء رجل إلى الحسن وقال إنه طلق امرأته ثلاثًا، فقال: إنك عصيت ربك وبانت منك امرأتك. فقال الرجل: قضى الله ذلك علىّ.

قال الحسن وكان فصيحًا: ما قضى الله، أى ما أمر الله وقرأ هذه الآية ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فقال الناس: تكلم الحسن فى (القدر).

وقال مجاهد وابن زيد: وأوصى ربك، ودليل هذا التأويل قراءة على وعبد الله وأُبىّ: (ووصى ربك).

وروى أبو إسحاق (الكوفى) عن شريك بن مزاحم أنه قرأ: (ووصى ربك) وقال: إنهم (أدغموا) الواو بالصاد فصارت قافًا.

وقال الربيع بن أنس: (وأوجب) ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أى وأمر بالأبوين إحسانًا برًّا بهما وعطفًا عليهما ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ

﴿ٱلْكِبَرَ﴾ الكسائى بالألف، وقرأ الباقون: (يبلغن) بغير الألف على الواحدة وعلى هذه القراءة قوله: ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ كلام (مستأنف) كقوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ (المائدة: ٧١)، وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ (طه: ٦٢) ثمّ ابتدأ فقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ فيه ثلاث لغات بفتح الفاء (حيث قد رفع) وهى قراءة أهل مكة والشام واختيار يعقوب وسهيل.

و ﴿أُفٍّ﴾ بالكسر والتنوين وهى قراءة أهل المدينة وأيوب وحفص.

و(أُفّ) مكسور غير منون وهى قراءة الباقين من القراء، وكلها لغات معروفة معناها واحد.

قال ابن عبّاس: هى كلمة كراهة. مقاتل: الكلام الردىء الغليظ.

أبو عبيد: أصل الأف والتف الوسخ على الأصابع إذا فتلته وفرق الآخرون بينهما فقيل الأف ما يكون فى المغابن من العرق والوسخ، والتف ما يكون فى الأصابع، وقيل: الأف وسخ الأذن والتف وسخ (الأظفار) وقيل: الأف وسخ الظفر والتف ما رفعت يدك من الأرض من شىء حقير.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ لا تزجرهما ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ حسنًا جميلاً.

وقال ابن المسيب: كقول العبد المذنب للسيد الفظ.

وقال عطاء: لا تسمهما ولا تكنّهما وقل لهما: يا أبتاه ويا أماه.

مجاهد فى هذه الآية: إن بلغا عندك من الكبر ما يبولان ويُحدثان فلا تتعذرهما، ولا تقل لهما أف حين ترى الأذى وتميط عنهما الخراء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيراً ولا تؤذهما.

وروى سعيد بن المسيب: أن (العاق) يموت ميتة سوء، وقال رجل لرسول الله (صلى الله عليه وآله): إن أبوى بلغا من الكبر أنى أُوليهما ما وليا منى فى الصغر فهل قضيتهما؟ قال (صلى الله عليه وآله): «لا فإنهما كانا يفعلان لك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل وأنت تريد موتهما».

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾.

قال عروة بن الزبير: ألن لهما حتّى لا يمتنع من شىء أحياه.

مقاتل: أَلنْ لهما جانبك فاخضع لهما.

وقرأ الحسن وسعيد بن جبير وعاصم الجحدرى: (جناح الذل) بكسر الذال أى (لا تستصعب معهما).

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

قال ابن عبّاس: هو منسوخ بقوله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ (التوبة: ١١٣) الآية.

روى شعبة عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «رضا الله تعالى مع رضا الوالدين وسخط الله مع سخط الوالدين».

عطاء عن عائشة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال للعاق اعمل ما شئت إني لا أغفر لك ويقال للبار اعمل ما شئت وإنى أغفر لك».

روى عطاء عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ «من أمسى وأصبح مرضيًا لوالديه أصبح وله بابان مفتوحان إلى الجنة، وإن أمسى وأصبح مسخطًا لوالديه أصبح وله بابان إلى النار وإن واحدًا فواحد».

فقال رجل: يا رسول الله وإن ظلماه؟ قال: «وإن ظلماه»، ثلاث مرات.

وروى رشيد بن سعد عن أبي هانئ الخولاني عن أبي عمر (القصبي) قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل أعمله يقربني إلى الله؟ قال: «هل لك والدة ووالد؟» قال: نعم. قال: «فإنما يكفي مع البر بالوالدين العمل (اليسير)».

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من بر الوالدين وعقوقهما ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أبرارًا مطيعين فيما أمركم الله به بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين، وغير ذلك من فرائض الله ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ بعد المعصية والهفوة ﴿غَفُورًا﴾.

وقال سعيد بن جبير في هذه الآية: هو الرجل يكون منه المبادرة إلى أبويه لا يريد بذلك إلاّ الخير، فإنه لا يؤخذ به.

واختلف المفسرون في معنى الأوابين:

فقال سعيد بن جبير: الراجعين إلى الخير، سعيد بن المسيب: الذي يذنب ثمّ يتوب ثمّ يذنب ثمّ يتوب.

مجاهد عن عبيد بن عمر: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلا فيستغفر الله تعالى عنها.

عمرو بن دينار: هو الذي يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في (مجلسي) هذا.

ابن عبّاس: الراجع إلى الله فيما لحق به وينويه، والأواب فعال من أوب إذا رجع.

قال عبيد بن الأبرص:

وكل ذي غيبة يؤوب وغايب الموت لا يؤوب

وقال عمرو بن شرحبيل: وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عبّاس دليله قوله: ﴿يَٰجِبَالُ

أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ (سبأ : ١٠).

الوالبي عنه : المطيعين المخبتين.

قتادة : المصلين. عون العقيلي : هم الذين يصلون صلاة الضحى.

ابن المنكدر : بين المغرب والعشاء.

روى ابن إدريس عن أبيه عن سعيد بن جبير قال : الأوابين الرغابين.

❖ ❖ ❖

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ يعنى صلة الرحم. وقال بعضهم: عنى بذلك قرابة رسول الله ﷺ.

روى السدى عن ابن الديلمى قال: قال على بن الحسين لرجل من أهل الشام أقرأت القرآن؟ قال نعم؟ قال: أفما قرأت فى بنى إسرائيل ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ قال: إنكم القرابة الذين أمر الله أن يوتى حقه؟ قال: نعم.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعنى مار الطريق، وقيل: الضيف ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ ولا تنفق مالك فى المعصية.

وروى سلمة بن كهيل عن أبى (عبيدة) عن ابن الضرير أنه سأل ابن مسعود ما التبذير؟ فقال: إنفاق المال فى غير حقه.

وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله فى (الحق ما كان) تبذيراً، فلو أنفق يداً فى باطل كان تبذيراً به.

وقال شعيب: كنت أمشى مع أبى إسحاق فى طريق الكوفة، فأتى على دار تبنى بجص وآجر فقال: هذا التبذير فى قول عبد الله: إنفاق المال فى غير حقه.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أولياؤهم وأعوانهم، والعرب تقول: لكل (من يلزم) سنّة قوم وتابع أمرهم هو أخوهم ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ جحود النعمة.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ الآية نزلت فى منجع وبلال وصهيب وسالم وخباب، كانوا يسألون النبى ﷺ فى الأحايين ما يحتاجون إليه ولا يجد لهم متسعاً، فيعرض عنهم حياءً منهم فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ يعنى وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرتك أن تؤتيهم حقوقهم عند مسألتهم إياك ما لا يجد إليه سبيلاً حياءً منهم.

﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ ابتغاء رزق من الله ﴿تَرْجُوهَا﴾ أن يأتيك ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ ليّنًا وعدهم وعداً جميلاً ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ الآية.

قال جابر بن عبد الله: بينما رسول الله ﷺ قاعد فيما بين الصحابة أتاه صبى فقال: يا رسول الله إن أمى تستكسيك درعًا، ولم يكن عند رسول الله ﷺ إلاّ قميصه، فقال الصبى: من ساعة إلى ساعة يظهر بعد وقتًا آخر، فعاد إلى أمه فقالت: قل له إن أمى تستكسيك الدرع الذى عليك، فدخل رسول الله ﷺ داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانًا، فأذن بلال للصلاة فانتظروا فلم يخرج فشغل قلوب الصحابة فدخل عليه (بعضهم فرآه) عاريًا فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ يعنى ولا تمسك يدك عن النفقة فى الحق، كالمشدودة يده على عنقه فلا يقدر على مدها والإعطاء.

﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا﴾ بالعطاء ﴿كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ فتعطى جميع ما تملك ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومًا﴾ يلومك سائلوك إذا لم تعطهم ﴿مَّحۡسُورًا﴾ منقطعًا بك لا شيء عندك تنفقه، فقال: حسرته بالمسألة إذا أكلّته، ودابة حسيرة إذا كانت كالة رازحة، وحسير البصر إذا كل، قال الله: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ (الملك: ٤) وقال قتادة: نادمًا على ما سلف منك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ﴾ يوسع ﴿ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ يقتر ويضيق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ نظيرها قوله: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الشورى: ٢٧) الآية ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾ ضيق وإقتار ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة فنهاهم الله تعالى عن ذلك وأخبرهم أن رزقهم ورزق بناتهم على الله تعالى ﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾ اختلف القراء فيه:

فقرأ أبو جعفر وابن عامر: بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة.

وقرأ ابن كثير: بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمزة.

وقرأ الآخرون: بكسر الخاء وجزم الطاء، وكلها لغات بمعنًى واحد ويكون اسمًا ومصدرًا.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ۝ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ وبحقها بما روى حميد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلاّ الله، فإذا قالوها (عصموا) منى دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله» قيل: وما حقها؟ قال: زنا بعد إحصان وكفر بعد إيمان وقتل نفس فيقتل بها.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ قوة وولاية على قاتل وليه فإنه لما استفاد منه فقتله وإن الله أحل الدية وإن شاء عفا عنه.

﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ قرأ حمزة والكسائى وخلف: (تسرف) بالتاء أى فلا تسرف أيها القاتل، ويجوز أن يكون الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد منه الأئمة والأُمة من بعده، ومن قرأ بالياء رجع إلى المولى.

واختلفوا فى الإسراف ما هو: فقال ابن عبّاس: لا يقتل غير قاتله.

قال الحسن وابن زيد: كانت العرب فى الجاهلية إذا قتل منهم قتيل، لم يرضوا أن يقتلوا قاتل صاحبهم حتّى يقتلوا أشرف من الذى قتله، فيعمد ولى المقتول إلى الشريف من قبيلة القاتل فيقتله بوليه ويترك القاتل، فنهى الله عن ذلك، وقال رسول الله ﷺ: «إن من أعتى الناس على الله جل ثناؤه قتل غير قاتله أو قتل بدخن الجاهلية أو قتل فى حرم الله».

وقال الضحاك: كان هذا بمكة ونبى الله ﷺ بها، وهو أول شيء نزل من القرآن فى شأن القتل وكان المشركون من أهل مكة يقتلون أصحاب النبى ﷺ فقال الله: من قتلكم من المشركين

فلا يحملنكم قتله إياكم على أن لا تقتلوا إلا قاتلكم، فلا يقتلوا له أبًا أو أخًا أو أحدًا فإن كانوا من المشركين فلا يحملنكم ذلك (. . . .)[1] على فلا تقتلوا إلا قاتلكم، وهذا قبل أن تنزل سورة براءة وقبل أن يؤمروا بقتال المشركين.

وقال سعيد بن جبير: لا يقبل (. . . .)[1] على العدة.

قتادة وطارق بن حبيب وابن كيسان: (لا يمثل به).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ اختلفوا فى هذه الكناية (إلى من ترجع فقيل: ترجع) على ولى المقتول، هو المنصور على القاتل (فيدفع الإمام) إليه القاتل، فإن شاء قتل وإن شاء عفا عنه وإن شاء أخذ الدية، وهذا قول قتادة.

وقال الآخرون: (من) راجعة إلى المقتول فى قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ يعنى أن المقتول (منصور) فى الدنيا بالقصاص وفى الآخرة (بالتوبة) وهو قول مجاهد.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿مَسْـُٔولًا﴾ عنه، وقيل معناه: كان مظلومًا ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾.

قرأ أهل الكوفة: ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ بكسر القاف.

الباقون: بفتحه وهو الميزان مثل القرطاس، والقسطاس معناه الميزان صغيرًا كان أو كبيرًا.

مجاهد: هو العدل بالرومية. وقال الحسن: هو القبان.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أى عاقبة.

(قال الحسن): ذكر لنا أن نبى الله ﷺ قال: «لا يقدر رجل على حرام ثمّ يدعه ليس لديه إلا مخافة الله إلا أبدله الله فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك».

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

قال قتادة: لا تقل رأيت ولم تره وسمعت ولم تسمعه وعلمت ولم تعلمه وهذه رواية على عن ابن عبّاس.

قال مجاهد: ولا ترم أحدًا بما ليس لك به علم، وهى رواية عطية عن ابن عبّاس.

وقال ابن الحنفية: هو شهادة الزور.

قال (القتيبى): لا تتبع الحدس والظنون، وكلها متقاربة، وأصل القفو البهت والقذف بالباطل، ومنه قول النبى ﷺ: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا».

وقال النابغة:

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ومثل الدمى شم العرانين ساكن بهن الحيــاء لا يشعن التقافيا

وقال الكميت:

فلا أرمى البرىء بغير ذنب ولا أقفو الحـواصين إن قفينا

وقال (القتيبى): فهو مأخوذ من القفاء كأنه يقفو الأمور ويكون فى أقفائها يعقبها (ويتتبعها) ويتعرفها. يقال: قفوت أثره على وزن دعوت والنهى منه لا يقف، كقولك: لا تدع.

وحكى الفراء عن بعضهم: أصله من القيافة، وهو اتباع الأثر وإذا كان كذلك وجب أن يكون (ولا تقف) بضم القاف وسكون الفاء مثل: ولا تقل، قال: والعرب تقول: قفوت أثرها وقفت مثل قولهم: قاع الجمل الناقة إذا ركبها وقعا، وعاث وعاثا واعتام واعتمى واحتاج ماله واحتجا.

قال الشاعر:

ولو أنى رميتك من قريب لعاقك من دعاء الذئب عاق

أى عائق.

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أى كل هذه الجوارح والأعضاء ما يقل تلك.

كقول الشاعر، وهو جرير:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

ويجوز أن يكون راجع إلى أصحابها وأربابها.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ بطراً وفخراً وخيلاء، وهو تفسير المشى لا نعته فإن ذلك أخرجه على المصدر ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أى لن تقطعها بكعبيك حتّى تبلغ آخرها، يقال فلان أخرق الأرض من فلان إذا كان أكثر سفراً وعزة.

وقال رؤبة:

❖ وقائم الأعماق خاوى المخترق ❖

أى المقطع ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أى (لن تساويها بطولك ولا تطاولك) وأخبر أن صاحبه لا ينال به شيئًا (. . . .)[1] عنه غيره ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

قرأ الحسن ويحيى بن يعمر وابن عمر وأهل الكوفة: سيئة على الإضافة، بمعنى كل هذا الذى ذكرنا من قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣).

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

(كان سيئة) أى سيئ بما ذكرنا ووعدنا عليك عند ربك مكروهًا، قالوا: لأن فيما ذكره الله من قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى هذا الموضع أمورًا مأمورات بها ومنهيات عنها، واختار أبو عبيد هذه القراءة لما ذكرنا من المعنى، ولأن فى قراءة أُبى حجة لها، وهى ما روى أبو عبيد عن حجاج عن هارون فى قراءة (أُبى بن كعب) (كان سيئاته) قال: فهذه تكون بإضافة سيئة منونة منصوبة، بمعنى كل ذلك الذى ذكرنا ووعدنا من قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ إلى هذا الموضع كان سيئة لا حسنة فيه فجعلوا «كلا» محيطًا بالمنهى عنه دون غيره.

فإن قيل: هلا جعلت مكروهًا خبر ثان، قلنا: فى الكلام تقديم وتأخير تقديره: كل ذلك كان مكروهًا سيئة، وقيل هو (. . . .)[1] كالبدل لا على الصفة، مجازه: كل ذلك كان سيئة وكان مكروهًا.

وقال أهل الكوفة: رجع إلى المعنى، لأن السيئة الذنب وهو (غير حقيقى) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكرنا (ووعدنا) ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ إلى قوله ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مبعدًا من كل نصير والمراد به غيره.

قال الكلبى: (الثمان عشرة) آية كانت فى ألواح موسى وهى عشر آيات فى التوراة.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ اختاركم واختصكم ﴿رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا﴾ بنات ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ يخاطب مشركى العرب حيث قالوا: الملائكة بنات الله.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ قرأه العامّة: بالتشديد على التكثير.

وقرأ الحسن: صرفنا بالتخفيف.

﴿فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يعنى العبر والحكم والأمثال والأحكام والحجج والأعلام.

سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام أبى الطيب: لقوله تعالى ﴿صَرَّفْنَا﴾ معنيان أحدهما: لم يجعله نوعًا واحدًا، بل وعدًا ووعيدًا وأمرًا ونهيًا ومحكمًا ومتشابهًا وناسخًا ومنسوخًا وأخبارًا وأمثالاً، مثل تصريف الرياح من صبا ودبور وجنوب وشمال، وتصريف الأفعال من الماضى إلى المستقبل ومن الفاعل إلى المفعول ونحوها.

والثانى: لم ينزله مرة واحدة بل (نجومًا) مثل قوله ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ﴾ (الإسراء: ١٠٦) ومعناه أكثرنا صرف جبرائيل إليك.

﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾. قرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائى (لِيَذكرُوا) مخففًا.

وقرأ الباقون: بالتشديد واختيار أبو عبيد أى ليتذكروا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أى التصريف والتذكير

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ ذهابًا وتباعدًا عن الحق ﴿قُل﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾.

قرأ ابن كثير وحفص: يقولون بالياء. الباقون: بالتاء.

﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ لطلبوا يعني الآلهة القربة ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ فالتمست الزلفة عنده.

قال قتادة: يقول لو كان (الأمر) كما يقولون إذًا لعرفوا الله فضله ومقربته عليهم، فأمضوا ما يقربهم إليه.

وقال الآخرون: إذًا لطلبوا مع الله منازعة وقتالاً، كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض، ثم نزه نفسه، فقال ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾.

الأعمش وحمزة والكسائي، واختاره أبو عبيد عنهم بالتاء ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ولم يقل تعاليًا كقوله (. . . .)[1].



﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ قرأ الحسن: وأبو عمر ويعقوب وحمزة والكسائي وحفص: بالتاء، غيرهم: يسبح بالياء واختاره أبو عبيد (. . . .)[1] وهو التأنيث

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ومعنى التسبيح التنزيه والطاعة والالتزام الربوبية وكونها دالة على وجوده وتوحيده.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

قال ابن عبّاس: وإن من شيء حي.

وقال الحسن والضحاك: يعني كل شيء فيه الروح.

قال قتادة: يعني الحيوانات والنباتات (. . . .)(١).

قال عكرمة: الشجرة تسبح والإسطوانة لا تسبح.

قال أبو الخطاب: كنا مع يزيد الرقاشي ومعه الحسن فقدموا الخوان فقال يزيد الرقاشي يا أبا سعيد يسبح هذا الخوان؟ فقال كان يسبح مرة وقال النبي ﷺ: «(ما سبحت عصا إلا ترك) التسبيح».

وقال إبراهيم: الطعام يسبح.

وروى موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحًا قال لابنه: يا بني آمرك أن تقول: سبحان الله وبحمده فإنها صلاة الخلق وتسبيحهم (وبها يرزق الخلق)».

قال الله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

قال وهب: إن (. . . .)(١) إلا وقد كان يسبح لله ثلاثمائة سنة.

وروى عبد الله بن (. . . .)(١) عن المقداد بن معد يكرب قال: إن التراب يسبح ما لم يبتل فإذا ابتل ترك التسبيح، وإن الجوزة لتسبح ما لم ترفع من موضعها، فإذا رفعت ترك التسبيح، وإن الورق يسبح ما دام على الشجرة، فإذا سقط ترك التسبيح وإن الماء ليسبح ما دام ماءً فإذا (تغير) ترك التسبيح، وإن الثوب يسبح ما دام جديداً فإذا وسخ ترك التسبيح، وإن الوحش إذا صاحت سبحت فإذا سكتت تركت التسبيح، وإن الثوب (الخلق) لينادي في أول النهار: اللهُمَّ اغفر لمن (. . . .)(١).

وروى أبو عتبة عن ثابت البنائي عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأخذ كفًا من حصى فسبحن في يد رسول الله ﷺ حتّى سمعنا التسبيح، ثمّ صبّهن في يد أبي بكر حتّى سمعنا التسبيح ثمّ صبهن في عمر حتّى سمعنا التسبيح، ثمّ صبّهن في يد عثمان حتّى سمعنا التسبيح، ثم صبّهن في أيدينا فما سبحت في أيدينا.

وعن جعفر بن محمّد عن أبيه قال: «مرض النبي ﷺ فأتاه جبرائيل بطبق فيها رمان وعنب

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فتناول النبى ﷺ فسبح، ثمّ دخل الحسن والحسين فتناولا فسبح العنب والرمان، ثمّ دخل علىّ فتناول منه فسبح أيضًا، ثمّ دخل رجل من أصحابه فتناول فلم يسبح، فقال جبرائيل: إنما يأكل هذا نبى أو وصى أو ولد نبى».

﴿وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ يعنى لا تعلمون تسبيح ما عدا من تسبيح بلغاتكم وألسنتكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يا محمّد (على) المشركين ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ﴾ وبينهم حجابًا يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به.

قتادة: هو حجاب مستور، والمستور يعنى الساتر كقوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ (مريم: ٦١) آتيًا مفعول بمعنى فاعل.

وقيل: معناه مستورًا عن أعين الناس فلا يرونه. وفسّره بعض المفسرين: بالكتاب عن الأعين الظاهرة (فلا يرونه ولا يخلصون) إلى أدلته.

عطاء عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(المسد: ١) جاءت امرأة أبى لهب إلى النبى ﷺ ومعه أبو بكر (رضى الله عنه) فقال: يا رسول الله لو تنحيت عنها لئلا تسمعك ما يؤذيك، فإنها امرأة بذيئة.

فقال النبى ﷺ: «إنه سيحال بينى وبينها» فلم تره فقالت لأبى بكر: يا أبا بكر هجانى صاحبك قال: والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله.

فقالت: وإنك لمصدقه، فاندفت راجعة. قال أبو بكر: يا رسول الله أما رأتك؟ قال: «لا ما زال ملك بينى وبينها يسترنى حتى ذهبت».

وروى الكلبى عن رجل من أهل الشام عن كعب فى هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ يستتر من المشركين بثلاث آيات: الآية التى فى الكهف ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (الكهف: ٥٧) والآية التى فى النحل ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ إلى قوله ﴿هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ (النحل: ١٠٨).

والآية التى فى الجاثية ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إلى قوله ﴿غِشَـٰوَةً﴾ (الجاثية: ٢٣) فكان رسول الله ﷺ إذا قرأهن يستتر من المشركين.

قال كعب: فحدثت بهن رجلاً من أهل الشام فمكث فيهم ما شاء الله أن يمكث ثمّ قرأ بهنّ فخرج هاربًا وخرجوا فى طلبه حتّى كانوا يكونون على طريقه ولا يبصرونه.

قال الكلبى: حدثت به رجلاً بالرى فأسر بالديلم فمكث فيهم ما شاء الله أن يمكث ثمّ قرأهنّ وخرج هاربًا وخرجوا فى طلبه حتّى جعل ثيابهم لتلتمس ثيابه فما يبصرونه.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ يقول: وإذا قلت: لا إله إلاّ الله فى القرآن وحده وأنت تتلوه ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ كارهين له معرضين عنها.

حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عبّاس فى قوله ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ قال: هم الشياطين والنفور جمع نافر مثل قاعد وقعود وجالس وجلوس، وجائز أن يكون مصدراً أُخرج على غير لفظه إذا كان قوله ﴿وَلَّوْاْ﴾ بمعنى نفروا، فيكون معناه نفوراً.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ لمن يقرأ القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ متناجون فى أمرك، بعضهم يقول: هو مجنون، وبعضهم يقول: هو كاهن، وبعضهم: ساحر، وبعضهم: شاعر ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ يعنى الوليد بن المغيرة وأصحابه حين رجع إليه كفار مكة من أمر محمّد وشاوروه فقال ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ مطبوبًا، وقيل: مخدوعًا، وقال أبو عبيدة: ﴿مَّسْحُورًا﴾يعنى رجلاً له سحر يأكل ويشرب مثلكم والسحر الرئة يقول العرب للجبان: قد سحره ولكل من أكل وشرب من آدمى وغيره مسحور ومسحر.

قال الشاعر امرؤ القيس:

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

أى: نغذى ونعلل.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ شبّهوا ذلك الأشباه.

فقالوا: شاعر وساحر وكاهن ومجنون ﴿فَضَلُّواْ﴾ فجالوا وجاروا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ مخرجًا ولا يهتدون إلى طريق الحق.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا﴾ بعد الموت ﴿وَرُفَـٰتًا﴾.

قال ابن عبّاس: غبارًا.

قال مجاهد: ترابًا، والرفات ما تكسر وبَلى من كل شىء، كالفتات والحطام والرضاض.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ فى الشدة والقوة ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ يعنى خلقًا مما يكبر عندكم عن قبول الحياة وبعثكم وعملكم على (.....) إحياؤه فإنه يجيئه، وقيل: ما يليه من بعد ورائهم الموت، وقيل: السموات والأرض، وقيل: أراد به البعث وقيل الموت.

وقال أكثر المفسرين: ليست فى نفس بنى آدم أكبر من الموت، يقول: لو كنتم الموت لأُميتنكم ولأبعثنكم.

سفيان عن مجاهد وعكرمة فى قوله ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ قالا: الموت.

وروى المعمر عن مجاهد قال: السماء والأرض والجبال يقول كونوا ما شئتم فإن الله يميتكم ثمّ يبعثكم ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ خلقًا جديدًا بعد الموت ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي يحركون رءوسهم متعجبين ومستهزئين يقال: نغضت سنه إذا حركت وأقلعت من أصله. قال الراجز:

❖ ناغض نحوى رأسه وأقنعا ❖

وقال آخر:

❖ لما رأسنى الغضت لى الرأسا ❖

وقال الحجاج:

❖ أمسك بقضبًا لابنى مستهدجا ❖

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ يعنى هو قريب لأن عسى من الله واجب نظيره قوله ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (الأحزاب: ٦٣)، ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى: ١٧).

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ من قبوركم إلى (موقف يوم القيامة) ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾. قال ابن عباس: بأمره.

قتادة: بمعرفته ووطأته، ويحمدونه (وهو مستحق) للحمد.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ فى الدنيا فى قبوركم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمرو أن النبى ﷺ قال: «ليس على أهل لا إله إلاّ الله وحشة فى قبرهم ولا حشرهم، كأنى بأهل لا إله إلاّ الله وهم ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ (فاطر: ٣٤) الآية».



﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ

ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ نزلت فى عمر بن الخطاب، وذلك أن رجلاً من العرب شتمه فأمره الله تعالى بالعفو.

الكلبى: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بالقول والفعل، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية على ذلك.

وقل لعبادى المؤمنين يقولوا للكافرين التى هى أحسن يعنى الكلمة التى هى أحسن لا تكافئهم.

قال الحسن: يقول هداك الله يرحمك الله، وهذا قبل أن يؤمروا بالجهاد.

وقيل: الأحسن كلمة الإخلاص لا إله إلاّ الله ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ يفترى، وألقى بينهم العداوة ويغرى بينهم ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ يوفقكم فتؤمنوا ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ﴾ يميتكم على الشرك فيعذبكم، قاله ابن جريج.

وقال الكلبى: إن يشأ الله يرحمكم فيحفظكم من أهل مكة، وإن يشأ يعذبكم فيسلطهم عليكم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ وكفيلاً، نسختها آية القتال ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ فجعلهم مختلفين فى أخلاقهم من أمورهم وأحوالهم ومآلهم، كما يختلف بعض المتقين على بعض.

قتادة: فى هذه الآية اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وكلم الله موسى تكليمًا، وقال لعيسى كن فيكون وأتى سليمان مُلكًا عظيمًا لا ينبغى لأحد من بعده، وأتى داود زبورًا كتابًا علمه داود فيه دعاء وتحميد وتمجيد وليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود وغفر (المحمد) ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنها آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ عنكم إلى غيركم، قيل: هو ما أصابهم من القحط سبع سنين.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ﴾. قتادة عن عبد الله الزنجانى عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ﴾ بالتاء،

وقرأهما الباقون: بالياء يبتغون.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ القربة إلى ربهم ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إليه ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وأكثر العلماء: هم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم.

وقال عبد الله بن مسعود: كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجن ولم يعلم الإنس الذين كانوا يعبدونهم بإسلامهم فتمسكوا بعبادتهم فغيرهم الله بذلك وأنزل هذه الآية.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ يعنى وما من قرية ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أى مخربوها ومهلكو أهلها بالسيف ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ﴾ بأنواع العذاب إذا كفروا وعصوا.

وقال بعضهم: هذه الآية عامة.

قال مقاتل: أما الصالح فبالموت وأما الطالح فبالعذاب.

قال ابن عباس: إذا ظهر الزنا والربا فى أهل قرية أذن الله فى هلاكها.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ فى اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوبًا ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾.

قال ابن عبّاس: قال أهل مكة: اجعل لنا الصفا ذهبًا، فأوحى الله إلى رسوله: إن شئت أن تستأنى بهم فقلت وإن شئت أوتيهم ما سألوا، فقلت: فإن لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم. فقال ﷺ: لا بل تستأنى بهم فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ التى سألها كفار قومك ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ فأهلكناهم فإن لم يؤمن قومك أهلكتهم أيضًا لأن من خسفنا فى الأمم إذا سألوا الآيات فيأتيهم ثم لم يؤمنوا أن نعذبهم ونهلكهم ولا نمهلهم، فأن الأوّل فى محل النصب ووقوع المنع عليه، وأن الثانية فى محل رفع ومجاز الأول: منعنا إرسال الآيات إلاّ تكذيب الأولين بها قالوا ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ مضيئة بينة ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ أى أقروا بها أنها من عند الله ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ بالعبر والدلالات ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ للعباد ليؤمنوا ويتذكروا فإن لم يفعلوا عذبوا.

قال قتادة: إن الله يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يعون أو يذكرون أو يرجعون، ذكر أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود فقال: يا أيها الناس إن الله ليس يعتبكم فأعتبوه.

وروى محمّد بن يوسف عن الحسن فى قوله عزّ وجلّ ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قال الموت الذريع.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ فهم فى قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته وهو مانعك منهم وحافظك فلا تَهَبْهُم وامض لما أمرك به فى تبليغ رسالته ، قاله أكثر المفسرين .

قال ابن عبّاس : يعنى أحاط علمه بهم فلا يخفى عليه منهم شيء .

مقاتل والبراء : أحاط بالناس يعنى أهل مكة أى أنها ستفتح لك .

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ .

قال قوم : هى رؤيا عين وهو ما أرى النبى ﷺ ليلة المعراج من العجائب والآيات فكان ذلك فتنة للناس ، فقوم أنكروا وكذبوا ، وقوم ارتدوا ، وقوم صدقوا ، والعرب تقول : (رأيت

بعينى) رؤية ورؤيا وعلى هذا يحمل حديث معاوية أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة أى (رؤيا عيان) أرى الله نبيه ﷺ وما ذكرنا من تأويل الآية، قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وأبى مالك وقتادة ومجاهد والضحاك وابن زيد وابن جريج وعطية وعكرمة وعطية عن ابن عبّاس.

وقال آخرون: هى ما أرى الله نبيه ﷺ ليلة أسرى بروحه دون بدنه فلما قصها رسول الله ﷺ على أصحابه (. . . .)(١) من أصحاب المسلمين وطعن فيها ناس من المنافقين. وهو ما روى جرير بن حازم عن أبى رجاء العطاردى، يحدث عن سمرة بن جندب قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة استقبل الناس (بوجهه) فقال: «هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟» فإن كان أحدًا رأى تلك الليلة رؤيا قصها عليه فيقول فيها ما شاء الله أن يقول فسألنا يومًا، فقال: «هل رأى منكم أحد الليلة رؤيا» قلنا: لا، قال: «لكنى أتانى الليلة آتيان فقالا لى: انطلق فانطلقت معهما فأخرجانى إلى أرض مستوية فإذا رجل مستلقى على قفاه ورجل قائم بيده صخرة فشدخ بها رأسه (فيتبع) الحجر فإذا ذهب يأخذه عاد رأسه كما كان فهو يصنع به مثل ذلك، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقت معهما فأتينا على رجل مستلق لقفاه يرمش عينه، فإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد فإذا هو يأخذ أحد شقى وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه وعينه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه ثمّ يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ذلك فما يفرغ من ذلك حتّى يصبح ذلك الجانب كما كان ثمّ يعود إليه، فقلت لهما: سبحان الله ما هذا؟ قالا لى: انطلق فانطلقت معهما فأتينا على بيت مبنى مثل بناء التنور أعلاه ضيق (وأسفله واسع) يوقد فيه النار فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب من أسفل (ضجّوا)، قلت لهما: ما هؤلاء؟

قالا لى: انطلق فانطلقنا فأتينا على نهر من دم أحمر وإذا فى البحر سابح يسبح فإذا على شاطئ النهر رجل عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرًا فيذهب فيسبح ما يسبح ثمّ يرجع إليه كما رجع إليه فيفغر له فاه فألقمه حجرًا قال: فقلت ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقت فأتينا على رجل كريه المرآة كأكره ما رأيت رجلاً وإذا هو عنده نار (يحشها ويسعى) حولها قلت لهما: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا فأتينا على روضة (معتمة) فيها من كل نوع الربيع وإذا شجرة عظيمة وفى أصلها شيخ طويل فإذا حوله صبيان كأكثر ولدان رأيتهم قط. قال: قلت ما هؤلاء؟ قالا: انطلق فانطلقنا

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فأتينا على دوحة عظيمة لم أرَ دوحة قط أعظم منها (ولا أحسن) قالا لى : ارق فارتقينا فانتهينا إلى مدينة مبنية من ذهب ولبن فضة فأتينا باب المدينة فاستفتحناها ففتح لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم (كأحسن) ما رأيت (وشطر كأقبح) ما رأيت ، قالا لهم : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر وإذا نهر معترض يجرى كأنه المخيض من البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا وقد ذهب السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة قال : فقلت لهما (والله) إنى ما رأيت مثل الليلة عجبًا فما هذا الذى رأيت قالا إنا سنخبرك أما الذى أتيت عليه يشدخ رأسه بالحجر فإنه رجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة وأما الذى أتيت عليه يشرشر شدقه وعينه ومنخره إلى قفاه فإنه رجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق .

وأما الرجال والنساء العراة الذين فى مثل التنور فإنهم الزناة والزوانى ، وأما الرجل الذى يسبح فى النهر ويلقم الحجارة فإنه آكل الربا ، وأما الرجل الكريه المرآة الذى عنده النار يحشها فإنه مالك خازن النار ، وأما الرجل الطويل الذى فى (الروضة) فإبراهيم (عليه السلام) وأما الولدان الذين حوله فكل مولود يولد على الفطرة .

أما القوم الذين كانوا شطر خلقهم حسنًا وشطرًا قبيحًا فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا فتجاوز الله عنهم ، وأما الروضة فهى جنات عدن وأما المدينة التى دخلت فدار الشهداء . قال : بينما بصرى صعدا فإذا مثل الذبابة البيضاء ، قالا لى : ها هو ذا منزلك ، وأنا جبرائيل وهذا ميكائيل . فقلت : بارك الله فيكما دعانى أدخل دارى ، فقالا : إنه قد بقى لك ولم تستكمله ولو استكملته دخلت دارك .

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عبّاس قال : هى رؤيا التى رأى أنه يدخل مكة عام الحديبية هو وأصحابه وهو يومئذ بالمدينة فعجّل رسول الله ﷺ السير إلى مكة قبل الأجل فردّه المشركون .

فقال ناس : قد ردَّ رسول الله ﷺ وقد كان حدثنا أنه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم وقد كان فى العام المقبل سار إليها رسول الله ﷺ فدخلها فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ (الفتح : ٢٧) .

سفيان بن عيينة عن على بن زيد بن حذيفة عن سعيد بن المسيب ، من قول الله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال : أرى بنى أمية على المنابر فساءه ذلك فقيل له إنها الدنيا يعطونها (فتزوى) عنه ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال : بلاء للناس .

وروى عبد المهيمن عن ابن عبّاس عن سهل بن سعد عن أبيه عن جده قال : رأى رسول الله

ﷺ بني أمية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فما استجمع ضاحكًا حتّى مات، فأنزل الله في ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ المذكورة ﴿فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني شجرة الزقوم، ومجاز الآية: الشجرة الملعونة المذكورة في القرآن، ونصب الشجرة عطفًا بها على الرؤيا تأويلها: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلاّ فتنة للناس فكانت فتنتهم في الرؤيا ما ذكرت، وفتنتهم في الشجرة الملعونة أن أبا جهل قال ـ لما نزلت هذه الآية: أليس من الكذب ابن أبي كبشة أن يوعدكم بحرق الحجارة ثمّ يزعم أنه ينبت فيها شجرة وأنتم تعلمون أن النار تحرق الشجرة فما يقولون في الزقوم.

فقال عبد الله بن (الزبوى): إنها الزبد والتمر بلغة بربرة.

فقال أبو جهل: يا جارية زقمينا فأتته بالزبد والتمر، فقال: تزقموا يا قوم فإن هذا ما يخوفكم به محمّد والله ما يعلم الزقوم إلاّ الزبد والتمر، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ (الدخان: ٤٣، ٤٤) ووصفها في الصافات فقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ (الصافات: ٦٤) أي خلقت من النار وغذيت بها وأنزل الله ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾.

وروى ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن مولى لبني هاشم حدثه أن عبد الله بن الحارث ابن نوفل أرسل إلى ابن عبّاس: عن الشجرة الملعونة في القرآن؟ قال: فقال: الشجرة الملعونة هي هذه الشجرة التي تلتوي على الشجر يعني الكشوث.

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ يعني من طين.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: بعث رب العزة إبليس فأخذ كفًا من أديم الأرض من عذبها وملحها فخلق منه آدم فكل شيء خلقه من عذبها فهو صائر إلى السعادة وإن كان ابن كافرين، وكل شيء خلقه من ملحها فهو صائر إلى الشقاوة وإن كان ابن نبيين.

قال: ومن ثمّ قال إبليس: أأسجد لمن خلقت طينا أي هذه الطينة أنا جئت بها، ومن ثمّ سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض.

﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي فضلته ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وأمهلتني ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي لأستولين على أولاده ولأحتوينهم ولأستأصلنهم بالإضلال ولأجتاحنهم.

يقال: (احتنك) فلان ما عند فلان من علم أو كمال مما استقصاه وأخذه كله، واحتنك الجراد الزرع إذا أكله كله.

قال الشاعر:

أشكو إليك سنة قد أجحفت وأحنكت أموالنا واجتلفت

ويقال: هو من قول العرب حنّك الدابة يحنكها إذا شد فى حنكها الأسفل حبلاً يقوده به حتى يثبت.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعنى المعصومين الذين استثناهم الله فى قوله ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ (الحجر: ٤٢) ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أى جزاءك وجزاء أتباعك ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ وأمراً مكملاً ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ (استولِ) واستخف واستزل واستمل ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ أى من ذرية آدم ﴿بِصَوْتِكَ﴾.

قال ابن عبّاس وقتادة: بدعائك إلى معصية الله وكل داع إلى معصية فهو من جند إبليس.

وقال مجاهد: بالغناء والمزامير.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ أى اجمع وصح. مقاتل: استفزعنهم.

﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أى ركبان جندهم ومشاتهم.

قال المفسرون: كل راكب وماش فى معاصى الله.

ابن عبّاس ومجاهد وقتادة: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس، فما كان من راكب يقاتل فى معصية فهو من خيل إبليس، وما كان من راجل يقاتل فى معصية الله فهو من رجل إبليس والرجل الرجالة.

وقرأ حفص: «ورجلك» بكسر الراء، وهما لغتان يقال: راجل ورجل مثل تاجر وتجر، وراكب وركب.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ قال قوم: هو كل مال أصيب من حرام وأنفق فى حرام، وهذا قول مجاهد والحسن وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد، ورواية علىّ بن أبى طلحة عن ابن عبّاس.

عطاء بن أبى رباح: هو الربا. قتادة: ما كان المشركون يحرمونه من الأنعام كالبحائر والسوايب والوصيلة والحوامى وهى رواية العوفى عن ابن عبّاس.

وقال الضحاك: هو ما كان يذبحونه لآلهتهم.

﴿وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾.

قال بعضهم: هم أولاد الزنا، وهو قول مجاهد والضحاك ورواية عطية عن ابن عبّاس.

الوالبى عنه: هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم الحرام.

الحسن وقتادة: عدو الله شاركهم فى أموالهم وأولادهم فمجّسوا وهوّدوا ونصّروا وصبّغوا

غير صبغة الإسلام.

أبو صالح عن ابن عبّاس: مشاركته إياهم في الأولاد وتسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ ومنّهم الجميل في طاعتك. قال الله ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ باطلاً وخديعة لأنه لا يغني عنهم من عذاب الله إذا نزل بهم شيئًا كقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى﴾ (يسوي ويجري).

﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ إلى قوله ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ أصابكم (الجهد) ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وخفتم الغرق ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلا دعاؤكم إياه فلم تجدوا ما يكفيكم سواه ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من البحر وأخرجكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإيمان والطاعة وكفرتم بما جاءكم ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ۝ أَفَأَمِنتُمْ﴾ بعد ذلك ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ يغيبكم ويذهبكم في ﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ حجارة تمطر عليكم من السماء كما أمطر على قوم لوط.

وقال أبو عبيد والقتيبي: الحاصب الذي يرمي بالحصباء، وهي الحصا الصغار.

قال الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضربنا   بحاصب كنديف القطن منثور

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ۝ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر ﴿تَارَةً﴾ مرة ﴿أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ أي قاصفًا وهي الريح الشديدة.

قال ابن عبّاس وقال أبو عبيدة: هي التي تقصف كل شيء أيّ تدقّه وتحطّمه وهي التي تقصف الشجر أي تكسره ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ ناصرًا ولا ثائرًا.

واختلف القراء في هذه الآية. فقرأ ابن كثير وأبو عمرو: نخسف ونرسل ونعيدكم ونغرقكم كلها بالنون لقوله ﴿عَلَيْنَا﴾.

وقرأ الباقون: كلها بالياء لقوله (إياه). إلاّ أبا جعفر فإنه قرأ (تغرقكم) بالتاء يعني الريح.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ميمون بن مهران عن ابن عبّاس في قوله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ قال: كل شيء يأكل بفيه إلاّ ابن آدم يأكل بيديه، وعنه أيضًا بالعقل.

الضحاك: بالنطق وثمّ التمييز.

عطاء: تعديل القامة وامتدادها، يمان: بحسن الصورة.

محمّد بن كعب: بأن جعل محمّدًا منهم، وقيل: الرجال باللحى والنساء بالذوائب.

محمّد بن جرير: بتسليطهم على غيرهم من الخلق وتسخير سائر الخلق لهم.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعنى لذيذ المطاعم والمشارب.

مقاتل: السمن والزبد والتمر والحلاوة وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

قال قوم: قوله: ﴿كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ استثناء للملائكة.

قال الكلبى: فُضلوا على الخلائق كلهم غير طائفة من الملائكة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وأشباههم.

وقال الآخرون: المراد به جميع من خلقنا فالعرب قد تضع الأكثر والكثير فى موضع الجمع والكل، كقول الله عزّ وجلّ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢١-٢٢٣) والمراد به جميع الشياطين.

معمر عن زيد بن أسلم، فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ قال: قالت: الملائكة ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك فأعطنا فى الآخرة، فقال: وعزتى وجلالى لا أجعل ذرية من خلقت بيدى كما قلت له كن فيكون.

حماد بن سلمة عن أبى المهرم قال: سمعت أبا هريرة يقول: المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال مجاهد وقتادة: بنبيهم، يدل عليه ما روى السدى عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال: بنبيهم.

وقال أبو صالح وأبو نضر والضحاك وابن زيد: بكتابهم الذى أنزل عليهم وهى رواية ابن أبى نجيح عن مجاهد وعن على بن الحسين بن على المرتضى (عليهم السلام) عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال: «يؤتى كل قوم بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنّة نبيهم».

أبو العالية والحسن: بأعمالهم، ودليل هذا التأويل قوله تعالى فى سياق الآية ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الآية ونظيرها قوله ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس: ١٢) فسمى الكتاب إمامًا.

روى ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «من أنفق زوجين فى سبيل الله نودى من الجنة يا عبد الله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعى من

باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب (الريان)».

فقال أبو بكر الصديق (رضى الله عنه): يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما على من دُعى من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى من تلك الأبواب كلها أحد؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

وتصديق هذا القول أيضًا حديث الألوية والرايات.

باذان وسعيد بن جبير عن ابن عبّاس: بإمامهم الذى دعاهم فى الدنيا إلى الضلالة أو الهدى.

علىّ بن أبى طلحة: بأئمتهم فى الخير والشر.

قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (الأنبياء: ٧٣) قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ (القصص: ٤١)، وقيل: لمعبودهم.

محمّد بن كعب: بأمهاتهم.

قالت الحكماء: فى ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة أحدها: لأجل عيسى (عليه السلام)، والثانى: أخيار الشرف الحسن والحسين (عليهما السلام)، والثالث: لئلا يفضح أولاد الزنا.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ اختلفوا فى هذه الإشارة.

فقال قوم: هى راجعة إلى النعم التى عددها الله فى هذه الآيات.

عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عبّاس فسأله رجل عن هذه الآية فقال: اقرأ ما قبلها ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ إلى قول الله ﴿سَبِيلًا﴾ فقال ابن عبّاس: من كان فى هذه النعم التى رأى وعاين أعمى فهو فى أمر الآخرة التى لم ير ولم يعاين أعمى وأضل سبيلاً.

وقال آخرون: هى راجعة إلى الدنيا يقول من كان فى هذه الدنيا أعمى عن قدرة الله وآياته فهو فى الآخرة أعمى.

وقال أبو بكر الوراق: من كان فى هذه الدنيا أعمى عن حجته فهو فى الآخرة أعمى عن جنته.

وقال الحسن: من كان فى الدنيا ضالاً كافرًا فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، لأنه لم يتب فى الدنيا ففى الآخرة لا تقبل توبته.

واختلف القراء فى هذين الحرفين. فأمالها أهل الكوفة وفخمها الآخرون.

وأمّا أبو عمرو فكان يكسر الأول ويفتح الآخر يعنى فهو فى الآخرة أشد عمى لقوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هى اختيار أبى عبيدة.

قال الفراء: حدثنى بالشام شيخ من أهل البصرة أنه سمع من العرب تقول: ما أسود شعره.

قال الشاعر:

أما الملوك فأنت اليوم الأم   لؤمًا وأبيضهم سربال طباخ

❖ ❖ ❖

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآية اختلفوا فى سبب نزولها.

فقال سعيد بن جبير: كان النبى ﷺ يستلم الحجر الأسود فمنعته قريش وقالوا: لا ندعك حتّى تلم بآلهتنا فحدث نفسه وقال: ما علىّ أن ألمّ بها والله يعلم أنى لها كاره بعد أن يدعوننى أستلم الحجر فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

قتادة: ذكر لنا أن قريشًا خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصباح يكلمونه ويخيرونه ويسودونه ويقارنونه وكان فى قولهم أن قالوا: إنك تأتى بشىء لا يأتى به أحد من الناس وأنت سيدنا وابن سيدنا فما زالوا يكلمونه حتّى كاد يقاربهم فى بعض ما يريدون ثمّ عصمه الله تعالى من ذلك وأنزل هذه الآية.

مجاهد: مدح آلهتهم وذكرها ففرحوا. ابن (جموح): أتوه وقالوا له: ائت آلهتنا فأمسها فذلك قوله ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾.

ابن عبّاس: قدم وفد ثقيف على النبى ﷺ فقالوا: نبعايك على أن تعطينا ثلاث خصال.

قال: ما هن؟ فقالوا: لا ننحنى فى الصلاة، ولا نكسر أصنامًا بأيدينا (وتمتعنا باللات) سنة.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «لا خير فى دين لا ركوع فيه ولا سجود وأما أن لا تكسروا أصنامكم بأيديكم فذلك لكم وأما الطاعة للات فإنى غير ممتعكم بها».

فهنا قالوا لرسول الله : فإنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعطه غيرنا فإن كرهت ذلك وخشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله أمرنى بذلك ، فسكت رسول الله ﷺ ودعاهم ليؤمنوا ، فعرف عمر (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ كان لما سألوه فقال : ما لكم آذيتم رسول الله ﷺ أحرق الله أكبادكم إن رسول الله لا يدع الأصنام فى أرض العرب إما أن تسلموا وإما أن ترجعوا فلا حاجة لنا فيكم .

فأنزل الله تعالى هذه الآية ووعدهم رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك .

عطية عنه قالت ثقيف للنبى ﷺ : أجّلنا سنة حتّى نقبض ما يُهدى لآلهتنا فإذا قبضنا التى يُهدى لآلهتنا كسرناها وأسلمنا ، فهمّ رسول الله ﷺ أن يؤجلهم فأنزل الله تعالى ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ وقد هموا ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ليستزلونك ويصرفونك ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ﴾ لتختلق ﴿عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا﴾ لو فعلت ما دعوك إليه ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أى قالوك وصافوك ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ﴾ على الحق بعوننا ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾ تميل ﴿إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ ولو فعلت ذلك ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ المحتضر أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يعنى ضعّفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ناصراً يمنعك من عذابنا .

قال قتادة : فلما نزلت هذه الآيات ، قال رسول الله ﷺ : «اللهم لا تُكلنى إلى نفسى طرفة عين» .

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليستخفونك ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية .

قال الكلبى : إن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة حسدت اليهود مقامه بالمدينة وكرهوا قربه منهم فأتوا فقالوا : يا محمّد أنبىٌّ أنت؟ قال : نعم ، قالوا : والله لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء وإن أرض الأنبياء الشام ، وكان بها إبراهيم و(الأنبياء) ، فإن كنت نبيًا مثلهم فأت الشام وقد علمنا إنما يمنعك الخروج إليها مخافتك الروم وإن الله سيمنعك بها من الروم إن كنت رسوله وهى الأرض المقدسة وإن الأنبياء لا يكونون بهذا البلد .

فعسكر رسول الله ﷺ على ثلاثة أميال من المدينة أو أربعة أميال ، وفى بعض الروايات إلى ذى الحليفة ، حتّى ترتاد ويجتمع عليه أصحابه وينظر إليه الناس . فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ التى كنت بها وهى أرض المدينة .

وروى شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن الحكم : أن اليهود أتوا نبى الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم إن كنت صادقًا أنك نبى فالحق بالشام فإنها أرض المحشر والنشر وأرض الأنبياء فصدّق رسول الله ما قالوا وقد كان فى غزوة تبوك لا يريد بذلك إلاّ الشام فلما بلغ تبوك أنزل

الله عليه آية من سورة بنى إسرائيل بعدها ختمت السورة ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية وأمره بالرجوع إلى المدينة وقال: فيها خيلك وملكك وفيها مبعثك.

قال مجاهد وقتادة: همَّ أهل مكة عمدًا بإخراج النبى ﷺ من مكة ولو فعلوا ذلك لما توطنوا ولكن الله كفهم عن إخراجه حتّى أمره ولقلما لبثوا مع ذلك بعد خروج النبى ﷺ من مكة حتّى أهلكهم الله يوم بدر.

وهذا التأويل أليق بالآية لأن ما قبلها خبر من أهل مكة ولم يجد لليهود ذكر ولأن هذه السورة مكية.

وقيل: هم الكفار كلهم كادوا أن يستخفوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه فمنع الله رسوله ﷺ ولم ينالوا منه ما أملوا من الظفر ولو أخرجوه من أرض العرب لم يميلوا أن يقيموا فيها على كفرهم بل أهلكوا بالعذاب فذلك قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ أى بعدك وهى قراءة أبى عمرو وأهل الحجاز واختاره أبو عبيد.

وقرأ الباقون: خلافك واختاره أبو حاتم اعتبارًا بقوله ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٨١) ومعناه أيضًا بعدك.

قال الشاعر:

عفت الديار خلافها فكأنما ... بسط الشواطب منهن حصيرًا

أى بعدها.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ حتّى تهلكوا ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أى كسنّتنا فيمن أرسلنا قبلك من رسلنا إذا يكذبهم الأُمم أهلكناهم بالعذاب ولا يعذبهم ما دام فيهم بين أظهرهم فإذا خرج نبيهم من بين أظهرهم عذبناهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ تبديلاً.



﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۝﴾

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ قال إبراهيم النخعى ومقاتل بن حيان والسدى ويمان وابن زيد: دلوكها غروبها. قال الشاعر:

هذا مقام قدمى رياح غدوة حتّى هلكت براح

أى غربت الشمس، وبراح اسم للشمس مثل قطام وجذام ورفاش.

ويروى، براح بكسر الباء يعنى أن الناظر يضع كفه على حاجبه من شعاعها لينظر ما بقى من غبارها، ويقال ذلك للشمس إذا غابت.

قال ذو الرمة:

مصابيح ليست باللواتى يقودها نجوم لا بالآفلات الدوالك

ودليل هذا التأويل حديث عبد الله بن مسعود أنه كان إذا غرب الشمس صلى المغرب وأفطر إن كان صائمًا ويحلف بالله الذى لا إله إلاّ هو أن هذه الساعة لميقات هذه الصلاة وهى التى قال الله ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾.

وقال ابن عمر وابن عبّاس وجابر بن عبد الله وأبو العالية وعطاء وقتادة ومجاهد والحسن ومقاتل وجعفر بن محمّد وعبيد بن حجر: دلوكها زوالها، وبه قال الشافعى (رضى الله عنه)، يدل عليه حديث أبى مسعود عقبة بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبرائيل لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بى الظهر».

وقال أبو برزة: كان رسول الله ﷺ يصلى الظهر إذا زالت الشمس ثمّ تلا هذه الآية ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾.

قال جابر بن عبد الله: دعوت النبى ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندى ثمّ خرجوا حين زالت الشمس فخرج النبى ﷺ وقال: «اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس».

وعلى هذا التأويل تكون الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها، فدلوك الشمس صلاة الظهر والعصر، وغسق الليل صلاتا العشاء، وتصديق هذا التفسير إن جبرائيل (عليه السلام) حين علم رسول الله ﷺ كيفية الصلاة إنما بدأ بصلاة الظهر.

وروى محمّد بن عمار عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «جاءنى جبرائيل ﷺ فصلى

صلاة الظهر حين زاغت الشمس ثمّ جاءنى فصلى العصر حين كان ظل كل شىء مثله، ثمّ صلى بى المغرب حين غربت الشمس ثمّ صلى بى العشاء حين غاب الشفق ثمّ جاءنى فصلى بى الصبح حين طلع الفجر، ثمّ جاءنى فى الغد فصلى بى الظهر حين كان ظل كلّ شىء مثله ثمّ صلى بى العصر حين كان ظل كلّ شىء مثليه ثمّ صلى بى المغرب حين غربت الشمس ثمّ صلى بى العشاء حين ذهب ثلث الليل ثمّ صلى بى الصبح حين أسفر ثمّ قال: هذه صلاة النبيين من قبلك فالزمهم».

عطاء بن أبى رباح عن جابر قال: إن جبرائيل أتى النبى ﷺ يعلمه مواقيت الصلاة فتقدم جبرائيل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلى الظهر حين زالت الشمس وأتاه حين كان الظل مثل شخصه فصنع كما صنع فتقدم جبرائيل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلى العصر، ثمّ أتاه حين وجبت المغرب وقد تقدم جبرائيل ورسول الله خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلى المغرب، ثمّ أتاه حين غاب الشفق فتقدم جبرائيل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلى العشاء، ثمّ أتاه جبرائيل حين انشق الفجر فتقدم جبرائيل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلى الغداة. ثمّ أتاه اليوم الثانى حين كان ظل الرجل مثل شخصه فصنع مثل ما صنع بالأمس صلى الظهر، ثمّ أتاه حين كان ظل الرجل منّا مثل شخصيه فصنع كما صنع بالأمس فصلى العصر ثمّ أتاه حين وجبت الشمس فصنع كما صنع بالأمس فصلى المغرب متمنيًا ثمّ تمنا ثمّ قمنا فأتاه فصنع كما صنع بالأمس فصلى العشاء. ثم ابتدأ الفجر وأصبح والنجوم بادية مشتبكة فصنع كما صنع بالأمس فصلى الغداة ثمّ قال: ما بين هاتين الصلاتين وقت.

وعن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عبّاس أن رسول الله ﷺ قال: «أتانى جبرائيل عند باب الكعبة مرتين فصلى الظهر حين كان الفىء مثل الشراك ثمّ صلى العصر حين كان كل شىء بقدر ظله ثمّ صلى المغرب حين أفطر الصائم ثمّ صلى العشاء حين غاب الشفق ثمّ صلى الصبح حين حرم الطعام والشراب على الصائم ثمّ صلى الظهر فى المرة الأخيرة حين كان كل شىء بقدر ظله لوقت العصر بالأمس، ثمّ صلى العصر حين كان ظل شىء مثليه ثمّ صلى المغرب للوقت الأول لم يؤخرها ثمّ صلى العشاء الأخيرة حين ذهب ثلث الليل ثمّ صلى الصبح حين أسفر ثمّ التفت فقال: يا محمّد هذا وقت الأنبياء من قبلك، الوقت فيما بين هذين الوقتين».

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ إقباله بظلامه.

قال ابن عبّاس: بدو الليل. قتادة: صلاة المغرب.

مجاهد: غروب الشمس. أبو عبيدة: سواده.

ابن قيس الرقيات:

إن هذا الليل قد غسقا فاشتكيت الهم والأرقا

وقيل: غسق يغسق غسوقًا.

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أى صلاة الفجر فسمى الصلاة قرآنا لأنها لا تجوز إلاّ بقرآن، وقيل: يعنى قرآن الفجر ما يقرأ به فى صلاة الفجر.

وانتصاب القرآن من وجهين: أحدهما: أنه عطف على الصلاة أى أقم قرآن الفجر، قاله الفراء، وقال أهل البصرة: على (الإغراء) أى وعليك بقرآن الفجر.

وقال بعضهم: اجتماعه وبيانه وحينئذ يكون مجاز أقم الصلاة لدلوك الشمس بقرآن الفجر.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يشهد ملائكة الليل وملائكة النهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار، وفى هذه الآية دليل واضح على تعلق وجوب الصلاة بأول الوقت فاستحباب التغليس بصلاة الفجر.

الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح».

قال: يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ أى قم بعد نومك وصل.

قال المفسرون: لا يكون التهجد إلاّ بعد النوم يقال: تهجد إذا سهر، وهجد إذا نام.

وقال بعض أهل اللغة: يقال تهجد إذا نام وتهجد إذا سهر وهو من الأضداد.

روى حميد بن عبد الرحمن بن عوف: عن رجل من الأنصار أنه كان مع رسول الله ﷺ فى سفر وقال: لأنظرنّ كيف يصلى النبى ﷺ قال: فنام رسول الله ﷺ ثمّ استيقظ فرفع رأسه إلى السماء فتلا أربع آيات من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ (آل عمران: ١٩٠) ثمّ أهوى بيده إلى القربة وأخذ مسواكًا فاستّن به ثمّ توضأ ثمّ صلى ثمّ نام ثمّ استيقظ، فصنع كصنيعه أول مرة، ويزعمون أنه التهجد الذى أمره الله تعالى.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ قال ابن عبّاس: خاصة لك، مقاتل بن حيان: كرامة وعطاء لك.

ابن عبّاس: فريضتك.

وقال: أُمر النبى ﷺ بقيام الليل خاصة وكتبت عليه، ويكون معنى النافلة على هذا القول فريضة فرضها الله عليك فضلاً عن الفرائض التى فرضها الله علينا زيادة.

وقال قتادة: تطوعًا وفضيلة.

وقال بعض العلماء: كانت صلاة الليل فرضًا عليه فى الابتداء ثمّ رخص له فى تركها فصارت نافلة.

وقال مجاهد: والنافلة للنبى ﷺ خاصة من أجل أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما عمل من عمل سوى المكتوبة فهو نافلة له من أجل أنه لا يعمل ذلك كفارة لذنوبهم، فهى نوافل له وزيادة للناس يعملون ويصلون ما سوى المكتوبة لذنوبهم فى كفارتها فليست للناس نوافل.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

قال أهل التأويل: عسى ولعلّ من الله جزاء لأنه لا يدع أن يفعل لعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء على طاعاتهم لأنه ليس من صفته الغرور، ولو أن رجلاً قال لآخر: اهدنى والزمنى لعلى أن أنفعك فلزمه ولم ينفعه مع إطماعه فيه ووعده لكان عارًا له وتعالى الله عن ذلك، وأما المقام المحمود فالمقام الذى يشفع فيه لأُمته يحمده فيه الأولون والآخرون.

عاصم بن أبى النجود عن زيد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت ابن أبى قحافة خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله ثمّ قرأ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾».

وعن حذيفة بن اليمان قال: يُجمع الناس فى صعيد واحد فلا تكلم نفس فتكون أول من يدعو محمّدًا ﷺ فيقول: لبيك وسعديك والخير فى يديك والشر ليس إليك، والمهدى من هديت، وعبدك بين يديك وبك وإليك لا ملجأ ولا منجًا منك إلاّ إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فذلك قوله تعالى ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

قتادة عن مأمون بن مالك عن النبى ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم (عليه السلام) فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله عزّ وجلّ بيده وأسجد لك ملائكته وعلّمك أسماء كل شىء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من هذا المكان فيقول لهم لست هناك، ويذكر ذنبه الذى أصابه فيستحى ربه من ذلك ولكن ائتوا نوحًا فإنه أول الرسل بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحًا فيقول لست هناك ويذكر خطيئته وسؤاله ربه هلاك قومه فيستحى ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن

فيأتون إبراهيم (عليه السلام) فيقول: لست هناك ولكن ائتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتون موسى (عليه السلام) فيقول: لست هناك، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس فيستحى من ذلك فيقول ائتوا عيسى عبد الله ورسوله هو كلمة الله وروحه، فيأتون عيسى عليه السلام فيقول هناك ولكن ائتوا محمّداً عبداً غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوننى فأقوم وأمشى بين سماطين من المؤمنين حتّى أستأذن على ربى فيؤذن لى فإذا رأيت ربى خررت ساجداً لربى فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثمّ يقول: ارفع رأسك ثم يقول: قلْ يسمع وسل تعط واشفع تشفع، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ثمّ أشفع فيحدّ لى حدّاً فأدخلهم الجنة، ثمّ أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربى وقعت أو خررت ساجداً لربى فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثمّ يقول: ارفع يا محمّد رأسك قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع، فأرفع رأسى فأحمد بتحميد يعلمنيه ثمّ أشفع فيحدّ لى حدّاً فأدخلهم الجنة.

ثمّ أعود إليه الثالثة فإذا رأيت ربى وقعت وخررت ساجداً لربى فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثمّ يقال ارفع يا محمّد رأسك قل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى فأحمده تحميداً يعلمنيه ثمّ أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة ثمّ أعود إليه الرابعة، وأقول يا رب ما بقى إلاّ من حبسه القرآن.

قال أنس بن مالك: إن النبى ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثمّ يخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة».

وروى أبو عاصم محمّد بن أبى أيوب الثقفى عن يزيد بن صهيب قال: كنت قد شغلنى رأى من رأى الخوارج وكنت رجلاً شابًا، قال: فخرجنا فى عصابة ذوى عدد يريد أن يحج ثمّ يخرج على الناس فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله يحدث القوم عن رسول الله ﷺ جالس إلى سارية وإذا هو قد ذكر الجهنميين فقلت له: يا صاحب رسول الله ما هذا الذى تحدث والله عزّ وجلّ يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ (آل عمران: ١٩٢) ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ (الحج: ٢٢).

فقال لى: تقرأ القرآن؟ قلت: نعم فقال: فهل سمعت مقام محمّد المحمود الذى يبعثه الله فيه؟ قلت: نعم، قال: فإنه مقام محمّد ﷺ المحمود الذى يخرج الله به من يخرج من النار.

ثمّ نعت وضع الصراط ومرور الناس عليه قال: وأخاف أن لا أكون حفظت ذلك غير أنه قد زعم أن قومًا يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها، قال: فيخرجون كأنهم عيدان

السماسم فيدخلون نهراً من أنهار الجنة فيغتسلون فيه فيخرجون كأنهم القراطيس. قال: فرجعت وقلنا أيرون كهذا الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ فوالله ما خرج منا غير رجل واحد.

الزهرى عن على بن حسين قال: قال النبى ﷺ: «إذا كان يوم القيامة مدّ الأرض مدّ الأديم (. . . . .)[1] حتّى لا يكون لبشر من الناس إلاّ موضع قدميه».

قال النبى ﷺ: «فأكون أنا أول من يدعى وجبرائيل عن يمين الرحمن والله ما رآه قبلها، وأقول: يا رب إن هذا أخبرنى أنك أرسلته إلىّ فيقول الله تعالى: صدق، ثمّ أشفع فأقول يا رب عبادك عبدوك فى أطراف الأرض قال: وهو المقام المحمود».

وروى سفيان عن سلمة بن سهيل عن أبى الزعراء قال: قال عبد الله: يكون أول شافع يوم القيامة روح القدس جبرائيل ثمّ إبراهيم ثمّ موسى ثمّ عيسى ثمّ يقوم نبيكم ﷺ رابعًا فلا يشفع أحد بعده فيما يشفع فيه وهو المقام المحمود.

سعيد بن عروبة عن قتادة عن أنس أن النبى ﷺ قال: إن البراق قال لجبرائيل: والذى بعثك بالحق لا يركبنى حتّى يضمن لى الشفاعة.

عبد الله بن إدريس عن عبد الله عن نافع عن ابن عمرو قال: إن رسول الله ﷺ قرأ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾.

قال: يدنينى فيقعدنى معه على العرش.

ابن فنجويه: أجلسنى معه على سريره.

أبو أُسامة عن داود بن يزيد (الأزدى) عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ قال: «الشفاعة».

عاصم عن أبى وائل عن عبد الله قال: إن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً وإن صاحبكم خليل الله وأكرم الخلق على الله ثمّ قرأ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ قال: يقعده على العرش.

وروى سعيد الجروى عن سيف السدوى عن عبد الله بن سلام قال: إذا كان يوم القيامة يأتى نبيكم ﷺ فيقعد بين يدى الرب عزّ وجلّ على الكرسى.

وروى ليث عن مجاهد فى قوله عزّ وجلّ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ قال: يجلسه على العرش.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال الأستاذ الإمام أبو القاسم الثعلبي : هذا تأويل غير مستحيل لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء قائمًا بذاته ثمّ خلق الأشياء من غير حاجة له إليها ، بل إظهارًا لقدرته وحكمته ليعرف وجوده وحده وكمال علمه وقدرته بظهور أفعاله المتقنة بالحكمة ، وخلق لنفسه عرشًا استوى عليه كما يشاء من غير أن صار له مما شاء أو كان له العرش مكان بل هو الآن على الصفة التي كان عليها قبل أن يخلق المكان والزمان ، فعلى هذا القول سواء أقعد محمداً ﷺ على العرش أو على الأرض لأن استواء الله على العرش ليس بمعنى الاستقبال والزوال أو تحول الأحوال من القيام والقعود أو الحال الذي يشغل العرش ، بل هو مستو على عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كيف ، وليس إقعاده محمّداً ﷺ على العرش موجبًا له صفة الربوبية أو مخرجًا إياه من صفة العبودية بل هو رفع لمحله وإظهار لشرفه وتفضيل له على غيره من خلقه ، وأما قولهم : في الأخبار معه ، فهو شابه قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ (الأعراف : ٢٠٦) و﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ (التحريم : ١١) ونحوهما من الآيات ، كل ذلك راجع إلى الرتبة والمنزلة لا إلى المكان والجهة والله أعلم .

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ قرأه العامّة : بضم الميمين على معنى الإدخال والإخراج .

وقرأ الحسن : بفتحهما على معنى الدخول والخروج .

واختلف المفسرون في تأويلها .

فقال ابن عبّاس والحسن وقتادة ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ من مكة نزلت حين أمر رسول الله ﷺ بالهجرة فروى أبو حمزة الثمالي عن جعفر بن محمّد عن محمّد بن المنكدر قال : قال رسول الله ﷺ : «حين دخل الغار ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ يعني الغار ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي﴾ من الغار ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ إلى المدينة» .

وقال الضحاك : ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ من مكة آمنًا من المشركين ﴿أَدْخِلْنِي﴾ مكة ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ ظاهراً عليها بالفتح .

عطية عن ابن عبّاس ﴿أَدْخِلْنِي﴾ القبر ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ عند الموت ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ من القبر ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ عند البعث .

الكلبي ﴿أَدْخِلْنِي﴾ المدينة ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ حين أدخلها بعد أن قصد الشام ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ منها إلى مكة افتحها لي .

مجاهد ﴿أَدْخِلْنِي﴾ في أمرك الذي أدخلتني به من النبوة ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي﴾ منه

﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

قتادة عن الحسن: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ فى طاعتك ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ﴾ بالصدق أى سالمًا غير مقصر فيها.

وقيل: معناه ﴿أَدْخِلْنِي﴾ حيث ما أدخلتنى بالصدق ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ بالصدق أى لا تجعلنى ممن أدخل بوجه وأخرج بوجه فإن ذا الوجهين لا يكون أمينًا عند الله.

﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ مجاهد: حجة بينة.

قال الحسن: يعنى ملكًا قويًا ينصرنى به على من والانى وعزًّا ظاهرًا أُقيم به دينك، قال: فوعده الله تعالى لينزعن ملك فارس والروم وعزتهما فيجعله له.

قتادة: إن نبى الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلاّ بسلطان فسأل سلطانًا نصيرًا بكتاب الله وحدوده، وفرائضه وإقامة دينه وإن السلطان رحمة من الله جعلها من أظهر عباده لا يقدر بعضهم على بعض وأكل شديدهم ضعيفهم.

وقيل: هو فتح مكة.

وروى موسى بن إسماعيل عن حماد عن الكلبى فى قوله ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ قال: سلطانه النصير.

عتاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية: استعمله رسول الله ﷺ على أهل مكة (قال له:) انطلق فقد استعملتك على أهل الله يعنى مكة فكان شديدًا على (المنافقين) لينًا للمؤمنين.

قال: لا والله لا أعلم متخلفًا ينطلق عن الصلاة فى جماعة إلاّ ضربت عنقه فإنه لا يتخلف عنها إلاّ منافق.

فقال أهل مكة: يا رسول الله تستعمل على أهل الله: عتاب بن أسيد أعرابيًا حافيًا؟

فقال رسول الله ﷺ: «إنى رأيت فيما يرى النائم، كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب ففلقها لا شديدًا حتّى فتح له فدخلها فأعز الله به الإسلام لنصرته المؤمنين على من يريد ظلمهم فذلك السلطان النصير».

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يعنى أتى ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أى ذهب الشيطان وهلكه، قاله قتادة.

وقال السدى: الحقّ الإسلام، والباطل الشرك. وقيل: الحق دين الرحمن والباطل الأوثان.

وقال ابن جريج: الحق الجهاد والقتال.

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ذاهبًا.

يقال: زهقت نفسه إذا خرجت وزهق السهم إذا جاوز الفرض فاستمر على جهته.

قال ابن مسعود وابن عبّاس: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا، صنم كل قوم بحيالهم ومعه مخصرة فجعل يأتى الصنم فيطعن فى عينه أو فى بطنه ثمّ يقول ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ فجعل الصنم ينكب لوجهه وجعل أهل مكة يتعجبون، ويقولون فيما بينهم ما رأينا رجلاً أسحر من محمّد.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى بيان من الضلالة والجهالة بيّن للمؤمن ما يختلف فيه ويشكل عليه، فيشفى به من الشبهة ويهدى به من الحيرة وإذا فعل ذلك رحمه الله، فهو شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها كما يشفى المريض إذا زالت العلل عنه.

قتادة: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لأنه لا ينتفع به ولا يحفظهُ ولا يعيه.

وقال همام: سمعت قتادة يقول: ما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان ثمّ قرأ هذه الآية.

وروت ساكنة بنت الجرود قالت: سمعت رجاء الغنوى يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَن لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله».

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وتباعدنا بنفسه.

وقال عطاء: تعظم وتكبر.

واختلف القراء فى هذا الحديث، فقرأ أبو عمرو وعاصم ونافع وحمزة فى بعض الروايات عنهم: بفتح النون وكسر الهمزة على الإمالة.

وقرأ الكسائى وخلف وحمزة فى سائر الروايات: بكسرهما، اتبعوا الكسرة.

وقرأ أكثرهم: بفتحهما على التفخيم وهى اللغة العالية.

وقرأ أبو جعفر وعامر: بالنون ولها وجهان: أحدهما: مقلوبة من نأى كما يقال رأى ورأ، والثانى: إنها من النوء وهو النهوض والقيام ويقال أيضًا للوقوع الجلوس نوء وهو من الأضداد.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الشدة والضر ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ قنوطًا ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾.

قال ابن عبّاس: على ناحيته. مجاهد: على حدته.

الحسن وقتادة: على نيته. ابن زيد: على دينه.

مقاتل: على جدلته. الفراء: على طريقته التى جبل عليها.

أبو عبيدة والقتيبى: على خليقته وطبيعته.

وهو من الشكل، يقال: لست على شكلى وشاكلتى، وقيل: على سبيله الذى اختاره لنفسه، وقيل: على اشتباهه من حولهم، أشكل علىّ الأمر أى اشتبه، وكل هذه الأقاويل متقاربة.

يقول العرب: طريق ذو شواكل إذا ينشعب الطرق (منه)، ومجاز الآية: كل يعمل ما يشبهه، كما قيل فى المثل السائر: كل امرئ يشبه فعله ما فعل المروء فهو أهله.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ﴾.

الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: كنت أمشى مع النبى ﷺ بالمدينة وهو متكئ على عسيب فمرَّ بقوم من اليهود، فقال بعضهم: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، فقام متكأ على العسيب، قال عبد الله، وأنا خلفه فظننت أنه يوحى إليه فقال ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فقال بعضهم لبعض: قلنا لكم لا تسألوه، وفى غير الحديث عن عبد الله، قالوا: فكذلك نجد مثله إن الروح من أمر الله تعالى.

وقال ابن عبّاس: قالت اليهود للنبى ﷺ أخبرنا ما الروح وكيف يعذب الروح فى الجسد ولم يكن نزل فيهم شىء؟ فلم يجبهم فأتاه جبرائيل (عليه السلام) بهذه الآية.

ويروى أن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمّد وحاله اسألوا محمداً عن الروح. وعن فتية فقدوا فى الزمان الأوّل، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها،

فإن أجاب فى ذلك كله فهو نبى وإن لم يجب من ذلك كله فليس بنبى، وإن أجاب فى بعض ذلك وأمسك عن البعض فهو نبى فسألوا النبى ﷺ عنها فأنزل الله عزّ وجلّ فيما سألوه عن الفتية قوله ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ (الكهف: ٩) إلى آخر القصة.

وأنزل عن الرجل الذى بلغ شرق الأرض وغربها ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ (الكهف: ٨٣) إلى آخر القصة.

وأنزل فى الروح قوله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآية.

واختلفوا فى هذا الروح المسئول عنه ما هو: فقال الحسن وقتادة: هو جبرائيل.

قال قتادة: وكان ابن عبّاس يكتمه.

وروى أبو الميسرة ممن حدثه عن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) أنه قال: فى قوله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآية، قال: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه لكل وجه منها سبعون ألف لسان لكل لسان منها سبعون ألف لغة، يسبح الله عزّ وجلّ بتلك اللغات كلها، يخلق من كل تسبيحة ملك يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة.

ابن عبّاس: الروح خلق من خلق الله صورهم على صور بنى آدم، وما نزل من السماء ملك إلاّ ومعه واحد من الروح.

أبو صالح: الروح كهيئة الإنسان وليسوا بناس.

مجاهد: الروح على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورءوس يأكلون الطعام وليسوا بملائكة.

سعيد بن جبير: لم يخلق الله خلقًا أعظم من الروح غير العرش ولو شاء أن بلع السموات السبع والأرضين السبع ومن فيها بلقمة واحدة لفعل، صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين، فيقوم يوم القيامة وهو ممن يشفع لأهل التوحيد لولا أن سندس الملائكة سترًا من نور لاحترق أهل السموات من نوره.

وقال قوم: هو الروح المركب فى الخلق الذى يفقده (. . . .)[1].

وقال بعضهم: أراد بالروح القرآن وذلك أن المشركين قالوا: يا محمّد من أتاك بهذا القرآن، فأنزل الله تعالى هذه الآية وبيّن أنه من عنده ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعنى القرآن ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ ناصرًا ينصرك ويرده عليك.

وقال الحسن: وكيلاً ناصرًا يمنعك منا إذا أردناك.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يعنى لكن لا يشاء ربك رحمة من ذلك، ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ خرج وهو معصوب الرأس من وجع فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «أيها الناس ما هذه الكتب التى يكتبون الكتاب غير كتاب الله يوشك أن يغضب الله لكتابه فلا يدع ورقًا إلاّ قليلاً إلاّ أخذ منه».

قالوا: يا رسول الله فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ؟ قال: «من أراد الله به خيرًا أبقى فى قلبه لا إله إلاّ الله».

وروى شداد بن معقل عن عبد الله بن مسعود قال: إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة والمصلين، قوم لا دين لهم، وإن هذا القرآن تصبحون يومًا وما معكم منه شىء، فقال رجل: كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن وقد أثبتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة.

قال: يسرى به فى ليلة فيذهب بما فى المصاحف وما فى القلوب (فتصبح الناس كالبهائم) ثمّ قرأ عبد الله ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية.

وروى موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن ناجية بن عبد الله بن عتبة عن أبيه عن عبد الله قال: أكثروا الطواف بالبيت قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه وأكثروا تلاوة القرآن قبل أن يرفع؟ قالوا: هذه المصاحف ترفع فكيف بما فى صدور الرجال؟

قال: يسرى عليه ليلاً يصبحون منه فقراء (وينسون) قول لا إله إلاّ الله فيتبعون قول أهل الجاهلية وأشعارهم فذلك حين يقع عليهم القول.

وعن عبد الله بن عمرو قال: لا تقوم الساعة حتّى يرفع القرآن من حيث نزل له دوى كدوى النحل فيقول الله تعالى: ما بالك، فيقول: منك خرجت وإليك أعود أُتلى ولا يعمل فىَّ.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ لا يقدرون على ذلك.

قال السدى: لا يأتون بمثله لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقًا لأتوا بمثله.

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ عونًا.

نزلت هذه الآية حين قال الكفار: لو شئنا لقلنا مثل هذا فأكذبهم الله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ جحودًا.

❖ ❖ ❖

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٩٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۝٩٩ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ۝١٠٠﴾

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾.

عكرمة عن ابن عبّاس أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البحترى بن هشام، والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيهًا ومنبهًا ابنى الحجاج اجتمعوا ـ أو من اجتمع منهم ـ بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة.

فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمّد وكلموه وخاصموه حتّى تعذروا فيه، فبُعث إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا وهو (يظن بأنه) بدا لهم فى أمره بداءً، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم.

فقالوا: يا محمّد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقى أمر قبيح إلاّ وقد جئته فيما بيننا (وبينك)، وإن كنت إنما جئت بهذا

الحدث تطلب به مالاً حزنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك به رئى قد غلب عليك - فكانوا يسمون من الجن من يأتى الإنسان بالخير والشر فربما كان ذلك - بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتّى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال رسول الله ﷺ: «ما بى ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم أطلب به أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً وأنزل علىَّ كتابًا وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتّى يحكم الله بينى وبينكم».

فقالوا: يا محمّد وإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلاداً ولا أقل مالاً ولا أشد عيشًا منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليُسيّر عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن ممن يبعث لنا فيهم قصى بن كلاب فإنه كان شيخًا صدوقًا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثنى به فقد بلغتكم ما أرسلت به فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتّى يحكم الله بينى وبينكم».

قالوا: فإن لم تفعل هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكًا يصدقك وسله فيجعل لك تيجان وكنوزًا وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك فإنا نراك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «(ما أنا بفاعل) ما أنا بالذى يسأل ربه هذا وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً».

قالوا: فأسقط السماء (علينا كسفًا) كما زعمت أن ربك (إن) شاء فعل.

فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك».

قالوا: قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمان، وإنّا والله لا نؤمن بالرحمان أبدًا فقد أعذرنا إليك يا محمّد أما والله لا نتركك وما بلغت منا حتّى نهلكك أو تهلكنا.

وقال قائل منهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾.

فلما قالوا ذلك قام النبى ﷺ، وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال له: يا محمّد عرض عليك ما عرضوا فلم تقبل منهم ثمّ سألوك لأنفسهم أمرًا ليعرفوا به منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثمّ سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أومن بك أبدًا حتّى تتخذ إلى السماء سلمًا ثمّ ترقى فيه وأنا أنظر حتّى تأتيها وتأتى بنسخة مصورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت ألاّ أصدقك، ثمّ انصرف وانصرف رسول الله ﷺ.

فقال أبو جهل، حين قام رسول الله ﷺ: يا معشر قريش إن محمّدًا قد أتى إلا ما ترون مَنْ عيّب ديننا وشتم آلهتنا وسفّه أحلامنا وسبّ آباءنا فإنى أعاهد الله لأجلسنّ له عند الحجر قدر ما أطيق حمله وإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه.

وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا لما فاته من متابعة قومه ولما رأى من مباعدتهم فأنزل الله تعالى ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾.

قال أهل الكوفة: (تفجر) خفيفة بفتح التاء وضم الجيم، واختاره أبو حاتم لأن الينبوع واحد.

(قرأ) الباقون بالتشديد على التفعيل، واختاره أبو عبيد ولم يختلفوا فى الثانية أنها مشددة لأجل الأنهار لأنها جمع، والتشديد يدل على التكثير من الأرض يعنى أرض مكة ينبوعًا يعنى عيونًا هو مفعول من نبع الماء.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا﴾ وسطها ﴿تَفْجِيرًا﴾ (رقيقًا) ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قرأ أكثر قراء العراق: بسكون السين أى قطعة أجمع كسفه وهو جمع الكثير، مثل تمرة وتمر وسدرة وسدر.

تقول العرب: أعطنى كسفة من هذا الثوب أى قطعة، ويقال: منه جاءنا ببريد كسف أى قطع خبز، وقيل: أراد جاثيًا.

وفتح الباقون السين، وهو القطع أيضًا جمع القليل للكسفة.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾.

قال ابن عبّاس: كفيلاً. الضحاك: ضامنًا. مقاتل: شهيدًا.

مجاهد: جمع القبيلة أى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة.

قتادة: عيانًا. الفراء: هو من قول العرب: لقيت فلانًا قبلاً وقبلا أى معاينة.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ من ذهب وأصله الزينة.

مجاهد: كنت لا أدرى ما الزخرف حتّى رأيته فى قراءة ابن مسعود: بيت من ذهب.

﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ تصعد ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أى من أجل رقيك صعودك ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ أمرنا فيه باتباعك ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿سُبْحَانَ رَبِّى﴾.

وقرأ أهل مكة والشام: (قال سبحان ربى) يعنى محمد ﷺ ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ وليس ما سألتم فى طوق البشر ولا قدرة الرسل ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ﴾ جهلاً منهم ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ وأن الأُولى فى محل النصب والثانية فى محل الرفع وفى الآية اختصار فتأويلها هلاً بعث الله ملكًا رسولاً فأجابهم الله تعالى ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ مستوطنين مقيمين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ لأن الملائكة إنما تبعث إلى الملائكة ويراهم الملائكة ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ إنه رسوله إليكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ إلى قوله ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ دونهم ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾.

شيبان عن قتادة عن أنس: أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال نبى الله ﷺ: «إن الذى أمشاه على رجله قادر أن يمشيه على وجهه (فى النار)».

وروى حماد بن سلمة عن على بن يزيد عن أوس بن خالد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفًا مشاة وصنفًا ركبانًا وصنفًا يمشون على وجوههم».

قيل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك».

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ إن قيل: وكيف وصف الله عزّ وجلّ هؤلاء يأتيهم يوم القيامة عمى وصم وبكم، وقال تعالى ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ (الكهف: ٥٣) فقال: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ (الفرقان: ١٢) وقال ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (الفرقان: ١٣) والجواب عنه ما قال ابن عبّاس: عميًا لا يرون شيئًا يسرهم، بكمًا لا ينطقون بحجة، صمًا لا يسمعون شيئًا يسرهم.

وقال الحسن: هذا حين (جاءتهم) الملائكة وحين يساقون إلى الموقف عُمى العيون وزرقها سود الوجوه إلى أن يدخلوا النار.

مقاتل: هذا حين يقال لهم: اخسئوا فيها ولا تكلمون، فيصيرون بأجمعهم عميًا بكمًا

صمًا لا يرون ولا يسمعون ولا ينطقون بعد ذلك.

وقيل: عميًا لا يبصرون الهدى، وبكمًا لا ينطقون بخير، وصمًا لا يسمعون الحق.

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عبّاس: (سكنت) مجاهد: (طفيت) قتادة: لانت وضعفت.

﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ وقودًا ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فأجابهم الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فى عظمها وشدتها وكثرة أجزائها وقوتها ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فى صغرهم وضعفهم نظيره قوله ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ (المؤمن: ٥٧) وقوله ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ (النازعات: ٢٧).

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ أى وقتًا لعذابهم وهلاكهم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه إليهم، وقيل: إن هذا جواب لقولهم ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾، وقيل: هو يوم القيامة، وقيل: هو الموت الذى يعاينونه ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ جحودًا ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ أىّ أملاك ربى وأمواله وأراد بالرحمة ههنا الرزق ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ لبخلتم وحبستم ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ أى الفاقة، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أى بخيلاً ممسكًا ضيقًا.



﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ۝ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ۝ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ

ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ قال ابن عبّاس والضحاك: هى العصا واليد البيضاء والعقدة التى كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

وقال: عكرمة: مطر، الوراق وقتادة ومجاهد والشعبى وعطاء: هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات.

وعن محمّد بن كعب القرظى قال: سألنى عمر بن عبد العزيز عن الآيات التسع، فقلت: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات وعصا موسى ويده والطمس والبحر.

فقال عمر: وأنا أعرف أن الطمس إحداهن.

قال محمّد بن كعب: إن رجلاً منهم كان مع أهله فى فراشه وقد صارا حجرين، وإن المرأة منهم لقائمة تختبز وقد صارت حجراً، وإن المرأة منهم لفى الحمام وإنها تصير حجراً. فقال عمر: كيف يكون الفقه إلاّ هكذا ثمّ دعا بخريطة فيها أشياء مما كانت أُصيبت لعبد العزيز بن مروان بمصر حين كان عليها من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة مشقوقة (قطعًا) وإنها لحجر وأخرج الجوزة مشقوقة وإنها لحجر وأخرج أشباه ذلك من الفواكه وإنها لحجارة، وأخرج دراهم ودنانير وفلوسًا وإنها لحجارة. فعلى هذا القول يكون الآيات بمعنى الدلالات والمعجزات.

وقال بعضهم: هى بمعنى آيات الكتاب.

روى شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن صفوان بن غسان المرادى: أن يهوديًا قال لصاحبه: تعالَ حتّى نسأل هذا النبى، فقال الآخر: لا تقل نبى لأنه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

فقال ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئًا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلاّ بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبرىء إلى سلطان ليقتله ولا تسرقوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تولوا يوم الزحف، وعليكم خاصة فى اليهود أن لا يتعدوا فى السبت».

فقبّلوا يده وقالوا: نشهد أنّك نبى، قال: «فما يمنعكم أن تتبعونى؟» قالوا: إن داود دعا أن لا يزال فى ذريته نبى، وإنّا نخاف إن اتبعناك تقتلنا اليهود.

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ موسى (عليه السلام)، وهو قراءة العامة، وروى حنظلة السدّوسى عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أنّه قرأ ﴿فَسَـٰلَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ على الخبر وقال: سأل موسى فرعون أن يخلّى سبيل بنى إسرائيل ويرسلهم معه.

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أى قد سحروك، قاله الكلبى، وقال ابن عباس: مخدوعًا، وقال محمد بن جرير: يعطى علم السحر فهذه العجائب التى يفعلها من سحرك، وقال الفرّاء وأبو عبيد: ساحراً فوضع المفعول موضع الفاعل، كما قال: هو مشؤوم وميمون أى شائم ويامن، وقيل: معناه: وإنّى لأعلمك يا موسى بشراً ذا سحر، أى له رئة.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ قراءة العامة بفتح التاء خطابًا لفرعون، وقرأ الكسائى بضم التاء وهى قراءة على.

روى شعبة عن أبى إسحاق عن رجل من مراد عن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) أنه قرأها: (لقد علمتُ) برفع التاء وقال: والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذى علم، قال: فبلّغت ابن عباس فقال: إنها لقد علمتُ تصديقًا لقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ (النمل: ١٤).

قال أبو عبيد: والمأخوذ عندنا نصب التاء، وهو أصح من المعنى الذى احتج به ابن عباس، ولأن موسى (عليه السلام) لا يحتج بأن يقول علمت أنا وهو الرسول الداعى، ولو كان مع هذا كلّه تصح تلك القراءة (عن على) لكانت حجة، ولكنها ليست تثبت عنه إنما هى عن رجل مجهول، ولا نعلم أحداً من القرّاء تمسك بها غير الكسائى، والرجل المرادى الذى روى عنه أبو إسحاق هو كلثوم المرادى.

﴿مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات التسع ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ جمع بصيرة ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال ابن عباس: يعنى ملعونًا، مجاهد: هالكًا، قتادة: مهلكًا.

وروى عيسى بن موسى عن عطية العوفى فى قوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال: مُبدّلاً، ابن زيد: مخبولاً، لا عقل لك، مقاتل: مغلوبًا، ابن كيسان: بعيدًا عن الخيرات، وروى سفيان بن حصين عن الحسن فى قوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال (سلاحًا) فى القطيفة.

قال مجاهد: دخل موسى على فرعون فى يوم شات وعليه قطيفة له فألقى موسى عصاه فرأى فرعون جانبى البيت (فقميها)، ففزع فرعون وأحدث فى قطيفته.

وعن إبراهيم بن سعيد الجوهرى قال: كنت قائمًا على رأس المأمون وهو يناظر رجلاً

فسمعته يقول: يا مثبور، ثم أقبل عليَّ فقال: يا إبراهيم ما معنى: يا مثبور؟ قلت: لا أدرى، فقال: حدّثنى الرشيد قال: حدّثنى أمير المؤمنين المنصور فسمعته يقول لرجل يا مثبور، فقلت له: يا أمير المؤمنين ما معنى مثبور؟ قال: قال ميمون بن مهران قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال: ناقص العقل، قال الفرّاء: يعنى مصروفًا ممنوعًا من الخير، والعرب تقول: ما ثبرك عن هذا الحق؟ أى ما منعك عنه وصرفك، وثبره الله يثبره ومثبره وهو لغتان، وقال ابن الزهرى: الغليظ الأرب إذا بارى الشيطان فى سنن الغى ومن مال ميله مثبور.

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ يعنى يخرجهم، أى بنى إسرائيل ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أى أرض مصر والشام.

﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ ونجّينا موسى وقومه ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أى من بعد هلاك فرعون وقومه ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ يعنى مصر والشام ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وهى الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ﴾ من قبوركم إلى موقف القيامة ﴿لَفِيفًا﴾ مختلطين وقد التفَّ بعضكم ببعض لا تتعارفون ولا ينحاز (أحدكم) إلى قبيلته وحيّه، وهو من قول الجيوش إذا اختلطوا، وكل شىء اختلط بشىء تعطّف به والتفّ.

وقال مجاهد والضحاك: (لفيفًا) أى جميعًا، ووحّد اللفيف وهو خبر عن الجمع لأنه بمعنى المصدر كقول القائل: لففته لفًا ولفيفًا.

وقال الكلبى ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يعنى مجىء عيسى ابن مريم من السماء جئنا بكم لفيفًا وقال البزّار: من ههنا وههنا، يقول: جميعًا.

وهذه القصة تعزية لنبيّنا ﷺ وتقوية لقلبه، يقول الله تعالى: كما أنزلت عليك القرآن فكذبك كفار قومك من مكة كذلك آتيت موسى التوراة فكذبه فرعون وقومه، وكما أراد أهل مكة أن يستفزّوك منها، كذلك أراد فرعون أن يستفزّ موسى وبنى إسرائيل من مصر، فأنجيناهم منهم وأظفرتهم عليهم، وكذلك أظفرتك على أعدائك، وأتمّ نعمتى عليك وعلى من اتّبعك نصرةً للدين ولو كره الكافرون، فأنجز الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده وله الحمد والمنّة.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يعنى القرآن ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ﴾ أى وأنزلناه قرآنًا ففصّلناه.

قرأ ابن عباس: (فرّقناه) بالتشديد وقال: لأنه لم ينزل مرة واحدة وإنما أنزل (نجومًا) فى عشرين سنة، وتصديقه قراءة أُبى بن كعب: وقرآنًا فرّقناه عليك، وقرأ الباقون بالتخفيف

كقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (الدخان: ٤).

قال ابن عباس فصّلناه، قال الحسن: فرّق الله به بين الحق والباطل، وقرأ الآخرون: بيّناه.

﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أى تؤدة ومهل فى ثلاث وعشرين سنة ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أمر وعد وتهديد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أى من قبل نزول القرآن وخروج محمد ﷺ وهم مؤمنو أهل الكتاب ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعنى القرآن ﴿يَخِرُّونَ﴾ يسقطون ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ على الأذقان وهى جمع الذقن وهو مجتمع اللحيين، قال ابن عباس أراد الوجوه ﴿سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ قال مجاهد: هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل على محمد ﷺ خروا سجداً وقالوا سبحان ربنا ﴿إِن كَانَ﴾ أى وقد كان وعد ربنا لمفعولاً ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾ نزول القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ خضوعًا وتواضعًا لربّهم.

قال عبد الأعلى التيمى: من أوتى من العلم ما لا يبكيه لخليق أنْ لا يكون أوتى علمًا ينفعه، وتلا هذه الآية، نظيرها قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم: ٥٨).

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية، قال ابن عباس: تهجّد رسول الله ﷺ ذات ليلة فجعل يقول فى سجوده: يا الله يا رحمن يا رحيم، فقال المشركون: كان محمد يدعو إلهًا واحداً فهو الآن يدعو إلهين اثنين الله والرحمن، والله ما نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

قال ميمون بن مهران: كان النبى ﷺ فى أول ما أوحى إليه يكتب: باسمك اللهم حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (النمل: ٣٠) فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال مشركو العرب: هذا الرحيم نعرفه فما الرحمن؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

الضحاك: قال أهل الكتاب لرسول الله ﷺ إنّك لتقلّ ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية.

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾ من هذين الاسمين ومن جميع أسمائه ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مجازه: أيّا تدعوا، كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ (المؤمنون: ٤٠) ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ (ص: ١١).

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال ابن عباس: كان النبى ﷺ إذا صلّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبّوا القرآن ومن أنزله ومن تلا به كما حكاه القرآن:

﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ (فصلت:٢٦) ربما صفّروا ليغلّطوا النبى ﷺ ويخلطوا عليه قراءته فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ أى فى الصلاة فيسمع المشركون فيؤذوك، ولا تخافت بها فلا يسمع أصحابك حتى يأخذوا عنك.

وقال سعيد: كان النبى ﷺ يجهر بقراءة القرآن فى المسجد الحرام، فقالت قريش: لا تجهر بالقراءة فتؤذى آلهتنا فنهجو ربك، وقال مقاتل: كان رسول الله ﷺ يصلّى فى دار أبى سفيان ابن حرب عند الصفا، يجهر بقراءته فمرَّ به أبو جهل فقال: لا تفتر على الله، فجعل يخفت صوته، فقال أبو جهل للمشركين: ألا ترون ما فعلت بابن أبى كبشة، رددته عن قراءته فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروى (علقمة) عن ابن سيرين فى هذه الآية قال: كان أبو بكر (رضى الله عنه) يخافت بالقراءة فى الصلاة ويقول: أناجى ربى، وقد علم بحاجتى، وكان عمر بن الخطاب يرفع صوته ويقول: أزجر الشيطان وأوقظ المنان، فأمر أبو بكر حين نزلت هذه الآية أن يرفع صوته شيئًا، وأمر عمر أن يخفض شيئًا.

وقالت عائشة رضى (رضى الله عنها): نزلت هذه الآية فى التشهد، كان الأعرابى يجهر فيقول: التحيات لله والصلوات ويرفع بها صوته، فنزلت هذه الآية، وقال الحسن: (لا تراءِ بصلاتك فى العلانية ولا (تُسئها) فى السر.

الوالبى عن ابن عباس: لا تصلِّ مرائيًا الناس، ولا تدعها مخافة الناس، ابن زيد: كان أهل الكتاب يخافتون فى الصلاة، ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح ويصيح من وراءه، فنهاه الله أن يصيح كما يصيحون، ويخافت كما يخافتون، والسبيل الذى بين ذلك الذى بيّن له جبرائيل فى الصلاة.

وقال على والنخعى ومجاهد وابن مكحول: هى فى الدعاء، (وبه قال أشعث عن) عطية عن ابن عباس، وقال عبد الله بن شدّاد: كان أعراب من بنى تميم إذا سلّم النبى ﷺ قالوا: «اللهم ارزقنا»، فقال لهم: أتجهرون؟ فأنزل الله هذه الآية.

ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج أبى السمح أن شيخًا من أصحاب رسول الله ﷺ حدّثه أن رسول الله قال فى هذه الآية: «إنما أُنزلت فى الدعاء، يقول: لا ترفع صوتك فى الدعاء عند استغفارك وذكر ذنوبك فيسمع منك فتعيَّر بها وتخافت فى الصوت والسكون»، ومنه يقال للميّت إذا برد خفت.

﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أى بين الجهر والإخفات ﴿سَبِيلٗا ۝ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ قال

الحسين بن الفضل: يعنى الذى عرّفنى أنّه لم يتخذ ولداً ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال مجاهد: لم يذل فيحتاج إلى ولى يتعزز به.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ وعظّمه أن يكون له شريك أو ولى، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: قول العبد: «الله أكبر» خير من الدنيا وما فيها.

وروى سهل بن معاذ عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «آية العزّ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾» إلى آخره.

وروى سفيان بن وكيع عن سفيان بن عيينة عن عبد الكريم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علّمه هذه الآية سبع مرات.

وروى محمد بن سلمة عن عبد الحميد بن واصل قال: من قرأ آخر بنى إسرائيل كتب الله له من الأجر ملء السموات والأرض؛ لأن الله يقول فيمن زعم أن له ولداً ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا﴾ (مريم: ٩٠، ٩١) قال: فيكتب له من الأجر على قدر ذلك.



سورة الكهف

مكيّة، وهى سبعة آلاف وثلاثمائة وستون حرفًا[(١)]،
وألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة، ومائة وعشر آيات

❖ **فى فضلها:**

روى سمرة بن جندب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظًا لم تضرّه فتنة الدجال، ومن قرأ السورة كلها دخل الجنّة».

وروى إسماعيل بن رافع عن إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة أنّ رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلّكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك حين نزلت ملأ فضلها ما بين السماء والأرض لتاليها مثل ذلك»؟. قالوا بلى يا رسول الله. قال: «سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ولياليها مثل ذلك، وأعطى نورًا يبلغ به السماء ووقى فتنة الدّجال».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

(١) قال القرطبى فى تفسيره: هى مكية فى قول جميع المفسرين وروى عن فرقة: أن أول السورة نزل فى المدينة إلى قوله: ﴿جرزًا﴾. والأول أصح.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قيّمًا مستقيمًا. قال ابن عباس: عدلاً. الفرّاء: قيّمًا على الكتب كلّها ناسخًا لشرائعها. ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾: مختلفًا ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أى لتنذركم بأسًا شديدًا ﴿مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهى الجنّة.

﴿مَّـٰكِثِينَ﴾: مقيمين ﴿فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ نصب على التميز والقطع، تقديره: كبرت الكلمة كلمةً، ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ﴾: ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: قاتل نفسك ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: القرآن ﴿أَسَفًا﴾: حزنًا وجزعًا وغضبًا.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من كل شىء ﴿زِينَةً لَّهَا﴾، قال الضحّاك من الزاكية خاصّة زينة لها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أى أزهد فيها.

﴿وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا﴾: مستويًا ﴿جُرُزًا﴾: يابسًا أملس لا تنبت شيئًا.

❖ ❖ ❖

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝﴾

﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾، معناه: بل حسبت، يعنى: أظننت يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا﴾؟ يعنى: ليسوا أعجب آياتنا؛ فإنّ ما خلقت من السموات والأرض وما فيهنّ من العجائب أغرب منهم. والكهف هو الغار فى الجبل. واختلفوا فى الرقيم، فقال فيه ما روى ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ ثلاثة

نفر خرجوا يرتادون لأهلهم، بينا هم يمشون إذ أصابتهم السماء، فأووا إلى كهف فسقطت صخرة من الجبل فانطبقت على باب الكهف فانقفل عليهم، فقال قائل منهم: اذكروا أيّكم عمل حسنة لعل الله برحمته يرحمنا.

فقال رجل منهم: قد عملت حسنة مرة، كان لى أُجراء يعملون عملاً استأجرت كل رجل منهم بأجر معلوم، فجاءنى رجل ذات يوم وسط النهار فاستأجرته بشرط أصحابه، فعمل فى بقية نهاره كما عمل الرجل منهم فى نهاره كله، فرأيت علىَّ فى الذِّمام ألاّ أُنقصه ممَّا استأجرت به أصحابه، لما جهد فى عمله، فقال رجل منهم: أتعطى هذا ما أعطيتنى ولا يعمل إلاّ نصف النهار؟ قلت: يا عبد الله لم أبخسك شيئًا من شرطك، وإنما هو مالى أحكم فيه ما شئت.

قال: فغضب وذهب وترك أجره، فوضعت حقه فى جانب من البيت ما شاء الله، ثمّ نزل بى بعد ذلك بقر فاشتريت به فصيلة من البقر، فبلغت ما شاء الله، فمرّ بى بعد حين شيخ ضعيف لا أعرفه، فقال لى: إنّ لى عندك حقًا. فذكره حتى عرفته، قلت: إيّاك أبغى وهذا حقّك. فعرضتها عليه جميعًا فقال: يا عبد الله، لا تسخر بى إن لم تتصدّق على فأعطنى حقى. قلت: والله لا أسخر، إنها لحقك ما لى فيه شىء، فدفعتها إليه. اللّهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنّا. فانصدع الجبل حتى رأوا الضوء فأبصروا.

وقال الآخر: قد عملت حسنة مرّة، كان لى فضل: وأصاب النّاس شدّة، فجاءتنى امرأة تطلب منى معروفًا، فقلت: والله ما هو دون نفسك. فأبت علىَّ، وذهبت ورجعت ثلاث مرات وقلت: لا والله ما هو دون نفسك. فأبت علىّ وذهبت، وذكرت لزوجها، فقال لها: أعطيه نفسك وأغيثى عيالك. فرجعت إلىّ ونشدتنى بالله، فأبيت عليها وقلت: والله ما هو دون نفسك. فلما رأت ذلك أسلمت إلىّ نفسها، فلما تكشّفتها وهممت بها ارتعدت من تحتى، فقلت لها: ما شأنك؟ قالت: أخاف الله رب العالمين. فقلت لها: خفته فى الشدّة ولم أخفه فى الرخاء! فتركتها وأعطيتها ما يحق علىّ بما تكشفتها. اللهمّ إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا. فانصدع حتى تعارفوا وتبيّن لهم.

وقال الآخر: قد عملت حسنة مرّة، كان لى أبوان شيخان كبيران، وكان لى غنم، فكنت أُطعم أبوىَّ وأسقيهما ثمّ أرجع إلى أهلى. قال: فأصابنى يومًا غيث حبسنى حتى أمسيت فأتيت أهلى فأخذت محلبى وحلبت غنمى وتركتها قائمة فمضيت إليهما، فوجدتهما ناما، فشقّ علىَّ أن أُوقظهما، وشق علىَّ أن أترك غنمى فما برحت جالسًا ومحلبى على يدى حتى

أيقظهما الصبح فسقيتهما. اللهم إن فعلت ذلك لوجهك فافرج عنّا».

قال النعمان: لكأنى أسمع من رسول الله ﷺ قال: «قال الجبل طاق، ففرج الله عنهم وخرجوا».

وقال ابن عباس: الرقيم واد بين غطفان وأيلة، وهو الوادى الذى فيه أصحاب الكهف.

وقال كعب هى قريتهم. وهو على هذا التأويل من رقمة الوادى وهو موضع الماء منه، تقول العرب: عليك بالرقمة، ودع الضّفّة. والضِّفّتان: جانبا الوادى. وقال سعيد بن جبير: الرَّقيم لوح من حديد، وقيل: من رصاص، كتبوا فيه أسماء أصحاب الكهف وقصتهم، ثمّ وضعوه على باب الكهف. وهو على هذا التأويل بمعنى المرقوم، أى المكتوب. والرّقم: الخط والعلامة، والرقم: الكتابة.

ثمّ ذكر قصتهم فقال: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، أى رجعوا وصاروا.

قال السدى ووهب وغيرهم: أسماؤهم: مكشلمينا وهو كبيرهم ورئيسهم (والمتكلم عنهم)[١]. وإمليخا وهو أجملهم وأعبدهم وأنشطهم[٢]. ومكشيثا. ومرطوش. ونوانش. ولونوش. وكيدسططنوس. وكلبهم: قطمير[٣].

ولما دخلوا الكهف قالوا: يا قيوم يا قيوم أيوم طاسوم. قيل: معناه: يا حى يا قيوم الهدى والرحمة.

واختلفوا فى مسيرهم إلى الكهف[٤]، فقال محمد بن إسحاق بن يسار: مرج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وفيهم بقايا على دين المسيح ابن مريم (عليه السلام)، متمسكين بعبادة الله عزّ وجل وتوحيده. وكان

---

(١) زيادة من تفسير القرطبى.

(٢) فى تفسير القرطبى: هو الذى مضى بالورق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم.

(٣) فى تفسير القرطبى: قال مقاتل: كان الكلب لمكسلمينا وهو أسنهم وصاحب غنم.

قلت: وقد وردت أسماؤهم فى القرطبى على غير هذا النحو وإن كانت قريبة منه، والأهم من ذلك كله أن أسماءهم غير ذات جدوى فلا داعى للخوض فيها.

(٤) هذا وضع طبيعى صنعه من قبله ومن بعدهم ممن تركوا عقائد وملل آبائهم الباطلة وأقبلوا على عبادة الله الواحد القهار فمن المعروف أن أعداء الحق والهدى سيعادونهم ويطردونهم كما قال ورقة بن نوفل للنبى ﷺ ليتنى أكون معك إذ يخرجك قومك، قال: أومخرجى هم؟! قال: نعم، ما جاء نبى بمثل ما جئت به إلا أوذى وعودى من قومه، فالبحث فى سبب خروجهم لا قيمة له حيث هو تخمين أما خطه الرئيسى فهو مألوف أما الغريب أو الطريف والغير مألوف هو ما حدث لهم بعد دخولهم الكهف وعند بعثهم ثم بعد اطلاع الملك عليهم وما آل إليه أمرهم، والله سبحانه صدر قصتهم بقوله: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ ومن أصدق من الله قيلا وإنما قال ذلك لشتات قول الناس فيهم وخوضهم فى أمرهم بالباطل فحسم الخلاف سبحانه.

مّمن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يُقال له دقيانوس كان قد عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه فى ذلك مّمن أقام على دين المسيح. وكان ينزل بقرى الروم فلا يترك فى قرية ينزلها أحدًا إلاّ فتنه حتى يعبد الأصنام، ويذبح للطواغيت، حتى نزل مدينة أصحاب الكهف وهى أفسوس، فلما نزلها كبر ذلك على أهل الإيمان فاستخفوا منه وهربوا فى كل وجه. وكان دقيانوس قد أمر حين قدمها أن يتتبّع أهل الإيمان، فيجمعوا له، واتّخذ شرطًا من الكفار من أهلها، فجعلوا يتتبعون أهل الإيمان فى مساكنهم فيخرجونهم إلى دقيانوس فيقدمهم إلى الجامع الذى يذبح فيه للطواغيت، فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأصنام والذبح للطواغيت، فمنهم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيُقتل.

فلما رأى ذلك أهل الشّدة فى الإيمان بالله عز وجّل، جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل، فيُقتّلون ويقطّعون ثمّ يربط ما قُطع من أجسامهم على سور المدينة من نواحيها كلّها وعلى كلّ باب من أبوابها، حتّى عظمت الفتنة على أهل الإيمان فمنهم من أقر فتُرك ومنهم مَن صَلُبَ على دينه فقتل.

فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزنًا شديدًا، فقاموا وصلّوا وصاموا واشتغلوا بالدعاء والتسبيح لله عز وجل، وكانوا من أشراف الرّوم، وكانوا ثمانية نفر، فبكوا وتضرّعوا وجعلوا يقولون: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾، اكشف عن عبادك هذه الفتنة، وارفع عنهم البلاء، وأنعم على عبادك الذين آمنوا بك حتى يعلنوا عبادتك. فبينا هم على ذلك إذ أدركهم الشرَط، وكانوا قد دخلوا فى مصلّى لهم فوجدوهم سجودًا على وجوههم يبكون ويتضرّعون إلى الله عز وجلّ ويسألونه أن ينجيهم من دقيانوس وفتنه. فلما رآهم أُولئك الكفرة قالوا لهم: ما خلفكم عن أمر الملك؟ انطلقوا إليه. ثمّ خرجوا من عندهم فرفعوا أمرهم إلى دقيانوس، فقالوا: نجمع الجميع وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يسخرون منك ويعصون أمرك؟.

فلما سمع ذلك أُتى بهم تفيض أعينهم من الدّمع، معفّرة وجوههم فى التراب، فقال لهم: ما منعكم أن تشهدوا لذبح الآلهة الّتى تعبد فى الأرض، وأن تجعلوا أنفسكم كغيركم؟ اختاروا إمّا أن تذبحوا لآلهتنا كما ذبح النّاس وإما أن أقتلكم. فقال مكسلمينا ـ وكان أكبرهم ـ: إن لنا إلهًا ملأ السموات والأرض عظمته، لن ندعو من دونه إلهًا أبدًا، ولن نقرّ بهذا الذى تدعونا إليه أبدًا، ولكنّا نعبد الله ربّنا، وله الحمد والتكبير والتّسبيح من أنفسنا خالصًا، إيّاه نعبد، وإيّاه نسأل النجاة والخير فأمّا الطواغيت وعبادتها، فلن نعبدها أبدًا، فاصنع بنا ما بدا لك. ثمّ قال

أصحاب مكسلمينا لدقيانوس مثل ما قال له، فلما قالوا ذلك أمرهم فنُزع عنهم لبوس كان عليهم من لبوس عظمائهم، ثمّ قال: أمّا إذا فعلتم فإنّى سأؤخركم، وسأفرغ لكم فأُنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة، وما يمنعنى أن أعجل ذلك لكم إلاّ أنى أراكم شبابًا، حديثة أسنانكم، ولا أُحب أن أُهلككم حتى أجعل لكم أجلاً تذكّرون فيه، وتراجعون عقولكم.

ثمّ أمر بحلية كانت عليهم من ذهب وفضة فنزعت منهم، ثمّ أمر بهم حتى أُخرجوا من عنده، وانطلق دقيانوس إلى مدينة سوى مدينتهم التى كانوا بها قريبًا منهم لبعض أُموره، فلما رأى الفتية أن دقيانوس قد خرج من مدينتهم بادروا قدومه، وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكرهم، فائتمروا بينهم أن يأخذ كلّ رجل نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا بها ويتزوّدوا مما بقى، ثمّ ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة فى جبل يقال له ينجلوس فيمكثون فيه، ويعبدون الله عزّ وجلّ، حتى إذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما شاء.

فلما قال ذلك بعضهم لبعض، عمد كلّ فتى منهم إلى بيت أبيه وأخذ نفقة فتصدّقوا بها، وانطلقوا بما بقى معهم من نفقتهم، واتبعهم كلب كان لهم، حتى إذا أتوا ذلك الكهف الذى فى ذلك الجبل تلبثوا فيه.

وقال كعب الأحبار: مروا بكلب فنبح عليهم فطردوه، فعاد ففعلوا ذلك مرارًا، فقال لهم الكلب: ما تريدون منّى؟ لا تخشون إجابتى. أنا أُحب أحبّاء الله، فناموا حتى أحرسكم[1].

وقال ابن عباس: هربوا ليلاً من دقيانوس بن جلانوس حيث دعاهم إلى عبادة الأصنام، وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب، وكان على دينهم، فخرجوا من البلد فأووا إلى الكهف، وهو قريب من البلدة، فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلاّ الصلاة والتسبيح والتكبير والتّحميد ابتغاء وجه الله تعالى، فجعلوا نفقتهم إلى فتًى منهم يُقال له تمليخا، فكان على طعامهم يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرًا، وكان من أجملهم وأجلدهم. وكان تمليخا يصنع ذلك، فإذا دخل البلد يضع ثيابًا كانت عليه حسانًا، ويأخذ ثيابًا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها، ثمّ يأخذ ورقة فينطلق إلى المدينة فيشترى طعامًا وشرابًا ويسّمّع ويتجسس لهم الخبر: هل ذكروا أصحابه بشىء؟ ثمّ يرجع إلى أصحابه.

فلبثوا بذلك ما لبثوا، ثمّ قدم دقيانوس الجبّار إلى المدينة فأمر العظماء فذبحوا للطواغيت، ففزع من ذلك أهل الإيمان، وكان تمليخا بالمدينة يشترى لأصحابه طعامهم وشرابهم، فرجع إلى أصحابه وهو يبكى ومعه طعام قليل، فأخبرهم أنّ الجبّار دقيانوس قد دخل المدينة، وأنهم

(١) هذا قول بعيد لا دليل عليه فلا يلتفت إليه.

ذُكروا والتُمسوا مع عظماء المدينة ليذبحوا للطواغيت. فلما أخبرهم فزعوا ووقعوا سجودًا يدعون الله عز وجل ويتضرّعون ويتعوّذون به من الفتنة.

ثمّ إنّ تمليخا قال لهم: ارفعوا رؤوسكم فاطعموا من رزق الله وتوكلوا على بارئكم. فرفعوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا وخوفًا على أنفسهم، فطعموا منه وذلك مع غروب الشمس. ثمّ جلسوا يتحدّثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضًا، فبينا هم على ذلك إذ ضرب الله على آذانهم فى الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف، فأصابه ما أصابهم، وهم مؤمنون موقنون، ونفقتهم عند رؤوسهم. فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم، فقال لبعضهم: لقد ساءنى هؤلاء الفتية الذين ذهبوا، لقد كانوا ظنونى غضبًا عليهم بجهلهم ما جهلوا من أمرى، ما كنت لأحمل عليهم فى نفسى ولا لواحد منهم إن تابوا وعبدوا آلهتى! فقال له عظماء المدينة: ما أنت بحقيق أن ترحم قومًا فجرة مردة عصاة مقيمين على ظلمهم ومعصيتهم، وقد كنت أجّلت لهم أجلاً، فلو شاؤوا لرجعوا فى ذلك الأجل، ولكنّهم لم يتوبوا.

فلما قالوا له ذلك غضب غضبا شديدًا، ثمّ أرسل إلى آبائهم فسألهم عنهم، فقال: أخبرونى عن أبنائكم المردة الذين عصونى. فقالوا له: أمّا نحن فلم نعصك، فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا وأهلكوها فى أسواق المدينة ثمّ انطلقوا فارتقوا إلى جبل يدعى ينجلوس؟ فلما قالوا له ذلك خلّى سبيلهم، وجعل لا يدرى ما يصنع بالفتية، فألقى الله عز وجل فى نفسه أن يأمر بالكهف فيُسد عليهم، أراد الله عز وجل أن يكرمهم ويجعلهم آية لأُمّة تستخلف من بعدهم، وأن يبين لهم أن الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من فى القبور.

فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد عليهم، وقال: دعوهم كما هم فى الكهف يموتوا عطشًا وجوعًا، وليكن كهفهم الذى اختاروا قبرًا لهم. وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم، قد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم، يتقلّبون ذات اليمين وذات الشمال.

ثمّ إن رجلين مؤمنين كانا فى بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما، اسم أحدهما بيدروس، واسم الآخر روتاس ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسماءهم وخبرهم فى لوح من رصاص يجعلانه فى تابوت من نحاس، ثمّ يجعلان التابوت فى البنيان، وقالا: لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قومًا مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ هذا الكتاب. ففعلا، ثمّ بنيا عليه، فبقى دقيانوس ما بقى، ثمّ مات وقومه وقرون بعده كثيرة،

وخلفت الملوك بعد الملوك.

وقال عبيد بن عمير: كان أصحاب الكهف فتيانًا مطوّقين مسوّرين ذوى ذوائب، وكان معهم كلب صيدهم، فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى زىّ وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التى يعبدونها من دون الله، وقد قذف الله فى قلوب الفتية الإيمان ـ وكان أحدهم وزير الملك ـ فآمنوا، وأخفى كل واحد منهم الإيمان عن صاحبه فقالوا فى أنفسهم من غير أن يظهر بعضهم لبعض: نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب بجرمهم، فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه، ثمّ خرج آخر فرآه جالسًا وحده، فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك، فجلس إليه ثمّ خرج الآخرون فجاؤوا فجلسوا إليهما، فاجتمعوا وقال بعضهم لبعض: ما جمعكم، وكل واحد يكتم إيمانه على صاحبه مخافة على نفسه؟ ثمّ قالوا: ليخرج كل فتيين منكم فيخلوا ثم ليفش كل واحد منكم إلى صاحبه.

فخرج فتيان منهم فتواقفا ثمّ تكلّما فذكر كل واحد منهما أمره لصاحبه، فأقبلا مستبشرين إلى أصحابهما فقالا: قد اتفقنا على أمر واحد. فإذا هم جميعًا على الإيمان، وإذا كهف فى الجبل قريب منهم، فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾. فدخلوا ومعهم كلب صيد، فناموا ﴿ثَلَـٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥).

قال: وفقدهم قومهم، وطلبوهم فعمّى الله عليهم آثارهم وكهفهم، فلما لم يقدموا كتب أحدهم فى لوح: فلان وفلان أبناء ملوكنا، فقدناهم فى شهر كذا من سنة كذا فى مملكة فلان ابن فلان. ووضعوا اللوح فى خزانة الملك وقالوا: ليكوننّ لهذا شأن. ومات ذلك الملك، وجاء قرن بعد قرن.

وقال وهب بن منبه: جاء أحد حوارىّ عيسى ابن مريم (عليه السلام) إلى مدينة أصحاب الكهف، فأراد أن يدخلها، فقيل له: إن على بابها صنمًا لا يدخلها أحد إلاّ سجد له. فكره أن يدخلها فأتى حمّامًا قريبًا من تلك المدينة، فكان فيه، وكان يؤاجر نفسه من الحمامى ويعمل فيه.

ورأى صاحب الحمام فى حمامه البركة، ودرّ عليه الرزق، وجعل يقوم عليه، وعلقه فتية من أهل المدينة، فجعل يخبرهم خبر السماء وخبر الأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدّقوه، وكانوا على مثل حاله فى حسن الهيئة. وكان شرطه على صاحب الحمام: إن الليل لى لا يحول بينى وبين الصلاة أحد، وكان على ذلك حتى أتى ابن الملك بامرأة فدخل بها

الحمام، فعيّره الحوارى وقال له: أنت ابن الملك وتدخل مع هذه؟ فاستحيا، فذهب، فرجع مرّة أُخرى فقال له مثل ذلك، فسبّه وانتهره ولم يلتفت حتى دخلا معًا فماتا جميعًا فى الحمام، فأُتى الملك فقيل له: قتل صاحب الحمام ابنك. فالتُمس فلم يُقدر عليه، فهرب، فقال: من كان يصحبه؟ فسمّوا الفتية فالتُمسوا فخرجوا من المدينة، فمرّوا بصاحب لهم فى زرع وهو على مثل إيمانهم فذكروا له أنهم التُمسوا، فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوا وقالوا: نبيت هاهنا الليلة، ثمّ نصبح إن شاء الله فترون رأيكم. فضرب الله على آذانهم.

فخرج الملك فى أصحابه يتبعونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف، وكلّما أراد الرجل منهم دخوله أُرعب، فلم يطق أحد دخوله، وقال قائل: أليس لو قدرت عليهم قتلتهم؟ قال: بلى. قال: فابن عليهم باب الكهف واتركهم فيه يموتوا عطشًا وجوعًا. ففعل.

قال وهب: تركهم بعدما سدّ عليهم باب الكهف زمانًا بعد زمان، ثمّ إنّ راعيًا أدركه المطر عند الكهف فقال: لو فتحت هذا الكهف فأدخلته غنمى من المطر! فلم يزل يعالجه حتى فتح، وردّ الله إليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا.

وقال محمد بن إسحاق: ثمّ ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له تيدوسيس، فلما ملك بقى فى ملكه ثمانيًا وثلاثين سنة فتحزب الناس فى ملكه، وكانوا أحزابًا؛ منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق، ومنهم من يكذّب بها، فكبر ذلك على الملك الصالح، وبكى إلى الله عز وجل، وتضرّع إليه، وحزن حزنًا شديدًا. فلما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون: لا حياة إلاّ الحياة الدنيا، وإنما تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فأما الجسد فتأكله الأرض. نسوا ما فى الكتاب، فجعل تيدوسيس يرسل إلى من يظن فيه خيراً وأنه معه فى الحق، فجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يحولون الناس عن الحقّ وملّة الحواريين.

فلما رأى ذلك الملك الصالح تيدوسيس دخل بيته وأغلقه عليه ولبس مسحًا وجعل تحته رماداً ثمّ جلس عليه فدأب ليله ونهاره زمانًا يتضرع إلى الله ويبكى مما يرى فيه الناس، ويقول: أى رب، قد ترى اختلاف هؤلاء الناس، فابعث إليهم من يبين لهم. ثمّ إن الرحمن الرحيم الذى يكره هلكة العباد أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية له وحجة عليهم، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن يستجيب لعبده الصالح تيدوسيس ويتم نعمته عليه، ولا ينزع عنه ملكه ولا الإيمان الذى أعطاه، وأن يعبد الله ولا يشرك به شيئًا، وأن يجمع من كان ببلده من المؤمنين.

فألقى الله عز وجل فى نفس رجل من أهل ذلك البلد الذى به الكهف ـ وكان اسم ذلك الرجل أولياس ـ أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف، فيبنى به حظيرة لغنمه، فاستأجر عاملين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما على فم الكهف، وفتحا عليهم باب الكهف، فحجبهم الله تعالى من الناس بالرعب. فيزعمون أن أشجع من يريد أن ينظر إليهم أن يدخل من باب الكهف لم يتقدم حتى يرى كلبهم دونهم إلى باب الكهف، نائمًا.

فلما نزعا الحجارة وفتحا باب الكهف أذن الله عز وجل بالقدرة والعظمة والسلطان محيى الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهرانى الكهف، فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم، فسلّم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون بها إذا أصبحوا من ليلتهم التى يبيتون فيها. ثمّ قاموا إلى الصلاة فصلوا كالذى كانوا يفعلون، لا يُرى فى وجوههم ولا أبشارهم ولا ألوانهم شىء ينكرونه، وإنما هم كهيئتهم حين رقدوا، وهم يرون أن ملكهم دقيانوس الجبّار فى طلبهم.

فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم: ايتنا يا أخانا ما الذى قال الناس فى شأننا عشية أمس عند هذا الجبّار وهم يظنون أنهم قد رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون، وقد خيّل إليهم أنهم قد ناموا كأطول ما كانوا ينامون فى الليلة التى أصبحوا فيها، حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

وكل ذلك فى أنفسهم يسير، فقال لهم تمليخا: افتقدتم والتُمستم بالمدينة وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا للطواغيت أو يقتلكم، فما شاء الله بعد ذلك فعل: فقال لهم مكسلمينا: يا إخوتاه، اعلموا أنكم ملاقو الله، فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم غدًا. ثمّ قالوا لتمليخا: انطلق إلى المدينة فتسمّع ما يقال لنا بها اليوم وما الذى نُذكر به عند دقيانوس، وتلطف ولا تشعرنّ بنا أحدًا، وابتع لنا طعامًا فائتنا به، فإنه قد نالنا الجوع، وزدنا على الطّعام الذى جئتنا به فإنه كان قليلاً فقد أصبحنا جياعًا. ففعل تمليخا كما كان يفعل، ووضع ثيابه، وأخذ الثياب التى كان يتنكّر فيها، فأخذ ورقًا من نفقتهم الّتى كانت معهم التى ضربت بطابع دقيانوس، وكانت كخفاف الربع. انطلق تمليخا خارجًا فلمّا مر بباب الكهف رأى حجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها، ثمّ مرّ فلم يبال بها، حتى أتى باب المدينة مستخفيًا يصدّ عن الطريق تخوّفًا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه فيذهب إلى دقيانوس، ولا يشعر العبد الصالح أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلاثمائة سنة.

فلما رأى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لأهل الإيمان، فلمّا رآها عجب وجعل ينظر إليها مستخفيًا، فنظر يمينًا وشمالاً ثمّ ترك ذلك الباب فتحوّل إلى باب آخر من أبوابها فنظر فرأى مثل ذلك، فجعل يخيّل إليه أن المدينة ليست بالتى كان يعرف ورأى ناسًا كثيرًا محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك، فجعل يمشى ويعجب ويخيل إليه أنه حيران، ثمّ رجع إلى الباب التى أتى منها، فجعل يتعجب منه ومن نفسه ويقول: يا ليت شعرى أمّا هذه عشية أمس فكان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون بها، فأما اليوم فإنها ظاهرة فلعلّى حالم ثمّ يرى أنه ليس بنائم، فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثمّ دخل المدينة، فجعل يمشى بين ظهرانى سوقها فيسمع ناسًا كثيرين يحلفون باسم عيسى ابن مريم، فزادهُ فرقًا فرأى أنه حيران، فقام مسندًا ظهره إلى جدار من جدر المدينة ويقول فى نفسه: والله ما أدرى ما هذا، أمّا عشية أمس فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى ابن مريم إلاّ قتل، وأمّا الغداة فأسمعهم وكلّ إنسان يذكر أمر عيسى ولا يخاف.

ثمّ قال فى نفسه: لعلّ هذه المدينة ليست بالمدينة التى أعرفها أسمع كلام أهلها ولا أعرف أحدًا منهم والله ما أعلم مدينة قرب مدينتنا! فقام كالحيران لا يتوجّه وجهًا، ثمّ لقى فتًى من أهل المدينة، فقال: ما اسم هذه المدينة يا فتى؟ قال: دفسُوس. فقال فى نفسه: لعل بى مسًا أو أمرًا أذهب عقلى، والله يحقّ لى أن أُسرع بالخروج منها قبل أن أُخزى أو يصيبنى شر فأهلك.

هذا الذى حدّث به تمليخا أصحابه حين تبين له حالهم. ثمّ إنّه أفاق فقال: والله لو عجّلت الخروج منها قبل أن يفطن بى لكان أكيس بى. فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التى كانت معه فأعطاها رجلاً منهم، فقال: يا عبد الله، بعنى بهذا الورق طعامًا فأخذها الرجل فنظر إلى ضرب الورق ونقشها، فعجب منها ثمّ طرحها إلى رجل من أصحابه، فنظر إليها. ثمّ جعلوا يطارحونها من رجل إلى رجل ويعجبون منها، ثمّ جعلوا يتساروّن من أجله، ففرق فرقًا شديدًا وجعل يرتعد ويظن أنهم فطنوا به وعرفوه، وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس، وجعل أُناس آخرون يأتونه فيتعرّفونه، فقال لهم وهو شديد الفرق: أفصلوا علىّ، قد أخذتم ورقى فأمسكوا، وأما طعامكم فلا حاجة لى به. فقالوا: من أنت يا فتى؟ وما شأنك؟ والله لقد وجدت كنزًا من كنوز الأوّلين، وأنت تريد أن تخفيه عنا، انطلق معنا فأرناه وشاركنا فيه نُخف عليكِ ما وجدت؛ فإنك إن لم تفعل نأتِ بك السّلطان فنسلمك إليه فيقتلك.

فلما سمع قولهم عجب فى نفسه، وقال: قد وقعت فى كل شىء أحذر منه، ثمّ قالوا: يا

فتى، إنك والله ما تستطيع أن تكتم ما حدث، ولا تظن فى نفسك أنك ستُخفى علينا.

فجعل تمليخا ما يدرى ما يقول لهم وما يرجع إليهم، وفرق حتى ما يخبرهم شيئًا، فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه وطوقوه فى عنقه، ثمّ جعلوا يقودونه فى سكك المدينة مكببًا، حتى سمع به من فيها، فقيل: أُخذ رجل عنده كنز، فاجتمع عليه أهل المدينة، صغيرهم وكبيرهم، فجعلوا ينظرون إليه ويقولون: والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة، وما رأيناه فيها قط، وما نعرفه. فجعل تمليخا ما يدرى ما يقول لهم مع ما يسمع منهم، فلما اجتمع عليه أهل المدينة فرق وسكت ولم يتكلم، ولو قال إنه من أهل المدينة لم يُصدّق، وكان مستيقنًا أن أباه وإخوته بالمدينة، وأن حسبه فى أهل المدينة من عظماء أهلها، وأنهم سيأتونه إذا سمعوا، وقد استيقن أنه عشية أمس يعرف كثيراً من أهلها وأنه لا يعرف اليوم من أهلها أحداً.

فبينا هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله: أبوه أو بعض إخوته فيخلصه من أيديهم إذ اختطفوه، فانطلقوا به إلى رئيسى المدينة ومدبرَيها اللذين يدبّران أمرها، وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أرموس واسم الآخر أسطيوس. فلما انطلقوا به إليهما ظن تمليخا أنه يُنطلق به إلى دقيانوس الجبار ملكهم الذى هربوا منه، فجعل يلتفت يمينًا وشمالاً، وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون والحيران، فجعل تمليخا يبكى ثمّ رفع رأسه إلى السماء وإلى الله عزّ وجلّ، ثمّ قال: اللهم إله السماء والأرض أفرغ علىّ اليوم صبراً وأولج معى روحًا منك تؤيّدنى به عند هذا الجبار. وجعل يبكى ويقول فى نفسه: فرّق بينى وبين إخوتى، يا ليتهم يعلمون ما لقيت وأين يُذهب بى، ولو أنهم يعلمون فيأتون فنقوم جميعًا بين يدى هذا الجبار، فإنا كنا تواثقنا معًا لنكونن لا نكفر بالله ولا نشرك به شيئًا ولا نعبد الطواغيت من دون الله (فـ) فُرق بينى وبينهم فلن يرونى ولن أراهم أبدًا، وقد كنا تواثقنا على ألاّ نفترق فى حياة ولا موت، يا ليت شعرى ما هو فاعل بى؟ أقاتلى أم لا؟

هذا ما حدث به تمليخا أصحابه عن نفسه حتى انتهى به إلى الرجلين الصالحين: أرموس وأسطيوس، فلما رأى تمليخا أنه لم يذهب به إلى دقيانوس أفاق وسكن عنه البكاء، فأخذ أرموس وأسطيوس الورق، فنظرا إليه وعجبا منه ثمّ قال أحدهما: أين الكنز الذى وجدت يا فتى؟ هذا الورق يشهد عليك أنك وجدت كنزاً. فقال لهم تمليخا: ما وجدت كنزاً، ولكن هذا الورق ورق آبائى (. . .)[1] هذه المدينة (. . .)[1] ولكنى والله (. . .)[1] ما شأنى، وما أدرى ما أقول لكما. فقال أحدهما: فمن أنت؟ فقال له: أمّا ما أرى فكنت أرى أنى من أهل القرية.

(١) موضع النقط بياض بالأصل بمسافات مختلفة.

قالوا له: فمن أبوك ومن يعرفك بها؟ فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحدًا يعرفه، ولا أباه، فقال له أحدهما: أنت رجل كذّاب لا تخبرنا بالحقّ. ولم يدرِ ما يقول لهم غير أنه نكس بصره إلى الأرض، فقال بعض من حوله: هذا رجل مجنون. وقال بعضهم: ليس بمجنون، ولكن يحمّق نفسه عمدًا لينفلت منكم. فقال له أحدهما، ونظر إليه نظرًا شديدًا: أتظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك وضرب هذا الورق ونقشها أكثر من ثلاثمائة سنة، وأنت غلام شاب تظن أنك تأفكنا وتسخر بنا، ونحن شرط كما ترى، وحولك سراة أهل المدينة وولاة أمرها، وخزائن هذه البلدة بأيدينا، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار؟ إننى لأظننى سآمر بك فتعذّب عذابًا شديدًا ثمّ أُوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذى وجدت.

فلما قال له ذلك، قال تمليخا: أنبئونى عن شيء أسألكم عنه، فإن فعلتم صدّقتم ما عندى. قالوا له: سل، ما نكتمك شيئًا. فقال: ما فعل الملك دقيانوس؟ قالا له: ليس نعرف ملكًا يُسمى دقيانوس على وجه الأرض، ولم يكن إلاّ ملكًا قد هلك منذ زمان ودهر طويل، وهلكت بعده قرون كثيرة. قال لهم تمليخا: فوالله ما هو بمصدّقى أحد من الناس بما أقول، لقد كنا فتية، وإن الملك أكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فنمنا، فلما انتبهنا خرجت لأشترى لأصحابى طعامًا وأتجسّس الأخبار فإذا أنا كما ترون، فانطلقوا معى إلى الكهف الذى فى جبل ينجلوس أُركم أصحابى. فلما سمع أرموس ما يقول تمليخا، قال: يا قوم لعلّ هذه آية من آيات الله عزّ وجلّ جعلها لكم على يدى هذا الفتى، فانطلقوا بنا معه يُرنا أصحابه كما قال.

فانطلق معهم أرموس وأسطيوس وانطلق معهما أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف ينظرون إليهم.

ولمّا رأى الفتية أصحاب الكهف أن تمليخا قد احتبس عليهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذى كان يأتى به، ظنوا أنه قد أُخذ فذهب به إلى ملكهم دقيانوس الذى هربوا منه، فبينا هم يظنون ذلك ويتخوفون إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة نحوهم، وظنوا أنهم رسل دقيانوس الجبّار وأنه بعث إليهم ليؤتى بهم، فقاموا حين سمعوا ذلك إلى الصلاة، وسلّم بعضهم على بعض، وقالوا: انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا، فإنه الآن بين يدى الجبّار دقيانوس ينتظر متى نأتيه، فبينا هم يقولون ذلك، وهم جلوس بين ظهرانى الكهف، فلم يروا إلا أرموس وأصحابه وقوفًا على باب الكهف، وسبقهم تمليخا فدخل عليهم وهو يبكى، فلما رأوه يبكى، بكوا معه وسألوه عن شأنه، فأخبرهم بخبره وقصّ عليهم النبأ كلّه فعرفوا عند

ذلك أنهم كانوا نيامًا بأمر الله ذلك الزمان كلّه، وإنما أُوقظوا ليكونوا آية للناس، وتصديقًا للبعث، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها.

ثمّ دخل على أثر تمليخا أرموس فرأى تابوتًا من نحاس مختومًا بخاتم من فضة فقام بباب الكهف، ثمّ دعا رجالاً من عظماء المدينة ففتح التابوت عندهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبًا فيها: إن مكسلمينا ومجسلمينا وتمليخا ومرطولس وكسوطونس وبيوسرس وتكريوس وبطينوس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم، فدخلوا هذا الكهف، فلمّا أُخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة، وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه مَن بعدهم إن عثروا عليهم.

فلمّا رأوه عجبوا وحمدوا الله الذى أراهم آية البعث فيهم، ثمّ إنهم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه، ثمّ دخلوا على فتية الكهف فوجدوهم جلوسًا بين ظهرانيه مشرقة وجوههم، لم تبلَ ثيابهم، فخرّ أرموس وأصحابه سجّدًا، وحمدوا الله الذى أراهم آية من آياته، ثمّ كلّم بعضهم بعضًا وأنبأهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم دقيانوس.

ثمّ إن أرموس وأصحابه بعثوا بريدًا إلى ملكهم الصالح تيدوسيس أن عجّل، لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك، وجعلها آية للعالمين لتكون نورًا وضياءً وتصديقًا للبعث، فاعجل على فتية بعثهم الله تعالى، وقد كان توفّاهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة.

فلما أتى الملك الخبر قام من المسندة التى كان عليها ورجع إليه عقله، وذهب عنه همّه، ورجع إلى الله عز وجّل، فقال: أحمدك الله ربّ السموات والأرض، وأعبدك وأُسبّح لك تطوّلت على، ورحمتنى برحمتك، فلم تطفئ النّور الذى كنت جعلت لآبائى وللعبد الصالح قسطيطوس الملك.

فلمّا نبّأ به أهل المدينة ركبوا وساروا حتى أتوا مدينة دقيانوس فتلقّاهم أهل المدينة وساروا معه حتى صعدوا نحو الكهف وأتوه، فلما رأى الفتية تيدوسيس فرحوا به وخرّوا سجّدًا على وجوههم، وقام تيدوسيس قدامهم ثمّ اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبّحون الله عزّ وجلّ ويحمدونه، ثمّ قال الفتية لتيدوسيس: نستودعك الله، ونقرأ عليك السلام، وحفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شرّ الجن والإنس.

فبينا الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفّى الله أنفسهم، وقام الملك إليهم فجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل لكل رجل منهم تابوتًا من ذهب، فلما أمسوا ونام أتوه فى المنام فقالوا: إنّا لم نخلق من ذهب ولا فضّة، ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير، فاتركنا كما

كنّا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله عزّ وجلّ منه . فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله تعالى حين خرجوا من عندهم بالرعب ، فلم يقدر أحد على أن يدخل عليهم ، وأمر الملك فجُعل على باب الكهف مسجدٌ[١] يُصلّى فيه ، وجعل لهم عيداً عظيمًا ، وأمر أن يؤتى كل سنة .

وقيل : إنهم لما أتوا إلى باب الكهف قال تمليخا : دعونى حتّى أدخل على أصحابى فأُبشّرهم ؛ فإنهم إن رأوكم معى أرعبتموهم . فدخل فبشّرهم ، وقبض الله روحه وأرواحهم ، وعمى عليهم مكانهم ، فلم يهتدوا إليه . فهذا حديث أصحاب أهل الكهف .

ويقال : إنّ نبى الله محمداً ﷺ سأل ربّه أن يريه إيّاهم ، فقال : «إنّك لن تراهم فى دار الدنيا ، ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان بك» . فقال رسول الله ﷺ لجبرئيل (عليه السلام) : «كيف أبعثهم؟» . قال : «ابسط كساءً لهم ، وأجلس على طرف من أطرافها أبا بكر ، وعلى الثانى عمر وعلى الثالث عليًا ، وعلى الرابع أبا ذر ، ثمّ ادعُ الريح الرخاء المسخّر لسليمان بن داود (عليهما السلام) فإن الله تعالى أمرها أن تطيعك» .

ففعل النبى ﷺ ما أمره ، فحملتهم الريح حتى انطلقت بهم إلى باب الكهف ، فلما دنوا من الباب قلعوا منه حجراً ، فقام الكلبى حين أبصر الضوء فهرّ وحمل عليهم ، فلما رآهم حرّك رأسه وبصبص بذنبه وأومأ برأسه أن ادخلوا ، فدخلوا الكهف وقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فردّ الله إليهم أرواحهم ، فقاموا بأجمعهم وقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فقالوا : إنّ نبى الله محمد بن عبد الله ﷺ يقرأ عليكم السلام . فقالوا : على محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم بما بلّغتم . ثمّ جلسوا بأجمعهم يتحدثون ، فآمنوا بمحمد ﷺ ، وقبلوا دين الإسلام ، وقالوا : أقرئوا محمداً منّا السلام . فأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدى .

ويقال : إنّ المهدى يسلّم عليهم ، فيحييهم الله عزّ وجلّ ، ثمّ يرجعون إلى رقدتهم ولا يقومون إلى يوم القيامة .

ثمّ جلس كل واحد منهم على مكانه ، وحملتهم الريح ، وهبط جبرئيل (عليه السلام) على النبى ﷺ وأخبره بما كان منهم ، فلما أتوا النبى ﷺ ، قال رسول الله ﷺ : «كيف وجدتموهم؟ وما الذى أجابوا؟» . فقالوا : يا رسول الله ، دخلنا عليهم فسلّمنا عليهم ، فقاموا بأجمعهم ،

(١) قبل هذه الكلمة فى المخطوط بياض وجاء الكلمة على هذا الرسم «كد» .

فردّوا السّلام، وبلّغناهم رسالتك فأجابوا وأنابوا وشهدوا أنّك رسول الله حقًا، وحمدوا الله عزّ وجلّ على ما أكرمهم بخروجك وتوجيه رسولك إليهم، وهم يقرئونك السلام. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تفرّق بينى وبين أصهارى وأحبائى وأختانى، واغفر لمن أحبّنى وأحب أهل بيتى وخاصتى، وأحبّ أصحابى»(١).

فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿إِذْ أَوَى﴾ أى صار وانضم ﴿الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾، وهو غار فى جبل ينجلوس، واسم الكهف خيرم، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أى يسّر لنا ما نلتمس من رضاك. وقال ابن عباس: ﴿رَشَدًا﴾ أى مخرجًا من الغار فى سلامة. وقيل: صوابًا.

قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ هذا من فصيحات القرآن التى أقرّت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله، ومعناه: أنمناهم وألقينا وسلّطنا عليهم النوم، كما يقال: ضرب الله فلانًا بالفالج، أى ابتلاه به وأرسله عليه. وقيل: معناه حجبناهم عن السمع، وسددنا نفوذ الصوت إلى مسامعهم، وهذا وصف الأموات والنيام. وقال قطرب: هو كقول العرب: ضرب الأمير على يد الرعية، إذا منعهم عن العبث والفساد، وضرب السّيد على يدى عبده المأذون فى التجارة، إذا منعه عن التصرّف فيها. قال الأسود بن يعفر، وكان ضريرًا.

ومن الحوادث لا أبا لك أننى ضربت علىّ الأرض بالأسداد

﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ أى معدودة، وهو نعت للسنين، فالعدّ المصدر، والعدد الاسم المعدود، كالنقص والنقض والخبط والحبط. وقال أبو عبيدة: هو نصب على المصدر.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾، يعنى من نومهم؛ ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾، وذلك حين تنازع المسلمون الأوّلون أصحاب الملك، والمسلمون الآخرون الذين أسلموا حين أوى أصحاب الكهف فى قدر مدّة لبثهم فى الكهف، فقال المسلمون الأولون: مكثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وقال المسلمون الآخرون: بل مكثوا كذا وكذا. فقال الأوّلون: الله أعلم بما لبثوا، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾، لتعلموا ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾: الفريقين ﴿أَحْصَى﴾: أصوب

---

(١) هذه أخبار وأحاديث وأقاويل لا أساس لها من الصحة، ولا يقبلها عقل ولا تقرها فطر سليمة ويعترف بها شرع أنزله الله تعالى على نبى من أنبيائه.

ثم إن هذه القصة من قصص الأساطير ومن بنيان الخيال وقد أخذ مضمونها من أساطير ألف ليلة وليلة، وما شابهها من كتب الأساطير والخرافات.

فعليك أخى المسلم بالذب عن دين الله ما ليس فيه وما ليس منه حتى يصير نقيًا فيقبل عليه من يريد أن يعرفه على حقيقته بلا شىء يشوش عليه أو يجعله يظن أن ذلك منه فينفر من الإسلام.

وأحفظ ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ فى كهفهم نيامًا، ﴿أَمَدًا﴾: غاية.

وقال مجاهد: عدداً. وفى نصبه وجهان: أحدهما على التفسير والثانى لوقوع ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ عليه.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ﴾، أى نقرأ وننزل ﴿عَلَيْكَ نَبَأَهُم﴾، أى خبر أصحاب الكهف ﴿بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾: شبان وأحداث ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾، حكم الله لهم بالفتوّة حين آمنوا بلا واسطة لذلك. وقال أهل اللسان: رأى الفتوّة الإيمان. وقال الجنيد: الفتوّة كفّ الأذى وبذل الندى، وترك الشكوى. وقيل: الفتوّة شيئان: اجتناب المحارم، واستعمال المكارم. وقيل: الفتى من لا يدّعى قبل الفعل، ولا يزكّى نفسه بعد الفعل. وقيل: ليس الفتى من يصبر على السياط، إنما الفتى من جاز على الصراط. وقيل: ليس الفتى من يصبر على السكين، إنما الفتى من يطعم المسكين.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ إيمانًا وبصيرة وإيقانًا.

﴿وَرَبَطْنَا﴾: وشددنا ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالصبر، وألهمناهم ذلك، وقوّيناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش، وفرّوا بدينهم إلى الكهف، ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ بين يدى دقيانوس ﴿فَقَالُواْ﴾ حين عاتبهم على تركهم عبادة الصنم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ﴾: لن نعبد ﴿مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾، يعنى إن دعونا غير الله، لقد قلنا إذن شططًا. قال ابن عباس ومقاتل: جوراً. قال قتادة: كذبًا. وأصل الشطط والإشطاط: مجاوزة القدر، والإفراط.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا﴾، يعنى أهل بلدهم ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾، أى من دون الله ﴿ءَالِهَةً﴾، يعنى الأصنام يعبدونها من دون الله ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ أى هلاّ يأتون على عبادتهم ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾: بحجة واضحة؛ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فزعم أنّ له شريكًا وولدًا؟

ثمّ قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾، يعنى قومكم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أى واعتزلتم أصنامهم التى يعبدونها من دون الله. وكذلك هو فى مصحف عبد الله: (وما يعبدون من دون الله).

﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، أى صيروا إليه ﴿يَنشُرْ﴾، أى يبسط لكم ويظهر ﴿لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾، أى رزقًا رغداً. والمرفق: ما يرتفق به الإنسان، وفيه لغتان: مَرفِق، ومِرفَق.

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ ، أى تتزاور، وقرأ أهل الكوفة بالتخفيف على حذف أحد الزاءين، وقرأ أهل الشام: (تزورّ) على وزن تحمرّ، وكلّها بمعنًى واحد، أى تميل وتعدل ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ ، أى جانب اليمين، ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ ، قال ابن عباس: تدعهم. قال مقاتل بن حيان: تجاوزهم. وأصل القرض: القطع. ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ ، أى متّسع من الكهف، وجمعها فجوات وفجًى. أخبرنا الله تعالى بحفظه إياهم فى مهجعهم، وعرفنا لطفه بهم فى مضجعهم واختياره لهم أصلح المواضع للرقاد فأعلمنا أنّه بوّأهم فى مغناة من الكهف مستقبلاً بنات نعش[1]، تميل عنهم الشمس طالعة وغاربة وجارية؛ لا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرّها وتغيّر ألوانهم وتبلى ثيابهم، وإنهم فى متّسع منه ينالهم فيه بَرد الريح ونسيمها وتنفى عنهم كربة الغار وغمومه، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكرت من أمر الفتية ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ : من عجائب صنع الله ودلالات قدرته وحكمته. ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ أى يهده الله ﴿فَهُوَ

(١) فى تفسير القرطبى: فى أرض الروم.

﴿ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا﴾ معينًا ﴿مُّرْشِدًا﴾ ؛ لأنّ التوفيق والخذلان بيد الله عزّ وجلّ.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ يا محمد ﴿أَيْقَاظًا﴾ أى منتبهين، لأن أعينهم مفتحة[١]، جمع يقظ ويقَظ مثل قولك: رجل نجد ونجَد للشجاع، وجمعه أنجاد، ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ : نيام، جمع راقد مثل قاعد وقعود، ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ ، وقرأ الحسن (ونقْلبهم) بالتخفيف، ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ﴾ مرّة للجنب الأيمن ومرّة للجنب الأيسر. قال ابن عباس: كانوا ينقلبون فى السنة مرة إلى جانب من جانب، لئلا تأكل الأرض لحومهم. ويقال: إنّ يوم عاشوراء[٢] كان يوم تقليبهم. وقال أبو هريرة: كان لهم فى كل سنة تقليبان[٣]. ﴿وَكَلْبُهُم﴾ ، قال ابن عباس: كان أنمر. وقال مقاتل: كان أصفر. وقال القرظى: شدة صفرته تضرب إلى الحمرة. الكلبى: لونه كالخلنج. وقيل: لون الحجر. وقيل: لون الحجز وقيل لون السماء. وقال على بن أبى طالب (رضى الله عنه): «كان اسمه ريان». وقال ابن عباس: قطمير. وقال الأوزاعى: نتوى. وقال شعيب الجبائى: حمران. وقال عبد الله بن كثير: اسم الكلب قطمور. وقال السّدى: نون. وقال عبد الله بن سلام: بُسيط. وقال كعب: أصهب. وقال وهب: اسمه (. . .)[٤].

(وقال عمر بن دينار: إن)[٥] مما أُخذ على العقرب (ألاّ يضر بأحد فى ليله أو نهاره)[٥] سلام على نوح، وإن مما أُخذ على الكلب ألاّ يضر من (حمل عليه)[٥] أن يقول: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ﴾.

وقرأ جعفر الصّادق (وكالبهم) يعنى: صاحب الكلب.

---

(١) هذا تأويل بعيد، والمتبادر من الآية أنك إذا نظرت إليهم ظننت أنهم بين النائم واليقظان أو النائم الصاحى أو المستيقظ من كثرة تقلبهم فى مضاجعهم وكأنهم يستعدون لاستقبال النوم لا فى عمق النوم أو فى النوم العميق والله أعلم.

(٢) كم حمل هذا اليوم من الأوصاف وحمل من الأحداث والأخبار التى لا تصح وتنسب إليه، وهذا القول منها هدانا الله إلى الحق.

(٣) كون الله سبحانه وتعالى يصف بأنه يقلبهم فهذا إخبار علينا أن نقبله ونؤمن به لكن كوننا نعلله فلا، لأن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أسباب لأنه مسببها فهو يفعل ما يشاء ويختار ولا يُسأل عما يفعل، كدخول سيدنا إبراهيم النار والخروج منها دون أن يمسه أذى، وكدخول سيدنا يونس فى بطن الحوت وخروجه منها دون أن يمسه أذى، وكإسرائه بمحمد ﷺ بغير وسائل، فلا يجوز وضع أفعال الله تعالى وأخباره تحت البحث والتعليل ولو لم يكن كذا لكان كذا فهذا فى حقه سبحانه لا يجوز، و كذا لا يعتدل بقول من ذكر عدد مرات التقليب فالله سبحانه أخبرنا إخباراً مجملاً فلا داعى لتفصيله ولو كان فى تفصيله شىء ينفعنا لعرفه لنا سبحانه وتعالى.

(٤) موضع النقط بياض بالمخطوط، وانظر كيف خاضوا فى لون الكلب واسمه واختلفوا فى كليهما بما لا سلطان عندهم به، وفى موضع النقط بالقرطبى: نقيا.

(٥) ما بين المعقوفين فى المخطوط بياض، وأثبت ما بين المعقوفين من تفسير القرطبى وليس معنى الإثبات الصحة وإنما هو إكمال لما سقط من المخطوط.

﴿بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾، قال مجاهد والضحاك: الوصيد: فناء الكهف، وهو رواية على ابن أبى طلحة عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: الوصيد الصعيد، وهو التراب. وهذه رواية عطية العوفى عن ابن عباس. وقال السّدى: الوصيد الباب، وهى رواية عكرمة عن ابن عباس، وأنشد:

بأرض فضاء لا يُسدّ وصيدها　　　علىّ ومعروفى بها غير منكر

أى بابها. وقال عطاء: الوصيد: عتبة الباب. وقال القتيبى الوصيد: البناء، وأصله من قول العرب، أصدت الباب وأوصدته، أى أغلقته وأطبقته. ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾؛ لما ألبسهم الله تعالى من الهيئة حتى لا يصل إليهم واصل، ولا تلمسهم يدُ لامس حتى يبلغ الكتاب أجله، فيوقظهم الله من رقدتهم لإرادة الله عزّ وجلّ أن يجعلهم آية وعبرة لمن شاء من خلقه؛ ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ (الكهف: ٢١).

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾: خوفًا، وقرأ أهل المدينة: (لملّئت) بالتشديد. وقيل: إنما ذلك من وحشة المكان الذى هم فيه. وقال الكلبى: لأن أعينهم مفتّحة ـ كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم ـ وهم نيام. وقيل: إن الله تعالى منعهم بالرعب لئلاّ يراهم أحد. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم! قال ابن عباس: ليس ذلك لك، قد منع الله من هو خير منك، قال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾. فقال معاوية: لا أنتهى حتى أعلم علمهم. فبعث ناسًا فقال: اذهبوا فانظروا. ففعلوا، فلمّا دخلوا الكهف بعث الله عز وجّل عليهم ريحًا فأخرجتهم فلم يستطيعوا الاطلاع عليهم من الرعب.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أى كما أنمناهم فى الكهف، ومنعنا من الوصول إليهم، وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان، وثيابهم من العفن على مرّ الأيّام بقدرتنا، كذلك بعثناهم من النّومة التى تشبه الموت ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾: ليتحدّثوا، ويسأل بعضهم بعضًا. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعنى: رئيسهم مكسلمينا: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ فى نومكم؟ وذلك أنهم استنكروا من أنفسهم طول نومهم. ويقال: إنه راعهم ما فاتهم من الصلاة، فقالوا ذلك. ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا﴾؛ لأنهم دخلوا الكهف غدوة، فلما رأوا الشمس قالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ توقّيًا من الكذب، وكانت قد بقيت من الشمس بقية. ويقال كان بعد زوال الشمس. فلما نظروا إلى شعورهم وأظفارهم تيقّنوا أن لبثهم أكثر من يوم أو بعض يوم، ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾. ويقال: إن رئيسهم لما سمع الاختلاف بينهم قال ذلك. ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم﴾ يعنى: تمليخا ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى

﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾، والورق: الفضّة؛ مضروبة كانت أو غير مضروبة. والدليل عليه أنّ عرفجة بن أسعد أُصيب أنفَه يوم الكلاب فاتّخذ أنفًا من ورق فأنتن عليه، فأمره النبى ﷺ أن يتخذ أنفًا من ذهب. وفيه لغات: (بورْقكم) وهى قراءة أبى عمرو وحمزة وخلف، و(ورقكم) ـ بسكون الراء وإدغام القاف ـ وهى قراءة أهل مكة، و(ورقكم) بفتح الواو وكسر الراء وهى قراءة أكثر القراء و(ورق) مثل كبْد وكَبِد وكلْمة وكَلمة.

(والمدينَة): أفسوس، ﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامًا﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير: أحلّ ذبيحةً، لأن عامّتهم كانوا مجوسًا، وفيهم قوم مؤمنون يخفون إيمانهم. قال الضحّاك: أطيب. وقال مقاتل بن حيّان: أجود. وقال يمان بن رياب: أرفص. قتادة: خير. قال عكرمة: أكثر. وأصل الزكاة الزيادة والنّماء، قال الشاعر:

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة ولَلسبع أزكى من ثلاث وأطيب

﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٍ مِّنۡهُ﴾ أى قوت وطعام، ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾: وليترفق فى الشراء، وفى طريقه، وفى دخول المدينة، ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ من الناس، أى ولا يعلمن، أى إن ظُهر عليه فلا يوقعن إخوانه فيما يقع فيه.

﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ فيعلموا بمكانكم ﴿يَرۡجُمُوكُمۡ﴾، قال ابن جريج: يشتموكم ويؤذوكم بالقول. ويقال: يقتلوكم. ويقال: كان من عادتهم القتل بالرجم وهو من أخبث القتل. وقيل: هو التوبيخ. ويضربوكم ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِى مِلَّتِهِمۡ﴾: دينهم الكفر ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ إن عدتم إليهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا﴾، أى أطلعنا ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، يقال: عثرت على الشيء إذا اطّلعت عليه، فأعثرت غيرى إذا أطلعته، ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعنى قوم تيدوسيس، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ﴾، قال ابن عباس: تنازعوا فى البنيان والمسجد، قال المسلمون: نبنى عليهم مسجداً، لأنهم على ديننا، وقال المشركون: نبنى عليهم بنيانًا؛ لأنهم من أهل سنّتنا. وقال عكرمة: تنازعوا فى الأرواح والأجساد، فقال المسلمون: البعث للأرواح والأجساد، وقال بعضهم: البعث للأرواح دون الأجساد، فبعثهم الله من رقادهم وأراهم أن البعث للأرواح والأجساد. وقيل: تنازعوا فى قدر لبثهم ومكثهم. وقيل: تنازعوا فى عددهم، ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنًاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ يعنى تيدوسيس الملك وأصحابه: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدًا﴾، وقيل: الذين تغلبوا على أمرهم، وهم المؤمنون. وهذا يرجع إلى الأوّل.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ﴾ وذلك أن السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى أهل نجران كانوا عند النبىّ ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وكان السيد يعقوبيًا، وقال العاقب: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وكان نسطوريًا، وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فحقق الله قول المسلمين وصدّقهم بعدما حكى قول النصارى، فقال ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ أى قذفًا بالظنّ من غير يقين، كقول الشاعر:

❖ وأجعلُ منّى الحقّ غيبًا مرجّما ❖

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾: وقال بعضهم: هذه الواو واو الثمانية، إن العرب يقولون: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، لأن العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة. ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (التوبة: ١١٢).

وقوله فى صفة أهل الجنّة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ (الزمر: ٧٣).

وقوله لأزواج النبى ﷺ: ﴿ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التحريم: ٥).

وقال بعضهم: هذه واو الحكم والتحقيق، فكأنه حكى اختلافهم فتمّ الكلام عند قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ﴾، ثمّ حكم أن ثامنهم كلبهم، والثامن لا يكون إلاّ بعد السّبع، فهذا تحقيق قول المسلمين. ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، قال قتادة: قليل من الناس. وقال عطاء: يعنى بالقليل: أهل الكتاب. يحيى بن أبى روق عن أبيه عن الضحّاك عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من أُولئك القليل. وهم: مكسلمينا، وتمليخا، ومرطونس، وسارينوس، وآنوانس، وروانوانس، ومشططيونس، وهو الرّاعى، والكلب واسمه قطمير كلب أنمر فوق القلطى ودون الكردى.

وقال محمد بن المسيب: القلطى: كلب صينى، وقال: ما بقى بنيسابور محدث إلا كتب عنّى هذا الحديث إلاّ من لم يقدر له. قال: وكتبه أبو عمرو، والحيرى عنى. ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾، أى فى عدّتهم وشأنهم ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا﴾ وهو ما قصّ عليه فى كتابه من خبرهم يقول: حسبك ما قصصت عليك فلا تمار فيهم، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ من أهل الكتاب.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، قال ابن عباس: يعنى إذا عزمت على أن تفعل شيئًا غدًا، أو تحلف على شىء أن تقول: إنى فاعل ذلك غدًا إن شاء الله. وإن نسيت الاستثناء ثمّ ذكرته فقله ولو بعد سنة، وهذا تأديب من الله تعالى لنبيّه ﷺ حين سئل عن المسائل الثلاثة: أصحاب الكهف، والروح، وذى القرنين، فوعدهم أن يخبرهم ولم يستثن.

عبد الله بن سعيد المقرى عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتم إيمان العبد حتى يستثنى فى كلّ كلامه».

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، قال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية والحسن (. . .)[1] إذا نسيت الاستثناء ثمّ ذكرت (. . .)[1] وهذا فى غير اليمين.

وقال عكرمة: معناه: واذكر ربّك إذا عصيت.

حدّثنا عبد الصّمد بن حسان بن وهيب قال: مكتوب فى الإنجيل: ابن آدم، اذكرنى حين

(١) موضع النقط بياض فى المخطوط قدر كل موضع كلمة.

تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظُلمتَ فلا تنتصر؛ فإن نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك. وقال الضحّاك والسدى: هذا فى الصلاة؛ لقول النبى ﷺ: «من نسى صلاة أو نام عنها فليصلّها إذا ذكرها».

وقال أهل الإشارة: معناه واذكر ربك إذا نسيت غيره؛ لأن ذكر الله تعالى إنما يتحقق بعد نسيان غيره. يؤيده قول ذى النون المصرى: من ذكر الله ذكراً على الحقيقة نسى فى جنب ذكره كل شىء، فإذا نسى فى جنب ذكره كل شىء حفظ الله له كلّ شىء، وكان له عوضًا من كل شىء. وقيل: معناه: واذكر ربّك إذا تركت ذكره، والنسيان هو الترك. ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا﴾، أى يثبتنى على طريق هو أقرب إليه، فأرشد. وقيل: لعلّ الله أن يهدينى ويسدّدنى لأقرب مما وعدتكم وأخبرتكم أنه يكون إن هو شاء. وقيل: إن الله تعالى أمره أن يذكره إذا نسى شيئًا ويسأله أن يذكره فيتذكّر، أو يهديه لما هو خير له من تذكُّر ما نسيه. ويقال: إن القوم لمّا سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله تعالى أن يخبرهم أن الله سيؤتيه من الحجج والبيان على صحة نبوّته وما دعاهم إليه من الحق ودلّهم على ما سألوه. ثمّ إن الله عزّ وجلّ فعل ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين خبرهم ما كان أوضح فى الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف. وقال بعضهم: هذا شىء أمر أن يقوله مع قوله: (إن شاء الله إذا ذكر الاستثناء بعدما نسيه، فإذا نسى الإنسان فيؤتيه من ذلك. وكفارته أن يقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا﴾.

﴿وَلَبِثُوا۟﴾: يعنى: أصحاب الكهف ﴿فِى كَهْفِهِمْ﴾، قال بعضهم: هذا خبر عن أهل الكتاب أنهم قالوا ذلك، وقالوا: لو كان خبراً من الله عزّ وجلّ عن قدر لبثهم فى الكهف لم يكن لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ وجه مفهوم، وقد أعلم خلقه قدر لبثهم فيه، هذا قول قتادة. يدل عليه قراءة ابن مسعود: (وقالوا لبثوا فى كهفهم). وقال مطر الورّاق فى هذه الآية: هذا شىء قالته اليهود، فردّه الله عليهم، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾. وقال الآخرون: هذا إخبار الله عن قدر لبثهم فى الكهف، وقالوا: معنى قوله: إن أهل الكتاب قالوا على عهد رسول الله ﷺ: إن للفتية من لدن دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلاثمائة وتسع سنين فردّ الله عزّ وجلّ ذلك عليهم، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ بعد أن قبض أرواحهم إلى يومنا هذا لا يعلم ذلك غير الله وغير من أعلمه الله ذلك. وقال الكلبى: قالت نصارى نجران: أما الثلاثمائة فقد عرفناها، وأما التسع فلا علم لنا بها فنزلت ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾.

﴿ثَلَـٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾: مضاف غير منون، قرأها حمزة، والكسائى والباقون بالتنوين يعنى:

ولبثوا فى كهفهم سنين ثلاثمائة. وقال الضحاك ومقاتل: نزلت: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ فقالوا: أيامًا أو سنين؟ فنزلت ﴿سِنِينَ﴾ فلذلك قال: ﴿سِنِينَ﴾ ولم يقل: سنة ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ يعنى: ما أبصر الله بكل موجود! وأسمعه بكل مسموع! ﴿مَا لَهُم﴾، أى لأهل السموات والأرض ﴿مِّن دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾: ناصر، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾: من الأصنام وغيرها.

﴿وَاتْلُ﴾: أى واقرأ يا محمد ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾، يعنى: القرآن، واتّبع ما فيه ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، قال الكلبى: لا مغير للقرآن. وقال محمد بن جرير: يعنى: لا مغير لم أوعد بكلماته أهل معاصيه والمخالفين لكتابه. ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أنت ﴿مِن دُونِهِ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته ﴿مُلْتَحَدًا﴾، قال ابن عباس: حرزًا. وقال الحسن: مدخلاً. وقيل: معدلاً. وقيل: موئلا وقال مجاهد ملجأ، وأصله من الميل، ومنه لحد القبر.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ - الآية - قال المفسرون: نزلت فى عيينة بن حصين الفزارى، وذلك أنه أتى النبى ﷺ قبل نزول هذه الآية، وعنده بلال وصهيب وخباب وعمار وعامر بن فهيرة ومهجع وسلمان، وعلى سليمان شملة قد عرق فيها وبيده خوصة يشتقها ثمّ ينسجها، فقال عيينة للنبى ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟ فوالله لقد آذانا ريحهم. وقال: نحن سادات مضر وأشرافها فإن أسلمنا أسلم الناس وإن أبينا أبى الناس، وما يمنعنا من اتّباعك إلاّ هؤلاء، فنحِّ هؤلاء حتّى نتبعك، واجعل لنا مجلسًا ولهم مجلسًا. فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَاصْبِرْ﴾: واحبس ﴿نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: يعبدون ربهم ويوقّرون ﴿رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، أى طرفى النهار ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، يعنى: يريدون الله عزّ وجلّ لا يريدون عرضًا من الدنيا. والمراد منه: الحسنة وترك الرياء. قال قتادة: يعنى: صلاة الصبح والعصر، وقال كعب الأحبار: والذى نفسى بيده إنّهم لأهل الصّلوات المكتوبة. قال قتادة: نزلت هذه الآية فى أصحاب الصفة، وكانوا سبعمائة رجل فقراء لزموا مسجد رسول الله ﷺ لا يرجعون إلى تجارة ولا إلى زرع ولا ضرع، يصلّون صلاة وينتظرون أُخرى. قال قتادة: فلما نزلت هذه الآية قال نبى الله ﷺ: «الحمد لله الذى جعل فى أُمتى من أمرت أن أصبر معهم».

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾: لا تصرف ولا تجاوز عيناك ﴿عَنْهُمْ﴾: إلى غيرهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يعنى مجالسة الرؤساء والأغنياء والأشراف.

ومعنى الآية: ولا تعدُ عيناك عنهم - مريدًا زينة الدنيا - حال خوضهم فى الاستغفار لأنه حكم على النبىّ ﷺ بإرادته الدنيا. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أى تركنا قلبه وأنسيناه

ذكرنا. قال أبو العالية: يعنى: أُميّة بن خلف الجمحى. وقال غيره: يعنى عيينة بن حصين، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، قال قتادة والضحّاك ومجاهد: ضياعًا. وقال داود: ندمًا. وقال حباب: هلاكًا. وقال ابن زيد: مخالفًا للحق. وقال مقاتل بن حيّان: سرفًا. وقال الأخفش: مجاوزًا للحد. وقال الفرّاء: متروكًا. وقيل: باطلاً. وقال أبو زيد البلخى: قُدُمًا فى الشر. قال أبو عبيد: هو من قول العرب: فرس فرط إذا سبقت الخيل، وفرط القول منّى أى سبق. وقيل: معناه ضيّع أمره وعطّل أيامه، قالوا: إن المؤمن من يستعمل الأوقات، ولا تستعمله الأوقات.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، الحق: رفع على الحكاية، وقيل: هو رفع على خبر ابتداء مضمر معناه: وقل هو الحقّ من ربكم، يعنى: ما ذكر من القرآن والإيمان وشأن محمد ﷺ. وقيل: هو رفع على الابتداء وخبره فى قوله ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ومعنى الآية: وقل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيُّها الناس، مِن ربكم الحقُّ، وإليه التوفيق والخذلان، وبيده الضلالة والهدى، يهدى من يشاء فيؤمن، ويضل من يشاء فيكفر ليس إلىّ من ذلك شىء، ولست بطارد المؤمنين لكم، فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا؛ فإنكم إن كفرتم فقد أعدّ لكم ربكم على كفركم ناراً أحاط بكم سرادقها، وإن آمنتم وأطعتم فإن لكم ما وصف الله عزّ وجلّ لأهل طاعته.

وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ليس بترخيص وتخيير، إنما هو وعيد وتهديد، كقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ (فصلت: ٤٠). قال ابن عباس: من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء له الكفر كفر، وهو قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الإنسان: ٣٠).

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾: أعددنا وهيّأنا، من العتاد، وهو العدّة ﴿لِلظَّـٰلِمِينَ﴾: للكافرين ﴿نَارًا﴾، وفيه دليل على أن النار مخلوقة؛ لأنها لو لم تكن مخلوقة موجودة معدّة لكان المخبر كذّابًا، وتعالى الله عن ذلك.

وقوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، روى أبو سعيد الخدرى عن النبّى ﷺ أنه قال: «سرادق النار أربعة جدر كُثُف، كل واحد مسيرة أربعين سنة». وقال ابن عباس: هو حائط من نار، الكلبى: هو عَنَق يخرج من النار فيحيط بالكفّار (. . .)[1]. وقال القتيبى: السّرادق الحجرة التى تكون حول الفسطاط. قال رؤبة:

يا حكم بن المنذر بن الجارودْ سرادق المجد عليك ممدودْ

(١) موضع النقط بياض فى الأصل.

وقال سلامة بن جندل:

هو المدخل النعمان بيتًا سماؤه صدور الفيول بعد بيت مسردق

وهو هاهنا دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذى ذكره الله فى سورة المرسلات: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ﴾ (المرسلات: ٣٠).

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ من شدة العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾، روى أبو مسلم عن أبى سعيد عن النبىّ ﷺ: ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ قال: «كعكر الزّيت، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه». وقال ابن عباس: ماء غليظ مثل دردى الزيت. وقال الأعمش: هو عصارة الزيت. ومجاهد: القيح والدم. قال الضحّاك: المهل ماء أسود، وإن جهنم سوداء، ماؤها أسود، وشجرها أسود، وأهلها سود. وقال أبو عبيدة: كل ما أُذيب من جواهر الأرض.

وروى روح بن عبادة، عن سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن ابن مسعود أُهديت له سقاية من ذهب وفضّة، فأمر بأخدود فخُدّ فى الأرض، ثمّ قذف فيه من جزل الحطب، ثمّ قذف فيه تلك السقاية، فلما أزبدت وانماعت، قال لغلامه: ادعُ من بحضرتك من أهل الكوفة. فدعا رهطًا، فلما دخلوا عليه قال: أترون هذا؟ قالوا: نعم. قال: ما رأينا فى الدنيا شبهًا بالمهل أدنى من هذا الذهب والفضّة حين أزبد وانماع. وقال سعيد بن جبير: المهل الذى قد انتهى حرّه. وقال أبو عبيدة: سمعت المنتجع بن نبهان وذكر رجلاً، فقال: هو أبغض إلىّ من الطليا والمهل، فقلت له: ما المهل؟ قال: الملّة التى تحدّد من جوانب الرغيف من النار، أحمر شديد الحمرة كأنّها الرمانة، وهى جمرة والطليا: الناقة المطليّة بالقطران. ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾، قال سعيد ابن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزّقوم فيأكلون منها فاختلست جلودهم ووجوههم، فلو أن مارًا مرّ يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها، ثمّ يصبّ عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذى قد انتهى حرّه، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حرّه لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود. ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ هذا، ﴿وَسَآءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾، قال ابن عباس: منزلاً. مجاهد: مجتمعًا. عطاء: مقرًا. وقيل: مهادًا. وقال القتيبى: مجلسًا. وأصل: المرتفق المتّكأ، يقال منه: ارتفقت، إذا اتّكأت على المرتفق. قال الشاعر:

قالت له وارتفقت ألا فتى يسوق بالقوم غزالات الضحى

ويقال: ارتفق الرجل، إذا بات على مرفقه لا يأتيه نوم. قال أبو ذؤيب الهذلى:

نام الخلى وبتّ الليل مرتفقًا كأن عينى فيها الصاب مذبوح

أى مقطوع من معتضده، والصاب: شجر إذا استؤصل خرج منه كهيئة اللبن، وربما ترتفع منه تربة أى فطرة، فيقع فى العين فكأنها شهاب نار، وربما أضعف البصر. ويجوز أن يكون قوله: ﴿مُرْتَفَقًا﴾ من الرفق والمنفعة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾. ليس قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ خبراً لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بل هو كلام معترض، وخبر ﴿إِنَّ﴾ الأولى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾. ومثله فى الكلام كثير، قال الشاعر:

إنّ الخليفة إنّ الله سربله سربال ملك به ترجى الخواتيم

ومنهم من قال: فيه إضمار؛ فإن معناه: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنا لا نضيع أجره بل نجازيه.

ثمّ ذكر الجزاء فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، وهى الإقامة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ﴾: يلبسون ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾، وهو جمع الأسوار، قال سعيد بن جبير: يُحلّى كل واحد منهم ثلاثةً من الأساور، واحداً من فضّة، وواحداً من ذهب، وواحداً من لؤلؤ، لو أبرز أحدهم إلى الدنيا سواراً منها لأضاء لأهل الدنيا إضاءة الشمس، وهن مرصعات باليواقيت[1].

﴿مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ﴾، وهو ما رقّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، وهو ما غلظ منه. وقيل: هو فارسيّ معرب ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾: فى الجنان ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، وهى السّرر فى الحجال، واحدتها: أريكة ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ﴾ يعنى: الجنان ﴿مُرْتَفَقًا﴾.



﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

(١) هذا قول لا دليل عليه وتفسير بالرأى والجنة لا يعلم حقيقتها إلا الله وما هذا الوصف إلا وصف عقل محدود تصور ما أمكنه تصور من الزينة فلا يعتد بتصوره هذا.

وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ الآية ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ منصوب مفعول، على معنى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ كمثل رجلين. نزلت فى أخوين من أهل مكّة من بنى مخزوم، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل كان زوج أمّ سلمة قبل النبّى ﷺ والآخر كافر، وهو الأسود بن عبد الأسد بن عبد ياليل. وقيل نزلت فى النبى ﷺ وفى مشركى مكّة. وهذا مثل لعيينة بن حصين وأصحابه، وفى سلمان وأصحابه شبّههما برجلين من بنى إسرائيل أخوين: أحدهما مؤمن واسمه يهوذا فى قول ابن عباس، وقال مقاتل: تمليخا، والآخر كافر، واسمه فطروس، قال وهب قطفر. وهما اللّذان وصفهما الله فى سورة (الصافات)، فذكر القصة. قال عطاء: كان رجلان شريكين، وكان لهما ثمانية آلاف دينار، وقيل: إنهما ورثاه عن أبيهما، وكانا أخوين فاقتسماها، فعمد أحدهما فاشترى أرضًا بألف دينار، فقال صاحبه: اللهم إن كان فلان قد اشترى أرضًا بألف دينار، فإنى أشترى منك أرضًا فى الجنة بألف دينار، فتصدّق بألف دينار.

ثمّ إن صاحبه بنى دارًا بألف دينار، فقال هذا: إن فلانَ بنى دارًا بألف دينار، وإنى اشتريت منك دارًا فى الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثمّ تزوج بامرأة وأنفق عليها ألف دينار فقال: إنّ فلانًا تزوّج امرأة بألف دينار، وإنى أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدّق بألف دينار. ثمّ اشترى خدمًا ومتاعًا بألف دينار، فقال: إن فلانَ اشترى خدمًا ومتاعًا بألف دينار، وإنى أشترى منك خدمًا ومتاعًا فى الجنة بألف دينار فتصدّق بألف دينار.

ثمّ أصابته حاجة شديدة فقال: لو أتيت صاحبى هذا لعلّه ينالنى منه معروف. فجلس له على طريقه حتى مرّ به فى حشمه، فقام إليه، فنظر إليه الآخر فعرفه فقال: فلان؟ قال: نعم، قال: ما شأنك؟ قال: أصابتنى حاجة بعدك فأتيتك لتصيبنى بخير فقال: فما فعل مالك فقد اقتسمنا مالاً واحدًا فأخذت شطره وأنا شطره؟ فقصّ عليه قصته، فقال: وإنك لمن المصدّقين

بهذا، أى بأنك تبعث وتجازى؟ اذهب فوالله لا أُعطيك شيئًا.

فطرده، فقضى لهما أن توفيا، فنزل فيهما: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (الصافات: ٥٠) إلى قوله: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ (الصافات: ٥٥)، ونزلت ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾: بستانين ﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا﴾: أحطناهما ﴿بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾، يعنى: جعلنا حول الأعناب النخلَ ووسط الأعناب الزرعَ.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ﴾: أعطت، يعنى: آتت كلَ واحدة من الجنتين، فلذلك لم يقل: آتتا ﴿أُكُلَهَا﴾: ثمرها تامًا ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾. أى لم ينقص، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾، يعنى: شققنا وأخرجنا وسطهما نهرًا.

﴿وَكَانَ لَهُ﴾، يعنى: لفطروس ﴿ثَمَرٌ﴾ يعنى: المال الكثير المثمر من كل صنف، جمع ثمار. ومن قرأ: (ثُمْر) فهو جمع ثمرة. مجاهد: ذهب وفضة. ابن عباس: أنواع المال. قتادة: من كلّ المال. وقال ابن زيد: الثمر الأصل. ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾: يجاوبه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، يعنى عشيرة ورهطًا. قال قتادة: خدمًا وحشمًا. وقال مقاتل: ولدًا، تصديقه قوله تعالى ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾، يعنى: فطروس، أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به ويريه إيّاها ويعجبه منها، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بكفره، فلما رأى ما فيها من الأنهار والأشجار والأزهار والثمار قال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ﴾: القيامة ﴿قَائِمَةً﴾: آتية كائنة. ثمّ تمنى على الله أُمنية أُخرى مع شكّه وشركه فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾: صرفت ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾، فرجعت إليه فى المعاد ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾، أى من الجنة التى دخلها. وقرأ أهل الحجاز والشام (منهما) على لفظ التثنية، يعنى الجنتين، وكذلك هو فى مصاحفهم. ﴿مُنقَلَبًا﴾، أى منزلاً ومرجعًا. يقول: لم يعطنى هذه الجنة فى الدنيا إلاّ ولى عنده أفضل فى الآخرة.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ المسلم ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾ يعنى خلق أباك وأصلك ﴿مِن تُرَابٍ ثُمَّ﴾ خلقك ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعنى ماء الرجل والمرأة ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾، أى عدلك بشرًا سويًا ذكرًا. ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾، يقول: أما أنا فلا أكفر بربى، ولكنا هو الله ربى. قال الكسائى: فيه تقديم وتأخير مجازه: لكن الله هو ربّى. وقال الآخرون: أصله (لكن أنا) فحذفت الهمزة طلبًا للخفة؛ لكثرة استعماله، وأُدغمت إحدى النونين فى الأخرى، وحذفت ألف (أنا) فى الوصل. وقرأ ابن عامر ويعقوب: (لكنا)، بإتيان الألف بالوصل، كقول الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفونى ... حميدًا قد تذريت السناما

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف. ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ﴾، ﴿مَا﴾ فى موضع رفع، يعنى: هى ما شاء الله، ويجوز أن تكون فى موضع النصب بوقوع ﴿شَآءَ﴾ عليه. وقيل: جوابه مضمر مجازه: ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون.

عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «من رأى شيئًا فأعجبه فقال: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ لم يضرّه».

ثمّ قال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾، ﴿أَنَا۠﴾ عماد ولذلك نصب. ﴿فَعَسَىٰ﴾: فلعل ﴿رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ﴾ فى الآخرة ﴿خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا﴾: يبعث على جنتك ﴿حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قال قتادة والضّحاك: عذابًا. وقال ابن عباس: نارًا. وقال ابن زيد: قضاء من الله عزّ وجلّ يقضيه. قال الأخفش والقتيبى: مرام من السماء واحدتها حسبانة، ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾، قال قتادة: يعنى صعيدًا أملس لا نبات عليه. وقال مجاهد: رملاً هايلاً وترابًا. قال ابن عباس: هو مثل الحَزَن. ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾ أى غائرًا منقطعًا ذاهبًا فى الأرض لا تناله الأيدى ولا الرشا والدلاء. والغور مصدرٌ وُضع موضع الاسم، كما يقال: صوم وزور وعدل، ونساء نوح يستوى فيه الواحد والاثنان والمذكر والمؤنث.

قال عمرو بن كلثوم.

تظل جياده نوحًا عليه مقلّدة أعنتها صفونا

وقال آخر:

هريقى من دموعهما سجاما ضباع وجاوبى نوحًا قياما

﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ بعدما ذهب ونصب.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أى أحاط الهلاك بثمر جنّتيه، وهى جميع صنوف الثمار. وقال مجاهد: هى ذهب وفضة؛ وذلك أن الله أرسل عليها نارًا فأهلكها وغار ماؤها، ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ صاحبها الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾: يصفق يده على الأخرى، وتقليب كفيه ظهرًا لبطن؛ تأسفًا وتلهّفًا ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ يعنى: عليها كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ (طه: ٧١) أى عليها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ساقطة على سقوفها، خالية من غرسها وبنائها ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ﴾ أى جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يمنعونه من عذاب الله، ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾: ممتنعًا منتقمًا.

﴿هُنَالِكَ﴾ يعنى: فى القيامة ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ﴾، قرأ الأعمش وحمزة والكسائى (الولاية) - بكسر الواو - يعنى: السلطان والأمر. وقرأ الباقون بفتح الواو، من الموالاة كقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (محمد: ١١).

قال القتيبى: يريد: يتولون الله يومئذ، ويؤمنون به ويتبرّؤون مما كانوا يعبدون. وقوله: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ رفعه أبو عمرو والكسائى على نعت الولاية، وتصديقه قراءة أُبىّ: (هنالك الولاية الحق لله). وقرأ الآخرون بالكسر على صفة الله كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ (الأنعام: ٦٢)، وتصديقه قراءة عبد الله: (هنالك الولاية لله وهو الحق) فجعله من نعت الله. ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ لأوليائه وأهل طاعته ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ لهم فى الآخره إذا صاروا إليه. والعُقب: العاقبة، يقال: هذا عاقبة أمره كذا، وعقباه وعقبه أى آخرة قوله.



﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَٱضْرِبْ﴾ يا محمد ﴿لَهُم﴾: لهؤلاء المتكبرين المترفين الذين سألوا طرد الفقراء المؤمنين ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، يعنى: المطر. قالت الحكماء: شبّه الله تعالى الدنيا بالماء؛ لأن الماء لا يستقر فى موضع وحال، كذلك الدنيا لا تبقى لأحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة وكذلك الدنيا، ولأن الماء يفنى كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر[1] أحد أن يدخله ولا يبتلّ، فكذلك الدنيا لا يسلم من آفاتها وفتنتها أحد، ولأن الماء إذا كان بقدر كان

(١) فى المخطوط: «يقد». وقد سقطت الراء من آخره سهواً.

نافعًا مبقيًا وإذا جاوز الحد المُقدّر كان ضاراً مهلكًا ، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع ، وفضولها يضر"[١] .

﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ﴾ : بالماء ﴿نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ﴾ عن قريب ﴿هَشِيمًا﴾ ، قال ابن عباس : يابسًا . قال الضحّاك : كسيراً . قال الأخفش : متفتتًا ، وأصله الكسر . ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ ، قال ابن عباس : تديره . قال ابن كيسان : تجيء به وتذهب . قال الأخفش : ترفعه . وقال أبو عبيدة : تُفرّقه . القتيبى : تنسفه . وقرأ طلحة بن مصرف الآية فقال : ذرته الريح تذروه ذرواً ، وتذريه ذريًا وأذرته إذراءً إذا أطارت به ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ ، قادراً .

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ﴾ التى يفخر بها عيينة وأصحابه من الأشراف والأغنياء ﴿زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ، وليست من زاد القبر ولا من عُدد الآخرة ، ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ [٢] التى يعملها سلمان وأصحابه من الموالى والفقراء ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ أى خير ما يأمله الإنسان واختلفوا فى ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ ما هى ؛ قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحّاك : هى قول العبد : (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر) . يدل عليه ما روى مسلم بن إبراهيم عن أبى هلال عن قتادة أن النبى ﷺ أخذ غصنًا فحركه حتى سقط ورقه ، وقال : «إن المسلم إذا قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ، تحاتّت عنه الذنوب . خذهن إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن ؛ فهنّ من كنوز الجنّة وصفايا الكلام ، وهنّ الباقيات الصالحات» .

---

(١) هذا التأمل وليس التفسير تأمل جميل وهيام فى بحور معانى الكلمات والتشبيه والتقاط درر العقل والفكر والخواطر الطيبة التى تدعو النفس إلى التريض فى حدائق الإيمان وترتع على ضفاف التقوى ، وتتنسم رحيق الصلاح ، وتستمتع بنغمات الذكر الحكيم وتستريح فى بحبوحة النعيم وتسمو إلى درجات الصديقين والمقربين فتراهم بعين البصيرة فتكون معهم فى حبور وسرور ، فتعود من تأملها وقد شحذت همتها مقبلة على آخرتها بشوق الوليدة إلى ولدها لا تبالى ما فى طريقها من متاعب أو مصاعب ، فكله يهون فى مقابل وصولها إلى هدفها ومرادها ، ألا وهى جنة ربها ، رزقنا الله وإياكم نعيمها .

(٢) كثيراً ما يترك الناسخ فى هذا المخطوط بعض آيات أو كلمات القرآن عن عمد ، وهو يترك سطوراً يستطيع القارئ للمخطوط أن يتبين أنه تركها عمداً واختصاراً للكتابة وخيانة فى النقل لا عن سهو ، وهو أيضًا يغير فى عبارات المؤلف أو فى تراكيبها تغييراً مُخلاً ، يفيد أيضا أنه يقصد تشويه الكتاب وعدم استفادة القارئ منه ، فربما كان هذا لشىء كان بين ناسخ هذا الجزء من المخطوط وبين صاحبه الذى أمره بنسخه كنوع من الانتقام ، وأظن أن ناسخ هذا الجزء من المخطوط لم يكن على دين أو فطرة سليمة حيث لا يهتم بقيم ولا يخشى آخرة ، وهو الآن بين يدى ربه سبحانه فاللهم إن كان ما جاء فى هذا المخطوط عن غير قصد منه فارحمه واعفُ عنه وأجزل عطاءه ، وإن كان عن قصد وقد تاب منه فإنك أنت التواب الرحيم فتقبل منه توبته ، وإن كان مبغضًا للإسلام والمسلمين ولدينك الحنيف فشأنك به فإنه عبدك وقد أتاك بما قدم .

وقال عثمان (رضى الله عنه) وابن عمر وسعيد بن المسيب وعطاء بن أبى رباح: هى (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، ولا حول، ولا قوة إلاّ بالله العلىّ العظيم).

يدل عليه (ما) روى القاسم بن عبد الله العمرى، ومحمد بن عجلان عن عبد الجليل بن حميد عن خالد بن عمران أن النبّى ﷺ خرج على قومه، فقال: «خذوا جُنّتكم». قالوا: يا رسول الله، من عدوّ حضر؟ قال: «بل من النار». قالوا: وما جنتنا من النار؟ قال: «الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلى العظيم؛ فإنهن يأتين يوم القيامة مقدّمات مجنّبات ومعقّبات، وهنّ الباقيات الصالحات».

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات». فقيل: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: «الملّة». قالوا: وما هى؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله».

وقال عبد الله بن عبد الرحمن مولى سالم بن عبد الله: أرسلنى سالم إلى محمد بن كعب القرظى فقال: قل له: القنى عند زاوية القبر؛ فإن لى إليك حاجة. قال: فالتقيا، فسلّم أحدهما على الآخر، ثمّ قال سالم: ما تعدّ الباقيات؟ فقال: لا إله إلاّ الله، والحمد لله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله. فقال له سالم: متى جعلت: ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله؟ قال: مازلت أجعله فيها. قال فراجعه مرتين وثلاثًا فلم ينزع، فقال سالم: أجّل. فأتيت أبا أيّوب الأنصارى فحدّث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «عُرج بى إلى السماء فأُريت إبراهيم (عليه السلام) فقال: يا جبرئيل، من هذا معك؟ فقال: محمد. فرحّب بى وسهّل، ثمّ قال: مر أُمّتك فليكثروا من غراس الجنّة، فإن تربتها طيبة، وإن أرضها واسعة. فقلت وما غراس الجنّة؟ قال: لا حول ولا قوة إلاّ بالله»[1].

وقال سعيد بن جبير وعمرو بن شرحبيل ومسروق وإبراهيم: هى الصلوات الخمس، وهى ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (هود: ١١٤).

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: هى الأعمال الصالحة: لا إله إلاّ الله، وأستغفر الله وصلى الله على محمد، والصلاة والصوم والحج والصدقة والعتق والجهاد والصّلة وجميع

---

(١) الخبر غير صحيح أما النبى ﷺ فقد عرج به إلى السماء حتى كان قاب قوسين أو أدنى، ورأى من آيات ربه الكبرى، وأوحى الله تعالى إليه فى هذه الرحلة ما أوحى أما عن تفاصيل هذه الرحلة فليس فيها كثير خبر صحيح فمعظم ما روى فيها باطل ولا أساس له من الصحة فهو بين ضعيف وموضوع، وأما عما فى هذا الخبر من التسبيح، فالتسبيح أمر خير أمر الله به بنى آدم وبين لهم أن من السموات والأرض وما بينهما يسبحون الله لا يفترون وليس هناك من ينكر ذلك، ولكن الكلام عن الخبر الوارد هنا فإنه غير صحيح.

الحسنات التى تبقى لأهلها فى الجنّة ما دامت السموات والأرض.

وروى عطية عن ابن عباس قال: هى الكلام الطيب. وقال عوف: سألت الحسن عن الباقيات الصالحات، قال: النيّات والهمّات؛ لأن بها تُقبل الأعمال وترفع. قال قتادة: هى كل ما أُريد به وجه الله. والله أعلم.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾: نزيلها عن أماكنها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: (تُسيَّر) - بالتاء وفتح الياء - (الجبال) رفعًا على المجهول، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظاهرة كرأى العين ليس عليها شجر ولا جبل ولا ثمر ولا شىء يسترها. وقال عطاء: ترى باطن الأرض ظاهرًا قد برز الذين كانوا فى بطنها فصاروا على ظهرها، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾: جمعناهم إلى الموقف للحساب، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾: نترك ونخلف ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ يعنى: صفًا صفًا؛ لأنهم صفٌ واحد. وقيل قيامًا، يقال لهم - يعنى للكفار، لفظه عام ومعناه خاص -: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ يعنى: أحياء. وقيل: عراة. وقيل: غرلاً. وقيل: فرادى[1]. ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ يعنى: القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[2] يعنى كتب أعمال الخلق كتاب[3] كل امرئ، فآخذه بيمينه أو بشماله، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾: خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الأعمال السيئة، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا رأوها: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ من ذنوبنا[4]؟ قال ابن عباس: الصغيرة: التبسّم، والكبيرة: القهقهة. وقال سعيد بن جبير: الصغيرة اللمم والتخميش والقبل والمسيس، والكبيرة: الزنا، والمواقعة، ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، قال ابن عباس: علمها. وقال السّدى: كتبها وأثبتها. وقال مقاتل بن حيان: حفظها. وقيل: عدها. وقال إبراهيم ابن الأشعث: كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية قال: ضجّوا والله من الصغار قبل الكبار. وضرب رسول الله ﷺ لصغائر الذنوب مثلاً فقال: «كمثل قوم انطلقوا يسيرون

---

(١) فى المخطوط: فردًا. والتصويب من تفسير القرطبى، وفيه: دليله: ﴿لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ (الأنعام: ٩٤).

وقال الزجاج: أى بعثناكم كما خلقناكم.

(٢) ترك هذه الكلمة من المخطوط، وجاء بعدها بياض فى المخطوط. قدره كلمة.

(٣) فى المخطوط: «كتب» وهو تحريف.

(٤) فى تفسير القرطبى: قال الأسدى: الصغيرة: ما دون الشرك، والكبيرة: الشرك.

قلت: وقد اختلفوا فى الصغيرة ما هى؟ وهل تكفر بكثرتها أم لا؟

واختلفوا أيضًا فى الكبيرة أى فى كم هى الكبائر، وما هى؟ وهل مرتكبها كافر أم مسلم؟

كما اختلفوا فى المصر على الكبيرة أو الصغيرة. وما مصيره فى الآخرة؟.

حتى نزلوا بفلاة من الأرض فانطلق كل رجل منهم يحتطب، فجعل الرجل منهم يأتى بالعود ويجىء الآخر بعودين حتى جمعوا سوادًا وأجّجوا. وإن الذنب الصغير يجتمع على صاحبه حتى يهلكه».

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾ مكتوبًا مثبتًا فى كتابهم ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ يعنى: لا ينقص ثواب أحد عمل خيرًا. قال الضحّاك: لا يأخذ أحدًا بجرم لم يعمله ولا يورّث ذنب أحد على غيره.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ يقول جلّ ذكره مذكّرًا لهؤلاء المتكبرين ما أورث الكبر إبليس، ويعلّمهم أنه من العداوة والحسد لهم على مثل الذى كان لأبيهم: واذكر يا محمد إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾؛ اختلفوا فيه فقال ابن عباس: كان إبليس من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن، خُلقوا من نار السّموم، وخلق الملائكة من نور غير هذا الحى. وكان اسمه بالسريانية عزازيل وبالعربية الحارث، وكان من خزان الجنّة، وكان رئيس ملائكة الدنيا، وكان له سلطان سماء الدنيا وسلطان الأرض، وكان من أشد الملائكة حلمًا وأكثرهم علمًا، وكان يسوس ما بين السماء والأرض فرأى بذلك لنفسه شرفًا وعظمة فذلك الذى دعاه إلى الكبر، فعصى فمسخه الله شيطانًا رجيمًا ملعونًا. فإذا كانت خطيئة الرجل فى كبر فلا ترجُه، وإن كانت خطيئته فى معصية فارجُه، وكانت خطيئة آدم معصية، وخطيئة إبليس كبرًا[1].

وقال ابن عباس فى رواية أُخرى. كان من الجن وإنما سُمى الجنان، لأنه كان خازنًا عليها فنُسب إليها، كما يقال للرجل: مكى وكوفى ومدنى وبصرى[2].

روى يعقوب القمى عن جعفر عن سعيد بن جبير. فى قوله عزّ وجلّ: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ - قال: كان من الجنانيين الذين يعملون فى الجنّة. وقال الحسن: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين، وإنه لأصل الجنّ كما أن آدم أصل الإنس[3].

وقال شهر بن حوشب: كان إبليس من الجنّ الذين ظفر بهم الملائكة فأسره بعض الملائكة،

---

(١) هذه حكمة أو مقولة وافقت كثيرًا من الصواب وقد رأيت وجربت فى حياتى هذه المقولة فوجدتها دائمًا ما توفق فكل من كانت معصيته فى الكبر لم أوفق فى الوصول معه إلى صلاح، وأما من كانت فى غير ذلك فغالبًا ما يتوب ويقلع عنها.

(٢) هذا قول بعيد كل البعد عن الحقيقة حيث لا دليل عليه ولا يوافق العقل والفطرة.

(٣) هذا هو القول الأرجح والله تعالى أعلم وإن كان هناك ما يرجح أن لا يكون صوابًا لقوله: ﴿من الجن﴾.

فذهب به إلى السماء[١].

وقال قتادة: جنّ عن طاعة الله تعالى، ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ يعنى: خرج عن طاعة ربه. تقول العرب: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، وفسقت الفأرة إذا خرجت من جحرها، ولذلك قيل لها: الفويسقة. وقيل: هى من الفُسوق، وهى الاتّساع، تقول العرب: فسق فلان فى النفقة إذا اتسع فيها، وما أصاب مالاً إلاّ فسقه، أى أهلكه وبذّره. والفاسق سمّى فاسقًا؛ لأنه اتّسع فى محارم الله عزّ وجلّ، وهوّنها على نفسه. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾، يعنى يا بنى آدم ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾: أعداء. وقال الحسن: الإنس من آخرهم من ذرّيّة آدم، والجن من آخرهم من ذريّة إبليس. قال مجاهد: فمن ذريّة إبليس لافيس وولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة، والهفّان ومرّة وبه يُكنّى إبليس وزيلنون وهو صاحب الأسواق يضع رايته بكل سوق من السّماء والأرض، والدثر وهو صاحب المصائب يأمر بضرب الوجه وشقّ الجيوب والدعاء بالويل والحرب، والأعور وهو صاحب أبواب الزّنا، ومبسوط وهو صاحب الأخبار يأتى بها فيلقيها فى أفواه النّاس فلا يجدون لها أصلاً، وداسم وهو الذى إذا دخل الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله عزّ وجلّ، بصّره من المقابح ما لم يرفع أو لم يحسن موضعه، فإذا أكل ولم يذكر اسم الله عليه أكل معه[٢].

وقال الأعمش: ربما دخلت البيت، ولم أذكر اسم الله ولم أُسلّم فرأيت مطهره فقلت: ارفعوا، وخاصمتهم، ثمّ أذكر فأقول: داسم، داسم.

وروى مخلد عن الشعبى قال: إنى لقاعد يومًا إذ أقبل حمال ومعه دن حتى وضعه، ثمّ جاءنى فقال: أنت الشعبى؟ قلت: نعم. فقال: أخبرنى هل لإبليس زوجة؟ قلت: إن ذلك لعرس ما شهدته. قال: ثمّ ذكرت قول الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾، فعلمت أنه لا يكون ذرية إلاّ من زوجة، قلت: نعم. فأخذ دنّه وانطلق، قال: فرأيت أنه مختارى[٣].

قال ابن زيد: إبليس أبو الجن كما أنّ آدم (عليه السلام) أبو الإنس. قال الله تعالى

(١) هذا وما بعده أيضًا لا يصلح لهذا التأويل.

(٢) هذا قول لا يحتاج إلى عناء فى رده وأظن أن مجاهدًا برىء منه كل البراءة فما ذكر مع كل اسم غريب جدًا وعجيب وأغرب ما فى تلك الحكاية تسمية شيطان للأنبياء بالأبيض، وجعل للشيطان على الأنبياء سبيل كيف وليس له على المؤمنين سبيل فضلاً عن الأنبياء.

(٣) لا يستدل بهاتين الحكايتين على صحة القول الأول لأنهما يمكن أن يدسا على الأعمش والشعبى كما دست الرواية التى تحمل أسماء الشياطين ويريد أن مناز هذا اسم شيطان.

لإبليس: إنى لا أخلق لآدم ذرية إلاّ ذرأت لك مثلها، كلما ولد لآدم. قال قتادة: إنهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، وما ولد لآدم ذريّة إلاّ ولد له مثله، فليس من ولد آدم أحد إلاّ له شيطان قد قرن به.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، أى بئس البدل لإبليس وذريّته من الله. قال قتادة: بئس ما استبدلوا بعبادة ربهم: طاعةَ إبليس وذريته.



﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝﴾

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾: ما أحضرتهم، يعنى إبليس وذريته. وقيل: يعنى الكافرين أجمع. قال الكلبى: يعنى ملائكة السموات. وقرأ أبو جعفر: (ما أشهدناهم) بالنون والألف على التعظيم، ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فأستعين بهم على خلقها، وأُشاورهم وأُؤامرهم فيها، ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾: أنصارًا وأعوانًا[1].

(١) فلا يجوز هنا أن يقال بمفهوم المخالفة فهل اتخذ المهتدين عضدًا فحاشا وكلاً وإنما المراد كيف أتخذ أعضادًا وأنصارًا وأنا الله الذى تعجز كل القوى عن قوتى والقُدر عن قدرتى حيث أنا خالق القوى والقدر فمراد الآية النفى القاطع عن مثل ذلك.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا﴾ قرأ حمزة بالنون. والباقون بالياء لقوله: ﴿شُرَكَآءِيَ﴾ ولم يقل: شركاءنا. ﴿شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائى، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ يعنى بين الأوثان وعبدتها. وقيل: بين أهل الهدى والضلالة ﴿مَّوْبِقًا﴾، قال عبد الله بن عمر: هو واد عميق فى جهنم يفرق به يوم القيامة بين أهل لا إله إلاّ الله، وبين من سواهم. وقال ابن عباس: هو واد فى النار. وقال مجاهد: واد من حميم. وقال عكرمة: هو نهر فى النار يسيل نارًا، على حافتيه حيّات مثل البغال الدهم، فإذا بادرت إليهم لتأخذهم استغاثوا بالاقتحام فى النّار منها. وقال الحسن: عداوة. وقال الضحّاك وعطاء: مهلكًا. وقال أبو عبيد: موعدًا، وأصله الهلاك، يقال: أوبقه يوبقه إيباقًا، أى أهلكه، ووبق يبق وبقًا، أى هلكة، ويقال: وبق يوبق ويبق ويأبق، وهو وابق ووبق، والمصدر: وبق، ووبُوق.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: المشركون ﴿ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾: داخلوها. وقال مجاهد: مقتحموها وقيل: نازلوها وواقعون فيها. وقرأ الأعمش: (ملاقوها)، يعنى مجتمعين فيها، والهاء الجمع ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

وروى أبو سعيد الخدرى عن النبّى ﷺ أنه قال: «إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنه مواقعها من مسيرة أربعين سنة»(١).

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾: بيّنا ﴿فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ليتذكروا ويتّعظوا ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾: خصومة فى الباطل، يعنى أُبى بن خلف الجمحى، وقيل فى النضر بن الحارث، وقيل: إنه عام ليس بخاص.

[وقال الزجاج: أى الكافر أكثر شىء جدلاً](٢).

واحتجّوا بما روى الحسن بن على بن أبى طالب عن أبيه قال: «إن رسول الله ﷺ طرقه هو وفاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال: ألا تصلّون؟ فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله تعالى، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت ذلك له ولم يرجع شيئًا، فسمعته وهو يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾».

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ يعنى من أن يؤمنوا، ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾: القرآن والإسلام ومحمد ﷺ ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟﴾: ومن أن يستغفروا ﴿رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعنى سنتنا فى إهلاكهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾، قال ابن عباس: عيانًا. قال الكلبى: هو السّيف يوم بدر.

---

(١) حديث غير صحيح، وإن كان مضمون صدره صحيحًا أما عجزه فليس كذلك.

(٢) ما بين المعكوفين سقط من المخطوط، وأثبته من تفسير القرطبى.

قال مجاهد: فجأة. ومن قرأ ﴿قُبُلًا﴾ ، بضمتين، أراد به: أصناف العذاب.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟﴾ : يبطلوا ويزيلوا ﴿بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ، قال السدى: ليفسدوا، وأصل الدحض: الزلق، يقال: دحضت رجله أى زلقته. وقال طرفة:

أبا منذر رمت الوفاء فهبته وحدت كما حاد البعير عن الدحض

﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾ ، فيه إضمار يعنى: وما أُنذروا وهو القرآن ﴿هُزُوًا﴾ : استهزاءً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ : لم يؤمن بها ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ ، أى عملت يداه من الذنوب[١] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ ، يعنى القرآن ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ : ثقلاً وصممًا ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ يعنى إلى الدين ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ : لن يرشدوا ولن يقبلوه[٢].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ﴾ فى الدنيا ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو يوم الحساب ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ : محيصًا ولا ملجأ[٣]، قال الأعشى:

وقد أُخالس ربَّ البيت غفلته وقد يحاذر منّى ثمّ ما يئل

أى لا ينجو.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ : كفروا، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ : أجلاً.

❖ ❖ ❖

---

(١) زاد القرطبى فى تفسيره: ترك كفره ومعاصيه، فلم يتب منها، فالنسيان هنا بمعنى الترك.
وقيل المعنى: نسى ما قدّم لنفسه، وحصّل من العذاب.
والمعنى متقارب.

(٢) جاء الكلمة فى المخطوط: «يقتلوا» وهو تحريف.

(٣) زاد القرطبى فى التفسير: قاله ابن عباس، وابن زيد، حكاه الجوهرى فى الصحاح. وقد وَأَلَ يَئِلُ وَأْلاً وَوءُولاً على فُعول، أى لجأ.
وَوَاءَلَ منه على فاعل أى طلب النجاة.
وقال مجاهد: مَحْرزًا.
وقال قتادة: وَلِيًّا.
وقال أبو عبيدةَ: مَنْجًى.
وقيل: مَحيصًا.
والمعنى واحد، والعرب تقول: لا وَأَلتْ نفسه أى لا نجت.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ **الآية. قال ابن عباس: لما ظهر موسى (عليه السلام) وقومه على مصر**

أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾ (إبراهيم: ٥) فخطب قومه وذكر بما آتاهم الله عزّ وجلّ من الخير والنّعمة؛ إذ نجّاهم من آل فرعون وأهلك عدوّهم واستخلفهم فى الأرض، فقال: «وكلّم الله نبيكم تكليمًا، واصطفانى لنفسه، وألقى علىّ محبّة منه، وآتاكم من كل ما سألتموه، ونبيّكم أفضل أهل الأرض، وأنتم تقرءون التوراة». فلم يترك نعمة أنعمها الله عزّ وجلّ عليهم إلاّ ذكرها وعرّفها إيّاهم، فقال له رجل من بنى إسرائيل: قد عرفنا الذى تقول، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله؟ قال: «لا»، فعتب الله عزّ وجلّ عليه حين لم يرد العلم إليه، فبعث إليه جبرئيل، فقال: «يا موسى وما يدريك أين أضع علمى[1]؟ بل إن لى عبدًا بمجمع البحرين أعلم منك». فسأل موسى ربّه أن يريه إيّاه، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه أن: «ائت البحر فإنك تجد على شط البحر حوتًا، فخذه فادفعه إلى فتاك، ثمّ الزم شط البحر إذا نسيت الحوت وهلك منك فثمّ تجد العبد الصالح»[2].

وقال ابن عباس فى رواية أُخرى: سأل موسى ربّه فقال: «ربّ أى عبادك أحبّ إليك؟». قال: «الذى يذكرنى فلا ينسانى». قال: «فأى عبادك أقضى؟». قال: «الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى». قال: «ربّى فأى عبادك أعلم؟». قال: «الذى يبغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدلّه على هدًى أو ترده عن ردًى». قال: «إن كان فى عبادك أحد هو أعلم

---

(١) كذا فى المخطوط، وكذا هو فى تفسير القرطبى وزاد محققه بين معقوفين: أين أضع علمى وقال: إنه جاء بها من بعض التفاسير.

(٢) وللأستاذ سيد قطب رحمه الله قول فى ظلاله حول هذه القصة أنقله هنا بدلاً من أن أقول أنا قولى فيهما حيث يقول رحمه الله تعالى رحمة واسعة وجعل قتله شهادة آمين يا رب العالمين:
هذه الحلقة من سيرة موسى عليه السلام لا تذكر فى القرآن كله إلا فى هذا الموضع.
والقرآن لا يحدد المكان الذى وقعت فيه إلا بأنه مجمع البحرين، ولا يحدد التاريخ الذى وقعت فيه من حياة موسى، هل كان ذلك وهو فى مصر قبل خروجه ببنى إسرائيل أم بعد خروجه بهم منها؟
ومتى بعد الخروج؟ قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة أم بعدما ذهب بهم إليها، فوقفوا حيالها لا يدخلون لأن فيها قومًا جبارين؟ أم بعد ذهابهم فى التيه مفرقين مبددين؟.
وكذلك لا يذكر القرآن شيئًا عن العبد الصالح الذى لقيه موسى من هو؟ وما اسمه؟ هل هو نبى أو رسول؟ أم عالم؟ أم ولى؟
وهناك روايات كثيرة عن ابن عباس وعن غيره فى هذه القصة، ونحن نقف عند نصوص القصة فى القرآن لنعيش فى ظلال القرآن.
ونعتقد أن لعرضها فى القرآن على النحو الذى عرضت به دون زيادة، ودون تحديد للمكان والزمان والأسماء حكمة خاصة، فنقف نحن عند النص القرآنى.
قلت: هذا هو التعبد والتحرر من هوى النفس والوقوف عندما أوقف فلا يتجاوز لينجو ويفلح.

منّى فادللنى عليه». فقال له: «نعم، فى عبادى من هو أعلم منك»، قال: «من هو؟». قال: «الخضر». قال: «وأين أطلبه؟». قال: «على الساحل عند الصخرة». وجعل الحوت له آية، وقال: «إذا حيّ هذا الحوت، وعاش، فإن صاحبك هناك».

وكانا قد تزودا سمكًا مالحًا فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿لِفَتَىٰهُ﴾: صاحبه يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف. وقيل: فتاه أخو يوشع، كان معه فى سفره. وقيل: فتاه عبده ومملوكه: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾: لا أزال أمشى ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ حيث يلتقيان[١]، قال قتادة: بحر فارس والروم مما يلى المشرق. وقال محمد بن كعب: طنجة. وقال أُبى بن كعب: أفريقية، وقيل: حيث يلتقيان النيل والبحر المالح[٢]، ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ وجمعه أحقاب: دهرًا أو زمانًا. وقال عبد الله بن عمر: والحقب ثمانون سنة. وقال مجاهد: سبعون سنة[٣]. وقيل: البحران هما موسى والخضر، كانا بحرين فى العلم[٤].

فحملا خبزًا وسمكة مالحة وسارا حتى انتهيا إلى الصخرة التى عند مجمع البحرين ليلاً، وعندها عين تسمى ماء الحياة، لا يصيب ذلك الماء شيئًا إلاّ حيًا[٥]، فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت فى المكتل وعاشت ودخلت البحر، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾، يعنى: موسى وفتاه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ يعنى: بين البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: تركا حوتهما، وإنما كان الحوت مع يوشع، وهو الذى نسيه فصرف النسيان إليهما، والمراد به: أحدهما كما قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٢٢) وإنما يخرج من المالح دون العذب. وإنما جاز ذلك؛ لأنهما كانا جميعًا تزوّدا لسفرهما، فجاز إضافته إليهما، كما يقال: خرج القوم إلى موضع

---

(١) قلت: وكان كلتا القصتين ليس هناك دليل على صحتهما لكن هذه القصة أليق بنبى الله من القصة الأولى.

(٢) هذه أقوال متضاربة ومتباعدة وما أذهب إليه وإن كان هذا لا يهم هو ما ذهب إليه الأستاذ سيد قطب فى ظلاله حيث يقول: والأرجح والله أعلم: أنه مجمع البحرين: بحر الروم وبحر القلزم، أى البحر الأبيض، والبحر الأحمر، ومجمعهما، مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح.
أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر.
قلت: وهذا القول الأخير هو الذى أذهب إليه منذ قرأت السورة منذ الصغر.
ويضيف الأستاذ سيد قطب فيذكر ما يؤيد رأيه.

(٣) قلت: المراد هنا من الحقب هو العزم والتصميم من نبى الله تعالى موسى على أن يسعى بجد واجتهاد فى الوصول إلى ذلك العبد الصالح العالم ليتعلم منه العلم وإن أمضى من الوقت والزمن ما أمضى وهو من المبالغة فى القول كأن تقول: سألت عنك مائة مرة ولم تسأل إلا مرات قليلة جدًا مبالغة فى القول.

(٤) هذا من شطحات بعض المفسرين ومبالغاتهم.

(٥) وهذا أيضا كسابقه إذ لا بد عنهم أن يكون لكل شىء سبب مادى، فلقد كان لسيدنا موسى آيات عجيبة فلماذا لا يكون هذا منها؟.

كذا، وحملوا معهم من الزاد كذا، وإنما حمله أحدهم، لكنه لمّا كان ذلك من أمرهم ورأيهم أُضيف إليهم. ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، أى مسلكًا ومذهبًا يسرب ويذهب فيه.

واختلفوا فى كيفية ذلك؛ فروى أُبى بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنجاب الماء عن مسلك الحوت فصارت كوّة لم تلتئم، فدخل موسى الكوّة على أثر الحوت فإذا هو بالخضر (عليه السلام)»[١].

وقال ابن عباس: رأى أثر جناحه فى الطين حين وقع فى الماء، وجعل الحوت لا يمس شيئًا إلاّ يبس حتى صار صخرة. وروى ابن عباس عن أُبى بن كعب عن رسول ﷺ قال: «لمّا انتهيا إلى الصخرة وضعا رأسيهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل، فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا، أمسك الله عزّ وجلّ عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى (عليه السلام) نسى فتاه أن يخبره بالحوت وانطلقا بقية يومهما وليلتهما. حتى إذا كان من الغد ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾».

وقال قتادة: رد الله عزّ وجلّ إلى الحوت روحه فسرب من البحر حتى أفضى إلى البحر، ثمّ سلك فجعل لا يسلك منه طريقًا إلاّ صار ماء جامدًا طريقًا يبسًا. وقال الكلبى: توضّأ يوشع بن نون من عين الحياة فانتضح على الحوت المالح فى المكتل من ذلك الماء فعاش، ثمّ وثب فى ذلك الماء، فجعل يضرب بذنبه الماء، ولا يضرب بذنبه شيئًا من الماء وهو ذاهب إلاّ يبس. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾، يعنى ذلك الموضع ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا﴾: أعطنا ﴿غَدَآءَنَا﴾: طعامنا وزادنا، وذلك أن يوشع بن نون حين رأى ذلك من الحوت قام ليدرك موسى ليخبره بأمر الحوت، فنسى أن يخبره فمكثا يومهما ذلك حتى صلّيا الظهر من الغد، ولم ينصب موسى فى سفره ذلك إلاّ يومئذ حين جاوز الموضع الذى أُمر به، فقال لفتاه حين ملّ وتعب[٢]: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾، أى شدة وتعبًا، وذلك أنه أُلقى على موسى الجوع بعدما جاوز الصخرة،

---

(١) خبر لا يصح، وهو مخالف لصريح النصّ القرآنى.

(٢) هناك مسألة ولفتة طيبة فى تفسير القرطبى أخذها من هذه الآية يقول فيها:

فيه مسألة واحدة وهى اتخاذ الزاد فى الأسفار، وهو رَدٌّ على الصوفية الجهلة الأغمار، الذين يقتحمون المهامه والقفار زعمًا منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار.

هذا موسى نبى الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه، وتوكله على رب العباد.

وفى صحيح البخارى: إن ناسًا من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وتزودوا﴾، وقد مضى هذا فى البقرة.

ليتذكر الحوت، ويرجع إلى موضع مطلبه، فقال له فتاه وتذكر: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ﴾: رجعنا ﴿إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾، قال مقاتل: هى الصخرة التى دون نهر الزيت ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾؟ أى تركته وفقدته.

وقيل: فيه إضمار معناه: نسيت أن أذكر أمر الحوت، ثمّ قال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾، يعنى: أنسانيه ألاّ أذكره. وقيل: فيه تقديم وتأخير مجازه: وما أنسانيه أن أذكره إلاّ الشيطان[1]، ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، يجوز أن يكون هذا من قول يوشع، يقول: اتخذ الحوت سبيله فى البحر عجبًا. وقيل: إن يوشع يقول (: إن الحوت طفر إلى البحر فاتّخذ فيه مسلكًا، فعجبت من ذلك عجبًا. ويجوز أن يكون هذا من قول موسى، قال له يوشع: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، فأجابه موسى: ﴿عَجَبًا﴾ كأنه قال: أعجب عجبًا.

وقال ابن زيد: أى شىء أعجب من حوت، كان دهرًا من الدهور يؤكل منه ثمّ صار حيًا حتى حشر فى البحر. قال: وكان شق حوت. وقال ابن عباس: اتخذ موسى سبيل الحوت فى البحر عجبًا. قال وهب: ظهر فى الماء من أثر جرى الحوت شق وأُخدود شبه نهر من حيث دخلت إلى حيث انتهت. فرجع موسى حتى انتهى إلى مجمع البحرين، فإذا هو بالخضر (عليه السلام)، فذلك قوله: ﴿قَالَ﴾ موسى لفتاه: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أى نطلب[2]، يعنى الخضر ﴿فَٱرْتَدَّا﴾: فرجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾: يقصان الأثر: يتبعانه.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ يعنى الخضر واسمه بليا بن ملكان بن يقطن، والخضر لقب له، سمّى بذلك، لما أخبرنا عبد الله بن حامد عن مكّى بن عبدان أخبرنا أبو الأزهر عن عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبّه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سُمى الخضر خضرًا؛ لأنه جلس على فروة بيضاء فاهتزت تحته خضراء».

قال عبد الرزاق: فروة بيضاء يعنى: حشيشة يابسة، وفروة: قطعة من الأرض فيها نبات. وقال مجاهد: إنما سمى الخضر؛ لأنه إذا صلّى اخضرّ ما حوله. وروى عبد الله بن المبارك عن ابن جريج عن عثمان بن أبى سلمان قال: رأى موسى الخضر (عليه السلام) على طنفسة خضراء على وجه الماء، فسلّم عليه. وقال ابن عباس عن أُبىّ بن كعب عن النبّى ﷺ قال: «انتهى موسى إلى الخضر (عليه السلام) وهو نائم عليه ثوب مسجًى، فسلّم عليه؛ فاستوى

---

(١) فى بعض التفاسير ومنها تفسير القرطبى أن هذا القول من فتى موسى عليه السلام بمثابة الاعتذار حيث لم يكلف من الأمر إلاّ حراسة الحوت فأهمل ذكره لموسى عليه السلام فاعتذر عن ذلك بما فعل الشيطان به.

(٢) وذلك أن إحياء الحوت هو علامة وجود الخضر أو العبد الصالح على ما أخبر الله موسى وجعل ذلك له علامة.

جالسًا قال: وعليك يا نبى بنى إسرائيل. قال موسى: وما أدراك بى؟ ومن أخبرك أنى نبىّ بنى إسرائيل؟ قال الذى أدراك بى ودلّك على».

وقال سعيد بن جبير: وصل إليه وهو يصلى، فلما سلّم عليه قال: وأنّى بأرضنا السلام؟! ثمّ جلسا يتحدّثان فجاءت خطّافة وحملت بمنقارها من الماء، قال الخضر: يا موسى خطر ببالك أنّك أعلم أهل الأرض، ما علمك وما علم الأولين والآخرين فى جنب الله إلاّ أقلّ من الماء الذى حملته الخطافة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝ قَالَ لَهُۥ﴾ [1]: للعالم ﴿مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾: صوابًا؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾؛ لأنى أعمل بباطن علم علّمنيه ربّى عزّ وجل[2]، ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ يا موسى ﴿عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، يعنى على ما لم تعلم؟ وقال ابن عباس: وذلك أنه كان رجلاً يعمل على الغيب.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾. قال: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ مما تنكر ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: حتى أبتدئ لك بذكره، وأُبيّن لك شأنه. ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ يسيران يطلبان سفينة يركبانها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ أصابها ﴿رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾، فقال أهل السفينة: هؤلاء لصوص، فأمروهما بالخروج منها، فقال صاحب السفينة: ما هم بلصوص ولكنّى أرى وجوه الأنبياء. وقال أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ: «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول فلما دخلوا إلى البحر أخذ الخضر فأسًا فخرق لوحًا من السفينة حتّى دخلها الماء فحشاها موسى ثوبه وقال له: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾. وقرأ أهل الكوفة (ليغرق) بالياء المفتوحة (أهلها)

---

(١) فى تفسير القرطبى: العبد هو الخضر عليه السلام وبمقتضى الأحاديث الثابتة.
وخالف من أمر لا يعتد بقوله: فقال: ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر.
وحكى أيضًا هذا القول عن القشيرى قال:
وقال قوم هو عبد صالح.
والصحيح أنه كان الخضر، بذلك ورد الخبر عن النبى ﷺ والخضر نبى عند الجمهور.
وقيل: هو عبد صالح غير نبى، والآية تشهد بنبوءته لأن بواطن أفعاله لا تكون إلاّ بوحى وأيضًا فإن الإنسان لا يتعلم ولا يتبع إلاّ من فوقه، وليس يجوز أن يكون فوق النبى من ليس بنبى.
وقيل: كان ملكًا أمر الله موسى أن يأخذ عنه مما حمله من علم الباطن.
والأول الصحيح، والله أعلم.

(٢) قال القرطبى فى قوله: ﴿وعلمناه من لدنا علمًا﴾: أى علم الغيب.
قال ابن عطية: كان علم الخضر علم معرفة ببواطن قد أوحيت إليه لا تعطى ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها.
وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم.

برفع اللام على أن الفعل لهـم، وهى قراءة ابـن مسعود، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أى منكراً[1].
قال القتيبى: عجبًا. والإمر فى كلام العرب الداهية، قال الراجز:

---

(١) قال بعض المفسرين: إن طبيعة سيدنا موسى اندفاعية انفعالية فلا يجوز أن يقال أو أن يوصف نبى من أنبياء الله تعالى بهذا الوصف وإن كان ظاهر أمره هذا ولكن يتلطف فى وصفهم، وإن من ملاحظتى أنى وجدت أن الله تعالى قد أرسل رسله من جميع طبائع عباده الصالحين فمن الصالحين من هو شديد فى الحق شدة واضحة تجعل بعض الناظرين إليه يظن به الجفاء، ومنهم هو هين لين حتى يظن الناظر إليه أنه ضعيف الإيمان أو أنه لا يعطى دينه حقه كاملاً فى حين أن الاثنين يقومان ويؤديان حق الله كاملاً غير منقوص فى نفس المسألة ولكنها طبائع وجبلات طبع وجبل الله تعالى عليها البشر ولو أخذنا بظاهر طبائع البشر نجد أن الله سبحانه قد أرسل أنبياءه من سائر تلك الطبائع الظاهرة فمثلا:

الرقة: هى فى غالبهم ظاهرة طاغية.

الدعاء والتودد والترقق: فمنهم: أواه، ومنهم أواب أى الداعى بصوت منخفض والداعى بصوت مرتفع.

والشدة: ظاهرة فى سيدنا موسى عليه السلام.

والغضب: ظاهر فى سيدنا يونس.

والكرم: ظاهر فى سيدنا إبراهيم.

والشجاعة: ظاهرة فى سيدنا طالوت.

الحزن: ظاهر فى سيدنا يعقوب.

الاحتيال: ظاهر فى سيدنا يوسف.

التدبير: ظاهر فى سيدنا نوح.

وهكذا لو سرنا لوجدنا أن الله سبحانه أرسلهم بنفس طبائع العباد الظاهرة كى لا يحتج محتج بأن الطبع أو الجبلة التى جعلت هذا كافراً وهذا مؤمنًا.

وكذلك أرسلهم من نفس مهن الناس وصنائعهم فمثلا من الأنبياء:

الملك: سيدنا داود وسليمان.

النجار: سيدنا نوح.

الملاح: سيدنا نوح أيضًا.

الفلاح: سيدنا آدم.

الراعى: كلهم.

الطبيب: سيدنا عيسى.

القاضى: سيدنا سليمان.

الوزير: سيدنا يوسف.

التاجر: سيدنا محمد.

الطيار: سيدنا سليمان أيضًا.

القائد: سيدنا طالوت.

السائح: الخضر، وذو القرنين.

المترجم: سيدنا سليمان.

البريد: سيدنا سليمان.

الحداد: سيدنا داود.

=

قد لقيَ الأقران منّى نُكْرا داهيــة دهيـاء إدًّا إمرا

وأصله: كل شىء شديد كثير، يقال: أمر القوم، إذا كثروا واشتدّ أمرهم.

قال العالم ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ قَالَ﴾ موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ (أخبرنا أبو عبد الله بن حامد الورّاق عن حامد بن محمد قال: قال أبو سعد بن موسى المروذى ببغداد، وأخبرنا محمد بن أبى ناجية الإسكندرانى عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن) عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «كانت الأُولى من أمر النسيان، والثانية القدر، ولو صبر موسى لقص الله علينا أكثر مما قص».

وقال أُبى بن كعب: أما إنه لم ينسَ، ولكنه من معاريض الكلام. وقال ابن عباس: معناه بما تركت من عهدك، ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾: تعجلنى: وقيل: لا تغشنى ﴿مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، يقول: لا تضيّق علىّ أمرى وصحبتى معك.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾، قال: سعيد بن جبير: وجد الخضر غلمانًا يلعبون، وأخذ غلامًا ظريفًا وضىء الوجه، فأضجعه ثمّ ذبحه بالسكين. وقال ابن عباس: كان لم يبلغ الحلم. وقال الضحّاك: كان غلامًا يعمل بالفساد، وتأذّى منه أبواه: وكان اسمه خش بوذ. وقال شعيب الحيّانى: اسمه حيشور، وقال وهب بن منبّه كان اسم أبيه ملاسَ، واسم أمه رُحمى. وقال الكلبى كان فتى يقطع الطريق، ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه ويحلفان دونه، فأخذه الخضر فصرعه ثمّ نزع من جسده رأسه. وقال قوم: رفسه برجله فقتله. وقال آخرون: ضرب رأسه بالجدار فقتله[1].

أخبرنا عبد الله بن حامد عن أحمد بن عبد الله عن محمد بن عبد الله بن سليمان عن يحيى ابن قيس عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أُبىّ بن كعب قال: سمعت النّبى ﷺ يقول: «الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرًا فلمّا قتله قال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾[2]؟». أى طاهرة. وقيل: مسلمة. قال الكسائى: الزاكية والزكية لغتان مثل القاسية

= الكيميائى: سيدنا داود أيضًا.

وهكذا لو تتبعنا طبائع البشر العاديين ومهنهم لوجدنا أن الأنبياء جاءوا من نفس تلك الطبائع ونفس تلك المهن ﴿حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ وكذلك من جميع ألوان البشر وألسنتهم ولهجاتهم فلا يجب وصف الأنبياء بوصف لا يليق وصفًا مباشرًا ولكن يختار خير ألفاظ هذا الوصف.

(١) قتله كيفما قتله فلماذا هذا التكلف والتصور المقيت للقتل، فانظر إلى أسلوب القرآن الذى لا يقزز النفس بالصور البشعة بل يذكرها بلفظ عام يجعلها تمر مرورًا عابرًا حيث إن المراد من وراء تلك الحادثة أمر خير.

(٢) فى المخطوط (زاكية) وأثبت ما فى مصحف حفص المطبوع المتداول والشرح قائم على ما كان مرسومًا بالمخطوط.

والقسيّة. قال أبو عمرو: الزاكية: التى لم تذنب قط، والزكية: التى أذنبت ثمّ تابت. ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أى من غير أن قتلت نفسًا أوجب عليها القود، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾: منكرًا؟ وقال قتادة وابن كيسان: النكر: أشد وأعظم من اللإمر.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا﴾ أى هذه المرّة ﴿فَلَا تُصَـٰحِبْنِى﴾: فارقنى؛ ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ فى فراقى[1].

عن أُبىّ بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحدًا فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى أخى موسى، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب العجاب، ولكنه قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾».

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى أنطاكية. وقال ابن سيرين: الأيلة، وهى أبعد أرض الله من السّماء ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، أى ينزّلوهما منزلة الأضياف؛ وذلك أنهما استطعماهم فلم يطعموهما، واستضافاهم فلم يضيفوهما. (أخبرنا عبد الله بن حامد عن أحمد بن عبد الله عن محمد بن عبد الله بن سلمان عن يحيى بن قيس عن أبى إسحاق عن) سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أُبىّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ قال: «كانوا أهل قرية لئامًا».

وقال قتادة فى هذه الآية: شر القرى التى لا تُضيف الضيف، ولا تعرف لابن السبيل حقّه.

﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾، أى فى القرية ﴿جِدَارًا﴾، قال وهب: كان جدارًا طوله فى السماء مائة ذراع، ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ هذا من مجاز الكلام، لأن الجدار لا إرادة له، وإنما معناه: قرب ودنا من ذلك، كقول الله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ (مريم: ٩٠). قال ذو الرمّة:

❖ قد كاد أو (قد) هم بالبيود ❖

---

(١) يحضرنى فى هذا الموقف، وموقف سيدنا موسى فى لقائه مع الخضر حيث تلطف معه فى أول لقائه بالأسلوب القرآنى الذى ذكره حيث تظهر رقة سيدنا موسى فى هذين الموقفين ظهورًا واضحًا حيث تلطف عند الاحتياج وأنزل العالم منزلته وتلطف عندما أعذر منه ووجد أنه بالواقع العملى لا يستطيع الصبر على ما يرى من علوم ذلك الرجل وأفعاله حيث يأتيه فى كل موقف بتصرف غريب غامض لا يمكن أن يعقله العقل العادى. وإنى لأرجع ذلك اللطف والأدب الذى يلاقى به موسى عليه السلام الخضر فى هذين الموقفين إلى أمرين:
الأمر الأول: وهو الأساس الذى جبل عليه من النبوة التى ترتقى بالنفس البشرية إلى أقصى وأرفع درجات الأدب والرقى فى التعامل وتعطى الأنموذج المثالى للتعامل الإنسانى، فهو صناعة الله تعالى على عينه.
الأمر الثانى: هو النشأة التى نشأها موسى عليه السلام فهو مع كونه نبيًا فهو أيضا تربية قصور فقد تربى فى قصر فرعون أى تربى فى أعلى طبقة من طبقات المجتمع المدنى من الرقى فى التعامل.

وقال بعضهم: إنما رجع إلى صاحبه، لأن هذه الحالة إذا كانت من ربّه فهو إرادته، كقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ (الأعراف: ١٥٤) وإنما يسكت صاحبه. وقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ (محمد: ٢١) وإنما يعزم أهله. قال الحارثى:

يريد الرمح صدر أبى براء ويرغب عن دماء بنى عقيل

وقال عقيل:

إنّ دهراً يلف شمل سليمى لزمان يهمّ بالإحسان

﴿أَن يَنقَضَّ﴾، أى يسقط وينهدم، ومنه انقضاض الكواكب، وهو سقوطها وزوالها عن أماكنها. وقرأ يحيى بن عمر: (يريد أن ينقاض) أى ينقلع وينصدع، يقال: انقاضّت السنّ: انصدعت من أصلها. وقال بعض الكوفيين: الانقياض: الشق طولاً، يقال: انقاض الحائط والسن وطيء البئر، إذا انشقت طولاً. ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾: سوّاه. قال ابن عباس: هدمه ثمّ قعد يبنيه. وقال سعيد بن جبير: مسح الجدار ودفعه بيده، فاستقام. قال موسى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ﴾، وقرأ أبو عمرو: (لتَخذت) وهما لغتانِ مثل قولك: (اتّبع) و(تبع)، و(اتّقى) و (تقى)، قال الشاعر:

وقد تخذت رحلى إلى جنب غرزها نسيفًا كأفحوص القطاة المطرّق

وأنشد لزجاج فى قوله: (لتخذت) قول أبى شمام الصبابى:

تخذوا الحديد من الحديد معاولاً سكانها الأرواح والأجساد

﴿عَلَيْهِ﴾، أى على إصلاحه وإقامته ﴿أَجْرًا﴾، أى جُعْلاً وأُجرة. وقيل: قرًى وضيافة. فقال الخضر (عليه السلام): ﴿هَٰذَا [١] فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [٢] قرأ لاحق بن حميد: (فراق)

(١) أسقط الناسخ كلمتى: (قال هذا) من المخطوط، وبالمناسبة فإن لفظة هذا هى آخر النصف الأول من القرآن فى عدد الكلمات وكلمة فراق هى أول كلمة فى النصف الثانى من كلمات القرآن.

وقال قوم كلمة فراق هى آخر النصف الأول، وكلمة بينى هى أول أو بداية النصف الثانى من القرآن الكريم فسبحان الله أن جعل كلمة (هذا فراق) وكأنه إشارة إلى النصف كما جعل اسم السورة هو الكهف وكأنها أقصى العمق هى التى تحمل هذا الاسم وكأنها للدلالة أيضًا، وكأنه كما كان فراق بين موسى والخضر كان فراق بين جزئى المصحف.

(٢) وللأستاذ سيد قطب فى تفسيره الظلال فى هذا الموقف من قصة سيدنا موسى والخضر كلام طيب حيث يقول عند قوله تعالى: ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجرًا﴾.

كانت هى الفاصلة، فلم يعد لموسى من عذر ولم يعد للصحبة بينه وبين الرجل مجال: ﴿قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا﴾.

وإلى هنا كان موسى ـ ونحن الذين نتابع سياق القرآن ـ أمام مفاجآت لا نعلم لها سرًا، وموقفنا منها كموقف موسى عليه السلام بل نحن لا نعرف من هو هذا الذى يتصرف تلك التصرفات العجيبة، فلم ينبئنا القرآن باسمه =

بالتنوين، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ قال كعب: كانت لعشرة إخوة: خمسة منهم زمنى، وخمسة منهم يعملون فى البحر. وفى قوله: (مساكين) دليل على أن المسكين وإن كان مَلَكَ شيئًا فلا يزول عنه اسم المسكنة إذا كانت به حاجة إلى ما هو زيادة على ملكه، ويجوز له أخذ الزكاة.

وأخبرنا أبو بكر عبد الرحمن بن على الحمشادى، عن أحمد بن الحسين بن على الرازى قال: أبو الحسن أحمد بن زكريا المقدسى عن إبراهيم بن عبد الله الصنعانى عن إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن عكرمة قال: قلت لابن عباس: قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، كانوا مساكين والسفينة تساوى ألف دينار؟ قال: إن المسافر مسكين ولو كان معه ألف دينار[١]. ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾[٢] أى أمامهم وقدّامهم كقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ (إبراهيم: ١٦) و﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ (المؤمنون: ١٠٠) أى أمامهم. قال الشاعر:

أيرجو بنو مروان سمعى وطاعتى وقومى تميم والفلاة ورائيا

وقيل: ﴿وَرَآءَهُم﴾: خلفهم، وكان رجوعهم فى طريقهم عليه، ولم يكونوا يعلمون بخبره فأعلم الله الخضر (عليه السلام) بخبره. ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، أى كل سفينة صالحة، فاكتفى بدلالة الكلام عليه، يدل عليه ما روى سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنه يقرأ (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا). فخرقها وعيّبها، لئلاّ يتعرض لها ذلك الملك، واسمه جلندى وكان كافرًا. قال محمد بن إسحاق: وكان اسمه منواه بن جلندى

= تكملة للجو الغامض الذى يحيط بنا وما قيمة اسمه، إنما يراد به أن يمثل الحكمة الإلهية العليا التى لا ترضى النتائج القريبة على المقدمات المنظورة بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة، فعدم ذكر اسمه يتفق مع الشخصية المعنوية التى يمثلها، وإن القوى الغيبية لتتحكم فى القصة منذ نشأتها، فها هو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود فيمضى فى طريقه، ولكن فتاه ينسى غداءهما عند الصخرة وكأنما نسيه ليعودا، فيجد هذا الرجل هناك وكان لقاؤه يفوتهما لو سارا فى وجهتهما ولو لم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى كل الجو غامض، كذلك اسم الرجل الغامض المجهول فى سياق القرآن، ثم يأخذ السر فى التجلى، ﴿أما السفينة فكانت لمساكين...﴾.

(١) فى تفسير القرطبى تفسير على وجه آخر قراءة أخرى فقال:
قرأت فرقة: لَمسَّاكين، بتشديد السين واختلف فى ذلك:
فقيل: هم ملاّحو السفينة، وذلك أن المسَّاك هو الذى يمسك رجل السفينة وكل الخدمة تصلح لإمساكه فسمى الجميع مساكين.
وقالت فرقة: أراد بالمسَّاكين، دبغة المسوك وهى الجلود واحدها مسك.
والأظهر قراءة: مساكين بالتخفيف جمع مسكين، وأن معناها السفينة لقوم ضعفاء ينبغى أن يشفق عليهم، والله أعلم.

(٢) لم يذكر الناسخ الآية فى المخطوط وذكر الشرح من أول هنا أى من أول: وقيل: ﴿وراءهم﴾.

الأردنى. وقال شعيب الجبائى اسمه هدد بن بدد.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ﴾، أى فعلمنا. وفى مصحف أُبى: (فخاف ربك) أى علم، ونظائره كثيرة. وقال قطرب: معناه فكرهنا، كما تقول: فرّقت بين الرجلين خشية أن يقتتلا، وليست فيك خشية ولكن كراهة أن يقتتلا. ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾، أى يهلكهما. وقيل: يغشاهما. وقال الكلبى: يكلّفهما ﴿طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾، قال سعيد بن جبير: خشينا أن يحملهما حبّه على أن يدخلهما معه فى دينه[1].

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾: صلاحًا وإسلامًا ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ هو من الرحم والقرابة. وقيل: هو من الرحمة، يقال: رحَم ورحُم للرحمة، مثل هلك وهلك، وعمر وعمر، قال العجّاج:

❖ ولم تعوجَّ رحمُ من تعوّجا ❖

قال ابن عباس: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ يعنى: وأوصل للرحم وأبرّ بوالديه. قال قتادة: أقرب خيرًا، وقال ابن جريج: يعنى أرحم به منهما بالمقتول. وقال الفراء: وأقرب أن يرحما له. قال الكلبى: أبدلهما الله جارية، فتزوّجها نبى من الأنبياء، فولدت له نبيًا فهدى الله عزّ وجلّ على يديه أُمّة من الأُمم. وأخبرنا عبد الله بن حامد عن حامد بن أحمد قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يحيى بن الحارث القاضى عن عبد الوهاب بن فليح عن ميمون بن عبد الله القدّاح عن جعفر بن محمد عن أبيه فى هذه الآية قال: «أبدلهما جارية فولدت سبعين نبيًا».

وقال ابن جريج: أبدلهما بغلام مسلم وكان المقتول كافرًا وكذلك هو فى حرف أُبى: (فأما الغلام فكان كافرًا، وكان أبواه مؤمنين). وقال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقى كان فيه هلاكهما، فليرضَ امرؤ بقضاء الله؛ فإن قضاء الله للمؤمن فيما

---

(١) يقول الأستاذ سيد قطب فى تعليقه على هذه الآية:

فهذا الغلام الذى لا يبدو فى حاضره ومظهره أنه يستحق القتل قد كفر ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح، فإذا هو فى طبيعته كافر طاغ تكمن فى نفسه بذور الكفر والطغيان وتزيد على الزمن بروزًا وتحققًا، فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه... ولو كان الأمر موكلاً إلى العلم البشرى الظاهر لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، ولما كان له عليه من سلطان وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعًا. وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شىء من غيبه أن يحكم على الطبيعة المغيبة على فرد من الناس، ولا أن يرتب على هذا العلم حكمًا غير حكم الظاهر الذى تأخذ به الشريعة.

ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد.

قلت: ولا يلتفت لهوس جهلاء الصوفية الذين يزعمون أن شيوخهم يعرفون بواطن الأمور ويدعون أن عندهم علم الحقيقة، أما أهل العلم الشرعى فعندهم علم الظاهر فقط، وهم لهم علم الباطن متعللين بأن الخضر أوتى =

يكره خير له من قضائه فيما يحب[١].

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ واسمهما أصرم وصريم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ لو سقط الجدار لتلف الكنز[٢]، واختلفوا فى ذلك الكنز ما هو، فقال بعضهم: صحف فيها علم مدفونة تحته، وهو قول سعيد بن جبير. وقال ابن عباس: ما كان الكنز إلاّ علمًا، وقال الحسن وجعفر بن محمد: «كان لوحًا من ذهب مكتوبًا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها. لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله»[٣].

وقد روى عن النبى ﷺ هذا القول مرفوعًا فى بعض الروايات أنه كان مكتوبًا فى ذلك اللوح تحت ما ذكر هذه الآيات: «يا أيُّها المهتم همًّا لا تهمّه، إنك إن تدركك الحمّى تحمّ (. . .) علوت شاهقًا من العلم كيف توقيك وقد جفّ القلم؟!».

وقال عكرمة كان ذلك الكنز مالاً. أخبرنا أبو بكر الحمشادى: حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن قيدوس الطرائفى عن عثمان بن سعيد عن صفوان بن صالح الثقفى عن الوليد بن مسلم عن يزيد بن يوسف الصنعانى عن يزيد بن أبى يزيد عن مكحول عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، قال: «كان ذهبًا وفضّة».

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾، واسمه كاشح، وكان من الأتقياء؟. ذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذى حُفظا به سبعة آباء[٤]، وكان سيّاحًا.

= علمًا لدنيًّا وأن موسى عليه السلام أوتى علمًا شرعيًا مفضلين علم الباطن الذى أعطاه الله للخضر على العلم الظاهر الذى أعطاه الله تعالى لموسى عليه السلام، ولو سلمنا بقولهم لفسدت الأرض ولاضطربت الحياة بزعم كل إنسان أنه إنما تصرف على وحى أوحى إليه به بأن هذا الأمر هكذا هدانا الله وإياهم لما فيه الخير آمين.

(١) يريد أن قضاء الله فيما هو ظاهره مكروه وغير محبب لنفس المؤمن إنما هو خير من قضائه بما هو محبب ومفرح بالنسبة للمؤمن والآية فى ذلك واضحة وصريحة: ﴿وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

(٢) يظن كثير من الناس أن الكنز على العموم حرام وليس هذا صوابًا على إطلاقه إنما الكنز هو المال المدخر الذى لا يبتغى به وجه الله ولا يخرج منه حقه من زكاة وصدقة ونحو هذا أما ما عدا ذلك فلا بأس به بدليل هذه الآية التى نحن بصددها وحفظ الله تعالى للكنز حيث قصد صاحبه به طاعته ويدل قوله سبحانه: ﴿إن ترك خيراً﴾ أى مالاً فسمى المال الذى يتركه المتوفى خيراً.

(٣) القول بأن الكنز علم لا يجوز لأنه لا يجوز دفن العلم، والقول بأنه لوح مكتوب فيه هذه العبارات لا يصح لأنه كان قبل بعث محمد ﷺ.

(٤) ليس على ذلك دليل فأيًا ما كان الأب الذى وضع الكنز هو الأول أو السابع فلا يغير ذلك من الأمر شيئًا.

وأخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد عن بشر بن موسى عن الحميدى عن سفيان عن محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر قال: إنّ الله عزّ وجلّ ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده، وعشيرته التى هو فيها، والدويرات حوله، فما يزالون فى حفظ الله وستره.

وعن سعيد بن المسيّب أنه كان إذا رأى ابنه قال: أى بنى لأزيدن صلاتى من أجلك، رجاء أن أحفظ فيك. ويتلو هذه الآية. (وأخبرنا عبد الله بن حامد عن الحسين بن محمد بن الحسين البلخى عن أحمد بن الليث بن الخليل عن عمر بن محمد قال: حدّثنى محمد بن الهيثم بن عبد الله الضبيعى عن) العباس بن محمد بن عبد الرحمن: حدّثنى أبى عن يحيى بن إسماعيل ابن مسلمة بن كهيل قال: كانت لى أخت أسن منّى فاختلطت وذهب عقلها، وتوحشت، وكانت فى غرفة فى أقصى سطوحها، فمكثت بذلك بضع عشرة سنة، وكانت مع ذهاب عقلها تحرص على الصلاة والطهور. فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ باب بيتى يُدق فى نصف الليل، فقلت: من هذا؟ قالت: بحّة. قلت: أُختى قالت: أُختك. فقلت: لبيك. وقمت ففتحت الباب، فدخلت ولا عهد لها بالبيت منذ أكثر من عشر سنين، فقلت لها: يا أخته خيرًا؟ قالت: خير، أُتيت الليلة فى منامى، فقيل: السلام عليك يا بحّة، فقلت: وعليك السلام، فقيل: إنّ الله قد حفظ أباك إسماعيل بن سلمة بن كهيل بسلمة جدك، وحفظك بأبيك إسماعيل، فإن شئت دعوت الله لك فأذهب ما بك، وإن شئت صبرت ولك الجنّة، فإن أبا بكر وعمر قد تشفعا لك إلى الله عزّ وجلّ بحب أبيك وجدك إيّاهما. فقلت: إن كان لا بدّ من اختيار أحدهما، فالصبر على ما أنا فيه والجنّة، فإن الله عزّ وجلّ لواسع لخلقه لا يتعاظمه شىء، إن يشأ يجمعهما لى فعل. قالت: فقيل لى: قد جمعهما الله عزّ وجلّ لك ورضى عن أبيك وجدك بحبهما أبا بكر وعمر، قومى فانزلى. قال: فأذهب الله ما بها[1].

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ يا موسى ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، أى يدركا شدّتهما وقوّتهما. وقيل: ثمانى عشرة سنة[2]، ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ المكنوز تحت الجدار.

---

(١) هذه حكاية من حكايات الصوفية التى فى كل الأحوال يبنى على أسماء صحيحة وأعلام مشهورة حتى تصير محبوكة على السذج والبسطاء من الناس ويتداولونها فيما بينهم جازمين بحدوثها.
نعم إن الله على كل شىء قدير وأن الله لا يُسأل عما يفعل لكن هذا الدين جعل الله تعالى له منبعين لا يصلح الأخذ عن غيرهما ولا يقبل عمل أو اعتقاد جاء عن غير هذين الطريقين وهما معلومان ألا وهما الكتاب والسنة الصحيحة.

(٢) قال ابن كثير فى تفسير هذه: ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى لأن بلوغهما الحُلُم لا يقدر عليه إلاّ الله وقال فى الغلام: ﴿فأراد أن يبدلهما ربهما خيرمنه زكاة﴾.
وقال فى السفينة: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ فالله أعلم.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [(١)] برأيي ومن تلقاء نفسي، بل فعلت عن أمر الله عزّ وجل[(٢)].
﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ و(اسطاع) و(استطاع) بمعنى واحد.



﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره فى الكلام على هذه الآية:
كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين لله تعالى، وقال فى قصة خرق السفينة: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ فأضاف العيب إلى نفسه؟ قيل: إنما أسند الإرادة فى الجدار إلى الله تعالى لأنها فى أمر مستأنف فى زمن طويل غيب من الغيوب فحسن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى. وإن كان الخضر قد أراد ذلك فالذى أعلمه الله تعالى أن يريده.
وقيل: لما كان ذلك خيراً كله أضافه إلى الله تعالى، وأضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلاّ إلى نفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام فى قوله: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾، فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله، وأسند إلى نفسه المرض، إذ هو معنى نقص ومصيبة فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح، وهذا كما قال تعالى: ﴿بيدك الخير﴾ واقتصر عليه، فلم ينسب الشر إليه، وإن كان بيده الخير والشر، والضر والنفع إذ هو على كل شىء قدير، وهو بكل شىء خبير، ولا اعتراض بما حكاه عليه السلام عن ربه عزّ وجلّ بأنه يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى... الخبر. فإن ذلك تنزل فى الخطاب وتلطف فى العتاب مقتضاه التعريف بفضل ذى الجلال وبمقادير ثواب هذه الأعمال... ولله تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة والأفعال الشريفة، جل وتعالى عن النقائص والآفات علواً كبيراً.
وقال فى الغلام: ﴿فأردنا﴾ فكأنه أضاف القتل إلى نفسه، والتبديل إلى الله تعالى.
والأشد كمال الخلق والعقل.

(٢) وإلى هنا يسدل الستار عن تلك المشاهد الثلاثة أو الدروس الثلاثة التى شاهدها موسى عليه السلام من العبد الصالح بعد أن كان قد بلغ منه العجب مبلغًا، وعُلِّم ما لم يعلم.

عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ ، اختلفوا فى نبوّته فقال بعضهم : كان نبيًا . وقال الآخرون : كان ملكًا عادلاً صالحًا . روى وكيع عن العلاء بن عبد الكريم قال : سمعت مجاهداً يقول : ملك الأرض أربعة : مؤمنان ، وكافران . فأما المؤمنان فسليمان وذو القرنين ، وأما الكافران فنمروذ وبختنصّر . وسيملكها من هذه الأمة خامس وهو المهدى[1] .

واختلفوا فى سبب تسميته بذى القرنين ، فقال بعضهم : سُمى بذلك ، لأنه ملك الروم وفارس . وقيل : لأنه كان فى رأسه شبه القرنين . وقيل : لأنه رأى فى منامه كأنه أخذ بقرنى الشمس فكان تأويل رؤياه أنه طاف الشرق والغرب . وقيل : لأنه دعا قومه إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيمن ثمّ دعاهم إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيسر . وقيل : لأنه كان له ذؤابتان حسناوان ، والذؤابة تسمى قرنًا . وقيل : لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه وقيل : لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس ، وهو حى . وقيل : لأنه إذا كان حارب قاتل بيده وركابه جميعًا . وقيل : لأنه أُعطى علم الظاهر والباطن . وقيل : لأنه دخل النور والظلمة[2] .

---

(١) اختلف العلماء قديمًا وحديثًا فى أمر المهدى فالمسلم به لدى الجميع أن بداية ظهور مسألة المهدى تبدأ من بعد الفتنة التى كانت بين سيدنا على وسيدنا معاوية ثم تأخذ الأحاديث منذ تلك الفترة اتجاهات سياسية ويحتاج الحديث عن مثل هذا الأمر بحثًا مطولاً بين من قالوا : لا مهدى إلاّ عيسى ، ومن قالوا بظهور المهدى أيام عيسى عليه السلام واسمه يوافق اسم النبى ﷺ وخَلْقه وخُلُقُهُ كذلك وبين من ينكر ذلك تمامًا ويعتبر المهدى أسطورة اختلقها الشيعة من أولها إلى آخرها وألف هؤلاء فى ظهور المهدى الكتب الكثيرة ، وألف الآخرون الكتب الكثيرة أيضًا فى أن المهدى خرافة .

وكذلك أنكر قوم نزول عيسى عليه السلام مرة أخرى معتمدين على أن الله إنما أرسل محمداً ﷺ خاتم الرسل وقد أتم به الدين فما الداعى لنزول عيسى عليه السلام إذ لن يأتى بدين جديد ، وأن وفاة عيسى عليه السلام فى القرآن وفاة الناس ورفعه إنما هو رفع درجة ومكانة لا رفع مكان وإنما قد أدى رسالته على الوجه الأكمل والمطلوب منه كما أدى محمد ﷺ رسالته ، وأقام الله الحجة برسله على الناس وتركوا بعدهم الكتب التى جاء القرآن مصدقًا لها ، ومهيمنًا عليها لما أصابها من التحريف مما يفيد بعدم الحاجة إلى عيسى عليه السلام ولا ظهور مهدى . والله أعلم .

(٢) قال الأستاذ سيد قطب فى ظلاله فى إجمالى بداية قصة ذى القرنين بعد أن أعرض عن ذكر أسباب النزول المروية=

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أوطأنا له فى الأرض فملكها وهديناه طرقها، ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه الخلق. وقيل: من كل شىء يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء ﴿سَبَبًا﴾ علمًا يتسبّب به إليه. وقال الحسن: بلاغًا إلى حيث أراد. وقيل: قربنا إليه أقطار الأرض، كما سخرنا الريح لسليمان (عليه السلام).

﴿فَأَتْبَعَ﴾: سلك وسار. وقرأ أهل الكوفة: (فأتبع)، (ثمّ اتبع) بقطع الألف وجزم الثانى: لحق، ﴿سَبَبًا﴾: قال ابن عباس: منزلاً، وقال مجاهد: طريقًا بين المشرق والمغرب، نظير قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ (غافر: ٣٦، ٣٧) يعنى الطرق.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ العبادلة: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير، والحسن، وأبو جعفر، وابن عامر وأيوب، وأهل الكوفة: (حامية) بالألف، أى حارة. ويدل عليه ما روى إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذرّ قال: كنت ردف النبى ﷺ فقال: «يا أبا ذر أين تغرب هذه؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تغرب فى عين حامية».

وقال عبد الله بن عمرو: نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال: «فى نار الله الحامية، فى نار الله الحامية فلولا ما يزعمها من أمر الله عزّ وجلّ لأحرقت ما على الأرض».

وقرأ الباقون: ﴿حَمِئَةٍ﴾ مهموزة بغير ألف، يعنى: ذات حمأة، وهى الطينة السوداء، ويجمع بين القراءتين كانت حارة وذات حمأة[1]. يدل عليه ما روى سعد بن أوس عن مصرع

= فى ذلك، فقال عن قوله: ﴿ويسألونك عن ذى القرنين﴾: ومن هذا النص نعلم أنه كان هناك سؤال عن ذى القرنين لا ندرى على وجه التحقيق من سأله، والمعرفة به لا تزيد شيئًا فى دلالة القصة فلنواجه النص بلا زيادة.

إن النص لا يذكر شيئًا عن ذى القرنين، ولا عن زمانه أو مكانه، وهذه هى السمة المطردة فى قصص القرآن، فالتسجيل التاريخى ليس هو المقصود، وإنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان فى أغلب الأحيان.

والتاريخ المدون يعرف ملكًا اسمه الإسكندر ذو القرنين، ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور فى القرآن، فالإسكندر الإغريقى كان وثنيًا، وهذا الذى يتحدث عنه القرآن مؤمن موحد بالله معتقد بالبعث والآخرة.

(١) فى تفسير القرطبى قول جيد جدًا فى هذه الآية وهو الموافق للعقل والعلم المدنى الملموس أو المشاهد المعروف المتيقن منه وهو قول القفّال حيث يقول القرطبى: وقال القفّال: قال بعض العلماء: ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربًا ومشرقًا حتى وصل إلى جرمها ومسها لأنها تدور مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض، وهى أعظم من أن تدخل فى عين من عيون الأرض، بل هى أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة، بل المراد أنه انتهى إلى آخر القارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدها فى رأى العين: ﴿تغرب فى عين حمئة﴾ كما نشاهدها فى الأرض الملساء كأنها تدخل فى الأرض، ولهذا قال: ﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترًا﴾ ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم.

وبهذا المعنى يقول الأستاذ سيد قطب فى ظلاله: ومغرب الشمس هو المكان الذى يرى الرائى أن الشمس تغرب =

ابن يحيى عن ابن عباس قال: أقرأنيها أُبىّ بن كعب كما أقرأه رسول الله ﷺ: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وقال كعب: أجدها فى التوراة: (فى عين سوداء)، فوافق ابن عباس. قال أبو أسامة عن عمرو بن ميمون قال: سمعت أبا حاضر أو ابن حاضر - رجل من الأزد - يقول: سمعت ابن عباس يقول: إنّى لجالس عند معاوية إذ قرأ هذه الآية: (وجدها تغرب فى عين حامية) فقلت: ما نقرؤها إلاّ ﴿حَمِئَةٍ﴾. فقال معاوية لعبد الله بن عمر: وكيف تقرؤها؟ قال: كما قرأتها يا أمير المؤمنين. قال ابن عباس: فقلت: فى بيتى نزل القرآن. فأرسل معاوية إلى كعب، فجاءه فقال: أين تجد الشمس تغرب فى التوراة يا كعب؟ قال: أما العربية فأنتم أعلم بها، وأما الشمس فإنّى أجدها فى التوراة تغرب فى ماء وطين. قال: فقلت لابن عباس: لو كنت عندكما لأنشدت كلامًا تزداد به نصرة فى قولك: ﴿حَمِئَةٍ﴾. قال ابن عباس: فإذن ما هو؟ فقلت: قول تبع:

قد كان ذو القرنين قبلى مسلمًا ... ملكًا تدين له الملوك وتسجد

بلغ المشارق والمغارب يبتغى ... أَسباب أمر من حليم يرشد[١]

فرأى مغار[٢] الشمس عند غروبها ... فى عين ذى خُلُب وثَأط حَرْمَد

قال: فقال ابن عباس: ما الخلب؟ قلت: الطين بكلامهم. قال: فما الثأط؟ قلت: الحمأة. قال: وما الحرمد؟ قلت: الأسود. قال: فدعا رجلاً أو غلامًا، فقال: اكتب ما يقول هذا. وقال أبو العالية: بلغنى أن الشمس فى عين، تقذفها العين إلى المشرق[٣].

= عنده وراء الأفق، وهو يختلف بالنسبة للمواضع، فبعض المواضع يرى الرائى فيها أن الشمس تغرب خلف جبل، وفى بعض المواضع يرى أنها تغرب فى الماء كما فى المحيطات الواسعة والبحار، وفى بعض المواضع يرى أنها تغرب فى الرمال إذا كان فى صحراء مكشوفة على مد البصر.

والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسى، وكان يسمى بحر الظلمات، ويظن أن اليابسة تنتهى عنده فرأى الشمس تغرب فيه.

والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ وتوجد البرك وكأنها عيون الماء.

فرأى الشمس تغرب هناك و﴿وجدها تغرب فى عين حمئة﴾.

ولكن يتعذر علينا تحديد المكان لأن النص لا يحدده وليس لنا مصدر آخر - أى غير القرآن الكريم - موثوق به نعتمد عليه فى تحديده.

وكل قول غير هذا ليس مأمونًا لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح.

(١) فى القرطبى: مرشد.

(٢) فى القرطبى: مغيب.

(٣) طبعًا هذا قول لا يحتاج إلى تدليل على عدم صحته عقلاً ولا نقلا ويقول به تلميذ فى المراحل الأولى من التعليم.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ ، يعنى ناسًا ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ : إما أن تقتلهم إن لم يدخلوا فى الإسلام[1] ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ ، أى تعفو وتصفح. وقيل: تأسرهم فتعلّمهم وتبصّرهم الرّشاد.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ ، أى كفر ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ : نقتله ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ فى الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ : منكرًا. ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ، قرأ أهل الكوفة ﴿جَزَآءً﴾ نصبًا منونًا على معنى: فله الحسنى جزاء نصب على المصدر، وقرأ الباقون بالرفع على الإضافة. ولها وجهان: أحدهما أن يكون المراد بالحسنى: الأعمال الصالحة، والوجه الثانى أن يكون معنى الحسنى: الجنّة، فأُضيف الجزاء إليهما كما قال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ (يوسف: ١٠٩) والدار هى الآخرة: و﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ (البينة: ٥)[2].

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أى نلين له القول، ونهوّن له الأمر. وقال مجاهد: ﴿يُسْرًا﴾ أى معروفًا.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ، أى سلك طريقًا ومنازل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ ، قال قتادة: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر؛ وذلك أنهم كانوا فى مكان لا يستقر عليهم بناء، وأنهم كانوا فى شرب لهم، حتّى إذا زالت الشمس عنهم، خرجوا إلى معايشهم وحروثهم. وقال الحسن: كانت أرضهم أرضًا لا تحتمل البناء، وكانوا إذا طلعت عليهم الشمس تهوّروا فى الماء، فإذا ارتفعت عليهم خرجوا فتراعوا كما تراعى البهائم. وقال ابن جريج: جاءهم جيش مرّة فقال لهم أهلها: لا تطلع عليكم الشمس وأنتم بها، فقالوا: ما نبرح حتّى تطلع الشمس. وقالوا: ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جيف جيش طلعت عليهم

---

(١) قال الأستاذ سيد قطب فى الظلال عند قوله: ﴿قلنا يا ذا القرنين﴾ كيف قال الله هذا القول لذى القرنين؟ أكان ذلك وحيًا إليه، أم حكاية حال إذ سلطه الله على القوم، وترك له التصرف فى أمرهم، فكأنما قيل له: دونك وإياهم، فإما أن تعذب، وإما أن تتخذ فيهم حسنًا، كلا القولين ممكن، ولا مانع من فهم النص على هذا الوجه أو ذاك.
المهم أن ذا القرنين أعلن دستوره فى معاملة البلاد المفتوحة التى دان له أهلها وسلطه الله عليها: ﴿قال أما من ظلم﴾ الآية.

(٢) ثم يضيف صاحب الظلال فيقول: وهذا هو دستور الحكم الصالح، فالمؤمن الصالح ينبغى أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم.
والمعتدى الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء وحين يجد المحسن فى الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسنًا ومكانًا كريمًا وعونًا وتيسيرًا، ويجد المعتدى جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج، أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون فى الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ تتحول السلطة فى يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد.

الشمس ها هنا فماتوا. قال: فذهبوا هاربين فى الأرض. قال قتادة: ويقال: إنهم الزنج. وقال الكلبى: هم تاريس وتاويل ومنسك عراة حفاة عماة عن الحق، قال: وحدثنا عمرو بن مالك ابن أُميّة قال: وجدت رجلاً بسمرقند يحدّث الناس وهم مجتمعون حوله، فسألت بعض من سمع حديثه فأخبرنى أنّه حدّثهم عن القوم الذين تطلع عليهم الشمس قال: خرجت حتّى جاوزت الصين ثمّ سألت عنهم فقيل لى: إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة. فاستأجرت رجلاً فسرت بقية عشيتى وليلتى حتّى صبحتهم، فإذا أحدهم يفرش أُذنه ويلبس الأُخرى قال: وكان صاحبى يحسن لسانهم فسألهم وقال: جئنا ننظر كيف تطلع الشمس. قال: فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشى علىّ فوقعت فأفقت، وهم يمسحوننى بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذ هى على الماء كهيئة الزيت وإذ طرف السماء كهيئة الفسطاط، فلمّا ارتفعت أدخلونى سربالهم أنا وصاحبى، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السّمك فيطرحونه فى الشمس فينضج.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى كذلك علمناهم[1]، واختلفوا فيه، فقال بعضهم: يعنى كما بلغ مغرب الشمس فكذلك بلغ مطلعها. وقيل: أتبع سببًا كما أتبع سببًا. وقيل: كما وجد القبيل عند مغرب الشمس وحكم فيهم، كذلك وجد عند مطلع الشمس فحكم فيهم بحكم أولئك. وقيل: إنّ الله عزّ وجلّ لمّا قصّ عليه خبره قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى كذلك أمرُهم والخبر عنهم كما قصصنا عليك[2]، ثمّ استأنف وقال: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾، يعنى عنده ومعه من الملك والجيوش والآلات ﴿خُبْرًا﴾: علمًا.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا۝ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بفتح السّين، ابن كثير وأبو عمرو وعاصم. الباقون بالضم. قال الكسائى: هما لغتان، وهما جبلان سدّ ذو القرنين ما بينهما حاجزًا بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم.

قال عكرمة: ما كان صنعة بنى آدم فهو سدّ ـ بفتح السين ـ وما كان من صنع الله عزّ وجلّ فهو السد، بالضم.

---

(١) هذه الحكاية لا يمكن أن يصدقها عاقل بل هى من الإسرائيليات التى احتشدت بها كتب التفسير التى لا يكاد يخلو منها كتاب واحد.

(٢) هنا يقول الأستاذ سيد قطب فى الظلال: ونقف هنا وقفة قصيرة أمام ظاهرة التناسق الفنى فى العرض. فإن المشهد الذى يعرضه السياق هو مشهد مكشوف فى الطبيعة: الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر، وكذلك ضمير ذى القرنين ونواياه كلها مكشوفة لعلم الله، وكذلك يتناسق المشهد فى الطبيعة وفى ضمير ذى القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة.

قال ابن عباس : السدان أرمينية وأذربيجان[١] .

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة والكسائى (يُفقهون) بضم الياء، وكسر القاف على معنى (يُفهمون) غيرهم، وقرأ الباقون: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ بفتح الياء والقاف، أى ويعلمون ويفقهون قولاً .

﴿قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ قيل : كلّمهُ عنهم قوم آخرون مترجمة، وبيان ذلك فى قراءة ابن مسعود : (لا يكادون يفقهون قولاً، قال الذين من دونهم يا ذا القرنين) . وقيل : معناه : لا يكادون يفقهون خيراً من شر، ولا ضلالاً من هدى، ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قرأهما عاصم وعيسى بن عمر[٢] والأعرج مهموزين، الباقون بغير همزة . وهما لغتان . قالوا : وأصله من

---

(١) يقول الأستاذ سيد قطب فى الظلال، عن موضع السد :

ونحن لا نستطيع أن نجزم بشىء عن المكان الذى بلغ إليه ذو القرنين بين السدين ولا ما هما هذان السدان؟ كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين أو بين سدين صناعيين تفصلهما فجوة أو ممر فوجد هنالك قومًا متخلفين : ﴿لا يكادون يفقهون قولاً﴾ وعندما وجدوه فاتحًا قويًا وتوسموا فيه القدرة والصلاح عرضوا عليه أن يقيم لهم سدًا فى وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين، ويغيرون عليهم من ذلك الممر فيعيثون فى أرضهم فساداً، ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم، وذلك فى مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم وتبعاً للمنهج الصالح الذى أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد فى الأرض فقد رد عليهم عرضهم الذى عرضوه من المال وتطوع بإقامة السد، ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هى ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين، فطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية : ﴿فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردمًا آتونى زبر الحديد﴾ .

فجمعوا له قطع الحديد وكومها فى الفتحة بين الحاجزين فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما .

﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ وأصبح الركام فى مساواة القمتين ﴿قال انفخوا﴾ على النار لتسخين الحديد ﴿حتى إذا جعله ناراً﴾ كله لشدة توهجه واحمراره ﴿قال آتونى أفرغ عليه قطراً﴾ أى نحاسًا مذابًا يتخلل الحديد، ويختلط به فيزيده صلابة .

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثًا فى تقوية الحديد فوجدَ أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، وكان هذا الذى هدى الله إليه ذا القرنين سجله فى كتابه الخالد سبقًا للعلم البشرى الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله .

بذلك التحم الحاجزان، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج : ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه﴾ يتسوروه ﴿وما استطاعوا له نقبًا﴾ فينفذوا منه، وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف المتخلفين فآمنوا واطمأنوا ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذى قام به فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه وتبرأ من قوته إلى قوة الله وفوض إليه الأمر، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة، فتعود الأرض سطحًا أجرد مستويًا .

(٢) هذا خطأ غير مقصود أو مقصود والمعروف أنه عيسى بن عمر القارئ، وكتب الناسخ عيسى ابن مريم . فالله أعلم بحال هذا الناسخ أهو جاهل أم متجاهل؟! وسبق أن ذكرت من أمره فى الإهمال فى النسخ قبل ذلك ما يغنى عن الإعادة ههنا .

(أجيج النّار)، وهو ضوءها وشررها، شُبّهوا به في كثرتهم وشدّتهم. قال وهب بن منبه ومقاتل بن سليمان: هم من ولد يافث بن نوح، وقال الضحّاك: هم جيل من الترك. وقال كعب: هم نادرة من ولد آدم من غير حوّاء، وذلك أنّ آدم (عليه السلام) قال ذات يوم فاحتلم، وامتزجت نطفته في التراب، فلما انتبه أسف على ذلك الماء الذي خرج منه، فخلق الله تعالى من ذلك الماء يأجوج ومأجوج، وهم متصلون بنا من جهة الأب دون الأم[١].

وقوله تعالى: ﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، قال سعيد بن عبد العزيز: فسادهم في الأرض أنهم كانوا يأكلون الناس. قال الكلبي: كانوا يخرجون إلى أرضهم أيّام الربيع فلا يدعون فيها شيئًا أخضر إلاّ أكلوه، ولا شيئًا يابسًا إلاّ احتملوه فأدخلوه أرضهم، وقد لقوا منهم أذًى شديداً وقتلاً. وقيل: معناه: أنهم سيفسدون في الأرض عند خروجهم.

روى الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال: «يأجوج أُمّة ومأجوج أُمّة، كل أُمّة أربعمائة ألف أُمّة، لا يموت الرجل منهم حتّى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلّهم قد حمل السلاح» قيل: يا رسول الله صفهم لنا قال: «هم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرز» قيل: يا رسول الله، وما الأُرز؟ قال: «شجرة بالشام طول الشجر عشرون ومائة ذراع في السماء، وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومائة ذراع، وصنف منهم يفرش أذنه ويلتحف بالأُخرى، لا يمرّون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلاّ أكلوه ومن مات منهم أكلوه. مقدّمهم بالشام وساقتهم بخراسان، ويشربون أنهار المشرق وبحيرة الطبرية»[٢].

قال وهب بن منبه: كان ذو القرنين رجلاً من الروم، ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان اسمه الإسكندر، فلمّا بلغ وكان عبداً صالحًا، قال الله تعالى: «يا ذا القرنين إني باعثك إلى أُمم الأرض، وهي أُمم مختلفة ألسنتهم، وهم جميع أهل الأرض، ومنهم أُمتان بينهما عرض الأرض كلّه وأمم وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج. وأما اللتان بينهما طول الأرض، فأُمّة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك، وأمّا الأخرى فعند

---

(١) بالله عليكم هل يقول بهذا عاقل أو يقبله صاحب دين سليم، ولا أدرى كيف ساغ للثعلبي وللقرطبي وغيرهما من المفسرين نقل هذا الكلام في كتبهم وهم يعلمون أن الناس ستداول هذه الكتب من بعدهم ليتعلموا منها الدين؟!

(٢) خبر غير صحيح وأغلب أحاديث الفتن والملاحم وأحاديث آخر الزمان لا يكاد يصح منها حديث فأغلبها بين ضعيف شديد الضعف أو موضوع، والخبر الذي يأتي بعد هذا هو أشد منه نكارة بل هو خبر لا يقوم على أي أساس من علم أو دين بل هو فرط خيال تخيله وضعة الأساطير والإسرائيليات في كتب أهل الإسلام بقصد إفساد عقائد الناس وشغلهم عن هدف هذا الدين ومقصوده الذي جاء ليحرر العباد لربهم ويحررهم من عبادة بعضهم بعضًا وإقامة العدل في الأرض.

مطلعها يقال لها منسك، وأمّا اللتان بينهما عرض الأرض فأُمّة فى قطر الأرض الأيمن يُقال لها: هاويل، والأخرى فى قطر الأرض الأيسر يُقال لها: تاويل». فلمّا قال الله تعالى له ذلك، قال ذو القرنين. «يا إلهى إنّك قد ندبتنى لأمر عظيم لا يقدر قدره إلاّ أنت، فأخبرنى عن هذه الأمم التى بعثتنى إليها بأى قوّة أُكابرهم؟ وبأى جمع وبأى حيلة أُكاثرهم؟ وبأى صبر أُواسيهم؟ وبأى لسان أُناطقهم؟ وكيف لى بأن أفقه لغاتهم؟ وبأى سمع أسمع أقوالهم؟ وبأى بصر أنقدهم؟ وبأى حجة أُخاصمهم؟ وبأى عقل أعقل عنهم؟ وبأى حكمة أُدبر أمرهم؟ وبأى قسط أعدل بينهم؟ وبأى حلم أُصابرهم؟ وبأى معرفة أفصل بينهم؟ وبأى علم أُتقن أُمورهم؟ وبأى يد أسطو عليهم؟ وبأى رجل أطؤهم؟ وبأى طاقة أُحصيهم؟ وبأى جند أُقاتلهم؟ وبأى رفق أتألّفهم؟ وليس عندى يا إلهى شىء مما ذكرت يقوم بهم ولا يقوى عليهم ولا يطيقهم، وأنت الرؤوف الرحيم لا تكلّف نفسًا إلاّ وسعها، ولا تحملها إلاّ طاقتها، ولا تشقيها بل أنت ترحمها». قال الله تعالى: «إنّى سأُطوقك ما حمّلتك: أشرح لك صدرك فتسمع كل شىء، وأشرح لك فهمك فتفهم كلّ شىء، وأبسط لك لسانك فتنطق بكلّ شىء، وأفتح لك سمعك فتعى كلّ شىء، وأمدّ لك بصرك فتنقد كلّ شىء، وأُحصى لك فلا يفوتك شىء، وأشدّ لك عضدك فلا يهولك شىء، وأشدّ لك ركنك فلا يغلبك شىء، وأشد لك قلبك فلا يفزعك شىء، وأحفظ عليك فلا يعزب عنك شىء، وأبسط لك من بين يديك فتسطو فوق كلّ شىء، وأشدّ لك وطأتك فتهدّ كل شىء، وأُلبسك الهيبة فلا يروعك شىء، وأُسخّر لك النور والظّلمة فأجعلهما جندًا من جنودك يهديك النور من أمامك وتحوطك الظلمة من ورائك».

فلمّا قيل له ذلك انطلق يؤمُّ الأُمم التى عند مغرب الشمس فلما بلغهم وجد جمعًا وعددًا لا يحصيهم إلاّ الله عزّ وجلّ، وقوّة وبأسًا لا يطيقهم إلاّ الله، وألسنة مختلفة، وأهواء متشتتة، فلمّا رأى ذلك كابرهم بالظلمة، فضرب حولهم ثلاثة عساكر منها فأحاط بهم فى كلّ مكان حتّى جمعتهم فى مكان واحد ثمّ أخذ عليهم بالنّور فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعبادته فمنهم من آمن ومنهم من صدّ عنه، فعمد إلى الذين تولّوا عنه فأدخل عليهم الظلمة فدخلت فى أفواههم وآذانهم وأنوفهم وأجوافهم، ودخلت فى بيوتهم ودورهم، وغشيهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كلّ جانب فماجوا فيه وتحيّروا، فلمّا أشفقوا أن يهلكوا فيها عجّوا إليه بصوت واحد، فكشفها عنهم، وأخذهم عنوة، فدخلوا فى دعوته[1]، فجنّد من أهل المغرب أُممًا

(١) ثم تستمر بعد ذلك الحكاية المختلقة عن يأجوج ومأجوج وذى القرنين، إلا أن الأستاذ سيد قطب يرحمه الله يقول=

عظيمة، فجعلهم جندًا واحدًا. ثمّ انطلق بهم يقودهم والظلمة تسوقهم وتحرسهم من خلفهم، والنور أمامهم يقودهم ويدلّه، وهو يسير فى ناحية الأرض اليمنى وهو يريد الأُمة التى فى قطر الأرض الأيمن التى يُقال لها هاويل، وسخّر الله عزّ وجلّ له يده وقلبه وعقله ورأيه ونظره فلا يخطئ إذا عمل عملاً.

فانطلق يقود تلك الأُمم وهى تتبعه، فإذا انتهى إلى بحر أو مخاضة بنى سفنًا من ألواح صغار أمثال البغال، فنظمها فى ساعة ثمّ حمل فيها جميع من معه من تلك الأمم والجنود، فإذا قطع الأنهار والبحار فتقها، ثمّ دفع إلى كل رجل منهم لوحًا فلا يثقله حمله، فلم يزل ذلك دأبه حتّى انتهى إلى هاويل فعمل فيه كفعله فى ناسك. فلما خرج منها مضى على وجهه فى ناحية الأرض اليمنى حتّى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس فعمل فيها وجنّد منها جنودًا كفعله فى الأُمتين اللتين قبلها.

ثمّ كرّ مقبلاً حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى وهو يريد تاويل - وهى الأمة التى بحيال هاويل، وهما متقابلتان بينهما عرض الأرض كلّه - فلمّا بلغها عمل فيها وجنّد منها كعمله فيما قبلها.

فلمّا فرغ منها عطف منها إلى الأُمم التى فى وسط الأرض من الجن والإنس ويأجوج

= عن يأجوج ومأجوج قول أراه عين الصواب إذ يقول فى الظلال: من يأجوج ومأجوج؟ وأين هم الآن؟ وماذا كان من أمرهم؟ وماذا سيكون؟ كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد فى القرآن وفى بعض الأثر الصحيح.

والقرآن يذكر فى هذا الموضع ما حكاه من قول ذى القرنين: ﴿فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقًا﴾.

وهذا النص لا يحدد زمانًا، ووعد الله بمعنى وعده بدك السد، ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار وأساحوا فى الأرض، ودمروا المماليك تدميراً.

وفى موضع آخر من سورة الأنبياء: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق﴾.

وهذا النص أيضًا لا يحدد زمانًا معينا لخروج يأجوج ومأجوج، فاقترب الوعد الحق، بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول ﷺ فجاء فى القرآن: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ والزمان فى الحساب الإلهى غيره فى حساب البشر، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون يراها البشر مديدة طويلة، وهى عند الله ومضة قصيرة.

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فتح فى الفترة ما بين: ﴿اقتربت الساعة﴾ ويومنا هذا، وتكون غارات المغول والتتار التى اجتاحت الشرق هى انسياح يأجوج ومأجوج قلت: هكذا يجب على المسلم الحق أن يكون عبدًا طيّعًا انقياديًا لأمر الله فما كان واضحًا صريحًا مباشرًا فى فهمه أخذه وما كان غير ذلك رد علمه إلى الله ولم يترك لنفسه أن تقوده إلى مزالق الردى بالقول على الله بما لا علم له به.

ومأجوج ، فلما كان فى بعض الطريق ممّا يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أُمّة صالحة من الإنس : يا ذا القرنين إنّ بين هذين الجبلين خلقًا من خلق الله تعالى ليس فيهم مشابه الإنس ، وفيهم أشباه البهائم يأكلون العشب ويفترسون الدّواب والوحش كما يفترسها السّباع ، ويأكلون فسدة الأرض كلها من الحيات والبهائم والعقارب وكلّ ذى روح ممّا خلق الله ، فليس لله تعالى خلق ينمى نماهم فى العالم الواحد ولا يزدادون كزيادتهم . فإن أتت مدّة على ما ترى من زيادتهم ونمائهم فلا شك أنهم سيملؤون الأرض ويجلون أهلها منها ويظهرون عليها فيفسدون فيها . وليست تمر بنا سنة منذ جاورناهم إلاّ ونحن نتوقعهم أن يطلع علينا أوّلهم من بين هذين الجبلين ، ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ : أعدّوا لى الصخور والحديد والنحاس حتّى أرتاد بلادهم ، وأعلم علمهم ، وأقيس ما بين جبليهم .

ثمّ انطلق يؤمّهم حتّى دفع إليهم وتوسط بلادهم فوجدهم على مقدار واحد ، ذكرهم وأنثاهم ، يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرّجل المربوع منّا . قال على بن أبى طالب : «منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط فى الطول ، لهم مخالب فى (موضع) الأظفار من بين أيدينا وأنياب وأضراس كأضراس السّباع وأنيابها يسمع لها حركة إذا أكلوا كحركة الجرّة من الإبل وكقضم البغل المسن أو الفرس القوى ، ولهم هلب من الشعر فى أجسادهم ما يواريهم وما يتّقون به من الحر والبرد إذا أصابهم . ولكل واحد منهم أُذنان عظيمتان أحدهما وبرة والأخرى زغبة يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى ، ويصيف فى إحداهما ويشتو فى الأُخرى وليس منهم ذكر ولا أُنثى إلاّ وقد عرف أجله الذى يموت فيه ، ومنقطع عمره وذلك أنه لا يموت ميّت من ذكورهم حتّى يخرج من صلبه ألف ولد ، ولا تموت أُنثى حتّى يخرج من رحمها ألف ولد . فإذا كان ذلك أيقن الموت . . وهم يرزقون السينان أيام الربيع كما يستمطر الغيث لحينه فيقذفون منه كلّ سنة واحدًا فيأكلونه عامهم كله إلى مثلها من القابل فيعمهم على كثرتهم ، وهم يتداعون تداعى الحمام ، ويعوون عواء الذئاب ، ويتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا» .

فلمّا عاين منهم ذلك ذو القرنين انصرف إلى ما بين الصدفين فقاس ما بينهما ، وهو فى منقطع أرض الترك ممّا يلى مشرق الشمس فوجد بعد ما بينهما مائة فرسخ ، فلمّا أنشأ فى عمله حفر له الأساس حتّى بلغ الماء ، ثمّ جعل عرضه خمسين فرسخًا . وجعل حشوه الصخر ، وطينه النحاس يُذاب ثمّ يُصب عليه فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض ثمّ علاّه وشرّفه بزبر الحديد والنحاس المذاب وجعل خلاله عرقًا من نحاس أصفر ، فصار كأنه برد محبّر من

صفرة النحاس وحمرته فى سواد الحديد.

فلما فرغ منه وأحكمه انطلق عامدًا إلى جماعة الإنس، فبينا هو يسير إذا دفع إلى أُمّة صالحة يهدون بالحق وبه يعدلون، فوجد أُمة مقسطة مقتصدة يقيمون بالسّوية، ويحكمون بالعدل ويتراحمون، حالتهم واحدة وكلمتهم واحدة، وأخلاقهم مشتبهة وطريقتهم مستقيمة، وقلوبهم متآلفة، وسيرتهم مستوية، وقبورهم بأبواب بيوتهم، وليس على بيوتهم أبواب، وليس عليهم أُمراء، وليس بينهم قضاة، ولا بينهم أغنياء ولا ملوك ولا أشراف، ولا يختلفون ولا يتفاضلون، ولا يتنازعون، ولا يستبّون، ولا يقتلون، ولا يضحكون، ولا يحردون ولا تصيبهم الآفات التى تصيب النّاس، وهم أطول الناس أعمارًا، وليس فيهم مسكين ولا فقير، ولا فظ ولا غليظ. فلما رأى ذلك من أمرهم عجب.

وقال: «أخبرونى أيّها القوم خبركم، فإنّى قد أحصيت الأرض كلّها؛ برّها وبحرها، وشرقها وغربها، فلم أرَ أحدًا مثلكم، فخبرونى خبركم». قالوا: نعم، فسلنا عمّا تريد.

قال: «خبرونى ما بال قبوركم على أبواب بيوتكم؟». قالوا: عمدًا فعلنا ذلك، لئلا ننسى الموت، ولا يخرج ذكره من قلوبنا.

قال: «فما بال بيوتكم ليس عليها أبواب؟». قالوا: ليس فينا متّهم، وليس فينا إلاّ أمين مؤتمن.

قال: «فما بالكم ليس عليكم أمير؟». قالوا: لا حاجة لنا إلى ذلك.

قال: «فما بالكم ليس فيكم حكّام؟». قالوا: لا نختصم.

قال: «فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟». قالوا: لا نتكاثر.

قال: «فما بالكم ليس فيكم ملوك؟». قالوا: لا نفتخر.

قال: «فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟». قالوا: من أُلفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا.

قال: «فما بالكم لا تقتتلون؟». قالوا: من أجل أنّا شُبنا أنفسنا بالأحلام.

قال: «فما بال كلمتكم واحدة، وطريقتكم مستقيمة؟». قالوا: من قبل أنا لا نتكاثر، ولا نتخادع، ولا يغتال بعضنا بعضًا.

قال: «فأخبرونى من أين تشابهت قلوبكم، واعتدلت سيرتكم؟». قالوا: صحت صدورنا فنُزع بذلك الغل والحسد من قلوبنا.

قال: «فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟». قالوا: من أجل أنا نقسم بالسوية.

قال: «فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ؟». قالوا: من قبل الذل والتواضع.

قال: «فما جعلكم أطول النّاس أعمارًا؟». قالوا: من قبل أنا نتعاطى الحقّ، ونحكم بالعدل.

قال: «فما بالكم لا تضحكون؟». قالوا: لا نغفل عن الاستغفار.

قال: «فما بالكم لا تحزنون ولا تحردون؟». قالوا: من قبل أنّا وطّنّا أنفسنا للبلاء مذ كنّا، وأحببناه وحرصنا عليه.

قال: «فما بالكم لا يصيبكم الآفات كما يصيب النّاس؟». قالوا: لأنّا لا نتوكل على غير الله، ولا نعمل الأنواء والنجوم.

قال: «وهكذا وجدتم آباءكم يفعلون؟». قالوا: نعم: وجدنا آباءنا يرحمون مساكينهم، ويواسون فقراءهم، ويعفون عمّن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويحلمون عمّن جهل عليهم، ويصلون أرحامهم، ويؤدون أماناتهم، ويحفظون وقت صلاتهم، ويوفون بعهدهم، ويصدقون فى مواعيدهم، فأصلح الله عزّ وجلّ بذلك أمرهم، وحفظهم ما كانوا أحياء. وكان حقًا على الله أن يخلفهم فى ذريتهم.

فقال لهم ذو القرنين: والله لو كنت مقيمًا لأقمت فيكم وبينكم، ولكن لم أومر بذلك[1].

وروى قتادة عن أبى رافع عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج يحفرونه كلّ يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فتحفرونه غدًا. فيعيده الله عزّ وجلّ كأشدّ ما كان. حتّى إذا بلغت مدتهم حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه إن شاء الله غدًا، فيعود إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه فيخرجون على النّاس فيتبعون المياه، ويتحصن النّاس فى حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع فيها كهيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء. فيبعث الله عزّ وجلّ نغفًا عليهم فى أقفائهم فيقتلونهم». قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده إنّ دواب الأرض لتسمن وتسكر سكرًا من لحومهم».

وروى محمود بن قتادة عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) واضح أنها المدينة الفاضلة التى يتكلم عنها الفلاسفة والتى هى غير موجودة فى الدنيا منذ خلقها الله تعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لأنها هذه سنة الحياة والناس الذين خلقهم الله ويعلم أن: ﴿منهم شقى وسعيد﴾ وجعل آخرتهم ﴿فريق فى الجنة وفريق فى السعير﴾ فقد ترك الكاتب هنا لنفسه العنان تهيم فى سماء الفضيلة فتنشئ المدينة التى يريد ويتمنى أن تكون. ولم يجدها فى أرض الواقع، فراح يجعلها فى دنيا خياله ليستريح من عناء الواقع المرير لبعض اللحظات.

«يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ (الأنبياء:٩٦) فيغشون الأرض وينحاز المسلمون عنهم إلى حصونهم ومدائنهم حتى إن أولهم يمرون بالنهر من أنهار الأرض» قال أبو الهيثم: الدجلة «فيشربون حتى يصير يابسة، فيمر به الذين من بعدهم فيقولون: لقد كان بهذا المكان ماء مرّة، حتى إذا ظهروا على أهل الأرض قالوا: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، وبقى أهل السماء».

قال ﷺ: «فيهزّ أحدهم حربته ثمّ يقذفها إلى السماء فترجع إليه مختضبة دمًا للفتنة. فبينا هم كذلك إذ يبعث الله عزّ وجلّ عليهم دودًا كنغف الجراد فيموتون موت الجراد، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حسًا، فيقولون: هل من رجل يشترى لنا نفسه فينظر ما فعل هؤلاء القوم؟ فينزل رجل منهم قد أيقن أنه مقتول، فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادى أصحابه: أبشروا، فقد كفاكم الله عزّ وجلّ عدوّكم. فيخرج المسلمون فيرسلون مواشيهم فيهم فما يكون لها رعًى غير لحومهم وتكثر عليه كأحسن ما تكثر على شىء من النبات أصابته قط».

قال وهب: إنهم كانوا يأتون البحر فيشربون ماءها، ويأكلون دوابّها، ثمّ يأكلون الخشب والشجر ومن ظفروا به من النّاس، ولا يقدرون أن يأتوا مكّة ولا المدينة ولا بيت المقدس.

فى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قرأ أهل الكوفة: (خراجًا) بالألف. الباقون بغير ألف، وهما لغتان، بمعنى واحد. وقال أبو عمرو بن العلاء: الخرج: ما تبرّعت به، والخراج: ما لزمك أداؤه. ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾: حاجزًا فلا يصلون إلينا؟ ﴿قَالَ﴾ لهم ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ على الإدغام. وقرأ أهل مكة: (ما مكننى) بنونين بالإظهار ﴿فِيهِ رَبِّى﴾ وقوّانى عليه ﴿خَيْرٌ﴾، ولكن ﴿أَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾: حاجزًا كالحائط والسدّ. قالوا: وما تلك القوّة؟ قال: «فعلة وصنّاع يحسنون البناء والعمل والآلة»[1] قالوا: وما تلك

---

(١) للقرطبى على ذلك تعليق مفيد حيث يقول فى تفسيره:

فى هذه الآية دليل على أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق فى حفظ بيضتهم وسد فرجتهم وإصلاح ثغورهم من أموالهم التى تفىء عليهم وحقوقهم التى جمعها خزائنهم تحت يده ونظره حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفدتها المؤن لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروط:

الأول: أن لا يستأثر عليهم بشىء.

والثانى: أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم.

والثالث: أن يستوفى العطاء بينهم على قدر منازلهم.

فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفرا فأطلعت الحوادث أمرًا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير، وتصرف بتدبير. =

الآلة؟ قال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ يعنى: أعطونى قطع الحديد، واحدتها زبرة، فأتوه بها، فبناه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾، وروى مسلم بن خالد عن سعيد بن أبى صالح قال: بلغنا أنه وضع الحطب بين الجبلين، ثمّ نسج عليه الحديد، ثمّ نسج الحطب على الحديد، فلم يزل يجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾، وهما الجبلان ـ بضمّ الصاد والدال، وفتحهما ـ وأمر بالنّار فأُرسلت فيه، ثمّ ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾، ثمّ جعل يفرغ القطر عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ﴾: أصب ﴿عَلَيْهِ قِطْرًا﴾، وهو النحاس المذاب. قال: فجعلت النّار تأكل الحطب ويصب النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ ويعلوه من فوقه، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ من أسفله. قال قتادة ذُكر لنا أن رجلاً قال: يا نبىّ الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال: «انعته لى». قال: كالبرد المحبّر؛ طريقة سوداء وطريقة حمراء. قال: «قد رأيته».

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين لمّا فرغ من بنائه يعنى هذا السّد: ﴿هَٰذَا﴾ السّد ﴿رَحْمَةٌ﴾: نعمة ﴿مِّن رَّبِّى﴾؛ فلذلك لم يقل: هذه. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ ملتزقة مستوية بالأرض من قولهم: ناقة دكّاء أى مستوية الظهر لا سنام لها. ومن قرأ: (دكّا) بلا مدّ فمعناه: مدكوك يومئذ، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ بخروجهم لا شك فيه ولا ريب[1].



= فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال فى أن يكف عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج قال: لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم: ﴿فأعينونى بقوة﴾ أى اخدموا أنفسكم معى، فإن الأموال عندى والرجال عندكم ورأى أن الأموال لا تغنى عنهم فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه فيعود بالأجر عليهم.
فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى. وضابط الأمر أنه لا يحل مال أحد إلاّ لضرورة تعرض، ويؤخذ هذا المال جهراً لا سراً، وينفق بالعدل لا بالاستئثار، أو برأى الجماعة لا بالاستبداد فى الأمر.

(١) يقول الأستاذ سيد قطب تعليقًا على نهاية قصة ذى القرنين فى الظلال: وبذلك تنتهى هذ الحلقة من سيرة ذى القرنين النموذج الطيب للحاكم الصالح يمكنه الله فى الأرض وييسر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقًا وغربًا، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادى، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ولا يسخر أهلها فى أغراضه، وأطماعه، إنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل ويستخدم القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح ودفع العدوان وإحقاق الحق ثم يُرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله ولا ينسى وهو فى إبان سطوته قدرة الله وجبروته وأنه راجع إلى الله.

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۝ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝﴾

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ ، **يعنى الخلق** ﴿يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ﴾ **: يدخل** ﴿فِي بَعْضٍ﴾ **ويختلط إنسهم بجنّهم حيارى،** ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ **فى صعيد واحد،** ﴿وَعَرَضْنَا﴾ **: وأبرزنا** ﴿جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾ **، يعنى يوم القيامة** ﴿لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ .

ثمّ وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ﴾ **: غشاوة وغفلة** ﴿عَن ذِكْرِي﴾ **، يعنى: الإيمان والقرآن** ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ **، أى لا يطيقون أن يسمعوا كتاب الله عزّ وجلّ ويتدبّروه ويؤمنوا به لغلبة الشقاء عليهم**[1] **. وقيل: لعداوتهم النبى ﷺ.**

(١) يقول الأستاذ سيد قطب فى الظلال: هو مشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض ومن كل جيل وزمان وعصر، مبعوثين منشرين يختلطون ويضطربون بغير نظام وفى غير انتباه تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج، ثم إذا نفخة التجمع والنظام: ﴿ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعًا﴾ فإذا هم فى الصف فى نظام، ثم إذ الكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء ولكأن فى أسماعهم صممًا إذ بهؤلاء تعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله فما يستطيعون اليوم إعراضًا، لقد نزع الغطاء عن عيونهم نزعًا فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاء وفاقًا.
والتعبير ينسج بين الإعراض والعرض متقابلين فى المشهد متقابلين فى الحركة على طريقة التناسق الفنى فى القرآن، ويعقب على هذا التقابل بالتهكم اللاذع والسخرية المريرة: ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء. إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾.

﴿أَفَحَسِبَ﴾ : أفظنّ. وقرأ عكرمة ومجاهد وعلى : (أفحسْبُ)، أى كفاهم ذلك ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى﴾ ، يعنى عيسى والملائكة ﴿مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ؟ كلاّ بل هم لهم أعداء ويتبرؤون منهم. قال ابن عباس: يعنى: الشياطين، تولوهم وأطاعوهم من دون الله. وقال مقاتل: يعنى: الأصنام، سمّاهم عبادًا كما قال فى موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (الأعراف: ١٩٤).

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ۝ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا﴾ يعنى الذين أتعبوا أنفسهم فى عمل يبتغون به ربحًا، فنالوا به هلاكًا وعطبًا، ولم يدركوا ما طلبوا، كالمشترى سلعة يرجو بها فضلاً وربحًا، فخاب رجاؤه وخسر بيعه. واختلفوا فى الذين عُنوا بذلك فقال على بن أبى طالب: «هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى الصوامع».

وقال سعد بن أبى وقّاص وابن عباس: هم اليهود والنصارى، نظيره: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ (الغاشية: ٣-٤). وروى سفيان عن سلمة بن كهيل عن أبى الطفيل قال: سأل عبد الله بن الكوّا عليًا عن قوله: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا﴾ ، قال: «أنتم يا أهل حروراء».

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ، أى يظنون أنهم بفعلهم مطيعون محسنون ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ﴾ : بطلت وذهبت واضمحلت[1] ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ ، قال أبو سعيد الخدرى: يأتى أُناس بأعمال يوم القيامة هى فى العظم عندهم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئًا، فذلك قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾.

وروى الأعرج عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا تزن جناح بعوضة، اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾».

وروى المغيرة بن مسلم عن سعيد بن عمرو بن عثمان قال: سمعت عثمان بن عفّان (رضى الله عنه) يقول: الربا سبعون بابًا أهونهن مثل نكاح الرجل أُمه. قال: وأربى الربا عرض أخيك المسلم تشتمه. قال: ويؤتى يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب الذى يشرب الظرف فى المجلس فيوزن فلا يعدل جناح بعوضة، خاب ذلك وخسر، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ ، يعنى سخرية.

---

(١) يقول الأستاذ سيد قطب فى الظلال: أصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تتغذى بنوع سام من الكلأ، ثم تلقى حتفها، وهو أنسب لوصف الأعمال أنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة، ثم تنتهى إلى البوار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ اختلفوا في الفردوس، فقال رسول الله ﷺ: «الجنّة مائة درجة، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض. أعلاها الفردوس، ومنها تفجر أنهار الجنة، وفوقها عرش الرحمن فسلوه الفردوس».

وروى عمران الجويني عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النّبي ﷺ قال: «جنّات الفردوس أربع: جنتان من ذهب أبنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضّة أبنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه».

وقال شهر: خلق الله جنّة الفردوس بيده فهو يفتحها في كل يوم خميس فيقول: ازدادي حسنًا وطيبًا لأوليائي. وقال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها. وقال أبو أُمامة: الفردوس سرة الجنّة. وقال كعب: ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وقال مجاهد: هو البستان بالرومية. وقال كعب: هو البستان فيه الأعناب. وقال الضحاك: هي الجنّة الملتفة الأشجار. وقيل: هي الروضة المستحسنة. وقيل: هي الأودية التي تنبت ضروبًا من النبات، وجمعها فراديس: وقال أُمية:

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة ... فيها الفراديس والفومان والبصل

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي يطلبون عنها تحولاً إلى غيرها، وهو مصدر مثل الصغَر والعوج. قال مخلد بن الحسين: سمعت بعض أصحاب أنس قال: يقول أولهم دخولاً: إنما أدخلني الله أولهم؛ لأنه ليس أحد أفضل منّي. ويقول آخرهم دخولاً: إنما أخّرني الله، لأنه ليس أحد أعطاه مثل الذي أعطاني.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ الآية، قال ابن عباس: قالت اليهود: يا محمد تزعم أنا قد أوتينا الحكمة، وفي كتابك: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩) ثمّ يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥) فكيف يكون هذا؟ فأنزل الله تعالى ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ أي ماؤه ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ حكمه وعجائبه. وقرأ أهل الكوفة (قبل أن ينفد) بالياء؛ لتقدم الفعل، ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾: عونًا وزيادة. وفي مصحف أُبي (ولو جئنا بمثله مدادًا) ونظيرها قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ (لقمان: ٢٧) الآية.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ قال ابن عباس[1]: نزلت في جندب بن زهير العامري، وذلك أنه

---

(١) قال الأستاذ صاحب الظلال في هذه الآية في ظل هذا المشهد الذي يتضاءل فيه علم الإنسان ينطلق الإيقاع الثالث والأخير في السورة، فيرسم أعلى أفق للبشرية ـ وهو أفق الرسالة الكاملة الشاملة ـ فإذا هو قريب محدود =

قال للنبى ﷺ إنّى أعمل لله، فإذا اطّلع عليه سرنى. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى طيّب لا يقبل إلاّ الطيب ولا يقبل ما شورك فيه»، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال أنس: قال رجل: يا نبى الله، إنّى أُحب الجهاد فى سبيل الله، وأُحب أن يُرى مكانى، فأنزل الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: خلق آدمى مثلكم. قال ابن عباس: علّم الله رسوله التواضع لئلا يزهو على خلقه، ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾: المصير إليه. وقيل: معناه يأمل رؤية ربّه، فالرجاء يتضمّن معنيين: الخوف والأمل، قال الشاعر:

فلا كل ما ترجو من الخير كائن ولا كل ما ترجو من الشر واقع

فجمع المعنيين فى بيت واحد.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: خالصًا ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، أى ولا يراء. قال شهر بن حوشب: جاء رجل إلى عبادة[1] بن الصامت، فقال: أرأيت رجلاً يصلى يبتغى وجه الله عزّ وجلّ ويحب أن يحمد عليه، ويصوم يبتغى وجه الله عزّ وجلّ ويحب أن يحمد، ويتصدّق يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد عليه، ويحجّ يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد عليه؟ فقال عبادة: ليس له شىء، إن الله عزّ وجلّ يقول: «أنا خير شريك، فمن كان له معى شريك فهو له كله ولا حاجة لى منه».

وروى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء يوم يجازى الله النّاس بأعمالهم».

وروى سفيان عن سلمة قال: سمعت جندبًا قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمّع سمّع الله به، ومن يراء يراء الله به».

وروى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «اتقوا الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء يوم يجازى الله الناس بأعمالهم».

وقال رسول الله ﷺ لمّا نزلت هذه الآية: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفىّ، وإيّاكم

= بالقياس إلى الأفق الأعلى الذى تتقاصر دونه الأبصار، وتنحسر دونه الأنظار: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ الآية. إنه أفق الألوهية الأسمى فأين هنا آفاق النبوة، وهى على كل حال آفاق بشرية؟ ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ...﴾ بشر يتلقى من ذلك الأفق الأسمى، بشر يستمد من ذلك المعين الذى لا ينضب، بشر لا يتجاوز الهدى الذى يتلقاه من مولاه، بشر يتعلم فيُعلم، فمن كان يتطلع إلى القرب من ذلك الجوار الأسنى فلينتفع بما يتعلم من الرسول الذى يتلقى، وليأخذ بالوسيلة التى لا وسيلة سواها.

(١) فى المخطوط: عمارة. وهو تحريف وهو صحابى معروف مشهور.

وشرك السرائر فإن الشرك أخفى فى أُمتى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء. ومن صلى يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدّق يرائى فقد أشرك».

قال: فشقّ ذلك على القوم، فقال رسول الله: «أولا أدلّكم على ما يُذهب عنكم صغير الشرك وكبيره؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: قولوا: «اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم».

وقال عمرو بن قيس الكندى: سمعت معاوية بن أبى سفيان على المنبر تلا هذه الآية، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الآية، فقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن. وروى سعيد بن المسيب عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى إلىّ أن من قرأ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الآية، رفع له نور ما بين عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة».

وروى سهل بن معاذ عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلّها كانت له نوراً من السماء إلى الأرض»[1].



(١) سبق الكلام كثيراً على أن معظم الأحاديث الواردة فى فضائل سورة القرآن ليست بصحيحة وهذه الأحاديث منها.

سُورَةُ مَرْيَمَ

مكيّة كلّها، وهى ثمان وتسعون آية، تسع وتسعون حجازى،
وسبعمائة واثنتان وستّون كلمة، وثلاثة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان

أخبرنا أبو الحسين على بن محمد بن الحسن المقرى غير مرّة، قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم وأبو الشيخ عبد الله بن محمد قالا: قال أبو إسحاق إبراهيم بن شريك، عن أحمد بن يونس اليربوعى، عن سلام بن سليم المدائنى، عن عمرو بن كثير، عن يزيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبى أمامة عن أُبى بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة مريم أُعطى من الأجر حسنات بعدد من صدّق بزكريّا وكذب به، ويحيى ومريم وعيسى وموسى وهارون وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل عشر حسنات وبعدد من دعا لله ولداً، وبعدد من لم يدع له ولداً».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ

وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء، ضدّه شامى وحمزة وخلف، بكسرهما، والكسائى، بفتحهما، ابن كثير وعاصم ويعقوب، واختلفوا فى معناها.

فقال ابن عباس: هو اسم من أسماء الله عزّ وجلّ، وقيل: إنّه اسم الله الأعظم[1]، وقال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن، وقيل: هو اسم السورة، وقال علىّ بن أبى طالب وابن عباس: هو قَسم أقسم الله تعالى به، وقال الكلبى: هو ثناء أثنى الله عزّ وجلّ به على نفسه.

أخبرنا عبد الله بن حامد عن حامد بن محمد، قال أبو عبد الله محمد بن زياد القوقسى، قال أبو عمّار عن جرير، عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله عزّ وجلّ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قال: الكاف من كريم، والهاء من هاد، والياء من رحيم والعين من عليم وعظيم، والصاد من صادق، وقال الكلبى أيضًا: معناه: كاف لخلقه، هاد لعباده، يده فوق أيديهم، عالم ببريته، صادق فى وعده[2] ﴿ذِكْرُ﴾: رُفِع بـ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ وإن شئت قلت: هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾، وفيه تقديم وتأخير، معناه ذكر ربك عبده زكريا برحمته وزكريا فى موضع نصب.

وقرأ بعضهم عبده زكريّا بالرفع على أنّ الفعل له ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ﴿رَبَّهُۥ﴾ فى محرابه حيث يقرب القربان ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ دعا سرًّا من قومه فى جوف الليل، مخلصًا فيه لم يطلع عليه أحد إلا الله عزّ وجلّ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ﴾ ضعف ﴿ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾: شمطًا، يقول: شخت وضعفت، ومن الموت قربت ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يقول: يا رب عوّدتنى الإجابة فيما كنت تجيبنى إذا دعوتك ولا تخيّبنى.

قوله: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ قرأ عثمان ويحيى بن يعمر، (خفت) بفتح الخاء والفاء وكسر التاء مشدّدًا الموالى بسكون الياء بمعنى ذهب الموالى وقلّت، الباقون: (خفت) بكسر الخاء وضم التاء من الخوف، الموالى نصبًا، خاف أن يرثه غير الولد، وقيل: خاف

---

(١) موضوع اسم الله الأعظم وما هو، وكذا موضوع الأبدال وأمثالها هذه من الموضوعات التى لا أساس لها من الصحة ومن الموضوعات الدخيلة جملة وتفصيلاً على الإسلام وقد صرح القرآن بأن أى اسم من أسماء الله تعالى دعوته به أجاب فقال: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ وقال: ﴿أيًّا ما تدعوه فله الأسماء الحسنى﴾ فلا حجر ولا قصر على اسم فكل أسمائه سواء لا فضل لاسم على اسم كما صرح بذلك القرآن الكريم، ولا فرق بين ما اشتهر على الألسن منها وما لم يشتهر فكل له سبحانه وبكل أو بأى يجيب المضطر إذا دعاه.

(٢) كل ما سبق من قول فى ذلك ليس عليه دليل وإنما هى حروف افتتح الله بها السورة شأنها شأن غيرها من أوائل السور.

عليهم تبديل دين الله عزّ وجلّ وتغيير أحكامه وأن لا يحسنوا الخلافة له على أُمّته، فسأل ربّه ولدًا صالحًا يأمنه على أُمّته، والموالى بنو العمّ وقيل: الأولى والولى والمولى فى كلام العرب واحد، وقال مجاهد: العصبة، وقال أبو صالح: الكلالة، وقال الكلبى: الورثة من ورائى من بعد موتى ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾: لا تلد ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾: أعطنى من عندك ﴿وَلِيًّا﴾: ابنًا ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ﴾: وقرأ يحيى بن يعمر ويحيى بن وثاب والأعمش وأبو عمرو والكسائى بالجزم فيهما على جواب الدّعاء، وقرأ الباقون بالرفع على الحال والصفة، أى وليًّا وارثًا، وقرأ ابن عبّاس ويحيى بن يعمر: يرثنى، وأرث ﴿مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ النّبوة، يعنى يرث النبوّة والعلم، وقال الحسن: معناه يرثنى مالى ويرث من آل يعقوب النبوّة والحبورة، وقال الكلبى: هو يعقوب بن ماثان أخو زكريا وليس يعقوب أبا يوسف ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: أى صالحًا برًا تقيًا مرضيًّا، وقال أبو صالح: معناه: اجعله نبيًّا كما جعلت أباه نبيًا.

أخبرنا عبد الله بن حامد الأصفهانى وشعيب بن محمد البيهقى قالا: أخبرنا مكّى بن عبدان عن أحمد بن الأزهر عن روح بن عبادة عن سعيد عن قتادة عن بشر بن نهيك أنّ رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: يقول عند ذلك: «رحم الله زكريا، ما كان عليه من ورثة».

قوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ فيه إضمار واختصار، يعنى فاستجاب دعاءه فقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ ولد ذكر ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال قتادة والكلبى: لم يُسمَّ أحدٌ قبله يحيى، وهو رواية عكرمة عن ابن عباس، وقال سعيد بن جبير وعطاء: لم نجعل له شبيهًا، ومثله دليله قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٦٥) أى مثلاً وعدلاً، وهى رواية مجاهد عن ابن عباس، وتأويل هذا القول أنّه لم يكن له مثل لأنّه لم يَهمّ بمعصيته قط وقيل: لم يكن له مثل فى أمر النساء لأنه كان سيدًا وحصورًا وقال على بن أبى طالب عن ابن عباس: لم تلد العواقر مثله ولدًا، وقيل: إن الله تعالى اشترط القبل لأنه جل ذكره أراد أن يخلق بعده من هو أفضل منه وهو محمّد عليه السلام، وقيل: إنّ الله تعالى لم يرد بهذا القول جميع الفضائل كلّها ليحيى، وقيل: إنما أراد فى بعضها لأن الخليل والكليم عليهما السلام كانا قبله وكانا أفضل منه[1].

---

(١) كل الأنبياء والرسل أفاضل قد فضل الله بعضهم على بعض بما علم وبما خصّ وبما ميّز وأصل الفضائل خصائص المهمة والمكلف بها كل نبى أو رسول وطبيعة قومه، فليس من الصواب أن تقول نحن فلان أفضل من فلان وفلان أفضل منهما فَكَلٌّ رسل الله وأنبياؤه لا نفرق ولا نفضل بين أحد منهم وإنما يكون ذلك عند ربهم سبحانه فلا داعى للدخول فيه بين البشر حيث لا فائدة ولا منفعة من وراء ذلك تعود علينا.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ : أى وامرأتى عاقر كقوله: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم: ٢٩) أى من هو فى المهد صبى ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أى يبسًا، قال قتادة: نحول العظم يقال: ملك عات إذا كان قاسى القلب غير ليّن، وقال أبو عبيدة: هو كل مبالغ فى شر أو كفر فقد عتا وعسا، وقرأ أُبيّ وابن عباس عسيًّا، وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائى عتيًّا بكسر العين ومثله جثيًّا وصليًّا وبُكيًّا والباقون بالضم فيهما وهما لغتان.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ : من قبْل يحيى، ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ : على حمل امرأتى ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ : أى صحيحًا سليمًا من غيرما بأس ولا خرس، وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلّون إذ خرج عليهم زكريّا متغيرًا لونه فأنكروه فقالوا له: ما لك يا زكريّا؟ فأوحى أى أومئ إليهم، ويقال: كتب فى الأرض أن سبّحوا وصلّوا لله عزّ وجلّ بُكرةً وعشيًا والسبحة الصلاة.

قوله: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ بجدّ ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ يعنى الفهم ﴿صَبِيًّا﴾ : يعنى فى حال صباه، وقال معمّر: جاء صبيان إلى يحيى بن زكريّا فقالوا: اخرج بنا نلعب، فقال: ما للّعب خلقت، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ، ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ : رحمة من عندنا، قال الحطيئة لعمر بن الخطّاب:

تحنّنْ عليَّ هداكَ المليك   فإن لكلّ مقام مقالا

أى ترحم، ومنه قوله: حنانيك مثل سعديك، قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا   حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وأصله من حنين الناقة.

أخبرنا عبد الله بن حامد عن أحمد بن عبد الله عن محمد بن عبد الله بن سليمان عن عثمان عن حريز بن عبد الحميد عن أبى خالد عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: ما أدرى ما حنانًا إلا أن يكون يعطف رحمة الله عز وجلّ على عباده.

وأخبرنا عبد الله بن حامد عن حامد بن محمد عن بشر بن موسى عن هوذة عن عوف بلغنى فى قوله الله عزّ وجلّ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال: الحنان: المحبّة ﴿وَزَكَوٰةً﴾ قال ابن عباس يعنى بالزكاة طاعة الله عزّ وجلّ والإخلاص.

وقال الضحاك: هى الفعل الزاكى الصالح، وقال الكلبى: يعنى صدقة تصدق والده بها

على أبويه[١]، وقيل: بركة ونماء وزيادة. وقيل: جعلناه طاهراً من الذنوب.

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: مسلمًا مخلصًا مطيعًا.

أخبرنا سعيد بن محمد وعبد الله بن حامد قالا: أخبرنا على بن عبدان، حدَّثنا أبو الأزهر، حدّثنا ابن القطيعى قال: سمعت الحسن قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده ما من الناس عبد إلاّ قد همّ بخطيئة أو عملها غير يحيى بن زكريا».

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾: باراً بهما لا يعصيهما ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾: قالا: متكبراً.

قال الحلبى: الجبّار الذى يضرب ويقتل على الغضب.

﴿عَصِيًّا﴾: شديد العصيان لربّه.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾: قال الحلبى: سلام له منّا حين ولد وحين يموت وحين يبعث حيًّا.

أخبرنا أبو محمد الأصفهانى وأبو صالح النيسابورى قالا: أنبأنا أبو حاتم التميمى، حدثنا أبو الأزهر السّليطىّ، حدثنا رؤبة، حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن أن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا فقال له عيسى: استغفر لى فأنت خير منى، وقال يحيى: استغفر لى، أنت خير منّى، فقال له عيسى: أنت خير منى، سلّمتُ على نفسى وسلّم الله عليك.



﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي

---

(١) هذا قول خاطئ فالله تعالى يَمُنّ على عباده لا يتصدق عليهم، فالمتصدق يرجو الأجر والجزاء من المتصدق عليه أو من خالقه، وحاشا لله أن يرجو ثوابًا أو جزاءً أو يخشى عقابًا، ولكنه سبحانه يَمُنّ ويُنْعِم ويتفضل ويمنح ويهب عباده ما يشاء من الخير رحمة منه سبحانه وجل شأنه.

وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾: القرآن ﴿مَرْيَمَ﴾ وهى ابنة عمران بن ماثان ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾.

قال قتادة: انفردت. الكلبى: تنحّت وأصله من النبذة بفتح النون وضمّها وهى الناحية، يعنى أنها اعتزلت وجلست ناحية ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: يعنى مشرقة، وهى مكان فى الدار مما يلى المشرق، جلست فيها لأنها كانت فى الشتاء.

قال الحسن: اتّخذت النصارى المشرق قبلة لأنّ مريم انتبذت ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ﴾: فضربت ﴿مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾: قال ابن عباس: ستراً، قال مقاتل: جعلت الجبل بينها وبين قومها، قال عكرمة: إن مريم كانت تكون فى المسجد ما دامت طاهراً، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينا هى تغتسل من الحيض إذ عرض لها جبرئيل فى صورة شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سوىّ الخلْق(١).

فذلك قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾: يعنى جبرئيل (عليه السلام) وقيل: روح عيسى ابن

---

(١) نعوذ بالله من هذا القول وأمثاله ومن تأويل القرآن على غير وجهه أو التغالى أو التفريط فيه ونعوذ بالله أن نقول فيمن اصطفى الله من رسول أو نبى أو صالح ما لا يجوز فى حقه.

مريم إضافة إليه على التخصيص والتفضيل ﴿فَتَمَثَّلَ﴾ : فتصور ﴿لَهَا بَشَرًا﴾ آدميًا ﴿سَوِيًّا﴾ لم ينقص منه شيء وإنما أرسله في صورة البشر لتثبت مريم عليها السلام وتقدر على استماع كلامه، ولو نزّله على صورته التي هو عليها لفزعت ونفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه، فلمّا رأته مريم ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ : مؤمنًا مطيعًا.

قال على بن أبي طالب: علمت أن التقيّ ذو نهية، وقيل: كان تقي رجلاً من أعدل الناس في ذلك الزمان فقالت: إنْ كنت في الصلاح مثل التقي فإني أعوذ بالرحمن منك، كيف يكون رجل أجنبي وامرأة أجنبية في حجاب واحد؟ قال لها جبرئيل: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾ أي يقول لأهب لك، وقرأ أبو عمرو ليهب بالياء ولدًا ﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ : صالحًا تقيًا ﴿قَالَتْ﴾ : مريم ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ : ولم يقربني روح ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فاجرة وإنما حُذفت الهاء منه لأنه مصروف عن وجهه.

قال جبرئيل: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ : كما قلت يا مريم ولكن قال ربّك وقيل هكذا ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ خلق ولد من غير أب ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً﴾ : علامة هذه ﴿لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ لمن تبعه على دينه.

﴿وَكَانَ﴾ : ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ : معدودًا مسطورًا في اللوح المحفوظ.

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ : وذلك أن جبرئيل (عليه السلام) رفع درعها فنفخ في جيبه فحملت حين لبسته، وقيل: نفخ جبرئيل من بعيد نفخًا فوصل الريح إليها فحملت[١]، فلمّا حملت ﴿فَٱنتَبَذَتْ﴾ : خرجت وانفردت ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ : بعيدًا من أهلها من وراء الجبل، ويقال أقصى الدار.

قال الكلبي: قيل لابن عمّ لها يقال له يوسف: إن مريم حملت من الزنا لأن يقتلها الملك وكانت قد سميت له[٢] فأتاها فاحتملها، فهرب بها، فلما كان ببعض الطريق أراد يوسف ابن عمّها قتلها فأتاه جبرئيل عليه السلام فقال له: إنّه من روح القدس فلا تقتلها، فتركها، ولم يقتلها فكان معها. واختلفوا في مدّة حملها ووقت وضعها، فقال بعضهم: كان مقدار حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء، ومنهم من قال: ثمانية أشهر وكان ذلك آية أخرى لأنه لم

---

(١) وهذه التأويلات في حديثها مع الروح لا يصح منه شيء، أما ما نؤمن به هو أن الروح تمثل لها على ما وصف الله، ودار بينهما الحديث على ما ذكر الله، ومن ادعى غير ذلك فيأت بأثارة من علم على صدق قوله، أو من أين عثر على ذلك العلم. اللهم إلاّ ما كتَب بنو إسرائيل في كُتب النصارى من مثل هذه الصفات الشديدة التي لا ترعى حرمة لمسلم أو مسلمة أو نبي من أنبياء الله تعالى.

(٢) أي تكلموا في أن يزوجوها له قبل ذلك الحال.

يعش مولود وضع لثمانية أشهر غير عيسى، وقيل: ستّة أشهر، وقيل: ثلاث ساعات، وقيل: ساعة واحدة.

قال ابن عباس: ما هو إلاّ أن حملت فوضعت ولم يكن بين الحمل والانتباذ إلاّ ساعة؛ لأن الله تعالى لم يذكر بينهما فصلا.

وقال مقاتل بن سليمان: حملته مريم فى ساعة وصوّر فى ساعة ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس من يومها، وهى بنت عشر سنين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى[١].

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾: ألجأها وجاء بها المخاض، وفى قراءة عبد الله آواها المخاض يعنى الحمل، وقيل: الطلق.

﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾: وكانت نخلة يابسة فى الصحراء فى شدّة الشتاء ولم يكن لها سعف.

وروى هلال بن خبّاب عن أبى عبيد الله قال: كان جذعًا يابسًا قد جىء به ليبنى به بيت يقال له بيت لحم.

﴿قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾: قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة: نسيًا بفتح النون، والباقون بالكسر، وهما لغتان مثل: الوَتر والوِتر والحَجر والحِجر والجَسر والجِسر، وهو الشىء المنسى.

قال ابن عباس: يعنى شيئًا متروكًا، وقال قتادة: شيئًا لا يذكر ولا يعرف، وقال عكرمة والضحاك ومجاهد: حيضة ملقاة.

قال الربيع: هو السقط وقال مقاتل: يعنى كالشىء الهالك.

قال عطاء بن أبى مسلم: يعنى لم أُخلق، وقال الفرّاء: هو ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها، وقال أبو عبيد: هو ما نُسى وأغفل من شىء حقير. قال الكميت:

أتجعلنا جسرًا لكلب قضاعة ... ولست بنسى فى معد ولا دخل

أخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا حاجب بن محمد قال: حدَّثنا محمد بن حمّاد قال: حدَّثنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنّها قالت: لوددت أنى إذا متُّ كنت نسيًا منسيًا.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾: قرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة ونافع وابن وثاب والأعمش وحمزة

(١) إن قُبل أى قول قَبل هذا فلا يُقبل هذا حيث إن ابنة العشر سنين لا يظهر عليها كل هذا الصلاح الذى شُهِدَ لها به والورع والتقوى.

والكسائى: ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ بكسر الميم وهو جبرئيل (عليه السلام) ناداها من سفح الجبل، وقرأ الباقون من تحتها بفتح الميم وهو عيسى لما خرج من بطنها ناداها: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ قال الحسن: يعنى عيسى كان والله عبدًا سريًا أى رفيعًا، وقال سائر المفسّرين: هو النهر الصغير، وقيل معنى قوله سبحانه: ﴿تَحۡتَكِ﴾ أنّ الله تعالى جعل النهر تحت أمرها إن أمرته أن يجرى جرى وإن أمرته بالإمساك أمسك، كقوله عزّ وجلّ فيما أخبر عن فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ (الزخرف: ٥١) أى من تحت أمرى[1]، قال ابن عباس: فضرب جبرئيل، ويقال عيسى برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب وجرى وحييت النخلة بعد يبسها فأورقت وأثمرت وأرطبت، وقيل لمريم ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾: أى حرّكى ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾: يقول العرب: هزّه وهزّ به كما يقال: خذ الخطام وخذ بالخطام، وتعلّق بزيد وتعلق زيدًا، وخذ رأسه وخذ برأسه، وامدد الحبل، وامدد بالحبل، والجذع: الغصن، والجذع: النخلة نفسها.

﴿تُسَٰقِطۡ﴾: قرأ البراء بن عازب ويعقوب وأبو حاتم وحمّاد ونصير: يساقط بالياء، وقرأ حفص تُساقط بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف، وقرأ الأعمش وحمزة وأبو عبيد: تَسَّاقَط بفتح التاء والقاف وتشديد السين، فمن أنّث ردّه إلى النخلة ومن ذكّره ردّه الى الجذع والتشديد على الإدغام، والتخفيف على الحذف.

﴿رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾: غصنًا رطبًا ساعة جُنى.

وقال الربيع بن خيثم: ما للنفساء عندى خير من الرطب ولا للمريض من العسل.

وقال عمرو بن ميمون: ما أدرى للمرأة إذا عسُر عليها ولدها خير من الرطب لقول الله سبحانه: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾.

وقالت عائشة رضى الله عنها: إنّ من السنّة أن يمضغ التمر ويدلك به فم المولود، وكذلك كان رسول الله ﷺ يمضع التمر ويحنّك به أولاد الصحابة.

﴿فَكُلِي﴾: يا مريم من الرطب ﴿وَٱشۡرَبِي﴾: من النهر ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾: وطيبى نفسًا ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾: أى صمتًا ولذلك كان بقراءة ابن مسعود وأنس والصوم فى اللغة هو الإمساك عن الطعام والكلام، وفى الآية اختصار ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾: فسألك عن ولدك أولامك عليه ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾: يقال: إنّ الله أمرها أن تقول هذا إشارة ويقال: أمرها أن تقوله نطقًا ثم تمسك عن الكلام بعد هذا.

---

(١) هذا تأويل بعيد وما فائدة أن يجرى النهر أو يقف عن إذنها وما يعود عليها من ذلك، وما قيمته لامرأة فى حالة مخاض لا يهمها إلاّ الخلاص مما هى فيه من عناء الوضع وآلامه.

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ : يقال: كانت تكلّم الملائكة ولا تكلّم الإنس[١].

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ : قال الكلبى: احتمل يوسف النجّار مريم وابنها عيسى (عليه السلام) إلى غار فأدخلهما فيه أربعين يومًا حتى تعالت من نفاسها ثم جاء بها ﴿فَأَتَتْ﴾ : مريم ﴿بِهِ﴾ : بعيسى تحمله بعد أربعين يومًا، فكلّمها عيسى فى الطريق فقال: يا أماه أبشرى فإنى عبد الله ومسيحه، فلمّا دخلت على أهلها ومعها الصبى بكوا وحزنوا، وكانوا أهل بيت صالحين.

﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ : فظيعًا منكرًا عظيمًا، قال أبو عبيدة: كل من عجب أو عمل فهو فرى، قال النبى ﷺ فى عمر رضى الله عنه: «فلم أر عبقريًا يفرى فريه» أى يعمل عمله، قال الراجز:

قد أطعمتنى دقلاً حوليا   مسوسا مدودًا حجريا

قد كنت تفرين به الفريا

أى كنت تكثرين فيه القول وتعظمينه.

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ : قال النبى ﷺ: «إنّما عنوا هارون النبى أخا موسى لأنها كانت من نسله».

وقال قتادة وغيره: كان هارون رجلاً صالحًا من أتقياء بنى إسرائيل وليس بهارون أخى موسى، ذُكر لنا أنه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفًا كلهم يسمى هارون من بنى إسرائيل[٢]، وقال المغيرة بن شعبة: قال لى أهل نجران قوله: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ : وقد كان بين موسى وعيسى من السنين ما قد كان، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمّون بالأنبياء والصالحين من قبلهم، وقال الكلبى: كان هارون أخا مريم من أبيها ليس من أُمها وكان أمثل رجل فى بنى إسرائيل، وقيل: إن هارون كان من أفسق بنى إسرائيل وأظهرهم فسادًا فشبّهوها به، وعلى هذا القول الأُخت ها هنا بمعنى الشبه لا بمعنى النسبة، والعرب تسمى شبه الشىء أُخته وأختاه، قال الله سبحانه: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ (الزخرف: ٤٨) أى شبهها.

---

(١) هذا تأويل بعيد، وإنما المراد هو الامتناع عن كلام الناس وليس له مفهوم مخالف بأنها تكلم غير الناس أو غير البشر.

(٢) هذا قول غاية فى المبالغة.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾: عمران ﴿ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾: حنّة ﴿بَغِيًّا﴾: زانية فمن أين لك هذا الولد؟ ﴿فَأَشَارَتْ﴾: مريم إلى عيسى أن كلّموه فـ ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أى من هو فى المهد وهو حجرها، وقيل: هو المهد بعينه وقد كان حشواً للكلام ولا معنى له كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠) أى أنتم خير أُمة وكقوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٣) أى هل أنا، وكقول الناس إن كنتَ صديقى فصلنى، قال زهير:

أجرت عليه حرّة أرحبيّة وقد كان لون الليل مثل الأرندج

وقال الفرزدق:

فكيف إذا رأيت ديار قومى وجيران لنا كانوا كرام

أى وجيران لنا كرام، قال وهب: فأتاها زكريا عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى: انطق بحجتك إن كنت أُمِرْتَ بها، فقال عند ذلك وهو ابن أربعين يومًا. وقال مقاتل: هو يوم ولد[1].

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: فأقرّ على نفسه بالعبودية لله تعالى أول ما تكلم تكذيبًا للنصارى وإلزامًا للحجة عليهم.

قال عمرو بن ميمون: إن مريم لما أتت قومها بعيسى أخذوا لها الحجارة ليرموها فلمّا تكلّم عيسى تركوها، قالوا: ثم لم يتكلّم عيسى بعد هذا حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان.

روى عن النبى ﷺ أنه قال: خمسة تكلّموا قبل إبان الكلام: شاهد يوسف، وولد ماشطة بنت فرعون، وعيسى، وصاحب جريج، وولد المرأة التى أحرقت فى الأُخدود.

فأمّا شاهد يوسف فقد مرَّ ذكره، وأمّا ولد الماشطة، فأخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا محمد بن خالد بن الحسن قال: حدَّثنا داود بن سليمان قال: حدَّثنا عبد بن حميد قال: حدَّثنا الحسن بن موسى قال: حدَّثنا حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ لمّا أُسرى به مرّت به رائحة طيبة فقال: يا جبرئيل ما هذه الرائحة؟ قال: ماشطة بنت فرعون كانت تمشطها فوقع المشط من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنته: أبى؟ فقالت: لا بل ربّى وربّك وربّ أبيك.

فقالت: أخبر بذلك أبى قالت: نعم، فأخبرته فدعا بها فقال: من ربّك؟ قالت: ربّى وربك فى السماء، فأمر فرعون ببقرة من نحاس فأحميت فدعا بها وبولدها فقالت: إن لى إليك حاجة قال: ما هى؟ قالت: تجمع عظامى وعظام ولدى فتدفنها جميعًا فقال: ذلك لك

(١) هذا هو الصواب حسب سياق القصة فى القرآن، ولا اعتبار لغير ذلك.

علينا من الحق، فأمر بأولادها فألقى واحدًا واحدًا حتى إذا كان آخر ولدها وكان صبيًا مرضعًا فقال: اصبرى يا أُماه فإنّا على الحق، قال: ثم أُلقيت مع ولدها.

وأمّا صاحب جريج فأخبرنا عبد الله بن حامد الأصبهانى قال: أخبرنا محمد بن الحسين الزعفرانى قال: حدَّثنا أحمد بن الخليل قال: حدَّثنا يونس بن محمد المؤدب، قال: حدَّثنا الليث بن سعد عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبى هريرة عن النبى ﷺ، وأخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا محمد بن خالد بن الحسن قال: حدَّثنا راشد بن سليمان قال: حدَّثنا عبد بن حميد قال: حدَّثنا هاشم بن القاسم قال: حدَّثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبى رافع عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: «أنّ رجلاً يقال له جريج كان راهبًا يتعبّد فى صومعته فأتته أُمّه لتسلّم عليه فنادته: يا جريج اطلع إلىّ أنظر إليك، فوافقته يصلّى فقال: أُمّى وصلاتى لربى، أُوثر صلاتى لربّى على أُمّى، فانصرفت ثم جاءت الثانية فنادته: يا جريج كلّمنى فوافقته يصلّى فاختار صلاته، ثمّ جاءته الثالثة فاختار صلاته فقالت: إنّه أبى أن يكلّمنى، اللهمّ لا تمته حتى تنظر فى وجهه زوانى المدينة، قال: ولو دعت عليه أن يفتن لفتن».

قال: وكان راعى ضأن يأوى إلى ديره، فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها فحملت فولدت غلامًا فقيل لها: ممّن هذا؟ فقالت: من صاحب الصومعة، فأتوه وهدّموا صومعته وانطلقوا به إلى ملكهم، فلمّا مرَّ على حوانيت الزوانى خرجن، فتبسم وعرف أنّه دعاء أُمّه، فقالوا: لم يضحك حين مرَّ على الزوانى!؟ فلمّا أُدخل على ملكهم قال جريج: أين الصبى الذى ولدت؟ فأتى به فقال له جريج: مَنْ أبوك؟ قال: أبى فلان الراعى، فأبرأ الله سبحانه جريجًا وأعظمه الناس، وقالوا: نبنى لك ديرك بالذهب والفضة قال: لا ولكن أعيدوه كما كان، ثمّ علاه».

وأمّا ولد صاحبة الأُخدود فسنذكرها فى موضعها إن شاء الله.

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: يعنى يؤتينى الكتاب لفظه ماض ومعناه مستقبل، وقيل: إنه أخبر عمّا كتب له فى اللوح المحفوظ كما سئل النبى ﷺ: متى كُنتَ نبيًا؟ قال: «كُنتُ نبيًا وآدم بين الروح والجسد».

وقيل: معناه علمنى وألهمنى التوراة فى بطن أُمى[١].

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾: معلمًا للخير ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾: وقيل: مباركًا على من اتّبع

(١) هذه مبالغة فى التفسير، حيث لا تكليف له حتى يبلغ الحلم ويكتمل عقله ويوحى إليه، وهذه الأمور من البديهيات.

ديني وأمري ﴿وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا﴾ : أي وجعلني براً ﴿بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

أخبرنا شعيب بن محمد البيهقي وعبد الله بن حامد قالا : أخبرنا مكّي بن عبدان، قال : حدَّثنا أحمد بن الأزهر قال : حدَّثنا روح بن عبادة قال : حدَّثنا سعيد عن قتادة قال : ذكر لنا أن امرأة رأت عيسى ابن مريم يُحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص في آيات أذن الله له فيهنّ فقالت : طوبى للبطن الذي حملك والثدي الذي أُرضعت به، فقال ابن مريم يجيبها : طوبى لمن تلا كتاب الله واتّبع ما فيه ولم يكن جباراً شقيًّا، وكان يقول : سلوني فإنّ قلبي ليّن وإني صغير في نفسي، ممّا أعطاه الله سبحانه من التواضع.

﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ : يعني هو قول الحق، وقيل : رفع على التكرير يعني ذلك عيسى ابن مريم وذلك قول الحق، ، وقيل : هو نعت لعيسى يعني ذلك عيسى ابن مريم كلمة الله، والحق هو الله سبحانه.

وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب قول بالنصب يعني قول الحق : ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكّون ويقولون غير الحق، فقالت اليهود : ساحر كذّاب، وقالت النصارى : ابن الله وثالث ثلاثة، ثمّ كذّبهم فقال : ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أي ما كان من صفته اتّخاذ الولد، وقيل : اللام منقولة يعني ما كان الله ليتخذ من ولد ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ : نزّه نفسه ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ : كان في علمه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ : يعني وقضى أن الله، وقرأ أهل الكوفة إنّ الله بالكسر على الاستئناف ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا﴾ : الذي ذكرت ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ : يعني النصارى، وإنّما سمّوا أحزابًا لأنهم تجزءوا ثلاث فرق في أمر عيسى : النسطورية[١] والملكانية[٢] والماريعقوبية[٣].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ : يعني يوم القيامة ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ : يعني ما أسمعهم وأبصرهم، على التعجّب، وذلك أنهم سمعوا يوم القيامة حين لم ينفعهم السمع، وأبصروا حين لم ينفعهم البصر.

قال الكلبي : لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر حين يقول الله سبحانه وتعالى لعيسى : ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ (المائدة: ١١٦) الآية.

---

(١) هم الذين قالوا عن سيدنا عيسى : هو ابن الله.
(٢) هم الذين قالوا عنه : ثالث ثلاثة.
(٣) هم الذين قالوا عنه : هو الله. لعنهم الله جميعًا بما قالوا.

﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: أى فرغ من الحساب وأُدخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار وذبح الموت ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾: من الدنيا.

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان قال: أخبرنا مكّى بن عبدان قال: حدّثنا عبد الله بن هاشم قال: حدَّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنّة والنار فيقال: يا أهل الجنّة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبّون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت فيؤمر به فيذبح ثمّ ينادى المنادى: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم، ثمَّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده فى الدنيا.

وقال مقاتل: لولا ما قضى الله سبحانه وتعالى من تخليد أهل النار وتعميرهم فيها لماتوا حسرة حين رأوا ذلك.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾: أى نميتهم ويبقى الرب عزّ وجلّ فيرثهم.

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: فنجزيهم بأعمالهم.



﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ

ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا۝ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا۝ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا۝﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ : مؤمنًا موقنًا صدوقًا ﴿نَّبِيًّا﴾ : رسولاً رفيعًا ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ : آزر وهو يعبد الأوثان ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ : صوتًا ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ : شيئًا ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ﴾ لا ينفعك ولا يكفيك ﴿شَيْـًٔا﴾ : يعنى الأصنام ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ : والبيان بعد الموت وأنّ من غيره عذّبه ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ : على دينى ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ : مستويًا.

﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ : لا تطعه، لم تصل له ولم تصم وإنّ من أطاع شيئًا فقد عبده ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ : عاصيًا عاتيًا، وكان بمعنى الحال أى هو، وقيل بمعنى: صار.

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ : أعلم[1] ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ : يصيبك ﴿عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ : لقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ (البقرة: ٢٢٩)، وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا﴾ (البقرة: ٢٢٩)، وقيل: معناه إنّى أخاف أن ينزل عليك عذابًا فى الدنيا ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ : قرينًا فى النار، فقال له أبوه مجيبًا له ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ : تارك عبادتهم وزاهد فيهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ : لئن لم تسكت وترجع عن مقالتك ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ : قال الضحاك ومقاتل والكلبى: لأشتمنّك، وقال ابن عباس: لأضربنّك، وقيل لأُظهرنّ أمرك ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ : قال الحسن وقتادة وعطاء: سالمًا، وقال ابن عباس: واعتزلنى سالم العرض لا يصيبنّك منّى معرّة، وقال الكلبى: اتركنى واجتنبنى طويلاً فلا تكلّمنى، وقال سعيد بن جبير: دهرًا، وقال مجاهد وعكرمة: حينًا، وأصل الحرف المكث، ومنه يقال: تمليت حينًا، والملوان الليل والنهار.

﴿قَالَ﴾ : إبراهيم ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ : أى سلمت منى لا أصيبك بمكروه ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ : قال ابن عباس ومقاتل: لطيفًا رحيمًا، وقيل: بارًا، وقال مجاهد: عوّده الإجابة، وقال الكلبى: عالمًا يستجيب لى إذا دعوته.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ : يعنى وأعتزل ما تعبدون من دون الله، قال مقاتل: كان اعتزاله إياهم أنه فارقهم من كوثى فهاجر منها إلى الأرض المقدسة.

(١) الأصوب أن يقول المفسر: أحذر أو أتخوف أو أشفق عليك من أن يصيبك عذاب الله.

﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ : يعنى عسى أن يجيبنى ولا يخيّبنى، وقيل: معناه عسى أن لا أشقى بدعائه وعبادته كما تشقون أنتم بعبادة الأصنام.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ : ما يدْعُون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ : يعنى الأصنام فذهب مهاجرًا ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ : بعد الهجرة ﴿إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ : يعنى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ : نعمتنا، قال الكلبى: المال والولد، وقيل: النبوّة والكتاب، بيانه قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾ (الزخرف: ٣٢).

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ : يعنى ثناءً حسنًا رفيعًا فى كلّ أهل الأديان، وكلّ أهل دين يتولّونهم ويثنون عليهم.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ : يعنى غير مراء، قال مقاتل: مسلمًا موحدًا، وقرأ أهل الكوفة: ﴿مُخْلَصًا﴾ بفتح اللام يعنى أخلصناه واخترناه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾ : دعوناه وكلّمناه ليلة الجمعة ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ : يعنى يمين موسى، والطور: جبل بين مصر ومدين ﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ : يعنى رفعناه من سماء إلى سماء ومن حجاب إلى حجاب حتى لم يكن بينه وبينه إلاّ حجاب واحد.

وأخبرنا عبد الله بن حامد الوزان قال: أخبرنا مكّى بن عبدان قال: حدَّثنا أبو الأزهر قال: حدَّثنا أسباط عن عطاء بن السائب عن ميسرة ﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ : قال: قرّبه حتى سمع صريف القلم، والنجىّ: المناجى كالجليس والنديم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا﴾ : وذلك حين سأل موسى ربه عزّ وجلّ فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَـٰرُونَ أَخِى﴾ (طه: ٢٩، ٣٠) حين قال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ (الشعراء: ١٣) فأجاب الله دعاءه.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ﴾ : يعنى ابن إبراهيم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ : كان إذا وعد أنجز، وذلك أنّه وعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى يرجع إليه فأقام إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى يرجع إليه الرجل، قاله مقاتل، وقال الكلبى: انتظره حتى حال الحول عليه[1].

﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ : إلى قومه ﴿نَّبِيًّا﴾ : مخبرًا عن الله سبحانه.

---

(١) كلا القولين فيه مبالغة، وليس نبى الله بهذه السذاجة ولا هذا التفريط ولا هذا الإفراط حيث إن وراءه من الالتزامات الشرعية الكثير والكثير خلال الساعة الواحدة فضلا عن اليوم ثم الحول، فارحموا عقول البسطاء من المسلمين يرحمكم الله، وهذا الوصف من الله تعالى لنبيه إسماعيل كوصف سيدنا محمد ﷺ أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم فكل نبى رؤوف رحيم، وكذلك كل نبى صادق الوعد، وكوصفهم للنبى أيضًا بأنه الصادق الأمين، فكل نبى صادق وأمين، وقد تغلب صفة فى حال فيقتضى بها الوصف، والله أعلم.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ : يعنى قومه وكذلك هو فى حرف ابن مسعود ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ : صالحًا زاكيًا.

❖ ❖ ❖

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ﴾ : وهو جدّ أبى نوح، فسمّى إدريس لكثرة درسه الكتب، واسمه أخنوخ وكان خيّاطًا، وهو أوّل من كتب بالقلم وأوّل من خاط الثياب ولبس المخيط وأول من تكلّم فى علم النجوم والحساب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ : يعنى الجنة.

وقال الضحاك: رفع إلى السماء السادسة، وقيل: الرابعة.

أخبرنا عبد الله بن حامد الأصبهانى وشعيب بن محمد البيهقى قالا: أخبرنا مكى بن عبدان التميمى قال: حدثنا أحمد بن الأزهر قال: حدّثنا روح قال: حدّثنا سعيد عن قتادة فى قوله:

﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: حدَّثنا أنس بن مالك بن صعصعة أنّ النبى ﷺ لما عرج به إلى السماء قال: «أتيت على إدريس فى السماء: الرابعة».

وكان سبب رفعه على ما قاله ابن عباس وكعب وغيرهما أنّه سار ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس فقال: يا ربّ أنا مشيت يومًا فكيف بمن يحملها خمسمائة عام فى يوم واحد؟ اللهمّ خفّف عنه من ثقلها واحمل عنه حرّها، فلمّا أصبح الملك وجد من خفّة الشمس وحرّها ما لا يعرف، فقال: يا ربّ خلقتنى لحمل الشمس فما الذى قضيت فيه؟ قال: أما إنّ عبدى إدريس سألنى أن أخفّف عنك حملها وحرّها فأجبته، فقال: يا ربّ اجمع بينى وبينه واجعل بينى وبينه خلّة، فأذن له حتى أتى إدريس وكان يسأله إدريس فكان ممّا سأله أن قال له: أُخبرت أنّك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لى إليه ليؤخر أجلى فأزداد شكرًا وعبادة، فقال الملك: لا يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها قال: قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسى، فقال: نعم أنا مكلّمه لك فما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بنى آدم فهو فاعله لك، ثم حمله ملك الشمس على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثمّ أتى ملك الموت فقال: حاجة لى إليك، فقال: أفعل كلّ شىء أستطيعه قال: صديق لى من بنى آدم تشفّع بى إليك لتؤخّر أجله قال: ليس ذلك إلىّ ولكن إن أحببت أعلمته أجله متى يموت فيقدّم فى نفسه، قال: نعم، فنظر فى ديوانه وأخبر باسمه فقال: إنك كلّمتنى فى إنسان ما أراه يموت أبدًا، قال: وكيف؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس، قال: إنّى أتيتك وتركته هناك، قال: انطلق فما أراك تجده إلاّ وقد مات، فوالله ما بقى من أجل إدريس شىء، فرجع الملك فوجده ميّتًا[1].

وقال وهب: كان يرفع لإدريس كلّ يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض فى زمانه، فعجبت منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت فاستأذن ربّه فى زيارته فأذن له فأتاه فى صورة بنى آدم، وكان إدريس صائمًا يصوم الدهر، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس فقال له الليلة الثالثة: إنى أُريد أن أعلم من أنت، قال: أنا ملك الموت استأذنت ربى أن أصحبك فأذن لى، قال: فلى إليك حاجة، قال: وما هى؟ قال: تقبض روحى، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه أن اقبض روحه، فقبض روحه

---

(١) انظر بالله عليك أليس مثل هذه الحكاية تصلح أن تدخل فى أدب الرحلات للأطفال، غفر الله لمن ذب عن هذا الدين ما ليس منه وجرده لمن يرجو وجه ربه، وحفظ للأنبياء قدسيتهم ومكانتهم التى وضعهم الله فيها بغير إفراط ولا تفريط.

وردّها الله عليه بعد ساعة.

قال له ملك الموت: ما الفائدة في سؤالك قبض الروح؟ قال: لأذوق كرب الموت وغمّته فأكون له أشدّ استعدادًا، ثم قال إدريس له: لي إليك حاجة أُخرى، قال: وما هي؟ قال: ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة وإلى النار، فأذن الله له في رفعه إلى السموات، فلمّا قرب من النار قال: حاجة قال: وما تريد؟ قال: تسأل مالكًا حتى يفتح لي بابها فأردها، ففعل ثمّ قال: فكما أريتني النار فأرني الجنة، فذهب به إلى الجنة فاستفتح ففتحت أبوابها فأدخله الجنّة، ثم قال له ملك الموت: اخرج لتعود إلى مقرّك فتعلّق بشجرة وقال: لا أخرج منها، فبعث الله ملكًا حكمًا بينهما ينظر في قولهما فقال له الملك: ما لك لا تخرج؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥) وقد ذقته، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١) وقد وردتها، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: ٤٨) فلست أخرج، فأوحى الله سبحانه إلى ملك الموت: دخل الجنة وبأمري يخرج، فهو حي هناك فذلك قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾: في السفينة ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ إلى الإسلام ﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ على الأنام ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يعني القرآن ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ جمع باك تقديره من الفعل فعول مثل ساجد وسجود وراكع وركوع وقاعد وقعود، جمع على لفظ المصدر، نزلت في مؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني من بعد النبيّين المذكورين ﴿خَلْفٌ﴾ وهم قوم سوء، والخَلف بالفتح الصالح، والخلف بالجزم الطالح، والخلف بسكون اللام الرديء من كلّ شيء، وهم في هذه الآية اليهود ومن لحق بهم. وقال مجاهد وقتادة: في هذه الأُمة.

﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي تركوا الصلوات المفروضة، قال ابن مسعود وإبراهيم والقاسم بن مخيمرة: أخّروها عن مواقيتها وصلّوها بغير وقتها.

وقال قرّة بن خالد: استبطأ الضحاك مرّة امتراءً في صلاة العصر حتى كادت الشمس تغرب فقرأ هذه الآية: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثمّ قال: والله لئن أدعها أحبّ إليّ من أن أضيّعها، وقرأ الحسن: أضاعوا الصلوات. ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ قال مقاتل: استحلّوا نكاح الأخت من الأب،

---

(١) انظر كيف وصفوا أنبياء الله بالمكر، والملائكة بالجهل، والله بالعجز وخلف الوعد، عافانا الله مما وقعوا فيه ورزقنا حسن الختام بالموت على دين الله الإسلام.

وقال الكلبى: يعنى اللذات وشرب الخمر وغيره، قال مجاهد: هذا عند اقتراب الساعة وذهاب صالحى أُمّة محمد ﷺ، ينزو بعضهم على بعض فى السكك والأزقّة زناة.

وروى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ فى هذه الآية قال: يكون خلف من بعد ستّين سنة ﴿أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ الآية.

وقال علىّ بن أبى طالب: «هذا إذا بنى المشيد وركب المنظور ولبس المشهور»، وقال وهب: فخلف من بعدهم خلف شرّابون للقهوات، لعّابون بالكعبات، ركّابون للشهوات، متبعون للذّات، تاركون للجُمعات، مضيّعون للصلوات، وقال كعب: يظهر فى آخر الزمان أقوام بأيديهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس، ثمَّ قرأ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾.

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾: قال عبد الله بن مسعود: الغىّ نار فى جهنّم، وقال ابن عباس: الغىّ واد فى جهنم وإنّ أودية جهنم لتستعيذ من حرّها، أُعدّ ذلك الوادى للزانى المصرّ عليه، ولشارب الخمر المدمن عليها، ولآكل الربا الذى لا ينزع عنه، ولأهل العقوق، ولشاهد الزور، ولامرأة أدخلت على زوجها ولداً. وقال عطاء: الغىّ واد فى جهنم يسيل قيحًا ودمًا. وقال وهب: الغىّ نهر فى النار بعيد قعره، خبيث طعمه، وقال كعب: هو واد فى جهنم أبعدها قعراً وأشدّها حراً، فيه بئر تسمى البهيم كلّما خبت جهنّم فتح الله تلك البئر فسعّر بها جهنم، وقال الضحاك: خسرانًا وقيل: عذابًا، وقيل: أَلَمًا، وقيل: كفرًا.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝ جَنَّٰتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِالْغَيْبِ﴾: ولم يروها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾: يعنى آتيًا، قال الأعشى:

❖ وساعيت معصيًا إليها وشاتها ❖

أى عاصيًا.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾: فى الجنة ﴿لَغْوًا﴾: باطلاً وفحشًا وفضولاً من الكلام، قال مقاتل: يمينًا كاذبة ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾: استثناء من غير جنسه يعنى بل يسمعون فيها سلامًا أى قولاً يسلمون منه، وقال المفسّرون: يعنى تسليم بعضهم على بعض تسليم الملائكة عليهم ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: يعنى على مقدار طرفى النهار.

أخبرنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن جعفر بقراءتى عليه قال: حدَّثنا أبو الحسن على بن محمد بن سختويه قال: حدَّثنا موسى بن هارون قال: حدَّثنا بشر بن معاذ الضرير قال: حدَّثنا عامذ بن سياق عن يحيى بن أبى كثير قال: كانت العرب فى زماننا من وجد غداءً مع عشاء

فذلك هو الناعم، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قدر ما بين غدائهم وعشائهم.

أخبرنا محمد بن أحمد بن جعفر قال: حدَّثنا على بن محمد بن سختويه قال: حدثنا موسى بن هارون قال: حدَّثنا داود بن رشيد قال: حدَّثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: ليس فى الجنة ليل، هم فى نور أبدًا وإنّما يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب، ومقدار النهار برفع الحجب.

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾: وقرأ يعقوب: نورّث بالتشديد، والاختيار التخفيف؛ لقوله ثُمَّ أَوْرَثْنَا ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا ۝ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية.

أخبرنا عبد الله بن حامد وشعيب بن محمد قالا: أخبرنا مكى بن عبدان قال: حدَّثنا أبو الأزهر قال: حدَّثنا روح بن عبادة، قال: حدَّثنا عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: يا جبرئيل ما يمنعك أن تزورنا أكثر ممّا تزورنا؟ فأنزل الله سبحانه ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

وقال مجاهد: أبطأت الرّسل على رسول الله ﷺ ثم أتاه جبرئيل فقال: ما حبسك؟ فقال: وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصّون أظفاركم ولا تأخذون شواربكم ولا تستاكون؟ فأنزل الله سبحانه ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية.

وقال عكرمة والضّحاك ومقاتل وقتادة والكلبى: احتبس جبرئيل عن النبى ﷺ حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فلم يدر ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبرئيل بجواب ما سألوه فأبطأ عليه قال عكرمة: أربعين يومًا. وقال مجاهد: اثنتى عشرة ليلة وقيل: خمس عشرةَ - فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ مشقة شديدة، وقال المشركون: ودّعه ربّه وقلاه، فلمّا أنزل جبرئيل قال له رسول الله ﷺ: «أبطأت علىَّ حتى ساء ظنّى واشتقت إليك»، فقال له جبرئيل: إنى كنت أشوق إليك ولكنّى عبد مأمور إذا بُعثت نزلت وإذا حُبست احتبستُ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وأنزل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾ (الضحى: ١-٣).

وقيل: هذا إخبار عن أهل الجنة، أنّهم يقولون عند دخولها: ما تتنزل هذه الجنان إلا بأمر الله ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ قال مقاتل: له ما بين أيدينا من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من أمر الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: يعنى بين النفختين، وبينهما أربعون سنة، وقيل: كان له ابتداء خلقنا وله كان منتهى آجالنا، وله كان مدّة حياتنا.

ويقال: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من الثواب والعقاب وأمور الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: ما مضى من أعمالنا فى الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أى ما يكون منّا إلى يوم القيامة. ويقال: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ قبل أن يخلقنا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: بعد أن يميتنا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ما هو فيه من الحياة، ويقال: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ إلى الأرض إذا أردنا النزول إليها ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: أى السماء إذا نزلنا منها ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ يعنى السماء والأرض، يريد أن كل ذلك لله سبحانه فلا تقدر على فعل إلاّ بأمره.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: أى ناسيًا إذا شاء أن يرسل إليك أرسل. ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أى واصبر على عبادته ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ قال ابن عباس: مثلاً، وقال سعيد بن جبير: عدلاً، وقال الكلبى: هل تعلم أحدًا يسمى الله غيره.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: يعنى أُبىّ بن خلف الجمحى ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ﴾: من القبر ﴿حَيًّا﴾: استهزاءً وتكذيبًا منه بالبعث.

قال الله سبحانه ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾: أى يتذكّر ويتفكّر، والأصل يتذكر، وقرأ ابن عامر ونافع وعاصم ويعقوب بالتخفيف، والاختيار التشديد لقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الرعد: ١٩) وأخواتها، يدل عليه قراءة أُبى (يتذكر الإنسان) يعنى أُبىّ بن خلف الجمحى ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾: ثمّ أقسم بنفسه فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لنجمعنّهم فى المعاد يعنى المشركين المنكرين للبعث ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ مع الشياطين يعنى قرناءهم الذين أضلّوهم يُقرن كل كافر مع شيطان فى سلسلة ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾: يعنى فى جهنم ﴿جِثِيًّا﴾: قال ابن عباس: جماعات جماعات، وقال مقاتل: جميعًا وهو على هذا القول جمع جثوة، وقال الحسن والضحاك: جاثية على الركب وهو على هذا التأويل جمع جاث. قال الكميت:

هُمُ تركوا سراتهمُ جثيًا[1] وهم دون السراة مغربلينا

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾: لنخرجنّ من كلّ أُمّة وأهل دين ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ عتوًّا قال ابن عباس: يعنى جرأةً.

وقال مجاهد: فجورًا وكذبًا.

قال مقاتل: علوًّا، وقيل: غلوًّا فى الكفر، وقيل: كفرًا.

وقال الكلبى: قائدهم رأسُهم فى الشرّ.

أخبرنا عبد الله بن حامد قال: حدّثنا محمد بن يعقوب قال: حدَّثنا الحسن بن على قال: حدَّثنا أبو أسامة عن سفيان عن على بن الأرقم عن أبى الأحوص قال: نبدأ بالأكابر فالأكابر

(١) تتمة البيت فى القرطبى: وهم دون السراة مقرَّنينا

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾[١] : أى أحقّ بدخول النار، يقال: صلى يصلى صليًّا مثل لقى يلقى لقيًّا وصلَى يصلى صليًّا مثل مضَى يمضى مضيًّا.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ : قيل: فى الآية إضمار مجازه: والله إنْ منكم يعنى ما منكم من أحد إلا واردها يعنى النار، واختلف الناس فى معنى الورود حسب اختلافهم فى الوعيد، فأمّا الوعيد فإنّهم قالوا: إنّ من دخلها لم يخرج منها، وقالت المرجئة: لا يدخلها مؤمن، واتفقوا على أنّ الورود هو الحضور والمرور، فأمّا أهل السنّة فإنّهم قالوا: يجوز أن يعاقب الله سبحانه العصاة من المؤمنين بالنار ثم يخرجهم منها، وقالوا: معنى الورود: الدخول، واحتجّوا بقول الله سبحانه حكاية عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ

(١) فى المخطوط: (صُليا) وهى قراءة نافع، ورسمت فى مصحف حفص المطبوع والمتداول فلاحظ ذلك لأن على ما كان رُسم فى المخطوط يدور الشرح.

﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾ (هود:٩٨)، وقال في الأصنام وعبدتها ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۞ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ (الأنبياء:٩٨ - ٩٩)، فلو لم يكن الورود في هذه الآيات بمعنى الدخول لوجب أن يدخل الأصنام وعبدتها وفرعون وقومه الجنّة لأن من مرَّ على النار فلا بّد له من الجنّة لأنه ليس بعد الدنيا دار إلاّ الجنة أو النار، والذي يدلّ على أنّ الورود هو الدخول قوله في سياق الآية ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾: والنجاة لا تكون إلا ممّا دخلت فيه وأنت ملقًى فيه، قال الله سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء:٨٨)، واللغة تشهد لهذا، تقول العرب: ورد كتاب فلان، ووردتُ بلد كذا، لا يريدون جزت عليها وإنّما يريدون دخلتها، ودليلنا أيضًا من السنّة:

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد الفقيه قال: حدَّثنا أحمد بن عبد الله المزني قال: حدَّثنا محمد بن نصر بن منصور الصائغ الشيخ الصالح قال: حدَّثنا سليمان بن حرب قال: حدَّثنا أبو صالح غالب بن سليمان عن كثير بن زياد البرساني عن أبي سميّة قال: اختلفنا في الورود هاهنا بالبصرة فقال قوم: لا يدخلها مؤمن، وقال آخرون: يدخلونها جميعًا، فلقيت جابر بن عبد الله فسألته فأهوى بإصبعيه إلى أُذنيه وقال: صمّتا إن لم أكن سمعت النبي ﷺ يقول: «الورود: الدخول، لا يبقى برّ ولا فاجر إلاّ دخلها فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، حتى إنّ للنار - أو جهنم - ضجيجًا لمن تردهم ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

وأخبرنا شعيب بن محمد وعبد الله بن حامد قالا: أخبرنا مكي بن عبدان قال: حدّثنا أحمد بن الأزهر قال: حدَّثنا روح بن عبدان قال: حدّثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار أنّ نافع ابن الأزرق ما رأى ابن عباس يقول: الورود الدخول ويقول نافع ليس الورود الدخول فتلا ابن عباس ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ (الأنبياء:٩٨) أدخل هؤلاء أم لا؟ ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ (هود:٩٨) أدخل هؤلاء أم لا؟ والله أنا وأنت فسنردها، وأنا أرجو أن يخرجني الله وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك.

وبإسناده عن ابن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ما من مسلم يموت له ثلاث من الولد إلاّ لم يلج النار إلاّ تحلّة القَسَم ثم قرأ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

وبإسناده عن روح قال: حدَّثنا شعبة قال: أخبرني إسماعيل السديّ عن مرّة الهمداني عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: يردونها ثم يصدرون عنها بأعمالهم.

وبه عن روح عن إسرائيل عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، تمرّ الطائفة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجوَد الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثمّ يمرّون والملائكة يقولون: اللهمّ سلّم سلّم.

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد الأصبهانى قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الهروى قال: حدَّثنا الحسين بن إدريس قال: حدَّثنا سويد بن نصر بن عبد الله بن المبارك عن سفيان بن عيينة عن رجل عن الحسن قال: قال رجل لأخيه: أى أخ هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنّك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك إذن؟ قال: فما رؤى ضاحكًا حتى مات.

وبإسناده عن عبد الله بن المبارك عن مالك بن معول عن أبى إسحاق عن أبى ميسرة أنّه آوى إلى فراشه فقال: يا ليت أُمى لم تلدنى، فقالت امرأته: يا أبا ميسرة، إنّ الله سبحانه قد أحسن إليك، هداك إلى الإسلام فقال: أجل، ولكنّ الله قد بيّن لنا أنّا واردو النار ولم يبيّن لنا أنا صادرون منها، وأنشد فى معناه:

لقد أتانا ورود النار ضاحية حقًّا يقينًا ولمّا يأتنا الصَّدَرُ

فإن قيل: فخبّرونا عن الأنبياء هل يدخلون النار؟ يقال لهم: لا تطلق هذه اللفظة بالتخصيص فيهم بل نقول: إنّ الخلق جميعًا يردونها.

فإن احتجّوا بقول: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ (القصص: ٢٣) يقال لهم: إنّ موسى لم يمرّ على تلك البئر، وإنّما استقى لابنتى شعيب وروى الأغنام وأقام، وهو معنى الدخول، والعرب تعبر عن الحى وأماكنهم بذكر الماء، فتقول: ماء بنى فلان.

فإن قيل: فكيف يجوز أن يدخلها من قد أخبر الله سبحانه أنّه لا يسمع حسيسها ولا يدخلها؟ قيل: إن الله سبحانه أخبر عن وقت كونهم فى الجنة أنّهم لا يسمعون حسيسها فيجوز أن يكونوا قد سمعوا ذلك قبل دخولهم الجنة لأن الله سبحانه لم يقل: لم يسمعوا حسيسها ويجوز أن لا يسمعوا حسيسها عند دخولهم إياها إذ الله عزّ وجلّ قادر على أن يجعلها عليهم بردًا وسلامًا.

وكذلك تأويل قوله لا يَدْخُلونَ النّارَ أى لا يخلدون فيها، أو لا يتألّمون ويتأذّون بها، يدلّ عليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان قال: أخبرنا مكى بن عبدان قال: حدَّثنا أبو الأزهر قال: حدَّثنا مؤمّل بن إسماعيل عن أبى هلال عن قتادة عن أنس فى قول الله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ (آل عمران: ١٩٢) فقال: إنّك من تخلّد فى النّار فقد أخزيته.

والدليل على أنّ الخلق جميعًا يدخلون النار ثمّ ينجى الله المؤمنين بعضهم سالمين غير آلمين وبعضهم معذّبين معاقبين ثم يدخلهم جميعًا الجنة برحمته، ما أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان قال: أخبرنا حاجب بن محمد قال: حدَّثنا محمد بن حامد الأبيوردى قال: حدَّثنا أبو سعيد عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر عن أُم مبشر عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: إنّى أرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد يشهد بدرًا والحديبية قالت: قلت: يا رسول الله أليس قد قال الله سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؟ قال: أفلم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾؟.

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن شاذان قال: أخبرنا جبغوية بن محمد قال: أخبرنا صالح بن محمد بن عبد العزيز بن المسيّب عن الربيع بن بدر عن أبى مسعود عن العباس عن كعب أنّه قال فى هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: ترفع جهنّم يوم القيامة كأنّها متن إهالة وتستوى أقدام الخلائق عليها، فينادى مناد أن خذى أصحابك ودعى أصحابى، فتخسف بهم وهى أعرف بهم من الوالدة بولدها، ويمرّ أولياء الله عزّ وجلّ بندى ثيابهم، وقال خالد بن معدان: يقول أهل الجنة: ألم يعدنا ربّنا أن نرد النّار؟ فيقال: بلى ولكنّكم مررتم بها وهى خامدة.

وروى خالد بن بن أبى الدريك عن يعلى بن منبّه أن النبى ﷺ قال: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة جزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى».

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال: حدَّثنا محمد بن يعقوب قال: حدَّثنا أحمد بن عبد الحميد الحارثى قال: حدَّثنا عبد الرَّحْمن بن أبى حمّاد عن يحيى بن يمان عن عثمان الأسود عن مجاهد فى قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: من حُمَّ من المسلمين فقد وردها.

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا مكى بن عبدان قال: حدَّثنا عبد الله بن هاشم قال: حدَّثنا يحيى بن سعيد القطان قال: حدَّثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلاّ الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلاّ الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن برّة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرّة».

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾: يعنى اتقوا الشرك وهم المؤمنون، وفى مصحف عبد الله: ثَمّ ننجى بفتح الثاء يعنى هناك ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أى الكافرين ﴿فِيهَا﴾: فى النار ﴿جِثِيًّا﴾: جميعًا، وقيل: على الرُكَب.

أخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا محمد بن خالد بن الحسن قال: حدَّثنا داود بن سليمان قال: حدَّثنا عبد بن حميد قال: حدَّثنا سعيد بن عامر عن حشيش أبى محرز قال: سمعت أبا عمران الجونى يقول: هبك تنجو بعد كم تنجو؟

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: يعنى النضر بن الحارث ومن دونه من قريش ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: يعنى فقراء أصحاب رسول الله ﷺ وكانت فيهم قشافة وفى عيشهم خشونة وفى ثيابهم رثاثة، وكان المشركون يرجّلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون خير ثيابهم فقالوا للمؤمنين: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ منزلاً ومسكنًا، وقرأ أهل مكة مقامًا بالضّم أى إقامة ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾: يعنى مجلسًا، ومثله النادى، ومنه دار الندوة لأنّ المشركين كانوا يجلسون فيها ويتشاورون فى أُمورهم، قال الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ أى متاعًا، وقال ابن عباس: هيئة وقال مقاتل: ثيابًا، ﴿وَرِءْيًا﴾: أى منظرًا، وقرأ أُبى: وزيًا بالزاى وهو الهيئة.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾: أى فليدعه فى طغيانه ويمهله فى كفره ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾: من العذاب ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾: فى الدنيا ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾: يعنى القيامة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾: أهم أم المؤمنون.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾: أى إيمانًا ويقينًا يعنى المؤمنون، يقال: ويزيد الله الذين اهتدوا بالمنسوخ هدى بالناسخ[1] ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾: عاقبة ومرجعًا ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان قال: أخبرنا مكى بن عبدان قال: حدَّثنا عبد الله بن هاشم قال: حدَّثنا أبو معاوية قال: حدَّثنا الأعمش عن مسلم عن مسروق عن خبّاب بن الأرتّ قال: كان لى دَين على العاص فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله حتى تكفر بمحمد قلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإنّى إذا متّ ثم بعثت جئتنى، وسيكون لى ثَمّ مال وولد فأُعطيك، فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

وقال الكلبى ومقاتل: كان خبّاب بن الأرتّ قينًا وكان يعمل للعاص بن وائل السهمى وكان العاص يؤخّر حقّه الشىء بعد الشىء إلى الموسم، فكان حسن الطلب فصاغ له بعض

(١) هذا تأويل غريب لا علاقة له بما جاء به صريح الآية فى ظاهرها وباطنها وهى لا تحتاج وهى نظير قوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾. ولا أدرى ما أدخل الناسخ والمنسوخ هنا هدانا الله وإياكم إلى فهم كتابه.

الحلي فأتاه يتقاضاه الأجر فقال العاص: ما عندي اليوم ما أقضيك، فقال له الخباب: لست مفارقك حتى تقضي، فقال له العاص: يا خباب ما لك؟ ما كنت هكذا وإنك كنت حسن الطلب والمخالطة، فقال خبّاب: ذلك [يوم][1] كنت على دينك فأمّا اليوم فأنا على الإسلام مفارق لدينك فلا، قال: أفلستم تزعمون أنّ في الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا؟ قال الخبّاب: بلى، قال: فأخرني حتى أقضيك في الجنة - استهزاءً - فوالله لئن كان ما تقول حقًا فإني لأفضل فيها نصيبًا منك، فأنزل الله سبحانه ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يعني العاص ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ﴾ لأُعطين ﴿مَالًا وَوَلَدًا ۝ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ قال ابن عباس: أنظر في اللوح المحفوظ؟ وقال مجاهد: أعلم علم الغيب حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ يعني أم قال: لا إله إلا الله، وقال قتادة: يعني عملاً صالحًا قدّمه، وقال الكلبي: عهد إليه أنّه يدخله الجنة. ﴿كَلَّا﴾ ردٌّ عليه يعني لم يفعل ذلك ﴿سَنَكْتُبُ﴾ سنحفظ عليه ﴿مَا يَقُولُ﴾ يعني المال والولد. ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ في الآخرة ليس معه شيء.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾: يعني مشركي قريش ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ يعني الأصنام ﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾: في الآخرة ويتبرءون منهم ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾: أعداء وقيل: أعوانًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾: يعني سلّطناهم عليهم وذلك حين قال لإبليس ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ (الإسراء: ٦٤) الآية.

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: قال ابن عباس: تزعجهم إزعاجًا من الطاعة إلى المعصية. وقال الضحاك: يأمرهم بالمعاصي أمراً، وقال سعيد بن جبير: تغريهم إغراءً وقال مجاهد: تشليهم إشلاءً، وقال الأخفش: توهجهم، وقال المؤرج: تحرّكهم، وقال أبو عبيد: تغويهم وتهيجهم، وقال القتيبي: تخرجهم إلى المعاصي، وأصله الحركة والغليان ومنه الخبر عن النبي ﷺ: «ولجوفه أزيز كأزيز المرجل».

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾: بالعذاب ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال الكلبي: يعني الليالي والأيام والشهور والسنين، وقيل: الأنفاس، يقال: إنّ المأمون كان يقرأ سورة مريم وعنده الفقهاء فلمّا انتهى إلى هذه الآية التفت إلى محمد بن السماك مشيراً عليه بأن يعظه فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: يعني الموحّدين ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾: أي جماعات وهو جمع وافد مثل راكب وركب وصاحب وصحب.

---

(١) زيادة يتطلبها سياق الكلام وجعلتها بين معقوفين.

أخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا عبد الله بن محمد قال: حدَّثنا محمد بن يحيى قال: حدَّثنا وهب بن جرير عن شعبة عن إسماعيل بن أبى خالد عن رجل عن أبى هريرة ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: على الإبل، وقال ابن عباس: ركبانًا يؤتون بنوق عليها رحال الذهب، وأزمّتها الزبرجد فيحملون عليها، وقال علىّ بن أبى طالب: «ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالها ذهب، ونجائب سرجها يواقيت، وإن همّوا بها سارت، وإن همّوا بها طارت».

أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا أحمد بن شاذان عن صعوبة بن محمد، حدَّثنا صالح بن محمد عن إبراهيم بن على عن صالح بن صدقة أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: قلت: يا رسول الله إنى رأيت وفود الملوك فلم أرَ وفدًا إلاّ ركبانًا فما وفد الله؟ قال رسول الله ﷺ: «يا على إذا كان المنصرف من بين يدى الله تلقّت الملائكة المؤمنين بنوق بيض رحالها وأزمّتها الذهب، على كلّ مركب حُلّة لا تساويها الدنيا، فيلبس كلّ مؤمن حلّته ثم يستوون على مراكبهم فتهوى بهم النوق حتى تنتهى بهم إلى الجنة تتلقّاهم الملائكة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٣).

وقال الربيع: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: يفدون إلى ربهم فيكرمون ويعطون ويحيون ويشفعون ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾: يعنى الكافرين ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ قال المفسّرون: عطاشى، مشاة على أرجلهم قد تقطّعت أعناقهم من العطش، والورد جماعة يردون الماء، اسم على لفظ المصدر ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ يعنى: لا إله إلاّ الله، ومن فى موضع النصب على الاستثناء.

قال ابن عباس: يعنى لا يشفع إلاّ من شهد أن لا إله إلاّ الله تبرّأ من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عزّ وجلّ.

وقال بعضهم: معناه إلاّ لمن اتخذ، نظيره ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ (الأنبياء: ٢٨) قال مقاتل: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ يعنى اعتقد بالتوحيد.

وقال قتادة: عمل بطاعة الله، وروى أبو وائل عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدكم أن يتّخذ كلّ صباح ومساء عند الله عهدًا؟ قالوا: كيف ذاك؟ قال: يقول كلّ صباح ومساء: اللهمّ فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا أنى أشهد أن لا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك لك، وأنّ محمّدًا عبدك ورسولك، وأنّك إن تكلنى إلى نفسى تقرّبنى من الشرّ

وتباعدنى من الخير، وأنّى لا أثق إلاّ برحمتك فاجعل لى عندك عهداً توفّينيه يوم القيامة إنّك لا تخلف الميعاد، فإذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين لهم عند الرَّحْمن عهد فيدخلون الجنة».



﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾ : يعنى اليهود والنصارى، ومن زعموا أنّ الملائكة بنات الله، وقرأ حمزة والكسائى وُلداً بضم الواو وجزم اللام وهى أربعة مواضع هاهنا، وحرف فى سورة الزخرف، وحرف فى سورة نوح، والباقون بالفتح، وهما لغتان مثل العرب والعُرب والعجم والعُجم.

قال الشاعر:

فليت فلانًا كان فى بطن أُمّه وليت فلانًا كان وُلْد حمار

مخففًا وقيس بجعل الولد بالضم جمعًا والولد بالفتح واحدًا.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ : قال ابن عباس: منكراً، وقال قتادة ومجاهد: عظيمًا، وقال الضحاك: فظيعًا وقال مقاتل: معناه لقد قلتم قولاً عظيمًا، نظيره قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (الإسراء: ٤٠) والإدّ فى كلام العرب أعظم الدواهى، قال رؤبة:

❖ نطح شيء أد رؤوس الأداد ❖

وفيه ثلاث لغات: إدّ بالكسر وهى قراءة العامة، وأد بالفتح وهى قراءة السلمى، وآد مثل ماد وهى لغة بعض العرب: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾ قرأ نافع والكسائى بالياء لتقديم الفعل، وقرأ الباقون بالتاء لتأنيث السموات ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن منه وقرأ أبو عمرو ينفطرن بالنون من

الانفطار وهو اختيار أبى عبد الله لقوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ (الانفطار: ١)، وقوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ (المزمل: ١٨) الباقون بالتاء من التفطر ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ قال ابن عباس: وقرأ مقاتل: وقطعًا وقال عطاء: هدمًا، أبو عبيد: سقوطًا ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ يعنى لأن دعوا، ومن قرأ جعلوا وقالوا للرحمن ولدًا، قال ابن عباس وأُبى بن كعب: فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلاّ الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم وقالوا الله عزّ وجلّ ولد، ثم نفى سبحانه عن نفسه الولد فقال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ يعنى أنه لا يفعل ذلك ولا يحتاج إليه ولا يوصف به ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ لا ولدًا ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ أنفاسهم وأيامهم فلا يخفى عليه شىء ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ﴾ جائيه ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾: وحيدًا فريدًا بعمله ليس معه شىء من الدنيا.

وأخبرنا عبد الله بن حامد، حدَّثنا محمد بن جعفر بن يزيد، حدَّثنا أحمد بن عبيد المؤدب، حدَّثنا عبد الرزاق، وحدَّثنا عبد الله، نبّأ محمد بن الحسن، نبّأ أحمد بن يوسف السلمى، نبّأ عبد الرزاق، حدَّثنا معمر عن همام بن منبه قال: هذا ما حدَّثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: قال الله عزّ وجلّ: «كذبنى عبدى وشتمنى ولم يكن له ذلك، أما تكذيبه إياى فأن يقول: لن يعيدنا كما بَدأنا، وأمّا شتمه إياى فأن يقول: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أُولد ولم يكن لى كفؤًا أحد».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾: أى حبًا يحبّهم ويحبّبهم إلى عباده المؤمنين من أهل السموات والأرضين.

أخبرنا عبد الخالق بن علىّ بن عبد الخالق أبو القاسم العاصى أنبأ أبو على محمد بن أحمد ابن حمزة عن الحسن الصوّاف ببغداد، قال أبو جعفر الحسن بن على الفارسى، عن إسحاق بن بشر الكوفى، عن خالد بن يزيد الزيات، عن أبى إسحاق السبيعى، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب: يا على قل: «اللهم اجعل لى عندك عهدًا واجعل لى فى صدور المؤمنين مودّة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية».

وأخبرنا عبد الله بن حامد، أنبأ عبدوس بن الحسين، نبّأ أبو حاتم بن أبى أويس، حدَّثنى مالك بن أنس عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنّه قال: إذا أحبّ الله العبد قال لجبرئيل: يا جبرئيل قد أحببت فلانًا فأحبه، فيحبّه جبرائيل ثمّ ينادى فى أهل السماء: إنّ الله عزّ وجلّ قد أحب فلانًا فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء ثم يضع له المحبّة فى

الأرض وإذا أبغض العبد، قال مالك: لا أحسبه إلاّ قال فى البغض مثل ذلك.

وأخبرنا عبد الله بن حامد عن محمد بن يعقوب عن يحيى بن أبى طالب عن عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة فى قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ قال: إى والله ودّ فى قلوب أهل الإيمان، وإن هرم بن حيّان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عزّ وجلّ إلا أقبل الله عزّ وجلّ بقلوب أهل الإيمان إليه حتّى يورثه مودّتهم ورحمتهم.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ﴾: سهّلناه يعنى القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾: يا محمد ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: يعنى المؤمنين ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ قال ابن عباس: شداداً فى الخصومة. وقال الضحاك: جدلاً بالباطل، وقال مقاتل: خصمًا، وقال الحسن: صُمًّا، وقال الربيع: صمّ آذان القلوب وهو جمع ألدّ يقال: رجل ألدّ إذا كان من عادته مخاصمة الناس.

وقال مجاهد: الألدّ الظالم الذى لا يستقيم، وقال أبو عبيد: الألدّ الذى لا يقبل الحق ويدّعى الباطل، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ (البقرة: ٢٠٤).

أخبرنا عبد الله بن حامد، أنبأ أحمد بن محمد بن الحسين بن السوقى، نبّأ أبو الأزهر نبّأ أبو أُسامة عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أبغض الرجال إلى الله تعالى الألدّ الخصم.

ثمّ خوّف أهل مكة فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ﴾ هل ترى، وقيل: تجد ﴿مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وهو الصوت الخفىّ، قال ذو الرمّة:

وقد توجّس ركزًا من سنابكها إذ كان صاحب أرض أو به الموم

قال أبو عبيدة: الركز: الصوت والحركة الذى لا يفهمه كركز الكتيبة، وأنشد بيت لبيد:

وتوجّست ركز الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها



سُورَةُ طه

وهى خمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفًا،
وثلاثمائة وإحدى وأربعون كلمة، ومائة وخمس وثلاثون آية

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد العدل، أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد الرَّحْمن الرازى، قال أبو جعفر محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمى وخشنام بن بشر ابن العنبر قالا: قال إبراهيم بن المنذر الحرامى عن إبراهيم بن المهاجر قال: حدّثنى عمر بن حفص بن ذكوان عن مولى الحرقة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ الله عزّ وجلّ قرأ طه وياسين قبل أن يخلق آدم بألفى عام، فلمّا سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأُمّة تقول عليها هذا، طوبى لألسن تتكلم بهذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا[1].

وأخبرنا أبو عمرو الفراتى قال أبو نصر منصور بن عبد الله السرخسى عن محمد بن الفضل عن إبراهيم بن يوسف عن المسيّب عن زياد عن النبى ﷺ قال: «لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلاّ يس وطه»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

قوله عزّ وجلّ ﴿طه﴾: قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء، وقرأ أهل المدينة والشام بين الكسر والفتح فيهما، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى بكسر الهاء والطاء، وقرأ عاصم وابن كثير بالتفخيم فيهما وكلها لغات صحيحة.

---

(١) كلا الخبرين غير صحيح.

أخبرنا عبد الله بن حامد عن محمد بن عمر بن حميد الأزدى عن محمد بن الجهم السمرى، عن يحيى بن زياد الفرّاء عن عيسى بن الربيع عن زرّ بن حبيش قال: قرأ رجل على عبد الله بن مسعود ﴿طه﴾ فقال له عبد الله: (طه) فقال له الرجل: يا أبا عبد الرَّحْمن أليس أُمر أن يطأ بقدميه [الأرض][1]؟ فقال عبد الله: (طه)، هكذا أقرأني رسول الله ﷺ.

واختلفوا فى تفسيره، فروى عبد الله بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: هو قسم أقسم الله به وهو اسم من أسماء الله، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هو كقولك: افعل، وقال مجاهد والحسن وعطاء والضحاك: معناه يا رجل، وقال عكرمة: هو كقولك: يا رجل بلسان الحبشة يعنى محمداً ﷺ، وقال قتادة: هو يا رجل بالسريانية، وقال سعيد بن جبير: يا رجل بالنبطية. وروى السدّى عن أبى مالك وعكرمة: طه، قالا: يا فلان، وقال الكلبى: هو بلغة علكّ: يا رجل، قال شاعرهم:

إن السفاهة طه فى خلائقكم ... لا قدّس الله أرواح الملاعين

وقال آخر:

هتفت بطه فى القتال فلم يجب ... فخفت لعمرك أن يكون موائلا

مقاتل بن حيان معناه: طئ الأرض بقدميك، يريد فى التهجد، وقال محمد بن كعب القرظى: أقسم الله تعالى بطوله وهدايته، وموضع السير[2] قوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾.

وقال جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه: طه: طهارة أهل بيت محمد ﷺ ثم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٣) وقيل: الطاء شجرة طوبى، والهاء هاوية. والعرب تعبّر ببعض الشىء عن كلّه فكأنّه أقسم بالجنة والنار.

وقال سعيد بن جبير: الطاء افتتاح اسمه طاهر وطيب، والهاء افتتاح اسمه هادى. وقيل: الطاء يا طامع الشفاعة للأُمة، والهاء يا هادى الخلق إلى الملّة.

وقيل: الطاء من الطهارة، والهاء: من الهداية، وكأنه تعالى يقول لنبيّه ﷺ: يا طاهراً من

---

(١) زيادة من تفسير القرطبى.

(٢) وقد أطالت كثير من كتب التفسير فى تفسير هذه الكلمة أو تلك الحروف على وجوه شتى فذهبوا فيها مذاهب بعيدة، ومما قيل فيها: إنها حروف من الحروف التى افتتحت بها السور. كغيرها من الحروف التى لا يعلم سرها إلا الله سبحانه وتعالى، والتى لم يستطع أحد حتى الآن الجزم بحقيقتها.

ومنهم من قال أيضًا: هو اسم من أسماء النبى ﷺ.

وأنا أذهب إلى أنهما حرفان من حروف مفاتيح السور والله تعالى أعلم.

الذنوب، ويا هاديًا إلى علاّم الغيوب، وقيل: الطاء: طبول الغزاة، والهاء: هيبتهم فى قلوب الكفار، قال الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ (آل عمران: ١٥١). وقال: وقذف فى قلوبهم الرعب، وقيل: الطاء: طرب أهل الجنة، والهاء: هوان أهل النار فى النار، وقيل: الطاء تسعة فى حساب الجمل والهاء خمسة، أربعة عشر ومعناها يا أيّها البدر ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾: قال مجاهد: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يربطون الحبال فى صدورهم فى الصلاة بالليل [من طول القيام][1] ثم نسخ ذلك بالفرض، وأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الكلبى: لمّا نزل على رسول الله الوحى بمكّة اجتهد فى العبادة واشتدّت عبادته فجعل يصلّى الليل كله، فكان[2] بعد نزول هذه الآية ينام ويصلّى.

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد الهروى عن بشر بن موسى الحميدى عن سفيان بن زياد ابن علاقة قال: سمعت المغيرة بن شعبة يقول: قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه، وقيل له: يا رسول الله، أليس قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبدًا شكورًا».

وقال مقاتل: قال أبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث للنبىّ ﷺ: إنّك لتسعى بترك ديننا - وذلك لما رأوا من طول عبادته وشدّة اجتهاده - فإننا نراه أنّه ليس لله وأنّك مبعوث إلينا، فقال رسول الله ﷺ: بل بعثت رحمة للعالمين، قالوا: بل أنت شقىّ، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ۝ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ وأصل لكن أنزلناه عظة لمن يخشى.

قال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير مجازه: ما أنزلنا عليك القرآن إلاّ تذكرة لمن يخشى ولئلاً تشقى، تنزيلا بدل من قوله تذكرةً.

وقرأ أبو الشامى: تنزيل بالرفع يعنى هذا: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ يعنى العالية الرفيعة وهو جمع العُليا كصغرى وصغر وكبرى كبر ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾: يعنى التراب الذى تحت الأرضين وهو التراب الندى، تقول العرب: شبر ندىّ وسهر ندىّ وسهر مرعىّ.

قال ابن عباس: الأرض على ظهر النون والنون على بحر وإنّ طرفى النون رأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش على صخرة خضراء، وخضرة السماء منها وهى الصخرة التى ذكرها الله تعالى فى القرآن فى قصة لقمان ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ (لقمان: ١٦) الصخرة على قرن ثور، والثور

---

(١) زيادة من تفسير القرطبى.

(٢) تكرر هذا اللفظ فى المخطوط، فحذفت التكرار.

على الثرى ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ : لا يعلمه إلاّ الله عزّ وجلّ، وذلك الثور فاتح فاهُ فإذا جعل الله عزّ وجلّ البحار بحراً سالت في جوف ذلك الثور، فإذا وقعت في جوفه يبست[1].

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ : تُعلن ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ .

أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا حامد أخبرنا بشر بن موسى عن عبد الله بن صالح العجلي، حدَّثنا أبو الأحوص عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: ﴿وَأَخْفَى﴾ حديث نفسك نفسك.

وأخبرني عبد الله بن حامد عن أبي الطاهر محمد بن الحسن، حدَّثنا إبراهيم بن أبي طالب عن محمد بن النعمان بن مسيل، حدَّثنا يحيى بن أبي روق عن أبيه عن الضحاك عن ابن عباس قال: السرّ ما أسررت في نفسك، وأخفى أخفى من السّر، ما ستحدّث به نفسك، ما لا تعلم أنّك تحدّث به نفسك.

وروى عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير قال: السر ما تُسرّ في نفسك، وأخفى من السرّ ما لم يكن وهو كائن، قال: وأنت تعلم ما تسرّ اليوم ولا تعلم ما تسرّ غداً، والله عزّ وجلّ يعلم ما أسررت اليوم وما تسرّ غداً.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: السرّ ما أسرّ ابن آدم في نفسه، وأخفى ما خفي عن ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة.

وقال مجاهد: السر العمل الذي يسرّون من الناس، وأخفى الوسوسة، وقال زيد بن أسلم: معناه إسرار العباد، وأخفى سرّه فلا يعلم.

وقال الحسن: السرّ ما أسرّ الرجل إلى غيره، وأخفى من ذلك ما أسرّه في نفسه.

ثم وحّد نفسه فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ .



﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ

(١) نسبت كثير من مثل هذه الخزعبلات إلى سيدنا عبد الله بن عباس وهو منها براء حيث عرف عنه أنه ترجمان القرآن وأن السامع إذا سمع أن القول منسوب إلى ابن عباس فكثيراً ما يسلم به ولا يقلب فيه، وهذا القول المذكور هنا وأضرابه مما نسبه أعداء الإسلام إلى ابن عباس ليشوهوا به الفكر الإسلامي ويجهلوا أهله، وأصبح لدى طلاب المراحل الأولى عن تكوين الأرض وأسباب الزلازل والحمد لله أولا وآخراً.

إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾: يا محمد ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾: قال أهل المعانى: هو استفهام إثبات مجازه: أليس قد أتاك؟. وقال بعضهم: معناه: وقد أتاك، وقال: لم يكن قد أتاه ثم أخبره.

﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ ليلة الجمعة، وقال وهب بن منبه: استأذن موسى شعيبًا فى الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله، فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية مثلجة وقد حاد عن الطريق، فقدح موسى النار فلم تور المقدحة، فبينا هو فى مزاولة ذلك أبصر نارًا من بعيد عن يسار الطريق ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾: لامرأته ﴿ٱمْكُثُوٓا۟﴾: أقيموا مكانكم ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾: أبصرت ﴿نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾: يعنى شعلة من النار، والقبس: ما اقتبس من خشب أو قصب أو غير ذلك ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾: يعنى من يدلنى على الطريق ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾: رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنّها نار بيضاء تتّقد، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نورًا عظيمًا فخاف وتعجب، فأُلقيت عليه السكينة ثمّ ﴿نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ وإنّما كرّر الكناية لتوكيد الدلالة وإزالة الشبهة وتحقيق المعرفة، ونظيره قوله للرسول عليه السلام: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ (الحجر: ٨٩).

﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾: وكان السبب فى أمره بخلع نعليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد، قال: أخبرنا أحمد بن يحيى العبيدى قال: حدّثنا أحمد بن نجدة قال: حدّثنا الحمّانى قال: حدّثنا عيسى بن يونس عن حميد بن عبد الله عن عبد الله بن الحارث العنبسى عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال: كانتا من جلد حمار ميّت، وفى بعض الأخبار: غير مدبوغ، وقال الحسن: ما بال خلع النعلين فى الصلاة وصلّى رسول الله ﷺ فى نعليه؟

وإنّما أمر موسى عليه السلام أن يخلع نعليه لأنّهما كانتا من جلد حمار، وقال أبو الأحوص: أتى عبد الله أبا موسى فى داره فأُقيمت الصلاة فقال لعبد الله تقدّم، فقال له عبد الله: تقدم أنت فى دارك فتقدم فنزع نعليه، فقال له عبد الله: أبالواد المقدّس أنت؟.

وقال عكرمة ومجاهد: إنّما قال له: اخلع نعليك كى تمسّ راحة قدميك الأرض الطيّبة وينالك بركتها لأنّها قدّست مرتين.

وقال بعضهم: أُمر بذلك لأنّ الحفوة من أمارات التواضع، وكذلك فعل السّلف حين طافوا بالبيت.

قال سعيد بن جبير: قيل له: طأ الأرض حافيًا، كيما يدخل كعبه من بركة الوادى.

وقال أهل الإشارة: معناه: فرِّغ قلبك من شغل الأهل والولد.

قالوا: وكذلك هو فى التعبير من رأى عليه نعلين تزوّج.

فخلعهما موسى وألقاهما من وراء الوادى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ المطهّر ﴿طُوًى﴾: اسم الوادى، وقال الضحاك: مستدير عميق مثل الطوى فى استدارته، وقيل: أراد به أنك تطوى الوادى، وقيل: هو الليل، يقال: أتيتك طوى من الليل، وقيل طُويت عليه البركة طيًّا، وقرأ عكرمة: طوى بكسر الطاء وهما لغتان، وقرأ أهل الكوفة والشام: طوًى بالتنوين وإلاّ جرًّا لتذكيره وتحقيقه، الباقون من غير تنوين، قال: لأنّه معدول عن طاوٍ أو مطوىّ، فلما كان معدولا عن وجهه كان مصروفًا عن إعرابه مثل عمر وزفر وقثم.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾: اصطفيتك، وقرأ حمزة: وإنّا اخترناك بلفظ الجمع على التعظيم ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ ولا تعبد غيرى ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾.

قال مجاهد: أقم الصلاة لتذكرنى فيها، وقال مقاتل: إذا تركت الصلاة ثمَّ ذكرتها فأقمها، يدلّ عليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا محمد بن يعقوب قال: حدَّثنا إبراهيم بن مرزوق قال: حدَّثنا سعيد بن عامر عن سعيد عن قتادة عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من نسى صلاة أو نام عنها فليصلّها إذا ذكرها، إنّ الله سبحانه يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾.

وقيل: هو مردود على الوحى يعنى فاستمع لما يوحى واستمع لذكرى.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾: فأكاد صلة، كقول الشاعر:

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه ... فما أن يكاد قرن يتنفس

يعنى: فما يتنفس من خوفه، والفائدة فى الإخفاء التخويف والتهويل، قال ابن عباس وأكثر المفسّرين: معناه أكاد أُخفيها من نفسى، وكذلك هو فى مصحف أُبى، وفى مصحف

عبد الله : أكاد أُخفيها من نفسى فكيف يعلمها مخلوق؟.

وفى بعض القراءات فكيف أظهرها لكم؟ قال قطرب : فإن قيل : كيف يخفى الله من نفسه وهو خلق الإخفاء؟ قلنا : إنّ الله سبحانه كلّم العرب بكلامهم الذى يعرفونه ، ألا ترى أنّ الرجل يعذل أخاه فيقول له : أذعت سرّى ، فيقول مجيبًا له معتذرًا إليه : والله لقد كتمت سرّك نفسى فكيف أذعته؟! معناه عندهم : أخفيته الإخفاء كله ، وقال الشاعر :

أيام تُعجبنى هند وأُخبرها ... ما أكتم النّفس من حاجى وإسرارى

فكيف يخبرها ما يكتم عن نفسه؟ فمجاز الآية على هذا.

وقرأ الحسن وسعيد بن جبير : أخفيها بفتح الألف أى أُظهرها وأُبرزها يقال : خفيت الشىء إذا أظهرته ، وأخفيته إذا سترته ، قال امرؤ القيس :

خفاهنّ من إنفاقهنّ كأنّما ... خفاهنّ ودق من سحاب مركّب

أى أخرجهن.

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ : أى تعمل من خير وشرّ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ : يصرفنّك ﴿عَنْهَا﴾ : يعنى عن الإيمان بالساعة ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ : مراده ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ : فتهلك.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ : وكانت لها شعبتان وفى أسفلها سنان واسمها نبعة فى قول مقاتل[1] ﴿أَتَوَكَّأُ﴾ : أعتمد ﴿عَلَيْهَا﴾ : إذا مشيت وإذا أعييت وعند الوثبة والطفرة. ﴿وَأَهُشُّ﴾ : وأخبط ﴿بِهَا﴾ : الشجر ليتناثر ورقها فتأكل غنمى ، وقرأ عكرمة : «وأهس» بالسين يعنى وأزجر بها الغنم ، وذلك أن العرب تقول : هس هس ، وقال النضر بن شميل : سألت الخليل عن قراءة عكرمة فقال : العرب تعاقب بين الشين والسين فى كثير من الكلام ، كقولهم : شمّت العاطس وسمّته ، وشن عليه الدرع وسن ، والروشم والروسم للختم.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ﴾ : حوائج ومنافع ، واحدتها مأرَبة ومَأرُبة بفتح الراء وضمها ﴿أُخْرَىٰ﴾ : ولم يقل أُخَر لرؤوس الآى.

قال ابن عباس : كان موسى عليه السلام يحمل عليها زاده وسقاءه ، فجعلت تماشيه وتحدّثه ، وكان يضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل يومه ، ويركزها فيخرج الماء فإذا رفعها ذهب

(١) هذا قول لا دليل عليه ولا أثارة من علم بل هو قول عار عن الحجج الشرعية فلا يلتفت إليه وقد قيل فى تلك العصا أقاويل كثيرة لا يعتد بها أيضًا ، وإنما هى عصا كأى عصا فى الدنيا كانت وقبل سيدنا موسى وبعده ولا دليل على تسميتها أيضًا.

الماء، كان يردّ بها غنمه، وتقيه الهوام بإذن الله، وإذا ظهر له عدّو حاربت وناضلت عنه، وإذا أراد الإسقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو حتى يستقى، وكان يظهر على شعبتيها كالشمعتين بالليل تضىء له ويهتدى بها، وإذا اشتهى ثمرة من الثمار ركزها في الأرض فتغصّنت غصن تلك الشجر وأورقت ورقها وأثمرت ثمرها، فهذه المآرب.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه: ﴿أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾: تمشى مسرعة على بطنها.

قال ابن عباس: صارت حيّة صفراء لها عرف كعرف الفرس، وجعلت تتورّم حتى صارت ثعبانًا، وهو أكبر ما يكون من الحيّات، فلذلك قال في موضع ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ (القصص: ٣١) وهو أصغر الحيّات، وفي موضع ثعبان وهو أعظمها، فالجانّ عبارة عن ابتداء حالها، والثعبان إخبار عن انتهاء حالها، وقيل: أراد أنّها في عظم الثعبان وسرعة الجانّ، فأمّا الحيّة فإنها تجمع الصغر والكبر والذكر والأُنثى.

قال فرقد السبخي: كان ما بين جنبيها أربعين ذراعًا فلما ظهر في موسى من الخوف ونفار الطبع لمّا رأى من الأعجوبة ﴿قَالَ﴾: الله تعالى له ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾: أي إلى سيرتها وهيئتها ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾: نردّها عصًا كما كانت ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾: يعنى إبطك.

وقال الكلبي: أسفل من الإبط، وقال مجاهد: تحت عضدك، وقال مقاتل: يعنى مع جناحك وهو عضده ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ برص ولا داء ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾: سوى العصا، فأخرج يده من مدرعة له مضرّبة بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يغشى البصر ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾: وكان من حقّه الكبر وإنّما قال: الكبرى وفاقًا لرءوس الآى، وقيل: فيه إضمار معناه ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا﴾: الآية الكبرى دليله قول ابن عباس: كانت يد موسى أكبر آياته.

❖ ❖ ❖

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَـٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ

أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ : عصى وعلا وتكبّر وكفر، فادعه إلى عبادتى، واعلم بأنّى قد ربطت على قلبه، قال: فكيف تأمرنى أن آتيه وقد ربطتَ على قلبه؟ فأتاه ملك من خزّان الريح فقال: انطلق، فإنّا اثنا عشر من خزّان الريح منذ خلقنا الله سبحانه نحن فى هذا فما علمناه، فامض لأمر الله[1]، فقال: موسى عند ذلك ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ : وسّع وليّن قلبى بالإيمان والنبوّة ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ : وسهّل علىّ ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة إلى فرعون ﴿وَٱحْلُلْ﴾ وابسُط وافتح ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ .

قال ابن عباس: كانت فى لسانه رُتّة، وذلك أنّه كان فى حجر فرعون ذات يوم فلطمه لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لآسية امرأته: إنَّ هذا عدوّى، فقالت آسية: على رسلك إنّه صبى ولا يفرّق بين الأشياء ولا يميّز، ثم جاءت بطستين فجعلت فى أحدهما الجمر وفى الأُخرى الجوهر ووضعتهما بين يدى موسى، فأخذ جبرئيل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع

(١) تكررت عبارة: نحن فى هذا فما علمناه، فامض لأمر الله سبحانه. فحذفت التكرار من المتن، وأثبته بهذه الإشارة فى الهامش.

جمرة ووضعها على لسانه فتلك الرتّة[١] ﴿يَفْقَهُواْ قَوْلِى﴾: كى يفهموا كلامى ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾: معينًا وظهيرًا ﴿مِّنْ أَهْلِى﴾: ثمّ بين من هو فقال: ﴿هَـٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾: قوِّ به ظهرى ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾: يعنى النبوّة وتبليغ الرسالة ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾: نصلّى لك ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾.

وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق وابن عامر: «أشدد به أزرى» بفتح الألف «وأُشركه» بضم الألف على الجزاء والجواب حكاية عن موسى أنّى أفعل ذلك، قال الله سبحانه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾: قد أُعطيت مرادك وسؤالك يا موسى.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾: قبل هذا وهى ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾: وحى إلهام مثل وحى النحل ﴿مَا يُوحَىٰٓ ۝ أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾: أن اجعليه ﴿فِى ٱلتَّابُوتِ﴾.

قال مقاتل: والمؤمن الذى صنع التابوت من آل فرعون اسمه خربيل[٢]، وقيل: إنّه كان من بردى[٣] ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾: يعنى نهر النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾: يعنى شاطئ النهر، لفظه أمر ومعناه خبر مجازه: حتى يلقيه اليمّ بالساحل ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾: يعنى فرعون، فاتّخذت تابوتًا وجعلت فيه قطنًا محلوجًا، ووضعت فيه موسى، وقيّرت رأسه وَخصَاصه - يعنى شقوقه - ثمّ ألقته فى النيل، وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون، فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذا بتابوت يجىء به الماء، فلمّا رأى ذلك أمر الغلمان والجوارى بإخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبى من أصبح الناس وجهًا، فلمّا رآه فرعون أحبّه بحيث لم يتمالك، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ قال ابن عباس: أحبّه [الله][٤] وحبّبه إلى خلقه، قال عطيّة العوفى: جعل عليه مُسحة من جمال لا يكاد يصبر عنه

---

(١) هذه الحكاية وأمثالها عن سيدنا موسى عليه السلام ليس عليها دليل صحيح أما عن قوله: ﴿واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى﴾ إنما أراد ما أصاب لهجته أو لكنته من لهجة ولكنة أهل مدين من طول المعاشرة ثم عوده المفاجئ إلى فرعون فقد تكون هناك بعض الكلمات التى قد تجرى على لسانه لا يعرفها فرعون لعدم درايته بلكنة ولهجة أهل مدين المعرفة التامة فاستعان بأخيه فى ذلك حرصًا على أن تكون رسالة تامة البلاغ والله تعالى أعلى وأعلم حيث إن الأنبياء معروف عنهم الكمال الجسمى والعقلى فلا يليق ولا يجوز فى حق سيدنا موسى اللثغ أو ما شابهه مما يشين اللسان، وكذا ما نسبوه إليه من كونه آدر فكل هذا لا يجوز فى حق نبى من أنبياء الله تعالى رزقنا الله وإياكم حسن الاعتقاد وحسن الختام.

(٢) فى القرطبى: حزقيل.

(٣) القول فى اسم صانع التابوت، وفى نوع ما صنع منه التابوت نوع من التنطع المقيت الذى نهى الإسلام عن ارتكابه أو الدخول فيه حيث لا فائدة تعود على العابد المسلم من ذلك إذ العبرة فى حفظ الله لموسى من فرعون بأتفه وأغرب الأسباب.

(٤) لفظ الجلالة أضفته هنا نقلا عن تفسير القرطبى.

مَن رآه، قال قتادة: ملاحة كان فى عينى موسى، ما رآه أحد إلاّ عشقه.

﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾: أى ولتربّى وتغذّى بمرأى ومنظر منّى ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ﴾: واسمها مريم متعرّفة خبره ﴿فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾: يرضعه ويضمّه إليه، وذلك أنّه كان لا يقبل ثدى امرأة، فلمّا قالت له أُخته ذلك قالوا: نعم، فجاءت بالأُم فقبل ثديها فذلك قوله: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ﴾: فرددناك ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾. وفى مصحف أُبى: (فرددناك إلى أمّك)، ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾: بلقائك وبقائك ﴿وَلَا تَحۡزَنَ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا﴾ قال ابن عباس: قتل قبطيًا كافرًا.

قال كعب الأحبار: كان إذ ذاك ابن اثنتى عشرة سنة ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾: أى من غم القتل وكربته ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا﴾: قال ابن عباس: اختبرناك اختباراً. وقال الضحّاك وقتادة ومقاتل، ابتليناك ابتلاءً. وقال مجاهد: أخلصناك إخلاصًا ﴿فَلَبِثۡتَ سِنِينَ﴾: يعنى عشر سنين ﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾: وهى بلدة شعيب على ثلاث مراحل من مصر، قال وهب: لبث عند شعيب ثمان وعشرين سنة، عشر سنين منها مهر امرأته صفيرا بنت شعيب وثمانى عشرة سنة أقام عنده حتى وُلد له[1].

﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾. قال مقاتل: على موعد، قال محمد بن كعب: ثم جئت على القدر الذى قدّرت أنك تجىء.

قال عبد الرَّحْمن بن كيسان: على رأس أربعين سنة وهو القدر الذى يوحى فيه إلى الأنبياء، قال الكلبى: وافق الكلام عند الشجرة.

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾: اخترتك واصطفيتك واختصصتك بالرسالة أو النبوة ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾: اليد والعصا ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ قال ابن عباس: لا تضعفا، وقال السّدّى: لا تفترا، وقال محمد بن كعب: لا تقصّرا.

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس: لا تبطئا، وفى قراءة ابن مسعود: ولا تهنا.

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾: قال ابن عباس: لا تعنّفا فى قولكما ولا تغلّظا، وقال السدّى وعكرمة: كنّياه قولا له: يا أبا العباس، وقيل: يا أبا الوليد.

وقال مقاتل: يعنى بالقول اللين هل لك إلى أن تزكّى وأهديك إلى ربّك فتخشى.

وقال أهل المعانى: معناه الطُفا له فى قولكما فإنّه ربّاك وأحسن تربيتك وله عليك حقّ الأُبوّة فلا تجبهه بمكروه فى أوّل قدومك عليه، يقال: وعده على قبول الإيمان شبابًا لا يهرم وملكًا لا يُنزع عنه إلاّ بالموت، ويبقى عليه لذّة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته.

---

(١) هذا قول لا يقوم على دليل صحيح ولا شاهد له من قرآن ولا سنة، فلا يعتد به.

وقال المفسّرون: وكان هارون يومئذ بمصر فأمر الله عزّ وجلّ أن يأتى هو وهارون، وأوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى فتلقّاه إلى مرحلة وأخبره بما أُوحى إليه فقال له موسى: إن الله سبحانه أمرنى أن آتى فرعون فسألت ربّى عزّ وجلّ أن يجعلك معى. وقوله: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أى يسلم.

فإن قيل: كيف قال: لعله يتذكر أو يخشى وعلمه سابق فى فرعون أنّه لا يتذكّر ولا يخشى؟.

قال الحسين بن الفضل: هو مصروف إلى غير فرعون، ومجازه: لكى يتذكر متذكر أو يخشى خاش إذا رأى برّى وإلطافى بمن خلقته ورزقته، وصححت جسمه وأنعمت عليه ثم ادّعى الربوبية دونى.

وقال أبو بكر محمد بن عمر الورّاق: لعلّ ها هنا من الله واجب، ولقد تذكر فرعون حيث لم تنفعه الذكرى والخشية، وذلك قوله حين ألجمهُ الغرقُ فى البحر: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠).

سمعت أبا القاسم الحسن بن محمد بن حبيب يقول: سمعت أبى يقول سمعت على بن محمد الوراق يقول: سمعت يحيى بن معاذ الرازى يقول ـ وقرأ هذه الآية ـ هذا رفقك بمن يقول: أنا الإله، فكيف رفقك بمن يقول: أنت الإله؟

قال أبو القاسم الحسين فبنيت عليه ألفاظًا اقتديت به فيها فقلت: هذا رفقك بمن ينافيك فكيف رفقك بمن يصافيك؟ هذا رفقك بمن يعاديك فكيف رفقك بمن يواليك؟ هذا رفقك بمن يسبك فكيف رفقك بمن يحبّك؟ هذا رفقك بمن يقول لك ندًا فكيف رفقك بمن يقول فردًا؟ هذا رفقك بمن ضلّ فكيف رفقك بمن ذل هذا رفقك بمن اقترف فكيف رفقك بمن اعترف؟ هذا رفقك بمن أصرّ فكيف رفقك بمن أقرّ؟ هذا رفقك بمن استكبر فكيف رفقك بمن استغفر؟.

﴿قَالَا﴾: يعنى موسى وهارون ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾. قال ابن عباس: يعجّل بالقتل والعقوبة، وقال الضحّاك: تجاوز الحدّ، وقيل: يغلبنا ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾: يتكبّر ويستعصى علينا.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾: بالدفع عنكما ﴿أَسْمَعُ﴾: قولكما وقوله ﴿وَأَرَىٰ﴾: فعله وفعلكما ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾: أى ولا تتعبهم فى العمل، وكانت بنو إسرائيل عند آل فرعون فى عذاب شديد يقتل أبناءهم ويستخدم نساءهم ويكلفهم من العمل واللبن والطين وبناء المدائن ما لا يقدرون عليه.

قال موسى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال فرعون: وما هى؟ قال: فأدخل يده فى جيب قميصه ثمَّ أخرجها فإذا هى بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس، غلبت نور الشمس، فعجب منها ولم يُره العصا إلاّ بعد ذلك يوم الزينة.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾: يعنى من أسلم ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ﴾: أنبياء الله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أعرض عن الإيمان، ورأيت فى بعض التفاسير أنَّ هذه أرجى آية للموحّدين فى القرآن.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾: يعنى يا موسى وهارون فذكر موسى دون هارون لرؤوس الآى.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ قال الحسين وقتادة: أعطى كلّ شىء صلاحه وهداه لما يصلحه.

وقال مجاهد: لم يجعل الإنسان فى خلق البهائم، ولا خلق البهائم فى خلق الإنسان، ولكن خلق كلّ شىء فقدّره تقديراً.

وقال عطيّة: أعطى كلّ شىء خلقه يعنى صورته.

وقال الضحّاك: أعطى كلّ شىء خلقه، يعنى اليد للبطش والرجل للمشى واللسان للنطق والعين للبصر والأُذن للسمع.

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا عبد الرَّحْمن بن محمد الزهرى قال: حدَّثنا أحمد ابن سعيد قال: حدَّثنا سعيد بن سليمان عن إسماعيل بن زكريا عن إسماعيل بن أبى صالح، أعطى كل شىء خلقه ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾: قال: هداه لمعيشته.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ يعنى شكله، للإنسان الزوجة وللبعير الناقة وللفرس الرمكة وللحمار الأتان ثمَّ هدى أى عرَّف وعلّم وألهم كيف يأتى الذكر الأُنثى فى النكاح. وقرأ نصير خلَقه بفتح اللام على الفعل.

﴿قَالَ﴾: فرعون ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾: وإنّما قال هذا فرعون لموسى حين قال موسى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ (غافر: ٣٠، ٣١)، فقال فرعون حينئذ له: فما بال القرون الأولى الّتى ذكرت؟ فقال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ يعنى اللوح المحفوظ، وإنّما ردّ موسى علم ذلك إلى الله سبحانه لأنّه لم يعلم ذلك، وإنما نزلت التوراة عليه بعد هلاك فرعون وقومه ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾: أى لا يخطئ ﴿وَلَا يَنْسَى﴾: فيتذكّر، وقال مجاهد: هما شىء واحد.

❖ ❖ ❖

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَـٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ : قرأه أهل الكوفة بغير ألف أى فرشًا، وقرأ الباقون مهادًا

أى فراشًا واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ (النبأ: ٦) ولم يختلفوا فيه أنّه بالألف.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾: أى أدخل وبيّن وطرّق لكم فيه طرقًا. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾: أصنافًا ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾: مختلف الألوان والطعوم والمنافع من بين أبيض وأحمر وأخضر وأصفر، ووهب كلّ صنف زوجًا، منها للدوابّ ومنها للناس ثمَّ قال: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟﴾ أى ارتعوا ﴿أَنْعَٰمَكُمْ﴾ يقول العرب: رعيتُ الغنم فرَعَتْ لازم ومتعدّ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: الذى ذكرت ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾: أى لذوى العقول، واحدها نُهية، سُمّيت بذلك لأنّها تنهى صاحبها عن القبائح والفضائح وارتكاب المحظورات والمحرّمات.

وقال الضحّاك: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ يعنى الذين ينتهون عمّا حُرِّم عليهم.

وقال قتادة: لذوى الورع، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: لذوى التقى.

﴿مِنْهَا﴾: أى من الأرض ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾: يعنى أباكم آدم. وقال عطاء الخراسانى: إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فيذرّهُ على النطفة، فيخلق من التراب، ومن النطفة فذلك قوله سبحانه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾: أى عند الموت والدفن، وقال علىّ: «إن المؤمن إذا قبض الملك روحه انتهى به إلى السماء، وقال: يا ربِّ عبدك فلان قبضنا نفسه فيقول: ارجعوا فإنّى وعدتهُ: منها خلقناكم وفيها نعيدكم فإنّه يسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين».

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾: مرّة أُخرى بعد الموت عند البعث.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾: يعنى فرعون ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾: يعنى اليد والعصا والآيات التسع ﴿فَكَذَّبَ﴾: بها وزعم أنّها سحر ﴿وَأَبَىٰ﴾: أن يُسلم ﴿قَالَ﴾: فرعون ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾: يعنى مصر ﴿بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾: فاضرب بيننا وبينك أجلاً وميقاتًا ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾: لا نجاوزه ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾: مستويًا. قرأ الحسن وعاصم والأعمش وحمزة سُوى بضم السين، الباقون: بكسر وهما لغتان مثل عُدى وعِدَى، وطُوى وطِوى.

قال قتادة ومقاتل: مكانًا عدلاً بيننا وبينك، وقال ابن عباس: صفًا، وقال الكلبى: يعنى سوى هذا المكان، وقال أبو عبيد والقيسى: وسطًا بين الفريقين، وقال موسى بن جابر الحنفى:

وإن أبانا كان حلّ ببلدة سوًى بين قيس عيلان والفزر

الفزر: سعد بن زيد مناة.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير: يعنى يوم عاشوراء.

وقال مقاتل والكلبى: يوم عيد لهم فى كل سنة يتزيّنون ويجتمعون فيه.

وروى جعفر عن سعيد قال: يوم سوق لهم، وقيل: هو يوم النيروز.

وقرأ الحسن وهبيرة عن حفص يومَ الزينة بنصب الميم أى فى يوم، وقرأ الباقون بالرفع على الابتداء والخبر.

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾: وقت الضحوة، يجتمعون نهاراً جهاراً ليكون أبلغ فى الحجة وأبعد من الريبة. ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾: حِيَله وَسَحَرَتَه﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾: الميعاد.

قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل واحد منهم حبل وعصا، وقيل: كانوا أربعمائة.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾: للسحرة ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم﴾ قرأ أهل الكوفة: فيُسحتكم بضم الياء وكسر الحاء، وقرأ الباقون بفتح الياء والحاء، وهما لغتان: سحتَ وأسحتَ.

قال مقاتل والكلبى: فيهلككم، وقال قتادة: فيستأصلكم، وقال أبو صالح: يذبحكم.

قال الفرزدق:

وعضّ زمان يا بن مروان لم يدع ... من المال إلاّ مسحت أو مجلف

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾: أى المناجاة تكون اسمًا ومصدراً. ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ قرأ عبد الله: وأسرّوا النجوى إن هذان ساحران بفتح الألف وجزم نونه ساحران بغير لام، وقرأ ابن كثير وحفص إن بكسر الألف وجزم النون هذان بالألف على معنى ما هذان إلاّ ساحران، نظيره: قوله: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٦) قال الشاعر:

ثكلتك أُمّك إن قتلت لَمُسلمًا ... حلّت عليك عقوبة الرَّحْمن

يعنى ما قتلت إلاّ مسلمًا، يدل على صحة هذه القراءة قراءة أُبى بن كعب: إن ذان إلاّ ساحران، وقرأ عيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء: إن هذين لساحران بالياء على الأصل، قال أبو عمرو: وإنى لأستحى من الله أن أقرأ إنّ هذان، وقرأ الباقون: إنّ بالتشديد هذان بالألف واختلفوا فيه، فقال قوم بما أخبرنا أبو بكر بن عبدوس وعبد الله بن حامد قالا: حدَّثنا أبو العباس الأصم قال: حدَّثنا محمد بن الجهم السمرى قال: حدَّثنا الفرّاء قال: حدَّثنى أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها سئلت عن قوله سبحانه فى النساء: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ (النساء: ١٦٢)، ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ (النساء: ١٦٢)، وعن قوله فى المائدة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ﴾ (المائدة:٦٩)، وعن قوله: ﴿إِنْ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ﴾ (طه:٦٣) فقالت: يا بن أخى هذا خطأ من الكاتب.

وقال عثمان بن عفان: إنّ فى المصحف لحنًا وستقيمه العرب بألسنتهم.

وقال أبان: قرئت هذه الآية عند عثمان فقال: لحن وخطأ، فقيل له: ألم تغيره فقال: دَعُوه فإنّه لا يُحل حرامًا ولا يحرّم حلالاً، وقال آخرون: هذه لغة الحارث بن كعب وخثعم وزبيد وكنانة يجعلون الاسمين فى رفعهما ونصبهما وخفضهما بالألف.

قال الفرّاء: أنشدنى رجل من بنى الأسد وما رأيت أفصح منه:

وأطرق إطراق الشجاع ولو ترى		مساغًا لناباه الشجـاع لصمما

ويقولون: كسرت يداه، وركبت علاه، بمعنى يديه وعليه. وقال الشاعر:

تزوّد منّا بين أُذناه ضربة		دعته إلى هابى التراب عقيم

أراد بين أُذنيه. وقال آخر:

أى قلوص راكب نراها		طاروا علاهنّ فطر علاها

أى عليهن وعليها. وقال آخر:

إنّ أباهـا وأبا أباهـا		قد بلغا فى المجد غايتاها

وروى أنّ أعرابيًا سأل ابن الزبير شيئًا فحرّمه فقال: لعن الله ناقة حملتنى إليك، فقال ابن الزبير: إن وصاحبها، ويعنى نعم. وقال الشاعر:

بكرتْ علىّ عـواذلى يلحيننى وألومهنّه

ويقلن شيبٌ قد علاك وقد كبرت فقلت إنّه

أى نعم، وقال الفراء: وفيه وجه آخر: وهو أن يقول: وجدت الألف دعامة من هذا على حالها لا تزول فى كل حال، كما قالت العرب: الذى ثمّ زادوا نونًا يدلّ على الجمع فقالوا: الذين فى رفعهم ونصبهم وخفضهم وكنانة تقول: اللّذُونَ.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾: مصر ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ حدّث الشعبى عن علىّ قال: يصرفا وجوه الناس إليهما وهى بالسريانية.

وقال ابن عباس: يعنى بسراة قومكم وأشرافكم.

وقال مقاتل والكلبى: يعنى الأمثل فالأمثل من ذوى الرأى والعقول.

وقال عكرمة: يعنى يذهب أخياركم.

وقال قتادة: طريقتكم المُثلى يومئذ، بنو إسرائيل كانوا أكثر القوم عددًا يومئذ وأموالاً،

فقال عدو الله: إنما يريدان أن يذهبا به لأنفسهما.

وقال الكسائي: بطريقتكم يعني بسنّتكم وهديكم وسمتكم، والمثلى نعت للطريقة، كقولك امرأة كبرى، تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى يعني على الهدى المستقيم. قال الشاعر:

فكم متفرقين منوا بجهل حدى بهم إلى زيغ فزاغوا
وزيغ بهم عن المثلى فتاهوا وأورطهم مع الوصل الرداغُ
فزلّت فيه أقدام فصارت إلى نار غلا منها الدماغ

والمثلى تأنيث الأمثل.

﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾: قرأ أبو عمرو فأجمعوا بوصل الألف وفتح الميم، من الجمع يعني لا تدعوا شيئًا من كيدكم إلا جئتم به، وتصديقه قوله: فجمع كيده، وقرأ الباقون: فأجمعوا بقطع الألف وكسر الميم وله وجهان: أحدهما: بمعنى الجمع، يقول العرب: أجمعت الشيء وجمعته بمعنى واحد. قال أبو ذؤيب:

فكأنّه بالجزع جزع يتابع وأولاه ذي العرجاء تهب مجمّع

والثاني: بمعنى العزم والإحكام، يقول: أجمعت الأمر وأزمعته، وأجمعت على الأمر وأزمعت عليه إذا عزمت عليه. قال الشاعر:

يا ليت شعري والمنى لا تنفع هل أغدونْ يومًا وأمري مجمع

أي محكم، وقد عزم عليه كيدكم ومكركم وسحركم وعلمكم.

﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ قال مقاتل والكلبي: جميعًا، وقيل: صفوفًا، وقال أبو عبيدة: يعني المصلّى والمجتمع، وحُكي عن بعض العرب الفصحاء: ما استطعت أن آتي الصفّ أمس، يعني المصلّى.

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾: يعني فاز من غلب.

﴿قَالُواْ﴾: يعني السحرة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾: عصاك من يدك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾: عصاه ﴿قَالَ﴾: موسى ﴿بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾: وهو جمع العصا ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ قرأ ابن عامر بالتاء، ردّه إلى الحبال والعصيّ، وقرأ الباقون: بالياء ردّوه إلى الكيد أو السحر، ومعناه شبّه إليه ﴿مِن سِحْرِهِمْ﴾ حتى ظنّ ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾: أي تمشي، وذلك أنّهم كانوا لطّخوا حبالهم وعصيّهم بالزئبق، فلمّا أصابها حرّ الشمس ارتهشت واهتزت، فظنّ موسى أنها

تقصده[1] ﴿فَأَوْجَسَ﴾: أى أحسّ ووجد، وقيل: أضمر ﴿فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾: قال مقاتل: إنّما خاف موسى إذا صنع القوم مثل صنيعه أن يشكّوا فيه فلا يتبعوه ويشك فيه من تابعه.

﴿قُلْنَا﴾: لموسى ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الغالب ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾: يعنى العصا ﴿تَلْقَفْ﴾: تلتقم وتلتهم ﴿مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟﴾: يعنى إنّ الذى صنعوا ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾[2]: قرأ أهل الكوفة بكسر السين من غير ألف، وقرأ الباقون: ساحر بالألف على فاعل، واختاره أبو عبيد، قال: لأنَّ إضافة الكيد إلى الرجل أولى من إضافته إلى السّحر وإن كان ذلك لا يمتنع فى العربية.

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾: من الأرض، وقيل: معناه حيث احتال.

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾: يعنى به كقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ (العنكبوت: ٢٦)، ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ لرئيسكم ومعلّمكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: يعنى الرجل اليسرى واليد اليمنى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾: يعنى جذوع النخل، قال سويد بن أبى كاهل:

وهم صلبوا العبدى فى جذع نخلة ... فلا عطست شيبان إلاّ بأجدعا

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾: أنا أو ربّ موسى ﴿وَأَبْقَىٰ ۝ قَالُوا۟﴾: يعنى السحرة ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: قال مقاتل: يعنى اليد والعصا.

وأخبرنا البيهقى والأصفهانى قالا: أخبرنا مكى بن عبدان قال: حدَّثنا أبو الأزهر، قال: حدَّثنا روح قال: حدَّثنا هشام بن أبى عبد الله عن القاسم بن أبى بزة قال: جمع فرعون سبعين ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا حتى جعل موسى يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فأوحى الله سبحانه أن ألق عصاك، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين فاغر فاه، فابتلع حبالهم وعصيّهم وأُلقى السحرة عند ذلك سجداً فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها، عند ذلك قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعنى الجنة

(١) هذا قول ليس عليه دليل من كونهم دهنوا حبالهم وعصيهم بالزئبق بل أعطوا من السحر ما جعلهم يسحرون عيون الناس حتى يروا أن الحبال والعصى تسعى كالحيات، وقد كانوا على علم تام بالسحر والسحر علم من العلوم ولكنه علم فاسد أو مفسد، ولعلمهم هذا الذى أوتوه وأتقنوه آمنوا بأن ما جاء به موسى ليس سحراً وإنما هو حقيقة لا مراء فيها ولا جدال ولا يقدر عليها إلا خالق الأكوان فلهذا كان رد فعلهم هو الإيمان الكامل واليقين القاطع بأن للكون إلهًا أرسل موسى وأخاه وتحملوا فى إرضائه كل ما لقوا صابرين: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

(٢) فى المخطوط: (سحر) ورسمت فى مصحف حفص المطبوع والمتداول، فلاحظ شرح المؤلف مع اعتبار ما غيرت من المتن.

والنار وما رأوا من ثوابهم ودرجاتهم.

قال: وكانت امرأة فرعون تسأل: من غلب؟ فيقال: غلب موسى، فتقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها فأتوها فإنْ هى رجعت عن قولها فهى امرأته، وإنْ هى مضت على قولها فألقوا عليها الصخرة، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأريت بيتها فى الجنة فمضت على قولها وانتزعت روحها، وألقيت على جسد لا روح فيه[1].

﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾: يعنى وعلى الذى خلقنا، وقيل: هو قسم ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾: فاحكم ما أنت حاكم، واصنع ما أنت صانع من القطع والصلب ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يقول: إنّما تملكنا فى الدنيا ليس لك علينا سلطان إلاّ فى الدنيا ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قال مقاتل: كانت السحرة اثنين وسبعين ساحراً، اثنان منهم من القبط وهما رأسا القوم، وسبعون منهم من بنى إسرائيل، وكان فرعون أكره أُولئك السبعين الذى هم من بنى إسرائيل على تعلّم السحر.

وقال عبد العزيز بن أبان: إنّ السحرة قالوا لفرعون: أرنا موسى إذا نام، فأراهم موسى نائمًا وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون: إنّ هذا ليس بسحر، إنّ الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى عليهم إلاّ أن تعملوا فذلك قوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ منك لأنّك فان هالك ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ﴾: فى الآخرة ﴿مُجْرِمًا﴾: مشركًا يعنى بات على الشرك ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾: فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾: حياةً تنفعه.

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾: مات على الإيمان ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾: الرفيعة فى الجنة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾: أى صلح، وقيل: تطهّر من الكفر والمعاصى. وقال الكلبى: يعنى أعطى زكاة نفسه وقال: لا إله إلاّ الله.



﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ

(١) هذه حكاية لا دليل على صحتها من كتاب أو سنة صحيحة وإنما الإيمان يكون بما ورد فى كتاب الله تعالى كما وصف لنا الحادث ولا ننظر إلى ما وراء ذلك.

قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ : أى سر بهم أول الليل من أرض مصر.

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ : يابسًا ليس فيه ماء ولا طين ﴿لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا﴾ : من فرعون خلفك ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ : غرقًا من البحر أمامك، وقرأ حمزة: لا تخف بالجزم على النهى، الباقون: بالألف على النفى، واختاره أبو عبيد لقوله: ولا تخشى رفعًا ودليل قراءة حمزة قوله: «يولوكم الأدبار ثمَّ لا تنصرون» فاستأنف، قال الفرّاء: ولو نوى حمزة بقوله:

ولا تخشى الجزم لكان صوابًا. وقال الشاعر:

هجوت زمانًا ثم ملت معتذراً … من سب زمان لم يهجُو ولم يذع

وقال آخر:

ألم يأتيك والأنباء تنمى … بما لاقت لبون بنى زياد

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾: فلحقهم ﴿فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم﴾: أصابهم ﴿مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾: أى وما هداهم إلى مراشدهم، وهذا جواب قول فرعون: ما أُريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد، فكذّبه الله تعالى فقال: بل أضلهم وما هداهم.

قال وهب: استعار بنو إسرائيل حليًا كثيراً من القبط ثم خرج بهم موسى من أول الليل، وكانوا سبعين ألفًا فأخبر فرعون بذلك فركب فى ستمائة ألف من القبط يقص أثر موسى، فلمّا قربوا قالوا: يا موسى أين نمضى؟ البحر أمامنا وفرعون خلفنا، فضرب موسى بعصاه البحر فانفلق فصار فيه اثنا عشر طريقًا يابسة، لكل سبط طريق، وصار بين كل طريقين كالطود العظيم من الماء، وكانوا يمرّون فيه وكلّهم بنو أعمام فلا يرى هذا السبط ذاك ولا ذاك هذا، فاستوحشوا وخافوا فأوحى الله سبحانه إلى أطواد الماء أن تشبّكى، فصارت شبكات يرى بعضهم بعضًا ويسمع بعضهم كلام بعض.

فلما أتى فرعون الساحل وجد موسى وبنى إسرائيل قد عبروا فقال للقبط: قد سحر البحر فمرّ، فقالوا له: إن كنت ربًا فادخل البحر كما دخل، فجاء جبرئيل على رمكة وديق، وكان فرعون على حصان، وهو الذكر من الأفراس، فأقحم جبرائيل الرمكة فى الماء، فلم يتمالك حصان فرعون واقتحم البحر على أثرها ودخل القبط عن آخرهم، فلما تلججوا أوحى الله سبحانه إلى البحر أن غرّقهم، فعلاهم الماء وغرّقهم.

قال كعب: فعرف السامرى فرس جبرئيل، فحمل من أثره ترابًا وألقاه فى العجل حين اتّخذه[1].

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾: فرعون ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾: وقد مرَّ ذكره ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾: هذه قراءة العامة بالنون والألف على التعظيم، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى: أنجيتكم ووعدتكم ورزقتكم من غير ألف على التوحيد والتفريد ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ حلال ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

(١) هذه الحكاية ليس عليها دليل سواء قول وهب أو قول كعب فلا نعرف من قصة هلاك فرعون غير ما قص الله علينا فى كتابه الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ : قال ابن عباس : ولا تظلموا، وقال مقاتل : ولا تعصوا، وقال الكلبى : ولا تكفروا النعمة، وقيل : ولا تحرموا الحلال، وقيل : ولا تنفقوا فى معصيتى، وقيل : ولا تدّخروا، وقيل : ولا تتقووا بنعمى على معاصىّ.

﴿فَيَحِلَّ﴾ : يجب ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ﴾ : يجب ﴿عَلَيْهِ غَضَبِي﴾ : وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش والكسائى : فيُحل ومن يُحل بضم الحاء واللام أى ينزل.

﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ : هلك وتردّى فى النار ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ : من دينه ﴿وَءَامَنَ﴾ : بربه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ : فيما بينه وبين الله ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾.

قال قتادة وسفيان الثورى : يعنى لزم الإسلام حتى مات عليه.

وقال زيد بن أسلم : تعلّم العلم ليهتدى كيف يعمل.

وقال الشعبى ومقاتل والكلبى : علم أنّ لذلك ثوابًا.

وقال فضيل الناجى وسهل التسترى : أقام على السنّة والجماعة.

وقال الضحاك : يعنى استقام.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾ : يعنى وما حملك على العجلة ﴿عَن قَوْمِكَ﴾ : يعنى عن السبعين الذين اختارهم موسى حين ذهبوا معه إلى الطور ليأخذ التوراة من ربه فلمّا سار عجل موسى شوقًا إلى ربه وخلّف السبعين وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل، فقال الله سبحانه له : وما أعجلك عن قومك ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ : فقال مجيبًا لربّه ﴿هُمْ أُولَاءِ﴾ : يعنى ﴿عَلَىٰ أَثَرِي﴾ : هؤلاء يجيئون ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ : لتزداد رضًا ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا﴾ : ابتلينا ﴿قَوْمَكَ﴾ : الذين خلفتهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا بالعجل غير اثنى عشر ألفا ﴿مِن بَعْدِكَ﴾ : من بعد انطلاقك إلى الجبل ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ : يعنى دعاهم وصرفهم إلى عبادة العجل وحملهم عليها.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ : حزينًا جزعًا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ : صدقًا أنه يعطيكم التوراة ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ : مدة مفارقتى إياكم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ﴾ : يجب ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ : وذلك أنّ الله سبحانه كان قد وقّت لموسى ثلاثين ليلة ثمّ أتمها بعشر، فلمّا مضت الثلاثون قال عدو الله السامرى.

قال سعيد بن جبير : كان السامرى من أهل كرمان فقال لهم : إنما أصابكم هذا عقوبة لكم بالحلى التى معكم، وكانت حليًا استعاروها من القبط، فهلمّوا بها واجمعوها حتى يجىء موسى فيقضى فيه، فجمعت ودفعت إليه فصاغ منها عجلاً فى ثلاثة أيام ثمّ قذف فيه القبضة

التى أخذها من أثر فرس جبرئيل، فقال قوم موسى له: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم: بمَلكنا بفتح الميم، وقرأ حمزة والكسائى وخلف بضم الميم، الباقون: بكسرها، ومعناها بسلطاننا وطاقتنا وقدرتنا.

قال مقاتل: يعنى ونحن نملك أمرنا، وقيل: باختيارنا.

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ﴾: قرأ أهل الحجاز والشام وحفص: حُمّلنا بضم الحاء وتشديد الميم، الباقون: حملنا بفتح الحاء والميم ﴿أَوۡزَارًا﴾: أثقالاً وأحمالاً ﴿مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾: من حلى قوم فرعون ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾: فجمعناها ودفعناها إلى السامرى، فألقاها فى النار لترجع أنت فترى فيه رأيك ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾: ما معه من الحلىّ معَنا كما ألقينا ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلًا جَسَدًا﴾: لا روح فيه، صاغ لهم عجلاً من ذهب مرصّع بالجواهر ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾: صوت، وذلك أنه خار خورة واحدة ثمَّ لم يعد.

قال ابن عباس: أتى هارون على السامرى وهو يصنع العجل فقال: ما تصنع؟ قال: أصنع ما ينفع ولا يضر، فقال: اللهمَّ أعطه ما سألك على ما فى يقينه فلمّا قال: اللهم إنّى أسألك أن يخور؛ فخار فسجد، وإنّما خار لدعوة هارون ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾: أى ضلّ وأخطأ الطريق، وقيل: معناه فتركه هاهنا وخرج يطلبه.

قال الله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ﴾ يعنى أنّه لا يرجع ﴿إِلَيۡهِمۡ قَوۡلًا﴾: أى لا يكلّمهم العجل ولا يجيبهم، وقيل: يعنى لا يعود إلى الخوار والصوت ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا ۝ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ﴾: يعنى من قبل رجوع موسى ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾: ابتليتم بالعجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي﴾: على دينى ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾: فلا تعبدوه ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾: لن نزال على عبادته مقيمين ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ فاعتزلهم هارون فى اثنى عشر ألفًا الذين لم يعبدوا العجل، فلمّا رجع موسى وسمع الصياح والجلبة، وكانوا يرقصون حول العجل، قال السبعون الذين معه: هذا صوت الفتنة، فلمّا رأى هارون أخذ شعره بيمينه ولحيته بشماله وقال له: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾ أخطئوا وأشركوا ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾: يعنى أن تتّبع أمرى ووصيتى ولا صلة، وقيل: معناه: ما منعك من اللحوق بى وإخبارى بضلالتهم فتكون مفارقتك إيّاهم تقريعًا وزجراً لهم عمّا أتوه؟ وقيل: معناه: هلاّ قاتلتهم إذ علمت أنّى لو كنت فيما بينهم لقاتلتهم على كفرهم.

﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾: فقال هارون ﴿يَبۡنَؤُمَّ﴾: قال الكلبى وغيره: كان أخاه لأبيه وأُمّه ولكنّه أراد بقوله: يا ابن أُمّ أن يرقّقه ويستعطفه عليه فيتركه، وقيل: كان أخاه لأُمّه دون أبيه، وقيل:

لأن كون الولد من الأمّ على التحقيق والأب من جهة الحكم ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾: يعنى ذؤابتى وشعر رأسى إذ هما عضوان مصونان يقصدان بالإكرام والإعظام من بين سائر الأعضاء ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾: لو أنكرت عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضًا فتقول: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وأوقعت الفرقة فيما بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾: ولم تحفظ وصيّتى حين قلت لك اخلفنى فى قومى وأصلح.

قال قتادة فى هذه الآية: فذكر الصالحون الفرقة قبلكم، ثمّ أقبل موسى على السامرىّ فقال له: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ أمرك وشأنك، وما الذى حملك على ما صنعت ﴿يَٰسَٰمِرِيُّ﴾.

قال قتادة: كان السامرى عظيمًا من عظماء بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة، ولكنّ عدوّ الله نافق بعدما قطع البحر مع بنى إسرائيل، فلمّا مرّت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم فقالوا: يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فاغتنمها السامرى، فاتّخذ العجل فقال السامرى مجيبًا لموسى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ رأيت ما لم يروا وعرفت ما لم يعرفوا وفطنت ما لم يفطنوا، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى تبصروا بالتاء على الخطاب، الباقون بالياء على الخبر ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾: يعنى فأخذت ترابًا من أثر فرس جبرئيل، وقرأ الحسن فقبصت قبصة بالصاد فيهما، والفرق بينهما أن القبض بجمع الكف والقبص بأطراف الأصابع ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾: فطرحتها فى العجل ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ﴾: زيّنت ﴿لِي نَفْسِي ۝ قَالَ﴾ له موسى ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ما دمت حيًا ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾: لا تخالط أحدًا ولا يخالطك أحد، وأمر موسى بنى إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه.

قال قتادة: إن بقاياهم اليوم يقولون ذلك: لا مساس، ويقال بأنّ موسى همّ بقتل السامرى فقال الله: لا تقتله فإنه سخىّ، وفى بعض الكتب: إنّه إنْ يمسّ واحد من غيرهم أحدًا منهم حُمّ كلاهما فى الوقت.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾: يا سامرى ﴿مَوْعِدًا﴾: لعذابك ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾: قرأ الحسن وقتادة وأبو نهيك وأبو عمرو بكسر اللام بمعنى لن تغيب عنه بل توافيه، وقرأ الباقون بفتح اللام بمعنى لن يخلفكه الله.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾: بزعمك وإلى معبودك ﴿ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾: دمت عليه ﴿عَاكِفًا﴾: مقيمًا تعبده. يقول العرب: ظلتُ أفعل كذا بمعنى ظللت، ومسْت بمعنى مسست، وأحسْت بمعنى أحسست. قال الشاعر:

خلا أنّ العتاق من المطايا أحَسْنَ به فهنّ إليه شوش

أي أحسن.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ : قرأه العامة بضم النون وتشديد الراء بمعنى لنحرقنه بالنار.

قرأ الحسن بضم النون وتخفيف الراء من الإحراق بالنّار، وتصديقه قول ابن عباس: فحرّقه بالنار ثمّ ذرّاه في اليمّ.

وقرأ أبو جعفر وابن محيصن وأشهب العقيلي لنحرقنه بفتح النون وضم الراء خفيفة بمعنى لنبردنّه بالمبارد، يقال: حرقه يحرقه ويحرقه إذا بردّه، ومنه قيل للمبرد المحرق، ودليل هذه القراءة قول السدّي: أخذ موسى العجل فذبحه ثمّ حرقه بالمبرد ثمّ ذرّاه في اليمّ، وفي حرف ابن مسعود: لنذبحنه ثمّ لنحرّقنه ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ : لنذرّينه ﴿فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ : يقال نسف الطعام بالمنسف إذا ذرّاه فطيّر عنه قشوره وترابه.



﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ : **لا العجل** ﴿وَسِعَ﴾ : ملأ ﴿كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ : فعلمه ولم

يضق عليه، يقال: فلان يسع لهذا الأمر إذا أطاقه وقوى عليه ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ : من الأمور ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ : يعنى القرآن ﴿مَّنْ أَعْرَضَ﴾ : أدبر ﴿عَنْهُ﴾ : فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ : إثمًا عظيمًا وحملاً ثقيلاً ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ : لا يكفره شىء.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ۝ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ : قرأهُ العامة بياء مضمومة على غير تسمية الفاعل، وقرأ أبو عمرو بنون مفتوحة لقوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ : والعرب تتشاءم بزرقة العيون. قال الشاعر يهجو رجلاً:

لقد زرقت عيناك يا بن مكعبر   كما كل ضبى من اللؤم أزرق

وقيل: أراد عُميًا ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ : يتسارُّون فيما ﴿بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ : ما مكثتم فى الدنيا، وقيل: فى القبور ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ : أى عشر ليال.

قال الله سبحانه ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ : أى أوفاهم عقلاً وأصوبهم رأيًا ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ : قصر ذلك فى أعينهم فى جنب ما يستقبلهم من أهوال يوم القيامة.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا﴾ : يقلعها من أماكنها ويطرحها فى البحار حتى تستوى.

فإن قيل: ما العلّة الجالبة للفاء التى فى قوله فقل خلافًا لأخواتها فى القرآن؟

فالجواب أنّ تلك أسئلة تقدّمت سألوا عنها رسول الله فجاء الجواب عقيب السؤال، وهذا سؤال لم يسألوه بعد وقد علم الله سبحانه أنّهم سائلوه عنه فأجاب قبل السؤال، ومجازها: وإن سألوك عن الجبال فقل: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ : أرضًا ملساء لا نبات فيها.

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ .

قال ابن عباس: العوج: الأودة، والأمت الروابى والنشوز.

مجاهد: العوج: الانخفاض، والأمت: الارتفاع.

ابن زيد: الأمت: التفاوت والتعادى. ويقول العرب: ملأت القربة ماءً لا أمت فيه أى لا استرخاء.

يمان: الأمت: الشقوق فى الأرض.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ : الذى يدعوهم إلى موقف القيامة وهو إسرافيل ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ : أى لدعاته، وقال أكثر العلماء: هو من المقلوب أى لا حرج لهم عن دعاته، لا يزيغون عنه، بل يتّبعونه سراعًا.

﴿وَخَشَعَتِ﴾ : وسكنت ﴿ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ : فوصف الأصوات بالخشوع والمعنى لأهلها ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ : يعنى وطْء الأقدام ونقلها إلى المحشر، وأصله الصوت الخفى، يقال: همس فلان بحديثه إذا أسرّه وأخفاه، قال الراجز:

وهنّ يمشين بنا هميسًا إن تصدق الطير ننك لميسا

يعنى بالهمس صوت أخفاف الإبل.

وقال مجاهد: هو تخافت الكلام وخفض الصوت.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ : فى الشفاعة ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ : أى ورضى قوله.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ : الكناية مردودة إلى الدين يتّبعون الداعى.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ : لا يدركونه ولا يعلمون ما هو صانع بهم.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ : أى ذلّت وخضعت واستسلمت، ومنه قيل للأسير عان، وقال أُمية بن أبى الصلت:

مليك على عرش السماء مهيمن لعزّته تعنو الوجوه وتسجد

وقال طلق بن حبيب: هو السجود.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾ : خسر ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ : شركًا.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ﴾ : قرأ ابن كثير على النهى جوابًا لقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ : والباقون: فلا يخاف على الخبر. ﴿ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ .

قال ابن عباس: لا يخاف أن يزاد عليه فى سيئاته ولا ينقص من حسناته.

الحسن وأبو العالية: لا ينقص من ثواب حسناته شيئًا ولا يحمل عليه ذنب مسىء.

الضحاك: لا يؤخذ بذنب لم يعمله ولا يبطل حسنة عملها، وأصل الهضم: النقص والكسر يقال: هضمت لك من حقك أى حططتُ، وهضم الطعام، وامرأة هضيم الكشح أى ضامرة البطن.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا﴾ : بيّنا ﴿فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ﴾ : القرآن ﴿ذِكْرًا﴾ : عظة وعبرة. وقال قتادة: جدًّا وورعًا.

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ : قرأ يعقوب بفتح النون والياءين، وقرأ الآخرون: بضم الياء الأولى والأخرى وسكون الوسطى.

قال مجاهد وقتادة: لا تقرئه أصحابك ولا تُمله عليهم حتى يتبيّن لك معانيه، نهى عن

تلاوة الآية التى تنزل عليه وإملائه على أصحابه قبل بيان معناها ، وهذه رواية العوفى عن ابن عباس .

وقال فى سائر الروايات : كان النبى ﷺ إذا نزل جبرئيل بالوحى يقرأه مع جبرئيل ، ولا يفرغ جبرئيل مما يريد من التلاوة حتى يتكلم النبى ﷺ بأوّله حرصًا منه على ما كان ينزل عليه وشفقة على القرآن مخافة الانفلات والنسيان ، فنهاه الله سبحانه عن ذلك وقال : ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أى بقراءة القرآن ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ : من قبل أن يفرغ جبرئيل من تلاوته عليك .

﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ : بالقرآن أى فهمًا ، وقيل : حفظًا ونظيرها قوله : ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ (القيامة : ١٦) الآية .



﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا

مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ : الآية يقول الله سبحانه : وإن يضيّع هؤلاء الذين نصرّف لهم في القرآن الوعيد عهدي ويخالفوا أمري ويتركوا طاعتي فقد فعل ذلك أبوهم آدم (عليه السلام) حيث عهدنا إليه أمرناه وأوصينا إليه ﴿فَنَسِىَ﴾ : فترك الأمر والعهد، نظيره قوله : ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (التوبة : ٦٧) أي تركوا أمر الله فتركهم الله في النار. هذا قول أكثر المفسّرين.

وقال ابن زيد : نسي ما عهد الله إليه في ذلك، ولو كان له عزم ما أطاع عدوّه إبليس الذي حسده وأبى أن يسجد له، وعصى الله الذي كرّمه وشرّفه، وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم في ذلك القول بالنسيان مأخوذ، وإن كان هو اليوم عنّا مرفوعًا.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ : قال ابن عباس : حفظًا لما أُمر به، قتادة ومقاتل : صبرًا، ابن زيد : محافظة على أمر الله وتمسّكًا به، الضحّاك، صريمة أمر، عطية : رأيًا، وقيل : جزمًا، ابن كيسان : إصرارًا وإضمارًا على العود إلى الذنب ثانيًا، وأصل العزم النيّة واعتقاد القلب على الشيء.

قال أبو أمامة : لو أنّ أحلام بني آدم جمعت منذ يوم خلق الله سبحانه آدم إلى يوم تقوم الساعة، ووضعت في كفّة ميزان، ووضع حلم آدم في الكفّة الأُخرى لرجح حلمه بأحلامهم، وقد قال الله تعالى : ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ : أن يسجد له ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ : حوّاء ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (١)﴾ : فتتعب ويكون عيشك من كدّ يمينك، بعرق جبينك.

قال سعيد بن جبير : أُهبط إلى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه فهو شقاؤه الذي قال الله سبحانه، وكان حقّه أن يقول : فيشقيا ولكن غلب المذكّر رجوعًا به إلى

---

(١) سقطت هذه الكلمة سهواً من الناسخ.

آدم لأنّ تعبه أكثر، وقيل: لأجل رؤوس الآى.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا﴾: أى فى الجنة ﴿تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ﴾ قرأ نافع بكسر الألف على الاستئناف، ومثله روى أبو بكر عن عاصم، وقرأ الباقون بالفتح نسقًا على قوله: ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾، ﴿لَا تَظْمَؤُاْ﴾ لا تعطش ﴿فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾: تبرز للشمس فيؤذيك حرّها. قال عمر بن أبى ربيعة:

رأت رجلاً أمّا إذا الشمس عارضت فيضحى وأمـا بالعشى فيحصـر

أخبرنا أبو بكر بن عبدوس المزكّى قال: أخبرنا أبو الحسن المحفوظى قال: حدّثنا عبد الله بن هاشم قال: حدّثنا عبد الرّحْمن بن مهدى عن سفيان عن خصيف عن عكرمة: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾: ولا تصيبك الشمس.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ [1] أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾: يعنى على شجرة إن أكلت منها بقيت خالدًا مخلدًا ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾: لا يبيد ولا يفنى.

﴿فَأَكَلَا﴾: يعنى آدم وحوّاء ﴿مِنْهَا﴾: أى من شجرة المحنة ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾: أى تعدّى إلى ما لم يكن له فعله.

وقال أكثر المفسّرين: فغوى: أى أخطأ وضلّ ولم ينل مراده ممّا أكل.

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾: اختاره واصطفاه ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾: هداه إلى التوبة ووفقه بها.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ يعنى الكتاب والرسول ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

أخبرنا أبو عمرو أحمد بن حمدون بقراءتى عليه قال: أخبرنا محمد بن إسحاق قال: حدّثنا سعيد بن عيسى، قال: حدّثنا فارس بن عمر (ح)[2] وحدّثنا صالح بن محمد: قال: حدّثنا يحيى بن الضريس عن سفيان عن رجل عن الشعبى عن ابن عباس فى قوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قال: أجار الله تعالى تابع القرآن من أن يضلّ فى الدنيا ويشقى فى الآخرة.

وأخبرنى محمد بن القاسم قال: حدّثنا محمد بن يزيد قال: حدّثنا الحسن بن سفيان قال: حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة (ح)[2] وأخبرنى ابن المقرئ قال: حدّثنا محمد بن أحمد بن سنان قال: حدّثنا الحسن بن سفيان قال: حدّثنا ابن أبى شيبة قال: حدّثنا أبو خالد الأحمر عن عمرو

---

(١) فى المخطوط: «على» وهو سهو من الناسخ.

(٢) زيادة حديثية يتطلبها سياق الإسناد.

بن قيس عن عكرمة عن ابن عباس قال: ضمن الله لمن قرأ القرآن لا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثمّ قرأ ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

وبإسناده عن أبي بكر بن أبي شيبة قال: حدّثنا ابن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأنّ الله يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾: يعني عن القرآن فلم يؤمن به ولم يتّبعه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾: ضيقًا يقال: منزل ضنك، يستوي فيه الذكر والأُنثى والواحد والاثنان والجمع، قال عنترة:

❖ وإذا هم نزلوا بضنك فانزل ❖

واختلف المفسّرون في المعيشة الضنك، فأخبرني أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد الحيري قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد المفيد قال: حدّثنا أبو خليفة الفضل بن الحباب قال: حدّثنا أبو الوليد الطيالسي قال: حدّثنا حماد بن سلمة عن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: في قوله سبحانه ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾: قال: «عذاب القبر».

وقال ابن عباس: الشقاء، مجاهد: الضيق، الحسن وابن زيد: الزقوم والغسلين والضريع، قتادة: يعني في النار، عكرمة: الحرام، قيس بن أبي حازم: الرزق في المعصية، الضحاك: الكسب الخبيث، عطيّة عن ابن عباس يقول [الله](1): كلّ مال أعطيته من عبادي قلّ أو كثر لا يتّقيني فيه فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة، وإنّ قومًا ضُلالاً أعرضوا عن الحق وكانوا أُولي سعة من الدنيا مكثرين فكانت معيشته ضنكًا، وذلك أنّهم كانوا يرون أنّ الله ليس بمخلف لهم معائشهم من سوء ظنّهم بالله والتكذيب به، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظنّ به اشتدت عليه معيشته فذلك الضنك أبو سعيد الخدري: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويسلّط عليه في قبره تسعة وتسعون تنّينًا، لكلّ تنّين سبعة رؤوس تنهشه وتخدش لحمه حتى يُبعث، ولو أنّ تنّينًا منها ينفخ في الأرض لم تنبت زرعًا(2)، مقاتل: معيشة سوء لأنّها في معاصي الله. سعيد بن جبير: سلبه القناعة حتى لا يشبع.

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾: قال ابن عباس: أعمى البصر، مجاهد: أعمى عن الحجّة.

---

(١) لفظ الجلالة سقط رسمه من المخطوط.

(٢) هذا قول غير صحيح وليس عليه دليل من قرآن ولا من سنة صحيحة، وهذا من علوم الغيب فلا يقبل فيه إلا ما جاء عن الله سبحانه في كتابه أو بلغنا رسوله في سنته الصحيحة.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ : بعينى ، وقال مجاهد : عالمًا بحجّتى .

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ : يقول كما ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ : فتركتها وأعرضت عنها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ : تُترك فى النار وكذلك أى وكما جزينا من أعرض ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ : أشرك ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ﴾ : ممّا يعذّبهم به فى الدنيا والقبر . ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ : وأدوم وأثبت .

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ : يتبيّن لهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ : ومنازلهم إذا سافروا واتجّروا .

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ : نظم الآية ، ولولا كلمة سبقت من ربّك فى تأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو القيامة[1] ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ : لكان العذاب لازمًا لهم فى الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة .

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ : نسختها آية القتال[2] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ : وصلّ بأمر ربّك ، وقيل : بثناء ربك ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ : يعنى صلاة الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ : يعنى صلاة العصر ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ : صلاة العشاء الآخرة ﴿فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ : صلاة الظهر والمغرب ، وإنّما قال : أطراف لهاتين الصلاتين ؛ لأنّ صلاة الظهر فى آخر الطرف الأول من النهار ، وفى أول الطرف الآخر من النهار فهى فى طرفين منه والطرف الثالث غروب الشمس ، وعند ذلك يصلّى المغرب ، فلذلك قال : أطراف ، ونصب عطفًا على قوله : قبل طلوع الشمس .

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ : بالشفاعة والثواب ، قرأه العامة : بفتح التاء ، ودليله قوله تعالى : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ (الضحى : ٥) وقرأ الكسائى وعاصم برواية أبى بكر بضم التاء .

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية .

قال أبو رافع : أرسلنى رسول الله ﷺ إلى يهودى يستسلفه فأبى أن يعطيه إلا برهن ، فحزن رسول الله ﷺ فأنزل الله سبحانه : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ : ولا تنظر ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ : أى أعطيناهم أصنافًا من نعيم الدنيا ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ : أى زينتها وبهجتها قرأه العامة بجزم الهاء فى قوله : ﴿مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ .

---

(١) حدث ارتباك فى سياق المخطوط ههنا حيث جاء النص على النحو التالى :
ولولا كلمة سبقت من ربك فى تأخير العذاب عنهم : ﴿وأجل مسمى﴾ وهو القيامة ﴿لكان لزامًا﴾ لكان العذاب لازمًا لهم فى الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة ﴿فاصبر . . .﴾ فرتبت على النسق السابق .

(٢) سبق الكلام مرارًا وتكرارًا وسيأتى كذلك فى الخبر عن أمر الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم واعتراض بعض العلماء عليه وقولهم بأن كل آية لها حكمها فى حالها وظروفها .

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ : وإنّما نكلّفك عملاً ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ﴾ : الجميلة المحمودة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أى لأهل التقوى.

قال هشام بن عروة: كان عروة إذا رأى ما عند السلاطين دخل داره وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ثمَّ ينادى: الصلاة الصلاة يرحمكم الله.

وقال مالك بن دينار: كان بكر بن عبد الله المزنى إذا أصاب أهله خصاصة يقول: قوموا فصلّوا، ثم يقول: بهذا أمر الله ورسوله، ويتلو هذه الآية.

﴿وَقَالُوا﴾ : يعنى هؤلاء المشركين ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا﴾ : محمد ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ : كما أتى بها الأنبياء من قبله.

قال الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ : بالتاء، قرأه أهل المدينة والبصرة وبعض قرّاء الكوفة لتأنيث البينة، وقرأ الآخرون بالياء لتقديم الفعل ولأنّ البينة هى البيان فردَّه إلى المعنى ﴿بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ﴾ : الكتب ﴿الْأُولَىٰ﴾ : أى بيان ما فيها يعنى القرآن أقوى دلالة وأوضح آية.

وقال بعض أهل المعانى: يعنى ألم يأتهم بيان ما فى الكتب الأُولى التوراة والإنجيل وغيرهما من أنباء الأُمم التى أهلكناهم لمّا سألوا الآيات، فأتتهم فكفروا بها، كيف عجّلنا لهم العذاب والهلاك بكفرهم بها فما تؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم حال أُولئك.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ : أى من قبل نزول القرآن ومجىء محمد ﷺ.

﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ : هلاّ ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ : يدعونا ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ : بالعذاب ﴿قُلْ﴾ : يا محمد لهم ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ : منتظر دوائر الزمان وما يكون من الحدثان ولمن يكون الفلاح والنصر. ﴿فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ﴾ : إذا جاء أمر الله تعالى وقامت القيامة ﴿مَنْ أَصْحَـٰبُ الصِّرَٰطِ السَّوِىِّ﴾ : المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ : من الضلالة أنحن أم أنتم؟.

❖ ❖ ❖

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

وهى أربعة آلاف وثمانمائة وتسعون حرفًا،
وألف ومائة وثمان وستّون كلمة، ومائة واثنتا عشرة آية

أخبرنا أبو الحسن على بن محمد بن الحسن الجرجانى المقرى قال: حدَّثنا أبو على بن حبش الدينورى المقرى قال: حدَّثنا أبو العباس محمد بن موسى الدقاق الرازى قال: حدّثنا عبد الله ابن روح المدائنى قال: (ح)[1] وحدَّثنا ظفران قال: حدَّثنا ابن أبى داود قال: حدَّثنا محمد بن عاصم قال: حدَّثنا شبابة بن سوار الفزارى قال: حدَّثنا مخلد بن عبد الواحد عن على عن عطاء بن أبى ميمونة عن زر بن حبيش عن أُبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ حاسبه الله حسابًا يسيرًا وصافحه وسلَّم عليه كلّ نبى ذكر اسمه فى القرآن»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ

(١) زيادة تصنيفية حديثية يتطلبها سياق الإسناد.

(٢) إسناده ضعيف، وسبق أن ذكرت مراراً وتكراراً أن معظم الأحاديث الواردة فى الفضائل سواء كانت فى فضائل القرآن أو الصحابة أو البلدان أو الأماكن أو الأوقات هى فى غالبها ضعيفة أو موضوعة فليتنبه لذلك عند قراءتها، والله الموفق والهادى للصواب بإذنه.

وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ : قيل : اللام بمعنى (من) أى اقترب من الناس ﴿حِسَابُهُمْ﴾ : محاسبة الله إيّاهم على أعمالهم ﴿وَهُمْ﴾ : واو الحال ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ : عنه ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ : عن التفكير فيه والتأهّب له ، نزلت فى منكرى البعث .

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ : يعنى ما يحدث الله تعالى من تنزيل شىء من القرآن يذكّرهم ويعظهم به ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ : لا يعتبرون ولا يتعظون .

قال مقاتل : يحدث الله الأمر بعد الأمر ، وقال الحسن بن الفضل : الذكر هاهنا محمد رسول الله ﷺ ، يدلّ عليه قوله فى سياق الآية : ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ولو أراد الذكر بالقرآن لقال : هل هذا إلاّ أساطير الأوّلين ، ودليل هذا التأويل أيضًا قوله : ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (القلم : ٥١ ، ٥٢) : يعنى محمّداً ﷺ .

﴿لَاهِيَةً﴾ : ساهية ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ : معرضة عن ذكر الله ، من قول العرب : لهيت عن الشىء إذا تركته ، ولاهية نعت تقدّم الاسم من حقّ النعت أن يتبع الاسم فى جميع الإعراب ، فإذا تقدّم النعت الاسم فله حالتان : فصل ووصل ، فحاله فى الفصل النصب كقوله سبحانه : ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ (القمر : ٧) و﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ (الإنسان : ١٤) ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ . قال الشاعر :

لعزّة موحشًا طلل ... يلوح كأنّه خلل

أراد : طلل موحش ، وحاله فى الوصل حال ما قبله من الإعراب كقوله تعالى : ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء : ٧٥) قال ذو الرمة :

قد أعسف النازح المجهود معسفة ... فى ظلّ أخضر يدعو هامه البوم

أراد معسفة مجهول وإنّما نصب لانتصاب النازح .

وقال النابغة :

من وحش وجرة موشّى أكارعه ... طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد

أراد أنّ أكارعه موشّية .

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ : كان حقّه وأسرّ لأنه فعل تقدّم الاسم فاختلف النحاة فى وجهه ، فقال الفرّاء : الذين ظلموا فى محلّ الخفض على أنّه تابع للناس فى قوله : ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ .

وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير أراد والذين ظلموا أسرّوا النجوى .

وقال قطرب: وهذا سائغ فى كلام العرب وحكى عن بعضهم أنه قال: سمعت بعض العرب يقول: أكلونى البراغيث قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ (المائدة: ٧١). وقال الشاعر:

بك نال النصال دون المساعى اهتـدين النبـال للأغراض

ويحتمل أن يكون محل الذين رفعًا على الابتداء، ويكون معناه وأسروا النّجوى، ثمّ قال هم الذين ظلموا.

﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾: أنّه سحر ﴿قَالَ رَبِّي﴾: قرأ أكثر أهل الكوفة (قال) على الخبر عن محمد ﷺ، وقرأ الباقون «قل» على الأمر له ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ﴾: لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾: بأفعالهم ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾: أى أباطيلها وأهاويلها ﴿بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾: يعنى أنّ المشركين اقتسموا القول فيه: فقال بعضهم: أضغاث أحلام، وقال بعضهم: بل افتراه، وقال بعضهم: بل محمد شاعر، وهذا الذى جاءكم به شعر، لأنَّ بل تأتى لتدارك شىء ونفى آخر.

﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ﴾: إن كان صادقًا ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾: من الرسل بالآيات.

قال الله سبحانه مجيبًا لهم ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾: أهل قرية أتتها الآيات فأهلكناهم ﴿أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾: إن جاءتهم آية..

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾: وهذا جواب لقولهم ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾: أى التوراة والإنجيل يعنى علماء أهل الكتاب ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: وقال ابن زيد: أراد بالذكر القرآن يعنى فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن، قال جابر الجعفى: لما نزلت هذه الآية قال علىّ: نحن أهل الذكر.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ﴾: يعنى الرسل الأولين ﴿جَسَدًا﴾: قال الفرّاء: لم يقل أجسادًا لأنّه اسم الجنس ﴿لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾: يقول: لم نجعلهم ملائكة، بل جعلناهم بشرًا محتاجين إلى الطعام، وهذا جواب لقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ (الفرقان: ٧) ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾: فى الدنيا ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾: الذى وعدناهم هلاك أعدائهم ومخالفيهم وإنجائهم ومتابعيهم ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾: المشركين.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: قال مجاهد: حديثكم، وقيل: شرفكم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ : أي أهلكنا، والقصم: الكسر يقال: قصمت ظهر فلان، وانقصمت سنة إذا انكسرت.

﴿وَأَنشَأْنَا﴾ : وأحدثنا ﴿بَعْدَهَا﴾ : بعد إهلاك أهلها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ : رأوا ﴿بَأْسَنَآ﴾ : عذابنا ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ : يسرعون هاربين، يقال منه: ركض فلان فرسه إذا كدّه بالرجل، وأصله التحريك.

﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ : نُعّمتم فيه ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ : عن نبيّكم، مجاهد: لعلكم تفقهون بالمسألة، قتادة: لعلّكم تسألون من دنياكم شيئًا استهزاءً بهم، نزلت هذه الآيات في أهل حصورا وهي قرية باليمن، وكان أهلها العرب فبعث الله إليهم نبيًا يدعوهم إلى الله سبحانه فكذّبوه وقتلوه، فسلّط الله عليهم بخت نصّر حتى قتلهم وسباهم

ونكّل بهم، فلمّا استحرّ فيهم القتل ندموا وهربوا وانهزموا، فقالت الملائكة لهم على طريق الاستهزاء ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾: إلى مساكنكم وأموالكم، فأتبعهم بخت نصّر وأخذتهم السيوف، ونادى مناد من جوّ السّماء: يالثارات الأنبياء، فلمّا رأوا ذلك أقرّوا بالذنوب حين لم ينفعهم فقالوا: ﴿قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ قولهم وهجّيرهم ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا﴾: بالسيوف كما يحصد الزرع ﴿خَـٰمِدِينَ﴾: ميّتين.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾: عبثًا وباطلاً ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾: قال قتادة: اللهو بلغة أهل اليمن المرأة.

وقال عقبة بن أبى جسرة: شهدت الحسن بمكة وجاءه طاوس وعطاء ومجاهد فسألوه عن هذه الآية، فقال الحسن: اللهو: المرأة. وقال ابن عباس: الولد.

﴿لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾: من عندنا وما اتّخذت نساءً وولدًا من أهل الأرض، نزلت فى الذين قالوا اتّخذ الله ولدًا.

﴿إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ﴾: نأتى ونرمى وننزل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالإيمان ﴿عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ﴾: الكفر ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾: فيهلكه، وأصل الدمغ شجّ الرأس حتى يبلغ الدماغ ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾: ذاهب وهالك.

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾: يا معشر الكفّار ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾: لله بما لا يليق به من الصاحبة والولد. وقال مجاهد: ممّا تكذبون، ونظيره قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ (الأنعام: ١٣٩) أى تكذيبهم.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: عبدًا وملكًا ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾: يعنى الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

قال ابن عباس: لا يستنكفون، مجاهد: لا يحسرون، قتادة ومقاتل والسدّى: لا يعيون، الوالبى عن ابن عباس: لا يرجعون، ابن زيد: لا يملّون.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾: لا يضعفون ولا يسأمون، قد أُلهموا التسبيح كما تلهمون النّفس.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: يعنى الأصنام ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾: يحيون الأموات ويخلقون الخلق.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾: أى فى السماء والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: غير الله ﴿لَفَسَدَتَا﴾: وهلك من فيهما.

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾: لأنه الرب ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾:

عما لا يعلمون لأنهم عبيده.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾: على ذلك، ثمَّ قال مستأنفًا ﴿هَذَا﴾: يعنى القرآن ﴿ذِكْرُ﴾: خبر ﴿مَن مَّعِيَ﴾: بيان الحدود والأحكام والثواب والعقاب ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾: من الأمم السالفة وما فعل الله بهم فى الدنيا وما هو فاعل بهم فى الآخرة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾: عن القرآن.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾: قرأ أكثر أهل الكوفة بالنون وكسر الحاء على التعظيم لقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ وقرأ الباقون بالياء وفتح الحاء على الفعل المجهول.

﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾: نزلت فى خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾: يعنى الملائكة ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ﴾: لا يتقدّمونه ﴿بِالْقَوْلِ﴾: ولا يتكلّمون إلاّ بما يأمرهم به.

﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾.

قال ابن عباس: هم أهل شهادة أن لا إله إلاّ الله، وقال مجاهد: لمن رضى الله عنه، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾: خائفون ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ﴾: قال قتادة: عنى بهذه الآية إبليس لعنه الله حيث ادّعى الشركة، ودعا إلى عبادة نفسه وأمر بطاعته، قال: لأنه لم يقل أحد من الملائكة إنّى إله من دون الله.

﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾: الواضعين الإلهية والعبادة فى غير موضعها.



﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا

تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾: قرأه العامّة بالواو، وقرأ ابن كثير ألم وكذلك هو فى مصاحفهم. «ير» يعلم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ﴾ (١).

قال ابن عباس والضحاك وعطاء وقتادة: يعنى كانتا شيئًا واحدًا ملتزقتين ففصل الله سبحانه بينهما بالهواء.

قال كعب: خلق الله سبحانه السموات والأرضين بعضها على بعض ثمّ خلق ريحًا

---

(١) ثبت علميًا لدى علماء الأرض والفلك بما لا يدع مجالا للشك أو الطعن وأصبح يقينًا لدى كل عالم أن السماء والأرض كانتا شيئًا واحدًا وقتًا ما ثم حدث انفصال بينهما على تفاصيل يعرفونها وقد تختلف نظرياتهم أو أقوالهم فى كيفية الفصل أو الفتق بينهما بما هو موافق أو مخالف لما كان بما يعلمه الله سبحانه وتعالى فلا مجال للشك فى كونهما كانتا شيئًا واحدًا لدى كل ذى لب أو علم.

أما عن تأويل القدامى من أهل التفسير فإنهم يفسرون على التقريب والتخيل والاحتمالات اللغوية وما شابه ذلك فمن وافق منهم شيئًا فهو توفيق من الله سبحانه ومن خالف فهو معذور لعدم تمكنه من الوسائل العلمية التى مكننا الله سبحانه وتعالى منها فى عصورنا نحن من أجهزة ومعدات ومعامل ووسائل اختبارية ومراصد فلكية وما إلى ذلك من التفاصيل التى يعلمها أهل هذا الشأن من العلماء.

توسّطتها ففتحها بها.

وقال مجاهد وأبو صالح والسدى: كانت السموات مرتقة طبقة واحدة، ففتقها فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرضون كانت مرتقة طبقًا واحدًا ففتقها فجعلها سبع أرضين.

عكرمة وعطية وابن زيد: كانت السماء رتقًا لا تمطر، والأرض رتقًا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات، نظيره قوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ (الطارق: ١١، ١٢) وأصل الرتق السدّ ومنه قيل للمرأة التى فرجها ملتحم رتقًا، وأصل الفتق الفتح، وإنّما وحّد الرتق وهو من نعت السموات والأرض لأنّه مصدر وضع موضع الاسم مثل الزور والصوم والفطر والعدل ونحوها.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾: يعنى أنّ كلّ شىء حىّ فإنّه خُلق من الماء، نظيره قوله سبحانه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ﴾.

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾: أى فى الرواسى ﴿فِجَاجًا﴾: طرقًا ومسالك واحدها فج ثمَّ، فسّر فقال: ﴿سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ من أن تسقط دليله قوله سبحانه ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (الحجّ: ٦٥) وقيل: محفوظًا من الشياطين، دليله قوله سبحانه: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ (الحجر: ١٧).

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾: فلا يتفكّرون فيها ولا يعتبرون بها يعنى الكفار.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: يجرون ويسيرون، والفلك مدار النجوم الذى يضمّها، ومنه فلكة المغزل.

قال مجاهد: كهيئة حديدة الرّحا، الضحّاك: فلكها: مجراها وسرعة سيرها.

وقال آخرون: الفلك موج مكفوف تجرى الشمس والقمر والنجوم فيه[1].

وقال بعضهم: الفلك السماء الذى فيه ذلك الكوكب، وكلّ كوكب يجرى فى السّماء الذى قدّر فيه وهو بمعنى قول قتادة.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾: دوام البقاء فى الدنيا ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾: أى أفهم الخالدون؟ كقول الشاعر:

رفونى وقالوا يا خويلد لا ترع ... فقلت وأنكرت الوجوه هُمُ هُمُ

أى أهمُ؟ نزلت هذه الآية حين قالوا: نتربّص بمحمد ريب المنون.

---

(١) هذا قول مرجوح بل مستبعد، وقد أفاض أهل علوم السماء فى زماننا فى تأويل أو تفسير تلك الآيات العلمية بما هو معلوم لديهم من الحقائق العلمية فراجع بحوثهم وكتبهم فى هذا.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ : منفوسة ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم﴾ : نختبركم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ : ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبّون، وكيف صبركم فيما تكرهون.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ : ما يتّخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ : سخريًا ويقول بعضهم لبعض ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ : بسوء ويعيبها، قال عنترة:

لا تذكرى فرسى وما أطعمته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

أى لا تعيبى مهرى.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعنى آدم، قرأ العامّة: بضم الخاء وكسر اللام على غير تسمية الفاعل، وقرأ حميد والأعرج بفتح الخاء واللام يعنى خلق الله الإنسان ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ اختلفوا فيه فقال بعضهم: يعنى أنّ بنيته وخلقته من العجلة وعليها طُبع، نظيره قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ (الإسراء: ١١).

وقال سعيد بن جبير والسدى: لمّا دخل الروح فى عينى آدم نظر إلى ثمار الجنّة، فلمّا دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلانَ إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [(١)].

وقال آخرون: معناه خلق الإنسان من تعجيل فى خلق الله إيّاه، وقالوا: خلقه فى آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس فأسرع فى خلقه قبل مغيبها[(٢)].

قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كلّ شىء آخر النهار من يوم خلق الخلق، فلمّا أحيا الروح رأسه ولم يبلغ أسفله قال: يا رب استعجل بخلقى قبل غروب الشمس.

وقال بعضهم: هذا من المقلوب مجازه: خُلق العجل من الإنسان كقول العرب: «عرضت الناقة على الحوض» يريدون: عرضت الحوض على الناقة وكقولهم: إذا طلعت الشمس الشعرى، واستوى العود على الحربا أى استوى الحرب على العود. وقال ابن مقبل:

حسرتُ كفّى عن السربال آخذه ... فردًا يجرّ على أيدى المفدينا

يريد حسرت السربال عن كفّى، ونحوها كثير.

---

(١) هذا تأويل لا دليل عليه وما عرى من الدليل لا يوجب الإلزام. ولا يفيد العلم اليقينى وإنما اجتهاد مجتهد.

(٢) هذا قول ليس عليه دليل كذلك، ثم إن هذا أشد فسادًا من غيره أو الذى قبله حيث إن الخبر يفيد بأن الله سبحانه وتعالى وحاشاه كان يغالب أو يسارع الوقت حتى لا يفوته قبل خلق آدم عليه السلام، وحاشا وكلا أن يكون هذا قد كان.

ولكن المقطوع به هو أن الله عز وجل خلق آدم فى الجنة ثم أخرج منها أو أنزله منها وليس فى الجنة شمس ولا زمهرير، ولا قمر ولا كوكب.

وقال أبو عبيد: وكثير من أهل المعاني يقولون: العجل الطين بلغة حمير، وأنشدوا:

النبع تنبت بين الصخر ضاحية[١] والنخل ينبت بين الماء والعجل

أي الطين.

﴿سَأُورِيكُمْ ءَايَـٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ : بالعذاب وسؤال الآيات ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ : الذي تعدنا من العذاب، وقيل: القيامة، وتقديره الموعود ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ .

قال الله سبحانه ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾ : يمنعون ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ : السياط[٢] ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ : وفي الآية اختصار يعني لمّا أقاموا على كفرهم ولم يتوبوا.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ : يعني الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ : فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ : قال ابن عباس: تفجأهم، وقال الفرّاء: تحيّرهم. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ : يحفظكم ويحرسكم ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ : إذا أنزل بكم عذابه، ومعنى الآية: من أمر الرّحمٰن وعذابه.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ كتاب ربّهم ﴿مُّعْرِضُونَ ۝ أَمْ لَهُمْ﴾ : الميم صلة فيه وفي أمثاله ﴿ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ : فكيف ينصرون عابديهم.

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ : قال ابن عباس: يمنعون، عطية عنه: يُجارون، يقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان أي مجير عنه.

مجاهد: ينصرون ويحفظون، قتادة: لا يصحبون من الله بخير.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ : الكفّار ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ : في الدنيا ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ : يعني ما ننقص من أطراف المشركين ونزيد في أطراف المؤمنين[٣] .

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ : أم نحن ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ : بالقرآن ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ قرأ أبو عبد الرّحمٰن السلمي بضم الياء وفتح الميم، الضم رفع بمعنى أنّه لا يفعل بهم ذلك على مذهب ما لم يبين فاعله.

---

(١) صدر البيت في هامش تفسير القرطبي:

❖ والنبع في الصخرة الصماء منبته ❖

(٢) هذا تأويل لا يستقيم وهو بعيد عن ظاهر الآية حيث المراد: لا يكفون النار عن وجوههم وظهورهم، وهذا هو المعنى المتبادر إلى الذهن وهو المقصود من السياق حيث لم يحدد نوع العذاب في النار في هذه الآية فهو عام لا يعلمه إلاّ الله ويفيد ظاهرها أن العذاب محيط بهم من جميع الجهات. والله أعلم.

(٣) لعلماء الجغرافيا والجيولوجيا في تفسير هذه الآية أقوال علمية مفيدة يمكن الرجوع إليها في كتبهم.

وقرأ ابن عامر: «تُسمع» بتاء مضمومة وكسر الميم والصُمَّ نصبًا، جعل الخطاب للنبى عليه السلام وقرأ الآخرون: «يسمع» بياء مفتوحة وفتح الميم والصمُّ رفع على أنّ الفعل لهم ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾: يخوّفون ويحذّرون.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾: أصابتهم ﴿نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾: قال ابن عباس: طرف، مقاتل وقتادة: عقوبة، ابن كيسان: قليل، ابن جريج: نصيب، من قولهم: نفخ فلان لفلان إذا أعطاه قسمًا وحظًا منه، بعضهم: ضربة، من قول العرب: نفحت الدابة برجلها إذا ضربت بها. قال الشاعر:

وعمرة من سروات النساء تنفح بالمسك أردانها

﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾: العذاب وإنّما وحد القسط وهو جمع الموازين لأنّه فى مذهب عدل ورضى.

قال مجاهد: هذا مَثَل، وإنّما أراد بالميزان العدل.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾: لا ينقص من حسناته ولا يزاد على سيّئاته.

يروى أنّ داود (عليه السلام) سأل ربّه أن يريه الميزان فأراه، فلمّا رآه غشى عليه ثم أفاق، فقال: يا إلـهى من الذى يقدر أن يملأ كفّته حسنات؟ فقال: يا داود إنّى إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة[1].

فإن قيل: كيف وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف: ١٠٥)؟ فالجواب: إن المعنى فيه: لا نقوّمها ولا تستقيم على الحقّ، من ناقصه سائله لأنها باطلة.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾: رفع أهل المدينة المثقال بمعنى: وإن وقع، وحينئذ لا خبر له ونصبها الباقون على معنى: وإن كان ذلك الشيء مثقال، ومثله فى سورة لقمان ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾: أحضرناها، وقرأ مجاهد: آتينا بالمدّ أى جازينا بها.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ۝ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾: يعنى الكتاب الذى يفرق بين الحق والباطل وهو التوراة.

وقال ابن زيد: النصر على الأعداء، دليله قوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ (الأنفال: ٤١) يعنى يوم بدر، وهذا القول أشبه بظاهر الآية لدخول الواو فى الضياء والذكر للمتّقين، وعلى هذا التأويل تكون الواو مقحمة زائدة كقوله سبحانه وتعالى: ﴿بِزِينَةٍ

---

(١) هذا خبر لا إسناد له ومتنه لا يقبل فلا يعتد به ولا يعول عليه.

﴿ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا﴾ (الصافات: ٦، ٧).

ويروى أنّ عكرمة كان يقول في هذه الآية: معناها: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء، ويقول: انقلوا هذه الواو إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ (غافر: ٧).

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾: أي يخافونه ولم يروه ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾: يعني القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾: جاحدون.



﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾: توفيقه. القرظي: صلاحه، ﴿مِن قَبْلُ﴾: أي من قبل موسى وهارون.

قال المفسرون: يعنى هديناه صغيراً كما قال ليحيى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (مريم: ١٢).

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾: بأنّه أهل الهداية والنبوة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾: والصور يعنى الأصنام ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾: على عبادتها مقيمون.

﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾: فاقتدينا بهم.

﴿قَالَ﴾: إبراهيم ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: بعبادتكم إيّاها.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾: يعنون أجادٌّ أنت فيما تقول أم لاعب؟

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾: خلقهن ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾: لأمكرنّ بها ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾.

قال مجاهد وقتادة: إنّما قال إبراهيم هذا فى سر من قومه ولا يسمع ذلك إلاّ رجل واحد منهم، وهو الذى أفشاه عليه وقال: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

قال السدّى: كان لهم فى كلّ سنة مجمع وعيد، فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثمَّ عادوا إلى منازلهم، فلمّا كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم له: يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فخرج معهم إبراهيم فلمّا كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال: إنّى سقيم يقول: أشتكى رجلى، فتواطؤوا رجله وهو صريع، فلمّا مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعف الناس ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾: فسمعوها منه، ثم رجع إبراهيم إلى الآلهة فإذا هنَّ فى بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى جنب بعض، كلّ صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعامًا فوضعوه بين يدى الأصنام، قالوا: إذا كان حين نرجع رجعنا وقد بركت الآلهة فى طعامنا فأكلنا، فلمّا نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء: ألا تأكلون؟ فلمّا لم يجبه أحد قال: ما لكم لا تنطقون؟ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ (الصافات: ٩٣)، وجعل يكسرهنّ بفأس فى يده حتى إذا لم يبق إلاّ الصنم الأكبر علق الفأس فى عنقه ثم خرج، فذلك قوله سبحانه ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾.

قرأ يحيى بن وثاب والأعمش والكسائى بكسر الجيم أى كسرًا وقطعًا جمع جذيذ وهو الهشيم، مثل خفيف وخفاف وكريم وكرام، وقرأ الباقون: بضمّه أى الحطام والدقاق ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾: أى عظيمًا للآلهة فإنّه لم يكسره ووضع الفأس على عنقه ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: فيتذكّرون ويعلمون ضعفها وعجزها، وقيل: لعلّهم إليه يرجعون فيسألونه، فلمّا جاء القوم

من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوا أصنامهم ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ قَالُواْ﴾ : يعنى الذين سمعوا إبراهيم يقول: تالله لأكيدن أصنامكم ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ : يعيبهم ويسبّهم ويستهزئ بهم ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ : هو الذى صنع هذا، فبلغ ذلك نمرود الجبّار وأشراف قومه فقالوا: ﴿فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ يراد بأعين الناس ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ : عليه أنّه هو الذى فعل ذلك، وكرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة، قاله قتادة والسدّى.

وقال الضحّاك والسدّى: لعلّهم يشهدون ما يصنع به ويعاقبه، أى، يحضرون، فلمّا أتوا به ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ﴾ : إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ : غضب من أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن، قاله ابن إسحاق وإنّما أراد إبراهيم بذلك إقامة الحجّة عليهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ حتى يخبروكم بمن فعل هذا بهم.

وروى عن الكسائى أنّه كان يقف عند قوله: بل فعله ويقول: معناه فعله من فعله، ثم يبتدئ: كبيرهم هذا.

وقال القتيبى: جعل إبراهيم النطق شرطًا للفعل فقال: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ والمعنى إن قدروا على الفعل، فأراهم عجزهم عن النطق والفعل، وفى ضمنه أنا فعلت ذلك، والذى تظاهرت به الأخبار فى هذه الآية، قول ابن إسحاق يدلّ عليه قول النبى ﷺ: لم يكذب إلاّ ثلاث كذبات كلّها فى الله عزّ وجلّ قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ (الصافات: ٨٩) وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ وقوله لسارة: هى أختى، وغير مستحيل أن يكون الله سبحانه أذن لرسوله وخليله فى ذلك ليقرع قومه ويوبّخهم ويحتجّ عليهم ويعرّفهم موضع خطئهم كما أذن ليوسف حين أمر مناديه فقال لأخوته: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ (يوسف: ٧٠) ولم يكونوا سرقوا شيئًا.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ : يقول: فتفكروا بقلوبهم ورجعوا إلى عقولهم ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ : ما نراه إلاّ كما قال: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ هذا الرجل فى سؤالكم إيّاه، وهذه آلهتكم التى فعل بها ما فعل حاضرة فسلوها، وقيل: إنّكم أنتم الظالمون بعبادتكم الأوثان الصغار مع هذا الكبير.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ : متحيّرين مثبورين وعلموا أنّها لا تنطق ولا تبطش، قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فلما اتّجهت الحجّة لإبراهيم عليهم ﴿قَالَ﴾ : لهم ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ : فلمّا لزمتهم الحجّة وعجزوا عن الجواب ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ .

قال ابن عمر: إنّ الذى أشار عليهم بتحريق إبراهيم رجل من الأكراد، قال شعيب الجبائى: اسمه هيزن فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[١]، قالوا: فلمّا جمع نمرود قومه لإحراق إبراهيم حبسوه فى بيت وبنوا بنيانًا كالحظيرة فذلك قوله: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ (الصافات ٩٧) ثم جمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول لئن عافانى الله لأجمعنّ حطبًا لإبراهيم، وكانت المرأة تنذر فى بعض ممّا تطلب ممّا تحبّ أن تدرك لئن أصابه لتحتطبنّ فى نار إبراهيم التى يحرق بها احتسابًا فى دينها.

قال ابن إسحاق: كانوا يجمعون الحطب شهرًا، قالوا: حتى إذا أكثروا وجمعوا منه ما أرادوا أشعلوا فى كلّ ناحية من الحطب، فاشتعلت النّار واشتدّت حتّى إنْ كان الطير لتمرّ بها فتحرق من شدّة وهجها، ثمّ عمدوا إلى إبراهيم فرفعوه على رأس البنيان وقيّدوه، ثم اتخذوا منجنيقًا ووضعوه فيه مقيّدًا مغلولاً، فصاحت السموات والأرض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق إلاّ الثّقلين صيحة واحدة: أى ربنا، إبراهيم ليس فى أرضك أحد يعبدك غيره يُحرق فيك فائذن لنا فى نصرته، فقال الله سبحانه وتعالى لهم: إن استَغاث بشىء منكم أو دعاه فلينصره، فقد أذنت له فى ذلك، وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به، وأنا وليّه فخلوا بينى وبينه فلمّا أرادوا إلقاءه فى النّار أتاه خازن المياه فقال: إن أردت أخمدت النار فإنّ خزائن الأمطار بيدى، وأتاه خازن الرياح فقال: إن شئت طيّرت النار فى الهواء، فقال إبراهيم: لا حاجة لى إليكم، ثم رفع رأسه إلى السّماء فقال: اللهم أنتَ الواحد فى السّماء وأنا الواحد فى الأرض، ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى، حسبى الله ونعم الوكيل[٢].

وروى المعتمر عن أُبى بن كعب عن أرقم أنّ إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه فى النار: لا إله إلاّ أنت سبحانك ربّ العالمين، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك، قال: ثمّ رموه فى المنجنيق إلى النار من مضرب شاسع فاستقبله جبرئيل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا، قال جبرئيل: فاسأل ربّك؟ فقال إبراهيم: حسبى من سؤالى علمه بحالى، فقال الله سبحانه ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قال السدّى: كان جبرئيل هو الذى ناداها.

قال ابن عباس: لو لم يتبع بردها سلامًا لمات إبراهيم من بردها، فلم تبق يومئذ نار فى الأرض إلاّ طفئت ظنت أنها هى تُعنى.

---

(١) هذا خبر غير صحيح.

(٢) ما حدث من تفاصيل إحراق سيدنا إبراهيم لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى أما الحدث فنؤمن به كما جاء فى القرآن الكريم ولا نزيد على ذلك فليس سوى ما أخبرنا الله خبر ولا فائدة فى تفاصيل حجبها الله عنا.

قال السدّى : فأخذت الملائكة بضبعى إبراهيم فأقعدوه على الأرض ، فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس .

قال كعب : ما أحرقت النار من إبراهيم إلاّ وثاقه ، قالوا : وكان إبراهيم فى ذلك الموضع سبعة أيام .

قال المنهال بن عمر : قال إبراهيم خليل الله : ما كنت أيّامًا قطّ أنعم منّى من الأيّام التى كنت فيها فى النار .

قال ابن يسار : وبعث الله جلّ اسمه ملك الظلّ فى صورة إبراهيم فقعد فيها إلى جنب إبراهيم وهو يؤنسه ، قالوا : وبعث الله بقميص من حرير الجنّة وأتاه جبرئيل (عليه السلام) فقال : يا إبراهيم إنّ ربّك يقول : أما علمت أنّ النار لا تضرّ أحبّائى ، ثمَّ نظر نمرود من صرح له وأشرف على إبراهيم وما شكّ فى موته ، فرأى إبراهيم جالسًا فى روضة ورأى الملك قاعدًا إلى جنبه وما حوله نار تحرق ما جمعوا له من الحطب فناداه نمرود : يا إبراهيم ، كبير إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين ما أرى لم يضرّك ، يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟

قال : نعم ، قال : هل تخشى إن أقمت فيها تضرّك ؟ قال : لا ، قال : فقم فاخرج منها ، فقام إبراهيم يمشى فيها حتى خرج منها ، فلمّا خرج إليه قال له : يا إبراهيم ، مَن الرجل الذى رأيت معك مثل صورتك قاعدًا إلى جنبك؟ قال : ذلك ملك الظلّ أرسله إلىَّ ربى ليؤنسنى فيها ، فقال نمرود : يا إبراهيم إنّى مقرّب إلى إلهك قربانًا لما رأيت من قدرته وعزّته فيما صنع بك حين أبيت إلاّ عبادته وتوحيده ، إنّى ذابح له أربعة آلاف بقرة ، فقال له إبراهيم : إذًا لا يقبل الله منك ما كنت على دينك هذا حتى تفارقه إلى دينى ، فقال : يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبحها له ، فذبحها له نمرود ، ثمَّ كف عن إبراهيم ومنعه الله سبحانه منه .

قال أبو هريرة : إنّ أحسن شىء قاله إبراهيم لمّا رفع عنه الطبق وهو فى النار يرشح جبينه فقال نمرود عند ذلك : نعم الرب ربك يا إبراهيم .

قال كعب وقتادة والزهرى : ما انتفع أحد من أهل الأرض يومئذ بنار ولا أحرقت النار شيئًا يومئذ إلاّ وثاق إبراهيم ولم تأت يومئذ دابّة إلاّ أطفأت عنه النار إلاّ الوزغ ، فلذلك أمر النبى ﷺ بقتله وسمّاه فويسقًا .

قال شعيب الجبائى : أُلقى إبراهيم (عليه السلام) فى النار وهو ابن ست عشرة سنة ، وذبح إسحاق[1] وهو ابن سبع سنين ، وولدته سارة وهى بنت تسعين سنة ، وكان مذبحه من بيت

(١) معلوم أن الذبيح هو إسماعيل وهو الأكبر ومن قال بأن الذبيح إسحاق فقد خالف القرآن الكريم .

إيليا على ميلين ، ولمّا علمت سارة بما أراد بإسحاق بطنت يومئذ وماتت اليوم الثالث .

وقال الله سبحانه ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾ من نمرود وقومه من أرض العراق ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ : يعنى الشام .

قال أُبىّ بن كعب سمّاها مباركة لأنّه ما من ماء عذب إلاّ وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس .

وقال قتادة : كان يقال : الشام أعقاب دار الهجرة ، وما نقص من الأرض زيد فى الشام ، وما نقص عن الشام زيد فى فلسطين ، وكان يقال : هى أرض المحشر والمنشر ، وبها مجمع الناس ، وبها ينزل عيسى ابن مريم ، وبها يهلك الله الدجّال .

وحدّث أبو قلابة أنّ رسول الله ﷺ قال : رأيت فيما يرى النائم كأن الملائكة حملت عمود الكتاب فوضعته بالشام ، فأوّلته أنّ الفتن إذا وقعت فإنّ الإيمان بالشام .

وذكر لنا أنّ عمر بن الخطّاب (رضى الله عنه) قال لكعب : ألا تتحوّل إلى المدينة فإنها مهاجر رسول الله ﷺ وموضع قبره؟ فقال له كعب : يا أمير المؤمنين إنّى أجد فى كتاب الله المنزل أنّ الشام كنز الله من أرضه وبها كنزه من عباده .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : استجاب لإبراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله سبحانه به من جعل النار عليه بردًا وسلامًا على خوف من نمرود وملئهم ، فآمن له لوط وكان ابن أخيه ، وهو لوط بن هاران بن تارخ ، وهاران هو أخ إبراهيم ، وكان لهما أخ ثالث يقال له باحور بن تارخ ، فهاران أبو لوط ، وناحورا أبو تبويل ، وتبويل أبو لايان ، ورتقا بنت تبويل امرأة إسحاق بن إبراهيم أم يعقوب ، وليا وزاحيل زوجتا يعقوب ابنتا لايان ، وآمنت به أيضًا سارة وهى بنت عمّه ، وهى سارة بنت هاران الأكبر عمّ إبراهيم عليه السلام .

وقال السدّى : كانت سارة بنت ملك حرّان وذلك أنّ إبراهيم ولوطًا انطلقا قِبَل الشام فلقى إبراهيم سارة وهى ابنة ملك حرّان وقد طعنت على قومها فى دينهم ، فتزوجها إبراهيم على أن يغيّرها(١) .

قال ابن إسحاق : خرج إبراهيم من كوثى من أرض العراق مهاجرًا إلى ربّه ، وخرج معه لوط وسارة كما قال الله سبحانه : ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ (العنكبوت: ٢٦) فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة الله حتى نزل حرّان فمكث بها ما شاء الله أن يمكث ، ثم خرج منها مهاجرًا حتى قدم مصر ، ثمّ خرج من مصر إلى الشام ونزل السبع من أرض فلسطين

(١) فى تفسير ابن كثير : على أن يقرّبها .

وهى بُرية الشام، ونزل لوط بالمؤتفكة وهى من السبع على مسيرة يوم وليلة وأقرب من ذلك، فبعثه الله سبحانه نبيًا فذلك قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يعنى الشام، وبركتها أنّ منها بعث أكثر الأنبياء وهى أرض خصبة كثيرة الأشجار والأنهار والثمار يطيب فيها عيش الفقير والغنىّ.

وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: يعنى مكّة ونزول إسماعيل، ألا ترى أنّه يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦) والقول الأول أصوب.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾: أى عطاء عن مجاهد، الحسن والضحّاك فضلاً، قال ابن عباس وأُبى بن كعب وابن زيد وقتادة: سأل واحدًا فقال: ربّ هب لى من الصالحين فأعطاه الله إسحاق ولدًا، وزاده يعقوب ولد الولد فهو النافلة. قال مجاهد وعطاء: معنى النافلة العطية وهما جميعًا من عطاء الله سبحانه أعطاها إيّاه.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾: يعنى إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليه السلام).



﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾: يُقتدى بهم فى الخير ﴿يَهْدُونَ﴾: يدعون الناس إلى ديننا.

﴿بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ﴾ : وإقامة ﴿ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝ وَلُوطًا﴾ : أى وآتينا لوطًا ، وقيل واذكر لوطًا ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ : أى الفصل بين الخصوم بالحقّ ﴿وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ : يعنى سدّوم كان أهلها يأتون الذكران فى أدبارهم ويتضارطون فى أنديتهم مع أشياء أخرى كانوا يعملونها من المنكرات .

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ : دعا ﴿مِن قَبْلُ﴾ : أى من قبل إبراهيم ولوط ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ : أتباعه ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ : الطوفان ، والكرب أشد الغم .

﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ : منعناه ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ : أن يصلوا إليه بسوء ، وقال أبو عبيد : أى على القوم .

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ : قال مرّة وقتادة : كان الحرث زرعًا ، وقال ابن مسعود وشريح : كان كرمًا قد نبتت عناقيد ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ : أى رعته ليلاً فأفسدته ، والنفش بالليل ، والهمل بالنهار ، وهما الرعى بلا راع ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ : لا يخفى علينا منه شىء ، ولا يغيب عنّا علمه .

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ : أى علّمناها وألهمناها يعنى القضيّة ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ : دون داود .

﴿وَكُلًّا﴾ : يعنى داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ .

قال ابن عباس وقتادة والزهرى ومرّة : وذلك أنّ رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الزرع : هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت فى حرثى ، فلم تبق منه شيئًا ، فقال له داود : اذهب فإنّ الغنم لك ، فأعطاه رقاب الغنم بالحرث ، فخرجا فمرّا على سليمان فقال : كيف قضى بينكما ، فأخبراه فقال سليمان : لو ولّيت أمرهم لقضيت بغيره ، فأخبر بذلك داود فدعاه فقال : كيف تقضى بينهما؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له نسلها ورسلها وحرثها وعوارضها ومنافعها ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم ، فإذا كان العام المقبل وصار الحرث كهيئته يوم أُكل دفع إلى أهله وأُخذ صاحب الغنم غنمه .

وقال ابن مسعود وشريح ومقاتل : إنّ راعيًا نزل ذات ليلة بجنب كرم ، فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم ، فصار صاحب الكرم من الغد إلى داود ، فقضى بالأغنام لصاحب الكرم لأنه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الأغنام تفاوت ، فمرّوا بسليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة فقال : ما قضى الملك فى أمركم؟ فقصّوا عليه القصّة فقال

سليمان: غير هذا أرفق بالفريقين، فعادوا إلى داود فأخبروه بذلك فدعا سليمان وقال له: بحقّ النبوة والأبوّة إلاّ أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين، فقال سليمان: تسلّم الأغنام إلى صاحب الكرم حتى يرتفق برسلها ونسلها وصوفها ومنافعها، ويعمل الراعي في إصلاح الكرم إلى أن يعود كهيئته، ثم يرد الأغنام إلى صاحبها فقال: القضاء ما قضيت. وحكم بذلك.

قال الحسن: كان الحكم بما قضى به سليمان، ولم يعنف الله داود في حكمه وهذا يدلّ على أنّ كلّ مجتهد مصيب.

وروى الزهري عن حرام بن محيصة قال: دخلت ناقة للبراء بن عازب حائطًا لبعض الأنصار فأفسدته، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية، ثم قضى على البراء بما أفسدته الناقة وقال: «على أصحاب الماشية حفظ الماشية بالليل، وعلى أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار».

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾: أي وسخّرنا الجبال والطّير يسبّحن مع داود إذا سبّح.

قال وهب: كان داود يمرّ بالجبال مسبّحًا وهي تجاوبه وكذلك الطير.

قتادة: «يسبّحن» أي يصلّين معه إذا صلّى.

﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾: ذلك ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾: اللبوس عند العرب: السلاح كلّه درعًا كان أو جوشنًا أو سيفًا أو رمحًا، يدلّ عليه قول الهذلي يصف رُمحًا:

ومعي لبوس للبئيس كأنّه ... روق بجبهة ذي نعاج مُجفل

يريد باللبوس الرمح، وإنّما عنى الله سبحانه في هذا الموضع الدرع وهو بمعنى الملبوس كالحلوب والركوب.

قال قتادة: أول من صنع الدروع داود (عليه السلام) وإنّما كانت صفائح، فهو أوّل من سردها وحلقها.

﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾: لتحرزكم وتمنعكم ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾: حربكم، واختلف القرّاء فيه، فقرأ شيبة وعاصم برواية أبي بكر، ويعقوب برواية رويس، لنحصنكم بالنون، لقوله: «وعلّمناه» وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص وروح، بالتاء يعني... [1].

﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾: أي وسخّرنا لسليمان ﴿الرِّيحَ﴾: وهو هواء محرّك وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه ويظهر الحسن بحركته، والريح تذكر وتؤنّث.

---

(١) موضع النقط بياض بالمخطوط قدره ثلاث كلمات.

﴿عَاصِفَةً﴾ : شديد الهبوب ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ : يعنى الشام وذلك أنّها كانت تجرى لسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان ثم تعود به إلى منزله بالشام.

قال وهب بن منبه: كان سليمان إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الإنس والجنّ حتى يجلس على سريره وكان امرءًا غزاً قلّ ما يقعد عن الغزو، ولا يسمع فى ناحية من الأرض بملك إلاّ أتاه حتى يذلّه، وكان فيما يزعمون إذا أراد الغزو أمر بمعسكره فضرب له بخشب، ثم نصب له على الخشب، ثم حمل عليه الناس والدوابّ وآلة الحرب كلّها حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب، فاحتملته حتى إذا استقلت أمر الرخاء فمدّته شهراً فى روحته وشهراً فى غدوته إلى حيث أراد.

قال: فذكر لى منزل بناحية دجلة مكتوب فيه كتاب بعض صحابة سليمان إمّا من الجنّ وإمّا من الإنس: نحن نزلناه وما بنينا ومبنيًا وجدناه، غزونا من إصطخر فقلناه، ونحن رائحون منه إن شاء الله فآتون الشام.

قال الله سبحانه: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ۝ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ يعنى وسخرنا لسليمان أيضًا من الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ : أى يدخلون تحت الماء فيخرجون له الجواهر من البحر ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ : يعنى دون الغوص ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ : حتى لا يخرجوا من أمره.

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ

إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ الآية.

قال وهب بن منبّه: كان أيّوب رجلاً من الروم، وهو أيّوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، وكانت أُمّه من ولد لوط بن هاران، وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبّأه وبسط عليه الدنيا، وكانت له البثينة من أرض الشام كلّها سهلها وجبلها بما فيها، وكان له من أصناف المال كلّه من الإبل والبقر والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه فى العُدّة والكثرة، وكان له بها خمسمائة فدّان يتبعها خمسمائة عبد، لكلّ عبد امرأة وولد ومال، ويحمل له كلّ فدان أتان، لكلّ أتان ولد من اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة وفوق ذلك، وكان الله سبحانه أعطاه أهلاً وولدًا من رجال ونساء، وكان برًّا تقيًّا رحيمًا بالمساكين، يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكرًا لأنعم الله سبحانه، مؤديًا لحقّ الله تعالى، قد امتنع من عدوّ الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من العزّة والغفلة والسهو والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا، وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدّقوه وعرفوا فضله: رجل من أهل اليمن يقال له اليفن، ورجلان من أهل بلاده يقال لأحدهما بلدد وللآخر صافر، وكانوا كهولاً.

قال وهب: إنّ لجبرئيل (عليه السلام) بين يدى الله سبحانه مقامًا ليس لأحد من الملائكة فى القربة والفضيلة، وإنّ جبرئيل هو الذى يتلقّى الكلام، فإذا ذكر الله عبدًا بخير تلقّاه جبرئيل ثم تلقّاه ميكائيل وحوله الملائكة المقرّبون حافّين من حول العرش، فإذا شاع ذلك فى الملائكة المقرّبين صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات، فإذا صلّت عليه ملائكة السموات هبطت عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض، وكان إبليس لعنه الله لا يحجب عن شىء من السموات، وكان يقف فيهنّ حيثما أراد، ومن هنالك وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنّة، فلم يزل على ذلك يصعد فى السموات حتى رفع الله سبحانه عيسى ابن مريم فحجب من أربع، وكان يصعد فى ثلاث، فلمّا بعث الله تعالى محمداً ﷺ حجب من الثلاث الباقية، فهو وجنوده محجوبون من جميع السموات إلى يوم القيامة ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ (الحجر: ١٨).

قال: فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله سبحانه وأثنى

عليه، فأدركه البغى والحسد وصعد سريعًا حتى وقف من السماء موقفًا كان يقفه فقال: يا إلهى نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته أنعمت عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ثمّ لم يجرّبه بشدّة ولا بلاء وأنا لك زعيم، لئن ضربته بالبلاء ليكفرنّ لك ولينسينّك، فقال الله سبحانه وتعالى له: انطلق فقد سلّطتك على ماله، فانقض عدوّ الله حتى وقع إلى الأرض ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم وقال لهم: ماذا عندكم من القوّة والمعرفة؟ فإنّى قد سُلّطتُ على مال أيوب، وهى المصيبة الفادحة والفتنة التى لا يصبر عليها الرجال.

قال عفريت من الشياطين: أُعطيتُ من القوّة ما إذا شئت تحوّلت إعصارًا من النار وأحرقت كلّ شىء آتى عليه، قال له إبليس: فائت الإبل ورعاها فانطلق يؤم الإبل وذلك حين وضعت رؤوسها ويثبت فى مراعيها، فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار ينفخ منها أرواح السّموم، لا يدنو منها أحد إلاّ احترق، فلم يزل يحرقها ورعاها حتى أتى على آخرها، فلمّا فرغ تمثّل إبليس على قعود منها يراعيها ثم انطلق يؤم أيوب حتّى وجده قائمًا يصلّى فقال: يا أيّوب، قال: لبيك، قال: هل تدرى ما الذى صنع ربك الذى اخترته وعبدته بإبلك ورعائها؟ قال أيوب: إنّها ماله وأعارنيه وهو أولى به إذا شاء نزعه، وقديمًا وطّنت مالى ونفسى على الفناء.

قال إبليس: فإنّ ربّك أرسل عليها نارًا من السّماء فاحترقت ورعاؤها كلّها، فتركت الناس مبهوتين وقفًا عليها يتعجّبون منها، منهم من يقول: ما كان أيّوب يعبد شيئًا وما كان إلاّ فى غرور، ومنهم من قال: لو كان إله أيّوب يقدر على أن يصنع شيئًا لمنع وليّه، ومنهم من يقول: بل هو الذى فعل ما فعل ليشمت به عدوّه ويفجع به صديقه.

قال أيوب: الحمد لله حين أعطانى وحين نزع منّى، عريانًا خرجت من بطن أمى، وعريانًا أعود فى التراب، وعريانًا أُحشر إلى الله سبحانه، ليس ينبغى لك أن تفرح حين أعارك وتجزع حين قبض عاريته، الله أولى بك وبما أعطاك، ولو علم الله فيك أيّها العبد خيرًا لتقبّل روحك مع تلك الأرواح فآجر لى فيك وصرت شهيدًا، ولكنه علم منك شرًا فأخّرك، وخلصك من البلاء كما يخلص الزوّان من القمح الخالص.

فرجع إبليس لعنه الله إلى أصحابه خاسئًا ذليلاً فقال: ماذا عندكم من القوّة فإنى لم أكلّم قلبه، قال عفريت من عظمائهم: عندى من القوة ما إذا شئت صحت صوتًا لا يسمعه ذو روح إلاّ خرجت مهجة نفسه، قال له إبليس: فائت الغنم ورعاها فانطلق يأتى الغنم ورعاها حتى إذا توسطها صاح صوتًا جثمت أمواتًا من عند آخرها، ومات رعاؤها، ثم خرج إبليس متمثلاً

بقهرمان الرعاء حتى إذا جاء أيوب وهو قائم يصلى، فقال له القول الأول وردّ عليه أيّوب الردّ الأول.

ثمّ إن إبليس رجع إلى أصحابه فقال لهم: ماذا عندكم من القوّة فإنّى لم أُكلّم قلب أيوب، فقال عفريت من عظمائهم: عندى من القوّة ما إذا شئت تحوّلت ريحًا عاصفًا تنسف كل شيء تأتى عليه حتى لا أُبقى شيئًا، قال له إبليس: فائت الفدادين والحرث، فانطلق يؤمهم وذلك حين قرنوا الفدادين وأنسؤوا فى الحرث، وأولادها رتوع، فلم يشعروا حتى هبّت ريح عاصف فنسفت كلّ شيء من ذلك حتّى كأنّه لم يكن، ثم خرج إبليس متمثلاً بقهرمان الحرث حتى جاء أيّوب وهو قائم يصلّى فقال له مثل قوله الأوّل وردّ عليه أيوب مثل ردّه الأوّل، فجعل إبليس يصيب ماله مالاً مالاً حتى مرَّ على آخره، كلّما انتهى إليه هلاك مال من أمواله حمد الله وأحسن عليه الثناء ورضى بالقضاء ووطّن نفسه للصبر على البلاء حتى لم يبق له مال.

فلمّا رأى إبليس أنّه قد أفنى ماله ولم ينجح منه بشيء صعد سريعًا حتى وقف الموقف الذى كان يقفه فقال: إلهى إنّ أيّوب يرى أنّك ما متعته بنفسه وولده فأنت معطيه المال، فهل أنت مسلطى على ولده فإنّها الفتنة المضلّة والمصيبة التى لا تقوم لها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم.

قال الله سبحانه: انطلق فقد سلّطتك على ولده، فانقضّ عدوّ الله حتى جاء بنى أيّوب وهم فى قصرهم فلم يزل يزلزل بهم حتى تداعى من قواعده، ثم جعل يناطح جدره بعضها ببعض ويرميهم بالخشب والجندل حتى إذا مثّل بهم كلّ مثلة رفع بهم القصر وقلبه فصاروا منكّسين، وانطلق إلى أيّوب متمثلاً بالمعلّم الذى كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه ودماغه، فأخبره بذلك وقال: يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذّبوا وكيف قلبوا فكانوا منكّسين على رؤوسهم، تسيل دماؤهم ودماغهم من أُنوفهم وأشفارهم وأجوافهم، ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لقطع قلبك، فلم يزل يقول هذا ونحوه ويرقّقه حتى رقّ أيوب فبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه، فاغتنم إبليس ذلك فصعد سريعًا بالذى كان من جزع أيّوب مسرورًا به، ثمّ لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر، فاستغفر وصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته، فبدروا إبليس إلى الله سبحانه وهو أعلم، فوقف إبليس خازيًا ذليلاً فقال: يا إلهى إنّما هوّن على أيوب خطر المال والولد أنه يرى أنك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد، فهل أنت مسلطى على جسده، لئن ابتليته فى جسده ليُنسينّك وليكفرنّ بك وليجحدنّك نعمتك.

فقال الله سبحانه: انطلق فقد سلّطتُك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله، وكان الله تعالى هو أعلم به، لم يسلطه عليه إلاّ رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين فى كلّ بلاء نزل بهم ليتأسّوا به فى الصبر ورجاء الثواب.

وانقض عدو الله إبليس سريعًا فوجد أيوب ساجدًا فعجّل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل الأرض فى موضع وجهه فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها جسده فذهل وخرج به من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم وقعت فيه حكّة لا يملكها، فحكّ بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثم حكها بالفخّار والحجارة الخشنة فلم يزل يحكها حتى نفل لحمه وتقطع وتغير وأنتن.

فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشًا ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته، وهى رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب، وكانت تختلف إليه بما يصلحه ويلزمه، فلما رأى الثلاثة من أصحابه وهم: أليفر ويلدد وصافر ما ابتلاه الله سبحانه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه وهو فى بلائه فبكتوه ولاموه وقالوا له: تب إلى الله سبحانه من الذنب الذى عوقبت به، قال: وحضر معهم فتى حديث السن وكان قد آمن به وصدّقه فقال لهم: إنكم تكلمتم أيها الكهول وكنتم أحق بالكلام لأسنانكم، ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذى قلتم ومن الرأى أصوب من الذى رأيتم، ومن الأمر أجمل من الذى أتيتم، وقد كان لا يؤت عليكم من الحق والذمام أفضل من الذى وصفتم، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم، ومن الرجل الذى عِبتم واتهمتم؟ ألم تعلموا أن أيوب نبى الله وخيرته وصفوته من أهل الأرض يومكم هذا، ثم لَم تعلموا أولم يطلعكم الله على أنه قد سخط شيئًا من أمره منذ أتاه ما أتاه إلى يومكم هذا، ولا على أنه نزع منه شيئًا من الكرامة التى أكرمه بها، ولا أن أيوب غير الحق فى طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا، وإن كان البلاء هو الذى أزرى به عندكم ووضعه فى أنفسكم، فقد علمتم أن الله سبحانه يبتلى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ثم ليس بلاؤه لأولئك بدليل على سخطه عليهم، ولا هوانه لهم، ولكنها كرامة وخيرة لهم، ولو كان أيوب ليس من الله تعالى بهذه المنزلة إلاّ أنه أخٌ اجتبيتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحليم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيّره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم، وهو مكروب حزين، ولكنه يرحمه ويبكى معه ويستغفر له ويحزن بحزنه ويدله على مراشد أمره، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا،

فالله الله أيها الكهول وقد كان فى عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم.

ألم تعلموا أن لله عباداً أسكتتهم خشية من غير عيّ ولا بُكْم، وأنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الأولياء العالمون بالله وبأيامه، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرّت جلودهم، وانكسرت قلوبهم، وطاشت عقولهم إعظامًا لله وإعزازًا وإجلالاً، فإذا استفاقوا من ذلك اسْتَبَقُوا إلى الله بالأعمال الزاكية، يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين، وإنهم لأَنْزَاه برآء، ،ويعدون أنفسهم مع المقصرين المفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء، ولكنهم لا يستكثرون لله الكثير ولا يرضون لله بالقليل، ولا يدلون عليه بالأعمال فهم مروّعون مفزَّعون خاشعون مستكينون.

فقال أيوب: إن الله سبحانه يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب الصغير والكبير فمتى ثبتت فى القلب يظهرها الله على اللسان، وليست تكون الحكمة من قبل السنّ والشيبة ولا طول التجربة، ولئن جعل الله تعالى العبد حكيمًا فى الصبا لم يسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله سبحانه عليه نور الكرامة.

ثم أقبل أيوب على الثلاثة فقال: أتيتمونى غضابًا رهبتم قبل أن تسترهبوا، وبكيتم من قبل أن تضربوا، كيف بى لو قلتُ لكم تصدّقوا عنّى بأموالكم! لعلّ الله يخلّصنى، أو قرّبوا عنّى قربانًا لعلّ الله يتقبّله ويرضى عنى، وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم عوقبتم بإحسانكم فهنالك بغيتم وتعزّزتم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربّكم ثمّ صدقتم لوجدتم لكم عيوبًا سترها الله بالعافية التى ألبسكم، وقد كنت فيما خلا والرجال يوقّروننى وأنا مسموع كلامى، معروف حقّى، منصف من خصمى، فأصبحت اليوم وليس لى رأى ولا كلام معكم، فإنّكم كنتم علىَّ أشدّ من مصيبتى.

ثمّ أعرض عنهم وأقبل على ربّه مستعينًا به متضرعًا إليه فقال: ربّ لأىّ شىء خلقتنى؟ ليتنى إذ كرهتنى لم تخلقنى، يا ليتنى كنت حيضة ألقتنى أُمّى، أو يا ليتنى عرفت الذنب الذى أذنبتُ والعمل الذى عملتُ فصرفت وجهك الكريم عنّى، لو كنت أمتّنى فألحقتنى بآبائى فالموت كان أجمل لى، ألم أكن للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم وليًا وللأرملة قيّمًا؟

إلهى أنا عبد ذليل، إن أحسنتُ فالمنّ لك، وإن أسأت فبيدك عقوبتى، جعلتنى للبلاء غرضًا وللفتنة نصبًا، وقد وقع علىَّ بلاء لو سلّطته على جبل ضَعُف عن حمله، فكيف يحمله ضعفى، إلهى تقطّعت أصابعى فإنّى لأرفع الأكلة من الطعام بيدىَّ جميعًا فما تبلغان فمى إلاّ

على الجهد منّى ، تساقطت لهواتى ولحم رأسى ، فما بين أُذنىَّ من سداد حتى إنّ إحداهما تُرى من الأُخرى ، وإنّ دماغى يسيل من فمى ، تساقط شعر عينى فكأنما حُرّق بالنار وجهى ، وحدقتاى هما متدلّيتان على خدّى ، ورم لسانى حتى ملأ فمى ، فما أدخل منه طعامًا إلا غصّنى ، ورمتْ شفتاى حتّى غطّت العليا أنفى والسفلى ذقنى ، تقطّعت أمعائى فى بطنى فإنّى لأُدخله الطعام فيخرج كما دخل ما أُحسّه ولا ينفعنى ، ذهبت قوّة رجلىَّ فكأنهما قربتا ماء لا أُطيق حملهما ، ذهب المال فصرت أسأل بكفّى فيطعمنى من كنت أعوله اللقمة الواحدة ، فيمنّها علىّ ويعيّرنى ، هلك أولادى ولو بقى أحد منهم أعاننى على بلائى ونفعنى ، قد ملّنى أهلى وعقّنى أرحامى وتنكّرت معارفى ورغب عنّى صديقى وقطعنى أصحابى وجُحدتْ حقوقى ونُسيت صنايعى ، أصرخ فلا يصرخوننى وأعتذر فلا يعذروننى ، ودعوت غلامى فلم يجبنى وتضرّعت لأمتى فلم ترحمنى وأنحل جسمى ولو أنّ ربّى نزع الهيبة التى فى صدرى وأطلق لسانى حتّى أتكلّم بملء فمى ، ثمّ كان ينبغى للعبد أن يحاجّ عن نفسه ، لرجوت أن يعافينى عند ذلك ممّا بى ولكنّه ألقانى وتعالى عنّى فهو يرانى ولا أراه ، ويسمعنى ولا أسمعه ، لا نظر إلىّ فرحمنى ولا دنا منّى ولا أدنانى ، فأتكلم ببراءتى وأُخاصم عن نفسى .

فلمّا قال ذلك أيّوب وأصحابه أظلّه غمام حتّى ظنّ أصحابه أنّه عذاب ، ثمّ نودى منه : يا أيّوب إنّ الله يقول : ها أنا دنوت منك ولم أزل منك قريبًا ، فقم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد إزارك وقم مقام جبّار فإنّى لا ينبغى لى أن يخاصمنى إلاّ جبّار مثلى ولا ينبغى أن يخاصمنى إلاّ من يجعل الزمّار فى فم الأسد والسّخال فى فم العنقاء واللجام فى فم التنين ، ويكتال مكيالاً من النّور ويزن مثقالاً من الرّيح ويصرّ صرّة من الشّمس ويردّ أمس ، لقد منّتك نفسك أمرًا ما يبلغ بمثل قوتك ولو كنت إذ منّتك ذلك ودعتك إليه ، تذكّرت أىّ مرام رامت بك .

أردت أن تخاصمنى بفيك أم أن تحاجّنى بخطابك أم أردت ان تكابرنى بضعفك؟ أين أنت منّى يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها؟ هل علمت بأى مقدار قدّرتها أم كنت معى تمد بأطرافها ، أم تعلم ما بعد زواياها أم على أىّ شىء وضعت أكنافها؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض ، أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء؟ أين كنت منّى يوم رفعت السّماء سقفًا فى الهواء لا بعلائق سُيّبت ولا يحملها دعم من تحتها؟ هل يبلغ من حكمتك أن تجرى نورها أو تسيّر نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها؟

أين أنت منّى يوم سخّرت البحار ونبعت الأنهار؟ أقدرتك حبست أمواج البحار على

حدودها أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدّتها؟ أين أنت منّى يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال؟ هل لك من ذراع يطيق حملها أم هل تدرى كم من مثقال فيها، أم أين الماء الذى أنزلت من السماء؟ هل تدرى أُمٌّ تلده أو أبٌ يولدهُ؟ أحكمتك أحصت القطر وقَسمت الأرزاق، أم قدرتك تثير السحاب وتغشيه الماء؟ هل تدرى ما أصوات الرعود أم من أىّ شىء لهب البرق؟ وهل رأيت عمق البحر، أم هل تدرى ما بعد الهواء، أم هل خزنت أرواح الأموات، أم هل تدرى أين خزانة الثلج، أو أين خزائن البرد، أم أين جبال البرد، أم هل تدرى أين خزانة الليل بالنهار، وأين خزانة النهار بالليل، وأين طريق النور، وبأىّ لغة تتكلّم الأشجار، وأين خزانة الريح؟ وكيف تحبسه الأغلاق؟

ومن جعل العقول فى الرّجال؟ ومن شق الأسماع؟ ومن ذلّت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم أرزاق الدوابّ بحكمته؟ من قسّم للأسد رزقها وعرف الطير معاشها وعطفها على أفراخها؟ من أعتق الوحش من الخدمة وجعل مساكنها البريّة، لا تستأنس بالأصوات ولا تهاب المسلّطين، أم حكمتك عطفت أمهاتها عليها حتى أخرجت لها الطعام من بطونها وآثرتها بالعيش على نفوسها، أم من حكمتك تُبصّر العقاب الصيد البصر البعيد وأصبح فى أماكن القتلى؟.

أين أنت منّى يوم خلقت بهموت مكانه فى مقطع التراب والوثبان يحملان الجبال والقرى والعمران، آذانهما كأنها شجر الصنوبر الطوال، ورءوسهما كأنها كوم الجبال، وعروق أفخاذها كأنها عمد النحاس، أنت ملأت جلودهما لحمًا أم أنت ملأت رءوسهما دماغًا؟ هل لك فى خلقهما من شرك أم لك بالقوة التى غلبتها يدان؟ هل تبلغ من قوّتك أن تضع يدك على رؤوسهما أو تقعد لهما على طريق فتحبسهما أو تصدّهما من قوتهما؟ أين أنت يوم خلقت للتنّين رزقه فى البحر ومسكنه فى السحاب؟ عيناه توقدان نارًا منخراه يثوران دخانًا، أُذناه مثل قوس السحاب، يثور منهما لهب كأنه إعصار العجاج، جوفه يحترق ونفسه تلتهب وزبده جمر كأمثال الصخور، وكأن صريف أسنانه أصوات الصواعق، وكأنّ نظر عينيه لهب البرق، وتمرّ به الجيوش وهو متكئ لا يفزعه شىء، ليس فيه مفصل الحديد، عنده مثل الطين، والنحاس، عنده مثل الخيوط لا يفزع من النشّاب ولا يحسّ وقع الصخور على جسده، ويسير فى الهواء كأنّه عصفور، ويهلك كلّ شىء يمرّ به، هل أنت آخذه بأُحبولتك أو واضع اللجام فى شدقه؟ هل تحصى عمره أم هل تعرف تقوّت رزقه أم هل تدرى ماذا خرّب من الأرض؟ وماذا يخرّب فيما بقى من عمره؟ أتطيق غضبه حين يغضب أم تأمره فيطيعك؟

تبارك الله وتعالى.

فقال أيّوب: قصرت عن هذا الأمر الذى يعرض علىّ ليت الأرض انشقّت فذهبت فيها ولم أتكلّم بشىء يسخط ربّى، اجتمع علىّ البلاء إلهى فجعلتنى مثل العدوّ، وقد كنت تكرمنى وتعرف نصحى، وقد علمت أنّ كلّ الذى ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من هذا، ما شئت علمت، لا يعجزك شىء ولا تخفى عليك خافية ولا تغيب عنك غائبة، من هذا الذى يظن أن يسرّ عنك سراً وأنت تعلم ما يخطر على القلوب؟ وقد علمت منك فى بلائى هذا ما لم أكن أعلم، وخفت حين بلوت أمرك أكثر ممّا كنت أخاف، إنّما كنت أسمع بسطوتك سمعًا فأمّا الآن فهو نظر العين، إنّما تكلمت حين تكلمت لتعذرنى، وسكتُّ حين سكتُّ لترحمنى، كلمة زلّت فلن أعود، قد وضعت يدى على فمى وعضضت على لسانى وألصقت بالتراب خدّى ودسست فيه وجهى لصَغارى، وسكتُّ كما أسكتتنى خطيئتى، فاغفر لى ما قلت فلن أعود لشىء تكرهه منى.

فقال الله سبحانه: يا أيوب فقد نفذ فيك علمى وسبقت رحمتى غضبى إذ خطئت فقد غفرت لك، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ليكون لمن خلفك آية، ويكون عبرة لأهل البلاء وعزاءً للصابرين فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، فيه شفاؤك، وقرّب عن صحابتك قربانًا واستغفر لهم فإنهم قد عصونى فيك.

فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها، فاغتسل فأذهب الله عنه كلما كان به من البلاء، ثمَّ خرج فجلس وأقبلت امرأته فقامت تلتمسه فى مضجعه فلم تجده فقامت كالواله مترددة متحيّرة ثم قالت: يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذى كان ههنا؟ وهل تعرفينه إذا رأيته؟ قالت: نعم وما لى لا أعرفه؟ فتبسم وقال: أنا هو فعرفته بمضحكه فاعتنقته[١].

(١) تركت التعليق على هذه القصة التى ليس فيها شىء من الصحة والتى تخللها ما لا يجوز فى حق الله عزّ وجلّ، ولا فى حق رسله وأنبيائه الكرام إلى هذا الموضع حيث يرى القارئ الكريم ما لا يصدقه وما لا تقره النفس ولا العقائد والفطر السليمة حيث قد شاع عن سيدنا أيوب من الأساطير ما شاع وذاع على ألسن الجهلة ومروجى الكذب والإسرائيليات وما لا يصح فى شرع الله ونسبته إلى أنبياء الله تعالى وسيدنا أيوب قد ناله كذلك من هذه الأقاويل القدر الكثير وجعلوا من بلاء الله تعالى له مجالاً لعمل خيالاتهم وإثارة عواطف عوام الناس والحقيقة أن سيدنا أيوب ما ابتلاه ربه بما يقزز منه الناس فى جسمه بل مرض مرضًا طبيعيًا غير منفر ولا معد وإنما كان يرى منه ويعرف أنه يعانى معاناة لا يتحملها أشداء الرجال أو البشر ثم هو صابر محتسب ليصير مضربًا للمثل فى الاحتساب والرضى بما قدّر الله له أو عليه مع حفظ كرامته وهيبته ووقاره ومكانته بين قومه وتمنى من يراه أن يرزق ما رزقه من الصبر والرضى والثبات للمحنة وعدم الضجر أو الشكوى فحاشا لله أن يعرض كرامة نبيه للجرح بأن يعرض زوجه للسؤال أو للعمل أو ما يخدش حياءها أو كرامتها وما وقع البلاء إلاّ على أيوب عليه السلام وثبت=

قال ابن عباس: فوالذى نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى مرّ بهما كلّ مال لهما وولد، فذلك قوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾.

واختلف العلماء فى وقت ندائه، والسبب الذى قال لأجله: أنّى مسّنى الضرّ وفى مدّة بلائه.

فحدّثنا الإمام أبو الحسن علىّ بن سهل الماسرخسى إملاء يوم الجمعة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة قال: أخبرنا أبو طالب عمر بن الربيع بن سليمان الخشّاب بمصر قال: حدّثنا يحيى بن أيوب العلاّف قال: حدّثنا سعيد بن أبى مريم قال: حدّثنا نافع بن يزيد عن عقيل عن شهاب عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «إن أيوب نبىّ الله لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلاّ رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلمّا راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك، فقال أيّوب: ما أدرى ما يقولان غير أنّ الله سبحانه يعلم أنى كنت أمرّ بالرجلين يتنازعان فيذكران الله سبحانه وتعالى، فأرجع إلى بيتى فأكفّر عنهما كراهية أن يذكروا الله إلاّ فى حق».

قال: فكان يخرج بحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأُوحى إلى أيّوب فى مكانه ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (ص: ٤٢) فاستبطأته فتلقته تنظر، وأقبل عليها وقد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلمّا رأته قالت: هل رأيت نبىّ الله هذا المبتلى؟ قال: إنى أنا هو، وكان له أندران: أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سبحانه سحابتين، فلمّا كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأُخرى فى أندر الشعير الوَرَق حتى فاض.

وقال الحسن: مكث أيّوب مطروحًا على كناسة فى مزبلة لبنى إسرائيل سبع سنين وأشهراً تختلف فيه الدواب.

وقال وهب: لم يكن بأيّوب أكلة إنّما كان يخرج منه مثل ثدى النّساء ثم يتفقأ.

= له وزكاه ربه بقوله: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد﴾ وما سوى ذلك من أقوال أو أخبار على قارئها أن يضرب بها عرض الحائط ولا يلتفت إليها وليعتقد بالله وأنبيائه كل الخير والكمال والوقار والصون من الشيطان لقوله تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ وما ورد فى هذه القصة وما شابهها وما سيأتى بعدها يخالف تلك الآية وصريح القرآن.

قال الحسن: ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقربه غير رحمة صبرت معه، تصدّق وتأتيه وتحمد الله إذا حمد، وأيّوب على ذلك لا يفتر من ذكر الله سبحانه والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه، فصرخ عدوّ الله إبليس صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض جزعًا من صبر أيوب فلمّا اجتمعوا إليه قالوا: ما جزعك؟ قال: أعياني هذا العبد الذى سألت ربّى أن يسلّطنى على ماله وولده فلم أدع له مالاً، وولداً فلم يزدد بذلك إلاّ صبراً وثناءً على الله سبحانه، ثمّ سلّطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة بنى إسرائيل، لا تقربه إلاّ امرأته، فقد افتضحت بربى فاستعنت بكم لتعينونى عليه، قالوا له: أين مكرك؟ أين عملك الذى أهلكت به ما مضى؟

قال: بطل ذلك كله فى أيّوب فأشيروا علىّ، قالوا: نشير عليك، أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة؟ قال: من قبل امرأته، قالوا: فشأنك بأيوب من قبل امرأته فإنّه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقرّبه غيرها، قال: أصبتم، فانطلق حتى أتى امرأته وهى تصدّق، فتمثّل لها فى صورة رجل، فقال: أين بعلك يا أمة الله؟ قالت: هو ذاك يحكّ قروحه، وتتردّد الدوابّ فى جسده، فلمّا سمعها طمع أن يكون كلمة جزع، فوسوس إليها فذكّرها ما كانت فيه من النعيم والمال، وذكّرها جمال أيّوب وشبابه، وما هو فيه من الضرّ، وأنّ ذلك لا ينقطع عنهم أبدًا.

قال الحسن: فصرخت، فلمّا صرخت علم أن قد جزعت، فأتاها بسخلة فقال: ليذبح هذا لى أيوب ويبرأ.

قال: فجاءت تصرخ: يا أيوب حتى متى يعذّبك ربّك؟ ألا يرحمك؟ أين المال؟ أين الماشية؟ أين الولد؟ أين الصديق؟ إنّ لونك الحسن قد تغيّر وصار مثل الرّماد، أين جسمك الحسن الذى قد بلى وتردد فيه الدواب؟ اذبح هذه السخلة واسترح.

قال أيّوب: أتاك عدوّ الله فنفخ فيك وأجبته؟! ويلك أرأيت ما تبكين عليه ممّا تذكرين ممّا كنا فيه من المال والولد والصحة، من أعطانيه؟ قالت: الله، قال: فكم متّعنا به؟ قالت: ثمانين سنة، قال: فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء؟ قال: منذ سبع سنين وأشهر. قال: ويلك والله ما عدلت ولا أنصفت ربك، ألا صبرت يكون فى هذا البلاء الذى ابتلانا ربّنا به ثمانين سنة، كما كنا فى الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفانى الله لأجلدنّك مائة جلدة، أمرتنى أن أذبح لغير الله طعامك وشرابك الذى أتيت به؟ على حرام أن أذوق شيئًا ممّا تأتيننى به بعد إذ قلت لى هذا، فاغربى عنّى فلا أراك فطردها فذهبت فلمّا نظر أيّوب إلى امرأته قد طردها، وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خرّ ساجداً وقال: رب مسّنى الضر ثم ردّ ذلك إلى ربّه فقال: ﴿وَأَنتَ

﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فقيل له: ارفع رأسك فقد استجبت لك، اركض برجلك، فركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها فلم يبق عليه من دابّة شىء ظاهر إلاّ سقط، فأذهب الله كلّ ألم وكلّ سقم، وعاد إليه شبابه وجماله أحسن ما كان وأفضل ما كان، ثم ضرب رجله فنبعت عين أخرى فشرب منها، فلم يبق فى جوفه داء إلاّ خرج، فقام صحيحًا وكُسى حلّة.

قال: فجعل يلتفت فلا يرى شيئًا مما كان له من أهل ومال إلاّ وقد أضعفه الله له حتى والله ذكر لنا أن الماء الذى اغتسل منه تطاير على صدره جراداً من ذهب، قال: فجعل يضمّه بيده فأوحى إليه: يا أيوب ألم أغنك؟ قال: بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها، قال: فخرج حتى جلس على مكان مشرف، ثمّ إنّ امرأته قالت: أرأيت إن كان طردنى، إلى من أكله؟ أدعه يموت جوعًا وتأكله السباع لأرجعن إليه، فرجعت إليه فلا كناسة ترى ولا تلك الحال التى كانت، وإذا الأمور قد تغيّرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى، وذلك بعين أيّوب.

قال: وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله عنه، فأرسل إليها أيّوب فدعاها فقال: ما تريدين يا أمة الله؟ فبكت وقالت: أردت ذلك المبتلى الذى كان منبوذًا على الكناسة لا أدرى أضاع أم ما فعل؟

فقال لها أيوب: ما كان منك؟ فبكت وقالت: أردت بعلى فهل رأيته؟ قال: وهل تعرفينه إذا رأيته؟ قالت: وهل يخفى على أحد رآه؟ ثم جعلت تنظر إليه وهى تهابه، ثم قالت: أما إنّه كان أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحًا، قال: فإنّى أنا أيّوب الذى أمرتنى أن أذبح لإبليس، وإنّى أطعتُ الله؟ وعصيت الشيطان ودعوت الله سبحانه وتعالى فردَّ علىَّ ما ترين.

وقال كعب: كان أيّوب فى بلائه سبع سنين.

وقال وهب: لبث أيّوب فى ذلك البلاء ثلاث سنين لم يزد يومًا واحداً، فلمّا غلب أيّوب إبليس ولم يستطع منه شيئًا اعترض امرأته فى هيئة ليس كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والجمال، على مركب ليس من مراكب الناس، له عظم وبهاء وجمال، فقال لها: أنت صاحبة أيّوب هذا الرجل المبتلى؟ قالت: نعم قال: هل تعرفيننى؟ قالت: لا، قال: فأنا إله الأرض، وأنا الذى صنعت بصاحبك ما صنعت وذلك أنّه عبد إله السّماء، وتركنى فأغضبنى، ولو سجد لى سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان لكما من مال وولد فإنّه عندى، ثم أراها إيّاهم فيما ترى ببطن الوادى الذى لقيها فيه.

قال وهب: وقد سمعت أنه إنّما قال: لو أن صاحبك أكل طعامًا ولم يسمّ عليه لعُوفى ممّا به

من البلاء، والله أعلم، وأراد إبليس لعنه الله أن يأتيه من قبلها.

ورأيت فى بعض الكتب أنّ إبليس قال لرحمة: وإن شئت فاسجدى لى سجدة واحدة حتى أردّ عليك المال والأولاد وأعافى زوجك، فرجعت إلى أيّوب فأخبرته بما قال لها وما أراها، قال: قد أتاك عدوّ الله ليفتنك عن دينك، ثمّ أقسم إن عافاه الله ليضربنّها مائة جلدة.

وقال عندَ ذلك: مسّنى الضر من طمع إبليس فى سجود حرمتى له، ودعائه إيّاها وإيّاى إلى الكفر، قالوا: ثمَّ الله سبحانه رحم رحمة امرأة أيّوب بصبرها معه على البلاء، وخفّف عنها، وأراد أن يبرئ يمين أيوب فأمره أن يأخذ جماعة من الشجر فيضربها بها ضربة واحدة كما قال الله سبحانه ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ (ص: ٤٤) الآية.

وقال وهب وغيره: كانت امرأة أيوب تكسب له وتعمل للناس وتجيئه بقوته، فلمّا طال عليهما البلاء وسئمها الناس فلم يستعملها التمست له يومًا من الأيّام ما تطعمه، فما وجدت شيئًا فجزّت قرنًا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها: أين قرنك فأخبرته بذلك فحينئذ قال مسّنى الضر.

وقال قوم: إنّما قال: مسّنى الضر حين قصدت الدود إلى قلبه ولسانه فخشى أن يبقى عن الذكر والفكر.

وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان لأيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران أن يدنوا منه من ريحه، فقال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم فى أيّوب خيراً ما ابتلاه بما نرى، قال: فلم يسمع أيوب شيئًا كان عليه أشدّ من هذه الكلمة، وما جزع من شىء أصابه جزعه من تلك الكلمة، فعند ذلك قال: مسّنى الضرّ، ثم قال: اللهمَّ إن كنت تعلم أنى لم أبتْ ليلة شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدّقنى فصدّق، وهما يسمعان ثمّ قال: اللهمّ إن كنت تعلم أنّى لم أتّخذ قميصين قطّ وأنا أعلم مكان عار فصدّق وهما يسمعان فخرَّ ساجداً.

وقيل معناه: مسّنى الضر من شماتة الأعداء، يدلّ عليه ما روى أنّه قيل له بعدما عوفى: ما كان أشد عليك فى بلائك؟ قال: شماتة الأعداء.

وقيل: إنّما قال ذلك حين وقعت دودة من فخذه فرفعها وردّها إلى موضعها وقال: كلى فقد جعلنى الله طعامك، فعضّتهُ عضّة زاد ألمها على جميع ما قاسى من عضّ الديدان.

وسمعت أبا عبد الله بن محمد بن جعفر الأبيوردى يقول: سمعت أبا عبد الله محمد بن عبّاد البغدادى يقول: سئل أبو القاسم جنيد عن هذه الآية فقال: عرّفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكرم النوال.

وسمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول حضرت مجلسًا غاصًا بالفقهاء والأُدباء في دار سلطان فسألت عن هذه الآية ـ بعد إجماعهم على أنّ قول أيوب ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ شكاية وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا﴾ (ص: ٤٤) فقلت: ليس هذا شكاية وإنما هو دعاء، بيانه قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ والإجابة تعقب الدعاء لا الاشتكاء، فاستحسنوه وارتضوه.

﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾: واختلفوا في كيفية ذلك فقال قوم: إنما آتى الله سبحانه أيّوب في الدنيا مثل أهله الذين هلكوا، فأما الذين هلكوا فإنّهم لم يُردّوا عليه، وإنّما وعد الله أيّوب أن يؤتيه إيّاهم في الآخرة.

وروى عبد الله بن إدريس عن ليث قال: أرسل مجاهد رجلاً يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن هذه الآية فقال: قيل له: إنّ أهلك لك في الآخرة، فإن شئت عجّلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في الآخرة، وآتيناك مثلهم في الدنيا؟ فقال: يكونون لي في الآخرة، وأُوتى مثلهم في الدنيا.

قال: فرجع إلى مجاهد فقال: أصاب، ويكون معنى الآية على هذا التأويل وآتيناه أهله في الآخرة، ومثلهم معهم في الدنيا، وأراد بالأهل الأولاد.

قال وهب: كان له سبع بنات وثلاثة بنين.

وقال ابن يسار: كان له سبع بنين وسبع بنات، وقال آخرون: بل ردّهم الله سبحانه بأعيانهم وأعطاه مثلهم معهم، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة وكعب قال: أحياهم الله وأُوتي مثلهم، وهذا القول أشبه بظاهر الآية.

وقال الحسن: آتاه الله المثل من نسل ماله والذي ردّ عليه وأهله، فأمّا الأهل والمال فإنه ردّهما عليه بأعيانهما.

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾: عظة لهم ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾: يعني ابن إبراهيم ﴿وَإِدْرِيسَ﴾: وهو أخنوخ ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: على أمر الله، واختلفوا في ذي الكفل، فأخبرني ابن فنجويه بقراءتي عليه في داري قال: حدّثنا عمر بن الخطاب قال: حدّثنا عبد الله الرازي عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال: سمعت حديثًا للنبي ﷺ لو لم أسمعه إلاّ مرة أو مرتين لم أُحدّث به، سمعته منه أكثر من سبع مرات، قال ﷺ: «كان في بني إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لاينزع عن ذنب عمله، فاتبع امرأة فأعطاها ستّين ديناراً على أن تعطيه نفسها، فلمّا قعد منها مقعد الرجل من المرأة أُرعدت وبكت فقال: ما يبكيك؟ قالت: من هذا العمل، ما عملته قطّ، قال: أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن حملتني عليه الحاجة، قال:

اذهبى فهو لك، ثم قال: والله لا أعصى الله أبداً، فمات من ليلته فقيل مات ذو الكفل، فوجدوا على باب داره مكتوبًا: إنّ الله قد غفر لذى الكفل»[١].

وروى الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث أنّ نبيًّا من الأنبياء قال: من يكفل لى أن يصوم النّهار ويقوم الليل ولا يغضب؟ فقام شاب فقال: أنا، فقال: اجلس، ثم عاد فقال: من يكفل لى أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب؟ فقام ذلك الشاب فقال: أنا، فقال: اجلس، ثم عاد فقام الشاب فقال: أنا فقال: تقوم الليل وتصوم النهار ولا تغضب؟ قال: نعم.

فمات ذلك النبى فجلس ذلك الشاب مكانه يقضى بين الناس فكان لا يغضب، فجاءه الشيطان فى صورة إنسان ليغضبه وهو صائم يريد أن يقيل، فضرب الباب ضربًا شديداً فقال: من هذا؟ فقال: رجل له حاجة، فأرسل معه رجلاً فرجع فقال: لا أرضى بهذا الرجل، فأرسل معه رجلاً فرجع فقال: لا أرضى بهذا الرجل، فأرسل معه آخر، فقال: لا أرضى بهذا، فخرج إليه فأخذ بيده فانطلق معه حتى إذا كان فى السوق خلاّه وذهب، فسمّى ذا الكفل[٢].

---

(١) فى إسناده سعد مولى طلحة ولم يرو إلا هذا الحديث. فهو مجهول ولم يتكلم عنه رجال الجرح والتعديل وإن كان ذكره ابن حبان فى الثقات إلاّ أن ابن حبان فى توثيقه شىء، ومتن الخبر لا يصلح لأنه ذكر فى مصاف الأنبياء والرسل وما فى الخبر لا يتفق وهذه الكوكبة من هداة البشر الذين بهم يقتدون ويهتدون وقد طهروا واصطفوا من بين الخلق أجمعين ولا يجوز فى حقهم إلاّ كل كمال عقائدى وأخلاقى وبدنى وما فى هذا الخبر إلا خبر عن رجل من عوام الناس قد أتى ذنبًا من الذنوب الكبار ثم أمسك عنه خشية من الله سبحانه فتقبل الله منه توبته وهذا فعل عامة البشر وليس من أخلاق الأنبياء وصفتهم فى شىء وقد عصموا من مثل هذا وليس بعد قول الله قول حيث ذكره بين الأنبياء فذكر قبله إدريس عليه السلام ولا يشك فى نبوته ورسالته، وذكر بعده ذا النون عليه السلام ولا يشك فى نبوته ورسالته مما يؤكد نبوة ذى الكفل عليه السلام مما يجعل الخبر لا أساس له من الصحة ولا يجوز أن يلحق بمن اصطفى الله من عباده واختارهم ليكونوا منارات للهدى وعلامات على طريق الصلاح والفلاح والنجاح والنجاة.

فلا تقبل أخى المسلم من الأخبار ما خط كل بنان وعليك بما جاء عن المنان صاحب البيان الذى أنزل القرآن لتكون من أهل الجنان والروح والريحان.

(٢) وهذا خبر موقوف ولا يصح الوقف والإرسال فى مثل هذه الأخبار، وما فى متن الخبر لا يقبل حيث إن ذا الكفل كان نبيًا من قبل الله تعالى، والنبوة لا تورث إلاّ فى حالات محددة ذكرها الله تعالى وقد قبلها ممن طلبها فى قوله تعالى: ﴿يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيًّا﴾ وقد قبل الله تعالى دعاء ذلك النبى، واختيار موسى عليه السلام لأخيه هارون وقد قبل الله تعالى دعاء سيدنا موسى وجعل معه أخاه هارون نبيًا وإبراهيم ولوط عليهما السلام وما إلى ذلك من الحالات المحددة فى القرآن الكريم والتى تسمى بأحداث الأعيان فلا يجوز أن تنصرف إلى غيرهم بحال ما لم يكن على ذلك الانصراف دليل قاطع من كتاب أو سنة صحيحة صحة التواتر خصوصًا ما مسّ أنبياء الله تعالى أو العقيدة أو صلب التشريع من حلال وحرام.

وقال مجاهد: لما كبر اليسع (عليه السلام) قال: لو أنّى استخلفتُ رجلاً على الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل، قال: فجمع الناس فقال: من يتقبل لى بثلاث أستخلفه: يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب، فقام رجل تزدريه العين فقال: أنا فردّه ذلك اليوم، وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا فاستخلفه ـ قال: فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان فأعياهم فقال: دعونى وإياه فأتاه فى صورة شيخ فقير حين أخذ مضجعه للقائلة ـ وكان لا ينام بالليل والنهار إلاّ تلك النومة ـ فدقّ الباب فقال: من هذا؟ قال: شيخ فقير كبير مظلوم، فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه فقال: إنّ بينى وبين قومى خصومة وإنّهم ظلمونى وفعلوا، وفعلوا فجعل يطوّل عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة، قال: إذا رحت فإنّنى آخذ لك بحقّك، فانطلق وراح، فكان فى مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ، فلم يره فقام يتبعه، فلمّا كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلا يراه، فلمّا رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدقّ الباب فقال: من هذا؟ قال: الشيخ المظلوم، ففتح له فقال: ألم أقل إذا قعدت فأتنى قال: إنهم أخبّ قوم، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نعطيك حقّك، وإذا قمت جحدونى، قال: فانطلق فإذا رحت فأتنى، ففاته القائلة فراح فجعل ينظر ولا يراه وشقّ عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعنّ أحدًا يقرب هذا الباب حتى أنام فإنّى قد شقّ علىّ النوم.

فلمّا كان تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل فلمّا أعياه نظر فرأى كوّة فى البيت فتسوّر منها فإذا هو فى البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل فقال: يا فلان ألم آمرك؟ فقال: أمّا من قبلى فلم تُؤتَ والله، فانظر من أين أُتيت؟ فقام إلى الباب فهو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه فى البيت فقال له: أتنام والخصوم ببابك؟ فعرفه فقال: أعدوّ الله؟ قال: نعم أعييتنى فى كلّ شىء ففعلت ما ترى لأغضبك فعصمك الله منّى، فسمّى ذا الكفل لأنه تكفّل بأمر فوفى به[1].

وقال أبو موسى الأشعرى: إنّ ذا الكفل لم يكن نبيًّا ولكن كان عبدًا صالحًا تكفّل بعمل رجل صالح عند موته وكان يصلى لله سبحانه وتعالى كل يوم مائة صلاة، فأحسن الله عزّ وجل عليه الثناء.

وقيل: كان رجلاً تكفّل بشأن رجل وقع فى بلاء فأنجاه الله على يديه.

وقيل: ذو الكفل إلياس، وقيل: هو زكريّا، والله أعلم.

(١) وهذا أيضًا موقوف كسابقه فحاله كحاله.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ۝ وَذَا النُّونِ﴾ : واذكر صاحب النون وهو يونس بن متّى ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ : اختلفوا فى معنى الآية ووجهها فقال الضحّاك : ذهب مغاضبًا لقومه ، وهى رواية العوفى وغيره عن ابن عباس قال : كان يونس وقومه يسكنون فلسطين ، فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصف سبط وبقى سبطان ونصف ، فأوحى الله تعالى إلى أشعياء النبى أن سر إلى حزقيا الملك وقل له حتى [يختار][1] نبيًا قويًّا أمينًا فإنّى أُلقى فى قلوب أُولئك حتى يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فقال له الملك : فمن ترى؟ وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء ، فقال : يونس ، فإنّه قوى أمين ، فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج ، فقال يونس : هل أمرك الله بإخراجى؟ قال : لا ، قال : فهل سمّانى لك؟ قال : لا ، قال فههنا غيرى أنبياء أقوياء أُمناء ، فألحّوا عليه فخرج مغاضبًا للنبى وللملك وقومه ، فأتى بحر الروم فإذا سفينة مشحونة فركبها فلمّا تلججت السفينة تكفأت حتى كادوا أن يغرقوا فقال الملاّحون ، هاهنا رجل عاص أو عبد آبق ، ومن رسمنا أن نقترع فى مثل هذا فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه فى البحر ، ولئن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة بما فيها ، فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة كلّها على يونس .

فقام يونس فقال : أنا الرجل العاصى والعبد الآبق ، وألقى نفسه فى الماء فجاء حوت فابتلعه ، ثمَّ جاء حوت آخر أكبر منه فابتلع هذا الحوت ، وأوحى الله إلى الحوت : لا تؤذ منه شعرة فإنّى جعلت بطنك سجنه ، ولم أجعله طعامًا لك .

وقال الآخرون : بل ذهب عن قومه مغاضبًا لربه إذ كشف عنهم العذاب بعدما وعدهموه ، وذلك أنّه كره أن يكون بين قوم قد جرّبوا عليه الخلف فيما وعدهم ، واستحيا منهم ، ولم يعلم السبب الذى به دفع عنهم العذاب والهلاك ، فخرج مغاضبًا وقال : والله لا أرجع إليهم كذّابًا أبدًا ، وإنّى وعدتهم العذاب فى يوم فلم يأت .

وفى بعض الأخبار : إنّ قومه كان من عادتهم أن يقتلوا من جرّبوا عليه الكذب ، فلمّا لم يأتهم العذاب للميعاد الذى وعدهم خشى أن يقتلوه ، فغضب وقال : كيف أرجع إلى قومى وقد أخلفتهم الوعد؟ ولم يعلم سبب صرف العذاب عنهم ، وكيفية القصة ، وذلك أنّه كان خرج من بين أظهرهم ، وقد ذكرت القصة بالشرح فى سورة يونس .

قال القتيبى : المغاضبة مفاعلة ، وأكثر المفاعلة من اثنين كالمناظرة والمخاصمة والمجادلة وربّما تكون من واحد كقوله : سافرت وعاقبت الرجل وطارقت النعل وشاركت الأمر ونحوها ،

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من تفسير القرطبى والسياق يقتضيها وليس معنى ذلك أن الخبر صحيح .

وهى هاهنا من هذا الباب، فمعنى قوله: مغاضبًا أى غضبان أنفًا، والعرب تسمى الغضب أنفًا، والأنف غضبًا لقرب أحدهما من الآخر، وكان يونس وعده قومه أن يأتيهم العذاب لأجله فلمّا فات الأجل ولم يتعذبوا غضب وأنف أن يعود إليهم فيكذّبوه، فمضى كالنادّ الآبق إلى السفينة، وكان من طول ما عاين وقاسى من بلاء قومه يشتهى أن ينزل الله بهم بأسه.

وقال الحسن: إنّما غاضب ربّه من أجل أنهّ أمر بالمصير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه، فسأل ربّه أن يُنظره ليتأهب للشخوص إليهم، فقيل له: إنّ الأمر أسرع من ذلك ولم يُنظر حتى سأل أن ينظر إلى أن يأخذ نعلاً يلبسها، فقيل له نحو القول الأول، وكان رجلاً فى خلقه ضيق[1]، فقال: أعجلنى ربى أن آخذ نعلاً؟ فذهب مغاضبًا.

وقال وهب بن منبه اليمانى: إنّ يونس بن متّى كان عبدًا صالحًا، وكان فى خلقه ضيق، فلمّا حملت عليه أثقال النبوّة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل، فقذفها من يده وخرج هاربًا منها، فلذلك أخرجه الله سبحانه من أُولى العزم، فقال لنبيّه محمد ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥) وقال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ (القلم: ٤٨) أى لا تلق أمرى كما ألقاه[2].

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: أن لن نقضى عليه العقوبة، قاله مجاهد وقتادة والضحّاك والكلبى، وهى رواية العوفى عن ابن عباس، تقول العرب: قدّر الله الشىء بقدره تقديرًا وقدره يقدره قدرًا، ومنه قوله: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ (الواقعة: ٦٠) وقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: ٣) فى قراءة من خففهما، ودليل هذا التأويل قراءة عمر بن عبد العزيز والزّهرى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نُّقَدِّرَ عَلَيۡهِ﴾ بضم النون وتشديد الدال من التقدير، وقرأ عبيد بن عمير

---

(١) هذه عبارة لا تليق أن تلصق بنبى أو أن تقال فى حقه وربما كانت سبق قلم أو سهوًا عفا الله عنا وعن قائلها.

(٢) نعوذ بالله من اعتقاد مثل هذا الاعتقاد أو أن نقول مثل هذا القول فى نبى الله يونس عليه السلام أو فى أحد ممن اصطفى الله واختار، فالله يقول: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ وما فرّ نبى الله يونس من الله عزّ وجلّ إلاّ إلى الله عزّ وجلّ وما ذمه ربه وما قلاه، وإنما علمه كما علم غيره من الأنبياء كموسى عليه السلام إذ دله على الخضر، ووصى نبيه محمداً ﷺ باتباع الرسل من قبله وخصه باتباع ملة إبراهيم عليه السلام وقرنه معه فى التشهد فى الصلوات الخمس إلاّ أن لكل قوم طبيعة وكذلك اقتضى الحال أن تكون لكل نبى طبيعة تتمشى مع خصائص قومه، فالحذر الحذر من ترك العنان للنفس لتقول أو تتخيل فى أنبياء الله غير الكمال المطلق، فالأنبياء كسائر البشر لا يعلمون فيعلمون غير أن الناس يعلم بعضهم بعضًا أما الأنبياء فتعلمهم الملائكة بالوحى من الله عزّ وجلّ فربما تصرف النبى منهم تصرف احتاج فيه إلى سرعة التصحيح من قبل السماء فكان ذلك درسًا له ولمن بعده من الأنبياء يتعلمون منه ما ينبغى وما لا ينبغى أما فى مسائل الهروب من تكاليف الله أو الاعتقاد فيه ما لا يجب فنعوذ بالله من مثل هذا القول أو الاعتقاد.

وقتادة: فظنّ أن لن يُقدّر عليه بالتشديد على المجهول، وقرأ يعقوب يُقدَر بالتخفيف على المجهول. وقال الشاعر في القدر بمعنى التقدير:

فليست عشيّات الحمى برواجع لنا أبداً ما أروق السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذى مضى تباركت ما تقدر نفع ولك الشكر

وقال عطاء وكثير من العلماء: معناه فظنّ أن لن نضيّق عليه الحبس من قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الرعد:٢٦) أى يضيّق.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ (الطلاق:٧)، وقال ابن زيد: هو استفهام معناه: أفظنّ أن لن نقدر عليه؟.

وروى عوف عن الحسن أنّه قال: معناه: فظنّ أنّه يعجز ربّه فلا يقدر عليه[1].

قال: وبلغنى أن يونس لمّا أذنب انطلق مغاضباً لربّه واستزلّه الشيطان حتّى ظنّ أن لن يقدر عليه.

قال: وكان له سلف وعبادة فأبى الله أن يدعه للشيطان فقذفه فى بطن الحوت، فمكث فى بطن الحوت أربعين من بين يوم وليلة، وقيل: سبعة أيام، وقيل: ثلاث، وأمسك الله نفسه فلم يقتله هناك، فتاب إلى ربه فى بطن الحوت وراجع نفسه فقال: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاستخرجه الله من بطن الحوت برحمته.

قال عوف: وبلغنى أنّه قال: وبنيت لك مسجداً فى مكان لم يبنه أحد قبلى، والتأويلات المتقدمة أولى بالأنبياء وأبعد من الخطأ[2].

﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أى ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، قاله أكثر المفسّرين، وقال سالم بن أبى الجعد: ظلمة جوف الحوت، ثم ظلمة جوف الحوت الآخر الذى ابتلعه فى ظلمة البحر.

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: قال محمد بن قيس: قال يونس: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: حين عصيتك، وما صنعت من شىء فلم أعبد غيرك.

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لمّا أراد الله سبحانه حبس يونس فى بطن الحوت

(١) هذا تأويل غير موفق، وكذا ما بعده أيضاً.

(٢) هذا قول جيد يفيد أن الثعلبى وإن كان تفسيره قد حشد بهذا الكم من الأحاديث الضعيفة والموضوعة إنما كان العيب على إيراده لها وإن كان عدم التنبيه عليها بالمرة مما يجعل القارئ غير المتعمق قد يقع فى شراكها فيصدقها أما الثعلبى نفسه فقد كان على علم غزير وعقيدة صحيحة لا شائبة فيها ومثل هذا القول يؤكد ما أقوله عنه من أن العيب ليس فى المؤلف وإنما فى المؤلف حيث أورد فيه كمّا كبيراً مما لا يصح دون التنويه عليه.

أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحمًا ولا تكسر له عظمًا، فأخذه ثمّ هوى به إلى مسكنه فى البحر، فلمّا انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا فقال فى نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله سبحانه إليه وهو فى بطن الحوت: إنّ هذا تسبيح دوابّ البحر، قال: فسبّح وهو فى بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنّا لنسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة! قال: ذاك عبدى يونس عصانى، فحبسته فى بطن الحوت، قالوا: العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كلّ يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (الصافات: ١٤٥).

وروى أبو هلال محمد بن سليمان عن شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: أتى جبرئيل يونس (عليه السلام) فقال له: انطلق إلى السفينة، فركبها فاحتبست السفينة فساهموا فسهم، فجاء الحوت يبصبص بذنبه فنودى الحوت: إنّا لم نجعل يونس لك رزقًا، إنّا جعلناك له حرزًا ومسجدًا، فالتقمه الحوت فانطلق به من ذلك المكان حتى مرّ به على الإبلّة، ثمّ مرَّ به على دجلة ثم انطلق حتى ألقاه فى نينوى، فكان ابن عباس يقول: إنّما كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت، ودليل هذا القول أنّ الله تعالى ذكر قصة يونس فى سورة الصافّات ثم عقبها بقوله ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات: ١٤٧).

وقال الآخرون: بل كانت قصّة الحوت بعد دعائه قومه وتبليغهم رسالة ربّه كما قد بيّنّا ذكره.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: من كربهم إذا استغاثوا بنا ودعونا.

وروى على بن زيد عن زيد عن سعيد بن المسيّب قال: سمعت سعد بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس ابن متّى» قال: فقلت: يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامّة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ إلى قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو شرط الله لمن دعاه بها.

واختلفت القراءة فى قوله «ننج» فقرأه العامة بنونين الثانية منهما ساكنة من الإنجاء على معنى نحن ننجى، فإن قيل: لم كتبت فى المصاحف بنون واحدة[1]؟ قيل: لأنّ النون الثانية لمّا سكنت وكان الساكن غير ظاهر على اللسان حذفت، كما فعلوا ذلك بإلاّ فحذفوا النون منها لجعلها كاشفة إذا كانت مدغمة فى اللام، وقرأ ابن عامر وعاصم برواية ابن بكر ﴿نُـۨجِى

(١) فى غير مصحف حفص المطبوع والمتداول.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بنون واحدة وتشديد الجيم وتسكين الياء، واختلف النحاة فى هذه القراءة فمنهم من صوّبها وقال: فيه إضمار معناه: نجى المؤمنين كما يقال: ضرب زيدًا بمعنى ضرب الضرب زيدًا. قال الشاعر:

ولو ولدت قفيرة جرو كلب لسُبَّ بذلك الجرو الكلابا

أراد لسبّه بذلك الجرو ولسبّ الكلابا.

قالو: وإنّما سكّن الياء فى نجّى كما سكّنوها فى بقر فقالوا بقرة ونحوها وإنّما اتبع أهل هذه القراءة المصحف لأنّها مكتوبة بنون واحدة.

وقال القتيبى: من قرأ بنون واحدة والتشديد فإنّه أراد ننجى من التنجية إلاّ أنّه أدغم وحذف نونًا على طلب الخفّة.

وقال النحويون: هو ردىء لبعد مخرج النون من الجيم، وممن جوّز هذه القراءة أبو عبيد، وأما أبو حاتم السجستانى فإنه لحّنها ونسب قارئها إلى الجهل وقال: هذا لحن لا يجوز فى اللغة، ولا يحتج بمثل ذلك البيت على كتاب الله سبحانه وتعالى إلاّ أن يقول: وكذلك نُجى المؤمنين، ولو قرئ كذلك لكان صوابًا، والله أعلم.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ﴾: دعا ﴿رَبَّهُۥ﴾: فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾: وحيدًا لا ولد لى ولا عقب وارزقنى وارثًا، ثمّ ردّ الأمر إلى الله سبحانه فقال: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾: ولدًا ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾: بأن جعلناها ولودًا بعدما كانت عقيمًا، قاله أكثر المفسّرين، وقال بعضهم: كانت سيئة الخلق فأصلحها له بأن رزقها حسن الخلق[١].

﴿إِنَّهُمۡ﴾: يعنى الأنبياء الذين سمّاهم فى هذه السورة.

﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾: خوفًا وطمعًا رغبًا فى رحمة الله ورهبًا من عذاب الله، وقرأ الأعمش، رُغبًا ورُهبًا بضم الراء وجزم الغين والهاء وهما لغتان مثل السَّقم والسُّقم والثَّكل والثُّكل والنَّحل والنُّحل والعَدم والعُدم.

﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾: خاضعين متواضعين.

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ﴾: حفظت ومنعت ﴿فَرۡجَهَا﴾: ممّا حرم الله سبحانه وهى مريم بنت عمران ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾: أى أمرنا جبرئيل حتى نفخ فى جيب درعها[٢] وأحدثنا بذلك النفخ المسيح فى بطنها، وأضاف الروح إليه على معنى الملك والتشريف لمريم وعيسى بتخصيصها

(١) التأويل الأول هو الأصوب والأليق بزوجات الأنبياء.

(٢) هذا قول لا يليق وليس عليه دليل صحيح من كتاب ولا سنة.

بالإضافة إليه.

﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ : أى دلالة على كمال قدرتنا وحكمتنا، حمل امرأة بلا مماسّة ذكر، وكون ولد من غير أب، وإنّما قال «آية» ولم يقل آيتين لأن معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية للعالمين.

﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ : ملّتكم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ : ملّة واحدة وهى الإسلام فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان، وأصل الأُمّة الجماعة التى هى على مقصد واحد فجعلت بالشريعة أمة واحدة لاجتماع أهلها بها على مقصد واحد، ونصب أمّة على القطع، وقرأ ابن أبى إسحاق أُمّة بالرفع على التكرير.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ : أى اختلفوا فى الدين صاروا فيه فرقًا وأحزابًا، ثم قال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ : فنجزيهم بأعمالهم.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ : لا نبطل عمله ولا نجحده بل يُشكر ويثاب عليه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ﴾ : لعمله حافظون.



﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ۝ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ۝ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ۝ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ

وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ : قرأ أهل الكوفة : وحرْم بكسر الحاء وجزم الراء من غير ألف ، وقرأ الآخرون : وحرام ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، وهما لغتان مثل حل وحلال .

قال ابن عباس : معنى الآية «وحرامٌ على قرية» أى أهل قرية ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ : أى يرجعون بعد الهلاك وعلى هذا التأويل يكون لا صلة مثل قول العجاج :

❖ فى سر لا حورى سرى وما شعر ❖

أى فى سر حور .

وقال آخرون : الحرام بمعنى الواجب كقول الخنساء :

وإنَّ حرامًا لا أرى الدهر باكيًا على شجوه إلاّ بكيت على عمرو

وعلى هذا التأويل يكون لا ثابتًا .

وقال جابر الجعفى : سألت أبا جعفر عن الرجعة فقرأ هذه الآية .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ﴾ : قرأه العامة بالتخفيف ، وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب بالتشديد على الكسرة .

﴿يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ : ومعنى الآية فرّج السد عن يأجوج ومأجوج ، وقد ذكرنا قصتهما بالشرح .

وروى منصور بن المعتمر عن ربعى بن خراش عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : أوّل الآيات الدجّال ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا ، والدخان والدابّة ، ثم يأجوج ومأجوج .

قال حذيفة : قلت : يا رسول الله ما يأجوج ومأجوج؟ قال : «أمم ، كلّ أُمّة أربعمائة ألف أُمّة ، لا يموت الرجل منهم حتى يرى ألف عين تطرف بين يديه من صلبه ، وهم ولد آدم (عليه السلام) فيسيرون إلى خراب الدنيا ، ويكون مقدمتهم بالشام وساقهم بالعراق ، فيمرون بأنهار الدنيا فيشربون الفرات ودجلة وبحر الطبرية حتى يأتوا بيت المقدس فيقولوا : قد قتلنا أهل الدنيا ، فقاتلوا من فى السماء فيرمون بالنشّاب إلى السّماء ، فيرجع نشابهم مخضبة بالدم فيقولون : قد قتلنا من فى السّماء .

وعيسى والمسلمون بجبل طور سينين فيوحى الله سبحانه إلى عيسى أن أحرز عبادى بالطور وما يلى، ثمّ إنّ عيسى يرفع يديه إلى السّماء، ويؤمن المسلمون، فيبعث الله سبحانه عليهم دابّة يقال لها النغف تدخل فى مناخرهم فيصبحون موتى من حاقّ الشام إلى حاق المشرق حتى تنتن الأرض من جيَفهم ويأمر الله سبحانه السماء فتمطر كأفواه القرب فتغسل الأرض من جيفهم ونتنهم، فعند ذلك طلوع الشمس من مغربها.

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾: أى نشز وتلّ ﴿يَنسِلُونَ﴾: يخرجون مشاة مسرعين كنسلان الذئب.

واختلف العلماء فى هذه الكناية فقال قوم: عنى بهم يأجوج ومأجوج، واستدلّوا بحديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله سبحانه ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾: فيغشون الأرض.

وروى عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ فيما يذكر عن عيسى قال: «قال عيسى: عهد إلىَّ ربى أنّ الدجّال خارج وأنّه مهبطى إليه، فذكر أنّ معه قصبتين فإذا رآنى أهلكه الله، قال: فيذوب كما يذوب الرصاص حتى أنّ الشجر والحجر ليقول: يا مسلم هذا كافر فاقتله، فيهلكهم الله عزّ وجلّ ويرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فيستقبلهم يأجوج ومأجوج من كلّ حدب ينسلون، لا يأتون على شيء إلاّ أهلكوه ولا يمرّون على ماء إلاّ شربوه».

وقال آخرون: أراد جميع الخلق، يعنى أنّهم يخرجون من قبورهم ومواضعهم فيحشرون إلى موقف القيامة، تدل عليه قراءة مجاهد: وهم من كلّ جدث بالجيم والثاء يعنى القبر اعتباراً بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (يس: ٥١).

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾: يعنى القيامة، قال الفرّاء وجماعة من العلماء: الواو فى قوله «واقترب» مقحم ومجاز الآية: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحقّ، نظيرها قوله ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾ (الصافات: ١٠٣، ١٠٤) أى ناديناه: قال امرؤ القيس:

فلمّا أجزنا ساحة الحىّ وانتحى ... بباطن خبت ذى قفاف عقنقل

يُريد انتحى، ودليل هذا التأويل حديث حذيفة قال: لو أنّ رجلاً اقتنى فلواً بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتّى تقوم الساعة.

وقال الزجّاج: البصريون لا يجيزون طرح الواو ويجعلون جواب حتى إذا فتحت فى قوله: «يا ويلنا» وتكون مجازاً الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا﴾.

﴿فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: فى قوله: ﴿هِىَ﴾: ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون هى كناية عن الأبصار ويكون الأبصار الظاهرة بيانًا عنها كقول الشاعر:

لعمر أبيها لا تقول ظعينتى ألا فرَّعنى مالك بن أبى كعب

فكنى عن الظعينة فى أبيها ثم أظهرها فيكون تأويل الكلام: فإذا الأبصار شاخصة أبصار الذين كفروا.

والثانى: أن تكون هى عمادًا كقوله: «فَإنّها لا تَعْمى الأبصارُ»، وكقول الشاعر:

❖ فهل هو مرفوع بما ها هنا رأس ❖

والثالث: أن يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿هِيَ﴾ على معنى هى بارزة واقفة يعنى: من قربها كأنّها آتية حاضرة، ثم ابتدأ﴿شَـٰخِصَةٌ أَبۡصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: على تقديم الخبر على الابتداء مجازها: أبصار الذين كفروا من هول قيام الساعة، وهم يقولون: ﴿يَـٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَـٰذَا﴾ أى من هذا اليوم﴿بَلۡ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾: بمعصيتنا ربّنا ووضعنا العبادة فى غير موضعها.

﴿إِنَّكُمۡ﴾: أيها المشركون ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يعنى الأصنام﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: قراءة العامة بالصاد أى وقودها عن ابن عباس.

وقال مجاهد وقتادة وعكرمة: حطبها، وذُكر أنَّ الحصب فى لغة أهل اليمن الحطب.

الضحّاك: يعنى يرخون بهم فى النار كما يرمى بالحصباء، وأصل الحصب الرمى يقال حصبت الرجل إذا رميته، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ (القمر: ٣٤) يعنى ريحًا ترميهم بالحجارة وقرأ ابن عباس: حَضَب بالضاد، وهو كل ما هيّجت وأُوقدت به النار، ومنه قيل لدقاق النار: حَضَبٌ، وقرأ على وعائشة وابن حميد: حطب بالطاء نظيرها قوله سبحانه «وقودها الناس والحجارة».

﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾: أى فيها داخلون﴿لَوۡ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: الأصنام﴿ءَالِهَةٗ﴾: على الحقيقة﴿مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾: يعنى ما دخل عابدوها النار، بل منعتها﴿وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: يعنى العابد والمعبود.

﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾: قال ابن مسعود فى هذه الآية: إذا بقى فى النار من يخلد فيها جُعلوا فى توابيت من نار، ثم جُعل التوابيت فى توابيت أُخرى، ثم جعلت التوابيت فى أُخرى فيها مسامير من نار، فلا يسمعون شيئًا ولا يرى أحد منهم أن فى النار أحدًا يُعذّب غيره.

ثم استثنى فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ﴾ قال قوم من العلماء: إنّ ها هنا بمعنى إلاّ وليس فى القرآن سواه، والسبق تقدّم الشىء على غيره.

﴿لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ : السعادة والعدة الجميلة بالجنّة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ : والإبعاد: تطويل المسافة. واختلفوا فى هؤلاء من هم؟ فقال أكثر المفسرين: عنى بذلك كلّ من عُبد من دون الله وهو طائع ولعبادة من يعبده كاره، وذلك أنّ رسول الله ﷺ دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستّون صنمًا فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحارث فكلّمة رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ : الآيات الثلاث، ثمّ قال فأقبل عبد الله بن الزبعرى بن قيس بن عدى السهمى فرآهم يتهامسون قال: فيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله ﷺ، فقال عبد الله: أما والله لو وجدته لخصمته، فدعوا رسول الله ﷺ فقال له ابن الزبعرى: أنت قلت: إنّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم؟ قال: نعم، قال: قد خصمتك وربّ الكعبة، أليست اليهود تعبد عزيرًا والنصارى تعبد المسيح وبنو مليح يعبدون الملائكة؟.

فقال رسول الله ﷺ: «نعم، بل هم يعبدون الشياطين، هى التى أمرتهم بذلك، فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية يعنى عزيرًا وعيسى والملائكة».

قال الحسن بن الفضل: إنما أراد بقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأوثان دون غيرها لأنّه لو أراد الملائكة والنّاس لقال: «ومن تعبدون»، قلت: ولأنّ المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة وهم كانوا يعبدون الأصنام.

وقال بعضهم: هذه الآية عامّة فى كلّ من سبقت له من الله السعادة.

قال محمّد بن حاطب: سمعت عليًا كرّم الله وجهه يخطب، فقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ﴾ فقال: عثمان (رضى الله عنه) منهم.

وقال الجنيد فى هذه الآية: سبقت لهم من الله العناية فى البداية، فظهرت الولاية فى النهاية.

أخبرنى أبو عبد الله محمد بن عبد الله قال: حدَّثنا أبو الحسين محمد بن عثمان النصيبى قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين السبيعى بحلب، قال: أخبرنا أحمد بن الحسين بن عبد الجبار الصوفى قال: حدَّثنا عبيد الله القواريرى قال: حدَّثنا محمد بن الحسن بن أبى يزيد الهمدانى قال: حدَّثنا ليث عن ابن عمّ النعمان بن بشير ـ وكان من سمّار علىّ ـ قال: تلا علىّ ليلةً هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرّحمن بن عوف منهم ثم أُقيمت الصلاة فقام علىّ يجرّ رداءهُ وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ يعنى صوتها إذا نزلوا منازلهم من الجنة ﴿وَهُمْ فِى مَا

ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ﴾ والشهوة طلب النفس اللذّة، نظيرها قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ (الزخرف: ٧١).

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾: وقرأ أبو جعفر بضمّ الياء وكسر الزاى، والباقون: بفتح الياء وضمّ الزاى، واختلفوا فى الفزع الأكبر، فقال ابن عباس: النفخة الآخرة، دليله قوله سبحانه ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ (النمل: ٨٧).

وقال الحسن: حين يؤمر بالعبد إلى النار.

سعيد بن جبير والضحّاك: إذا أُطبقت على أهل النار.

ابن جريج: حين يذبح الموت على صورة كبش أملح على الأعراف والفريقان ينظران فينادى: يا أهل الجنّة خلود فلا موت، ويا أهل النّار خلود فلا موت.

ذو النون المصرى: هو القطيعة والهجران والفراق.

﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾: تستقبلهم ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: على أبواب الجنة يهنّونهم ويقولون لهم ﴿هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾: قرأ أبو جعفر تُطوى السماءُ بضم التاء والهمزة على المجهول، وقرأ الباقون بالنون السماء نصب ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾: قرأ أهل الكوفة على الجمع، غيرهم: للكتاب على الواحد واختلفوا فى السجلّ، فقال ابن عمر والسدىّ: السجل: ملك يكتب أعمال العباد فإذا صعد بالاستغفار قال الله سبحانه: اكتبها نوراً.

وقال ابن عباس ومجاهد: هو الصحيفة، واللاَم فى قوله للكتب بمعنى على تأويلها كطىّ الصحيفة على مكتوبها.

وروى أبو الجوزاء وعكرمة عن ابن عباس أنّ السجلّ اسم كاتب لرسول الله، وهذا قول غير قوى لأنّ كتّاب رسول الله كانوا معروفين وقد ذكرتهم فى كتاب «الربيع»، والسجلّ اسم مشتقّ من المساجلة وهى المكاتبة، وأصلها من السجل وهو الدلو، يقال: سجلت الرجل إذا نزعت دلواً ونزع دلواً ثم استعيرت فسميت المكاتبة والمراجعة مساجلة، قال الشاعر:

من يساجلنى يساجل ماجداً يملأ الدلو إلى عقد الكرب

ثم بنى هذا الاسم على فعل مثل طمر وقلز. والطى فى هذه الآية يحتمل معنيين:

أحدهما: الدرج الذى هو ضدّ النشر قال الله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (الزمر: ٦٧).

والثانى: الإخفاء والتعمية والمحو والطمس لأنّ الله سبحانه يمحو رسومها ويكدر نجومها،

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ (التكوير: ١، ٢) تقول العرب: اطو عن فلان هذا الحديث أي استره وأخفه.

ثمّ ابتدأ واستأنف الكلام فقال عزّ من قائل: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ قال أكثر العلماء: كما بدأناهم في بطون أُمهاتهم حفاة غرلا كذلك نعيدهم يوم القيامة، نظيرها قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الأنعام: ٩٤) وقوله: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ (الكهف: ٤٨).

ودليل هذا التأويل ما روى ليث عن مجاهد عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي عجوز من بني عامر فقال: من هذه العجوز يا عائشة؟ فقلت: إحدى خالاتي، فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنّة فقال: إنّ الجنّة لا يدخلها العجز، فأخذ العجوز ما أخذها.

فقال (عليه السلام): «إنّ الله ينشئهن خلقًا غير خلقهن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ (الواقعة: ٣٥) الآية ثمّ قال: يُحشرون يوم القيامة عراة حفاء غلفًا، فأوّل مَنْ يكسى إبراهيم صلوات الله عليه».

فقالت عائشة رضي الله عنها وعن أبيها: واسوأتاه فلا تحتشم الناس بعضهم بعضًا؟

قال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٧)، ثم قرأ رسول الله ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ كيوم ولدته أُمهُ.

وقال ابن عباس: يقول: نهلك كلّ شيء كما كان أول مرّة، وقيل: كما بدأناه من الماء نعيده من التراب.

﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾: نصب على المصدر يعني وعدناه وعدًا علينا ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾: يعني الإعادة والبعث.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾: قرأ الأعمش وحمزة: الزبور بضم الزاي، وغيرهما يقرؤون بالنصب وهو بمعنى المزمور كالحلوب والركوب، يقال: زبرت الكتاب وذبرته إذا كتبته، واختلفوا في معنى الزبور في هذه الآية، فقال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد: عني بالزبور الكتب المنزلة وبالذكر أُمّ الكتاب الذي عنده.

وقال ابن عباس والضحّاك: الذكر التوراة والزبور الكتب المنزلة من بعد التوراة.

وقال الشعبي: الزبور كتاب داود والذكر التوراة.

وقال بعضهم: الزبور زبور داود والذكر القرآن، وبعد بمعنى قبل كقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم

مَلِكٌ﴾ (الكهف: ٧٩) أى أمامهم، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ (النازعات: ٣٠) أى قبل ذلك.

﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾: يعنى أرض الجنّة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾: يعنى أُمة محمد (عليه السلام) قاله مجاهد وأبو العالية، ودليل هذا التأويل قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ (الزمر: ٧٤).

وقال ابن عباس: أراد أنّ الأرضَ فى الدنيا تصير للمؤمنين، وهذا حكم من الله سبحانه بإظهار الدّين وإعزاز المسلمين وقهر الكافرين.

قال وهب: قرأت فى عدّة من كتب الله أنّ الله عزّ وجلّ قال: إنّى لأُورث الأرض عبادى الصالحين من أُمة محمد ﷺ.

﴿إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا﴾: وصولاً إلى البغية، من اتّبع القرآن وعمل به وصل إلى ما يرجو من الثواب، فالقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر.

﴿لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ﴾: أى مؤمنين يعبدون الله سبحانه وتعالى.

وقال ابن عباس: عالمين، وقال كعب الأحبار: هم أُمّة محمد أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان، سمّاهم الله سبحانه وتعالى عابدين.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾: يا محمّد ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾: قال ابن زيد: يعنى المؤمنين خاصة، وقال ابن عباس: هو عامّ فمن آمن بالله واليوم الآخر كتب له رحمة فى الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن عوفى ممّا أصاب الأُمم من المسخ والخسف والقَذف.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: يعنى أعلمتكم على بيان إنا وإيّاكم حرب لا صلح بيننا، وإنّى مخالف لدينكم، وقيل: معناه على سواء من الإنذار لم أظهر بعضكم على شىء كتمته عن غيره، وقيل: لتستووا فى الإيمان به، وهذا من فصيحات القرآن.

﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾: وما أعلم ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾: يعنى القيامة، نسخها قوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾: أى لعل تأخير العذاب عنكم، كناية عن غير مذكور ﴿فِتْنَةٌ﴾: اختبار ﴿لَّكُمْ﴾: ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم ﴿وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ

(١) سبق الكلام وسيأتى عن مسألة الناسخ والمنسوخ واختلاف القول فيه بين قائل به وناف له.

حِينٍ﴾: إلى أجل يقضى الله فيه ما شاء.

أخبرنا أبو بكر الجوزقى قال: أخبرنا أبو العباس الدعولى قال: أخبرنا أبو بكر بن أبى خيثمة قال: حدَّثنا محمد بن أبى غالب قال: أخبرنا هشام قال: أخبرنا مجالد قال: حدَّثنى السبعى قال: لما سلم الحسن بن علىّ لمعاوية الأمر، قال له معاوية: قم فاخطب واعتذر إلى الناس، فقام الحسن فخطب، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنَّ أكْيَسَ الكيس التُّقى، وإنَّ أحْمَق الحُمْق الفجور، وإنّ هذا الأمر الذى اختلفت فيه أنا ومعاوية إمّا حقّ امرئ كان أحقّ به، وإمّا حقّ كان لى فتركته التماس الصلاح لهذه الأُمّة، ثم قال: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾: افعل بينى وبين من كذبنى بالحق، والله لا يحكم إلاّ بالحق، وفيه وجهان من التأويل:

قال أهل التفسير: الحق ها هنا بمعنى العذاب كأنّه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر وليله، نظيره قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ (الأعراف: ٨٩).

وقال قتادة: كان رسول الله (عليه السلام) إذا شهد قتالا قال: ربّ احكم بالحق.

وقال أهل المعانى: معناه: رب احكم بحكمك الحق، فحذف الحكم وأُقيم الحق مقامهُ، واختلف القراء فى هذه الآية فقرأ حفص ﴿قَـٰلَ رَبِّ﴾: بالألف على الخبر، الباقون: (قال) على الأمر، وقرأ أبو جعفر: رب احكم برفع الباء على النداء والمفرد، وقرأ الضحاك ويعقوب: ربى احكم بإثبات الياء على وجه الخبر بأن الله سبحانه أحكم بالحق من كل حاكم وهذه قراءة غير مرضية لمخالفة المصحف، والقرّاء الباقون: ﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾ على الدعاء ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.



سُورَةُ الحَجّ

مكية غير ست آيات نزلت بالمدينة وهى قوله: ﴿هَـٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾[١]، وهى خمسة آلاف وخمسة وتسعون حرفًا وألف ومائتان وإحدى وسبعون كلمة وثمان وسبعون آية

أخبرنا أبو الحسن الجرجانى غير مرَّة قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلى وأبو الشيخ عبد الله بن محمد الأصبهانى قالا: حدَّثنا أبو إسحاق إبراهيم بن شريك قال: حدَّثنا أحمد بن يونس اليربوعى قال: حدَّثنا سلام بن سليم المدائنى قال: حدَّثنا هارون بن كثير عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى أمامة عن أُبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحج أُعطى من الأجر كحجّة حجّها وعُمرة اعتمرها بعدد مَن حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى»[٢].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم

(١) قال القرطبى فى تفسيره فى هذا الموضوع:
هى مكية سوى ثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿هذان خصمان﴾ إلى تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد.
وعن ابن عباس أيضًا: أنهن أربع آيات إلى قوله: ﴿عذاب الحريق﴾.
وقال الضحاك، وابن عباس أيضًا: هى مدنية. وقاله قتادة إلاّ أربع آيات: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى﴾ إلى: ﴿عذاب يوم عقيم﴾ فهن مكيات.
وعدّ النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات.
وقال الجمهور: السورة مختلطة منها مكى ومنها مدنى.
وهذا هو الأصح لأن الآيات تقتضى ذلك، لأن: ﴿يا أيها الناس﴾ مكى، و﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ مدنى.
قال الغزنوى: وهى من أعاجيب السور، نزلت ليلاً ونهاراً، وسفراً وحضراً، مكيًا ومدنيًا، سلمًا وحربًا، ناسخًا ومنسوخًا، محكمًا ومتشابهًا، مختلف العدد.

(١) فى إسناده سلام بن سليمان المدائنى ولا يتابع على حديثه، وقال بعضهم: منكر الحديث.

بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ : الزلزلة والزلزال: شدّة الحركة على الحال الهائلة، من قوله: زلّت قدمه إذا زالت عن الجهة بسرعة، ثم ضوعف.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: يعنى الساعة ﴿تَذْهَلُ﴾: أى تشغل، عن ابن عباس، وقال الضحّاك: تسلو[1]، ابن حيان: تنسى، يقال: ذهلت عن كذا أى تركته واشتغلت بغيره أذهل ذهولاً، وأذهلنى الشيء إذهالاً. قال الشاعر:

❖ صحا قلبه يا عزُّ أو كاد يذهل ❖

﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾: يعنى ذات ولد رضيع، والمرضع المرأة التى لها صبى ترضعه لغيرها، هذا قول أهل الكوفة، وقال أهل البصرة: يقال: امرأة مرضع إذا أُريد به الصفة مثل مقرب ومشرق وحامل وحائض، فإذا أرادوا الفعل أدخلوا الهاء فقيل: مرضعة، التى ترضع ولَدَها.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾: أى تسقط ولدها من هول ذلك اليوم.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾.

قال الحسن: معناه: وترى الناس سكارى من الخوف، ما هم بسكارى من الشراب.

وقال أهل المعانى: مجازه: وترى الناس كأنّهم سكارى. تدل عليه قراءة أبى زرعة بن عمرو بن جرير: وتُرى الناس بضم التاء أى تظن.

وقرأ أهل الكوفة إلاّ عاصماً: سكرى وما هم سكرى بغير ألف فيهما، وهما لغتان لجمع

(١) هذا قول بعيد جداً.

السكران مثل كسلى وكسالى ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ .

روى عمران بن حصين وأبو سعيد الخدرى وغيرهما : إنّ هاتين الآيتين نزلتا ليلاً فى غزوة بنى المصطلق وهم حىّ من خزاعة والناس يسيرون ، فنادى رسول الله ﷺ فحثوا المطىّ حتى كانوا حول رسول الله ﷺ فقرأهما عليهم فلم يُر أكثر باكيًا من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطّوا السّرُج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا قدرًا والناس من بين باك أو حابس[1] حزين متفكّر ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «أبشروا وسدّدوا وقاربوا ، فإن معكم خليقتين ما كانتا فى قوم إلاّ كثرتاه يأجوج ومأجوج» .

ثمَّ قال : «إنّى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبّروا وحمدوا الله» ، ثمَّ قال : «إنّى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، فكبّروا وحمدوا الله» ، ثمَّ قال : «إنّى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبّروا وحمدوا الله» ، ثمَّ قال : «إنّى لأرجو أن تكونوا ثلثى أهل الجنّة ، وإنّ أهل الجنة مائة وعشرون صفًا ، ثمانون منها أُمّتى وما المسلمون فى الكفّار إلاّ كالشامة فى جنب البعير أو كالرقمة فى ذراع الدابة ، بل كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، ثمَّ قال : ويدخل من أُمتى سبعون ألفًا الجنة بغير حساب ، فقال عمر : سبعون ألفًا؟ فقال : نعم ومع كلّ واحد سبعون ألفًا» ، فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال : أنت منهم ، فقام رجل من الأنصار فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال رسول الله ﷺ : سبقك بها عكاشة» .

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ : نزلت فى النضر بن الحارث ، كان كثير الجدال فكان يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ويزعم أنّ الله غير قادر على إحياء من قد بلى وعاد ترابًا .

قال الله سبحانه ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ فى قيله ذلك وجداله فى الله بغير علم ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ : قضى عليه ، على الشيطان ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ : اتّبعه ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ : يعنى الشيطان ﴿يُضِلُّهُۥ﴾ : يعنى يضل من تولاه ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ : وتأويل الآية : قضى على الشيطان أنّه يضلّ أتباعه ويدعوهم إلى النار .

ثمّ ألزم الحجّة منكرى البعث فقال عزّ من قائل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ : يعنى أباكم آدم الذى هو أصل النسل ووالد البشر ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ﴾ : ذرّيته ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ : وهو المنىّ وأصلها الماء القليل وجمعها نطاف ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ : وهى الدم العبيط الجامد

---

(١) أى حابس دموعه أن تنزل .

وجمعها علق ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ : وهى لحمة قليلة قدر ما تمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ .

قال ابن عباس وقتادة : تامّة الخلق وغير تامة .

وقال مجاهد : مصوّرة وغير مصوّرة يعنى السقط .

قال عبد الله بن مسعود : إذا وقعت النطفة فى الرحم بعث الله عزّ وجلّ ملَكًا فقال : يا رب مخلّقة أو غير مخلقة؟ فإن قال : غير مخلّقة مجّتها الأرحام دمًا وإن قال : مخلّقة قال : يا ربّ فما صفة هذه النطفة؟ أذكر أم أُنثى؟ ما رزقها؟ ما أجلها؟ أشقى أم سعيد؟ فيقال له : انطلق إلى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة ، فينطلق الملك فينسخها فلا تزال معه حتى يأتى على آخر صفتها .

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ : كمال قدرتنا وحكمتنا فى تصريفنا أطوار خلقكم .

﴿وَنُقِرُّ﴾ : روى عن عاصم بفتح الراء على النسق ، غيره : بالرفع على معنى ونحن نقرُّ ﴿فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ : فلا تمجّه ولا تسقطه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ : وقت خروجها من الرحم تامّ الخلق والمدّة ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ : من بطون أُمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ : صغاراً ولم يقل أطفالاً لأنّ العرب تسمّى الجمع باسم الواحد .

قال الشاعر :

❖ إنّ العواذل ليس لى بأمير ❖

ولم يقل أُمَراء .

وقال ابن جريج : تشبيهًا باسم المصدر مثل : عدل وزور ، وقيل : تشبيهًا بالخصم والضيف .

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ : كمال عقولكم ونهاية قواكم .

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ : قبل بلوغ الأشدّ ﴿وَمِنكُم مَّن﴾ : يعمّر حتى ﴿يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ : وهو الهرم والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ .

ثمَّ بيَّن دلالة أُخرى للبعث فقال تعالى : ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يابسة دارسة الأثر من الزرع والنبات كهمود النار .

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ : المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ : تحرّكت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ : أى زادت وأضعفت النبات بمجىء الغيث ، وقرأ أبو جعفر : ربأت بالهمز ، ومثله فى حم السجدة أى ارتفعت وعلت وانتفخت ، من قول العرب : ربأ الرجل إذا صعد مكانًا مشرفًا ، ومنه قيل للطليعة ربئة .

﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ : صنف حسن ﴿ذَٰلِكَ﴾ : الذى ذكرت لتعلموا ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

ٱلۡحَقُّ﴾: والحق هو الكائن الثابت ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾.



﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ۝ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ۝﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى﴾: بيان وبرهان ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾: نزلت فى النضر بن الحارث ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾: نصب على الحال.

قال ابن عباس: مستكبرًا فى نفسه، تقول العرب: جاء فلان ثانى عطفه أى متجبّرًا لتكبّره وتجبّره، والعطف: الجانب.

الضحّاك: شامخًا بأنفه، مجاهد وقتادة: لاويًا عنقه، عطيّة وابن زيد: معرضًا عمّا يُدعى إليه من الكبر.

ابن جريج: أى يعرض عن الحقّ نظيرها قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ (لقمان: ٧) الآية، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ (المنافقون: ٥) الآية.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾: عذاب وهوان وهو القتل ببدر[1].

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: فيقال له يومئذ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾: وهذا وأضرابه مبالغة فى إضافة الجرم إليه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: فيعذّبهم بغير ذنب وهو سبحانه على أى وجه تصرّف فى عبده فإنّه غير ظالم، بل الظالم: المتعدّى المتحكّم فى غير ملكه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: الآية.

نزلت فى أعراب كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة، فإن صحّ بها جسمه ونتجت فرسه مُهْرًا حسنًا وولدت امرأته غلامًا وكثر ماله وماشيته رضى به واطمأنَّ إليه وقال: ما أصبت مذ دخلت فى دينى هذا إلا خيرًا، وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وأجهضت رماكه وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت مذ كنت على دينك هذا إلاّ شرًا، فينقلب عن دينه، وذلك الفتنة، فأنزل الله سبحانه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: أى طرف واحد وجانب فى الدين لا يدخل فيها على الثبات والتمكين، والحرف: منتهى الجسم، وقال مجاهد: على شكّ.

وقال بعض أهل المعانى: يريد على ضعف فى العبادة كضعف القائم على حرف مضطربًا فيه.

وقال بعضهم: أراد على لون واحد فى الأحوال كلّها يتّبع مراده، ولو عبدوا الله فى الشكر على السرّاء والصبر على الضرّاء لما عبدوا الله على حرف.

وقال الحسن: هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾: صحة فى جسمه وسعة فى معيشته ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾: أى رضى واطمأن إليه وأقام عليه.

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾: بلاء فى جسمه وضيق فى معاشه وتعذّر المشتهى من حاله ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ

---

(١) لو علم سبب نزول الآية علمًا يقينيًا لم يكن لازم أن يكون تأويل المؤول صحيحًا فالعبرة دائمًا بعموم اللفظ وليس قاصرًا على حدث معين وهى عامة فيما بعد هذا الحدث أو الخبر، والله أعلم.

وَجْهِهِۦ﴾ : ارتدّ فرجع إلى وجهه الذى كان عليه من الكفر ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ : وقرأ حميد الأعرج ويعقوب: خاسر الدنيا بالألف على مثال فاعل، والآخرة خفضًا، على الحال.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ : الضرر الظاهر ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ : إنْ عصاه ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ : إن أطاعه بعد إسلامه راجعًا إلى كفره ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ : ذهب عن الحق ذهابًا بعيدًا.

﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ : اختلف النحاة فى وجه هذه اللام فقال بعضهم: هى صلة مجازُها: يدعو من ضرّه أقرب من نفعه، وهكذا قرأها ابن مسعود، وزعم الفراء والزجّاج أنّ اللام معناها التأخير تقديرها: يدعو الله لمن ضرّه أقرب من نفعه.

وقال بعضهم: هذا على التأكيد معناه: يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه يدعو ثم حذفت يدعو الأخيرة اجتزاء بالأُولى، ولو قلت: تضرب لمن خيره أكثر من شرّه تضرب، ثمّ يحذف الأخير جاز.

وحكى عن العرب سماعًا: أعطيتك لما غيره خير منه، وعنده لما غيره خير منه.

وقيل: (يدعو لمنْ ضرّه) من قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ وموضع ﴿ذَٰلِكَ﴾ : نصب بـ (يدعو) كأنّه قال: الذى هو الضلال البعيد يدعو، ثم استأنف فقال: لَمَن ضرّه أقرب من نفعه، وتكون من فى محل الرفع بالابتداء وخبره ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ .

وقيل: يدعو بمعنى يقول، والخبر محذوف تقديره: لمن ضرّه أقرب من نفعه إلهه لبئس المولى الناصر، ولبئس العشير المعاشر، والصاحب والخليط يعنى الوثن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ : اختلفوا فى المعنى بالهاء التى فى قوله ينصره، فقال أكثر المفسّرين: عنى به نبيّه ﷺ، قال قتادة: يقول: من كان يظنّ أن لن ينصر الله نبيّه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ : بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ : إلى سقف البيت فليختنق به حتى يموت ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ : الحبل بعد الاختناق به[1] ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ : صنيعه وحيلته ﴿مَا يَغِيظُ﴾ : هذا قول أكثر أهل التأويل، وإنّما معنى الآية: فليصوّر هذا الأمر فى نفسه وليس يختنق لأنّه إذا اختنق ومات [ومن][2] مات لا يمكنه القطع والنظر.

(١) هذا تأويل فاسد لا يقبله عقل ولا حسّ سليم.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

قال الحسين بن الفضل: هذا كما تقول فى الكلام للحاسد أو المعاند: إن لم ترض هذا فاختنق.

وقال ابن زيد: السماء فى هذه الآية هى السماء المعروفة بعينها، وقال: معنى الكلام: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيّه ويكايده فى دينه وأمره ليقطعه عنه، فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه فإنّ أصله فى السماء، فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع عن النبى ﷺ الوحى الذى يأتيه من الله، فإنه لا يكايده حتى يقطع أصله عنه، فلينظر هل يقدر على إذهاب غيظه بهذا العمل.

وذُكر أنّ هذه الآية نزلت فى قوم من أسد وغطفان تباطؤوا عن الإسلام وقالوا: نخاف أن لا يُنصَرَ محمد فينقطع الذى بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا ولا يؤوننا، فقال الله لهم: من استعجل من الله نصر محمد فليختنق، فلينظر استعجاله بذلك فى نفسه هل هو مذهب غيظه، فكذلك استعجاله من الله نصر محمد غير مقدم نصره قبل حينه.

وقال مجاهد: الهاء فى ينصره راجعة إلى من، ومعنى الكلام: من كان يظن أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى سماء البيت فليختنق، فلينظر هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ وهو خنقه أن لا يرزق، والنصر على هذا القول: الرزق، كقول العرب: من ينصرنى نصره الله أى من يعطنى أعطاه الله.

قال أبو عبيد: تقول العرب: «أرض منصورة» أى ممطورة كأن الله سبحانه أعطاها المطر.

وقال الفقعسى:

وإنّك لا تعطى امرأً فوق حقّه ... ولا تملك الشقّ الذى الغيث ناصر

وفى قوله ﴿مَا يَغِيظُ﴾ لأهل العربيّة قولان:

أحدهما: أنّها بمعنى الذى مجازه هل يذهبن كيده الذى يغيظه فحذف الهاء ليكون أخفّ.

والثانى: أنّها مصدر، مجازه: هل يذهبن كيده غيظه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾: يعنى عبدة الأوثان، وقال قتادة: الأديان خمسة: أربعة للشيطان وواحد للرحمن. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ﴾: يحكم ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ قال النحاة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ خبر لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ كما تقول: إنّ زيداً إن الخير عنده لكثير، كقول الشاعر:

إنّ الخليفة إن الله سربله ... سربال ملك به ترجى الخواتيم

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ : بقلبك وعقلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ .

قال مجاهد: سجودها: تحوّل ظلالها، وقال أبو العالية: ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلاّ يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حين يرجع إلى مطلعه.

وقال أهل الحقائق: سجود الجماد وما لا يعقل ما فيها من ذلّة الخضوع والتسخير وآثار الصنعة والتصوير الذى يدعو العاقلين إلى السجود لله سبحانه، كما قال الشاعر:

وفى كلّ شىء له آية ... تدل على أنّه واحد

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ : بكفره وهو مع ذلك يسجد لله ظلّه، قال مجاهد: وقيل: يسجد لله أى يخضع له ويقرّ له بما يقتضيه عقله ويضطره إليه، وإن كفر بغير ذلك من الأمور.

قالوا: وفى قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ واو العطف.

وقال بعضهم: هو واو الاستئناف، معناه: وكثير حق عليه العذاب بكفره وإبائه السجود.

حكى لى أبو القاسم بن حبيب عن أبى بكر بن عياش أنّه قال: فى الآية إضمار مجازها: وسجد كثير من الناس، وأبى كثير حقّ عليه العذاب.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ : أى يهنه الله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ﴾ : قرأه العامة بكسر الراء، وقرأ إبراهيم بن أبى عيلة: فما له من مكرَم بفتح الراء أى إكرام كقوله سبحانه ﴿أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ (الإسراء: ٨٠) ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ (المؤمنون: ٢٩) أى إدخالاً وإنزالاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.



﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ

ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ : أى فى دينه وأمره، والخصم اسم شبيه بوصف المصدر فلذلك قال: اختصموا، نظيرها ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ (ص: ٢١).

واختلف المفسّرون فى هذين الخصمين من هما؟ فروى قيس بن عبّاد أنّ أبا ذرّ الغفارى كان يقسم بالله سبحانه أُنزلت هذه الآية فى ستّة نفر من قريش تبادروا يوم بدر: حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة وعبيدة بن الحارث، قال: وقال على: إنّى لأوّل من يجثو للخصومة يوم القيامة بين يدى الله سبحانه وتعالى، وإلى هذا القول ذهب هلال بن نساف وعطاء بن يسار. وقال ابن عباس: هم أهل الكتاب قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله وأقدم منكم كتابًا ونبيّنا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحقّ بالله، آمنّا بمحمد ﷺ وآمنّا بنبيّكم وبما أنزل الله سبحانه من كتاب، فأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً، وكان ذلك خصومتهم فى ربّهم.

وقال مجاهد وعطاء بن أبى رباح وعاصم بن أبى النجود والكلبى: هم المؤمنون والكافرون كلّهم من أىّ ملّة كانوا.

وقال عكرمة: هما الجنة والنار اختصمتا فقالت النار: خلقنى الله سبحانه وتعالى لعقوبته، وقالت الجنّة: خلقنى الله عزّ وجلّ لرحمته، فقد قصّ الله سبحانه عليك من خبرهما ما تسمع، ودليل هذا التأويل ما أخبرنا أبو سعيد بن حمدون رحمه الله بقراءتى عليه قال: أخبرنا أبو حامد بن الشرقى قال: حدّثنا محمد بن يحيى الذهلى وعبد الرّحْمن بن بشر العبدى وأحمد ابن يوسف السلمى قالوا: حدّثنا عبد الرزاق بن همام الحميرى قال: أخبرنا معمر بن راشد عن همام بن منبه قال: هذا ما حدّثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ فقال: «تحاجّت الجنة والنار فقالت النار: أوثرتُ بالمتكبّرين المتجبّرين، وقالت الجنة: لا يدخلنى إلاّ ضعفاء الناس وسقاطهم، فقال الله سبحانه للجنة: إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى، وقال للنار: إنما أنت عذابى أُعذّب بك من أشاء من عبادى، ولكلّ واحد منكما ملؤها، فأما النار

فإنّهم يُلقون فيها وتقول: هل من مزيد؟ فلا تمتلئ حتى يضع الله سبحانه رجله فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلئ وينزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقًا».

ثم بيّن مآل الخصمين، وحال أهل الدارين فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾.

قال سعيد بن جبير: ثياب من نحاس من نار، وليس من الآنية شيء إذا حمى أشدّ حراً منه.

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾: الماء الحار.

روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنّه قال: «إنّ الحميم ليصبّ على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جنبه فيسلت ما فى جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر ثم يعاد كما كان» ﴿يُصْهَرُ﴾: يذاب، يقال: صهرت الألية والشحم بالنار أذبتها، أصهرها صهراً، قال الشاعر:

تروى لقًى ألقى فى صفصف تصهره الشمس ولا ينصهر[1]

ومعنى الآية: يذاب بالحميم الذى يصبّ من فوق رؤوسهم ما فى بطونهم من الشحوم والأحشاء وتنشوى جلودهم منه فتتساقط.

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ﴾: سياط ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾: واحدتها مقمعة، سمّيت بذلك لأنّها يُقمع بها المضروب أى يذلّل.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾: ردّوا إليها.

روى الأعمش عن أبى ظبيان قال: ذُكر أنّهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش جهنم فتلقى مَن فيها إلى أعلى أبوابها فيريدون الخروج منها فيعذبهم الخزّان فيها ويعيدونهم إليها بالمقامع ويقولون لهم ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: أى المحرق مثل الأليم والوجيع، والذوق: حاسة يحصل منها إدراك الطعم، وهو ها هنا توسّع، والمراد به إدراكهم الآلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾: وهى جمع سوار ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾[2].

(١) جاء بهامش القرطبى تعريف بمفردات هذا البيت نصها: تروى: تسوق إليه الماء، أى تصير له كالراية.
واللقى ـ بالفتح ـ: الشىء الملقى لهوانه.
والصفصف: المستوى من الأرض.

(٢) فى المخطوط: (ولؤلؤ) وأثبت ما فى مصحف حفص المطبوع والمتداول، فلاحظ التعبير الذى أحدثته حتى يتضح لك الشرح والتفسير والفرق بين القراءات.

قرأ عاصم وأهل المدينة هاهنا وفى سورة الملائكة: ولؤلؤًا بالنصب على معنى ويحلّون لؤلؤًا، واستدلّوا بأنّها مكتوبة فى جميع المصاحف بالألف ها هنا.

وقرأ الباقون بالخفض عطفًا على الذهب، ثمَّ اختلفوا فى وجه إثبات الألف فيه، فقال أبو عمرو: أُثبتت الألف فيه كما أُثبتت فى قالوا وكانوا، ،وقال الكسائى: أثبتوها فيه للهمزة لأنَّ الهمزة حرف من الحروف، وأمّا يعقوب فإنّه قرأها هنا بالنصب وفى سورة فاطر بالخفض رجوعًا إلى المصحف؛ لأنّه كُتب فى جميع المصاحف ها هنا بالألف وهناك بغير ألف.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: وهو شهادة أن لا إله إلاّ الله، وقال ابن زيد: لا إله إلاّ الله والله أكبر والحمد الله، نظيرها قوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ (فاطر:١٠) ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ إلى دين الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ﴾: فعطف بالمستقبل على الماضى لأنّ الصدّ بمعنى دوام الصفة لهم، ومعنى الآية: وهم يصدّون ومن شأنهم الصدّ، نظيرها قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الرعد:٢٨) وقيل: لفظه مستقبل، ومعناه الماضى، أى: وصدّوا ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ﴾: يعنى عن المسجد ﴿ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ﴾: خلقناه[1] وبنيناه[2] ﴿لِلنَّاسِ﴾: كلّهم لم نخصّ منهم بعضًا دون بعض ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ﴾: المقيم ﴿فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾[3]: الطارئ المنتاب إليه من غيره.

وقرأ عاصم برواية حفص ويعقوب برواية روح: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب بإيقاع الجعل عليه لأنّ الجعل يتعدّى إلى مفعولين.

وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وما بعده خبره: وتمام الكلام عند قوله ﴿لِلنَّاسِ﴾.

واختلف العلماء فى معنى الآية: فقال قوم: سواء العاكف فيه والباد فى تعظيم حرمته وقضاء النسك به وحقّ الله الواجب عليهما فيه، وإليه ذهب مجاهد.

وقال آخرون: هما سواء فى النزول به فليس أحدهما بأحق يكون فيه من الآخر، وحرّموا بهذه الآية كراء دور مكّة وكرهوا إجارتها فى أيام الموسم.

قال عبد الله بن عمر: سواء أكلت محرمًا أو كراء دار مكة.

---

(١) الأولى أن يقول المفسر: وضعناه لقوله سبحانه: ﴿إن أول بيت وضع للناس﴾ فالبيت موضوع بنص قول الله عزّ وجلّ.

(٢) والمعلوم لدى الجميع أن إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل هما اللذان رفعاه وبنياه بنص القرآن وتصريحه بذلك.

(٣) فى المخطوط البادى وأثبت ما فى مصحف حفص المطبوع المتداول فيلاحظ.

وقال عبد الرَّحْمن بن سابط : كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم فكان الرجل إذا وجد سعة نزل ، ففشا فيهم السرق ، وكلّ إنسان يسرق من ناحيته فاصطنع رجل بابًا فأرسل إليه عمر : اتخذت بابًا من حجاج بيت الله؟ فقال : لا ، إنّما جعلته ليحترز متاعهم وهو قوله ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ .

قال : البادى فيه كالمقيم ليس أحد أحقّ بمنزله من أحد إلاّ أن يكون سبق إلى منزل ، وإلى هذا القول ذهب ابن عباس وابن جبير وابن زيد وباذان قالوا : هما سواء فى البيوت والمنازل ، والقول الأول أقرب إلى الصواب .

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسن بقراءتى عليه قال : حدَّثنا صفوان بن الحسين قال : حدَّثنا أبو محمد بن أبى حاتم قال : سمعت أبا إسماعيل الترمذى بمكة سنة ستين ومائتين قال : سمعت إسحاق بن راهويه يقول : جالست الشافعى بمكة فتذاكرنا فى كراء بيوت مكة ، وكان يرخّص فيه ، وكنت لا أرخّص فيه ، فذكر الشافعى حديثًا وسكت ، وأخذت أنا فى الباب ، أسرد فلمّا فرغت منه قلت لصاحب لى من أهل مرو بالفارسية : مرد كما لانى هست قرية بمرو ، فعلم أنى راطنت صاحبى بشىء هجّنته فيه ، فقال لى : أتناظر؟ قلتُ : وللمناظرة جئت ، فقال : قال الله سبحانه وتعالى : ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ (آل عمران : ١٩٥) نسب الديار إلى مالكيها أو غير مالكيها؟ .

وقال النبى ﷺ يوم فتح مكة : «من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن وهل ترك عقيل لنا من رباع»؟ نسب الدار إلى أربابها أو غير أربابها وقال لى : اشترى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دار السجن من مالك أو غير مالك؟ فلمّا علمت أنّ الحجة لزمتنى قمت .

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ : أى فى المسجد الحرام ﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ : يعنى إلحادًا بظلم وهو الميل إلى الظلم ، والباء فيه زائدة كقوله : تنبت بالدهن أى تنبت الدهن .

قال الفراء : وسمعت أعرابيًا من ربيعة وسألته عن شىء فقال : أرجو بذلك يريد أرجو ذلك . وقال الشاعر :

بواد يمان ينبت الشن صدره ... وأسفله بالمرخ والشبهان[1]

---

(١) جاء بهامش تفسير القرطبى تفسير بعض كلمات البيت على النحو التالى :

الشن : شجر طيب الريح مر الطعم يدبغ به .

والمرخ : شجر كثير الثمار .

والشهبان : نبت شائك له ورد لطيف أحمر .

أى المرخ. وقال الأعشى:

ضمنت برزق عيـالنا أرماحنا بين المراجل والصريح الأجود

بمعنى ضمنت رزق عيالنا أرماحنا وقال آخر:

ألم يأتيك والأنباء تنمى بمـا لاقت لبون بنى زياد

واختلفوا فى معنى الآية، فقال مجاهد وقتادة ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ هو الشرك أن يعبد فيه غير الله سبحانه وتعالى.

وقال آخرون: هو استحلال الحرام وركوب الآثام فيه.

قال ابن مسعود: ما من رجل يهمّ بسيّئة فيكتب عليه، ولو أنّ رجلاً بعدن أو ببلد آخر يهمّ أن يقتل رجلاً بمكّة، أو يهمّ فيها بسيّئة ولم يعملها إلاّ أذاقه الله العذاب الأليم.

وقال ابن عباس: هو أن تقتل فيه ما لا يقتلك، أو تظلم من لا يظلمك، وهذا القول معنى قول الضحاك وابن زيد.

أخبرنا أحمد بن أُبى قال: أخبرنا المغيرة بن عمرو قال: حدَّثنا المفضل بن محمد قال: حدَّثنا محمد بن يوسف قال: حدَّثنا أبو قرّة قال: ذكر سفيان عن ليث عن مجاهد أنّه قال: تُضاعف السيئات بمكّة كما تضاعف الحسنات.

ابن جريج: هو استحلال الحرام متعمّدًا، عن حبيب بن أبى ثابت: احتكار الطعام بمكة، بعضهم: هو كل شىء كان منهيًا عنه من القول والفعل حتى قول القائل: لا والله، وبلى والله.

وروى شعبة عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمر: أنّه كان له فسطاطان أحدهما فى الحلّ والآخر فى الحرم، فإن أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الآخر، فسئل عن ذلك فقال: كنّا نحدّث أنّ من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: كلاّ والله وبلى والله.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾: وطّأنا. قال ابن عباس: جعلنا، الحسن: أنزلنا، مقاتل بن سليمان: دللناه عليه، ابن حبان: هيأنا، نظيره ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٢١) ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٧٤) وقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ (العنكبوت: ٥٨).

﴿لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾: والمكان جوهر يمكن أن يثبت عليه غيره، كما أن الزمان عرض يمكن أن يحدث فيه غيره، وأراد بالبيت الكعبة.

﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾: يعنى أمرناه وعهدنا إليه أن لا تشرك ﴿بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾: يعنى المصلين ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

﴿وَأَذِّن﴾: يعنى وعهدنا إلى إبراهيم أيضًا أن أذّنْ أى أعلِمْ وناد ﴿فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾.

فقال إبراهيم: يا رب وما يبلغ صوتى؟ فقال: عليك الأذان وعلىّ البلاغ، فقال إبراهيم على المقام وقيل: على جبل أبى قبيس ونادى: يا أيها الناس ألا إنّ ربّكم قد بنى بيتًا فحجّوه، فأسمع الله ذلك من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، وما بين المشرق والمغرب والبر والبحر ممن سبق فى علم الله سبحانه أن يحجّ إلى يوم القيامة، فأجابه: لبيك اللهم لبيك.

وقال ابن عباس: عنى بالناس فى هذه الآية أهل القبلة وزعم الحسن أنّ قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ كلام مستأنف، وأن المأمور بهذا التأذين محمد رسول الله ﷺ، أُمر أن يفعل ذلك فى حجّة الوداع.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾: مشاة على أرجلهم جمع راجل مثل قائم وقيام وصائم وصيام.

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: أى وركبانًا، والضامر البعير المهزول، وإنما جمع ﴿يَأْتِينَ﴾: لمكان كلّ، أراد النوق ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: طريق بعيد.

سمعت أبا الحسن محمد بن القاسم الفقيه يقول: سمعت أبا القاسم بشر بن محمد بن ياسين القاضى يقول: رأيت فى الطواف كهلاً قد أجهدته العبادة واصفرّ لونه وبيده عصا وهو يطوف معتمدًا عليها، فتقدّمت إليه وجعلت أُسائله فقال لى: من أين أنت؟ قلت: من خراسان قال: فى أى ناحية تكون خراسان؟ - كأنه جهلها؟ قلت: ناحية من نواحى المشرق، فقال: فى كم تقطعون هذا الطريق؟ قلت فى شهرين وثلاثة أشهر، قال: أفلا تحجّون كل عام فأنتم من جيران هذا البيت؟ فقلت له: وكم بينكم وبين هذا البيت؟ فقال: مسيرة خمس سنين، خرجت من بلدى ولم يكن فى رأسى ولحيتى شيب، فقلت: هذا والله الجهد البيّن والطاعة الجميلة والمحبة الصادقة، فضحك فى وجهى وأنشأ يقول:

زُر مَن هويت وإنْ شطّت بك الدار ... وحال من دونه حجب وأستارُ

لا يمنعك بُعدٌ من زيارته ... إنّ المحبّ لمن يهواه زَوارُ

❖ ❖ ❖

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ

غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ : ليحضروا ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ : يعنى التجارة عن سعيد بن جبير، وهى رواية ابن رزين عن ابن عباس قال: هى الأسواق.

مجاهد: التجارة وما يرضى الله سبحانه من أمر الدنيا والآخرة.

سعيد بن المسيب وعطية العوفى ومحمد بن علىّ الباقر: العفو والمغفرة.

﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ : يعنى ذى الحجّة فى قول أكثر المفسّرين، والمعدودات أيام التشريق، وإنّما قيل لها معدودات لأنّها قليلة، وقيل للعشر: معلومات للحرص على علمها بحسابها من أجل أنّ وقت الحج فى آخرها.

وقال مقاتل: المعلومات أيام التشريق.

محمد بن كعب: المعدودات والمعلومات واحدة.

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ : يعنى الهدايا والضحايا من الإبل والبقر والغنم.

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ : أمر إباحة وليس بواجب. قال المفسرون: وإنّما قال ذلك لأنّ أهل الجاهلية كانوا ينحرون ويذبحون ولا يأكلون من لحوم هداياهم شيئًا.

﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ﴾ : يعنى الزمن ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ : الذى لا شىء له ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟﴾ : واختلف القرّاء فى هذه اللامات فكسرها بعضهم فرقًا بين ثم والواو والفاء لأن ثمّ مفصول من الكلام، والواو والفاء كأنهما من نفس الكلمة، وجزمها الآخرون لأنّها كلّها لامات الأمر ﴿تَفَثَهُمْ﴾ : والتفث:

مناسك الحج كلّها عن ابن عمر وابن عباس.

وقال القرظى ومجاهد: هو مناسك الحج وأخذ الشارب ونتف الإبط وحلق العانة وقصّ الأظفار.

عكرمة: التفث: الشعر والظفر.

الوالبى عن ابن عباس: هو وضع الإحرام من حلق الرأس وقصّ الأظفار ولبس الثياب ونحوها. وأصل التفث فى اللغة الوسخ، تقول العرب للرجل تستقذره: ما أتفثك أى ما أوسخك! وأقذرك! قال أمية بن الصلت:

ساخين آباطهم لم يقذفوا تفثا ... وينزعوا عنهم قملاً وصئبانا

﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ قال مجاهد: نذر الحج والهدى وما ينذر الإنسان من شىء يكون فى الحج.

﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: أراد الطواف الواجب وهو طواف الإفاضة والزيارة الذى يطاف بعد التعريف إمّا يوم النحر وإمّا بعده. واختلف العلماء فى معنى العتيق، فقال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وقتادة: سمّى عتيقًا لأنّ الله سبحانه أعتقه من الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه، فلم يظهر عليه جبار قطّ، ولم يسلّط عليه إلاّ من يعظّمه ويحترمه.

قال سعيد بن جبير: أقبل تبّع يريد هذا البيت حتى إذا كان بقديد أصابه الفالج فدعا الأحبار فقالوا: إنّ لهذا البيت ربًا ما قصده قاصد بسوء إلاّ حجبه عنه بمكروه فإن كنت تريد النجاة ممّا عرض لك فلا تتعرّض له بسوء.

قال: فأهدى إلى البيت كسوة وأنطاعًا فأُلبست، وكان أوّل ما أُلبست، ونحر عنده ألف ناقة وعفا عن أهله وبرّهم ووصلهم، فسمّيت المطابخ لمطبخة القوم، وكانت خيله جيادًا فسمّيت جياد لخيل تبّع، وسمّيت قعيقعان لقعقعة السلاح حين أقبل من المدينة.

وقال سفيان بن عيينة: سمّى بذلك لأنه لم يُملك قط، وهى رواية عبيد عن مجاهد قال: إنما سمّى البيت العتيق لأنّه ليس لأحد فيه شىء.

ابن زيد: لأنه قديم وهو أول بيت وضع للناس، يقال: سيف عتيق ودينار عتيق أى قديم، وقيل: لأنه كريم على الله سبحانه، يقول العرب: فرس عتيق.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ﴾: فيجتنب معاصيه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

قل ابن زيد: الحرمات: المشعر الحرام والبيت الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام، وقيل: هى المناسك.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ : أن تأكلوها إذا ذكّيتموها ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ : فى القرآن وهو قوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ (المائدة : ٣) الآية ، وقوله : ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (الأنعام : ١٢١) وقيل : وأحلت لكم الأنعام فى حال إحرامكم إلاّ ما يتلى عليكم من الصيد فإنه حرام فى حال الإحرام .

﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ : يعنى عبادتها لأن الأوثان كلّها رجس .

﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ : يعنى الكذب والبهتان .

قال أيمن بن حريم : قام النبى ﷺ خطيبًا فقال : «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور الشرك بالله ، ثمَّ قرأ هذه الآية» .

وقال بعضهم : هو قول المشركين فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

﴿حُنَفَآءَ﴾ : مستقيمين[1] مخلصين ﴿لِلَّهِ﴾ : وقيل : حجاجًا غير مشركين به ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ : أى سقط إلى الأرض ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ : والخطف والاختطاف تناول الشىء بسرُعة ، وقرأ أهل المدينة فتخَطّفه بفتح الخاء وتشديد الطاء أى تتخَطَّفه فأُدغم ، وتصديق قراءة العامة قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ (الصافات : ١٠) .

﴿أَوْ تَهْوِى﴾ : تميل وتذهب ﴿بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ : بعيد .

قال أهل المعانى : إنما شبّه حال المشرك بحال الهاوى فى أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا دفع ضر يوم القيامة .

وقال الحسن : شبه أعمال الكفّار بهذه الحال فى أنها تذهب وتبطل ، فلا يقدرون على شىء منها .

﴿ذَٰلِكَ﴾ : الذى ذكرت من اجتناب الرجس والزور وتعظيم شعائر الله ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ : هذا معنى الآية ونظمها . وشعائر الله : الهدى والبُدن ، وأصلها من الإشعار وهو إعلامها لتعرف أنها هدى فسمّيت به ، وتعظيمها استعظامها واستحسانها واستسمانها .

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ : أى فى الهدايا ﴿مَنَـٰفِعُ﴾ : قيل : أن يسمّيها صاحبها بدنة أو هديًا ويشعرها

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره لهذه الكلمة :
معناه : مستقيمين أو مسلمين مائلين إلى الحق . ولفظة ﴿حنفاء﴾ من الأضداد تقع على الاستقامة وتقع على الميل .
وحنفاء نصب على الحال .
وقيل : ﴿حنفاء﴾ حجاجًا ، وهذا تخصيص لا حجة معه .

ويقلدها فى رسلها وأصوافها وأوبارها وركوب ظهورها.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وهو أن يسمّيها هديًا ويوجبها، فإذا فعل ذلك لم يكن له من منافعها شيء، هذا قول مجاهد وعطاء والضحاك وقتادة، ورواية مقسم عن ابن عباس، وقيل: معناه: لكم فى هذه الهدايا منافع بعد إنجابها وتسميتها هديًا بأن تركبوها إذا احتجتم إليها وتشربوا ألبانها إن اضطررتم إليها، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعنى إلى أن تُنحر، وهذا قول عطاء بن أبى رباح.

وقال بعضهم: أراد بالشعائر المناسك ومشاهد مكة، ومعنى الآية: لكم فيها منافع بالتجارة والأسواق إلى أجل مسمّى وهو الخروج من مكة، وهذه رواية أبى ذر عن ابن عباس.

وقال بعضهم: لكم فيها منافع بالأجر والثواب فى قضاء المناسك وإقامة شعائر الحج إلى أجل مسمى وهو انقضاء أيام الحج.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾: أى منحرها عند البيت العتيق يعنى أرض الحرم كلّها، نظيرها قوله سبحانه ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ (التوبة: ٢٨): أى الحرم كلّه، وقال الذين قالوا: عنى بالشعائر المناسك، معنى الآية: ثم محلّ الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق أن يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر بعد قضاء المناسك.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: جماعة مؤمنة سلفت قبلكم ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: اختلف القرّاء فيه فقرأ أهل الكوفة إلاّ عاصمًا بكسر السين فى الحرفين على معنى الاسم مثل المجلس والمطلع أى مذبحًا موضع قربان، وقرأ الآخرون بفتح السين فيهما على المصدر مثل المدخل والمخرج أى إهراق الدماء وذبح القرابين.

﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾: عند ذبحها ونحرها، وإنّما خصّ بهيمة الأنعام لأنّ من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير، وإنما قيل بهائم لأنها لا تتكلم.

﴿فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: قال ابن عباس وقتادة: المتواضعين، مجاهد: المطمئنّين إلى الله سبحانه، الأخفش: الخاشعين، ابن جرير: الخاضعين، عمرو بن أوس: هم الذين لا يَظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلْبُدْنَ﴾: أى الإبل العظام الضخام الأجسام، وتخفّف وتثقّل واحدتها بدنة مثل تمرة وتمر وخشبة وخشب وبادن مثل فاره وفره، والبدن هو الضخم من كلّ شىء ومنه قيل لامرئ

القيس بن النعمان صاحب الخورنق والسدير: البدن لضخمه، وقد بدُن الرجل بدنًا وبدانةً إذا ضخم، فأما إذا أشفى واسترخى قيل: بدّن تبدينًا.

وقال عطاء والسدّى: البدن: الإبل والبقر.

﴿جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾: أى إعلام دينه إذا أُشعر ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾: النفع فى الدنيا، والأجر فى العقبى ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾: عند نحرها، قال ابن عباس: هو أن تقول: الله أكبر لا إله إلاّ الله والله أكبر، اللهم منك ولك.

﴿صَوَافَّ﴾: أى قيامًا على ثلاث قوائم قد صفّت رجليها وإحدى يديها ويدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك.

روى يعلى بن عطاء عن يحيى بن سالم قال: رأيت ابن عمر وهو ينحر بدنته فقال: صوافّ كما قال الله سبحانه، فنحرها وهى قائمة معقولة إحدى يديها.

وقال مجاهد: الصواف إذا عقلت رجلها اليسرى وقامت على ثلاث وتنحر كذلك.

وقرأ ابن مسعود: صوافن وهى المعقلة تعقل يدًا واحدة، وكانت على ثلاث وتنحر، وهو مثل صواف.

وقرأ أُبىّ: صوافى وهكذا أيضًا مجاهد وزيد بن أسلم بالياء أى صافية خالصة لله سبحانه لا شريك له فيها كما كان المشركون يفعلون.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾: أى سقطت بعد النحر فوقعت جنوبها على الأرض.

وقال ابن زيد: فإذا ماتت، وأصل الوجوب الوقوع، يقال: وجبت الشمس إذا سقطت للمغيب، ووجب الفعل إذا وقع ما يلزم به فعله.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾: أمر إباحة ورخصة مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ (المائدة: ٢) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾(الجمعة: ١٠).

﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾: اختلفوا فى معناها، فروى العوفى عن ابن عباس وليث عن مجاهد أنّ القانع الذى يقنع بما أُعطى، ويرضى بما عنده ولا يسأل، والمعترّ: الذى يمرّ بك ويتعرض لك ولا يسأل.

عكرمة وابن تميم وقتادة: القانع: المتعفف الجالس فى بيته، والمعتر: السائل الذى يعتريك ويسألك، وهى رواية الوالبى عن ابن عباس.

حصيف عن مجاهد، القانع: أهل مكة وجارك وإن كان غنيًا، والمعتر الذى يعتريك

ويأتيك فيسألك، وعلى هذه التأويلات يكون القانع من القناعة وهى الرضا والتعفّف وترك السؤال.

سعيد بن جبير والكلبى: القانع: الذى يسألك، والمعترّ: الذى يتعرّض لك ويريك نفسه ولا يسألك، وعلى هذا القول يكون القانع من القنوع وهو السؤال. قال الشماخ:

لمال المرء يصلحه فيغنى　　　مفاقره أعفّ من القنوع

وقال لبيد:

وأعطانى المولى على حين فقره　　　إذا قال أبصر خلّتى وقنوعى

وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذى يطوف ويسأل، والمعترّ: الصديق الزائر الذى يعترّ بالبدن.

ابن أبى نجيح عن مجاهد: القانع: الطامع، والمعتر: من يعتر بالبدن من غنى أو فقير.

ابن زيد: القانع: المسكين، والمعتر الذى يعترّ القوم للحمهم وليس بمسكين ولا يكون له ذبيحة، يجىء إلى القوم لأجل لحمهم.

وقرأ الحسن: والمعترى وهو مثل المعتر، يقال: عراه واعتراه إذا أتاه طالبًا معروفه.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾: وذلك أنّ أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطّخوا حيطان الكعبة بدمائها فأنزل الله سبحانه ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾: أى لن يصل إلى الله ﴿لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾.

﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾: أى النيّة والإخلاص وما أُريد به وجه الله عزّ وجلّ، وقرأ يعقوب تنال وتناله بالتاء، غيره: بالياء.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: هكذا، ﴿سَخَّرَهَا﴾: يعنى البدن، ﴿لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾: لإعلام دينه ومناسك حجّه وهو أن يقول: الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أبلانا وأولانا.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ

وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾ (١): مكى وبصرى: يدفع، غيرهم: يدافع، ومعناه: إنّ الله يدفع غائلة المشركين.

﴿عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾: فى أمانة الله، ﴿كَفُورٍ﴾: لنعمته.

﴿أُذِنَ﴾: قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم أُذن بضم الألف، وقرأ الباقون بفتحه أى أذن الله ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾: قرأ أهل المدينة والشام بفتح التاء يعنون المؤمنين الذين يقابلهم المشركون، وقرأ الباقون بكسر التاء يعنى أنّ الذين أُذن لهم بالجهاد يقاتلون المشركين ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

قال المفسّرون: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون يجيئون من بين مضروب ومشجوج، فيشكونهم إلى رسول الله فيقول لهم: اصبروا فإنّى لم أُؤمر بالقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ من مكة، فأنزل الله سبحانه هذه الآية وهى أول آية أذن الله فيها بالقتال.

وقال ابن عباس: لما أُخرج النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيّهم، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، لنهلكنّ، فأنزل الله سبحانه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ الآية، قال أبو بكر: فعرفت أنّه سيكون قتال.

(١) فى المخطوط: يدفع، وغيرت إلى ما هو مثبت بمصحف حفص المطبوع وتركت الثعلبى يذكر الشرح والخلاف بين القراءتين فلاحظ ما غيرته.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية فى قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فكانوا يمنعون من الهجرة، فأذن الله تعالى لهم فى قتال الكفّار الذين يمنعونهم من الهجرة.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ : بدل من الذين الأولى، ثمّ قال: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يعنى لم يخرجوا من ديارهم إلاّ لقولهم ربنا الله وحده، فيكون أنْ فى موضع الخفض ردًا على الباء فى قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ويجوز أنْ يكون فى موضع نصب على وجه الاستثناء.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ : بالجهاد وإقامة الحدود وكفّ الظلم ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ : قرأ الحجازيّون بتخفيف الدال، والباقون بالتشديد على الكسر أى تخرّبت ﴿صَوَٰمِعُ﴾ : قال مجاهد والضحاك: يعنى صوامع الرهبان، قتادة: صوامع الصابئين.

﴿وَبِيَعٌ﴾ : النصارى، ابن أبى نجيح عن مجاهد: البيع: كنائس اليهود، وبه قال ابن زيد.

﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ : قال ابن عباس وقتادة والضحاك: يعنى كنائس اليهود ويسمّونها صَلُوتًا. أبو العالية: هى مساجد الصابئين.

ابن أبى نجيح عن مجاهد: هى مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطريق، وعلى هذه الأقاويل تكون الصلوات صلوات أهل الإسلام تنقطع إذا دخل عليهم العدوّ، انقطعت العبادة وهُدمت المساجد كما صنع بختنصّر.

﴿وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ : يعنى مساجد المسلمين، وقيل: تأويلها: لهدمت صوامع وبيع فى أيام شريعة عيسى، وصلوات فى أيام شريعة موسى، ومساجد فى أيام شريعة محمد صلى الله عليهم أجمعين.

وقال الحسن: يدفع عن هدم مصليات أهل الذّمة بالمؤمنين، فإن قيل: لم قدّم مصليات الكافرين على مساجد المسلمين؟ قلنا: لأنها أقدم، لقربها من الهدم، وقرب المساجد من الذكر كما أخّر السابق فى قوله ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ (فاطر: ٣٢)؛ لقربه من الخيرات.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ : أى ينصر دينه ونبيّه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ : قال قتادة: هم أصحاب محمد، عكرمة: أهل الصلوات الخمس، الحسن وأبو العالية: هذه الأمة.

﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ : آخر أُمور الخلق ومصيرهم إليه.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ : يا محمد ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ : أمهلتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ : عاقبتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ

﴿نَكِيرِ﴾ إنكارى بالعذاب والهلاك، يعزّى نبيّه ﷺ ويخوّف مخالفيه.

﴿فَكَأَيِّن﴾ : وكم ﴿مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ : يعنى وأهلها ظالمون، فنسب الظلم إليها لقرب الجوار.

﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ : ساقطة على سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ : متروكة مخلاّة عن أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ : قال قتادة والضحّاك ومقاتل: رفيع طويل، ومنه قول عدى:

شاده مرمرًا وجلّله كلسًا فللطّير فى ذراه وكور

أى رفعه.

وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعكرمة: مجصّص، من الشيد وهو الجصّ، قال الراجز:

[لا تحسبنى وإن كنت امرأ غَمِرًا][1] كحبّة الماء بين الطىّ والشيد

وقال امرؤ القيس:

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أجمًا إلاّ مشيدًا بجندل

أى مبنيًا بالشيد والجندل.

وروى أبو روق عن الضحاك أنّ هذه البئر كانت بحضرموت فى بلدة يقال لها حاصورا وذلك أنّ أربعة آلاف نفر ممّن آمن بصالح ونجوا من العذاب أتوا حضرموت ومعهم صالح، فلمّا حضروه مات صالح، فسمّى حضرموت لأن صالحًا لمّا حضره مات، فبنوا حاصورا وقعدوا على هذه البئر وأمّروا عليهم رجلاً يقال له بلهنس بن جلاس بن سويد، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سوادة، فأقاموا دهرًا وتناسلوا حتى نموا وكثروا، ثم أنّهم عبدوا الأصنام فكفروا فأرسل الله إليهم نبيًا يقال له حنظلة بن صفوان كان حمالاً فيهم فقتلوه فى السوق، فأهلكهم الله وعطّلت بئرهم وخرّبت قصورهم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : يعنى كفّار مكة فينظروا إلى مصارع المكذّبين من الأُمم الخالية.

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ : يعلمون بها ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ : فيتفكروا ويعتبروا.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ : تأكيد، كقوله سبحانه ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ (الأنعام: ٣٨) وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ (آل عمران: ١٦٧).

قال ابن عباس ومقاتل: لمّا نزل ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ (الإسراء: ٧٢) جاء ابن أم مكتوم النبى ﷺ باكيًا فقال: يا رسول الله أنا فى الدنيا أعمى أفأكون فى الآخرة

(١) ما بين المعقوفين زيادة من تفسير القرطبى.

أعمى؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾: نزلت فى النضر بن الحارث.

﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: فأنجز ذلك يوم بدر.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: بالياء مكى كوفى غير عاصم، غيرهم: بالتاء.

وقال ابن عباس: هى من الأيام التى خلق الله سبحانه فيها السموات والأرض.

مجاهد وعكرمة: من أيام الآخرة.

ابن زيد: فى قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: هذه أيام الآخرة. وفى قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤) قال: هو يوم القيامة.

وقال أهل المعانى: معنى الآية: وإنّ يومًا عند ربّك من أيام العذاب الذى استعجلوه فى الثقل والاستطالة والشدّة كألف سنة ممّا تعدون فكيف تستعجلونه؟ وهذا كما يقال: أيام الهموم طوال وأيام السرور قصار.



﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا

لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ۝ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ : أى عملوا فى إبطال آياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ : أى مغالبين مشاقّين قال ابن عباس ، الأخفش : متأنّفين ، قتادة : ظنّوا أنّهم يعجزون الله فلا يقدر عليهم ولن يعجزوه .

وقرأ ابن كثير وأبو عمر : معجّزين بالتشديد أى مثبّطين الناس عن الإيمان ، ومثله فى سورة سبأ .

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ .

قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى وغيرهما من المفسّرين : لمّا رأى رسول الله ﷺ تولّى قومه عنه وشقّ عليه ما رأى من مباعدتهم عمّا جاءهم به من الله سبحانه تمنّى فى نفسه أن يأتيه من الله تعالى ما يقارب بينه وبين قومه ، وذلك لحرصه على إيمانهم ، فجلس ذات يوم فى ناد من أندية قريش كثير أهله ، فأحبّ يومئذ ألاّ يأتيه من الله تعالى شيء فينفروا عنه ، وتمنى ذلك فأنزل الله سبحانه سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (النجم : ١) فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ (النجم : ١٩ ، ٢٠) ألقى الشيطان على لسانه لمّا كان يحدث به نفسه ويتمناه : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهنّ لترتجى .

فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ، ومضى رسول الله ﷺ فى قراءته فقرأ السورة كلّها وسجد فى آخر السورة فسجد المسلمون بسجوده ، وسجد جميع من فى المسجد من المشركين ، فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر إلاّ سجد إلاّ الوليد بن المغيرة وأبو أحيحة سعيد بن العاص فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها لأنّهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود ، وتفرّقت قريش وقد سرّهم ما سمعوا وقالوا : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ، وقالوا : قد عرفنا أنّ الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فإذا جعل لها محمد نصيبًا فنحن معه ، فلمّا أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبرئيل (عليه السلام) فقال : يا محمد ماذا صنعت؟! لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، وقلت ما لم يقل لك ، فحزن رسول الله ﷺ عند ذلك حزنًا شديداً وخاف من الله خوفًا كبيراً فأنزل الله

سبحانه هذه الآية.

وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ وبلغهم سجود قريش، وقيل: قد أسلمت قريش وأهل مكة فرجع أكثرهم إلى عشائرهم وقالوا: هم أحب إلينا فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان، فلمّا نزلت هذه الآية قالت قريش: ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله، فغيّر ذلك وجاء بغيره، وكان ذانك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ قد وقعا فى فم كلّ مشرك فازدادوا شرًا إلى ما كانوا عليه وشدة على من أسلم[1].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾: وهو الذى يأتيه جبرئيل بالوحى عيانًا وشفاهًا ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾: وهو الذى تكون نبوّته إلهامًا أو منامًا ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾: أى أحبَّ شيئًا واشتهاه وحدّث به نفسه ما لم يؤمر به.

﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾: أى مراده ووجد إليه سبيلاً، وقال أكثر المفسرين: يعنى بقوله: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾أى تلا وقرأ كتاب الله سبحانه ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾: أى قراءته، وتلاوته[2]، نظيره قوله سبحانه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ (البقرة: ٧٨) يعنى قراءة يقرأ عليهم.

وقال الشاعر فى عثمان رضى الله عنه حين قتل:

تمنى كتاب الله أوّل ليلة   وآخره لاقى حمَام المقادر

وسمعت أبا القاسم الحبيب يقول: سمعت أبا الحسن على بن مهدى الطبرى يقول: ليس هذا التمنّى من القرآن والوحى فى شىء وإنّما هو أنّ النبى ﷺ كان إذا صفرت يده من المال ورأى ما بأصحابه من سوء الحال تمنّى الدنيا بقلبه وسوسة من الشيطان.

وقال الحسن: أراد بالغرانيق[3] العلى الملائكة يعنى أنَّ الشفاعة ترتجى منهم لا من الأصنام،

---

(١) هذا خبر لا يصح، وقد شاع هذا الخبر فى كثير من كتب التفسير والسير على الرغم من عدم اعتراف أهل الأحاديث بصحته، ثم إن تمنى كل نبى هو هداية أمته وامتثالهم طاعة ربهم غير أن الشياطين يجتالون الناس عن طريق الحق، والله قد عصم الأنبياء من نزغات الشياطين وعصمهم من وساوسهم وحفظ شرعه عن كل نبى حتى قبضه إليه فبدل الناس وغيروا.

(٢) هذا تأويل لا يصح وراجع التعليق السابق لما فيه من ذكرى لعصمة الله للأنبياء وحفظهم وحفظ شرائعهم من الشياطين.

(٣) قال ابن منظور فى لسان العرب فى مادة غرنق فى الحديث تلك الغرانيق العلى: هى الأصنام، وهى فى الأصل الذكور من طير الماء.

وقال ابن الأنبارى: الغرانيق الذكور من الطير، واحدها غرنوق وغرنيق سمى به لبياضه.

وقيل: هو الكركى، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله عزّ وجلّ وتشفع لهم إليه فشبهت بالطيور التى تعلو وترتفع فى السماء قال ويجوز أن تكون الغرانيق فى الحديث جمع الغرانق وهو الحسن.

وهذا قول ليس بالقوى ولا بالمرضىّ لقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أى يبطله ويذهبه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾: فيثبتها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

فإن قيل: فما وجه جواز الغلط فى التلاوة على النبى ﷺ؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أنّه على سبيل السهو والنسيان وسبق اللسان فلا يلبث أن ينبّهه الله سبحانه ويعصمه.

والثانى: أنّ ذلك إنّما قاله الشيطان على لسان رسول الله ﷺ فى أثناء قراءته وأوهم أنّه من القرآن وأنّ رسول الله ﷺ هو الذى يتلوه[(١)]، قال الله سبحانه ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: فيشكّون فى ذلك.

﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: قال تلين لأمر الله ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: الكافرين ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: من المؤمنين ﴿أَنَّهُ﴾: يعنى أنّ الذى أحكم الله سبحانه من آيات القرآن ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: أى ممّا ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ[(٢)].

ابن جريج: من القرآن، غيره: من الدين وهو الصراط المستقيم.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: قال عكرمة والضحّاك: عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة.

وقال آخرون: هو يوم بدر وهو الصواب لأنّ الساعة هى القيامة، ولا وجه لأنْ يقال: حتى تأتيهم القيامة وإنّما سمّى يوم بدر عقيمًا لأنّهم لم يُنْظروا فيه إلى الليل، بل قتلوا قبل المساء قاله ابن جريج، غيره: لأنّه لم يكن فيه رأفة ولا رحمة، وقيل: لأنّه لا مثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة فيه.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾: يعنى يوم القيامة ﴿لِّلَّهِ﴾: وحده من غير منازع، ولا مدّع، والملك هو اتّساع المقدور لمن له تدبير الأُمور، والله سبحانه وتعالى هو الذى يملك الأُمور كلّها، وكلّ ملك سواه فهو مملّك بحكمه وإذنه.

---

(١) كلا القولين لا يصح وتأويل لا يقبل لما سبق أن أشرت فى أول الخبر، وحيث إن الخبر غير صحيح فكيف يدافع عن شىء لم يكن ويستدل على بعض تفاصيل وتعليلها وتوجيهها وتقليبها على وجوه وهى لم تكن فى الأصل ولا يقبلها العقل، أما أن يقول قائل كيف لم تكن أصلاً وقد عاد على أثرها مهاجرو الحبشة فقد يكون لعودة بعضهم أسباب أخرى غير تلك القصة ومن ضمن هذه الأسباب ما يعرف اليوم بحرب الإشاعات.

(٢) لا وألف لا لم يلق الشيطان على لسان رسول الله ﷺ شيئًا ونص القرآن: ﴿فى أمنيته﴾ ولم يقل على لسانه، والفارق كبير وواضح. هدانا الله وإياكم إلى الصواب.

﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾: ثم بيّن حكمه فقال عزّ من قائل: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى فارقوا أوطانهم وعشائرهم فى طاعة الله سبحانه وطلب رضاه ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾: وهم كذلك ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: فى الجنة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: وقيل: هو قوله سبحانه: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

روى ابن وهب عن عبد الرّحْمن بن الحجاج بن سلامان بن عامر قال: كان فضالة بن دوس أميرًا على الأرباع، فخرج بجنازتى رجلين: أحدهما قتيل والآخر متوفّى، فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته فقال: أراكم أيّها الناس تميلون مع القتيل وتفضّلونه على أخيه المتوفّى! فوالذى نفسى بيده ما أُبالى من أىّ حفرتها بعثت، اقرؤوا قول الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾: نزلت فى قوم من المشركين لقوا قومًا من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرّم، فكره المسلمون قتال المشركين وسألوهم أن يكفّوا عن القتال من أجل الأشهر الحرم فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليه، وثبت المسلمون لهم فنُصروا عليهم، فأنزل الله سبحانه هذه الآيات، والعقاب الأول بمعنى الجزاء.



﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ يعنى هذا الذى أنصر المظلوم بأنّى القادر على ما أشاء، فمن قدرته أنّه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾: بالياء بصرى كوفى غير أبى بكر، الباقون: بالتاء ﴿مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾: فلا شىء أعلى منه ولأنّه تعالى عن الأشياء والأشكال ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: العظيم الذى كلّ شىء دونه فلا شىء أعظم منه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ﴾: بالنبات، رفع فتصبح لأن ظاهر الآية استفهام ومعناه الخبر، مجازها: اعلم يا محمّد أن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرّة، وإن شئت قلت: قد رأيت أنّ الله أنزل من السماء ماءً، كقول الشاعر:

ألم تسأل الربع القديم[1] فينطق وهل تخبرنك اليوم بيداء سملق

معناه: قد سألته فنطق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾: يعنى لكيلا تسقط على الأرض ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾: ولم تكونوا شيئًا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾: عند انقضاء آجالكم وفناء أعماركم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ﴾: للثواب والعقاب ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾: لجحود لما ظهر من الآيات والدلالات.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: مألفًا يألفونه وموضعًا يعتادونه لعبادة الله، وأصل المنسك فى كلام العرب الموضع المعتاد لعمل خير أو شرّ يقال: إن لفلان منسكًا أى مكانًا يغشاه ويألفه للعبادة ومنه مناسك الحج لتردّد الناس إلى الأماكن التى تعمل فيها أعمال الحج والعمرة. وقال

---

(١) فى القرطبى البيت خطاب للمذكر، وقال الأستاذ محققه إنه بيت لجميل بن عبد الله صاحب بثينة، وجاءت هذه الكلمة فيه: القواء والمعنى متقارب حيث إن المراد بالقديم الخراب والقواء: الخالى أو القفر.
والأرض السَّمْلَق: هى الأرض الجرداء التى لا نبت فيها وهى مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض.

ابن عباس: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أى عيدًا. وقال مجاهد وقتادة: موضع قربان يذبحون فيه، غيرهم: أراد جميع العبادات.

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾: أى فى أمر الذبح، نزلت فى بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد ابن الخنيس قالوا لأصحاب رسول الله (عليه السلام): «ما لكم تأكلون ما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون ما قتله الله؟».

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: دين ربك ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: فتعرفون حينئذ الحقّ من المبطل والاختلاف ذهاب كلّ واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر، وهذا أدب حسنٌ علّم الله سبحانه فيمن جادل على سبيل التعنّت والمراء كفعل السفهاء أن لا يجادل ولا يناظر، ويدفع بهذا القول الذى علّمه الله سبحانه لنبيّه (عليه السلام).

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: كلّه ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾: يعنى اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: يعنى علمه تعالى بجميع ذلك ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾: الكافرين ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾: يمنعهم من عذاب الله.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾: بيّن ذلك فى وجوههم بالكراهة والعبوس.

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾: يقعون ويبطشون ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾: وأصل السطو: القهر.

﴿قُلْ﴾: يا محمد لهم ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ﴾: أى بشر لكم وأكره إليكم من هذا القرآن الذى تسمعون ﴿ٱلنَّارُ﴾: أى هى النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٧٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ۝٧٧ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ

﴿ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ : معنى ضرب: جعل، كقولهم: ضرب السلطان البعث على الناس، وضرب الجزية على أهل الذمة أى جعل ذلك عليهم، ومنه قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ (البقرة: ٦١) والمثل حالة ثابتة تشبه بالأُولى فى الذكر الذى صار كالعلم، وأصله الشبه، ومعنى الآية: جعل لى المشركون الأصنام شركائى فعبدوها معى.

﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ : حالها وصفتها التى بيّنت وشبّهتها بها، ثم بيّن ذلك فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ : قراءة العامة بالتاء، وروى زيد عن يعقوب يدعون بالياء ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ : فى صغره وقلّته لأنّها لا تقدر على ذلك ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ : لخلقه، والذباب واحد وجمعها القليل أذبنة والكثير ذبّان، مثل غراب وأغربة وغربان ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ﴾ : يعنى الأصنام، أخبر عنها بفعل ما يعقل، وقد مضت هذه المسألة، يقول: وإن يسلبهم ﴿ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ : مما عليهم ﴿لَّا﴾ : يقدرون أن ﴿يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ .

قال ابن عباس: الطالب الذباب والمطلوب الصنم، وذلك أن الكفّار كانوا يلطّخون أصنامهم بالعسل كلّ سنة ثم يغلقون عليها أبواب البيوت فيدخل الذّبان فى الكوى[1] فيأكل ذلك العسل وينقيها منه فإذا رأوا ذلك قالوا: أكلت آلهتنا العسل.

الضحّاك: يعنى العابد والمعبود.

ابن زيد وابن كيسان: كانوا يحلّون الأصنام باليواقيت واللآلئ وأنواع الجواهر ويطيّبونها بألوان الطيب، فربما يسقط واحد منها أو يأخذها طائر أو ذباب فلا تقدر الآلهة على استردادها، فالطالب على هذا التأويل الصنم والمطلوب الذباب والطائر.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ : أى ما عظّموا الله حقّ تعظيمه، ولا عرفوه حقّ معرفته ولا وصفوه حق صفته إذ أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾ : يختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ : كجبرئيل وميكائيل وغيرهما ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ : أيضًا رسلاً مثل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء صلوات الله عليهم، يقال: نزلت هذه الآية لمّا قال المشركون ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ (القمر: ٢٥) فأخبر أن الاختيار إليه، يختار من يشاء من خلقه.

---

(١) أى الشبابيك أو النوافذ.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿بَصِيرٌ﴾ : بمن يختاره لرسالته .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ : يعنى ما كان بين أيدى ملائكته ورسله قبل أن يخلقهم .

﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ : ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم .

وقال الحسن : ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما عملوه ، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما هم عاملون ممّا لم يعملوه بعد .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف قال : أخبرنا مكى بن عبدان قال : حدَّثنا محمد بن يحيى قال : وفيما قرأت على عبد الله بن نافع ، وحدّثنى مطرف بن عبد الله عن مالك عن نافع أنّ رجلاً من أهل مصر أخبر عبد الله بن عمر أنَّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين ثمَّ قال : إنَّ هذه السورة فضّلت بسجدتين .

وبإسناده عن مالك عن عبد الله بن دينار أنّه قال : رأيت عبد الله بن عمر سجد فى الحج سجدتين .

وأخبرنا أبو بكر الجوزقى قال : أخبرنا أبو العباس الدعولى قال : حدَّثنا ابن أبى خيثمة قال : حدَّثنا أبو سلمة الخزاعى منصور بن سلمة قال : حدَّثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن صفوان بن مهران أن أبا موسى قرأ على منبر البصرة سورة الحج ، فنزل فسجد فيها سجدتين .

وحدَّثنا أبو محمد المخلّدى قال : أخبرنا عبد الله بن محمد بن مسلم قال : حدَّثنا محمد بن مسلم بن دارة قال : حدَّثنا محمد بن موسى بن أعين قال : قرأت على أبى عن عمرو بن الحارث عن ابن لهيعة أن شريح بن عاها حدّثه عن عقبة بن عامر قال : قلت : يا رسول الله فى سورة الحج سجدتان؟ قال : نعم إن لم تسجدهما فلا تقرأهما .

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ : يعنى وجاهدوا فى سبيل الله أعداء الله حق جهاده ، وهو استفراغ الطاقة فيه ، قاله ابن عباس ، وعنه أيضًا : لا تخافوا فى الله لومة لائم وذلك حق الجهاد .

وقال الضحاك ومقاتل : يعنى اعملوا لله بالحقّ حقّ عمله ، واعبدوه حقّ عبادته .

عبد الله بن المبارك : هو مجاهدة النفس والهوى وذلك حقّ الجهاد ، وهو الجهاد الأكبر على ما روى فى الخبر أنّ رسول الله ﷺ قال حين رجع من بعض غزواته : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» .

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ : اختاركم لدينه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ : ضيق فلا يبتلى المؤمن بشىء من الذنوب إلاّ جعل له منه مخرجًا بعضها بالتوبة وبعضها بالقصاص وبعضها برد

المظالم وبعضها بأنواع الكفّارات، فليس فى دين الإسلام ما لا يجد العبد سبيلاً إلى الخلاص من العقاب فيه، ولا ذنب يذنبه المؤمن إلاّ وله منه فى دين الإسلام مخرج، وهذا معنى رواية على بن عبد الله بن عباس عن أبيه حين سأله عبد الملك بن مروان عن هذه الآية فقال: جعل الله الكفارات مخرجًا من ذلك، سمعت ابن عباس يقول ذلك.

وقال بعضهم: معناه وما جعل عليكم فى الدين من ضيق فى أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر والأضحى ووقت الحج إذا التبست عليكم وشكّ الناس فيها، ولكنّه وسّع ذلك عليكم حتى تتيقّنوا محلها ﴿مِّلَّةَ﴾: أبيكم أى كملّة ﴿أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾: نصب بنزع حرف الصفة، عن الفرّاء، غيره: نصب على الإغراء أى الزموا واتّبعوا ملّة أبيكم إبراهيم، وإنّما أمركم باتباع ملّة إبراهيم لأنّها داخلة فى ملّة محمد ﷺ.

وأمّا وجه قوله سبحانه: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ وليس جميعهم يرجع إلى ولادة إبراهيم فإنّ معناه: إنّ حرمة إبراهيم على المسلمين كحرمة الوالد، كما قال سبحانه: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦) وقال النبى ﷺ: «إنّما أنا لكم مثل الوالد»، وهذا معنى قول الحسن البصرى (رحمه الله).

﴿هُوَ﴾: يعنى الله سبحانه وتعالى ﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾: يعنى من قبل نزول القرآن فى الكتب المتقدمة ﴿وَفِي هَٰذَا﴾: الكتاب هذا قول أكثر المفسرين.

وقال ابن زيد: هو راجع إلى إبراهيم (عليه السلام) يعنى أنّ إبراهيم سمّاكم المسلمين من قبل أى من قبل هذا الوقت فى أيام إبراهيم ﴿وَفِي هَٰذَا﴾: الوقت، قال: وهو قول إبراهيم ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (البقرة:١٢٨) والقول الأول أولى بالصواب.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾: أن قد بلّغكم ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾: أن رسلهم قد بلّغتهم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾: وثقوا بالله وتوكّلوا عليه.

وقال الحسن: تمسّكوا بدين الله الذى لطف به لعباده.

﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾: وليّكم وناصركم ومتولى أمركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

❖ ❖ ❖

سورة المؤمنون

مكية وهى أربعة آلاف وثمانمائة وحرفان
وألف وثلاثمائة وأربعون كلمة ومائة وثمانى عشرة آية

أخبرنا أبو الحسين الخبازى قال حدثنا ابن حبش قال حدثنا أبو العباس محمد بن موسى الدقاق الرازى قال حدثنا عبد الله بن نوح المدائنى قال: (ح)[1] وحدثنا طفران قال: حدثنا ابن أبى داود قال حدثنا محمد بن عاصم قالا: حدثنا نسابة بن سوار الفزارى قال حدثنا مخلد بن عبد الواحد عن على بن أبى زيد عن عطاء بن أبى ميمونة عن زر بن حبيش عن أُبىّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت»[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١١﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (قد) حرف تأكيد. وقال المحققون معنى ﴿قَدْ﴾ تقريب الماضى من الحال، فدلّ على أن فلاحهم قد حصل، وهم عليه فى الحال، وهذا أبلغ فى الصفة من تجريد ذكر

(١) زيادة حديثية يتطلبها سياق الإسناد.

(٢) على بن زيد بن جدعان ضعيف الحديث وسبق أن بينت أن معظم الأحاديث الواردة فى هذا الكتاب ضعيفة خصوصًا ما تعلق منها بالأحاديث الواردة أوائل السور والتى هى فى فضائل السور فقد وضعها قوم كان قصدهم انصراف الناس إلى القرآن لما أن رأوهم قد انشغلوا بجمع الحديث وحفظه وتدوينه ثم اعترفوا بذلك، فيما بعد أن كان قد نقلها عنهم الرواة.

الفلاح . والفلاح : النجاح والبقاء .

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن المفسر بقراءته علىّ فى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة قال أخبرنا أبو عمرو المعتز بن محمد بن الفضل القاضى قال حدثنا أحمد بن الحسين الفريابى قال حدثنا عبد الرحمن بن حبيب البغدادى عن إسحاق بن نجيح الملطى عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لما خلق الله سبحانه جنة عدن ، خلق فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال لها : تكلمى ، قالت : قد أفلح المؤمنون ـ ثلاثًا ـ ثم قالت : أنا حرام على كل بخيل ومراء» .

وقرأ طلحة بن مصرّف : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ على المجهول ، أى قد أبقوا فى الثواب .

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ : اختلف المفسرون فى معنى الخشوع ؛ فقال ابن عباس : مخبتون أذلاء . الحسن وقتادة : خائفون .

مقاتل : متواضعون على الخشوع فى القلب ، وأن تلين للمرء المسلم كنفك ولا تلتفت .

مجاهد : هو غض البصر ، وخفض الجناح ، وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يمد بصره إلى شىء أو أن يحدث نفسه بشىء من شأن الدنيا .

عمرو بن دينار : ليس الخشوع الركوع والسجود ، ولكنه السكون ، وحسن الهيئة فى الصلاة .

ابن سيرين وغيره : هو أن لا ترفع بصرك عن موضع سجودك .

قالوا : وكان النبى ﷺ وأصحابه يرفعون أبصارهم فى الصلاة إلى السماء ، وينظرون يمينًا ويسارًا حتى نزلت هذه الآية ، فجعلوا بذلك وجوههم حيث يسجدون ، وما رُئى بعد ذلك أحد منهم ينظر إلاّ إلى الأرض .

قال ربيع : هو أن لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً .

أخبرنا أبو عمر الفراتى قال أخبرنا أبو موسى قال حدثنا السراج قال حدثنا محمد بن الصباح قال أخبرنا إسحاق بن سليمان قال حدثنا إبراهيم الخوزى عن عطاء بن أبى رباح قال سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ : «إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عينى الرحمن عز وجل فإذا التفت قال له الرب : إلى من تلتفت إلى من هو خير لك منى ، ابن آدم أقبل إلىّ فأنا خير لك ممن تلتفت إليه» .

قال عطاء : هو أن لا تعبث بشىء من جسدك فى الصلاة .

وأبصر النبى ﷺ رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة، فقال: «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه».

وأخبرنا محمد بن أحمد بن عقيل القطان قال: أخبرنا حاجب بن أحمد بن ترحم بن سفيان قال حدثنا أبو عبد الرحمن بن نبيت المروزى عبدان قال حدثنا عبد الله بن المبارك عن معمر أنه سمع الزهرى يحدث عن أبى الأحوص عن أبى ذر قال قال رسول الله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه فلا يحركن الحصى».

وقال: نظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصى ويقول: اللهم زوجنى من الحور العين. فقال: بئس الخاطب أنت تخطب وأنت تعبث.

خليد بن دعلج عن قتادة: هو وضع اليمين على الشمال فى الصلاة.

وقال بعضهم: هو جمع الهمة لها والإعراض عما سواها. أبو بكر الواسطى: هو الصلاة لله سبحانه على الخلوص من غير عوض.

سمعت ابن الإمام يقول: سمعت ابن مقسم يقول سمعت أبا الفضل جعفر بن أحمد الصندلى يقول سمعت ابن أبى الورد يقول: يحتاج المصلى إلى أربع خلال حتى يكون خاشعًا: إعظام المقام، وإخلاص المقال، واليقين: التمام، وجمع الهمة.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: قال الحسن: عن المعاصى. ابن عباس: الحلف الكاذب. مقاتل: الشتم والأذى. وقال غيرهم: ما لا يحمل من القول، والفعل. وقيل: اللغو: الفعل الذى لا فائدة فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ﴾: الواجبة ﴿فَـٰعِلُونَ﴾: مؤدون، وهى فصيحة، وقد جاءت فى كلام العرب، قال أمية بن أبى الصلت:

المطعمون الطعام فى السنة الأزمة والفاعلون للزكوات

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾: أى من أزواجهم، على بمعنى: من ﴿أَوْ مَا﴾: فى محل الخفض يعنى: أو من ما ﴿مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾: على إتيان نسائهم وإمائهم.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾: أى التمس وطلب سوى زوجته وملك يمينه ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾: من الحلال إلى الحرام، فمن زنى فهو عاد.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ﴾: التى ائتمنوا عليها ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾: وعقودهم التى عاقدوا الناس عليها ﴿رَٰعُونَ﴾: حافظون وافون.

وقرأ ابن كثير: لأمانتهم، على الواحد لقوله: ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ . وقرأ الباقون بالجمع لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ .

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ : يداومون على فعلها، ويراعون أوقاتها، فأمر بالمحافظة عليها كما أمر بالخشوع فيها، لذلك كرر ذكر الصلاة.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ : أهل هذه الصفة.

﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ : يوم القيامة منازل أهل النار[1] من الجنة.

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلاّ وله منزلان[2] منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فإن مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ .

وقال مجاهد: لكل واحد منزلان: منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فأما المؤمن فيبنى منزله الذى فى الجنة ويهدم منزله الذى هو فى النار، وأما الكافر فيهدم منزله الذى هو فى الجنة ويبنى منزله الذى هو فى النار.

وقال بعضهم: معنى الوراثة: هو أن يؤول أمرهم إلى الجنة وينالونها كما يؤول أمر الميراث إلى الوارث.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ : أى البستان ذا الكرم. قال مجاهد: هو بالرومية. عكرمة: هى الجنة بلسان الحبش. السدى: هى البساتين عليها الحيطان بلسان الروم.

وفى الحديث أن حارثة بن سراقة قتل يوم بدر فقالت أمه: يا رسول الله، إن كان ابنى من أهل الجنة لم أبك عليه، وإن كان من أهل النار بالغت فى البكاء، فقال: «يا أم حارثة إنها جنان وإن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى من الجنة».

أخبرنى أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد الطبرانى بها قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن يونس بن إبراهيم بن النضر المقرئ قال حدثنا العباس بن الفضل المقرئ قال حدثنا أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم قال حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكر المخزومى قال حدثنى عبد الله ابن لهيعة الحضرمى قال حدثنا عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ : يعنى قد سعد المصدقون بتوحيد الله سبحانه ثم نعتهم ووصف أعمالهم فقال عز من قائل: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ : يعنى متواضعين لا يعرف من على يمينه ولا من عن

---

(١) فى المخطوطة: الجنة، وهو سهو من الناسخ والتصويب من القرطبى، وما يلى ذلك من الكلام يؤكده.

(٢) فى المخطوط: منزلاً. وهو سهو لسقوط النون من آخره.

يساره، ولا يلتفت من الخشوع لله. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: يعنى الباطل والكذب. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾: يعنى الأموال، كقوله سبحانه فى الأعلى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (الأعلى: ١٤): يعنى من ماله. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾: يعنى عن الفواحش، ثم قال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: يعنى ولائدهم: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾: لا يلامون على جماع أزواجهم وولائدهم. ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾: فمن طلب الفواحش بعد الأزواج والولائد ما لم يحل ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ يعنى المعتدين فى دينهم. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾: يعنى ما ائتمنوا عليه فيما بينهم وبين الناس، ﴿وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾: يعنى حافظين يؤدون الأمانة ويوفون بالعهود. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾: يعنى يحافظون عليها فى مواقيتها. ثم أخبر بثوابهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ ثم بَيّن ما يرثون فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾: يعنى الجنة بلسان الرومية ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: لا يموتون فيها.

أخبرنا محمد بن عقيل القطان قال أخبرنا حاجب بن أحمد بن سفيان قال حدثنا محمد بن حماد الأبيوردى قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنى يونس بن سليم قال أملى على يونس صاحب أيلة عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القارى قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل، فمكثنا ساعة فاستقبل ورفع يديه فقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا». ثم قال: «لقد أنزل علينا عشر آيات من أقامهن دخل الجنة». ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ عشر آيات.



﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا

تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ : يعنى ابن آدم.

﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ : أى من صفوة ماء آدم الذى هو من الطين ومنيه، والعرب تسمى نطفة الشىء وولده سليله وسلالته، لأنهما مسلولان منه، قال الشاعر:

حملت به عضب الأديم غضنفرًا سلالة فرج كان غير حصين

وقال آخر:

وهل كنت إلا مهرة عربية سليلة أفراس تجللها بغل

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ : حريز مكين لاستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها وهو الرحم.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ : قرأ ابن عامر: عظمًا، على الواحد فى الحرفين. ومثله روى أبو بكر عن عاصم، لقوله: ﴿لَحْمًا﴾. وقرأ الآخرون بالجمع لأن الإنسان ذو عظام كثيرة.

﴿فَكَسَوْنَا﴾ : فألبسنا ﴿الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ : اختلف المفسرون فيه، فقال ابن عباس ومجاهد والشعبى وعكرمة وأبو العالية، والضحاك، وابن زيد: نفخ الروح فيه.

قتادة: نبات الأسنان والشعر.

وقال ابن عمر: استواء الشباب، وهى رواية ابن أبى نجيح، وابن جريج عن مجاهد.

وروى العوفى عن ابن عباس: أن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة، يقول خرج من بطن أمه بعدما خلق فكان من بدو خلقه الآخر أن استهل، ثم كان من خلقه أن دل على ثدى أمه، ثم كان من خلقه أن علم كيف يبسط رجليه إلى أن قعد إلى أن حبا إلى أن قام على رجليه إلى أن مشى إلى أن فطم، فعلم كيف يشرب ويأكل من الطعام إلى أن بلغ الحلم إلى أن بلغ أن يتقلب فى البلاد. وقيل: الذكورة والأنوثة. وقيل: إعطاء العقل والفهم.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ : أى استحق التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال ، وأصله من البروك وهو الثبوت .

﴿أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ : أى المصورين والمقدرين . مجاهد : يصنعون ويصنع الله ، والله خير الصانعين .

وقال ابن جريج : إنما جمع الخالقين لأن عيسى كان يخلق فأخبر جلّ ثناؤه أنه يخلق أحسن مما كان يخلق .

وروى أبو الخليل عن أبى قتادة قال : لما نزلت هذه الآية إلى آخرها قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزلت : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [1] .

قال ابن عباسٍ : كان ابن أبى سرح يكتب لرسول الله ﷺ فأملى عليه هذه الآية ، فلما بلغ قوله : ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ خطر بباله ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ فلما أملاها كذلك رسول الله ﷺ قال عبد الله : إن كان محمد نبيًا يوحى إليه فأنا نبى يوحى إلىّ ، فلحق بمكة كافرًا .

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ : قرأ أشهب العقيلى : مايتون ، بالألف ، والميِّت ، والمائت الذى لم تفارقه الروح بعد وهو سيموت ، والميْت بالتخفيف الذى فارقه الروح فلذلك لم يخفف هاهنا كقوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر : ٣٠)﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ : وإنما قيل طرائق لأن بعضهن فوق بعض ، فكل سماء منهن طريقة ، والعرب تسمى كل شىء فوق شىء طريقة . وقيل : لأنها طرائق الملائكة .

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ﴾ : يعنى عن خلق السماء ، قال بعض العلماء وقال أكثر المفسرين : يعنى عمن خلقنا من الخلق كلهم ما كنا غافلين عنهم بل كنا لهم حافظين من أن تسقط عليهم فتهلكهم .

وقال أهل المعانى : معنى الآية أن من جاز عليه الغفلة عن العباد جاز عليه الغفلة عن الطرائق التى فوقهم فتسقط فالله عز وجل يمسك السموات أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ (الحج : ٦٥) ، ولولا إمساكه لها لم تقف طرفة عين .

قال الحسن : ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ﴾ أن ينزل عليهم ما يجيئهم من المطر .

---

(١) القول فى سبب نزول هذه الآية كالقول فى سورة النور عند آية الاستئذان فراجعه فى السورة القادمة ، وما عمر رضى الله عنه إلاّ أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين وليس شرطًا أن يكون لكل آية مناسبة أو سبب نزول ، وإنما الله ينزل القرآن على نبيه ﷺ بقدر يعلمه ولسبب يعلمه ، وأما إضافة مثل هذه الأقوال إلى سيدنا عمر أو إلى غيره من الصحابة إنما هو نوع من الانتصار لمذاهب معينة وفرق وطوائف فلاحظ ذلك عند قراءتك لفضائل الصحابة فهم كلهم خَيْرَة بَرَرَة غير أنه لا يجب إنزالهم فوق منازلهم التى أنزلهم الله إياها .

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : ثم أخرجنا منها ينابيع ، فماء الأرض هو من السماء .

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾ : حتى تهلكوا عطشًا ، وتهلك مواشيكم ، وتخرب أراضيكم ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ : بالماء ﴿جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ : يعنى فى الجنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ : شتاءً وصيفًا ، وإنما خص النخيل والأعناب بالذكر لأنهما كانا معظم ثمار الحجاز وما والاها فكانت النخيل لأهل المدينة ، والأعناب لأهل الطائف ، فذكر للقوم ما يعرفون من نعمه .

﴿وَشَجَرَةً﴾ : يعنى وأنشأنا لكم أيضًا شجرة ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ : وهى الزيتون : واختلف القراء فى سيناء . فكسر سينه أبو عمرو ، وأهل الحجاز ، وفتحه الباقون . واختلف العلماء فى معناه : فقال مجاهد : معناه البركة ، يعنى أنه جبل مبارك . وهى رواية عطية عن ابن عباس ، وقتادة ، والحسن . وقال الضحاك : طور سيناء بالنبطية الجبل الحَسَن .

قال ابن زيد : هو الجبل الذى نودى منه موسى عليه السلام ، وهو بين مصر ، وأيلة . وقال معمر وغيره : جبل ذو شجر . وقال بعضهم : هو بالسريانية الملتفة الأشجار . وقيل : هو كل جبل ذى أشجار مثمرة . وقيل : هو متعال من السنا وهو الارتفاع .

وقال مقاتل : خص الطور بالزيتون لأن أول الزيتون نبت بها . ويقال : إن الزيتون أول شجرة نبتت فى الدنيا بعد الطوفان .

﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ : وأكثر القراء على فتح التاء الأولى من قوله : ﴿تَنۢبُتُ﴾ ، وضم بائه . وقرأ ابن كثير ، وابن عمرو بضم التاء ، وكسر الباء ، ولها وجهان :

أحدهما : أن الباء فيه زائدة ، كما يقال : أخذت ثوبه ، وأخذت بثوبه ، وكقول الراجز :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج ... نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

أى ونرجو الفرج .

والوجه الآخر : أنهما لغتان بمعنى واحد ، نبت وأنبت ، وقال زهير :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم ... قطينًا لهم حتى إذا أنبت البقل

أى نبت ﴿وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ : أى إدام يصطبغ به .

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً﴾ : وهى الدلالة الموصلة إلى اليقين المؤدى به إلى العلم وهى من العبور كأنه طريق يعبر إليه ويتوصل به إلى المراد .

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ : قال ابن عباس يسمى بذلك لكثرة ما ناح على نفسه . واختلف فى سبب نوحه : فقال بعضهم : لدعوته على قومه بالهلاك حيث قال نوح : ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح:٢٦) . وقيل : لمراجعته ربه فى شأن أمته . وقيل : لأنه مَرّ بكلب مجذوم ، فقال : اخسأ يا قبيح ، فأوحى الله إليه : أعبتنى أم عبت الكلب؟

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ﴾ : يتشرف ﴿عَلَيْكُمْ﴾ : فيكون أفضل منكم ، فيصير متبوعًا وأنتم له تبعًا .

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ : الذى يدعونا إليه نوح ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝ إِنْ هُوَ﴾ : ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ : جنون ، نظيرها قوله سبحانه : ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ (الأعراف:١٨٤) . ويقال للجن أيضًا : جِنَّة ، قال الله سبحانه : ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (الصافات:١٥٨) ، وقال : ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ (الناس:٦) . يتفق الاسم والمصدر .

﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ : فانتظروا ﴿بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ : يعنى إلى وقت ما . وقيل : إلى حين الموت . فقال : لما تمادوا فى غيهم وأصروا على كفرهم ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ : أعنى بإهلاكهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ : يعنى بتكذيبهم إياى .



﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ۝ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝﴾

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ : فأدخل فيها، يقال : سلكته فى كذا وأسلكته فيه، قال الشاعر :

وكنت لزار خصمك لم أعرد وقد سلكوك فى يوم عصيب

وقال الهذلى :

حتى إذا أسلكوهم فى قتائدة شلاً كما تطرد الجمالة السردا

﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ : قال الحسن : لم يحمل نوح فى السفينة إلاّ من تلد وتبيض، فأما ما يتولد من الطين، وحشرات الأرض، والبق، والبعوض، فلم يحمل منها شيئًا.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ : اعتدلت فى السفينة راكبًا فيها عاليًا فوقها ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ : قرأه العامة بضم الميم على المصدر، أى إنزالاً مباركًا. وقرأ عاصم برواية أبى بكر بفتح الميم، وكسر الزاى، أى موضعًا.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ [(١)]﴾ : وقد كنا. وقيل: وما كنا إلا مبتلين مختبرين إياهم بتذكيرنا ووعظنا لننظر ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ : أى أهلكناهم وأحدثنا من بعدهم ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ : قال المفسرون يعنى هودًا وقومه ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ﴾ : نعمناهم ووسعنا عليهم، والترفه: النعمة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ﴾ : الرسول ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ۝ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا﴾ : قد ذهبت اللحوم ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ : من قبوركم أحياء، وأعاد ﴿أَنَّكُم﴾ لما طال الكلام ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ .

❖ ❖ ❖

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ۝٤٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً

(١) سقطت هذه الكلمة من الناسخ سهواً.

فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾: قال ابن عباس: هى كلمة بُعد، يقول: ما توعدون. واختلف القراء فيه فقرأ أبو جعفر بكسر التاء فيهما. وقرأ نصر بن عاصم بالضم. وقرأ ابن حيوة الشامى: بالضم والتنوين. وقرأ الآخرون بالنصب من غير تنوين. وكلها لغات صحيحة، فمن نصب جعلها مثل أين وكيف. وقيل: لأنهما أداتان فصارتا مثل خمسة عشر، وبعلبك، ونحوهما.

وقال الفراء: نصبهما كنصب قولهم: ثمث، وربت. ومن رفعه جعله مثل: منذ وقط وحيث. ومن كسره جعله مثل: أمس، وهؤلاء، قال الشاعر:

تذكرت أيامًا مضين من الصبا ... وهيهات هيهات إليك رجوعها

وقال آخر:

لقد باعدت أم الحمارس دارها ... وهيهات من أم الحمارس من هيهاتا

واختلفوا فى الوقف عليها: فكان الكسائى يقف عليها بالهاء، والفراء بالتاء. وإنما أدخلت اللام مع هيهات فى الاسم لأنها أدة غير مشتقة من فعل، فأدخلوا معها فى الاسم اللام كما أدخلوها مع هلم لك.

﴿إِنْ هِىَ﴾: يعنون الدنيا ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: يموت الآباء ويحيى الأبناء ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ﴾: يعنون الرسول ﴿إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾: عن قليل، وما صلة ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ﴾: على كفرهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾: يعنى صيحة العذاب ﴿بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً﴾: وهو ما يحمله السيل ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾: والقرن أهل العصر سموا بذلك لمقارنة بعضهم ببعض.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: ومن صلة.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ﴾: مترادفين يتبع بعضهم بعضًا. وقرأ أبو جعفر، وابن كثير وأبو عمرو: تترى بالتنوين على توهم أن الياء أصلية كما قيل معزى بالياء، ومعزًى، وبهمى وبهمًا، فأجريت أحيانًا، وترك إجراؤها أحيانًا، فمن نون وقف عليها بالألف، ومن لم ينون

وقف عليها بالياء. ويقال إنها ليست بياء ولكن ألف مُمَالة. وقرأه العامة بغير تنوين مثل: غضبى وسكرى، وهو اسم جمع مثل شتى، وأصله وترى من المواترة والتواتر، فجعلت الواو تاءً مثل التقوى، والتكلان، ونحوهما.

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾: بالهلاك، أى أهلكنا بعضهم فى أثر بعض.

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾: أى مثلاً يتحدث بهم فى الناس. وهى جمع أحدوثة، ويجوز أن يكون جمع حديث قال الأخفش: إنما يقال هذا فى الشر، فأما فى الخير فلا يقال جعلتهم أحاديث وأحدوثة وإنما يقال: صار فلان حديثًا.

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾: نظيرها: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ (سبأ: ١٩).

❖ ❖ ❖

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ۝ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ۝ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۝ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝﴾

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: تعظموا عن الإيمان ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾: متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم. نظيرها: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص: ٤).

﴿فَقَالُوٓا۟﴾: يعنى فرعون وقومه ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾: فنتبعهما ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ﴾: مطيعون متذللون والعرب تسمى كل من دان لملك عابدًا له، ومن ذلك قيل لأهل الحيرة: العباد، لأنهم كانوا أهل طاعة لملوك العجم.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾: بالغرق ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: لكى يهتدى بها قومه فيعملوا بما فيها ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾: دلالة على قدرتنا، وكان حقه أن يقول: آيتين كما قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ (الإسراء:١٢). واختلف النحاة فى وجهها: فقال بعضهم: معناه، وجعلنا كل واحد منهما آية، كما قال سبحانه: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ (الكهف:٣٣) أى أتت كل واحدة أُكلها، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾ (المائدة:٩٠): ولم يقل أرجاس. وقال بعضهم: معناه جعلنا شأنهما واحداً بأن عيسى وُلِدَ من غير أب، وأمه وَلَدَت من غير مسيس ذكر ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

أخبرنا أبو صالح منصور بن أحمد المشطى قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الرازى قال أخبرنا سليمان بن على قال أخبرنا هشام بن عمار قال حدثنا عبد المجيد عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن سلام فى قول الله سبحانه: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: دمشق. وقال أبو هريرة: هى الرملة وقال قتادة، وكعب: بيت المقدس. قال كعب: وهى أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً[1]. وقال ابن زيد: مصر. وقال الضحاك: غوطة دمشق. وقال أبو العالية: إيليا، وهى الأرض المقدسة ويعنى بالقرار: الأرض المستوية، والساحة الواسعة، والمعين: الماء الظاهر لعين الناظر، وهو مفعول من عانه يعينه إذا أدركه بالبصر ورآه. ويجوز أن يكون فعيلاً من معن يمعن فهو معين من الماعون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: يعنى من الحالات، يعنى وقلنا لعيسى عليه السلام كلوا من الطيبات، وهذا كما يقال فى الكلام للرجل الواحد أيها القوم كفوا عنا أذاكم، ونظائرها فى القرآن كثيرة. قال عمرو بن شرحبيل: كان يأكل من غزل أمه. وقال الحسن، ومجاهد: المراد به محمد رسول الله ﷺ.

﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾: قرأ أهل الكوفة بكسر الألف على الابتداء. وقرأ ابن عامر بفتح الألف وتخفيف النون جعل ﴿إِنَّ﴾ صلة مجازه: وهذه أمتكم. وقرأ الباقون بفتح الألف وتشديد النون على معنى هذه. ويجوز أن يكون نصبًا بإضمار فعل،

(١) هذا التفسير غير حقيقى وإنما كان يعتمد صاحبه على التقدير الجزافى أما الآن فقد صارت لذلك آلات وأجهزة دقيقة تحدد ما هى أعلى نقطة فى الأرض وكم ارتفاعها عن سطح البحر وما شابه ذلك ولا علاقة له بالتفسير فى هذا الموضع لهذه الآية.

أى علموا أن هذه ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ : أى ملتكم ملة واحدة، وهى دين الإسلام.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ قرأه العامة بضم الباء يعنى كُتُبًا جمع زبور بمعنى دان كل فريق منهم بكتاب غير الكتاب الذى دان به الآخر، قاله مجاهد، وقتادة. وقيل معناه: فتفرقوا دينهم بينهم كتبًا أحدثوها يحتجون فيها لمذاهبهم، وقاله قتادة، وابن زيد، وقرأ أهل الشام بفتح الباء قطعًا وفرقًا كقطع الحديد، قال الله سبحانه: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ (الكهف: ٩٦).

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ : جماعة ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ : عندهم من الدين ﴿فَرِحُونَ﴾ : معجبون مسرورون ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ : قال ابن عباس: كفرهم وضلالتهم. وقال ابن زيد: عما هم. وقال الربيع: غفلتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ : إلى وقت مجىء آجالهم.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ﴾ : نعطيهم ونزيدهم ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ : فى الدنيا ﴿نُسَارِعُ﴾ : نسابق ﴿لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ : ومجاز الآية أيحسبون ذلك مسارعة لهم فى الخيرات. وقرأ عبد الرحمن ابن أبى بكر (يُسارَع) على ما لم يسم فاعله. والصواب قراءة العامة لقوله سبحانه: ﴿نُمِدُّهُم﴾ .

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ : أن ذلك استدراج لهم، ثم بين المسارعين إلى الخيرات فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ .

❖ ❖ ❖

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۝ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ۝ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ۝ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ۝ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ

ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ »

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾: يعطون ما أعطوا من الزكوات والصدقات. هذه قراءة أهل الأمصار وبه رسوم مصاحفهم.

أخبرنا عبد الخالق بن على قال أخبرنا إسماعيل بن نجية قال حدثنا محمد بن عمار بن عطية قال: حدثنا أحمد بن يزيد الحلوانى قال: حدثنا خلاد عن إبراهيم بن الزبرقان عن محمد بن حماد عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها: أن النبى ﷺ كان يقرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ من المجيء.

وأخبرنا الحاكم أبو منصور حمد بن أحمد البورجانى قال: حدثنا على بن أحمد بن موسى الفارسى، قال: حدثنا محمد بن الفضيل قال: حدثنا أبو أسامة قال: حدثنى مالك بن مغول قال: سمعت عبد الرحمن بن سعيد الهمدانى ذكر أن عائشة رضى الله عنها قالت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ أهو الذى يزنى، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: «لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله سبحانه».

وأخبرنا عبد الله بن يوسف قال: حدثنا محمد بن حامد قال: حدثنا محمد بن الجهم قال: حدثنا عبد الله بن عمرو قال: أخبرنا وكيع عن ملك بن مغول عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة قال: قلت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق قال: «لا يا ابنة أبى بكر أو يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا تقبل منه».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا﴾: يعنى إليها ﴿سَٰبِقُونَ﴾: كقوله: ﴿لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ (المجادلة: ٨)، و ﴿لِمَا قَالُواْ﴾ (المجادلة: ٣) ونحوهما. وكان ابن عباس يقول فى معنى هذه الآية: سبقت لهم من الله السعادة، ولذلك سارعوا فى الخيرات.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾: يعنى إلاّ ما يسعها، ويصلح لها من العبادة والشريعة ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ﴾: يعنى اللوح المحفوظ ﴿يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ﴾: يبين بالصدق ما عملوا، وما هم عاملون من الخير والشر. وقيل: هو كتاب أعمال العباد الذى تكتبه الحفظة، وهو أليق بظاهر الآية.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: يعنى يوفون جزاء أعمالهم ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم.

ثم ذكر الكفار فقال عز من قائل: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾: عمًى وغفلة. ﴿مِّنْ هَـٰذَا﴾: القرآن.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ﴾: خبيثة لا يرضاها الله من المعاصى والخطايا ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾: يعنى من دون أعمال المؤمنين التى ذكرها الله سبحانه قيل وهى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾.

﴿هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ﴾: لا بد لهم من أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من الشقاوة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾: يعنى أغنياءهم رؤساءهم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾: قال ابن عباس: بالسيوف يوم بدر. وقال الضحاك: يعنى الجوع، وذلك حين دعا عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف». فابتلاهم بالقحط حتى أكلوا الجيف والكلاب، والعظام المحرقة، والقد، والأولاد.

﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾: يضجون ويجزعون ويستغيثون، وأصل الجؤار: رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور. قال الشاعر:

فطافت ثلاثًا بين يوم وليلة وكان النكير أن تضيف وتجأرا

يصف بقرة. وقال أيضًا:

يراوح من صلوات المليك فطورًا سجودًا وطورًا جؤارا

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾: لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم وتضرعكم.

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: يعنى القرآن ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ أدباركم ﴿تَنكِصُونَ﴾ تدبرون وتعرضون، وتستأخرون، وترجعون القهقرى مكذبين بها كارهين لها ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾: أى بالحرم، يقولون لا يظهر علينا أحد لأنّا أهل الحرم. وهو كناية عن غير مذكور ﴿سَـٰمِرًا﴾: نصب على الحال. يعنى أنهم يسمرون بالليل فى مجالسهم حول البيت. ووحد سامرًا، وهو بمعنى السُّمّار، لأنه وضع موضع الوقت أراد تهجرون ليلاً كقول الشاعر:

من دونهم إن جئتهم سمرًا عزف القيان ومجلس غَمْرُ

فقال: سمرًا لأن معناه: إن جئتهم ليلاً وهم يسمرون. وقيل: واحد ومعناه الجمع، كما قال: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (غافر: ٦٧) ونحوه.

﴿تَهْجُرُونَ﴾: قرأ نافع بضم التاء، وكسر الجيم، أى تفحشون، وتقولون الخنا. يقال:

أهجر الرجل فى كلامه، أى أفحش. وذكر أنهم كانوا يسبون رسول الله ﷺ وأصحابه. وقال آخرون بفتح التاء وضم الجيم ولها وجهان:

أحدهما: تعرضون عن رسول الله ﷺ والقرآن، والإيمان وترفضونها.

والآخر: يقولون سوءاً وما لا يعلمون، من قولهم هجر الرجل فى منامه إذا هذى.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾: يتدبروا ﴿الْقَوْلَ﴾: القرآن ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾: فأنكروه وأعرضوا عنه. ويحتمل أن يكون أم بمعنى بل، يعنى بل جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين. فلذلك أنكروه ولم يؤمنوا به. وروى هذا القول عن ابن عباس.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾: محمداً، وأنه من أهل الصدق والأمانة ﴿فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾: جنون، كذبوا فى ذلك، فإن المجنون يهذى، ويقول ما لا يعقل، ولا معنى له، ﴿بَلْ﴾ محمد ﴿جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾: بالقول الذى لا يخفى صحته وحسنه على عاقل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ﴾: يعنى الله سبحانه ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾: مرادهم فيما يفعل ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾: ببيانهم وشرفهم يعنى القرآن.

﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ۝ أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾: على ما جئتهم به ﴿خَرْجًا﴾: أجراً وجعلاً، وأصل الخرج والخراج الغلة والضريبة والإتاوة كخراج العبد والأرض.

وقال النضر بن شميل: سألت أبا عمر بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج؟ فقال: الخراج: ما لزمك، ووجب عليك أداؤه. والخرج: ما تبرعت به من غير وجوب.

قال الله سبحانه: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾: رزقه وثوابه ﴿خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: وهو الإسلام.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾: عادلون مائلون، ومنه الريح النكباء.



﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ۝٧٨ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا

أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ : **قحط وجدب** ﴿لَّلَجُّواْ﴾ : **لتمادوا** ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ : **يعنى القتل والجوع** ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ : **خضعوا، وأصله طلب السكون** ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ .

قال ابن عباس: لما أتى بثمامة بن أثال الحنفى النبى ﷺ فأسلم وهو أسير فخلى سبيله، فلحق باليمامة فحال بين أهل مكة وبين المسيرة من اليمامة، وأخذ الله قريشًا بسنى الجدب حتى أكلوا العلهز، فجاء أبو سفيان النبى ﷺ فقال: أنشدك بالله والرحم، أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: «بلى». فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فأنزل الله سبحانه هذه الآية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ **قال ابن عباس: يوم بدر. وقال مجاهد: القحط. وقيل: عذاب النار فى الآخرة** ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ : **متحيرون آيسون من كل خير.**

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ﴾ : **هذا الوعد** ﴿وَءَابَآؤُنَا

هَـٰذَا مِن قَبۡلُ﴾ : ووعد آباءنا من قبلنا قوم ذكروا أنهم أنبياء الله فلم ير له حقيقة.

﴿إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ قُل﴾ : يا محمد مجيبًا لهم ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ : ولا بد لهم من ذلك، فقل لهم، إذا أقروا بذلك ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ : فتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتداء فهو قادر على إحيائهم بعد موتهم.

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ : قراءة العامة ﴿لِلَّهِۚ﴾ ، ومثله ما بعده، فجعلوا الجواب على المعنى دون اللفظ كقول القائل للرجل: من مولاك؟ فيقول لفلان، أى أنا لفلان وهو مولاى، وأنشد:

اعلم أننى سأكون رمسًا إذا سار النواعج لا يسير
فقال السائلون لمن حفرتم فقال المخبرون لهم وزير

فأجاب المخفوض بمرفوع لأن معنى الكلام: فقال السائلون من الميت؟ فقال المخبرون الميت وزير، فأجاب عن المعنى وقال آخر:

إذا قيل من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجرد قيل لخالد

وقال الأخفش: اللام زائدة يعنى لله. وقرأ أهل البصرة كلاهما: الله، بالألف، وهو ظاهر لا يحتاج إلى التأويل، وهو فى مصاحف أهل الأمصار كلها: لله، إلا فى مصحف أهل البصرة فإنه: الله الله. فجرى كل على مصحفه ولم يختلفوا فى الأول أنه: ﴿لِلَّهِۚ﴾ لأنه مكتوب فى جميع المصاحف بغير ألف وهو جواب مطابق للسؤال فى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ﴾ فجوابه ﴿لِلَّهِۚ﴾.

﴿قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ : الله فتطيعونه ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ : ملكه وخزائنه ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ : يعنى يؤمن من يشاء ولا يؤمن من أخافه ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ : قال أهل المعانى: معناه أجيبوا إن كنتم تعلمون.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ : أى تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته.

﴿بَلۡ أَتَيۡنَـٰهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ : الصدق ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَـٰذِبُونَ ۝ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَـٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ : فانفرد به ولتغالبوا فعلاً بعضهم على بعض، وغلب القوى منهم الضعيف ﴿سُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ : من الكذب ﴿عَـٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ : قرأ بالجر ابن كثير وابن عامر، وأبو عمرو على نعت الله. وقرأ غيرهم بالرفع على الابتداء أو على معنى هو عالم. وروى رويس عن يعقوب: أنه كان إذا ابتدأ رفع وإذا وصل خفض.

﴿فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ

﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ : فلا تهلكنى بهلاكهم. والفاء فى قوله : ﴿فَلَا﴾ جواب لإمّا لأنه شرط وجزاء.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ : من العذاب فجعلناه لهم ﴿لَقَـٰدِرُونَ﴾ .

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ : يعنى بالخلة التى هى أحسن ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ : أذاهم وجفاءهم، يقول أعرض عن أذاهم واصفح عنهم، نسختها آية القتال(١).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ : فنجزيهم به ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ : أستجير بك ﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ : أى نزغاتهم. عن ابن عباس. وقال الحسن : وساوسهم. وقال مجاهد : نفخهم، ونفثهم. وقال ابن زيد : خنقهم الناس.

وقال أهل المعانى : يعنى دفعهم بالإغواء إلى المعاصى والهمز شدة الدفع ومنه قيل للحرف الذى يخرج من هواء الفم للدفع همزة.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ : فى شىء من أمورى.



﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

(١) القول فى أن آية السيف نسخت مائة وأربعًا وعشرين آية أو نحوها هذا قول مختلف فيه كما أنه مختلف فى مسألة الناسخ والمنسوخ وذهب إلى القول بأن كل آية لها حكم خاص بها يكون عند حلول حاله من ذهب إلى القول بعدم النسخ فى القرآن، والله أعلم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: يعنى هؤلاء المشركين، وذلك حين ينقطع عن الدنيا ويعاين الآخرة قبل أن يذوق الموت.

﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾: ولم يقل ارجعنى، وهو خطاب الواحد على التعظيم كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ (الحجر: ٩) فخوطب على نحو هذا كما ابتدأ بلفظ التعظيم.

وقال بعضهم: هذه المسألة إنما كانت منهم للملائكة الذين يقبضون روحه، وإنما ابتدأ الكلام بخطاب الله سبحانه لأنهم استغاثوا أولاً بالله سبحانه ثم رجعوا إلى سؤال الملائكة الرجوع إلى الدنيا.

﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾: صنعت ﴿كَلَّآ﴾: أى لا ترجع إليها، وهى كلمة ردع وزجر ﴿إِنَّهَا﴾: يعنى سؤاله الرجعة ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾: ولا ينالها.

روت عائشة عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا، فيقول: إلى دار الهموم والأحزان، بل قدما إلى الله عز وجل، وأما الكافر فيقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ الآية.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾: أمامهم ﴿بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: أى حاجز بين الموت والرجوع إلى الدنيا، عن مجاهد. وقال ابن عباس: حجاب. وقال السدى: أجل. وقال قتادة: بقية الدنيا. وقال الضحاك، وابن زيد: ما بين الموت إلى البعث. وقال أبو أمامة: القبر. وقيل: الإمهال وكل فصل بين سنين برزخ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾: قال ابن عباس: لا يفتخرون بالأنساب فى الآخرة كما كانوا يفتخرون.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: قال أبو العالية: هو كقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (المعارج: ١٠).

وقال ابن جريج معنى الآية لا يسأل أحد يومئذ شيئًا بنسب: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يمت إليه برحم. واختلف المفسرون فى المراد بقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أى النفختين عنى؟ فقال ابن عباس: هى النفخة الأولى.

أخبرنى ابن فنجويه بقراءتى عليه قال حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن أيوب قال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أبى عوف قال حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبى كريمة الحرانى قال حدثنا محمد بن سلمة بن أبى عبد الرحيم قال حدثنى زيد بن أبى أنيسة عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس فى قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ قال: هذه فى النفخة الأولى فى الصور ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا

مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الزمر: ٦٨) ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر: ٦٨) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ (الصافات: ٢٧). وقال ابن مسعود: هى النفخة الثانية.

أخبرنى الحسين بن محمد بن فنجويه قال حدثنا عبيد الله بن محمد بن شيبة قال حدثنا جعفر بن محمد الفريابى قال حدثنا يزيد بن موهب الرملى قال حدثنا عيسى بن يونس عن هارون بن أبى وكيع قال سمعت زاذان أبا عمر يقول: دخلت على ابن مسعود فوجدت أصحاب الخز واليُمنة قد سبقونى إلى المجالس فناديته: يا عبد الله بن مسعود من أجل أنى رجل أعجمى أدنيت هؤلاء وأقصيتنى؟ فقال: ادن، فدنوت حتى ما كان بينى وبينه جليس فسمعته يقول: يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادى مناد: هذا فلان ابن فلان، فمن كان له قبله حق فليأت إلى حقه فتفرح المرأة أن يدور لها الحق علىً أبيها أو على زوجها أو على ابنها أو على أختها، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

قال: فيقول الله سبحانه: آت هؤلاء حقوقهم. فيقول: رب فنيت الدنيا. فيقول للملائكة خذوا من أعماله فأعطوا كل إنسان بقدر طلبته. فإن كان وليًا لله عز وجل وفضلت له من حسناته مثقال حبة من خردل، ضاعفها حتى يدخله بها الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ (النساء: ٤٠) وإن كان شقيًا قالت الملائكة: رب فنيت حسناته وبقى طالبون؟ فيقول: خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلى سيئاته، وصكوا له صكًا إلى النار.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝ تَلْفَحُ﴾ تسفع ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾: **عابسون، عن ابن عباس.** وقال غيره: الكلوح أن تتقلص الشفتان عن الإنسان حتى تبدو الأسنان.

قال ابن مسعود: ألم تر إلى الرأس المشيط بالنار قد بدت أسنانه وقلصت شفتاه.

قال الأعشى:

وله المقـــــدم لا مثل له ساعة الشدق عن الناب كلح

أخبرنى الحسين بن محمد بن الحسين قال حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان بن عبد الله قال حدثنا محمد بن إسحاق المسوحى قال حدثنا يحيى الحمانى قال: حدثنا ابن مبارك عن سعيد ابن يزيد أبى شجاع عن أبى السمح عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله

عز وجل: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ قال: «تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخى شفته السفلى حتى تبلغ سرته».

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾: التى كتبت علينا، وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: شقاوتنا بالألف وفتح الشين. غيرهم: شَقْوتنا، بغير ألف وكسر الشين وهما لغتان. والمضرة اللاحقة فى العاقبة، والسعادة هى المنفعة اللاحقة فى العاقبة.

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾: عن الهدى. ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾: أى من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾: لما تكره ﴿فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ﴾: فيجابون بعد ألف سنة[1] ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾: أى ابعدوا كما يقال للكلب اخسأ إذا طُرد وأبعد ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾: فى رفع العذاب فإنى لا أرفعه عنكم ولا أخففه عليكم. وقيل: هو دلالة على الغضب اللازم لهم فعند ذلك آيس المساكين من الفرج.

قال الحسن: هو آخر كلام يتكلم به أهل النار، ثم لا يتكلمون بعدها إلا الشهيق والزفير، ويصير لهم عُواء كعواء الكلب لا يُفْهَمون ولا يَفْهمون[2].

﴿إِنَّهُۥ﴾: هذه الهاء عماد، وتسمى أيضًا المجهولة.

﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾: وهم المؤمنون ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾: قرأ أهل المدينة والكوفة إلا عاصمًا بضم الشين هاهنا، وفى سورة (ص). وقرأ الباقون بكسرها.

قال الخليل، وسيبويه: هما لغتان مثل قول العرب: بحر لُجىٌّ ولَجىٌّ، وكوكب دُرى ودرى، وكُرسى وكرسى. وقال الكسائى، والفراء: الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول، والضم بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل. ولم يختلفوا فى سورة الزخرف أنه بالضم لأنه بمعنى التسخر والاستعباد، إلا ما روى عن ابن محيصن أنه كسره قياسًا على سائره وهو غير قوى.

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾: أى أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم وتسخيرهم ذكرى ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾: نظيره قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ (المطففين: ٢٩).

---

(١) هذا القول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة والدين ما كان من هذين المصدرين اللذين هما عن رب العالمين تلاوة موحى بها من قبل المولى عز وجل أو قول صحيح صدر ممن لا ينطق عن الهوى ﷺ وأغلب ما يذكر من أخبار عن الساعة وعلاماتها وأهوال يوم القيامة لا يصح عن رسول الله ﷺ فالله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعلم متى يجيبهم أعند سؤالهم أم بعد مدة من الزمن طويلة أو قصيرة فهذا من علم الغيب الذى انفرد به سبحانه ولم يطلع عليه مَلَكٌ ولا نبى فعلى المسلم أن يعتبر ذلك عند مطالعته للأحاديث المنسوبة إلى رسول الله ﷺ وهو منها براء.

(٢) هذا القول ينجر عليه ما سبق أن قلته فى التعليق السابق ولا فرق.

﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ : على استهزائكم وأذاهم فى الدنيا والجزاء مقابل العمل بما يستحق عليه من ثواب أو عقاب.

﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ : قرأ حمزة، والكسائى: إنهم بكسر الألف على الاستئناف. وقرأ الباقون بفتحه على معنى لأنهم هم الفائزون. ويحتمل أن يكون نصبًا بوقوع الجزاء عليه إنى جزيتهم اليوم الفوز بالجنة.

❖ ❖ ❖

﴿قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ : نسوا لعظيم ما هم فيه من العذاب مدة مكثهم فى الدنيا، وهذا توبيخ من الله تعالى لمنكرى البعث وإلزام للحجة عليهم.

قرأ حمزة والكسائى: قل كم على الأمر لأن فى مصاحف أهل الكوفة: قل، بغير ألف. ومعنى الآية: قولوا كم لبثتم، فأخرج الكلام مخرج الآمر للواحد، والمراد به الجماعة إذ كان مفهومًا معناه. ويجوز أن يكون الخطاب لكل واحد منهم، أى قل أيها الكافر.

وقرأ الباقون: قال، فى الحرفين، وكذلك هما فى مصاحفهم بالألف على معنى قال الله تعالى. وقرأ ابن كثير: قل، على الأمر، وقال: إن على الخبر، وهى قراءة ظاهرة لأن الثانية جواب.

وقوله: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ : أى الحُسّاب، عن قتادة. وقال مجاهد: هم الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم ويحصونها عليهم.

﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ : فى الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : قدر لبثكم فيها ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾ : أى لعبًا وباطلاً لا لحكمة، والعبث العمل لا لغرض وهو نصب على الحال، عن سيبويه، وقطرب، مجازه عابثين. وقال أبو عبيدة: على المصدر. وقال بعض نحاة الكوفة: على الظرف، أى بالعبث، وقال بعض نحاة البصرة: للعبث.

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ : قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : يا أيها الناس ، اتقوا ربكم ، فما خُلق امرؤ عبثًا فيلهو ، ولا أهمل سُدًى فيلغو .

وأخبرنى محمد بن القاسم بقراءتى عليه قال حدثنا أبو بكر محمد بن محمد بن نصر قال حدثنا محمد بن موسى قال حدثنا أبو شعيب الحرانى قال حدثنا يحيى بن عبد الله بن الضحاك قال سمعت الأوزاعى يقول : بلغنى أن فى السماء ملكًا ينادى كل يوم ألا ليت الخلق لم يخلقوا ويا ليتهم إذ خلقوا عرفوا ما خلقوا له ، وجلسوا فذكروا ما عملوا[1] .

فصل فى ذكر وجوه الحكمة فى خلق الله سبحانه الخلق

قال المحققون : خلق الله سبحانه الخلق ليدل بذلك على وجوده وكمال علمه وقدرته إذ لو لم يخلق لم يكن لوجوده معنى[2] .

وأخبرنى محمد بن القاسم قال حدثنا محمد بن يزيد قال حدثنا الحسن بن سفيان قال حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة قال حدثنا ابن علية عن منصور بن عبد الرحمن قال : قلت للحسن البصرى فى قوله سبحانه : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ (هود:١١٨ ، ١١٩) ؟

قال الناس مختلفون على أديان شتى إلاّ من رحم ربك ، ومن رحم ربك غير مختلف . فقيل له : ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٩)؟ قال : نعم خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره ، وخلق هؤلاء لرحمته ، وخلق هؤلاء لعذابه .

---

(١) الأوزاعى عالم جليل ، شيخ كبير ، أما القول الذى بلغه فلم نعرف عمن بلغه ، ثم ما فائدة نداء هذا المنادى إذ لم يسمع الخلق نداءه ثم إن الله عزّ وجلّ كفى الخلق نداء هذا المنادى بإرساله الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتب إلى أن جاء آخرها وهو القرآن الكريم فهو يتلى عليه آناء الليل وأطراف النهار فمن أراد الهدى هداه الله ومن أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكًا وسيحشره ربه إليه أعمى ، رزقنا الله وإياكم حسن الختام بالموت على دين الإسلام آمين .

(٢) خبرنى بربك فضلا عن اعتراض على العنوان أإذا كان هذا هو قول المتحققين فما بالكم بقول غيرهم ، ألا يذكر هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى : ﴿يخلق ما يشاء ويختار﴾ ، وأنه سبحانه ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ : حكمة الخلق وحكمة الأحكام هذا كله من علم الله عزّ وجلّ الذى حجبه عن خلقه لحكمة هو يعلمها فمن أراد أن يعبد الله على هذا فهو المؤمن ومن أراد أن يعرف سبب كل شىء : ﴿فإن الله غنى عن العالمين﴾ والعبادة تقتضى الخضوع والإذعان وعدم البحث عن الأسباب أو المسببات أو الحكمة أو العلة فيما وراء هذه الأشياء حيث إن هذا ليس من مقام التعبد والخضوع بل من مقام الندبة والمحاسبة إذ لو كان على غير ما يريد فلا يعبد أو لا يفعل هدانا الله وإياكم سواء السبيل ، وقد صرح الله سبحانه فى القرآن القول فقال : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ فما بعد هذا القول قول .

وأخبرنا محمد بن القاسم الفقيه قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن موسى الفقيه قال حدثنا أبي قال حدثنا محمد بن خالد البرقي عن أبيه عن أحمد بن نصر قال سُئل جعفر بن محمد: لِمَ خلق الله الخلق؟

قال: لأن الله سبحانه كان محسنًا بما لم يزل، فيما لم يزل إلى ما لم يزل، فأراد سبحانه وتعالى أن يفوّض إحسانه إلى خلقه، وكان غنيًا عنهم ولم يخلقهم لجر منفعة ولا لدفع مضرة ولكن خلقهم وأحسن إليهم وأرسل إليهم الرسل حتى يفصلوا بين الحق والباطل فمن أحسن كافأه بالجنة، ومن عصى كافأه بالنار.

وقال محمد بن عيسى الترمذي إن الله سبحانه خلق الخلق عبيدًا ليعبدوه فيثيبهم على العبودية ويعاقبهم على تركها فإن عبدوه فهم اليوم عبيد أحرار كرام، وغدًا أحرار وملوك في دار السلام، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أبّاق سفلة لئام وغدًا أعداء في السجون بين أطباق النيران.

ومنهم من قال: خلق الله سبحانه الخلق كلهم لأجل محمد ﷺ يدل عليه ما حدثنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الرومي قال حدثنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد قال حدثنا هارون بن العباس الهاشمي قال حدثنا محمد بن سيرين بن شريك قال حدثنا جندل قال حدثنا عمرو بن أوس الأنصاري عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال: أوحى الله سبحانه إلى عيسى عليه السلام: يا عيسى آمن بمحمد، ومُرّ أُمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فسكن[١].

وسمعت محمد بن القاسم الفارسي قال محمد بن الحسن بن بهرام الفارسي يقول: سمعت القناد يقول: خلق الله سبحانه الملائكة للقدرة، وخلق الأشياء للعبرة، وخلقك للمحبة له. ومن العلماء من لم يصرح القول بذلك، ولكنه قال نبه الله سبحانه في غير موضع من كُتبه المنزلة أنه خلقهم لخطر عظيم مغيب عنهم لا يجليه حتى يحل بهم ما خلقهم له، وهذا معنى قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ الآية[٢].

---

(١) هذا إسناد موقوف على ابن عباس وفي مثل هذا لا يصح الأخذ بالموقوف حتى إن هذا الخبر فيه إخبار بالغيب وليس عن رسول الله ﷺ حيث يوحي الله سبحانه وتعالى إليه بما يريد أن يعلمه للعباد من أمور الغيب التي ستكون من بعث ونشور وما شابه ذلك، ثم إن في الإسناد جندل بن والق بن هجرس الثعلبي الكوفي، وقد قال عنه مسلم في الكنى متروك. ومتن الحديث نكارته لا تحتاج إلى التدليل عليها.

(٢) هذا القول هو القول الذي أذهب إليه والذي سبق وأن قلت نحوه: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك قال حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى قال حدثنا داود بن رشيد. (ح)[1] وأخبرنى محمد بن القاسم قال أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن قريش قال: حدثنا الحسن بن سفيان قال حدثنا هشام بن عمار قال: حدثنا الوليد بن مسلم قال: حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن حبش بن عبد الله الصنعانى عن عبد الله بن مسعود أنه مَرّ بمصاب مبتلى فقرأ فى أذنه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾ حتى ختم السورة فبرأ، فقال له رسول الله ﷺ: «ماذا قرأت فى أذنه؟» فأخبره، فقال: «والذى نفسى بيده لو أن رجلاً موقنًا قرأها على جبل لزال»[2].

ثم نزه نفسه سبحانه عما وصفه به المشركون من اتخاذ الأنداد، والأولاد. (وما)[3] نسبه إليه الملحدون من السفه، والعبث فقال عز من قائل: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ يعنى الحسن العظيم. ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ قال أهل المعانى: فيه إضمار، مجازه فلا برهان له به. ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾ جزاؤه. ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.



(١) زيادة حديثية يتطلبها سياق الإسناد.

(٢) إسناده ضعيف ابن لهيعة منهم من ضعفه، ومنهم من تركه، ومنهم من جعله صدوقًا، ومنهم من وضعه فى مصاف الاضطراب، ووصف مع ذلك بالتدليس وقد عنعن فى هذا الحديث فالإسناد بلا خلاف ضعيف.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

سورة النور

مدنية وهى خمسة آلاف وستمائة وثمانون حرفًا
وألف وثلثمائة وست عشرة كلمة وأربع وستون آية

أخبرنا أبو الحسين الخبازى قال حدثنا ابن حبان قال أخبرنا محمد بن على الفرقدى قال حدثنا إسماعيل بن عمرو قال حدثنا يوسف بن عطية قال حدثنا هارون بن كثير قال حدثنا زيد ابن أسلم عن أبيه عن أبى أمامة عن أُبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة النور أُعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن فيما مضى وفيما بقى».

وأخبرنى الحسين بن محمد بن فنجويه قال حدثنا عبيد الله بن محمد بن شيبة قال حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم الكرابيسى قال حدثنا سليمان بن توبة أبو داود الأنصارى قال حدثنا محمد بن إبراهيم الشامى قال حدثنا شعيب بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها وعن أبيها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تنزلوا النساء الغُرف.. ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن المغزل، وسورة النور»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ

(١) هذا حديث غير صحيح فى إسناده محمد بن إبراهيم بن العلاء الشامى الدمشقى أبو عبد الله الزاهد السائح مولى عبيد، وقد وصفوا أحاديثه بالنكارة، وبأنها غير محفوظة ووصفه بعضهم بالكذب.
ومتن الحديث فى بعضه ما لا يصح حيث يدعو الإسلام ويحث على طلب العلم والتعلم ويثنى على العلماء والمعلمين الناس الخير، ويحذر من التفريط فيه، ومتنه يدعو إلى النهى عن تعليم النساء الكتابة وهذه دعوى إلى التشكيك فى خلق النساء واتهامهن باتخاذ الأخدان من خلال توسع العلم، كيف يكون ذلك وكلما زاد العلم زادت التقوى بنص القرآن الكريم؟! هدانا الله وإياكم إلى كل ما يحبه ويرضاه ويقربنا منه ويدخلنا جنته آمين.

ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ قراءة العامة بالرفع: هذه سورة، لأن العرب لا تبتدئ بالنكرة، هذا قول الخليل.

وقال الأخفش: ﴿سُورَةٌ﴾ ابتداء، وخبره فى: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾. وقرأ طلحة بن مطرف: سورةً، بالنصب على معنى: أنزلنا سورةً، والكناية صلة زائدة. وقيل: اتبعوا سورة أنزلناها. ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أى أوجبنا ما فيها من الأحكام. وقرأ الحسن ومجاهد، وابن كثير، وأبو عمرو: وفرّضناها، بالتشديد، أى فصلناها، وبيناها، وقيل: هو من الفرض والتشديد على التكثير، أى جعلناها فرائض مختلفة، وأوجبناها عليكم وعلى من بعدكم إلى قيام الساعة وتصديق التخفيف قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (القصص: ٨٥).

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ إذا كانا حُرّين بالغين بكرين غير محصنين. ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ فاضربوا. ﴿كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ رحمة ورقة.

قال الأخفش رحمة فى توجع. وفيها ثلاث لغات: رأْفة، ساكنة الهمز، وقد تخفف الهمزة وهى قرأة العامة، ورأَفة، بفتح الهمزة. ورآفة مهموزة ممدودة مثل الكآبة. وهما قراءة أهل مكة مثل الشناءة والشنآة. وقيل: القصر على الاسم. والمد بمعنى المصدر مثل: صؤل صآلة، وقبح قباحة. ولم يختلفوا فى سورة الحديد أنها ساكنة، لأن العرب لا تجمع بين أكثر من ثلاث فتحات.

واختلف العلماء فى معنى الآية فقال قوم: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ فتعطلوا الحدود ولا تقيموها.

روى المعمر عن عمران قال: قلت لأبى مخلد فى هذه الآية: والله إنّا لنرحمهم أن نجلد الرجل أو نقطع يده. فقال: إنما ذاك أنه ليس للسلطان إذا رفعوا إليه، أن يدعهم رحمة لهم حتى يقيم عليهم الحدّ، وهذا قول مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبى رباح، وسعيد بن جبير والنخعى، والشعبى، وابن زيد، وسليمان بن يسار، يدل عليه من الآية، أن الله سبحانه وتعالى أمر بالجلد، وهو ضرب الجلد كالرأس لضرب الرأس، فذكر الضرب بلفظ الجلد لئلا ينكأ ولا يبرح لا يبلغ به اللحم.

وروى ابن أبى مليكة عن عبد الله بن عبد الله أن عبد الله بن عمر جلد جارية له، فقال للجالد: اجلد ظهرها، ورجليها، وأسفلها، وخففها. قلت: فأين قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؟

قال: أفأقتلها؟! إن الله أمرنى أن أضربها وأؤدّبها ولم يأمرنى أن أقتلها.

وقال الآخرون: بل معناها ولا تأخذكم بهما رأفة فتخففوا الضرب، ولكن أوجعوهما ضربًا. وهو قول سعيد بن المسيب، والحسن.

قال الزهرى: يجتهد فى حدّ الزنا والفرية، ويخفف فى حدّ الشرب.

وقال قتادة: يخفف فى حدّ الشراب والفرية، ويجتهد فى الزنا.

وقال حماد: يُحدّ القاذف، والشارب وعليهما ثيابهما، وأما الزانى فيخلع ثيابه، وتلا هذه الآية. ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أى فى حكم الله. نظيره قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ (يوسف: ٧٦).

﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا﴾ وليحضر حدّيهما إذا أقيم عليهما. ﴿طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اختلفوا فى مبلغ عدد الطائفة: فقال النخعى ومجاهد: أقله رجل واحد فما فوقه، واحتجا بقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ (الحجرات: ٩) الآية. وقال عطاء، وعكرمة: رجلان فصاعداً. وقال الزهرى: ثلاثة فصاعداً. وقال ابن زيد: أربعة بعدد من تقبل شهادته على الزنا. وقال قتادة: نفر من المسلمين.

روى حفص بن غياث عن أشعث عن أبيه قال: أتيت أبا برزة الأسلمى فى حاجة وقد أخرج جارية له إلى باب الدار، وقد زنت وولدت الزنا، فألقى عليها ثوبًا، وأمر ابنه أن يضربها خمسين[1] ضربًا غير مبرح، ودعا جماعة، ثم قرأ: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا أبو على بن حبش المقرئ قال حدثنا محمد بن أحمد بن

(١) قلت ضرب خمسين لكونها غير حرة فعليها نصف ما على المحصنة من العذاب.

عثمان قال حدثنا إبراهيم بن نصر قال حدثنا مسدد قال حدثنا إسماعيل قال حدثنا يونس بن عبيد عن حريز بن يزيد البجلى عن أبى زرعة عن عمرو بن جرير عن أبى هريرة قال: إقامة حَدّ بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة.

وأخبرنا أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون قال حدثنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد بن عدى قال أخبرنا العباس بن الوليد بن مزيد البيروتى قال أخبرنى محمد بن شعيب قال أخبرنى معاوية بن يحيى عن سليمان الأعمش عن شقيق بن سلمة عن حذيفة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر الناس اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال، ثلاثة فى الدنيا وثلاثة فى الآخرة فأما اللواتى فى الدنيا: فيذهب البهاء، ويورّث الفقر، وينقص العمر، وأما اللواتى فى الآخرة: فيوجب السخطة، وسوء الحساب، والخلود فى النار».

وأخبرنا أبو طاهر بن خزيمة قراءة عليه فى شهر سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن مسلم قال حدثنا عطية بن بقية قال حدثنا أبى قال حدثنى عباد بن كثير عن عمران القصير عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعمال أمتى تعرض علىّ فى كل جمعة مرتين، فاشتد غضب الله على الزناة».

وقال أبو عبد الله بن فنجويه قال حدثنا أبو على بن حنش المقرئ قال حدثنا محمد بن أحمد ابن هارون بسُرَّ مَنْ رَأى قال حدثنا أبو بكر محمد بن أبى يعقوب الدينورى قال حدثنا إبراهيم ابن يزيد الحرانى بالرها قال حدثنا المغيرة ابن سقلاب قال حدثنا النضر بن عدى عن وهب بن منبه قال: مكتوب فى التوراة: الزانى لا يموت حتى يفتقر، والقواد لا يموت حتى يعمى.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية. اختلف العلماء فى معنى الآية وحكمها: فقال قوم: قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء كثير ليست لهم أموال، ولا عشائر، ولا أهلون، وبالمدينة نساء بغايا مسافحات، يكرين أنفسهن، وهنّ يومئذ أخصب أهل المدينة، فرغب فى كسبهن ناس من فقراء المسلمين، فقالوا: إنّا لو تزوجنا منهن فعشنا معهن إلى يوم يغنينا الله سبحانه عنهن؟ فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى ذلك، فنزلت هذه الآية، وحرّم فيها نكاح الزانية صيانة للمؤمنين عن ذلك، وأخبر سبحانه وتعالى أن الزانية إنما ينكحها الزانى والمشرك، لأنهن كن زانيات مشركات، والآية وإن كان ظاهرها خبر، فمجازها ينبغى أن يكون هكذا كقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ (آل عمران: ٩٧) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥). يعنى ينبغى أن تكون كذلك، وهذا قول مجاهد وعطاء بن أبى رباح، وقتادة والزهرى، والقاسم ابن أبى برزة والشعبى، وأبى حمزة الثمالى، ورواية العوفى عن

ابن عباس.

وقال عكرمة: نزلت فى نساء بغايا متعالنات[1] بمكة والمدينة، وكثر كثيرات، منهن تسع صواحب رايات لهن رايات كرايات البيطار يعرفن بها: أم مهزول جارية السائب بن أبى السائب المخزومى. وأم عليط، جارية صفوان بن أمية. وحنة القبطية، جارية العاص بن وائل. ومارية، جارية مالك بن عميلة بن السباق. وحلالة، جارية سهيل بن عمرو. وأم سويد، جارية عمرو بن عثمان المخزومى. وشريقة، جارية زمعة بن الأسود. وفرسة، جارية هشام بن ربيعة بن حبيب بن حذيفة. وقرينة، جارية هلال بن أنس بن جابر بن نمر. وكانت بيوتهن تسمى المواخير فى الجاهلية، لا يدخل عليهن، ولا يأتينهن إلاّ زان من أهل القبلة أو مشرك من أهل الأوثان، وكان الرجل ينكح الزانية فى الجاهلية يتخذها مأكلةً.

فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الجهة، واستأذن رجل من المسلمين نبى الله ﷺ فى نكاح أم مهزول وقد اشترطت له أن تنفق عليه. فأنزل الله سبحانه هذه الآية ونهى المؤمنين عن ذلك وحرمه عليهم.

وقال عمرو بن شعيب: نزلت فى مرثد الغنوى، وعناق، وكان مرثد رجلاً شديداً، وكان يقال له: دلدل، وكان يأتى مكة فيحتمل ضعفة المسلمين إلى رسول الله ﷺ، وكانت عناق صديقته فى الجاهلية، فلما أتى مكة دعته عناق إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حَرَّمَ الزنا. قالت: فانكحنى. قال: حتى أسأل رسول الله ﷺ فى ذلك، فسأله عنه، فأنزل الله سبحانه هذه الآية، وقد مضت القصة فى سورة البقرة.

وقال آخرون: أراد بالنكاح هاهنا الجماع، ومعنى الآية: الزانى لا يزنى إلاّ بزانية أو مشركة والزانية لا يزنى بها إلاّ زان أو مشرك، وهذا قول سعيد بن جبير، والضحاك، ومزاحم، ورواية الوالبى عن ابن عباس، أخبرنا الحسن بن محمد بن عبد الله قال حدثنا أحمد بن محمد ابن إسحاق السُّنى قال أخبرنى محمد بن عمران قال حدثنا سعيد بن عبد الرحمن، ومحمد بن عبد الله المقرئ قالا: حدثنا عبد الله بن الوليد العدنى عن سفيان عن حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ قال: ليس هذا بالنكاح ولكنه الجماع، لا يزنى بها إلاّ زان أو مشرك فكنى.

وأخبرنا ابن فنّجويه قال حدثنا أبو على بن حبش قال حدثنى الحسن بن على بن زكريا قال حدثنا الحسن بن على بن راشد قال: قال لنا يزيد بن هارون: هذا عندى إن جامعها وهو

(١) فى المخطوط: متعالمات، وهو تحريف، وأحسب أن الصواب ما رسمت من الإعلان.

مُسْتَحِلٌّ فهو مشرك ، وإن جامعها وهو مُحَرِّم فهو زان .

وقال بعضهم : كان هذا حكم الله فى كل زان وزانية حتى نسختها الآية التى بعدها : ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[1] (النور : ٣٢) ، فأحل نكاحً كل مسلمة وإنكاح كل مسلم ، وهو قول سعيد بن المسيب . أخبرنيه ابن فنجويه قال حدثنا ابن شيبة قال حدثنا الفريابى قال حدثنا قتيبة قال حدثنا الليث عن يحيى بن سعيد بن المسيب أنه قال : يزعمون أن تلك الآية : ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ نسخت بالآية التى بعدها : ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ (النور : ٣٢) فدخلت الزانية فى أيامى المسلمين .

وقال الحسن : معناها المجلود لا ينكح إلا مجلودة .

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾ أى يشتمون المسلمات الحرائر العفائف ، فيقذفونهن بالزنا . ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟﴾ على ما رموهن به . ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ عدول يشهدون عليهن أنهم رأوهن يفعلن ذلك . ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ﴾ يعنى القاذفين ، اضربوا كل واحد منهم . ﴿ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ .

ثم استثنى فقال عز من قائل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ واختلف العلماء فى حكم هذا الاستثناء : فقال قوم : هو استثناء من قوله : ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ﴾ وقالوا : إذا تاب قبلت شهادته ، وزال عنه اسم الفسق ، وعادت ولايته حُدَّ فيه أو لم يُحَدّ ، وهذا قول الشعبى ، ومسروق وسليمان بن يسار وسعيد بن جبير ، وعطاء ، وطاووس ، ومجاهد ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن عتبة ، والضحاك ، وهو قول أهل الحجاز ، وإليه ذهب الشافعى . واختلفوا فى كيفية توبته : فقال بعضهم : هو أن يرجع عن قوله ويكذب نفسه . وقال آخرون : هو الندم على ما سلف ، والاستغفار منه ، وترك العود فيما بقى . فإذا أُقيم عليه الحَدّ أو عفى المقذوف عنه وسقط الحدّ ، وذلك أن القذف حق للمقذوف كالقصاص والجنايات ، وبالعفو تسقط ، فإذا عفا عنه فلم يطالبه بالحدّ أو مات المقذوف قبل مطالبته بالحدّ أو لم يرفع إلى السلطان فلم يُحَدّ لأجل هذه ، أو حُدَّ ثم تاب وأصلح العمل قبلت شهادته وعادت ولايته . يدل عليه ما روى ابن إسحاق عن الزهرى عن سعيد بن المسيب : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرب الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة ، وهم : أبو بكرة ، وشبل بن معبد ، ونافع بن الحارث بن كلدة ، فحدّهم ، ثم قال لهم : من أكذب نفسه أجزت شهادته فيما استقبل ، ومن لم يفعل لم أجز شهادته . فأكذب شبل نفسه ، ونافع وتابا .

(١) وعلى قول من قال بعدم جواز النسخ فى القرآن فيقال بينتها أو فسرتها هذه الآية . والله أعلم .

وأبى أبو بكرة أن يفعل، فكان لا يقبل شهادته.

وروى ابن جريج عن عمران بن موسى قال: شهدت عمر بن عبد العزيز أجاز شهادة القاذف ومعه رجل.

وقال آخرون: هذا الاستثناء راجع إلى قوله: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. فأما قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ فقد وصل بالأبد، ولا يجوز قبولها أبدًا، وهذا قول النخعي وشريح. ورواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه.

روى الأشعث عن الشعبي قال: جاء خصمان إلى شريح فجاء أحدهما بشاهد قد قطع زناد يده ورجله في قطع الطريق، ثم تاب وأصلح، فأجاز شريح شهادته، فقال المشهود عليه: أتجيز شهادته عليّ وهو أقطع؟! فقال شريح: كل صاحب حدّ إذا أُقيم عليه ثم تاب وأصلح فشهادته جائزة إلاّ القاذف فإنه قضاء من الله أن لا تقبل شهادته أبدًا، وإنما توبته فيما بينه وبين الله.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي يقذفونهن بالزنا.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ يشهدون على صحة ما قالوا.

﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قرأ أهل الكوفة أربع بالرفع على الابتداء، والخبر. وقرأ الباقون بالنصب، على معنى أن يشهد أربع شهادات.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ يعني الشهادة الخامسة. قراءة العامة بالرفع على الابتداء، وخبره في (أن).

وقرأ حفص بالنصب على معنى: ويشهد الشهادة الخامسة.

وقرأ نافع، ويعقوب، وأيوب (إن) و(أن) خفيفتين (لعنة) و(غضب) مرفوعتين وهي رواية المفضل عن عاصم. وقرأ الباقون بتشديد النونين وما بعدهما نصب.

﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ ويدفع عن الزوجة الحدّ.

﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ﴾ يعني الزوج. ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قرأ نافع (غَضِبَ الله) مثل (سَمِعَ الله) على الفعل. وقرأ الباقون على الاسم. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾. جواب لولا محذوف، يعني لعجل لكم بالعقوبة، وفضحكم، ولكنه ستر عليكم ورفع عنكم الحدّ باللعان حكمة منه ورحمة.

فأما سبب نزول الآية: فروى عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ الآية، قال سعد بن عبادة: والله لو أتيت

لكاع وقد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء؟ فوالله ما كنت لآتى بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب. فإن قلت: ما رأيت أن فى ظهرى لثمانين جلدة. فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار، ألا تسمعون»؟! قالوا: لا تلمه، فإنه رجل غيور ما تزوج امرأة قط إلاّ بكرًا، ولا طلق امرأة له فاجترأ رجل منا أن يتزوجها.

فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، والله إنى لأعرف أنها من الله، وأنها حق ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك. فقال رسول الله ﷺ: «فإن الله يأبى إلاّ ذاك». فقال: صدق الله ورسوله.

قال: فلم يلبثوا إلاّ يسيراً حتى جاء ابن عَمّ له يقال له: هلال بن أمية من حديقة له فرأى رجلاً مع امرأته يزنى بها، فأمسك حتى أصبح، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه، فقال: يا رسول الله، إنى جئت أهلى عشاءً فوجدت رجلاً مع أهلى رأيت بعينى، وسمعت بأذنى، فكره رسول الله ﷺ ما أتاه به وثقل عليه جداً حتى عرف ذلك فى وجهه.

فقال هلال: والله يا رسول الله إنى لأرى الكراهية فى وجهك مما أتيتك به، والله يعلم أنى لصادق وما قلت إلاّ حقًا، وإنى لأرجو أن يجعل الله فرجًا. فهم رسول الله ﷺ بضربه.

قال: واجتمعت الأنصار، فقالوا: ابتلينا بما قال سعد، أيجلد هلال، وتبطل شهادته؟! فإنهم لكذلك، ورسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحى، فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا أن الوحى قد نزل، حتى فرغ، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ إلى آخر الآيات.

فقال رسول الله ﷺ: «أبشر يا هلال، فإن الله قد جعل لك فرجًا». فقال: قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى.

فقال رسول الله ﷺ: «أرسلوا إليها» فجاءت فلما اجتمعا عند رسول الله ﷺ قيل فكذّبت.

فقال رسول الله ﷺ: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب».

فقال هلال: يا رسول الله، بأبى وأمى لقد صدقت، وما قلت إلاّ حقًا.

فقال رسول الله ﷺ: «لاعنوا بينهما». فقيل لهلال: اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين؛ فقيل له عند الخامسة: يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقال هلال: والله لا يعذبنى الله عليها كما لم يجلدنى عليها رسول الله. فشهد الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

ثم قيل للمرأة: اشهدى، فشهدت الخامسة: (أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين). ففرّق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى أن الولد لها، ولا يدعى لأب، ولا يرمى ولدها، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن جاءت به كذا وكذا فهو للذى قيل فيه».

قال: فجاءت به غلامًا كأنه جمل أورق على الشبه المكروه، وكان بعد أميرًا بمصر لا يدرى من أبوه.

وأخبرنا محمد بن عبدوس قال: أخبرنا محمد بن محمد بن الحسين قال أخبرنا على بن عبد العزيز قال أخبرنا القاسم بن سلام قال حدثنا هيثم عن يونس بن عبيد عن الحسن قال: لما نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ الآية، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله أرأيتَ إن رأى رجل مع امرأته رجلاً فقتله تقتلونه، وإن أخبر بما رأى جُلد ثمانين أفلا نضربه بالسيف؟ فقال رسول الله ﷺ: «كفى بالسيف شا». قال أراد أن يقول: شاهدًا، ثم أمسك فقال: «لولا أن يتتابع فيه الغيران والسكران» وذكر الحديث.

وقال ابن عباس فى سائر الروايات، ومقاتل: لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ الآية قرأها النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر، فقام عاصم بن عدى الأنصارى فقال: جعلنى الله فداك، إن رأى رجل منا مع امرأته رجلاً فأخبر بما رأى جلد ثمانين وسماه المسلمون فاسقًا، ولا تقبل شهادته أبدًا، فكيف لنا بالشهداء، ونحن إذا التمسنا الشهداء كان الرجل قد فرغ من حاجته ومَرّ. وكان لعاصم هذا ابن عم له، يقال له: عويمر، وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس ابن محصن، فأتى عويمر عاصمًا، فقال: لقد رأيت شريك ابن السحماء على بطن امرأتى خولة. فاسترجع عاصم، وأتى رسول الله ﷺ فى الجمعة الأخرى فقال: يا رسول الله، ما أسرع ما ابتليت بالسؤال الذى سألته فى الجمعة الماضية فى أهل بيتى؟! فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك»؟ قال: أخبرنى عويمر ابن عمى أنه رأى شريك ابن السحماء على بطن امرأته خولة، وكان عويمر وخولة، وشريك كلهم بنى عم عاصم، فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعًا فقال لعويمر: «اتق الله فى زوجتك وحليلتك وابنة عمك، فلا تقذفها بالبهتان». فقال: يا رسول الله، أقسم بالله إنى رأيت شريكًا على بطنها، وإنى ما قربتها منذ أربعة أشهر، وإنها حبلى من غيرى.

فقال رسول الله ﷺ للمرأة: «اتق الله ولا تخبرى إلاّ بما صنعت». قالت: يا رسول الله، إن عويمرًا رجل غيور، وإنه رآنى وشريكًا نطيل السمر، ونتحدث، فحملته الغيرة على ما قال.

فقال رسول الله ﷺ لشريك: «ما تقول»؟. قال: ما تقوله المرأة. فأنزل الله سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآية . فأمر رسول الله ﷺ حتى نودى الصلاة جامعة ، فصلى العصر ، ثم قال لعويمر : «قم» . فقام . فقال : أشهد بالله إن خولة لزانية ، وإنى لمن الصادقين ، ثم قال فى الرابعة : أشهد بالله أنى ما قربتها منذ أربعة أشهر وإنى لمن الصادقين ، ثم قال فى الخامسة : لعنة الله على عويمر إن كان من الكاذبين فيما قال .

ثم أمره بالقعود ، وقال لخولة : «قُومى» . فقامت ، فقالت : أشهد بالله ما أنا بزانية وأن عويمرًا لمن الكاذبين ، ثم قالت فى الثانية : أشهد بالله إنه ما رأى شريكًا على بطنى ، وإنه لمن الكاذبين ، ثم قالت فى الثالثة : أشهد بالله أنى حبلى منه وإنه لمن الكاذبين ، ثم قالت فى الرابعة : أشهد بالله إنه ما رآنى قط على فاحشة وإنه لمن الكاذبين ، ثم قالت فى الخامسة غضب الله على خولة تعنى نفسها إن كان من الصادقين ، ففرق رسول الله ﷺ بينهما ، وقال : «لولا هذه الأيمان لكان لى فى أمرهما رأى» .

ثم قال : «تحينوا بها الولادة فإن جاءت بأصيهب أثيبج يضرب إلى السواد فهو لشريك بن السحماء ، وإن جاءت بأورق جعد حمش خدلج الساقين فهو لغير الذى رميت به» .

قال ابن عباس : فجاء بأشبه خلق الله بشريك .

❖ ذكر حكم الآية:

إذا قذف الرجل زوجته بالزنا لزمه الحدّ وله التخلص منه بإقامة البينة على زناها أو باللعان فإن أقام البينة حقق الزنا ولزمها الحدّ ، وإن التعن حقق الزنا ، ولها التخلص منه باللعان فإن التعنت وإلاّ لزمها الحدّ ، وللزوج أن يلتعن سواء كان متمكنًا فى البينة أو غير متمكن منها ، ويصح اللعان من كل زوج مكلف حُرًا كان أو عبدًا مسلمًا كان أو كافرًا ، فكل من صحت يمينه صح قذفه ولعانه .

وقال أهل العراق : اللعان بين كل حُرَّين بالغين ، ولا يصح اللعان إلاّ عند الحاكم أو خليفته ، فإذا لاعن بينهما غلظ عليهما بأربعة أشياء : عدّد الألفاظ ، والمكان ، والوقت ، وجمع الناس .

فأما اللفظ : فأربع شهادات ، والخامسة ذكر اللعنة للرجل ، وذكر الغضب للمرأة ، وقد مضت كيفية ذلك . وأما المكان : فإنه يقصد أشرف البقاع بالبلدان إن كان بمكة ، فعند الركن والمقام وإن كان بالمدينة فعند المنبر ، وإن كان ببيت المقدس ففى مسجدها ، وإن كان فى سائر البلدان ففى مساجدها ، وإن كانا كافرين بعث بهما إلى الموضع الذى يعتقدان تعظيمه إن كانا

يهوديين فالكنيسة، وإن كانا نصرانيين فالبيعة، وإن كانا مجوسيين ففى بيت النار، وإن كانا لا دين لهما مثل الوثنيين فإنه يلاعن بينهما فى مجلس حكمه.

وأما الوقت: فإنه بعد صلاة العصر، وأما العدد: فإنه يحتاج أن يكون هناك أربعة أنفس فصاعدا فاللفظ وجمع الناس مشروطان. والمكان، والزمان مستحبان. فإذا تلاعنا تعلق باللعان أربعة أحكام: سقوط الحدّ، ونفى الولد، وزوال الفراش، ووقوع التحريم المؤبد. وكل هذا يتعلق بلعان الزوج، فأما لعان المرأة فإنه يسقط به الحد فقط. فإن أكذب الرجل نفسه فإنه يعود ما عليه، ولا يعود ما له فى الحد والنسب عليه فيعودان وأما التحريم والفراش فإنهما له فلا يعودان. وفرقة اللعان: هى فسخ، لأنه جاء بفعل من قبل المرأة.

وقال أبو حنيفة وسفيان: اللعان تطليقة بائنة لأنه من قبل الرجل بدءًا، والله أعلم.



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآية.

ذكر سبب نزول هذه الآيات، وقصة الإفك:

أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن بن محمد بن إسحاق المهرجان بقراءتى عليه فأقر به

قال: أخبرنا أبو عوانة سنة ست عشرة وثلاثمائة قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا عبد الرزاق، وأخبرنا أبو نعيم قال أخبرنا أبو عوانة قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصنعانى قال قرأنا على عبد الرزاق، قال أخبرنا معمر عن الزهرى قال أخبرنا سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة زوج النبى ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله. وكلهم حدثنى بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى له من بعض، وقد وعيت عن كل واحد الحديث الذى حدثنى وبعض حديثهم يصدق بعضًا، ذكروا: أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت عائشة: فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أنزل الله سبحانه الحجاب، فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه إذا مشينا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل، فقمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرّحل، فلمست صدرى، فإذا عقدى من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدى، وحبسنى ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون فحملوا هودجى، فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركبه وهم يحسبون أنى فيه.

قالت: وكانت النساء إذا ذاك خفافًا لم يهبلهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدى بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فتيممت منزلى الذى كنت فيه وعلمت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلىّ، فبينا أنا جالسة فى منزلى فغلبتنى عيناى فنمت، وكان صفوان ابن المعطل السلمى، ثم الزكوانى، قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلى، فرأى سواد إنسان نائم، فأتانى فعرفنى حين رآنى، وقد كان رآنى قبل أن يضرب علىّ الحجاب، فما استيقظت إلاّ باسترجاعه حين عرفنى، فخمرت وجهى بجلبابى، فوالله ما كلمنى كلمة عند استرجاعه حتى أناخ راحلته، فوطئت على يدها فركبتها، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة. فهلك من هلك فى شأنى، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أُبى بن سلول، فقدمت المدينة، فاشتكيت فى شدة الحر حين قدمتها شهرًا، والناس يخوضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك، والذى يريبنى فى وجعى أن لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى

كنت أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم»؟ فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معى أم مسطح، قبل المناصع وهو متبرزنا، فلا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأُول بالتنزه، وكنا نتأذى بالكنف أى نتخذها عند بيوتنا؛ فانطلقت أنا وأم مسطح وهى عاتكة بنت أبى رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد ابن المطلب. فأقبلت أنا وابنة أبى رهم قبل بيتى حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح فى مرطها، فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئس ما قلت، تسبين رجلاً شهد بدراً؟! قالت: أى هنتاه، وأما تسمعى ما قال؟

قالت: قلت: وما ذى؟ قالت: فأخبرتنى بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا إلى مرضى، فلما رجعت إلى بيتى، دخل علىّ رسول الله ﷺ، فسلم ثم قال: «كيف تيكم»؟ قلت: أتأذن لى أن آتى أبوى، قالت: وأنا أريد حينئذ أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لى رسول الله ﷺ. فجئت أبوى فقلت لأمى: يا أمه، ماذا يتحدث الناس؟

قالت: أى بنية، هونى عليك، فوالله لقلّ ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قلت: سبحان الله، أوقد تحدث الناس بهذا؟!. قالت: نعم. قالت: فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكى، ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى، واستشارهما فى فراق أهله.

فأما أسامة، فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلاّ خيرًا. وأما على فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك.

فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «أى بريرة هل رأيتى شيئًا يريبك من أمر عائشة»؟ فقالت له بريرة: والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرًا قط أغمضه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فيأتى الداجن[1] فيأكله.

قالت: فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبى بن سلول، فقال وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً وما كان يدخل على أهلى إلاّ معى».

---

(١) فى هامش المخطوط تعريف بالداجن: داجن البيوت ما ألفها من الطير والشاة ودجن فى بيته إذا لزمه.

فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .

قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحًا ولكن احتملته فقال لسعد ابن معاذ : كذبت لعمرو الله . فقال سعد : والله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين .

قالت : فثار الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، وسكت .

قالت : ومكثت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى .

قالت : فبينا هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى ، فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ، فسلم ثم جلس . قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل لى ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى . قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : «أما بعد ، يا عائشة فإنه بلغنى عنك ـ كذا وكذا ـ فإن كنت بريئة فسيبرئك الله سبحانه ، وإن كنت ألممت بذنب ، فاستغفرى الله وتوبى إليه فإن العبد إذا اعترف بالذنب ثم تاب تاب الله عليه» .

قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ ، قال والله ما أدرى ما أقول لرسول الله؟ فقلت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً إنى والله عرفت أنكم قد سمعتم بهذا الأمر حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إنى بريئه والله سبحانه وتعالى يعلم أنى بريئة لا تصدقوننى ، والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف وما أحفظ اسمه : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ١٨) .

قالت : ثم تحولت واضطجعت على فراشى وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة وأن الله سبحانه مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها .

قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله سبحانه على نبيه ﷺ ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل الوحى الذى أنزل عليه .

قالت: فلما سُرِّى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشرى يا عائشة أما والله فقد برأك». فقالت لى أمى: قومى إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلاّ الله سبحانه هو الذى أنزل براءتى.

قالت: فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ عشر آيات. وأنزل الله سبحانه هذه الآية لبراءتى.

قالت: قال أبو بكر ـ وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذى قال لعائشة، فأنزل الله سبحانه، ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور: ٢٢).

فقال أبو بكر رضى الله عنه: والله إنى لأُحب أن يغفر الله لى فرجّع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة رضى الله عنها: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ: «ما علمت، أو ما رأيت»؟ فقالت: يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى، والله ما علمت إلاّ خيرًا.

قالت عائشة: وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله سبحانه وتعالى بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك.

قال الزهرى: فهذا ما انتهى إلينا من هؤلاء الرهط.

وأخبرنا أبو نعيم قال أخبرنا أبو عوانة قال حدثنا محمد بن إسماعيل الصائغ بمكة، ومحمد ابن حرب المدينى بالفسطاط قالا: حدثنا إسماعيل ابن أبى أويس قال حدثنى أبى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها. قال أبو أويس: وحدثنى أيضًا عبد الله بن أبى بكر عن عمرة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فخرج سهم عائشة فى غزوة النبى ﷺ بنى المصطلق من خزاعة، وذكر الحديث بطوله بمثل معناه.

وقال عروة فى سؤال رسول الله ﷺ بريرة عن عائشة قال: فانتهرها بعض أصحابه، وقال: اصدُقى رسول الله ﷺ قال عروة فعيب ذلك على من قاله، فقالت: لا والله ما أعلم عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر، ولئن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنك الله، فعجب الناس من فقهها.

قال: وبلغ ذلك الذى قيل له، فقال: سبحان الله، والله ما كشفت كتف أنثى قط، فقتل

شهيدًا فى سبيل الله وزاد فى آخره: قالت: وقعد صفوان بن المعطل لحسان بن ثابت، فضربه ضربة بالسيف، وقال حين ضربه:

تلق ذباب السيف عنى فإننى غلام إذا هُجيت لست بشاعر
ولكننى أحمى حماى وأنتقم من الباهت الرامى البراء الطواهر

وصاح حسان بن ثابت، واستغاث بالناس على صفوان، ففر صفوان، وجاء حسان النبى ﷺ، فاستعدى على صفوان فى ضربته إياه، فسأله النبى ﷺ أن يهب له ضرب صفوان إياه، فوهبها للنبى ﷺ، فعوضه منها حائطًا من نخل عظيم وجارية رومية، ثم باع حسان ذلك الحائط من معاوية بن أبى سفيان فى ولايته بمال عظيم. قالت عائشة: فقيل فى أصحاب الإفك أشعار:

فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لمسطح فى رميه عائشة رضى الله عنها، وكان يدعى عوفًا:

يا عوف ويحكم هلا قلت عارفه من الكلام ولم تبغ به طمعا
وأدركتك حميا معشرًا أنفا ولم تكن قاطعًا فى عوف مقتطعا
لما رميت حصانا غير مقرفة أمينة الجيب لم نعرف له خضعا
فيمن رماها وكنتم معشر إفكا فى سىء القول من لفظ الخنا شرعا
فأنزل الله عذرًا فى براءتها وبين عوف وبين الله ما صنعا
فإن أعش أجز عوفًا فى مقالته شر الجزاء بما ألفيته تبعا

وقال حسان بن ثابت الأنصارى ثم النجارى وهو يبرئ عائشة مما قيل فيها ويعتذر إليها:

حصان رزان ما تُزَنَّ بريبة وتُصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينًا ومنصبًا نبى الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حَىٍّ من لُؤى بن غالب كرام المساعى مجدها غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها وطهرها من كل شين وباطل
فإن كان ما بُلِّغْت أَنى قلته فلا رفعت سوطى إلى أناملى
وإن الذى قد قيل لَيس بلائط بك الدهر بل قول امرئ غير ماحل
فكيف وودى ما حييت ونصرتى لآل رسول الله زين المحافل
له رتب عال على الناس فضلها تقاصر عنها سورة المتطاول

قال: وأمر النبى ﷺ بالذين رموا عائشة رضى الله عنها فجلدوا الحدود جميعًا ثمانين

ثمانين. فقال حسان بن ثابت:

لقد ذاق عبد الله[1] الذى كان أهله ... وحمنـة إذ قالوا هجيراً ومسطح

تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم ... وسخطة ذى العرش[2] الكريم فأبرحوا

وآذوا رسول الله فيها فجُللوا ... مخازى تبقى عُمِّمُوها وفضحوا

فصب عليهم مُحصدات كأنها ... شآبيب قطر من ذرى المزن تسفحُ

فهذا سبب نزول الآية وقصتها فأما التفسير: فقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ﴾ بالكذب. ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة.

﴿مِّنكُمْ﴾ قال الفراء: العصبة الجماعة من الواحد إلى الأربعين.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ يا عائشة، وصفوان. ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن الله يأجركم على ذلك ويظهر براءتكم. ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم﴾ يعنى من الذين جاءوا بالإفك. ﴿مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ حرامًا اجترح من الذنب والمعصية.

﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ والذى يحمل معظمه فبدأ الخوض فيه، وقراءة العامة ﴿كِبْرَهُ﴾ بكسر الكاف وقرأ حميد، والأعرج، ويعقوب الحضرمى بضم الكاف.

قال أبو عمرو بن العلاء: هو خطأ لأن الكُبر بضم الكاف فى الولاء والسن، ومنه الحديث: «الولاء للكُبر». وهو أكبر ولد الرجل من الذكورة وأقربهم إليه نسبًا.

وقال الكسائى: هما لغتان مثل صِفر وصُفر. واختلف المفسرون فى المعنى بقوله: ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فقال قوم: هو حسان بن ثابت.

روى داود بن أبى هند عن عامر الشعبى: أن عائشة رضى الله عنها قالت: ما سمعت بشىء أحسن من شعر حسان وما تمثلت به إلاّ رجوت له الجنة قوله لأبى سفيان.

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء

فإن أبى ووالدتى وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء

أتشتمه ولست له بكفؤ ... فشركما بخيركما الفداء

لسانى صارم لا عيب فيه ... ويجرى لا تكدره الدلاء

فقيل يا أم المؤمنين أليس الله يقول: ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟.

---

(١) فى تفسير القرطبى: حسان.

(٢) فى المخطوط: الرب، والتصويب من تفسير القرطبى.

قالت: أليس قد أصابه عذاب عظيم؟ أليس قد ذهب بصره، وكتع بالسيف.

وروى أبو الضحى عن مسروق قال: كنت عند عائشة، فدخل حسان بن ثابت، فأمرت فألقى له وسادة، فلما خرج قلت لعائشة: تدعين هذا الرجل يدخل عليك، وقد قال ما قال؟! وأنزل الله سبحانه فيه: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟

فقالت: وأى عذاب أشد من العمى، ولعل الله يجعل ذلك العذاب العظيم ذهاب بصره. وقالت: إنه كان يدفع عن رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: بل هو عبد الله بن أُبى بن سلول وأصحابه.

روى ابن أبى مليكة عن عروة عن عائشة قالت فى حديث الإفك: ثم ركبت وأخذ صفوان بالزمام فمررنا بملأ من المنافقين، وكانت عادتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس. فقال عبد الله بن أُبىّ بن سلول رئيسهم: من هذه؟ قالوا: عائشة. قال: والله ما نجت منه، ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها. وشرع فى ذلك أيضًا حسان، ومسطح وحمنة، فهم الذين تولوا كبره، ثم فشا ذلك فى الناس.

﴿لَّوْلَآ﴾ هلا. ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ بإخوانهم ﴿خَيْرًا﴾.

قال الحسن: بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة. نظيره قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (النساء: ٢٩) وقوله: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ (النور: ٦١).

قال بعض أهل المعانى: تقدير الآية: هلا ظننتم كما ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا.

وقيل: أراد بأنفسهم أهاليهم وأزواجهم. وقالوا: أراد بهذه الآية أبا أيوب الأنصارى وامرأته أم أيوب.

روى محمد بن إسحاق بن يسار عن رجاله: أن أبا أيوب خالد بن يزيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟!

قال: بلى، وذلك الكذب أكنت غافلة عن ذلك يا أم أيوب؟!

قالت: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك، سبحان الله هذا بهتان عظيم. فأنزل الله سبحانه: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ الآيات، أى كما فعل أبو أيوب وصاحبته، وكما قالا.

وقوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أى كذب بيّن. ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ خضتم. ﴿فِيهِ﴾ من الإفك. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ تأخذونه ويرويه

بعضكم عن بعض وقرأ أُبىّ: تتلقونه، بتائين. وقرأت عائشة: تَلِقونه، بكسر اللام، وتخفيف القاف، من الكذب والولق والألق، والآلق والليق: الكذب. قالَ الخليل: أصل الولق السرعة وأنشد

❖ جاءوا بأسراب من الشام تلق ❖

أى تسرع. يقال: ولق فلان فى السير فهو يلق فيه، إذا استمر وأسرع فيه. فكان معنى قراءة عائشة: إذ تستمرون فى إفككم.

وقرأ محمد بن السميقع: إذ تُلْقُونه، من الإلقاء، نظيره ودليله قوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ (النحل: ٨٦) الآية.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ **وتظنونه سهلاً.** ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ﴾ **يحتمل التنزيه والتعجب.**

﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ﴾ **أى ينهاكم ويخوفكم أن تعودوا. وقيل: يعظكم الله كيلا تعودوا.** ﴿لِمِثْلِهِۦٓ﴾ **إلى مثله.** ﴿أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ **بأمر عائشة، وصفوان.** ﴿حَكِيمٌ﴾ **حكم ببراءتهما.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ﴾ **تظهر، وتفشو، وتذيع.** ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ **يعنى عبد الله بن أُبىّ بن سلول وأصحابه المنافقين.**

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ **كذبهم.** ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ **فيه إضمار، لعاجلكم بالعقوبة.**



﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ

يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ﴾ صلح وطهر من هذا الذنب. وقرأ ابن محيصن، ويعقوب: زكى، بالتشديد أى طهر. دليلهما قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي﴾ يطهر. ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من الإثم والذنب بالرحمة والمغفرة. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أخبرنى الحسين بن محمد بن فنجويه قال حدثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك قال حدثنا على بن زنجويه قال حدثنا سعيد بن سيف التميمى قال حدثنا غالب بن تميم السعدى قال حدثنا خالد بن جميل عن موسى بن عقبة المدينى عن أبى روح الكلبى عن جبير بن نفير الحضرمى عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل شد عضد امرئ من الناس فى خصومة لا علم له بها فهو فى ظل سخط الله سبحانه حتى ينزع، وأيما رجل حال فى شفاعة دون حد من حدود الله تعالى أن يقام فقد كايد الله حقًا وحرص على سخطه وأن عليه لعنة تتابع إلى يوم القيامة، وأيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها برىء يريد أن يشينه بها فى الدنيا كان حقًا على الله أن يذيبه بها فى النار». وأصله فى كتاب الله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ (النور: ١٩) الآية.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلف. هذه قراءة العامة، وهو يفتعل من الألية وهى جمع القسم. وقال الأخفش: وإن شئت جعلته من قول العرب ما آلوت جهدى فى شأن فلان أى ما تركته. وقرأ أبو رجاء العطاردى، وأبو مجلز السدوسى، وأبو جعفر وزيد بن أسلم: ولا يتأل، بتقديم التاء، وتأخير الهمزة، وهو ينفعل من الألية والألو.

﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ يعنى أبو بكر الصديق. ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعنى مسطحًا وكان مسكينًا، مهاجرًا، بدريًا، وكان ابن خالة أبى بكر رضى الله عنه.

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ عنهم خوضهم فى أمر عائشة.

وروت أسماء بنت يزيد، أن النبى ﷺ قرأ: «ولتعفوا ولتصفحوا»، بالتاء.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلما قرأها رسول الله ﷺ على أبى بكر قال:

بلى أنا أحب أن يغفر الله لي ورَجّع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

وقال ابن عباس والضحاك: أقسم ناس من الصحابة منهم أبو بكر ألا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك، ولا ينفعونهم، فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ عن الفواحش وعما قذفن به كغفلة عائشة عما فيها. ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ﴾ عذبوا. ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالجلد، وفي الآخرة بالنار. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ واختلف العلماء في حكم الآية. فقال قوم: هي لعائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة دون سائر المؤمنات.

أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين قال حدثنا هارون بن محمد بن هارون قال حدثنا محمد بن عبد العزيز قال حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني قال: حدثنا هشيم عن العوام بن حوشي قال حدثنا شيخ من بني كاهل قال: فسَّر ابن عباس سورة النور، فلما أتى على هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ إلى آخر الآية، قال: هذه في شأن عائشة زوج النبي ﷺ خاصة، وهي متهمة، ليس فيها توبة، ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله سبحانه له توبة، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ (النور: ٤) إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ (النور: ٥) جعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لأولئك توبة. قال: فهَمّ رجل أن يقوم فيقبل رأسه من حسن ما فسره.

وقال آخرون: نزلت هذه الآية في أزواج النبي ﷺ، فكان ذلك كذلك حتى نزلت الآية التي في أول السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ (النور: ٤) إلى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (النور: ٥) فأنزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تقبل، والشهادة تُرد.

وأخبرني ابن فنجويه قال: حدثنا ابن حيان قال: حدثنا إسحاق بن محمد قال: حدثنا أبي قال: حدثنا إبراهيم بن عيسى قال حدثنا علي بن علي عن ابن حمزة الثمالي قال: بلغني أنها نزلت في مشركي أهل مكة إذا كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فكانت المرأة إذا خرجت إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجرة، قذفها المشركون من أهل مكة، وقالوا: إنما خرجت تفجر.

﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ﴾ قراءة العامة بالتاء. وقرأ أهل الكوفة إلاّ عاصمًا بالياء لتقدم الفعل.

﴿أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾. وهذا قبل أن يختم على أفواههم. وقيل: معناه: تشهد ألسنة بعضهم على بعض. ﴿وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا. ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ﴾ جزاؤهم

وحسابهم. ﴿ٱلْحَقَّ﴾ قراءة العامة بنصب القاف. وقراءة مجاهد: الحقُّ، بالرفع على نعت الله سبحانه، وتصديقه قراءة أُبىّ: يوفيهم الله الحق دينهم.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ بين لهم حقيقة ما كان يعدهم فى الدنيا.

﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ قال أكثر المفسرين: الخبيثات من القول للخبيثين من الناس. ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ من الناس. ﴿لِلْخَبِيثَـٰتِ﴾ من القول. ﴿وَٱلطَّيِّبَـٰتُ﴾ من القول. ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الناس. ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ من الناس. ﴿لِلطَّيِّبَـٰتِ﴾ من القول.

وقال ابن زيد ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ﴾ من النساء ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الرجال، و﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلْخَبِيثَـٰتِ﴾ من النساء، و﴿ٱلطَّيِّبَـٰتُ﴾ من النساء ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال، و﴿ٱلطَّيِّبُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلطَّيِّبَـٰتِ﴾ من النساء. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ يعنى عائشة، وصفوان، فذكرهما بلفظ الجمع كقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ (النساء: ١١) والمراد أخوان.

﴿مُبَرَّءُونَ﴾ منزهون. ﴿مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أخبرنا أبو نصر النعمان بن محمد بن النعمان الجرجانى بها قال أخبرنا محمد بن عبد الكريم الباهلى قال حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن سفيان الترمذى قال حدثنا بشر بن الوليد الكندى قال حدثنا عمر أبو حفص عن سليمان الشيبانى عن على بن زيد بن جدعان عن جدته عن عائشة أنها قالت: لقد أعطيت تسعًا ما أعطيت امرأة: لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أُمر رسول الله ﷺ أن يتزوجنى، ولقد تزوجنى بكرًا وما تزوج بكرًا غيرى، ولقد توفى وإن رأسه لفى حجرى، ولقد قُبر فى بيتى، ولقد حفت الملائكة فى بيتى، وإن كان الوحى لينزل عليه فى أهله فيتفرقون عنه، وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه، وإنى لابنة خليفته وصديقه، ولقد نزل عذرى من السماء، ولقد خلقت طيبة وعند طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقًا كريمًا.



﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا

تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أخبرنى الحسين بن محمد بن فنجويه قال حدثنا عبد الله بن يوسف قال حدثنا الحسين بن زنجويه قال حدثنا عمرو بن ثور، وإبراهيم بن أبى سفيان قالا: حدثنا محمد بن يوسف الفريابى قال حدثنا قيس عن أشعث بن سوار عن عدى بن ثابت قال: جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد والد ولا ولد، فيأتى الأب فيدخل علىّ، وإنه لا يزال يدخل علىّ رجل من أهلى وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الآية.

فقال بعض المفسرين: ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ أى تستأذنوا.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: إنما هو حتى تستأذنوا ولكن أخطأ الكاتب. وكان أُبَىّ بن كعب، وابن عباس، والأعمش يقرءونها كذلك: حتى تستأذنوا. وقال فى الآية تقديم وتأخير، تقديرها حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا. وكذلك هو فى مصحف ابن مسعود. وهو أن يقول السلام عليكم، أأدخل؟

وروى يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد الثقفى أن رجلاً استأذن على رسول الله ﷺ فقال: أألج؟ فقال النبى ﷺ لامرأة يقال لها روضة: «قومى إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن يستأذن فقولى له يقول: السلام عليكم، أأدخل»؟ فسمعها الرجل، فقالها، فقال: ادخل.

وقال مجاهد والسدى: هو التنحنح والتنخم.

روى الأعمش عن عمرو بن مرة عن يحيى الجزار عن ابن أخى زينب امرأة ابن مسعود عن زينب قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم

منها على أمر يكرهه.

عن عكرمة: هو التسبيح والتكبير ونحو ذلك.

أخبرنى أبو عبد الله بن فنجويه قال حدثنا أبو بكر بن خرجة قال حدثنا محمد بن سليمان الحضرمى قال حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان قال حدثنا عبد الرحمن بن سليمان عن واصل بن السائب عن أبى أيوب الأنصارى قال: قلنا يا رسول الله، ما الاستئناس يريد قول الله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾؟ قال: «يتكلم الرجل بالتكبيرة والتسبيحة والتحميدة يتنحنح يؤذن أهل البيت».

وقال الخليل: الاستيناس الاستبصار من قوله: ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ (طه: ١٠).

وقال أهل المعانى: الاستيناس طلب الأنس، وهو أن ينظر هل فى البيت أحد ويؤذنه أنه داخل عليهم، تقول العرب: اذهب فاستأنس هل ترى أحداً فى الدار؟ أى انظر هل ترى فيها أحداً؟

ويروى أن أبا موسى الأشعرى أتى منزل عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فقال: السلام عليكم أأدخل؟

فقال عمر: واحدة. فقال أبو موسى: السلام عليكم أأدخل؟ فقال عمر: ثنتان. قال أبو موسى: السلام عليكم أأدخل؟ ومَرّ فوجه عمر بن الخطاب رضى الله عنه خلفه من رده فسأله عن صنيعه. فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الاستئذان ثلاثة فإن أذنوا وإلاّ فارجع».

فقال عمر: لتأتينى بالبينة أو لأعاقبنك. فانطلق أبو موسى فأتاه بمن يسمع ذلك معه.

وعن عطاء بن يسار أن رجلاً قال للنبى ﷺ. أستأذن على أمى؟ قال: «نعم». قال: إنها ليس لها خادم غيرى أفأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال. «أتحب أن تراها عريانة». قال الرجل: لا، قال: «فاستأذن عليها».

وأخبرنى الحسين بن محمد بن على قال حدثنا عبد الله بن محمد بن وهب قال حدثنا محمد ابن حميد قال حدثنا جرير بن عبد الحميد عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من اطلع فى بيت بغير إذنهم فقد حَلّ لهم أن يفقئوا عينه».

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن شبة قال حدثنا الحضرمى قال حدثنا أبو بكر قال حدثنا ابن عيينة عن الزهرى سمع سهل بن سعد يقول: اطلع رجل فى حجرة من حجر النبى ﷺ، ومعه مدرى يحك بها رأسه، فقال: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينك إنما الاستئذان من

أجل النظر».

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ﴾ أى فى البيوت. ﴿أَحَدًا﴾ يأذن لكم فى دخولها. ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ﴾ ولا تقفوا على أبوابهم ولا تلازموها. ﴿هُوَ﴾ أى الرجوع. ﴿أَزْكَىٰ﴾ أطهر وأصلح. ﴿لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

فلما نزلت هذه الآية قال أبو بكر: يا رسول الله أرأيت الخانات والمساكن فى طريق الشام ليس فيها ساكن؟ فأنزل الله سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ بغير استئذان. ﴿فِيهَا مَتَـٰعٌ﴾ منفعة. ﴿لَّكُمْ﴾. واختلفوا فى هذه البيوت ما هى؟ فقال قتادة: هى الخانات والبيوت المبنية للسابلة ليأووا إليها ويؤوا أمتعتهم إليهم.

قال مجاهد: كانوا يضعون بطريق المدينة أقتابًا وأمتعة فى بيوت ليس فيها أحد، وكانت الطرق إذ ذاك آمنة، فأحل لهم أن يدخلوها بغير إذن.

قال محمد بن الحنفية: هى بيوت مكة. قال الضحاك: الخربة التى يأوى المسافر إليها فى الصيف والشتاء وقال عطاء: هى البيوت الخربة، والمتاع: هو قضاء الحاجة فيها من الخلاء والبول. وقال ابن زيد: بيوت التجار وحوانيتهم التى بالأسواق. وقال ابن جرير جميع ما يكون من البيوت التى لا ساكن لها على العموم لأن الاستئذان إنما جاء لئلا يهجم على ما لا يحب البيوت التى لا ساكن لها على العموم، لأن الاستئذان إنما جاء لئلا يهجم على ما لا يجب من العورة، فإذا لم يخف ذلك فلا معنى للاستئذان.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۞ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ﴾ يكفوا. ﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ عن النظر إلى ما لا يجوز. واختلفوا فى قوله: ﴿مِنْ﴾. فقال بعضهم: هو صلة أى يغضوا أبصارهم. وقال الآخرون: هو ثابت فى الحكم لأن المؤمنين غير مأمورين بغض البصر أصلاً، وإنما أُمروا بالغض عما لا يجوز.

﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ عما لا يحل، هذا قول أكثر المفسرين.

وقال ابن زيد: كل ما فى القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا فى هذا الموضع فإنه أراد الاستتار، يعنى ويحفظوا فروجهم حتى لا ينظر إليها.

ودليل هذا التأويل إسقاط من ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ﴾ عليم ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

أخبرنى ابن فنجويه فى دارى قال حدثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك قال حدثنا الحسن بن على بن زكريا قال حدثنا أبو الربيع الزهرانى قال حدثنا إسماعيل بن جعفر قال حدثنا عمرو بن أبى عمرو عن المطلب بن حنطب عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ

قال: «اضمنوا لى ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا ما ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم».

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن شيبة قال حدثنا الحضرمى قال حدثنا عبد الوارث قال حدثنا أبى قال حدثنا عنبسة بن عبد الرحمن قال حدثنا أبو الحسن أنه سمع على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «النظر إلى محاسن المرأة سهم من نبال إبليس مسموم، فمن رد بصره ابتغاء ثواب الله عز وجل أبدله الله بذلك عبادة تسره».

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن شنبة قال حدثنا الحضرمى قال حدثنا سهل بن صالح الأنطاكى قال: حدثنا أبو داود قال: حدثنا أبان بن يزيد عن يحيى ابن أبى كثير عن أبى جعفر عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «بينما رجل يصلى إذ مرت به امرأة فنظر إليها وأتبعها بصره، فذهبت عيناه»[1].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ عما لا يجوز. ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عما لا يحل. وقيل: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أى يسترنها حتى لا يراها أحد.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ ولا يظهرن لغير محرم زينتهن. وهما زينتان: إحداهما ما خفى: كالخلخالين، والقرطين، والقلائد، والمعاصم، ونحوها والأخرى: ما ظهر منها، واختلف العلماء فى الزينة الظاهرة التى استثنى الله سبحانه ورخص فيها. فقال ابن مسعود: هى الثياب، وعنه أيضًا: الرداء. ودليل هذا التأويل قوله سبحانه: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١) أى ثيابكم. وقال ابن عباس وأصحابه: الكحل والخاتم والسوار والخضاب. وقال الضحاك، والأوزاعى: الوجه والكفان. وقال الحسن: الوجه والثياب.

روت عائشة عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركت أن تظهر إلاّ وجهها ويدها إلى ها هنا». وقبض على نصف الذراع. وإنما رخص الله سبحانه، ورخص رسوله فى هذا القدر من بدن المرأة أن تبديها لأنه ليس بعورة. فيجوز لها كشفه فى الصلاة وسائر بدنها عورة فيلزمها ستره.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ وليلقين ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ أى بمقانعهن، وهى جمع الخمار، وهو غطاء رأس المرأة. ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وصدورهن، ليسترن بذلك شعورهن، وأقرطهن وأعناقهن.

قالت عائشة: يرحم الله النساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله سبحانه هذه الآية شققن

(١) هذا حديث إسناده ضعيف حيث إن يحيى بن أبى كثير، أبو نصر الطائى العطار كان يدلس وقد عنعن الحديث، فلا يعتبر بما فى متن الخبر حيث لم يصح عن رسول الله ﷺ.

أكتف مروطهن فاختمرن به .

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الخفية التى أُمرن بتغطيتها ولم يبح لهن كشفها فى الصلاة وللأجنبيين، وهى ماعدا الوجه والكفين وظهور القدمين. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أى نساء المؤمنين، فلا يحل لامرأة مسلمة أن تتجرد بين يدى امرأة مشركة إلاّ أن تكون أمة لها، فذلك قوله سبحانه: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

عن ابن جريج روى هشام بن الغار عن عبادة بن نُسى أنه كره أن تقبل النصرانية المسلمة، أو ترى عورتها، ويتأول ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾.

وقال عبادة: كتب عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح: أما بعد، فقد بلغنى أن نساء يدخلن الحمامات معهن نساء أهل الكتاب، فامنع ذلك وحل دونه.

قال: ثم إن أبا عبيدة قام فى ذلك المقام مبتهلاً: اللهم أيما امرأة تدخل الحمام من غير علة ولا سقم تريد البياض لوجهها فسود وجهها يوم تبيض الوجوه.

وقال بعضهم: أراد بقوله ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ مماليكهن وعبيدهن، فإنه لا بأس عليهن أن يُظهرن لهم من زينتهن ما يظهرن لذوى محارمهن.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ وهم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم فى النساء ولا يستهوونهن.

قال ابن عباس: هو الذى لا تستحى منه النساء. وعنه: الأحمق العنين.

وقال مجاهد: الأبله الذى لا يعرف شيئًا من النساء. وقال الحسن: هو الذى لا ينتشر. وقال سعيد بن جبير: المعتوه. وقال عكرمة: المجبوب. وقال الحكم بن أبان عنه: هو المخنث الذى لا يقوم ذكره.

روى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبى ﷺ مخنث، وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة فدخل النبى ﷺ يومًا وهو عند بعض نسائه، وهو ينعت امرأة، فقال: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان.

فقال النبى ﷺ: «لا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن هذا عليكم». فحجبوه.

قال ابن زيد هو الذى يتبع القوم حتى كأنه منهم ونشأ فيهم. وليس له فى نسائهم إربة إنما يتبعهم لإرقاقهم إياه. والإربة والإرب: الحاجة. يقال: أربت إلى كذا، آرب إربًا إذا احتجت إليه. واختلف القراء فى قوله: ﴿غَيْرِ﴾ فنصبه أبو جعفر، وابن عامر، وعاصم برواية أبى بكر،

والمفضل. وله وجهان:

أحدهما: الحال والقطع لأن ﴿ٱلتَّـٰبِعِينَ﴾ معرفة، و﴿غَيْرِ﴾ نكرة.

والآخر: الاستثناء، ويكون ﴿غَيْرِ﴾ بمعنى إلاّ. وقرأ الباقون بالخفض على نعت ﴿ٱلتَّـٰبِعِينَ﴾. ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أى لم يكشفوا عن عورات النساء لجماعهن فيطلعوا عليها. والطفل يكون واحداً وجمعًا.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ يعنى ولا يحركنها إذا مشين. ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ يعنى الخلخال والحلى. ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ من التقصير الواقع فى أمره ونهيه. وقيل معناه: وراجعوا طاعة الله فيما أمركم ونهاكم من الآداب المذكورة فى هذه السورة.

﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾



﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ أى زوجوا أيها المؤمنون من لازوج له من أحرار رجالكم ونسائكم. ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ وقرأ الحسن: من عبيدكم. والآيامى: جمع الأيم وهو من لازوج له من رجل وامرأة، يقال: رجل أيم، وامرأة أيم وأيمة، والفعل منه أمت المرأة، تأيم أيمة وأيومًا وتأيمت تأيمًا قال الشاعر:

ألم تر أن الله أظهر دينه	وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد أمت نساء كثيرة	ونسوة سعد ليس منهن أيم

وقال آخر:

فإن تنكحى أنكح وإن تتأيمى	وإن كنت أفتى منكم أتأيم

فسر بعض الفقهاء الآية على الحتم والإيجاب. فأوجب النكاح على من استطاعه. وتأولها

الباقون على الندب والاستحباب، وهو الصحيح المشهور والذى عليه الجمهور.

قال الشافعى رضى الله عنه. واجب للرجل والمرأة أن يتزوجا إذا تاقت أنفسهما إليه لأن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه أمر به، ورضيه، وندب إليه، وبلغنا أن النبى ﷺ قال: «تناكحوا تكثروا فإنى أُباهى بكم الأمم حتى بالسقط».

وقال عليه السلام: «من أحب فطرتى فليستن بسنتى، وهى النكاح». ويقال: إن الرجل ليرفع بدعاء ولده من بعده.

قال الشافعى: ومن لم تَتُق نفسه إلى ذلك، فأحب إلىّ أن يتخلى لعبادة الله عز وجل.

وذكر الله سبحانه القواعد من النساء، وذكر عبداً أكرمه فقال عز من قائل: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ (آل عمران: ٣٩) والحصور الذى لا يأتى النساء ولم يندبهم إلى النكاح فدَلّ أن المندوب إليه من يحتاج إليه.

باب ذكر بعض ما ورد من الأخبار فى الترغيب فى النكاح

أخبرنا أحمد بن أبى قال أخبرنا عبد الله بن إسحاق الجرجانى قال حدثنا أبو حامد محمد بن هارون الحضرمى قال حدثنا محمد بن يحيى الأزدى قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى قال أخبرنا أشعث عن الحسن عن سمرة: أن النبى ﷺ نهى عن التبتل[1].

وأخبرنى الحسين بن محمد بن الحسين الحديثى قال حدثنا محمد بن على بن الحسن الصوفى قال حدثنا محمد بن صالح بن ذريح قال حدثنا جبارة بن المغلس قال حدثنا جندل عن ابن جريج عن أبى المغلس عن أبى نجيح السلمى قال: قال رسول الله ﷺ. «من كان له ما يتزوج به فلم يتزوج فليس منا».

وأخبرنى الحسين بن محمد قال حدثنا مخلد بن جعفر الباقرجى قال حدثنا أحمد بن يعقوب المقرى ابن أخى عوف قال حدثنا جبارة بن المغلس قال حدثنا مندل عن يحيى بن عبد الرحمن ابن لبيبة عن أبيه عن جده قال: قال النبى ﷺ: «من أدرك له ولد وعنده ما يزوجه فلم يزوجه فأحدث فالإثم بينهما».

أخبرنى الحسين قال حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدقاق قال حدثنا محمد بن عبد العزيز قال حدثنا أبو يوسف الصيدلانى قال حدثنا خالد بن إسماعيل عن عبيد الله عن صالح مولى

(١) التبتل: هو ترك الزواج مع القدرة عليه من الناحية الصحية والمالية.

التومة قال: قال أبو هريرة: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد للقيت الله بزوجة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «شراركم عزابكم»

وبإسناده عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوج أحدكم عج الشيطان: يا ويله عُصم ابن آدم منى بثلثى دينه».

وأخبرنى الحسين بن محمد قال حدثنا الفضل بن الفضل الكندى قال حدثنا أبو زكريا يحيى ابن على بن خالد القطان قال حدثنا الحسين بن محمد قال حدثنا محمد بن ربيعة الكلابى قال حدثنا محمد بن ثابت العقيلى عن هارون بن رئاب عن أبى نجيح السلمى قال قال رسول الله ﷺ: «مسكين مسكين رجل ليست له امرأة، مسكينة امرأة ليس لها زوج».

قالوا: يا رسول الله، وإن كانت غنية من المال؟

قال: «وإن كانت غنية من المال».

وأخبرنى الحسين قال حدثنا الفضل بن الفضل الكندى قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن موسى قال حدثنا هشام بن عمار قال حدثنا حماد بن عبد الرحمن قال حدثنا خالد بن الزبرقان عن سليمان بن حبيب عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال: «أربع لعنهم الله من فوق عرشه وأمّنَتْ عليه الملائكة: الذى يحصر نفسه عن النساء فلا يتزوج ولا يتسرى لئلا يولد له، والرجل يتشبه بالنساء وقد خلقه الله ذكرًا، والمرأة تتشبه بالرجل وقد خلقها الله أنثى، ومضلل المساكين».

قال خالد: يعنى الذى يهزأ بهم يقول: هلم أعطك، فإذا جاء يقول: ليس معى شىء، ويقول للمكفوف: اتق الدابة، وليس بين يديه شىء، والرجل يُسأل عن دار القوم فيُجهله.

وأخبرنى أبو عبد الله بن فنجويه قال حدثنا أبو حذيفة أحمد بن محمد بن على قال حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد السلام البيروتى قال حدثنى أحمد بن سعيد بن يعقوب قال أخبرنا بقية بن الوليد قال حدثنى معاوية بن يحيى عن سليمان بن موسى عن مكحول عن عفيف بن الحارث عن عطية بن بشر المازنى قال: أتى عكاف بن وداعة الهلالى إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا عكاف ألك زوجة»؟ قال: لا يا رسول الله، قال: «ولا جارية». قال: لا، قال. «وأنت صحيح موسر»؟ قال: نعم والحمد لله.

قال: «فإنك إذًا من إخوان الشياطين، إما أن تكون من رهبان النصارى، وإما أن تكون مؤمنًا، فاصنع كما نصنع فإن من سنتنا النكاح، شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم ما للشيطان فى نفسه سلاح أبلغ من النساء ألا إن المتزوجين هم المطهرون المبرءون من الخنا، ويحك يا عكاف إنهن صواحب داود، وصواحب أيوب وصواحب يوسف عليهم السلام

وصواحب كرسُف».

قالوا: يا رسول الله، ومن كرسف؟

قال: «رجل كان يعبد الله على ساحل من سواحل البحر ثلاثين عامًا يصوم النهار، ويقوم الليل، لا يفتر من صيام ولا قيام فكفر بالله العظيم من سبب امرأة عشقها وترك ما كان عليه من عبادة ربه عز وجل، فتداركه الله سبحانه بما سلف منه، ويحك يا عكاف تزوج فإنك من المذنبين».

قال: زوجنى من شئت قبل أن أبرح، قال: «فإنى قد زوجتك على اسم الله كريمة بنت كلثوم الحميرى»[1].

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا محمد بن المظفر البزار قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان بمصر قال حدثنا على بن عبد الرحمن بن المغيرة قال حدثنا أبو صالح كاتب الليث قال حدثنا أبو يحيى بن قيس عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أتى على أمتى مائة وثمانون سنة فقد حلّت العزبة والعزلة والترهب على رؤوس الجبال»[2].

فصل فيمن تستحب وتختار من النساء

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله الثقفى بقراءتى عليه فى دارى قال حدثنا موسى بن محمد بن على بن عبد الله قال حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن الجعد قال حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى قال حدثنا عمر بن الوليد قال سمعت معاوية بن يحيى يحدث عن يزيد عن جبير بن نفير عن عياض بن غنم الأشعرى قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا عياض، لا تزوجن عجوزًا ولا عاقرًا، فإنى مكاثر».

وأخبرنى الحسين بن محمد قال حدثنا برهان بن على الصوفى قال حدثنا أبو بكر مزدك بن أحمد البرذعى قال حدثنا محمد بن عبد العزيز قال حدثنا إسحاق بن بشر الكاهلى قال حدثنا

---

(١) هذا إسناد لا يصح ولأن فيه سليمان بن موسى الأموى مولاهم أبو أيوب الدمشقى الأشدق فقيه أهل الشام فى زمانه وهو مع هذا القدر والمكانة من الفقه إلا أن فى إسناد أحاديثه كلامًا مع كونه ثقة فى نفسه فقد وصفوا أحاديثه بالنكارة والتفرد، وممن تكلم فيه أبو حاتم فقال: محله الصدق وفى حديثه بعض الاضطراب، وقال البخارى: عنده مناكير، وقال النسائى: أحد الفقهاء وليس بالقوى فى الحديث.

(٢) فى إسناده أبو صالح كاتب الليث، وهو صدوق ولكنه كثير الغلط، وكانت فيه غفلة، وكان ثبتًا فى الكتابة، وهو: عبد الله بن صالح بن محمد بن مسلم الجهنى، المصرى كاتب الليث بن سعد توفى فى سنة (٢٢٢).

عبد الله بن إدريس المدنى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الأبكار فإنهن أعذب أفواها وأنتج أرحامًا وأثبت مودة».

وبإسناده قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد أحدكم أن يتزوج المرأة فليسأل عن شعرها كما يسأل عن وجهها، فإن الشعر أحد الجمالين».

وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الزرق فإن فيهن يُمنًا».

وأخبرنا الحسين بن محمد قال: حدثنا موسى بن محمد بن على بن عبد الله قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن وهب قال حدثنا عبدان بن عبد الله بن عبد الحكم قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثنا محمد بن سليمان بن أبى كريمة قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «أعظم نساء أمتى بركة أصبحهن وجها وأقلهن مهرًا».

فصل فى الآداب الواردة فى النكاح والزفاف

أخبرنا أبو عمر الفراتى قال أخبرنا أبو موسى قال أخبرنا أبو على الشيبانى قال حدثنا محمد ابن رافع قال حدثنا يزيد بن هارون قال أخبرنا عيسى بن ميمون عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ أنه قال: «أعلنوا النكاح واجعلوه فى المساجد واضربوا عليها بالدفاف، وليولم أحدكم ولو بشاة».

وأخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه قال حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان وعبد الله بن يوسف قالا حدثنا يوسف بن أحمد بن كركان القرماسينى قال حدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج قال حدثنا أبو سلمة البصرى العتكى القاسم بن عمر قال حدثنا بشر بن إبراهيم الأنصارى عن الأوزاعى عن مكحول عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: حدثنى معاذ بن جبل قال: شهدت ملاك[1] رجل من الأنصار مع النبى ﷺ، فخطب النبى، وأملك الأنصارى ثم قال: «على الأُلفة والخير والطير الميمون ودففوا على رأس صاحبكم». وأقبلت السلال فيها الفاكهة والسكر فنُهب عليهم فأمسك القوم فلم ينتهبوا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أزين الحلم ألا تنتهبون»؟! فقالوا يا رسول الله إنك نهيتنا عن النهبة يوم كذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ. «إنما نهيتكم عن نهبة العساكر ولم أنهكم عن نهبة الولائم».

(١) أى زواج.

ثم قال: ألا فانتهبوا، قال معاذ بن جبل: فوالله لقد رأيت رسول الله ﷺ يُجرّرنا ونجرّره في ذلك النهاب.

وأخبرني الحسين بن محمد قال حدثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك قال حدثنا أبو العباس عبد الله بن أحمد بن حشيش البغدادي قال حدثنا عثمان بن معبد قال حدثنا عبد الله بن إبراهيم عن سفيان بن عامر العامري عن صافنة مولاتهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مسوا بالإملاك فإنه أفضل في اليُمن وأعظم في البركة».

وأخبرني الحسين قال حدثنا طفران بن الحسين قال حدثنا أبو بكر بن أبي داود السجستاني قال حدثنا أحمد بن يوسف بن سالم الأزدي السلمي قال حدثنا حفص بن عبد الله عن إبراهيم ابن طهمان عن محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن إسحاق بن سهل بن أبي حنتمة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كانت عندي جارية من الأنصار في حجري فزوجتها، فدخل النبي ﷺ، فلم يسمع غناء، فقال: «يا عائشة ألا تغنّون عليها فإن هذا الحيّ من الأنصار يحبون الغناء».

وأخبرني الحسين قال حدثنا عبد الله بن يوسف قال حدثنا أبو بكر محمد بن ظهير بن ثمامة البزار قال حدثنا أبو موسى محمد بن المثنى الزمن قال حدثنا حفص بن غياث عن عطاء: أن النبي ﷺ مُرّ عليه بعروس، فقال: «لو كان مع هذا لهو».

وأخبرني ابن فنجويه قال حدثنا ابن شنبة قال حدثنا محمد بن علي بن سالم الهمذاني قال الحسين بن الحسين الرازي الهسنخاني قال حدثنا سعيد بن منصور قال حدثنا مسكين بن ميمون قال حدثني عروة بن رويم قال: بينا عبد الرحمن بن قرط يعس[1] بحمص إذ مرت عروس، وقد أوقدوا النيران فضربهم بدرته حتى تفرقوا عنها، فلما أصبح قعد على منبره وقال: إن أبا جندل نكح فصنع جفنات من طعام، فرحم الله أبا جندل وصلى على آبائه، ولعن الله أصحاب عروسكم أوقدوا النيران، وتشبهوا بأهل الشرك، والله مطفئ نورهم يوم القيامة.

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أخبرني ابن فنجويه قال حدثنا علي بن أحمد بن نصرويه قال حدثنا عبد الله بن محمد بن وهب قال حدثني أبو زرعة قال حدثنا إبراهيم بن موسى الفراء قال أخبرنا مسلم بن خالد عن سعيد بن أبي صالح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «التمسوا الرزق بالنكاح».

وأخبرني ابن فنجويه قال حدثنا محمد بن الحسن بن بشر قال حدثنا أبو يوسف محمد بن

---

(١) أي يتفقد حال الرعية ليلاً حتى يطمئن على حالهم.

سفيان بن موسى الصفار بالمصيصية قال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن ناصح قال: حدثنا عبد العزيز الدراوردى عن ابن عجلان: أن رجلاً أتى النبى ﷺ فشكا إليه الحاجة، فقال: «عليك بالباءة». وشكى رجل إلى أبى بكر رضى الله عنه بعد النبى ﷺ فشكى إليه الحاجة، فقال: عليك بالباءة. وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أبى بكر فشكى إليه الحاجة، فقال: عليك بالباءة؛ كُلاً يريد قوله سبحانه: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قال ابن عجلان: وقال أبو بكر، وعمر رضى الله عنهما: ابتغوا الغنى فى النكاح. ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ عن الحرام. ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ويوسع عليهم من رزقه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أى المكاتبة وهى: أن يقول الرجل لعبده أو أمته وقد كاتبتك على أن تعطينى كذا وكذا فى نجوم معلومة علىَّ على أنك إذا أديت ذلك فأنت حر فرضى العبد بذلك فإن أدى مال الكتابة بالنجوم التى سماها كان حراً وإن عجز عن أداء ذلك كان لمولاه أن يرده إلى الرق كما قال عليه السلام: «المكاتب عبد ما بقى عليه درهم». وأصل الكلمة من الكُتْب بالضم والجمع منه الكُتيبة وكتب البغل، وكتب الكتاب فسمى المكاتب مكاتبًا لأنه يضم نجوم مال الكتاب بعضها إلى بعض.

﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ اختلف الفقهاء فى حكم هذه الآية؛ فقال قوم: هو أمر حتم وإيجاب فرض على الرجل أن يكاتب عبده الذى قد علم منه خيراً إذا سأله ذلك بقيمته وأكثر ولو كان بدون قيمته لم يلزمه، وهو قول عمرو بن دينار، وعطاء، وإليه ذهب داود بن على، ومحمد بن جرير من الفقهاء، وهى رواية العوفى عن ابن عباس. واحتج من نصر هذا المذهب بما روى قتادة: أن سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه فتلكأ عليه، فشكاه إلى عمر، فعلاه بالدّرة، وأمره بالكتابة. واحتجوا أيضًا بأن هذه الآية نزلت فى غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له: صبح، سأل مولاه أن يُكاتبه، فأبى عليه، فأنزل الله سبحانه هذه الآية، فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين، فأدّاها، وقتل يوم حنين فى الحرب.

وروى عن عمر أنه قال: هى عزمة من عزمات الله من شاء الكتابة كُوتب.

وقال الآخرون: هو أمر ندب واستحباب، ولا يلزم السيد مكاتبة عبده سواء بذل له قيمته أو أكثر منها أو أقل، وهو قول الشعبى، والحسن البصرى، وإليه ذهب الشافعى، ومالك، وأبو حنيفة وسائر الفقهاء. وأما قوله سبحانه: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فاختلفوا فيه: فقال ابن عمر، وابن زيد، ومالك بن أنس: يعنى قوة على الاحتراف والكسب لأداء ما كوتب عليه. وإليه ذهب الثورى.

وروى الوالبى عن ابن عباس: إن علمتم أن لهم حيلة ولا تلقون مؤنتهم على المسلمين.

وقال الحسن، ومجاهد، والضحاك: مالاً. وهى رواية العوفى عن ابن عباس، واستدلوا بقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ (البقرة: ١٨٠).

قال الخليل: لو أراد المال لقال: إن علمتم لهم خيراً.

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين قال: حدثنا هارون بن محمد قال: حدثنا محمد بن عبد العزيز قال حدثنا يحيى الحمانى قال حدثنا أبو خالد الأحمر عن الأعمش عن أبى إسحاق عن أبى ليلى الكندى عن سليمان قال: قال له عبد: كاتبنى، قال: لك مال؟ قال: لا. قال: تطعمنى أوساخ الناس، فأبى عليه. وقال إبراهيم، وعبيدة، وأبو صالح، وابن زيد: يعنى صدقًا ووفاءً وأمانة. وقال طاووس، وعمرو بن دينار: مالاً وأمانة.

وقال الشافعى: أظهر معانى الخير فى هذه الآية الاكتساب مع الأمانة، فأحب أن لا يمنع من مكاتبته إذا كان هكذا.

أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن شنبة قال حدثنا أبو بكر محمد بن عبد العزيز العثمانى، وأبو النضر إسحاق بن إبراهيم قالا: حدثنا يحيى بن حمزة قال أخبرنى محمد بن عجلان عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: رجل خرج فى سبيل الله سبحانه، ورجل تزوج يلتمس الغنى عن ما حرم الله عز وجل، ورجل كاتب التماس الأداء».

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا هارون بن محمد بن هارون قال حدثنا محمد بن عبد العزيز قال حدثنا يحيى الحمانى قال حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن سيرين عن عبيدة فى قوله سبحانه: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال: إن أقاموا الصلاة. وقيل: هو أن يكون المكاتب بالغًا عاقلاً، فأما المجنون والصبى فلا تصح كتابتهما لأنهما ليسا من أهل الابتغاء، ولأن النبى ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاث»

وقال أبو حنيفة تصح كتابة الصبى إذا كان مراهقًا مميزًا بناءً على أصله إذا كان مراهقًا كيّسًا حُرًا فأذن له وليه فى التصرف نفذ تصرفه، كذلك السيد مع عبده إذا كاتبه فقد أذن له فى التصرف فصحت كتابته.

واختلف الفقهاء فى مال الكتابة: فقال مالك، وأبو حنيفة وأصحابه: تصح الكتابة حالة ومؤجلة، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ ولم يشترط فيه أجلاً، ولأنه عقد على عين فصح حالاً ومؤجلاً كالبيع.

وقال الشافعي: لا تصح الكتابة حالة، وإنما تصح إذا كانت مؤجلة، وأقله نجمان ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ اختلفوا فيه: فقال بعضهم: الخطاب للموالى، وهو أن يحط له من مال كتابته شيئًا. ثم اختلفوا فى ذلك الشيء: فقال قوم: هو ربع المال، وهو قول على، وإليه ذهب الثورى.

روى شعبة عن عبد الأعلى عن أبى عبد الرحمن السلمى: أنه كاتب غلامًا له على ألف ومائتين وترك الربع وأشهدنى، ثم قال لى: كان صديقك يفعل هذا يعنى عليًا كرم الله وجهه. وقد روى ذلك مرفوعًا.

أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن حنش المقرئ قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى قال حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم قال حدثنا حجاج عن ابن جريج عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن حبيب يعنى أبا عبد الرحمن السلمى عن النبى ﷺ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قال: «ربع المكاتبة».

وقال آخرون ليس فيه حَدّ إنما هو إليه يحط عنه من مال كتابته شيئًا.

روى أسباط عن السدى عن أبيه قال: كاتبتنى زينت بنت قيس بن مخرمة وكانت قد صلت مع النبى ﷺ القبلتين جميعًا ـ على عشرة آلاف، فتركت لى ألفًا، وروى الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد مولى ابن أسيد قال: كاتبنى أبو أسيد على ثنتى عشرة مائة فجئته بها، فأخذ ألفًا، وردّ على ما تبقى[1].

وقال نافع: كاتب ابن عمر غلامًا له يقال له شرفى على خمسة وثلاثين ألف درهم، فوضع من آخر كتابته خمسة آلاف درهم.

قال سعيد بن جبير: كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه، لم يضع عنه شيئًا من أول نجومه مخافة أن يعجز، فترجع إليه صدقته، ولكنه إذا كان فى آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب وعلى هذا القول قوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ أمر استحباب.

وقال بعضهم: معناه: وآتوهم سهمهم الذى جعله الله لهم من الصدقات المفروضات بقوله: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ (التوبة: ٦٠) وهو قول الحسن، وزيد بن أسلم وابنه، وعلى هذا التأويل هو أمر إيجاب.

وقال بريدة وإبراهيم هو حث لجميع الناس على معونتهم.

أخبرنى الحسين بن محمد بن فنجويه قال حدثنا ابن شنبة قال حدثنا جعفر بن محمد

(١) فى المخطوط: مائتين. وهو تحريف والله أعلم.

الفريابى قال حدثنا صفوان بن صالح قال حدثنا الوليد قال حدثنى زهير عن عبد الله بن محمد ابن عقيل عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن النبى ﷺ قال: «من أعان مكاتبًا فى رقبته أو غازيًا فى عسرته أو مجاهدًا فى سبيله أظله الله سبحانه فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله».

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا موسى بن محمد بن على قال حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة قال حدثنا على بن أحمد الواسطى قال حدثنا إسحاق بن منصور عن عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن الدالانى عن خارجة بن هلال عن أبى سعيد، ورافع بن خديج، وابن عمر قالوا: جاءنا غلام لعثمان رضى الله عنه يقال له: كيّس، فقال: قوموا إلى أمير المؤمنين فكلّموه أن يكاتبنى؛ فقلنا له: إن غلامك هذا سألنا أن تكاتبه. فقال: أخذته بخمسين ومائة، يجىء به وهو حُر؛ قال: فخرجنا فأعانه كل رجل منا بشىء، فذهب فلم يلبث أن جاء فقال: قوموا معى، فقمنا معه، فدخلنا، ثم قال: كونوا بالباب. ثم قال: يا كيّس، تذكر يوم عركت أذنك؟

قلت: بلى يا سيدى. قال: ألم أنهك أن تقول: يا سيدى؟ قال: فلم يزل بى حتى ذكرت. قال: قُم، فخذ بأذنى. قال: فأبيت، فلم يزل بى حتى قمت فأخذت بأذنه، فعركتها، وهو يقول: شدّ شدّ، حتى إذا رآنى أنى قد بلغت ما بلغ منى قال: حسبك. ثم قال: واها للقضاء فى الدنيا، اخرج فأنت حُرّ، وما معك لك.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ الآية. نزلت فى معاذة، ومُسَيْكة جاريتى عبد الله بن أُبى المنافق، كان يكرههما على الزنا بضريبة يأخذها منهما، وكذلك كانوا يفعلون فى الجاهلية يؤاجرون إماءهم، فلما جاء الإسلام قالت معاذة لُمسَيْكة: إن هذا الأمر الذى نحن فيه لا يخلو من وجهين: فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه، وإن يك شراً فقد آن لنا أن ندعه، فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

وقال مقاتل نزلت فى ست جوار لعبد الله بن أبىّ كان يُكرههن على الزنا، ويأخذ أُجورهن وهى: مُعاذة، ومُسيكة، وأُميمةً، وعمرة، وأروى، وقتيلة، فجاءته إحداهن ذات يوم بدينار، وجاءت أُخرى ببرد، فقال لهما: ارجعا فازنيا، فقالتا: والله لا نفعل، قد جاءنا الله بالإسلام، وحَرم الزنا، فأتيا رسول الله ﷺ وشكتا إليه، فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

وروى معمر عن الزهرى: أن عبد الله بن أُبىّ أَسَرَ رجلاً من قريش يوم بدر، وكان لعبد الله جارية يقال لها معاذة، فكان القرشى الأسير يريدها على نفسها، وكانت مسلمة، فكانت تمتنع منه، وكان ابن أُبىّ يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل للقرشى فيطلب فداء ولده،

فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ إماءكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أى الزنا.

﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ يعنى إذ، وليس معناه الشرط، لأنه لا يجوز إكراههن على الزنا إن لم يردن تحصنًا. نظيره قوله سبحانه: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٧٨)، وقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩). أى إذ، وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (الفتح: ٢٧) يعنى إذ شاء الله والتحصين التعفف.

وقال الحسين بن الفضل فى الآية تقديم وتأخير تقديرها: وأنكحوا الأيامى منكم إن أردن تحصنًا ثم قال: ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن بعد ورود النهى. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ لهن. ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والوزر على المكره. وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: لهن والله لهن. ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا﴾ خبرًا وعبرة. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾



﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قال ابن عباس: الله هادى أهل السموات والأرض لا هادى فيهما غيره فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة ينجون، وليس يهتدى ملك مقرب، ولا نبى مرسل إلاّ بهدى منه.

وقال الضحاك، والقرظى: منور السموات والأرض.

مجاهد: مدبّر الأمور فى السموات والأرض.

أبى بن كعب، وأبو العالية والحسن: مزين السموات بالشمس، والقمر، والنجوم، ومزين

الأرض بالأنبياء، والعلماء، والمؤمنين.

وقال بعضهم: يعنى الأنوار كلها منه كما يقال: فلان رحمة وسخطة، وهو لا يكون فى نفسه رحمة ولا سخطة وإنما يكون منه الرحمة والسخطة.

وقال بعض أهل المعانى: أصل النور هو التبرئة والتصفية، يقال امرأة نوار ونساء نوار إذا كن متعريات من الريبة والفحشاء قال الشاعر:

نوار فى صواحبها نوار كما فاجاك سرب أو صوار

فمعنى النور هو المنزه من كل عيب.

وقال العلماء: النور على أربعة أوجه: نور متلألئ، ونور متولد، ونور من جهة صفاء اللون، ونور من جهة المدح. فالنور المتلألئ: مثل قرص الشمس، والقمر، والكواكب، وشعلة السراج. والمتولد: هو الذى يتولد من شعاع الشمس، والقمر، والسراج، فيقع على الأرض فيستنير به والذى هو من صفاء اللون: مثل نور اللآلئ واليواقيت وسائر الجواهر، وكل شىء له نور صاف. والذى هو من جهة المدح: قول الناس: فلان نور البلد، وشمس العصر، قال الشاعر:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا ما بدت لم يبد منهن كوكب

وقال آخر:

❖ قمر القبائل خالد بن يزيد ❖

وقال آخر:

إذا سار عبد الله من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها

ويجوز أن يقال الله سبحانه نُور من جهة المدح لأنه واجد الأشياء ونور جميع الأشياء منه دون سائر الأوجه لأن النور المحسوس الذى هو ضد الظلمة لا يخلو من: شعاع، وارتفاع، وسطوع، ولموع، وهذه كلها منفيّة عن الله سبحانه لأنها من أمارات الحدث.

قالوا: ولا يجوز أن يقال الله يا نور إلاّ أن يضم إليه شىء، كما لا يجوز أن يقال: يا بديع إلاّ أن يضم إليه شىء، كما قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (البقرة: ١١٧)، و﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقرأ على بن أبى طالب: (الله نوّر السموات والأرض) على الفعل.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ اختلفوا فى هذه الكناية: فقال بعضهم: هى عائدة إلى المؤمن أى مثل نوره فى قلب المؤمن حيث جعل الإيمان والقرآن فى صدره.

روى الربيع عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى هذه الآية قال: بدأ بنور نفسه، فذكره، ثم ذكر نور المؤمن، فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ وهكذا كان يقرأ أُبىّ: مثل نور من آمن، وقال ابن عباس، والحسن، وزيد بن أسلم، وابنه: أراد بالنور القرآن. وقال كعب، وسعيد بن جبير: هو محمد ﷺ. ومثله روى مقاتل عن الضحاك: أضاف هذه الأنوار إلى نفسه تفضيلاً، وروى عطية عن ابن عباس قال: يعنى نور الطاعة، يسمى طاعته نوراً، ثم ضرب لها مثلاً.

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال أهل المعانى: هذا من المقلوب، أى كمصباح فى مشكاة، وهى الكوة التى لا منفذ لها، وأصلها الوعاء يجعل فيها الشىء، والمشكاة وعاء من أدم يبُرد فيه، وهى على وزن مفعلة كالمقراة والمصفاة، قال الشاعر:

كأن عينيه مشكاتان فى حجر قيضا اقتياضًا بأطراف المناقير

وقيل: المشكاة عمود القنديل الذى فيه الفتيلة.

وقال مجاهد: هى القنديل.

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أى سراج، وأصله من الضوء، ومنه الصبح. ورجل صبيح الوجه صبيح إذا كان وضيئًا. وفرّق قوم بين المصباح والسراج. فقال الخليل: المصباح . . .[1] نفس السراج. وقيل: السراج أعظم من المصباح، لأن الله سبحانه سمى الشمس سراجًا، فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (النبأ: ١٣)، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ (الفرقان: ٦١) وقال فى غيرها من الكواكب: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ (الملك: ٥).

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ قرأ نصر بن عاصم: زَجاجة، بفتح الزاى. وقرأ الباقون، بضمه.

قال الأخفش: فيها ثلاث لغات: ضم الزاى، وفتحها، وكسرها.

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أى ضخم مضىء، ودرارى النجوم عظامها. واختلف القراء فيه: فقرأ أبو عمرو، والكسائى مكسورة الدال، مهموزة الياء، ممدودة، وهو من قول العرب: درأ النجوم إذا طلع وارتفع من مكان إلى آخر ورجع. وإذا نقض فى أثر الشيطان فأسرع. وأصله من الرفع ووزنه من الفعل فعيل. وقرأ حمزة، وأبو بكر مضمومة الدال مهموزة ممدودة.

قال أكثر النحاة: هى لحن لأنه ليس فى الكلام فعيل بضم الفاء، وكسر العين.

قال أبو عبيد: وأنا أرى لها وجهًا وذلك أنه درو على وزن فعول من درأت مثل سبوح وقدوس، ثم استثقلوه لكثرة الضمات فيه، فردّوا بعضها إلى الكسرة كما قالوا: عتيًا، وهو

(١) موضع النقط بياض فى أصل المخطوط قدره ثلاث كلمات.

فعول من عتوت.

قال بعضهم هو مشتق على هذه القراءة من الدراة وهى البياض. ويقال: منه ملح دَرانى. وقرأ سعيد بن المسيب، وأبو رجاء العطاردى بفتح الدال، وبالهمز. قال أبو حاتم: هو خطأ، لأنه ليس فى الكلام فعيل، وإن صح منهما فهما حجة، وقرأ الباقون بضم الدال، وتشديد الياء من غير همز، ونسبوه إلى الدّر فى صفائه، وهى اختيار أبى عبيد، وأبى حاتم، ثم قال أبو عبيد؛ وإنما اخترنا هذه القراءة لعلل ثلاث: إحداها: ما جاء فى التفسير أنه منسوب إلى الدّر لبياضه.

والثانية: للخبر عن النبى ﷺ «إن أهل الجنة ليتراءون أهل عليين كما ترون الكوكب الدرى فى أفق السماء، وإن أبا بكر، وعمر منهم وأنعما».

والثالثة: إجماع أهل الحرمين عليها.

﴿يُوقَدُ﴾ [1] اختلف القراء فيه أيضًا: فقرأ شيبة، ونافع، وأيوب، وابن عامر، وعاصم برواية حفص: بياء مضمومة يعنون المصباح. وقرأ حمزة والكسائى، وخلف برواية أبى بكر: بتاء مضمومة أرادوا الزجاجة، وقرأ ابن محيصن: بتاء مفتوحة، وتشديد القاف ورفع الدال على معنى تتوقد الزجاجة.

وقرأ الآخرون: بفتح التاء، والقاف، والدال، على المضىء، يعنون المصباح.

﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾

قال عكرمة وجماعة: يعنى لا يسترها من الشمس جبل ولا واد، فإذا طلعت الشمس أصابتها، وإذا غربت أصابتها، فهى ضاحية للشمس طول النهار وليست شرقية وحدها حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت، ولا هى غربية وحدها، فلا تصيبها الشمس فى الغداة، إذا طلعت، بل تأخذ حظها من الأمرين، وإذا كان كذلك كان أجود وأضوأ لزيتها.

وقال السدى وجماعة: يعنى ليست فى مقنوة لا تصيبها الشمس، ولا هى بارزة للشمس لا يصيبها الظل، فهى لم تضرها الشمس ولا الظل.

وقال بعضهم: هى معتدلة ليست من شرق فيلحقها الحرّ، ولا فى غرب فيضر بها البرد، وهى رواية ابن ظبيان عن ابن عباس.

وقال ابن زيد: هى شامية لأن الشام لا شرقى ولا غربى، يقول هى شرقية وغربية، وهذا كقولك: فلان لا مسافر ولا مقيم، وليس هذا بأبيض ولا أسود إذا كان له من كلا الأمرين

(١) فى المخطوط: (توقد) ورسمت ما فى مصحف حفص المطبوع فلاحظ التغيير عند قراءة التعليق أو الشرح.

قسط ونصيب، قال الشاعر:

بأيدى رجال لم يشيموا سيوفهم ولم يكثروا القتلى بها حين سُلّتِ

يعنى فعلوا هذا.

وقال الحسن ليس هذه الشجرة من شجر الدنيا ولو كانت فى الأرض لكانت شرقية أو غربية وإنما هو مَثل ضربه الله سبحانه لنوره، وقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا، لأنها بدل من الشجرة، فقال: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾، وإنما خصّ الزيتونة من بين سائر الأشجار لأن دهنها أضوأ، وأصفى.

وقيل: لأنه يورق غصنها من أوله إلى آخره، ولا يحتاج دهنه إلى عصار يستخرجه. وقيل: لأنها أول شجرة نبتت من الدنيا وقيل: بعد الطوفان. وقيل: لأن منبتها منزل الأنبياء، والأولياء، والأرض المقدسة، وقيل: لأنه بارك فيها سبعون نبيًا منهم إبراهيم عليه السلام، قال: لذلك قال: ﴿مُّبَـٰرَكَةٍ﴾.

أخبرنى عبد الله بن الحسين بن محمد بن الحسين الحافظ فى دارى قال: حدثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك قال حدثنا أحمد بن عيسى بن السكين البلدى قال حدثنى هاشم بن القاسم الحرانى قال حدثنا يعلى بن الأشدق عن عمه عبد الله بن حراد قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك فى الزيت والزيتون، اللهم بارك فى الزيت والزيتون».

وأخبرنى الحسين بن محمد قال حدثنا محمد بن على بن الحسن الصوفى قال حدثنا أبو شعيب الحرانى قال حدثنا أحمد بن عبد الملك قال حدثنا زهير قال حدثنا عبد الله بن عيسى عن عطاء عن أبى أُسيد قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت، وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة».

وأخبرنى الحسين قال حدثنى أحمد بن جعفر بن حمدان قال حدثنا إبراهيم بن سهلويه قال حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق قال سمعت أبى يقول: حدثنا أبو حمزة عن جابر عن أبى الطفيل عن عبد الله بن ثابت الأنصارى قال: دعا بنيه، ودعا بزيت، فقال: ادهنوا رؤوسكم؛ فقالوا: لا ندهن رؤوسنا بالزيت. قال: فأخذ العصا وجعل يضربهم ويقول: أترغبون عن دهن رسول الله ﷺ.

وحدثنا عبد الله بن يوسف بن ماموية قال أخبرنا محمد بن عمر بن الخطاب الدينورى قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن سنان قال حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح قال حدثنا أبى قال حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال:

«عليكم بهذه الشجرة المباركة زيت الزيتون فتداووا به، فإنه مصحة من الناسور»[١].

ثم قال سبحانه: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ من صفائه وضيائه. ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قبل أن تصيبه نار، واختلف العلماء فى معنى هذا المثل والممثل، وفى المعنى بالمشكاة، والزجاجة، والمصباح. فقال قوم: هذا مثل ضربه الله سبحانه لنبيه محمد ﷺ. وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال له: حدثنى عن قوله سبحانه وتعالى﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ الآية؛ فقال كعب: هذا مثل ضربه الله سبحانه لمحمد ﷺ، فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه، والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة وهى شجرة النبوة، يكاد نور محمد وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبى يكاد ذلك الزيت أن يضىء﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ .

أخبرنا أبو بكر الجوزقى قال حدثنا أبو عثمان البصرى قال حدثنا أحمد بن سلمة قال حدثنا الحسين بن منصور قال حدثنا أبان بن راشد الجزرى قال حدثنا الوازع بن نافع عن سالم عن ابن عمر فى هذه الآية قال: المشكاة: جوف محمد ﷺ والزجاجة: قلبه، والمصباح: النور الذى جعل الله فيه. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لا يهودى ولا نصرانى ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ إبراهيم. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ النور الذى جعل الله فى قلب إبراهيم كما جعل فى قلب محمد عليهما السلام.

وقال محمد بن كعب القرظى: المشكاة: إبراهيم، والزجاجة: إسماعيل، والمصباح: محمد عليهم السلام، سماه الله مصباحًا كما سماه سراجًا، فقال عز من قائل: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٦) ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهى إبراهيم سماه مباركًا لأن أكثر الأنبياء كانوا من صلبه، ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ يعنى إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا، وإنما قال ذلك لأن اليهود تصلى قبل المغرب والنصارى قبل المشرق. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يعنى تكاد محاسن محمد تظهر للناس قبل أن يوحى إليه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ : أى نبى من نسل نبى.

وروى مقاتل عن الضحاك قال: شبّه عبد المطلب بالمشكاة، وعبد الله بالزجاجة والنبى ﷺ بالمصباح كان فى صلبهما فورث النبوة من إبراهيم عليه السلام ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ بل هى مكية لأن مكة وسط الدنيا.

ووصف بعض البلغاء هذه الشجرة فقال: هى شجرة التقى والرضوان وشجرة الهدى والإيمان، شجرة أصلها نبوة، وفروعها مروءة، وأغصانها تنزيل، وورقها تأويل، وخدمها جبرئيل وميكائيل.

---

(١) إسناده ضعيف وكذا أغلب ما سبق من الأحاديث ضعيفة الإسناد.

وقال آخرون: هذا مثل ضربه الله سبحانه للمؤمن.

روى الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أُبَىّ بن كعب، قال: هذا مثل المؤمن، فالمشكاة نفسه، والزجاجة صدره، والمصباح ما جعل الله سبحانه من الإيمان والقرآن فى قلبه ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهى الإخلاص لله وحده لا شريك له، فمثله مثل شجرة التفت بها الشجر فهى خضراء ناعمة لا يصيبها الشمس على أى حال كانت لا إذا طلعت ولا إذا غربت، وكذلك المؤمن وقد أجير من أن يصيبه شىء من الفتن، وقد ابتلى بها فثبته الله تعالى فيها، فهو بين أربع خلال: إن أعطى شكر، وإن ابتلى صبر، وإن حكم عدل وإن قال صدق، هو فى سائر الناس كالرجل الحى يمشى فى قبور الأموات.

ثم قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، فهو يتقلب فى خمسة من النور: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره النور يوم القيامة إلى الجنة.

وقال ابن عباس: هذا مثل نور الله وهداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوئه، كما يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدًى على هدًى ونوراً على نور كقول إبراهيم عليه السلام قبل أن تجيئه المعرفة: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ (الأنعام: ٧٦) حين رأى الكوكب من غير أن يخبره أحد أن له ربا، فلما أخبره الله أنه ربه ازداد هدًى على هدًى. ثم قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعنى إيمان المؤمن وعمله.

وقال الحسن، وابن زيد: هذا مَثَل للقرآن فى قلب المؤمن، فكما أن هذا المصباح يستضاء به وهو كما هو لا ينقص، كذلك القرآن يهتدى به، ويؤخذ به، ويعمل به، فالمصباح هو القرآن، والزجاجة قلب المؤمن، والمشكاة لسانه وفمه، والشجرة المباركة هى شجرة الوحى.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يقول: يكاد بحجة القرآن يتضح وإن لم يقرأ. وقيل: يكاد بحجج الله على خلقه تضىء لمن فكر فيها، وتدبرها ولو لم ينزل القرآن.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعنى أن القرآن نور من الله يخلقه مع ما قد أقام لهم من الدلائل، والأعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نوراً على نور.

ثم أخبر أن هذا النور المذكور عزيز، فقال عز من قائل: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا للشىء الذى أراده إلى الأفهام وتسهيلاً لسبل الإدراك على الأنام. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ثم قال عز من قائل: ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ نظم الآية: ذلك المصباح فى بيوت فيجوز أن يكون

معناه: توقد في بيوت وهي المساجد، عن أكثر المفسرين.

أخبرني ابن فنجويه الدينوري قال حدثنا ابن حنش المقرئ قال حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم الجوهري قال حدثنا علي بن أشكاب قال حدثنا محمد بن ربيعة الكلابي عن بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: المساجد بيوت الله عز وجل في الأرض فهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض.

وقال عمرو بن ميمون: أدركت أصحاب النبي ﷺ، وهم يقولون: المساجد بيوت الله، وحق على الله أن يكرم من زاره فيها.

وأخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم بن شاذان قال حدثنا عبيد الله بن ثابت الجريري قال حدثنا أبو سعيد الأشج، قال حدثنا أبو أسامة عن صالح بن حيان عن ابن أبي بريدة في قوله سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ الآية.

قال إنما هي أربعة مساجد لم يبنها إلا نبي: الكعبة بناها إبراهيم، وإسماعيل، فجعلاها قبلة، وبيت المقدس بناه داود وسليمان، ومسجد المدينة بناه رسول الله ﷺ، ومسجد قباء أُسس على التقوى بناه رسول الله ﷺ.

وأخبرني عبد الله الحسين بن محمد الدينوري قال حدثنا أبو زرعة أحمد بن الحسين بن علي الرازي قال حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الوزاني ـ بالكوفة ـ قال حدثنا المنذر بن محمد القابوسي قال حدثني الحسين ابن سعيد قال حدثني أبان بن تغلب عن نفيع بن الحارث عن أنس بن مالك وعن بريدة قالا: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، فقال رجل: أي بيوت هذه يا رسول الله؟ قال: «بيوت الأنبياء».

قال: فقام إليه أبو بكر، فقال: يا رسول الله هذا البيت، منها ـ لبيت علي وفاطمة؟

قال: «نعم من أفاضلها».

قال الصادق: بيوت النبي ﷺ. وقال السدي: المدينة.

وأولى الأقوال بالصواب أنها المساجد، لدلالة سياق الآية على أنها بيوت بنيت للصلاة والعبادة.

فإن قيل: ما الوجه في توحيده المشكاة والمصباح وجمع البيوت ولا تكون مشكاة واحدة إلاّ في بيت واحد؟

قلنا: هذا من الخطاب المتلون الذي يفتح بالتوحيد ويختم بالجمع كقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ (الطلاق: ١) ونحوها. وقيل: رجع إلى كل واحد من البيوت. وقيل: هو مثل قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ (نوح: ١٦) وإنما هو فى واحدة منها.

﴿أَن تُرْفَعَ﴾ أى تبنى عن مجاهد. نظيره قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ (البقرة: ١٢٧) من البيت وإسماعيل. وقال الحسن: تعظم. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ قال ابن عباس: يتلى فيها كتابه. ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ قرأ قتادة، وأشهب، والعقيلى، ونصر بن عاصم الليثى، وابن عامر، وعاصم؛ بفتح الباء على غير تسمية الفاعل.

ثم قال: ﴿رِجَالٌ﴾ أى هم رجال كما تقول: ضرب زيد، وأكل طعامك، فيقال: من فعله؟ فتُبيّن فتقول: فلان، وفلان. والوقف على هذه القراءة عند قوله: ﴿وَٱلْآصَالِ﴾. وقرأ الآخرون بكسر الباء، جعلوا التسبيح فعلاً للرجال.

قال ابن عباس: كل تسبيح فى القرآن صلاة، يدل عليه قوله سبحانه: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أى بالغداة والعشى.

قال المفسرون: أراد الصلوات المفروضة، فالصلاة التى تؤدى بالغدو صلاة الفجر، والتى تؤدى فى الآصال، صلاة الظهر والعصر، والعشاءين لأن اسم الأصيل يجمعهما.

أخبرنا ابن فنجويه قال حدثنا ابن شنبة قال حدثنا عمير بن مرداس، قال حدثنا إسماعيل بن أويس قال حدثنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يغدو ويروح إلى المسجد ويؤثره على ما سواه إلاّ وله عند الله نزل يعد له فى الجنة كلما غدا وراح، كما لو أن أحدكم زاره من يحب زيارته فى كرامته».

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال حدثنا أحمد بن إبراهيم بن سهلويه قال حدثنا أبو سلمة يحيى بن المغيرة المخزومى قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنينى عن إبراهيم المدنى عن أبى حازم عن سهل بن سعد الساعدى قال: قال رسول الله ﷺ: «من غدا إلى المسجد فراح يتعلم خيراً أو يُعلمه كان كمثل المجاهد فى سبيل الله تعالى رجع غانمًا، ومن غدا إليه وراح لغير ذلك كان كالناظر إلى الشىء ليس له يرى المصلين وليس منهم، ويرى الذاكرين وليس منهم».

ثم وصفهم فقال: ﴿رِجَالٌ﴾ قيل: وجه تخصيص الرجال بالذكر فى هذه البيوت أنه ليس على النساء جمعة ولا جماعة فى المساجد. ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ﴾ قال أهل المعانى: إنما خص التجارة لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلوات وعن سائر الطاعات. ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ إن قيل: إن التجارة اسم يقع على البيع والشراء فما معنى ضم ذكر البيع إلى التجارة؟ فالجواب

عنه، ما قال الواقدى: أنه أراد بالتجارة الشراء، نظيره قوله سبحانه ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً﴾ (الجمعة: ١١) يعنى الشراء.

﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أى إقامة الصلاة، فحذف الهاء الزائدة لأجل الإضافة لأن الخافض وما خفض عندهم كالحرف الواحد، فاستغنى بالمضاف إليه من الهاء إذ كانت الهاء عوضًا من الواو إذ إن أصل الكلمة أقومت إقوامًا فاستثقلوا الضمة على الواو فسكنوها، فاجتمع حرفان ساكنان، فأسقطوا الواو ونقلوا حركته إلى القاف، وأبدلوا من الواو المحذوفة هاء فى آخر الحرف كالتكثير للحرف، كما فعلوا فى قولهم: عدة، وورثة، فلما أضيفت حذفت الهاء وجعلت الإضافة عوضًا منها كقول الشاعر:

إن الخليط أجدوا البين وانجردوا ... وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا

أراد: عدة الأمر، فأسقط الهاء منها لما أضافها.

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ المفروضة، عن الحسن.

وقال ابن عباس: الزكاة إخلاص الطاعة لله سبحانه. قال ابن حيان: هم أهل الصُّفَّة.

وأخبرنى ابن فنجويه قال أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال حدثنا إبراهيم بن سهلويه قال حدثنا سلمة بن شبيب قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا جعفر بن سليمان قال أخبرنى عمرو بن دينار مولى لآل الزبير عن سالم عن ابن عمر: أنه كان فى السوق، فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم، فدخلوا المسجد، فقال ابن عمر فيهم نزلت: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

وأخبرنى أبو عبد الله الحسين بن محمد الدينورى قال حدثنا أبو سعيد أحمد بن عمر بن حبش الرازى قال حدثنا على بن طيفور النسائى قال حدثنا شيبة قال حدثنا قتيبة قال حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبى حجير عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن للمساجد أوتادًا الملائكة جلساؤهم يتفقدونهم، وإن مرضوا عادوهم، وإن كانوا فى حاجة أعانوهم».

وقال: «جليس المسجد على ثلاث خصال: أخ مستفاد، أو كلمة محكمة، أو رحمة منتظرة».

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾ من هوله بين طمع فى النجاة، وحذر من الهلاك.

﴿وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أى ناحية يأخذونهم؟ ذات اليمين أم ذات الشمال؟ ومن أين يؤتون كتبهم؟ أمن قبل اليمين أم من قبل الشمال؟ وذلك يوم القيامة.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعنى أنهم اشتغلوا بذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ﴾ أى بأحسن ﴿مَا عَمِلُوا﴾.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ ما لم يستحقوه بأعمالهم. ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.



﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾

ثم ضرب لأعمال الكافرين مثلاً، فقال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ وهو الشعاع الذى نراه نصف النهار فى البرارى عند شدة الحر كأنه ماء، فإذا قرب منه الإنسان أنفش فلم ير شيئًا. وسمى سرابًا لأنه ينسرب أى يجرى كالماء.

﴿بِقِيعَةٍ﴾ وهو جمع القاع مثل جار، وجيرة، والقاع: المنبسط الواسع من الأرض، وفيه يكون السراب.

﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ﴾ يظنه العطشان. ﴿مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ يعنى ما قدّر أنه ماء، فلم يجده على ما قدّر. وقيل: معناه: جاء موضع السراب فاكتفى بذكر السراب من موضعه، كذلك الكافر يحسب أن عمله مغنٍ عنه أو نافعه شيئًا فإذا أتاه الموت واحتاج إلى عمله، لم يجد عمله أغنى عنه شيئًا ولا نفعه. ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾ أى وجد الله بالمرصاد عند ذلك. ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ جزاء عمله. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾

وهذا مَثَل آخر ضربه الله تعالى لأعمال الكفار أيضًا يقول: مثل أعمالهم فى خطاياها، وفسادها، وضلالتهم، وجهالتهم، وحيرتهم فيها كظلمات. ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ وهو العميق

الكثير الماء، وذلك أشد ظلمة ولجة البحر معظمه. ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ يعلوه. ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ متراكم. ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ قرأ ابن كثير برواية ابن النبال والفلنجى سحاب: بالرفع والتنوين، ظلمات: الجر على البدل من قوله: ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾ وروى البزى عنه: سحاب ظلمات بالإضافة: وقرأ الآخرون سحاب، ظلمات كلاهما بالرفع والتنوين، وتمام الكلام عند قوله: ﴿سَحَابٌ﴾.

ثم ابتدأ فقال: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة السحاب، وظلمة الموج، وظلمة البحر.

قال المفسرون: أراد بالظلمات أعمال الكافر، وبالبحر اللجى قلبه.

وبالموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب: الرين، والختم، والطبع على قلبه. قال أُبىّ بن كعب فى هذه الآية: الكافر يتقلب فى خمس من الظلم، فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار.

﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾ يعنى الناظر. ﴿يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أى لم يكد يراها من شدة الظلمات.

وقال الفراء: كاد صلة أى لم يرها كما تقول ما كدت أعرفه، وقال المبرد: يعنى لم يرها إلاّ بعد الجهد كما يقول القائل: ما كدت أراك من الظلمة، وقد رآه ولكن بعد بأس وشدة. وقيل معناه: قرب من الرؤية، ولم ير كما يقال: كاد العروس يكون أميراً وكاد النعام يطير.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ يعنى من لم يهده الله فلا إيمان له.

قال مقاتل: نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية، كان يلتمس الدين فى الجاهلية ولبس المسوح، ثم كفر فى الإسلام.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد بن إبراهيم العدل قال حدثنا أبو الحسين محمد ابن منصور الواعظ قال: حدثنا أبو عمر محمد ابن عبد الواحد الزاهد قال حدثنا محمد بن يونس الكديمى قال حدثنا عبد الله بن عائشة قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلقنى من نوره، وخلق أبا بكر من نورى، وخلق عمر وعائشة من نور أبى بكر، وخلق المؤمنين من أمتى من الرجال من نور عمر، وخلق المؤمنات من أمتى من النساء من نور عائشة، فمن لم يحبنى، ويحب أبا بكر، وعمر، وعائشة، فما له من نور»؛ فنزل عليه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [1].

---

(١) هذا خبر لا يصح ففى إسناده محمد بن يونس الكديمى وقد اتهموه بوضع الحديث، ومتن الحديث يدل على وضعه انتصاراً لأبى بكر وعمر وعائشة رضى الله عنهم أجمعين.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ (أجنحتهن فى الهواء). ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ قال المفسرون: الصلاة لبنى آدم والتسبيح عام لغيرهم من الخلق، وفيه وجوه من التأويل:

أحدها: كل مصل ومسبح قد علم الله صلاته وتسبيحه.

والثانى: كل مُسبح ومصلٍّ منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه الذى كلفه الله وقد علم كل منهم صلاة الله من تسبيحه. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى تقديرها وتدبير أمورها، وتصريف أحوالها كما يشاء. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى﴾ يسوق. ﴿سَحَابًا﴾ إلى حيث يريد. ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أى يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها إلى بعض، والسحاب جمع، وإنما ذكر الكناية على اللفظ. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ متراكما بعضه فوق بعض. ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ وسطه، وهو جمع خلل. وقرأ ابن عباس، والضحاك: من خلله.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ أى البرد، و﴿مِنْ﴾ صلة. وقيل: معناه: وينزل من السماء قدر جبال أو مثال جبال من برد إلى الأرض. وَ: (مِنْ) الأولى: للغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء، والثانية: للتبعيض لأن البرد بعض الجبال التى فى السماء. والثالثة: لتبيين الجنس لأن جنس تلك الجبال جنس البرد. ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أى بالبرد. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيهلكه، ويهلك زروعه وأمواله، ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ أى ضوء برق السحاب. ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ من شدة ضوئه وبريقه. وقرأ أبو جعفر: يُذهِب بضم الياء وكسر الهاء من الذهاب.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يصرفهما فى اختلافهما وتعاقبهما. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكرت من هذه الأشياء ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لذوى العقول.

أخبرنى ابن فنجويه حدثنا أبو بكر بن مالك القطيعى قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثنا أبى قال حدثنا سفيان عن الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر أقلب الليل والنهار».



﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ

وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ خالق على الاسم كوفى غير عاصم. والباقون ﴿خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ على الفعل. ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ أى من نطفة. وقيل: إنما قال: ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ لأن أصل الخلق من الماء، ثم قلب بعض الماء إلى الريح فخلق منها الملائكة، وبعضه إلى النار فخلق منه الجن، وبعضه إلى الطين، فخلق منه آدم[1].

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كالحيات، والحيتان. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالطير. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ قوائم كالأنعام والوحوش والسباع ولم يذكر ما يمشى على أكثر من أربع لأنه كالذى يمشى على أربع فى رأى العين.

﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ كما يشاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ يعنى المنافقين. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم

---

(١) هذا تأويل بالرأى عار من الدليل وإنما الدين بالدليل والحجة من قول صريح من كتاب الله سبحانه أو قول صحيح عن رسول الله ﷺ وإذ لم يأت قائله بشىء من ذلك فلا يقبل مثل قوله هذا إذ إن هذا من علم ربى سبحانه حجبه عن خلقه لحكمة يعلمها.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾ ويدعو إلى غير حكم الله .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ نزلت هذه الآيات فى بشر المنافق وخصمه اليهودى حين اختصما فى أرض ، فجعل اليهودى يجره إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما ، وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف ، ويقول : إن محمداً ليحيف علينا ، فذلك قوله : ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ الرسول بحكم الله . ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾ مطيعين منقادين لحكمه . ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ يعنى أنهم كذلك ، فجاء بلفظ التوبيخ ليكون أبلغ فى الذم كقول جرير فى المدح :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

يعنى أنتم كذلك .

﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ أى يظلم . ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بإعراضهم عن الحق ، والواضعون الحاكمة فى غير موضعها .

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أى إلى كتاب الله . ﴿وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ نصب القول على خبر كان ، واسمه فى قوله : ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أينما كنت نكن معك إن أقمت أقمنا وإن خرجت خرجنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا ، فقال الله سبحانه ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ أى هذه طاعة القول واللسان دون الاعتقاد ، فهى معروفة منكم بالكذب إنكم تكذبون فيها ، وهذا معنى قول مجاهد . وقيل معناه : طاعة معروفة أمثل وأفضل من هذا القسم الذى يحنثون فيه .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من طاعتكم ، ومخالفتكم .

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن طاعة الله ورسوله والإذعان لحكمه . ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ﴾ أى على الرسول . ﴿مَا حُمِّلَ﴾ كلف وأمر به من تبليغ الرسالة . ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ . من طاعته ومتابعته . ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ .

سمعت أبا بكر محمد بن أحمد بن عقيل الوراق فى آخرين قالوا : سمعنا أبا عمرو إسماعيل بن نجيد السلمى يقول : سمعت أبا عثمان سعيد بن إسماعيل الجيزى يقول : من أَمَّرَ السُّنَّةَ على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أَمَّرَ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لقول الله سبحانه : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ .

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ إنما أدخل اللام لجواب اليمين المضمر لأن الوعد قول مجازها، وقال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ والله ليستخلفنهم فى الأرض ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم فيجعلهم ملوكها وساستها وسكانها.

﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يعنى بنى إسرائيل إذ أهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم وقراءة العامة: كما استخلف بفتح التاء، واللام لقوله سبحانه: ﴿وَعَدَ﴾ وقوله: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾.

وروى أبو بكر عن عاصم بضم التاء، وكسر اللام على مذهب ما لم يسم فاعله.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾ وليوطئن. ﴿لَهُمۡ دِينَهُمُ﴾ ملتهم التى ارتضاها لهم وأمرهم بها. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ قرأ ابن كثير وعاصم ويعقوب بالتخفيف، وهو اختيار أبى حاتم. وقرأ غيرهم بالتشديد وهما لغتان، وقال بعض الأئمة: التبديل: تغير حال إلى حال، والإبدال: رفع شيء وجعل غيره مكانه. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ﴾ بهذه النعمة. ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني وآثر الكفر بالله. ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَـٰسِقُونَ﴾.

روى الربيع عن أبى العالية فى هذه الآية قال: مكث النبى ﷺ عشر سنين خائفًا يدعو إلى الله سرًا وعلانية، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة فمكث بها هو وأصحابه خائفين يصبحون فى السلاح ويمسون فيه، فقال رجل: ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح، فقال النبى ﷺ: «لا تغبرون إلاّ يسيرًا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيًا ليس فيه حديدة».

وأنزل الله سبحانه هذه الآية، فأنجز الله وعده وأظهره على جزيرة العرب فأمنوا ثم تجبروا وكفروا بهذه النعمة، وقتلوا عثمان بن عفان، فغير الله سبحانه ما بهم، وأدخل الخوف الذى رفعه عنهم.

وقال مقاتل: لما رجع النبى ﷺ من الحديبية حزن أصحابه فأطعمهم الله نخل خيبر، ووعدهم أن يدخلوا العام المقبل مكة آمنين، وأنزل هذه الآية.

قلت: وفيها دلالة واضحة على صحة خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه وإمامة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم.

روى سعيد بن جهمان عن سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة من بعدى ثلاثون، ثم يكون ملكًا».

قال سفينة: أمسك خلافة أبى بكر سنتين، وعمر عشرًا وعثمان ثنتى عشرة، وعلى ستة.

وأخبرنا أبو عبد الله عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد الطبرانى بها قال أخبرنا شافع بن

محمد قال حدثنا ابن الوشاء قال حدثنا ابن إسماعيل البغدادى قال حدثنا محمد بن الصباح قال حدثنا هشيم بن بشير عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدى فى أمتى فى أربع: أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلى»[1].



﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) هذا خبر لا يصح متنه وأقل ما فى إسناده هشيم بن بشير وإن كان ثقة إلا أنه موصوف بالتدليس وقد عنعن فالخبر الوارد عنه يكون ضعيفًا فى هذه الحالة، وواضح من متنه عدم صحته وهو من الأحاديث التى دست على السنة أيام الفتن بين الطوائف الإسلامية الأولى انتصاراً لفئة من الفئات.

يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هذه قراءة العامة. وقرأ ابن عامر، وحمزة بالياء على معنى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم. ﴿مُعْجِزِينَ﴾ لأن الحسبان يتعدى إلى مفعولين. وقال الفراء: يجوز أن يكون الفعل للنبي ﷺ أي لا يحسبن محمد الكافرين معجزين. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾.

قال ابن عباس: وجه الرسول ﷺ غلامًا من الأنصار يقال له: مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك، فقال: يا رسول الله، وددت لو أن الله أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله سبحانه هذه الآية[1].

---

(١) كثيراً ما ينسب إلى سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه مثل هذه الأشياء التي يزعم أن القرآن وافقه فيها وكان عمر رضي الله عنه يعلم أكثر من النبي ﷺ أو هو أغير على دين الله من رسول الله ﷺ أو أعلم بشئون الحياة منه ﷺ حتى زعموا أن القرآن كأنه ينزل بما يوافق عمر فقالوا: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليسرع في هواك» وهذا قول لا يصح وكأن التشريع يأتي من الأدنى إلى الأعلى عمر، فالنبي، فجبريل ثم الله سبحانه وتعالى حاشا لله مع علمنا بأن عمر رضي الله عنه من خيار صحابة رسول الله ﷺ وهو ثاني الخلفاء، وأول أمراء المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين لكن الذي أرجوه هو أن ينتبه المسلم عند سياق الأخبار ويعلم أن للصحابة مكانتهم وللنبي ﷺ مكانته وأن التشريع يأتي إليه فيبلغه لهم وهم خير من ينفذ وينقاد لأمر الله وأمر رسوله ظاهرًا وباطنًا ويتمهل كثيرًا عند قراءة أحاديث الفضائل والمناقب، وليعلم بمناسبة الاستئذان أن العرب لم يكونوا همجًا كما يصور البعض لا حسّ عندهم ولا مبادئ ولا اعتبار لحقوق الآخرين ولا احترام ولا حرمة للبيوت فإن كل هذا باطل ولا أساس له من الصحة، والكل يحكي عنهم أنهم استحوا أن يتسوروا على رسول الله ﷺ داره ليقتلوه حتى لا يعيروا بذلك احترامًا لحرمة الدار وما يكون عليه صاحبها فيه من التخفف والحرية، وإنما جاء الإسلام لينظم تلك المبادئ ويضعها في إطار تشريعي منظم محكم ملزم للأفراد حتى يكون الأمر منضبطًا بضوابط شرعية حيث جاء هذا الدين ليصلح أمر الدنيا والدين فمن شئون الدنيا المحافظة على حرية وحرمة الآخرين والمحافظة على أسرارهم وخصوصياتهم وقد يكون هناك سبب لنزول أي آية، وقد لا يكون هناك سبب وتنزل الآية لتعلم المسلمين شئون حياتهم فليس إلزامًا أن يكون هناك سبب مباشر يحاول المفسر أن يلصقه بالآية ممن لا خبرة لهم بالتفسير أو من أصحاب الأهواء والله أسأل لي ولكم الهداية إلى الصواب إنه كريم تواب.

وقال مقاتل: نزلت في أسماء بنت مرثد، كان لها غلام كبير قد دخل عليها في وقت كرهته، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها، فأنزل الله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ اللام لام الأمر. ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ يعني العبيد والإماء ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ من الأحرار. ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ في ثلاثة أوقات. ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ للقائلة.

﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ روى عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم فإن الله سبحانه قال: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ وإنما العتمة عتمة الإبل»، وإنما خصّ هذه الأوقات لأنها ساعات الغفلة والخلوة ووضع الثياب والكسوة، فذلك قوله سبحانه: ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾

قرأ أهل الكوفة: ثلاث بالنصب ردًا على قوله: ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾. ورفعه الآخرون على معنى هذه ثلاث عورات. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني العبيد، والخدم، والأطفال. ﴿جُنَاحٌ﴾ على الدخول بغير إذن. ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد هذه الأوقات الثلاثة. ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ أي هم طوافون. ﴿عَلَيْكُم﴾. يدخلون ويخرجون، ويذهبون ويجيئون ويترددون في أحوالهم وأشغالهم بغير إذن. ﴿بَعْضُكُمْ﴾ يطوف. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ اختلف العلماء في حكم هذه الآية: فقال قوم: هو منسوخ لا يعمل به اليوم(١).

أخبرنا أبو محمد الرومي قال: أخبرنا أبو العباس السراج قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا عبد العزيز عن عمرو عن عكرمة: أن نفرًا من أهل العراق قالوا لابن عباس: كيف ترى هذه الآية؟ أُمرنا فيها بما أُمرنا فلا يعمل بها أحد، قول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ الآية. فقال ابن عباس: إن الله رفيق حليم رؤوف رحيم يحب الستر، وكان الناس ليست لبيوتهم ستور ولا حجال، فربما دخل الخادم والولد والرجل على أهله، فأمرهم الله سبحانه وتعالى بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله بالستور والخير، فلم أر أحدًا يعمل بذلك، وقال آخرون: هي محكمة والعمل بها واجب.

روى سفيان عن موسى بن أبي عائشة قال: سألت الشعبي عن هذه الآية: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ قلت: أمنسوخة هي؟ قال: لا، والله ما نسخ. قلت: إن الناس لا يعملون بها. قال: الله المستعان.

---

(١) يرى من لا يقر أمر النسخ في القرآن بأن مثل هذه الأقوال إن صحت فإنما هي نوع من التدرج في التشريع وليس نسخًا، ويرى آخرون أن مثل هذه الأحوال والأحكام يتحول بتحول الحال، والله أعلم.

وروى أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير فى هذه الآية قال: إن ناسًا يقولون نُسخت، والله ما نُسخت ولكنها مما يتهاون به الناس.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ﴾ أى من أحراركم. ﴿ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ فى جميع الأوقات فى الدخول عليكم. ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعنى الأحرار الكبار.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعنى اللاتى قعدن عن الولد من الكِبَر فلا يحضن ولا يلدن، واحدتها قاعدة.

﴿ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يطمعن فى التزوج ويئسن من البعولة.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ عند الرجال، يعنى جلابيبهن والقناع الذى فوق الخمار والرداء الذى يكون فوق الثياب، يدل على هذا التأويل قراءة أُبى بن كعب: أن يضعن من ثيابهن. ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ﴾ يعنى من غير أن يردن بوضع الجلباب والثياب أن ترى زينتهن. والتبرج هو: أن تظهر المرأة [من][1] محاسنها مما ينبغى لها أن تستره.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ فيلبسن جلابيبهن ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية، وحكمها: فقال ابن عباس: لما أنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ (النساء: ٢٩) تحرج المسلمون عن مواكلة المرضى، والزمنى، والعمى، والعرج، وقالوا: الطعام أفضل الأموال وقد نهانا الله سبحانه وتعالى عن أكل المال بالباطل، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام، والمريض لا يستوفى الطعام، فأنزل الله سبحانه هذه الآية. وعلى هذا التأويل تكون على بمعنى فى يعنى ليس عليكم فى مواكلة الأعمى والأعرج والمريض حرج.

وقال سعيد بن جبير، والضحاك، ومقسم: كان العرجان والعميان يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يتقززون منهم، ويكرهون مؤاكلتهم، وكان أهل المدينة لا يخالطهم فى طعامهم أعمى ولا أعرج ولا مريض تقززًا، فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية ترخيصًا للمرضى، والزمنى فى الأكل من بيوت من سمى الله سبحانه فى هذه الآية. وذلك أن قومًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم، أى بعض من سمى الله فى هذه الآية فكان أهل الزمانة يتخوفون من أن يطعموا ذلك الطعام لأنه أطعمهم غير مالكيه، ويقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

---

(١) السياق يقتضيها.

وروى عبد الرزاق عن معمر قال سألت الزهرى عن هذه الآية، فقال: أخبرنى عبيد الله بن عبد الله أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون: قد أحللناكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك، يقولون: لا ندخلها وهم غُيّب، فأنزلت هذه رخصة لهم.

قال الحسن، وابن زيد: يعنى ليس على ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ فى التخلف عن الجهاد فى سبيل الله قال: وهاهنا تمام الكلام.

وقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية. كلام منقطع عما قبله.

قال ابن عباس: تحرّج قوم عن الأكل من هذه البيوت لما نزل قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ (النساء: ٢٩) وقالوا: لا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فأنزل الله سبحانه هذه الآية: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

قال ابن عباس: عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من خير ماشيته. وقال الضحاك: يعنى من بيوت عبيدكم ومماليككم.

وقال مجاهد: من بيوت أنفسكم مما اختزنتم وملكتم، وقرأ سعيد بن جبير: مَلّكتم بالتشديد.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية فى الحارث بن عمرو، خرج مع رسول الله ﷺ غازيًا وخلف مالك بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهودًا فسأله عن حاله فقال: تحرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك، فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والتحرج من طعامه بغير استئذان بهذه الآية.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ﴾

قال قوم: نزلت فى حىّ من كنانة يقال لهم بنو ليث بن عمرو، كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده، فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح والسول حفل والأحوال منتظمة تحرج من أن يأكل وحده فإذا أمسى ولم يجد أحدًا أكل، فأنزل الله سبحانه هذه الآية. وهذا قول قتادة، والضحاك، وابن جريج، ورواية الوالبى عن ابن عباس.

وروى عطاء الخراسانى عنه أنه قال: كان الغنى يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته

فيدعوه إلى طعامه، فيقول: والله إنى لأجنح أن آكل معه، أى أتحرج - وأنا غنى وأنت فقير، فنزلت هذه الآية.

وقال عكرمة، وأبو صالح: نزلت فى قوم من الأنصار، كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلاّ مع ضيفهم، فرخص لهم فى أن يأكلوا حيث شاءوا جميعا مجتمعين أو أشتاتًا متفرقين.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أى ليسلم بعضكم على بعض كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (النساء: ٢٩).

عن الحسن، وابن زيد: حدثنا ابن حبيب لفظًا فى شهور سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة قال: حدثنا أبو حاتم محمد بن حبان البُستى قال حدثنا محمد بن صالح الطبرى قال حدثنا الفضل ابن سهل الأعرج قال حدثنا محمد بن جعفر المدائنى قال حدثنا ورقاء عن الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «السلام اسم من أسماء الله تعالى فأفشوه بينكم، فإن الرجل المسلم إذا مَرّ بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه السلام كان له عليهم فضل درجة بذكره إياهم بالسلام فإن لم يردوا عليه ردّ عليه من هو خير منهم وأطيب».

وحدثنا أبو القاسم قال أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن العباس البغوى قال حدثنا أبو محمد عبد الملك بن محمد بن عبد الوهاب البغوى قال حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرنى ابن سمعان أن سعيد المقبرى أخبره عن أبيه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا وقف أحدكم على المجلس فليسلم، فإن بدا له أن يقعد فليقعد، وإذا قام فليسلم، فإن الأولى ليست بأحق من الآخرة».

وقال بعضهم معناه: فإذا دخلتم بيوت أنفسكم فسلموا على أهلكم وعيالكم وهو قول جابر بن عبد الله، وطاووس، والزهرى، وقتادة، والضحاك، وعمرو بن دينار، ورواية عطاء الخراسانى عن ابن عباس قال: فإن لم يكن فى البيت أحد فليقل السلام علينا من ربنا، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله.

حدثنا ابن حبيب لفظًا قال حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى بن كعب العدل إملاءً قال حدثنا أبو نصر اليسع بن زيد بن سهل الرسى بمكة سنة اثنتين ومائتين قال حدثنا سفيان بن عيينة عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: خدمت رسول الله ﷺ، فما قال لى لشىء فعلته لمَ فعلته، ولا قال لى لشىء كسرته لمَ كسرته، وكنت واقفًا على رأسه أصب على يديه الماء، فرفع رأسه فقال: «ألا أعلمك ثلاثَ خصال تنتفع بها»؟ قلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله، بلى، قال: «من لقيت من أمتى فسلم عليه يطل عمرك وإذا دخلت على أهل بيتك

فسلم عليهم يكثر خير بيتك، وصلِّ صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار».

قال بعضهم: يعنى فإذا دخلتم المساجد فسلموا على من فيها.

أخبرنا أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون قال أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد قال حدثنا محمد بن عبد الله بن مهل الصنعانى قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن عمرو بن دينار عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية.

قال: إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾: نصب على المصدر، أى تحيون أنفسكم بها تحية. وقيل: على الحال، بمعنى تفعلونه تحية من عند الله. ﴿مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ أى مع رسول الله ﷺ ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يجمعهم من حرب حضرت أو صلاة فى جمعة أو جماعة أو تشاور فى أمر نزل. ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا﴾ لم يتفرقوا عنه، ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر. ﴿حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ يا محمد. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ﴾.

أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا محمد بن خلف قال حدثنا إسحاق بن محمد، قال حدثنا أبى قال حدثنا إبراهيم بن عيسى قال حدثنا على بن على عن أبى حمزة الثمالى فى هذه الآية قال: هو يوم الجمعة، وكان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة، وأراد الرجل أن يقضى الحاجة، والرجل به العلة لم يخرج من المسجد حتى يقوم بحيال رسول الله ﷺ حيث يراه، فيعرف رسول الله ﷺ أنه إنما قام ليستأذن، فيأذن لمن شاء منهم.

﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أمرهم. ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فى الانصراف. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾

قال ابن عباس يقول: احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه فإن دعاءه موجب ليس كدعاء غيره.

وقال مجاهد، وقتادة، لا تدعوه كما يدعو بعضكم بعضًا: يا محمد، ولكن فخموه، وشرفوه، وقولوا يا نبى الله، يا رسول الله فى لين وتواضع.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ أى يخرجون ومنه تسلل القطا ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المنصرفون عن نبيكم بغير إذنه. ﴿لِوَاذًا ۚ﴾ أى يستتر بعضكم ببعض، ويروغ فى خفية فيذهب. واللواذ مصدر لاوذ بفلان يلاوذ ملاوذة ولواذا، ولو كان مصدر للذات لقال: لياذا مثل القيام والصيام.

وقيل: إن هذا في حفر الخندق، كان المنافقون ينصرفون بغير أمر رسول الله ﷺ لواذًا مختفين.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي أمره، ﴿عَنْ﴾ صلة. وقيل: معناه: تعرضون على أمره، وتنصرفون عنه بغير إذنه. ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي قتل، عن ابن عباس. وقال عطاء: الزلازل، والأهوال، وقال جعفر بن محمد: سلطان. وقال جابر: يسلط عليهم. وقال الحسن: بلية تظهر ما (في) قلوبهم من النفاق. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وجيع عاجل في الدنيا.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عبيداً وملكًا ومُلْكًا، وخلقًا. ودلالة على وجوده وتوحيده وكمال قدرته وحكمته.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [1].



(١) جاء بهامش المخطوط تعليق مقابلة نصه: تمت المجلدة السابعة وقوبل بالأصل.

سورة الفرقان

مكية[١] وهى ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثة وثلاثون حرفًا
وثمانمائة واثنتان وتسعون كلمة وسبع وسبعون آية

أخبرنا أبو الحسن على بن محمد بن الحسن المقرئ غير مرة قال حدثنا الإمام أبو بكر أحمد ابن إبراهيم الإسماعيلى، والحافظ أبو الشيخ عبد الله بن محمد الأصفهانى قالا: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن شريك قال حدثنا أحمد بن يونس قال حدثنا سلام بن سليم قال حدثنا هارون بن كثير عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى أمامة عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفرقان بعث يوم القيامة وهو يؤمن أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور، ودخل الجنة بغير حساب».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ

(١) قال القرطبى: مكية كلها فى قول الجمهور.
وقال ابن عباس وقتادة: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة وهى: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر﴾ إلى قوله: ﴿وكان الله غفوراً رحيمًا﴾.
وقال الضحاك: هى مدنية وفيها آيات مكية قوله: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر﴾ الآيات.

فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَ ٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝»

﴿تَبَارَكَ﴾: تفاعل من البركة.

عن ابن عباس: كأن معناه جاء بكل بركة. دليله قول الحسن: تجيء البركة من قبله، وقال الضحاك: تعظم. وقال الخليل: تمجد، وأصل البركة النماء والزيادة.

وقال المحققون: معنى هذه الصفة: دام بما لم يزل ولا يزال. وأصل البركة: الدثور، يقال: برك الطير على الماء، وبرك البعير، ويقال: تبارك الله، ولا يقال: متبارك أو مبارك، لأنه ينتهى في صفاته وأسمائه إلى حيث ورد التوقيف.

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾: القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾: الجن والإنس ﴿نَذِيرًا﴾: قال بعضهم: النذير هو القرآن. وقيل: هو محمد ﷺ.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَ ٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾: مما يطلق عليه صفة المخلوق ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾: فسواه وهيأه لما يصلح له فلا خلل فيه ولا تفاوت.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾: يعني عبدة الأوثان ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: يعني النضر بن الحارث وأصحابه ﴿إِنْ هَـٰذَآ﴾: ما هذا القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: اختلقه محمد ﷺ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾: يعني اليهود، عن مجاهد.

وقال الحسن بن عبيد بن الخضر الحبشي: الكهان. وقيل: جبر، ويسار، وعدّاس مولى حويطب بن عبد العزى.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾: يعني قائلي هذه المقالة.

﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾: بنسبتهم كلام الله سبحانه إلى الإفك والافتراء ﴿وَقَالُوٓا۟﴾: أيضًا ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾: تقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

ثم قال سبحانه وتعالى ردًا عليهم وتكذيبًا لهم ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَ ٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾: يعنون محمدًا ﷺ ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾: كما

نأكل ﴿وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ : يلتمس المعاش ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ : يصدقه ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ : داعيًا ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ : ينفقه فلا يحتاج إلى التصرف فى طلب المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ : بستان ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ : هو، هذه قراءة العامة. وقرأ حمزة، والكسائى، وخلف بالنون، أى نأكل نحن.

﴿وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ : نزلت هذه الآية فى قصة ابن أبى أمية، وقد مَر ذكرها فى بنى إسرائيل.

﴿ٱنظُرْ﴾ : يا محمد. ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ : إلى الهدى ومخرجًا من الضلالة، فأخبر الله أنهم متمسكون بالجهل والضلال، عادلون عن الرشد والصواب، وهم مع ذلك كانوا مكلفين بقبول الحق فثبت أن الاستطاعة التى يفعل بها الضلال غير الاستطاعة التى يحصل بها الهدى والإيمان.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ : أى مما قالوا، عن مجاهد. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: يعنى خيراً من المشى فى الأسواق والتماس المعاش، ثم بَيَّن ذلك الخير ما هو فقال سبحانه وتعالى: ﴿جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ أى بيوتًا مشيدة، وسمى قصراً لأنه قَصرَ أى حبس ومنع من الوصول إليه. واختلف القراء فى قوله: ﴿وَيَجْعَل﴾ فرفع لاَمَهُ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم برواية أبى بكر، والمفضل، وجزمه الآخرون على محل الجزاء فى قوله: ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ﴾.

وقال أبو عمر أحمد بن أبى أحمد بن حمدون النيسابورى قال أخبرنا عبد الله بن محمد بن يعقوب البخارى قال حدثنا محمد بن حميد بن فروة البخارى قال حدثنا أبو حذيفة إسحاق بن بشر البخارى قال حدثنا جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: لما عَيّر المشركون محمداً ﷺ بالفاقة، فقالوا: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ حزن النبى ﷺ لذلك، ونزل جبريل عليه من عند ربه معزيًا له، فقال: السلام عليك يا رسول الله ورب العزة يقرئك السلام ويقول لك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٢٠) ويتبعون المعاش فى الدنيا.

قال: فبينا جبريل والنبى ﷺ يتحدثان إذ ذاب جبريل حتى صار مثل الهردة، فقيل: يا رسول الله، وما الهردة؟ قال: «العدسة». فقال رسول الله ﷺ: «يا جبريل ما لك ذبت حتى صرت مثل الهردة»؟ قال: يا محمد: فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك فتحول الملك، وأنه إذا فتح باب من السماء لم يكن فتح قبل ذلك فتحول الملك إما أن يكون رحمة أو

عذابًا، وإنى أخاف أن يعذب قومك عند تعييرهم إياك بالفاقة فأقبل النبى وجبريل عليهما السلام يبكيان إذ عاد جبريل: فقال: يا محمد، أبشر هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضى من ربك، فأقبل رضوان حتى سلم، ثم قال: يا محمد رب العزة يقرئك السلام، ومعه مسقط من نور يتلألأ، ويقول ربك: هذا مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينقص لك مما عندى فى الآخرة مثل جناح بعوضة. فنظر النبى ﷺ إلى جبريل عليه السلام كالمستشير له، فضرب جبريل بيده الأرض وقال: تواضع لله، فقال: «يا رضوان لا حاجة لى فيها الفقر أحب إلىّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً» فقال رضوان: أصبت أصاب الله بك.

وجاء نداء من السماء: فرفع جبريل رأسه إلى السموات قد فتحت أبوابها إلى العرش، وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى جنة عدن أن تُدلى غصنًا من أغصانها عليه عذق عليه غرفة من زبرجدة خضراء لها سبعون ألف من ياقوته حمراء. فقال جبريل: يا محمد، ارفع بصرك، فرفع فرأى منازل الأنبياء وغرفهم، وإذا منازله فوق منازل الأنبياء، فضلاً له، خاصة ومناد ينادى: أرضيت يا محمد، فقال النبى ﷺ: «رضيت، فاجعل ما أردت أن تعطينى فى الدنيا ذخيرة عندك فى الشفاعة يوم القيامة».

ويرون أن هذه الآية، أنزلها رضوان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.



﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ

ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ : أى غليانًا وفورانًا كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب ﴿وَزَفِيرًا﴾ : ومعنى قوله ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ أى صوتًا كالتغيظ من التلهب والتوقد. قال قطرب: التغيظ لا يُسمع وإنما المعنى رأوا لها تغيظًا، وسمعوا لها زفيراً. قال الشاعر:

رأيت زوجك فى الوغى ... متقلداً سيفًا ورمحا

أى حاملاً رمحًا.

أخبرنى أبو عبد الله بن فنجويه قال حدثنا أبو بكر ابن خرجة قال حدثنا أبو جعفر بن أبى شيبة قال حدثنا عمى أبو بكر قال حدثنا محمد بن يزيد عن الأصبغ بن زيد الوراق عن خالد بن كثير عن خالد بن دريك عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذب عَلَىّ متعمدًا فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدًا» فقال: يا رسول الله، وهل لها من عينين؟ قال: «نعم ألم تسمع إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾»(1).

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾: قال ابن عباس: يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح.

وأخبرنى الحسين بن محمد بن الحسين الثقفى قال حدثنا الفضل بن الفضل الكندى قال حدثنا عبد الرحمن بن أبى حاتم قال: قرأ على يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرنا نافع عن يحيى بن أبى أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أنه سئل عن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾: قال: «والذى نفسى بيده إنهم يستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط».

مقرنين: مصفدين قد قربت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال، ومنه قيل للحبل: قرن. وقيل: مع الشياطين فى السلاسل والأغلال.

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾: ويلاً، عن ابن عباس. هلاكًا، عن الضحاك.

وروى حماد عن على بن زيد عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «أول من يكسى حُلّة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه فيسحبها من خلفه، وذريته من خلفه، وهو يقول يا ثبورا، وهم ينادون: يا ثبورهم، حتى يصفوا على النار، فيقال لهم:

---

(1) هذا حديث غير صحيح لجهالة أحد رواته وعلل حديثية أخرى.

﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ۝ قُلۡ أَذَٰلِكَ﴾ : الذى ذكر من صفة النار وأهلها ﴿خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ۝ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ : وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم ذلك فى الدنيا حين قالوا : ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ (آل عمران : ١٩٤) فقال الله سبحانه : ﴿كَانَ﴾ [1] [وعد] [2] الله المؤمنين جنة الخلد وعداً وعدهم على طاعته إياه فى الدنيا ومسألتهم إياه ذلك .

وقال بعض أهل العربية يعنى وعداً واجبًا ، وذلك أن المسئول واجب ، وإن لم يُسأل كالذين قالوا ، ونظير ذلك قول العرب : لأعطينك ألفًا وعداً مسئولاً . بمعنى أنه واجب لك تَسْأَلُهُ .

أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا أبو على بن حبش المقرئ قال حدثنا أبو القاسم بن فضل المقرئ قال حدثنا على بن الحسين قال حدثنا جعفر بن سافر قال حدثنا يحيى بن حسان قال حدثنا رشد بن عمرو بن الحارث عن محمد بن كعب القرظى فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾

قال : الملائكة تسأل لهم ذلك قولهم : ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ (غافر : ٨) .

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ [3] (قرأها) بالياء أبو جعفر ، وابن كثير ويعقوب ، وأيوب ، وأبو عبيد ، وأبو حاتم ، وحفص . (وقرأها) الباقون بالنون ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ : من الملائكة والإنس ، والجن ، عن مجاهد وقال عكرمة ، والضحاك : يعنى الأصنام ﴿فَيَقُولُ﴾ : (قرأها) بالنون ابن عامر . وقرأها غيره بالياء . لهؤلاء المعبودين من دون الله ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ : أى ما كان ينبغى لنا أن نوالى أعداءك بل أنت ولينا من دونهم . وقرأ الحسن ، وأبو جعفر : أن نُتَّخَذ ، بضم النون ، وفتح الخاء .

قال أبو عبيد : هذا لا يجوز لأن الله سبحانه ذكر ﴿مِنۡ﴾ مرتين ، ولو كان كما قالوا : لقال : أن نتخذ من دونك أولياء . وقال غيره ﴿مِنۡ﴾ الثانية صلة .

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ : فى الدنيا بالصحة والنعمة ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ : أى تركوا القرآن فلم يعملوا بما فيه . وقيل : الرسول ، وقيل : الإسلام . وقيل التوحيد . وقيل : ذكر الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أى : ﴿كان على ربك وعداً مسئولاً﴾ .

(٢) زيادة يتطلبها السياق .

(٣) فى المخطوط : (نحشرهم) فحولت إلى ما هو فى مصحف حفص المطبوع والمتداول فيلاحظ أن شرح المؤلف على ما كان فى المخطوط ، لا على ما رسمت .

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ : أى هلكى، قد غلبت عليهم الشقاية. والخذلان. قال الحسن، وابن زيد: البور الذى ليس فيه من الخير شىء قال أبو عبيد: وأصله من البوار، وهو الكساد والفساد. ومنه بوار الأمم، وبوار السلع، وهو اسم مصدر، كالزور يستوى فيه الواحد، والاثنان، والجمع، والمؤنث، والمذكر، قال ابن الزبعرى:

يا رسول المليك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور

وقيل: هو جمع البائر، ويقال: أصبحت منازلهم بوراً أى خالية لا شىء فيها. فيقول الله سبحانه لهم عند تبرى المعبودين منهم ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ : أنهم كانوا آلهة ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ [١] : قرأه العامة: بالياء، يعنى الآلهة. وقرأ حفص بالتاء: يعنى العابدين ﴿صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ : أى صرف العذاب عنهم، ولا نصر أنفسهم.

وقال يونس: الصرف، الحيلة ومنه قول العرب: إنه لينصرف أى يحتال.

قال الأصمعى: الصرف، التوبة، والعدل الفدية.

﴿وَمَن يَظْلِم﴾ : أى يشرك ﴿مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ : يا محمد ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ﴾ : قال أهل المعانى: إلاّ قيل: إنهم ﴿لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ : دليله قوله سبحانه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ (فصلت:٤٣). وقيل: معناه: إلا من أنهم، وهذا جواب لقول المشركين: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٧).

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ : فالمريض فتنة للصحيح، والمبتلى فتنة للمعافى والفقير فتنة للغنى، فيقول السقيم: لو شاء الله لجعلنى صحيحاً مثل فلان ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلنى غنيًا مثل فلان. وقال ابن عباس: إنى جعلت بعضكم بلاء بعض، لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى بغير أن أعطيهم عليه الدنيا، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون لفعلت، ولكن قدرت أن أبتلى العباد بكم وأبتليكم بهم.

أخبرنا أبو القاسم عبد الخالق بن على قال أخبرنا أبو بكر محمد بن يوسف ببخارى قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن جمعان قال: حدثنا محمد بن موسى قال: حدثنا القاسم بن يحيى عن الحسن بن دينار عن الحسن عن أبى الدرداء يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للعالم من الجاهل وويل للجاهل من العالم، وويل للمالك من المملوك وويل للمملوك من المالك وويل للشديد من الضعيف، وويل للضعيف من الشديد، وويل للسلطان من الرعية، وويل للرعية من السلطان بعضهم لبعض فتنة فهو قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ

(١) فى المخطوط بالياء، وأثبت ما فى مصحف حفص فيلاحظ ذلك فى شرح المؤلف.

لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾».

﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾: قال مقاتل: نزلت هذه الآية فى أبى جهل والوليد بن عقبة والعاص بن وائل والنضر بن الحارث وذلك أنهم لما رأوا أبا ذر، وابن مسعود، وعمارًا، وبلالاً، وصهيبًا، وعامر بن فهيرة، ومهيج مولى عمر، وجبر غلام الحضرمى، ودونهم قالوا: أنسلم فنكون مثل هؤلاء؟

فأنزل الله سبحانه يخاطب هؤلاء المؤمنين: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾؟ يعنى على هذه الحال من الشدة والفقر ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ لمن أبصر، ويجزع ولمن يؤمن ولمن لا يؤمن.



﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فتخبرنا أن محمداً ﷺ صادق ومحق ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾: فيخبرنا بذلك. نظيرها قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٩٢) قال الله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: بهذه المقالة ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾: قال مقاتل: غلوا فى القول، والعتو أشد الكفر والفحش الظلم.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: عند الموت فى القيامة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾: الكافرين

﴿وَيَقُولُونَ﴾: يعنى الملائكة للمجرمين ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أى حرامًا محرمًا عليكم. البشرى الخير. وقيل: حرام عليكم الجنة. وقال بعضهم: هذا قول الكفار للملائكة. قال ابن جريج كانت العرب إذا نزلت بهم شديدة أو رأوا ما يكرهون قالوا: حجراً محجوراً، فقالوا حين عاينوا الملائكة هذا. وقال مجاهد: يعنى عوذًا معاذًا يستعيذون من الملائكة.

﴿وَقَدِمْنَآ﴾: وعمدنا ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾: باطلا لا ثواب له، لأنهم لم يعملوه لله سبحانه وإنما عملوه للشيطان واختلف المفسرون فى الهباء. فقال بعضهم: هو الذى يرى فى الكوى من شعاع الشمس وكالغبار ولا يمس بالأيدى ولا يرى فى الظل، وهو قول الحسن، وعكرمة، ومجاهد.

وقال قتادة، وسعيد بن جبير: هو ما تسفيه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر. وهى رواية عطاء الخراسانى عن ابن عباس. وقال ابن زيد: هو الغبار. وقال الوالبى عن ابن عباس: هو الماء المهراق. وقال مقاتل: ما يسطع من حوافر الدواب المنثور المتفرق.

﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾: من هؤلاء المشركين المفتخرين بأموالهم ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾: موضع قائلة. وهذا على التقدير. قال المفسرون: يعنى أن أهل الجنة لا يمر بهم فى الآخرة إلا قدر ميقات النهار من أوله إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم فى الجنة.

قال ابن مسعود: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء فى الجنة، وهؤلاء فى النار وقرأ: (ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم)، هكذا كان يقرؤها. وقال ابن عباس: فى هذه الآية الحساب من ذلك اليوم فى أوله، وقال القوم حين قالوا فى منازلهم فى الجنة.

وروى ابن وهب عن عمر بن الحارث: أن سعيد الصواف ـ أو الصراف ـ حدثه: أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنهم ليقيلون فى رياض الجنة حتى يفرغ من الناس، وقرأ هذه الآية.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ﴾: قرأ أبو عمرو، وأهل الكوفة بتخفيف الشين على الحذف والتخفيف ها هنا، وفى سورة (ق). وقرأ الآخرون: بالتشديد فيهما على معنى تنشق السماء بالغمام أى عن الغمام، والباء، وعن تتعاقبان كما يقال: رميت عن القوس ورميت بالقوس بمعنى واحد.

وقال المفسرون: هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن لبنى إسرائيل فى تيههم وهو الذى قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ (البقرة: ٢١٠).

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾: هكذا قراءة العامة، وقرأ ابن كثير وننزل، بنونين، الملائكة، نصبٌ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾: خالصًا، وبطلت ممالك غيره ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾: صعبًا شديدًا نظيرها قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (المدثر: ٩، ١٠) والخطاب يدل على أنه على المؤمنين يسير.

وفى الحديث: «إنه ليهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاّها فى دار الدنيا».

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾: نزلت فى عقبة بن أبى معيط، وأُبى بن خلف، وكانا متحابين، وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلاّ صنع طعامًا فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبى ﷺ فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعامًا فدعا الناس ودعا رسول ﷺ إلى طعامه، فلما قرب الطعام قال رسول الله ﷺ: «ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنى رسول الله». فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فأكل رسول الله ﷺ من طعامه. وكان أُبىّ بن خلف غائبًا، فلما أخبر بالقصة، قال: صبأت يا عقبة؟ قال: لا والله ما صبأت ولكن دخل عَلَىّ رجل فأبى أن يُطعم من طعامى إلاّ أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له فطعم.

فقال أبى: ما أنا بالذى أرضى منك أبدًا إلا أن تأتيه فتبزق فى وجهه، وتطأ عنقه. ففعل ذلك عقبة، وأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه، فقال رسول ﷺ: لا ألقاك خارجًا من مكة إلاّ علوت رأسك بالسيف». فقتل عقبة يوم بدر صبرًا، وأما أُبى بن خلف فقتله النبى ﷺ بيده يوم أُحُد فى المنابزة، وأنزل الله فيهما هذه الآية.

وقال الضحاك: لما بزق عقبة فى وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه فى وجهه وانشعب شعبتين فأحرق خدّيه، فكان أثر ذلك فيه حتى الموت.

وروى عطاء الخراسانى عن ابن عباس قال: كان أُبَىّ بن خلف يحضر النبى ﷺ ويجالسه ويستمع إلى كلامه من غير أن يؤمن به فزجره عقبة بن أبى معيط عن ذلك فنزلت هذه الآية، وقال الشعبى: وكان عقبة بن أبى معيط خليلاً لأمية بن خلف، فأسلم عقبة، فقال أمية: وجهى من وجهك حرام إن بايعت محمدًا، فكفر وارتد لرضا أمية فأنزل الله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ يعنى الكافر عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس بن مناف على يديه ندمًا وأسفًا على ما فرط فى جنب الله وأوبق نفسه بالمعصية والكفر بالله لأجل طاعة خليله الذى صده عن سبيل ربه ﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى﴾: وفتح ياءه أبو عمرو ﴿ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾: محمد

ﷺ ﴿سَبِيلًا ۝ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ : يعنى أبـىّ بن خلف الجمحى ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ : يعنى القرآن والرسول ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ : وهو كل متمرد عات من الجان، وكل من صَدّ عن سبيل الله وأطيع فى معصيته فهو شيطان ﴿لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ : عند نزول البلاء والعذاب به.

وحكم هذه الآيات عام فى كل متحابين اجتمعا على معصية الله، لذلك قال بعض العلماء أنشدنيه أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر قال: أنشدنى أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الصديق قال أنشدنا أبو وائلة عبد الرحمن بن الحسين:

تجنب قرين السـوء واصرم حباله ... فإن لم تجـد عنـه محيصًا فداره
وأحبب حبيب الصدق واحذر مرَاءَهُ ... تنل منه صفـو الود مـا لم تُماره
وفى الشيب ما ينهى الحليم عن الصِّبا ... إذا اشتعلت نيرانه فى عِـــذاره

وأنشدنى أبو القاسم الحبيبى قال أنشدنى أبو بكر محمد بن عبد الله الحامدى:

اصحب خيار الناس حيث لقيتهم ... خير الصحـابة من يكون عفيفًا
والنـاس مثل دراهـم ميزتهـا ... فوجـدت فيها فضـة وزيوفًا

وأخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر المفسر قال حدثنا أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن حسكا قال حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب قال حدثنا عبد الواحد بن زياد قال حدثنا عاصم عن أبى كبشة قال سمعت أبا موسى يقول على المنبر قال رسول الله ﷺ: «الجليس الصالح مثل العطار إن لم ينلك يعبق بك من ريحه، ومثل الجليس السوء مثل القين إن لم يحرق ثيابك يعبق بك من ريحه».

وحدثنا أبو القاسم بن حبيب لفظًا سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة قال أخبرنا أبو حاتم محمد ابن حيان بن أحمد قال أخبرنا محمد بن أبى على الخلادى قال حدثنا عبد الله بن الصقر السكرى قال حدثنا وهب بن محمد البنانى قال سمعت الحارث بن وجيه يقول سمعت مالك ابن دينار يقول: إنك إن تنقل الحجارة مع الأبرار خير من أن تأكل الخبيص مع الفُجّار.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾: يعنى ويقول الرسول فى ذلك اليوم ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾: أى قالوا فيه غير الحق، فزعموا أنه سحر وشعر وسمر من الهجر، وهو القول السيئ عن النخعى، ومجاهد.

وقال الآخرون هو من الهجران أى أعرضوا عنه وتركوه فلم يؤمنوا به، ولم يعملوا بما فيه.

أخبرنا أبو الطيب الربيع بن محمد الحاتمى وأبو نصر محمد بن على بن الفضل الخزاعى

قالا: حدثنا أبو الحسين على بن محمد بن عقبة قال حدثنا أبو القاسم الخضر بن أبان القرشى قال حدثنا أبو هدبة إبراهيم بن هدبة قال حدثنا أنس بن مالك قال قال رسول ﷺ: «من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفًا ولم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقًا به يقول: يا رب العالمين عبدك هذا اتخذنى مهجوراً اقض بينى وبينه.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أى وكما جعلنا لك يا محمد عدواً من مشركى قومك كذلك ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾: أى من مشركى قومه، فاصبر لأمرى كما صبروا فإنى هاديك وناصرك على من ناوأك.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾: على الحال والتمييز ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾: على محمد ﴿الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾: كما أنزلت التوراة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى جملة واحدة، قال الله سبحانه ﴿كَذَٰلِكَ﴾: فعلنا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾: لنقوى بها قلبك فتعيه وتحفظه فإن الكتب نزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون، والقرآن أنزل على نبى أُمِّىّ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ[1]، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور ففرقناه ليكون أوعى لرسول الله ﷺ وأيسر على العالم به.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾: قال ابن عباس: ورسلناه ترسيلا. وقال النخعى والحسن: وفرقناه تفريقًا شيئًا بعد شىء، وكان بين أوله وآخره نحواً من ثلاث وعشرين سنة. وقال ابن زيد: فسرناه تفسيراً، والمرتل البيّن فى ترسل وتبيين.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾: يا محمد يعنى هؤلاء المشركين ﴿بِمَثَلٍ﴾: فى إبطال أمرك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾: أى بما ترد به ما جاءوا به من المثل ويبطله ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾: بيانًا وتفصيلاً، ثم وصف حال المشركين وبيّن حالهم يوم القيامة فقال: ﴿الَّذِينَ﴾: يعنى هم الذين ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾: فيساقون ويجرون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

أخبرنا ابن فنجويه قال حدثنا ابن خرجة قال حدثنا الحضرمى قال حدثنا عثمان قال حدثنا بشر بن المفضل عن على بن يزيد عن أوس بن أوس عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث؛ ثلث على الدواب، وثلث على وجوههم، وثلث على أقدامهم ينسلون نسلاً».

---

(١) ذهب قوم إلى أن القرآن كله محكم وليس فيه منسوخ وهو الأرجح من الأقوال وأن الأحكام تختلف باختلاف الأحوال والأسباب والظروف فتأخذ كل آية حكم ظروفها وأحوالها وما يراه المسلمون مناسبًا لمصلحتهم، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾: **أى معينًا وظهيرًا** ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: **يعنى القبط. وفى الآية متروك استغنى عنه بدلالة الكلام عليه تقديرها فكذبوهما فدمرناهم.**

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾: **فأهلكناهم إهلاكًا** ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾: **عبرة** ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾: **فى الآخرة** ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾: **سوى ما حلَّ بهم من عاجل العذاب.**

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾: **اختلفوا فيهم: فقال ابن عباس: كانوا أصحاب آبار. وقال وهب بن منبه: كانوا أهل بئر، قعودًا عليها، وأصحاب مواش، وكانوا يعبدون الأصنام، فوجه الله إليهم شعيبًا يدعوهم إلى الإسلام فدعاهم فتمادوا فى طغيانهم وفى أذى**

شعيب، فحذرهم الله عقابه فبينا هم حول البئر بمنازلهم انهارت البئر فانخسفت بهم وبديارهم ورباعهم فهلكوا جميعًا.

وقال قتادة: الرس، قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله. وقال بعضهم: هم بقية هود قوم صالح، وهم أصحاب البئر التى ذكرها الله سبحانه فى قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ (الحج: ٤٥).

قال سعيد بن جبير، وابن الكلبى، والخليل: كان لهم نبى يقال له حنظلة بن صفوان، وكان بأرضهم جبل يقال له فتح، مصعده فى السماء ميل، وكانت العنقاء تنتابه وهى كأعظم ما يكون من الطير وفيها من كل لون. وسموها العنقاء لطول عنقها، وكانت تكون فى ذلك الجبل تنقض على الطير تأكله فجاعت ذات يوم فأعوزتها الطير، فانقضت على صبى فذهبت به . . .[1] مغرب لأنها تغرب بما تأخذه ثم إنها انقضت على جارية حين ترعرعت، فأخذتها فضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين فطارت بها فشكوا إلى نبيهم فقال: اللهم أهلكها واقطع نسلها، فأصابتها صاعقة فاحترقت فلم ير لها أثر، فضربتها العرب فى أشعارهم ثم إنهم قتلوا نبيهم، فأهلكهم الله.

وقال كعب، ومقاتل، والسدى؛ وهم أصحاب يس، والرس بئر بأنطاكية قتلوا فيها. حبيبًا النجار، فنسبوا إليها، وهم الرس، ذكرهم الله سبحانه فى سورة يس، وقيل: هم أصحاب الأخدود، والرس هو الأخدود الذى حفروه، وقال عكرمة: هم قوم رسوا نبيهم فى بئر؛ دليله ما روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة لعبد أسود، وذلك أن الله بعث نبيًا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد إلا ذلك الأسود، ثم إن أهل القرية عدوا على ذلك النبى فحفروا له بئرًا فألقوه فيه ثم أطبق عليه بحجر ضخم، وكان ذلك العبد الأسود يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتى بحطبه فيبيعه فيشترى به طعامًا وشرابًا ثم يأتى به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة يعينه الله عليها فيدلّى إليه طعامه وشرابه، ثم يردها كما كانت».

قال: «فكان كذلك ما شاء الله أن يكون ثم إنه ذهب يومًا يحتطب كما كان يصنع، فجمع حطبه وحزم حزمته، وفرغ منها، فلما أراد أن يحتملها وجد سنة، فاضطجع فنام فضرب على أذنه سبع سنين، ثم إنه هَبّ فتمطى فتحول لشقه الأخرى فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى، ثم إنه هب، فاحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار، فجاء إلى

(١) موضع النقط ثلاث كلمات لم أتبين قراءتها.

القرية فباع حزمته، ثم اشترى طعامًا وشرابًا كما كان يصنع، ثم ذهب إلى الحفرة فى موضعها التى كانت فيه، فالتمسه فلم يجده، وقد كان بدا لقومه فيه بداء، فاستخرجوه فآمنوا به وصدقوه.

قال: «فكان النبى يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل؟ فيقولون له: ما ندرى حتى قبض الله ذلك النبى، فأهب الله الأسود من نومته بعد ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة» قلت: قد ذكر فى هذا الحديث أنهم آمنوا بنبيهم واستخرجوه من حفرته. فلا ينبغى أن يكونوا المعنيين بقوله: ﴿وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر عن أصحاب الرس أنهم دمرهم تدميرًا إلاّ أن يكونوا دمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم الذى استخرجوه من الحفرة، وآمنوا به. فيكون ذلك وجهًا.

وقد ذكر عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه فى قصة أصحاب الرس ما يصدق قول عكرمة وتفسيره، وهو ما روى عن ابن الحسين بن زين العابدين عن أبيه عن على رضى الله عنه أن رجلا من أشراف بنى تميم يقال له عمرو أتاه فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن أصحاب الرس، وفى أى عصر كانوا؟ وأين كانت منازلهم؟ ومن كان ملكهم؟ وهل بعث الله سبحانه إليهم رسولاً أم لا؟ وبما أهلكوا؟ فإنى أجد فى كتاب الله سبحانه ذكرهم، ولا أجد خبرهم.

فقال له عَلىّ رضى الله عنه: لقد سألت عن حديث ما سألنى عنه أحد من قبلك ولا يحدثك به أحد بعدى.

وكان من قصتهم يا أخا تميم: أنهم كانوا قومًا يعبدون شجرة صنوبر يقال لها: شاه درخت. كان يافث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها ذوشاب كانت أنبتت لنوح عليه السلام بعد الطوفان وإنما سموا أصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم فى الأرض، وذلك قبل سليمان بن داود، وكان له اثنتا عشرة قرية فى شاطئ نهر يقال له الرس من بلاد المشرق، وبهم سمى ذلك النهر، ولم يكن يومئذ فى الأرض أعز منه ولا أعذب ولا قرى أكثر سكانًا ولا أعمر منها، وكانت أعظم مدائنهم إسفندماه وهى التى كان ينزلها ملكهم، وكان يسمى: بركوز بن عابور بن ناوش بن شارن بن نمروذ بن كنعان، وبها العين والصنوبر، وقد غرسوا فى كل قرية من ناحية من طلع تلك الصنوبرة، فنبتت الحبة وصارت شجرة عظيمة، وحرموا ماء العين والآبار فلا يشربون منها هم ولا أنعامهم، ومَن فعل ذلك قتلوه، ويقولون هى حياة آلهتنا فلا ينبغى لأحد أن يقطف من حباتها، ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرس الذى عليه قراهم، وقد جعلوا فى كل شهر من السنة فى كل قرية عيداً يجتمع إليه أهلها ويضربون على

الشجرة التى بها كلة من حرير فيها أنواع الصور، ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قربانًا للشجرة ويشعلون فيها النيران بالحطب، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقتارها فى الهواء وحال بينهم وبين النظر إلى السماء خروا للشجرة سُجدًا يبكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم.

وكان الشيطان يجىء فيحرك أغصانها ويصيح من ساقها صياح الصبى أنى قد رضيت عنكم عبادى فطيبوا نفسًا، وقروا عينًا، فيرفعون عند ذلك رؤوسهم، ويشربون الخمور ويضربون بالمعازف، فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم ثم ينصرفون حتى إذا كان عيد قريتهم العظمى اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم، فضربوا عند الصنوبرة والعين سرادقًا من ديباج عليه من أنواع الصور اثنا عشر بابًا على كل باب لأهل قرية منهم، ويسجدون للصنوبرة خارجًا من السرادق، ويقربون لها الذبائح أضعاف ما قربوا للشجرة التى فى قراهم، فيجىء إبليس عند ذلك فيحرك الصنوبرة تحريكًا شديدًا، ويتكلم من جوفها كلامًا جهوريًا يعدهم ويمنيهم بأكثر مما وعدتهم الشياطين كلها، فيرفعون رؤوسهم من السجود وبهم من الفرح والنشاط ما لا يفيقون منه، ولا من الشراب والعزف فيكونون على ذلك اثنى عشر يومًا ولياليها بعدد أعيادهم سائر السنة، ثم ينصرفون.

فلما طال كفرهم بالله سبحانه وعبادتهم غيره بعث الله سبحانه إليهم نبيًا من بنى إسرائيل من ولد يهوذا بن يعقوب فلبث فيهم زمانًا طويلاً يدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ومعرفة ربوبيته، فلا يتبعونه. فلما رأى شدة تماديهم فى الغى والضلال وتركهم قبول ما دعاهم إليه من الرشد والصلاح، وحضر عند قريتهم العظمى قال: يا رب إن عبادك أبوا إلاّ تكذيبى والكفر بك وغدوا يعبدون شجرة لا تنفع ولا تضر فأيبس شجرهم أجمع، وأرهم قدرتك وسلطانك، فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كله فهالهم ذلك وقطعوا بها، وصاروا فرقتين: فرقة قالت: سحر آلهتكم هذا الرجل الذى زعم أنه رسول رب السماء والأرض إليكم ليصرف وجوهكم عن آلهتكم إلى إلهه.

وفرقة قالت: لا بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها، ويدعوكم إلى عبادة غيرها، فحجبت حسنها وبهاءها لكى تغضبوا لها فتنتصروا منه.

فأجمع رأيهم على قتله، فاتخذوا أنابيب طوالاً من رصاص واسعة الأفواه ثم أرسلوها فى قرار العين إلى أعلى الماء واحدة فوق الأخرى مثل البرابخ ونزحوا ما فيها من الماء ثم حفروا فى قرارها بئرًا ضيقة المدخل عميقة، وأرسلوا فيها بنبيهم، وألقوا فاها صخرة عظيمة، ثم أخرجوا الأنابيب من الماء، وقالوا: نرجو الآن أن ترضى عنا آلهتنا إذ رأت أنّا قد قتلنا من كان يقع فيها

ويصد عن عبادتها ودفناه تحت كبيرها تتشفى منه، فيعود لها نورها ونضرتها كما كان، فبقوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيهم عليه السلام وهو يقول: سيدى قد ترى ضيق مكانى وشدة كربى فارحم ضعف ركنى وقلة حيلتى وعَجِّل قبض روحى، ولا تؤخر إجابة دعوتى حتى مات عليه السلام.

فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام: إن عبادى هؤلاء غرهم حلمى وأمنوا مكرى وعبدوا غيرى، وقتلوا رسولى، وأنا أنتقم ممن عصانى، ولم يخش عقابى، وإنى جعلتهم عبرة ونكالاً للعالمين؛ فلم يرعهم وهم فى عيدهم إلاّ ريح عاصف شديد الحمرة فزعوا منها وتحيروا فيها وانضم بعضهم إلى بعض، ثم صارت الأرض من تحتهم حجراً من كبريت يتوقد، وأظلتهم سحابة سوداء، وألقت عليهم كالقبة الحمراء بلهب فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص فى النار، فنعوذ بالله من غضبه ودرك نقمته.

وقال بعض أهل العلم بأخبار الماضين وسير الماضين، بلغنى أنه كان رسان: أما أحدهما: فكان أهله أهل بدو وعمود وأصحاب مواش، فبعث الله إليهم رسولاً، فقتلوه، ثم بعث إليهم رسولاً آخر وعضده بولى فَقُتِل الرسول وجاهدهم الولى حتى أفحمهم، فكانوا يقولون: إلهنا فى البحر، وكانوا على شفيره، وأنه كان يخرج إليهم من البحر شيطان فى كل شهر خرجة فيذبحون عنده ويجعلونه عيداً.

فقال لهم الولى: أرأيتكم إن خرج إلهكم الذى تعبدون فدعوته فأجابنى، وأمرته فأطاعنى أتجيبوننى إلى ما دعوتكم إليه؟ قالوا: بلى، فأعطوه عهودهم ومواثيقهم على ذلك، فانتظروا حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكبًا أربعة أحوات وله عنق مشتعلة، وعلى رأسه مثل التاج، فلما نظروا إليه خروا سجداً، فخرج الولى إليه فقال: ائتنى طوعًا أو كرها بسم الله الكريم. فنزل عند ذلك عن أحواته. فقال له الولى: أئتنى عليهم لئلا يكون من القوم فى أمره شك. فأتى الحوت، وانثنى به حتى. . . [1] البر يجرونه ويجرهم، فكذبوه بعد ذلك. فأرسل الله عليهم ريحًا فقذفتهم فى البحر وقذفت فى البحر مواشيهم وما كانوا يملكون من ذهب وفضة وآنية، فأتى الولى الصالح إلى البحر حتى أخذ الذهب والفضة والأوانى فقسمها على أصحابه بالسوية، وانقطع نسل هؤلاء القوم.

وأما الآخر: فهم قوم كان لهم نهر يدعى الرس ينسبون إليه فكان فيهم أنبياء كثير، وقل يوم يقوم فيهم نبى إلاّ قتل وذلك النهر بمقتطع أذربيجان بينها وبين أرمينية، فإذا قطعته مدبراً

(١) كلمة فى المخطوط لم أتبين قراءتها وربما تحرفت أو سقط قبلها أو بعدها كلام وهذا رسمها: «أفضين».

ذاهبًا دخلت فى حد أرمينية، وإذا قطعته مقبلاً دخلت فى حد أذربيجان وكان من حولهم من أهل أرمينية يعبدون الأوثان ومن قدامهم من أهل أذربيجان يعبدون النيران، وهم كانوا يعبدون الجوارى العذراء فإذا تمت لإحداهن ثلاثون سنة قتلوها واستبدلوا غيرها. وكان عرض نهرهم ثلاث فراسخ، وكان يرتفع فى كل يوم وليلة حتى يبلغ أنصاف الجبال التى حوله، وكان لا ينصب فى بر ولا بحر إلاّ خرج من حدّهم يقف ويدور ثم يرجع إليهم؛ فبعث الله سبحانه إليهم بثلاثين نبيًا فى شهر واحد فقتلوهم جميعًا؛ فبعث الله إليهم نبيًا وأيده بنصره وبعث معه وليًّا فجاهدهم فى الله حق جهاده ونابذوه على سواء، فبعث الله ميكائيل وكان ذلك فى أوان وقوع الحب فى الزرع وكانوا إذ ذاك أحوج ما كانوا إلى الماء ففجر نهرهم فى البحر فانصب ما فى أسفله وأتى عيونها من فوق فسدها.

وبعث الله أعوانه من الملائكة خمسمائة ألف فغرقوا ما بقى فى وسط النهر، ثم أمر الله سبحانه جبريل فنزل فلم يدع فى أرضهم عينًا ولا ماءً ولا نهرًا إلاّ أيبسه بإذن الله تعالى، وأمر ملك الموت فانطلق إلى المواشى فأماتها فى مرابضها، وأمر الرياح الأربع الجنوب، والشمال، والصبا، والدبور، فضمت ما كان لهم من متاع، وألقى الله عليهم السبات، ثم زحفت الرياح الأربع بما كان من ذلك المتاع أجمع فأهبته فى رؤوس الجبال وبطون الأودية.

فأما ما كان من حلى أو تبر أو آنية فإن الله تعالى أمر الأرض فابتلعته؛ فأصبحوا ولا ماشية عندهم ولا مال يعودون إليه ولا ماء يشربونه، وأصبحت زروعهم يابسة. فآمن بالله عند ذلك قليل منهم وهداهم الله سبحانه إلى غار فى جبل له طريق إلى خلفه فنجوا وكانوا واحدًا وعشرين رجلاً وأربع نسوة وصبيين، وكان عدة الباقين من الرجال، والنساء، والذرارى ستمائة ألف، فماتوا عطشًا وجوعًا ولم تبق منهم باقية، ثم عاد القوم المؤمنون إلى منازلهم، فوجدوها قد صارت أعلاها أسفلها، فدعوا الله عند ذلك مخلصين أن يجيئهم بزرع وماشية وماء ويجعله قليلاً لئلا يطغوا، فأجابهم الله سبحانه وتعالى إلى ذلك لَمّا علم من صدقهم، وأطلق لهم نهرهم وزادهم على ما سألوا.

فقام أولئك بطاعة الله ظاهرًا وباطنًا حتى مضى أولئك القوم، وحدث من نسلهم بعدهم قوم أطاعوا الله فى الظاهر، ونافقوا فى الباطن، فأملى الله لهم، ثم كثرت معاصيهم فبعث الله سبحانه إليهم عدوهم فأسرع فيهم القتل، فبقيت شرذمة منهم، فسلط الله عليهم الطاعون فلم يبق منهم أحدًا، وبقى نهرهم ومنازلهم مائتى عام لا يسكنها أحد.

ثم أتى الله سبحانه بقرن بعد ذلك فنزلوها فكانوا صالحين سنين. ثم أحدثوا فاحشة جعل

الرجل يدعو ابنته وأخته وزوجته فيضاجعها جاره وصديقه وأخاه يلتمس بذلك البر والصلة، ثم ارتفعوا من ذلك إلى فرع آخر استغنى الرجال بالرجال، وتركوا النساء حتى شبقن فجاءتهم شيطانة فى صورة امرأة وهى الدلهاث بنت إبليس وهى والشبصبار كانا فى بيضة واحدة فشهت إلى النساء ركوب بعضهن بعضًا وعلمتهن كيف يصنعن فأصل ركوب النساء بعضهن بعضًا من الدلهاث فسلط الله على ذلك القرن صاعقة من أوّل الليل، وخسفًا فى آخر الليل، وصيحة مع الشمس فلم تبق منهم باقية، وبادت مساكنهم.

ويشهد بصحة هذه القصة ما أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا أبو الطيب بن حفصويه قال حدثنا عبد الله بن جامع قال حدثنا عثمان بن خرزاد قال حدثنا سليمان بن عبد الرحمن قال حدثنا الحكم بن يعلى بن عطاء قال حدثنا معاوية بن عمار الذهنى عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله: ﴿وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ قال: السحاقات.

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنى عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك قال حدثنا الحسن بن إسماعيل الدينورى قال حدثنا أحمد بن يحيى بن مالك السوسى قال حدثنا نصر بن همام حدثنا عمر بن عبد الرحمن عن مكحول عن أنس بن مالك قال: قال رسول ﷺ: «من أشراط الساعة أن يستكفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السحق».

والرس فى كلام العرب: كل محفور مثل البئر، والمعدن، والقبر، ونحوها وجمعه رساس، قال الشاعر:

سبقت إلى فرط بأهل تنا ... بلة يحفرون الرساسا

وقال أبو عبيدة: الرس كل ركية لم تطو بالحجارة والآجر والخشب[1].

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ﴾ فى إقامة الحجة فلم نهلكهم إلاّ بعد الإعذار والإنذار ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾: أهلكنا إهلاكًا. وقال المؤرج: قال الأخفش: كسرنا تكسيرًا.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾: يعنى الحجارة وهى قرية قوم لوط عليه السلام وكانت خمس قرى فأهلك الله سبحانه أربعة، وبقيت الخامسة واسمها صغر، وكان أهلها لا

(١) كل ما سبق من تلك الحكايات لا يجرى عليه التصديق ولا التكذيب حيث إن فيه ما هو معقول وما قد أخبر به الله سبحانه وتعالى على لسان نبينا وعلى ألسنة أنبياء آخرين، وأن بعضه ليس من دين الله تعالى فى شىء حيث لا دليل عليه من كتاب ولا سنة صحيحة ولا يقبله العقل السليم والفطر السوية، حيث إن أول الحكايات لم يبدأ بإسناد صحيح قوى، فكل ما بنى على غير أساس صحيح لا يعتد به فى دين الله تعالى حيث صحة الإسناد وهى المعول عليها فى نقل الأخبار عن الله سبحانه وعن رسله الكرام.

يعملون ذلك العمل الخبيث[1].

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ : إذ مروا بها فى أسفارهم فيعتبرون ويتذكرون قال الله سبحانه : ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ﴾ : لا يخافون ﴿نُشُورًا﴾ : بعثًا ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ : نزلت فى أبى جهل ، كان إذا مرّ بأصحابه على رسول الله ﷺ قال مستهزئًا : ﴿أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ : قد كاد يصدنا عن عبادتها ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ : لصرفنا عنها ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ : وهذا وعيد لهم ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ : وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر والصنم ، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ الآخر فعبده . قال ابن عباس : الهوى إله يعبد من دون الله .

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ : حفيظًا من الخروج إلى هذا الفساد نسختهما آية الجهاد[2] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ : ما تقول سماع طالب الإفهام ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ : ما يعاينون من الحجج والأعلام ﴿إِنْ هُمْ﴾ : ما هم ﴿إِلَّا كَالْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ : لأن البهائم تهتدى لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها التى تعلفها وتعهدها ، وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريق الحق ولا يطيعون ربهم الذى خلقهم ورزقهم .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ : معناه : ألم تر إلى مَدّ ربك الظل وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وإنما جعله ممدودًا . لأنه لا شمس معه ، كما قال فى ظل الجنة ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ (الواقعة : ٣٠) : إذ لم يكن معه شمس ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ : دائمًا ثابتًا لا يزول ولا تذهبه الشمس .

قال أبو عبيدة : الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة ، والفىء ما نسخ الشمس وهو بعد الزوال وسمى فيئًا لأنه من جانب المشرق إلى جانب المغرب ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ : أى على الظل ﴿دَلِيلًا﴾ : ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس ما عرف الظل إذ الأشياء تعرف بأضدادها ، والظل يتبع الشمس فى طوله وقصره كما يتبع السائر الدليل ، فإذا ارتفعت الشمس قصر الظل وإن انحطت طال ﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ﴾ : يعنى الظل ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ : بالشمس التى تأتى بها فتنسخه ومعنى قوله : ﴿يَسِيرًا﴾ : أى خفيفًا سريعًا والقبض جمع الأجزاء المنبسطة وأراد هاهنا النقل اللطيف .

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاسًا﴾ : أى سترًا تستترون وتسكنون فيه ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ : راحة

---

(١) ليس على هذا الاستثناء دليل من كتاب ولا سنة صحيحة .

(٢) أنا أتكلم كثيراً عن اختلاف العلماء فى مسألة الناسخ والمنسوخ وقولهم إن الأحوال هى التى تفرض الآية .

لأبدانكم وقطعًا لعملكم، وأصل السبت القطع، ومنه يوم السبت، والنعال السبتية. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾: أى يقظة وحياة تنتشرون فيه لأشغالكم ﴿وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾: وهو الطاهر فى نفسه المطهر لغيره ﴿لِّنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: ولم يقل ميتة لأنه رجع به إلى المكان والموضع. قال كعب: المطر روح الأرض ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾: قراءة العامة بضم النون، وروى المفضل، والبرجمى عن عاصم، بفتح النون. وهى قراءة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾: والأناسى جمع الإنسان، وأصله أناسين مثل بستان وبساتين، فجعل الباء عوضًا من النون. وإن قيل هو أيضًا مذهب صحيح كما يجمع القرقور: قراقير، وقراقر.

أخبرنى الحسن بن محمد بن الفنجوى قال حدثنا مخلد بن جعفر البافرجى قال حدثنا الحسن بن علوى، حدثنا إسحاق بن عيسى قال: حدثنا إسحاق بن بشر قال حدثنا ابن إسحاق، وابن جريج، ومقاتل كلهم قالوا وبلغوا به ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكن الله قسم هذه الأرزاق فجعلها فى السماء الدنيا فى هذا القطر تنزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصى حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعًا صرف الله ذلك إلى الفيافى والبحار».

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾: يعنى المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾: عامًا بعد عام، وفى بلدة دون بلدة. وقيل: ﴿صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ وابلاً، وطشًا، ورهامًا، ورذاذًا. وقيل: التصريف راجع إلى الريح.

﴿لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾: أى جحودًا. وقيل: هو قولهم: مطرنا بنوء كذا أو كذا ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾: رسولاً، ولقسمنا النذير بينهم كما قسمنا المطر، فحينئذ تخف عليك أعباء النبوة ولكنا حملناك ثقل نذارة جميع القرى لتستوجب بصبرك عليه ما أعتدنا لك من الكرامة والهيبة والدرجة الرفيعة.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾: فيما يدعونك إليه من عبادة آلهتهم ومقاربتهم ومداهنتهم ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾: أى بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا

أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أى خلطهما وخلى وأفاض أحدهما فى الآخر. وأصل المَرْج: الخلط والإرسال، ومنه قوله سبحانه: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ (ق:٥)، وقول النبى ﷺ لعبد الله بن عمرو: «كيف بك يا عبد الله إذا كنت فى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم

وصاروا هكذا» وشبك بين أصابعه. ويقال: مرجت دابتى، ومرجها إذا أرسلتها فى المرعى وخليتها تذهب حيث شاءت ومنه قيل للروضة: مرج قال العجاج:

❖ مرعى بها مرج ربيع ممرجًا ❖

قال ابن عباس، والضحاك ومقاتل: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أى خلع أحدهما على الآخر ﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾: شديد العذوبة ﴿وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾: شديد الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾: حاجزًا بقدرته وحكمته لئلا يختلطا ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: سترًا ممنوعًا يمنعهما فلا يبغيان ولا يفسد الملح العذب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾: قال على بن أبى طالب: النسب: ما لا يحل نكاحه، والصهر: ما يحل نكاحه.

وقال الضحاك، وقتادة، ومقاتل: النسب سبعة، والصهر خمسة، واقرءوا هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ (النساء: ٢٣) إلى آخرها.

أخبرنى أبو عبد الله القاسينى قال أخبرنا أبو الحسن الضبى القاضى قال أخبرنا أبو بكر السبيعى الحلبى قال حدثنا على بن العباس المقانعى قال حدثنا جعفر بن محمد بن الحسين قال حدثنا محمد بن عمرو قال حدثنا حسين الأشقر قال حدثنا أبو قتيبة التيمى قال سمعت ابن سيرين يقول فى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ قال: نزلت فى النبى ﷺ وعلى بن أبى طالب زَوَّج فاطمة عليًا وهو ابن عمه، وزوج ابنته فكان نسبًا وصهرًا.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝ وَيَعْبُدُونَ﴾: يعنى هؤلاء المشركين ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾: إن عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾: إن تركوه ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾: أى معينًا للشياطين على ربه. وقيل: معناه: وكان الكافرعلى ربه هينًا ذليلاً، من قول العرب: ظهرت به، إذا جعلته خلف ظهرك، فلم تلتفت إليه.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: على تبليغ الوحى ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾: فيقولوا: إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا إليه، فلا نتبعه كيلا نعطيه من أموالنا شيئًا ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾. قال أهل المعانى: هذا من الاستثناء المنقطع، مجازه: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً بإنفاق ماله فى سبيله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾: أى اعبده وصل له شكرًا منك له على نِعَمه. وقيل: أحمد منزهًا له عما لا يجوز فى وصفه.

وقيل: قل سبحان الله والحمد لله ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾: فيجازيهم بها ﴿ٱلَّذِى﴾: فى محل الخفض على نعت الحىّ.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: فقال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ وقد جمع السموات لأنه أراد الصنفين والشيئين كقول القُطامى:

ألم يحزنك أن حبال قيس وتغلب قد تباينتا انقطاعا

أراد: وحبال تغلب، فثنى والحبال جمع لأنه أراد الشيئين والنوعين، وقال آخر:

إن المنية والحتوف كلاهما بذوى المحارم يرقبان سوادى

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾: أى فسل خبيراً بالرحمن. وقيل: فسل عنه خبيراً، وهو الله عز وجل. وقيل: جبريل عليه السلام. الباء بمعنى عن لقول الشاعر:

فإن تسألونى بالنساء فإننى خبير بأدواء النساء طبيب

أى عن النساء.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾: وقرأ حمزة والكسائى: بالياء، يعنيان الرحمن. وقرأ غيرهما: تأمرنا، بالتاء، يعنون لما تأمرنا أنت يا محمد ﴿وَزَادَهُمْ﴾: قول القائل لهم اسجدوا للرحمن ﴿نُفُورًا﴾: عن الدين والإيمان. وكان سفيان الثورى إذا قرأ هذه الآية رفع رأسه إلى السماء وقال: إلهى زادنى خضوعًا ما زاد أعداءك نفوراً.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾: يعنى منازل الكواكب السبعة السيارة، وهى اثنا عشر برجًا: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والزهرة، والعقرب، والقوس، والجدى، والدلو، والحوت، فالحمل والعقرب: بيتا المريخ. والثور والميزان: بيتا الميزان. والجوزاء والسنبلة: بيتا عطارد. والسرطان: بيت القمر. والأسد: بيت الشمس. والقوس والحوت: بيتا المشترى. والجدى والدلو: بيتا زحل وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع فيكون نصيب كل واحد منهما ثلاثة بروج سمى المثلثات. والحمل، والأسد، والقوس: مثلثة نارية. والثور، والسنبلة، والجدى: مثلثة أرضية والجوزاء والميزان والدلو: مثلثة هوائية. والسرطان والعقرب، والحوت: مثلثة مائية. واختلفت أقاويل هذا التأويل فى تفسير البروج.

فأخبرنا الحسن بن محمد بن الحسين الدينورى قال أخبرنا أحمد بن محمد بن إسحاق السنى قال حدثنى محمد بن الحسين بن أبى الشيخ قال حدثنى هارون بن إسحاق الهمذانى قال

حدثنى عبد الله بن إدريس قال حدثنى أبى عن عطية العوفى فى قوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾: قال: قصوراً فيها الحرس دليله: قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (النساء: ٧٨).

وقال الأخطل:

كأنها برج رومى يشيده بان بجص وآجر وأحجار

وقال مجاهد، وقتادة: هى النجوم.

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن شيبة قال حدثنا على بن محمد بن ماهان قال حدثنا على بن محمد الطنافسى قال حدثنا خالى يعلى عن إسماعيل عن أبى صالح: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قال: النجوم الكبائر قال عطاء: هى السُّرج، وهى أبواب السماء التى تسمى المجرة.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾: يعنى الشمس، نظيره قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح: ١٦) وقرأ حمزة والكسائى: وجعل فيها سُرُجًا، بالجمع، يعنون النجوم، وهى قراءة أصحاب عبد الله ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾: قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعنى عوضًا، وخلفًا يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاته عمله فى أحدهما قضاه فى الآخر.

قال قتادة: فأروا الله من أعمالكم خيراً فى هذا الليل والنهار فإنهما مطيتان تقحمان الناس إلى آجالهم وتقربان كل بعيد وتبليان كل جديد، وتجيئان بكل موعود إلى يوم القيامة.

روى شمر بن عطية عن شقيق قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: فاتتنى الصلاة الليلة؟ فقال: أدرك ما فاتك من ليلتك فى نهارك فإن الله سبحانه وتعالى ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾.

وقال مجاهد: يعنى جعل كل واحد منهما مخالفًا لصاحبه، فجعل هذا أسود وهذا أبيض.

وقال ابن زيد، وغيره: يعنى يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب أحدهما جاء الآخر فهما يتعاقبان فى الضياء والظلام، الزيادة والنقصان. يدل على صحة هذا التأويل قول زهير:

بها العِينُ والآرام يمشين خلفَةً وأطلاؤها ينهضن من كل مَجثَم

وقال مقاتل: يعنى جعل الليل والنهار خلفًا من الليل لمن نام بالليل وجعل الليل خلفًا بالنهار لمن كانت له حاجة أو كان مشغولاً ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾: قرأه العامة بتشديد الذال، يعنى يتذكر، ويتعظ. وقرأ حمزة، وخلف بتخفيف الدال من الذكر ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾: شكر

نعمة الله سبحانه وتعالى عليه ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ : يعنى أفاضل العباد. وقيل هذه الإضافة على التخصيص والتفضيل. وقرأ الحسن؛ وعبيد الرحمن.

﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ : أى بالسكينة والوقار، والطاعة والتواضع غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين ولا مفسدين.

أخبرنا عبد الله بن حامد قال أخبرنا العباس ابن محمد بن فوهبار قال حدثنا على بن الحسن ابن أبى عيسى قال حدثنا يحيى بن يحيى قال حدثنا هشيم بن عباد بن راشد عن الحسن فى قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال: حلمًا وعلمًا.

وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون، وإن سفه عليهم حلموا.

وقال الضحاك: أتقياء أعفاء لا يجهلون. قال وهو بالسريانية. قال الثمالى: بالنبطية.

والهون فى اللغة: الرفق واللين، ومنه قول النبى ﷺ: «أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»[1].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ : بما يكرهون ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ : سدادًا من القول، عن مجاهد. وقال ابن حيان: قولا يسلمون فيه من الإثم.

وقال الحسن: سلموا عليهم، دليله قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ (القصص: ٥٥).

وقال أبو العالية، والكلبى: هذا قبل أن يؤمروا بالقتال ثم نسختها آية القتال[2].

أخبرنا ابن فنجويه قال حدثنا ابن حبش المقرئ قال حدثنا محمد بن صالح الكيلسى بمكة قال حدثنا سلمة بن شبيب قال حدثنا الوليد بن إسماعيل قال حدثنا شيبان بن مهران عن خالد ابن المغيرة بن قيس عن أبى مجلز لاحق بن حميد عن أبى برزة الأسلمى عن رسول الله ﷺ قال: «رأيت قومًا من أمتى ما خلقوا بعد وسيكونون فيما بعد اليوم أحبهم ويحبونى، ويتناصحون، ويتبادلون، ويتماشون بنور الله فى الناس رويدًا فى خفية وتقية يسلمون من الناس ويسلم الناس منهم بصبرهم وحلمهم، قلوبهم بذكر الله يرجعون، ومساجدهم بصلواتهم يعمرون، يرحمون صغيرهم، ويجلون كبيرهم، ويتواسون بينهم، يعود غنيهم

(١) ليس هذا بحديث، وهو قول سائر مسرى المثل ينسب تارة إلى النبى ﷺ، وتارة إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه، وتارة إلى غيره، والأصل أنه من الأقوال السائرة التى لا يعرف لها قائل على أرجح الأحوال وهو فى مضمونه كلام يحث على التوسط فى الأمور وعدم المغالاة وعدم التفريط.

(٢) قال القائلون بالنسخ: إن آية القتال هذه قد نسخت مائة وأربعة وعشرين آية من القرآن الكريم واعترض عليهم القائلون بعدم النسخ بأن أحكام الآيات التى يظن بها النسخ إنما يقتضيها الحال.

على فقيرهم، وقويهم على ضعيفهم، يعودون مرضاهم، ويتبعون جنائزهم» فقال رجل من القوم: فى ذلك يرفقون برفيقهم؟ فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال: «كلا إنهم لا رفيق لهم، هم خُدام أنفسهم، هم أكرم على الله من أن يوسع عليهم لهوان الدنيا عند ربهم». ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾.

وروى أن الحسن كان إذ قرأ هاتين الآيتين قال: هذا وصف نهارهم، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾: قال: هذا وصف ليلهم.

قال ابن عباس: من صلى بالليل ركعتين أو أكثر من ذلك، فقد بات لله سبحانه وتعالى ساجدًا وقائمًا.

قال الكلبى: يقال الركعتان بعد المغرب، وأربع بعد العشاء.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾: أى ملجأ دائمًا غير مفارق من عذب من الكفار، ومنه سمى الغريم لطلبه حقه والجاحد على صاحبه وملازمته إياه. وفلان مغرم لفلان إذا كان مولعًا به لا يصير عنه ولا يفارقه، قال الأعشى:

إن يعاقب يكن غرامًا وإن يعـ ـط جـزيلاً فإنه لا يبـالى

وقال الحسن: قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلاّ غريم جهنم.

وقال ابن زيد: الغرام الشر. وقال أبو عبيدة: الهلاك. قال بشر بن أبى خازم:

فيوم النسار ويوم الجفار كانا عذابًا وكانا غرامًا

أى هلاكًا.

﴿إِنَّهَا﴾: يعنى جهنم.

﴿سَآءَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: أى إقامة، من أقام يقيم.

وقال سلامة بن جندل:

يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأويب

فإذا فتحت الميم فهو المجلس، من قام يقوم ومنه قول عباس بن مرداس:

فأتى ما وأيك كان شرًا فقيد إلى المقامة لا يراها

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾: واختلف القراء فيه. فقرأ أهل المدينة، والشام: يُقتروا، بضم الياء، وكسر التاء. وقرأ أهل الكوفة: بفتح الياء وضم التاء. وقرأ غيرهم: بفتح الياء، وكسر التاء. وكلها لغات صحيحة، يقال: وقَتَر، وقُتِر تَقْتِر، ويَقْتُرُ، مثل يعرشون،

ويعكفون. واختلف المفسرون فى معنى الإسراف، والإقتار: فقال بعضهم: الإسراف النفقة فى معصية الله وإن قلّت. والاقتار: منع حق الله سبحانه، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد.

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين الدينورى قال حدثنا محمد بن عمر بن إسحاق الكلواذى قال حدثنا عبد الله بن سليمان ابن الأشعث قال حدثنا هارون بن زيد ابن أبى الزرقاء الرملى قال حدثنا أبى قال حدثنا سهيل بن أبى حزم عن كثير بن زياد أبى سهل عن الحسن فى هذه الآية قال: لم ينفقوا فى معاصى الله، ولم يمسكوا عن فرائض الله.

وقال بعضهم: الإسراف أن تأكل مال غيرك بغير حق.

قال عون بن عبد الله بن عتبة: ليس المسرف من يأكل ماله، وإنما المسرف من يأكل مال غيره.

وقال قوم السرف: مجاوزة الحد فى النفقة. والإقتار: التقصير عما ينبغى مما لا بد منه. وهذا الاختيار لقوله:

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: أى وكان إنفاقهم بين ذلك.

﴿قَوَامًا﴾: عدلا، وقصداً، ووسطًا بين الإسراف والاقتار.

قال إبراهيم: لا يجيعهم ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس: قد أسرف.

وقال مقاتل: كسبوا طيبًا وأنفقوا قصداً وقدموا فضلا، فربحوا وأنجحوا.

وقال يزيد بن أبى حبيب فى هذه الآية: أولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام كانوا لا يأكلون طعامًا للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبًا للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم، ومن الثياب ما يستر عوراتهم، ويكنهم من الحر والقر.

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن حبش قال حدثنا ابن زنجويه قال حدثنا سلمة قال حدثنا عبد الرزاق عن أبى عيينة عن رجل عن الحسن فى قوله سبحانه: ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾: أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال: كفى سرفًا أن لا يشتهى رجل شيئًا إلاّ اشتراه فأكله.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية.

أخبرنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدى قال أخبرنا المؤمل بن الحسن بن عيسى قال حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا حجاج عن ابن جريج قال أخبرنى يعلى - يعنى ابن مسلم - عن سعيد بن جبير سمعه يحدث عن ابن عباس: أن ناسًا من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا، وزنوا

فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملناه، كفارة، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ونزل: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ (الزمر:٥٣): وقيل نزلت فى وحشى غلام ابن مطعم.

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال أخبرنا محمد بن الحسين قال حدثنا أحمد بن يوسف السلمى قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر، والثورى عن منصور، والأعمش عن أبى وائل.

(ح)[1] وأخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسن قال حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، وعبد الله بن عبد الرحمن قالا: حدثنا يوسف بن عبد الله بن ماهان قال حدثنا محمد ابن كثير قال حدثنا سفيان عن الأعمش، ومنصور، وواصل الأحدب عن أبى وائل.

(ح)[1] وأخبرنا عبد الله بن حامد الوزان قال أخبرنا مكى بن عبدان قال حدثنا عبد الله ابن هاشم قال: حدثنا عبد الله بن نمير قال أخبرنا الأعمش عن شقيق عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك». قلت: ثم أى؟ قال: «تزنى بحليلة جارك». فأنزل الله سبحانه تصديق ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

قال مسافع ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ الآية.

أخبرنا ابن فنجويه قال: حدثنا ابن حبش قال: أخبرنا ابن زنجويه قال: أخبرنا مسلمة بن عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة قال ذُكر لنا أن لقمان كان يقول: يا بنى إياك والزنا فإن أوله مخافة، وآخره ندامة ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾: الذى ذكرت ﴿يَلۡقَ أَثَامًا﴾: قال ابن عباس: إثمًا. ومجازه: يلقى جزاء الآثام.

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا أحمد بن محمد ابن حفصويه قال حدثنا محمد بن موسى قال حدثنا زهير بن محمد قال حدثنا محمد بن زياد قال حدثنا الكلبى قال حدثنا شرقى القطامى قال حدثنى لقمان بن عامر قال جئت أبا أمامة الباهلى صدى بن عجلان فقلت حدثنى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فدعا لى بطلاء ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أن صخرة زنة عشر عشروات قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفًا، ثم تنتهى إلى غيٍّ وآثام». قال: فقلت: وما غى، وأثام؟ قال: «بئران يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللتان قال الله سبحانه فى كتابه: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ (مريم:٥٩) و﴿يَلۡقَ أَثَامًا﴾».

أخبرنا أبو عمرو سعيد بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل الجيزى قال أخبرنا العباسى بن

(١) زيادة حديثية يقتضيها السياق.

محمد بن قوهباد قال حدثنا إسحاق بن عبد الله بن محمد بن رزين السلمى قال أخبرنا حفص ابن عبد الرحمن قال حدثنا سعيد عن قتادة عن أبى أيوب عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن أثاما واد فى جهنم. وهو قول مجاهد. وقال أبو عبيدة: الأثام العقوبة.

قال مسافع الليثى:

جزى الله ابن عروة حيث أمسى عُقُوقًا والعُقُوق له أثامُ

أى عقوبة.

﴿يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ : قراءة العامة بجزم الفاء والدال. ورفعهما ابن عامر، وابن عباس على الابتداء. ثم قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ : الآية.

أخبرنى الحسين بن محمد بن عبد الله قال حدثنا موسى بن محمد قال حدثنا موسى بن هارون الجمال قال حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعى قال حدثنا عبد الله بن رجاء عن عبيد الله ابن عمر بن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنين: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية. ثم نزلت: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ فما رأيت النبى عليه الصلاة والسلام فرح بشىء قط فرحه بها، وفرحه بـ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ١، ٢).

وأخبرنى الحسين بن محمد الفنجوى قال حدثنا محمد بن الحسن بن على اليقطينى قال أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلى قال حدثنا صفوان بن صالح قال حدثنا الوليد بن مسلم قال حدثنا عبد العزيز بن الحصين عن ابن أبى نجيح قال حدثنى القاسم بن أبى بزة قال قلت لسعيد بن جبير: أبا عبد الله أرأيت قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ . قال: سمعت ابن عباس يقول: هذه مكية نسختها الآية المدنية التى فى سورة النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾[1] (النساء: ٩٣) ولا توبة له.

وروى أبو الزناد عن خارجة بن زيد بن ثابت أنه دخل على أبيه وعنده رجل من أهل العراق، وهو يسأله عن هذه الآية التى فى الفرقان، والتى فى سورة النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾؟ فقال زيد بن ثابت: قد عرفت الناسخة من المنسوخة نسختها التى فى النساء بعدها

(١) سبق أن ذكرت مراراً وتكراراً قول أهل العلم فى مسألة الناسخ والمنسوخ وذهاب قوم منهم إلى عدم جوازه فى القرآن الكريم.

بستة أشهر.

وروى حجاج عن ابن جريج قال قال الضحاك بن مزاحم: هذه السورة بينها وبين النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ ثمانى حجج. والصحيح أنها محكمة.

روى جعفر بن سليمان عن عمرو بن مالك البكرى عن أبى الجوزاء قال: اختلفت إلى ابن عباس ثلاث عشرة سنة، فما شيء من القرآن إلا سألته عنه، ورسولى يختلف إلى عائشة، فما سمعته ولا أحد من العلماء يقول: إن الله سبحانه وتعالى يقول لذنب لا أغفره.

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

قال ابن عباس، وابن جبير، والضحاك، وابن زيد: يعنى فأولئك يبدلهم الله بقبائح أعمالهم فى الشرك محاسن الأعمال فى الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيمانًا، وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا عفة وإحصانًا، وقال الآخرون: يعنى يبدل الله سيئاتهم التى عملوها فى حال إسلامهم حسنات يوم القيامة؛ يدل على صحة هذا التأويل ما أخبرنى أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين الحافظ فى دارى قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن عبد الله بن برزة قال حدثنا أبو حفص المستملى قال حدثنا محمد بن عبد العزيز أبى رزمة قال حدثنا الفضل بن موسى القطعى عن أبى العنبس عن ابنه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات». قيل: من هم؟ قال: «الذين بدل الله سيئاتهم حسنات».

وأخبرنا ابن فنجويه قال حدثنا أبو بكر بن مالك القطعى قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثنا أبى قال حدثنا وكيع قال حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه، قال: فيعرض عليه ويخفى عنه كبائرها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وهو يقر لا ينكر وهو مشفق من الكبائر فيقال أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة قال: فيقول: إن لى ذنوبًا ما أراها، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه».

وأخبرنا ابن فنجويه قال حدثنا عبيد الله عن عبد الله بن أبى سمرة البغوى ببغداد قال حدثنا محمد بن أحمد الطالقانى قال حدثنا محمد بن هارون أبو نشيط قال حدثنا أبو المغيرة قال حدثنا صفوان قال حدثنى عبد الرحمن بن جبير عن أبى الطويل شطب الممدود: أنه أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئًا، وهو فى ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلاّ اقتطعها بيمينه فهل لذلك من توبة؟ قال: «قال هل أسلمت»؟ قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك رسوله قال: «نعم تفعل الخيرات وتترك

الشهوات يجعلهن الله خيرات كلهن». قال: وغدراتى وفجراتى؟ قال: «نعم». قال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى.

وأخبرنى ابن فنجويه فى عصبة قال حدثنا محمد بن على بن الحسن قال حدثنا عبد الرحمن ابن أبى حاتم قال حدثنا أبو نشيط قال حدثنا أبو المغيرة قال سمعت مبشر بن عبيد، وكان عارفًا بالنحو والعربية ـ يقول: الحاجّة: الذى يقطع على الحجاج إذا توجهوا. والداجة: الذى يقطع عليهم إذا قفلوا. ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾: رجوعًا حسنًا.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾: قال الضحاك: الشرك، وتعظيم الأنداد. وقال على بن أبى طلحة: يعنى شهادة الزور، وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخم وجهه، ويطوف به فى السوق. وقال يحيى بن اليمان عن مجاهد: أعياد المشركين. قال ليث عنه: الغناء، وهو قول محمد ابن الحنفية بإسناد الصالحى عن إبراهيم بن محمد بن المنكدر قال: بلغنى أن الله تعالى يقول يوم القيامة أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان: أدخلوهم رياض المسك، أسمعوا عبادى تحميدى وثنائى وتمجيدى، وأخبروهم: أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أخبرنا أبو بكر الجوزقى قال حدثنا عبد الواحد بن محمد الأرغيانى قال حدثنا الأخمش قال حدثنا عمرو العنقرى قال حدثنا مسلمة بن جعفر عن عمرو بن قيس فى قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال: مجالس الخنا. وقال ابن جريج: الكذب. وقال قتادة: مجالس الباطل، وأصل الزور تحسين الشىء ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل إلى من سمعه أو رآه أنه خلاف ما هو به، فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾: قال مقاتل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا، وصفحوا، وهى رواية ابن نجيح عن مجاهد؛ نظيره: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ (القصص: ٥٥) الآية: وقال السدى: وهى منسوخة بآية القتال[1]. وقال العوام بن حوشب عن مجاهد: إذا أتوا على ذكر النكاح كَنّوا عنه. وقال ابن زيد: إذا مروا بما كان المشركون فيه من الباطل، مروا منكرين له معرضين عنه، وقال الحسن، والكلبى: اللغو المعاصى كلها يعنى: إذا مرّوا بمجالس اللهو والباطل مروا كرامًا مسرعين معرضين، يدل عليه ما روى إبراهيم بن ميسرة: أن ابن مسعود مَرَّ بلهو مسرعًا، فقال رسول الله ﷺ: «إن أصبح ابن مسعود لكريمًا».

---

(١) تكلم أهل العلم فى مسألة النسخ فى القرآن فمنهم المؤيد ومنهم المعارض ويرى المعارضون أن كل آية لها موقعها فى حالها وظروفها.

وقال أهل اللغة: أصله من قول العرب: ناقة كريمة، وبقرة كريمة، وشاة كريمة، إذا كانت تعرض عن الحلب تكرمًا. كأنها لا تبالى بما يحلب منها.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ﴾: لم يقعوا ولم يسقطوا ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾: كأنهم صم عمى، بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه، ويرون الحق فيه فيتبعونه.

قال الفراء: ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ﴾ أى لم يقيموا، ولم يصروا، تقول العرب: شتمت فلانًا فقام يبكى، يعنى فظل، وأقبل يبكى، ولا قيام هنالك، ولعله بكى قاعدًا. وقعد فلان يشتمنى أى أقبل وجعل وصار يشتمنى وذلك جائز على ألسن العرب.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا﴾ قرأ بغير ألف أبو عمرو، وأهل الكوفة. وقرأ الباقون: (ذرياتنا) بالألف ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: بأن يراهم مؤمنين صالحين مطيعين لك ووحد ﴿قُرَّةَ﴾ لأنها مصدر، وأصلها من البَرْد لأن العرب تتأذى بالحر وتستروح إلى البرد.

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: أى أنه يُقتدى بنا. قال ابن عباس: واجعلنا أئمة هداة كما قال: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (الأنبياء: ٧٣) ولا تجعلنا أئمة ضلالة كقوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ (القصص: ٤١). وقال قتادة: هداة دعاة خير.

وأخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن يوسف الفقيه قال أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدون ابن خالد قال حدثنى أبو جعفر أحمد بن عبد الله العازى الطبرى المعروف بابن فيروز قال حدثنا الحكم بن موسى قال حدثنا يحيى بن حمزة عن عبد الرحمن بن زيد بن جابر عن مكحول فى قول الله عز وجل: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال: أئمة فى التقوى يقتدى بهم المتقون، وقال بعضهم: هذا من المقلوب، واجعل المتقين لنا إمامًا، واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم، وهو قول مجاهد. ولم يقل: أئمة لأن الإمام مصدر، يقال: أَمَّ فلان فلانًا إمامًا مثل الصيام والقيام، ومن جعله: أئمة، فلأنه قد كبر حتى صار بمعنى الصفة.

وقال بعضهم: أراد أئمة، كما يقول القائل: أميرنا وهو لا يعنى أُمراءنا، وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ (الشعراء: ٧٧)، قال الشاعر:

يا عاذلاتى لا تزدن ملامتى ... إن العواذل لسن لى بأمينِ

أى أمناء.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾: يثابون الدرجة الرفيعة فى الجنة، ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾: على أمر ربهم وطاعة نبيهم. قال الباقر: على الفقر.

﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾: قرأ أهل الكوفة بفتح الياء وتخفيف القاف واختاره أبو عبيد لقوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ

نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ (الإنسان: ١١).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۞ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ : أى ما يصنع وما يفعل عن مجاهد، وابن زيد.

وقال أبو عبيدة: يقال ما عبأت به شيئًا أى لم أعده فوجوده وعدته سواء، مجازه: أى مقدار لكم. وأصل هذه الكلمة تهيئة الشيء. يقال: عبأت الجيش، وعبأت الطيب، عباوة، وعَبْوًا وعُبُوًا إذا هيأته وعملته، قال الشاعر:

كأن بنحره وبمنكبيــه عبيرًا بات يعبؤه عروس

﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ : إياه. وقيل: لولا عبادتكم. وقيل: لولا إيمانكم، واختلف العلماء فى معنى هذه الآية: فقال قوم معناها: قل ما يعبأ بخلقكم ربى لولا عبادتكم وطاعتكم إياه، يعنى أنه خلقكم للعبادة. نظيرها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦). وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد، قال ابن عباس فى رواية الوالبى: أخبر الله سبحانه وتعالى الكفار أنه لا حاجة لربهم بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، لو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حُبب إلى المؤمنين.

وقرأ آخرون: قل ما يعبأ بعذابكم ربى لولا دعاؤكم إياه فى الشدائد، بيانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (العنكبوت: ٦٥) ونحوها من الآيات.

وقال بعضهم: قل ما يعبأ بمغفرتكم ربى لولا دعاؤكم معه آلهة وشركاء بيانه قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ (النساء: ١٤٧)، وهذا معنى قول الضحاك.

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن حبيش قال حدثنا أبو القاسم بن الفضل قال حدثنا أبو حاتم قال حدثنا أبو طاهر بن السرج قال حدثنا موسى بن ربيعة الجُمحي قال سمعت الوليد بن الوليد يقول: بلغنى أن تفسير هذه الآية: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ : يقول: ما خلقتكم ولى إليكم حاجة إلا أن تسألونى وأغفر لكم وتسألونى فأعطيكم.

﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾ : يا أهل مكة.

وأخبرنا شعيب بن محمد قال أخبرنا مكى بن عبدان قال حدثنا أحمد بن الأزهر قال حدثنا روح بن عباد قال حدثنا شعبة عن عبد الحميد بن واصل قال سمعت مسلم بن عمار قال سمعت ابن عباس يقرأ: ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾.

وبه عن شعبة عن أدهم - يعنى السدوسى عن سليمان بن عبد الله: أنه كان خلف ابن الزبير، فقرأ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ فلما أتى على هذه الآية قرأها: فقد كذب

الكافر فسوف يكون لزامًا.

ومعنى الآية: فسوف يكون تكذيبكم لزامًا قال ابن عباس: موتًا. قال ابن زيد: قتالاً. قال أبو عبيدة: هلاكًا، وأنشد:

فإما ينجوا من خسف أرضى   فقد لقيا حتوفهما لزاما

قال بعض أهل المعانى: يعنى فسوف يكون جزاء يلزم كل عامل ما عمل من خير أو شر.

وقال ابن جرير: يعنى عذابًا دائمًا لازمًا، وهلاكًا مفنيًا يلحق بعضكم بعضًا كقول أبى ذؤيب:

ففاجأه بغادية لزامٍ   كما يتفجر الحوض اللفيفُ

يعنى باللزام الكثير الذى يتبع بعضه بعضًا، وباللفيف الحجارة المتهدمة. واختلفوا فى اللازم هاهنا؛ فقال قوم: هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأُسر سبعون، وهو قول عبد الله بن مسعود، وأُبى بن كعب، وأبى مالك، ومجاهد، ومقاتل.

روى الأعمش عن مسلم عن مسروق قال: قال عبد الله : خمس مضين: الدجال، واللزام، والبطشة والقمر، والروم. وقال آخرون: هو عذاب الآخرة.



سورة الشعراء

مكية إلا قوله : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخر السورة فإنها مدنية[١]
وهى خمسة آلاف وخمسمائة واثنان وأربعون حرفًا
وألف ومائتان وتسع وتسعون كلمة ومائتان وسبع وعشرون آية

أخبرنا أبو الحسين الخبازى قال حدثنا أبو الشيخ الأصبهانى قال حدثنا أبو العباس الطهرانى قال حدثنا يحيى بن يعلى بن منصور قال حدثنا إسماعيل بن أبى أويس قال حدثنا أبى عن أبى بكر عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «أُعطيت السورة التى يذكر فيها البقرة من الذكر الأول ، وأُعطيت طه والطواسين من ألواح موسى عليه السلام ، وأُعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التى تذكر فيها البقرة من تحت العرش ، وأُعطيت المفصل نافلة» .

وأخبرنى أبو الحسن محمد بن القاسم الماوردى الفارسى قال حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن منصور الخيزرانى ببغداد قال حدثنا محمد بن أحمد بن حبيب قال حدثنا يعقوب بن يوسف قال حدثنا يحيى بن يحيى قال أخبرنا خارجة عن عبد الله عن إسماعيل بن أبى رافع عن الرقاشى (ح)[٢] وعن الحسن عن أنس : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إن الله أعطانى السبع مكان التوراة ، وأعطانى الطواسين مكان الزبور ، وفضلنى بالحواميم ، والمفصل ، ما قرأهن نبى قبلى» .

وأخبرنى كامل بن أحمد النحوى وسعيد بن محمد المقرئ قالا أخبرنا أحمد بن محمد بن جعفر الشروطى قال حدثنا إبراهيم بن شريك الكوفى قال حدثنا أحمد بن عبد الله اليربوعى قال حدثنا سلام بن سليمان قال حدثنا هارون بن كثير عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى أمامة عن أُبى بن كعب قال قال لى رسول الله ﷺ : «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به ، وهود ، وشعيب ، وصالح ، وإبراهيم ، وبعدد من

---

(١) فى تفسير الطبرى : هى مكية فى قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدنى الآية التى يذكر فيها الشعراء ، وقوله : ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل﴾ .
وقال ابن عباس ، وقتادة : هى مكية إلا أربع آيات منها نزلت فى المدينة من قوله : ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ إلى آخرها . وهى مائتان وسبع وعشرون آية وفى رواية ست وعشرون .
(٢) زيادة حديثية يتطلبها سياق الإسناد .

كذب بعيسى، وصدق بمحمد ﷺ».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

﴿طسٓمٓ﴾ اختلف القراء فيها وفى أختيها فكسر الطاء فيهن على الإمالة حمزة، والكسائى. وخلف، وعاصم فى بعض الروايات. وقرأ أهل المدينة بين الكسر والفتح، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم. وقرأ غيرهم بالفتح على التفخيم.

وأظهر النون فى السين هاهنا، وفى سورة القصص أبو جعفر وحمزة للتبيين والتمكين، وأخفاها الآخرون لمجاورتها حروف الفم. وأما تأويلها: فروى الوالبى عن ابن عباس قال: ﴿طسٓمٓ﴾ قسم وهو من أسماء الله سبحانه. وقال عكرمة عنه: عجزت العلماء عن علم تفسيرها. وقال مجاهد: اسم السورة. وقال قتادة، وأبو روق: اسم من أسماء القرآن أقسم الله عز وجل به، أقسم الله سبحانه بطَوْله وسَنائه وملكه.

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا أبو حبش قال حدثنى أحمد بن عبيد الله بن يحيى الدارمى قال حدثنى محمد بن عبدة المصيصى قال حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابى قال حدثنا محمد بن بشر الرقى قال حدثنا أبو عمر حفص بن ميسرة عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿طسٓمٓ﴾ قال رسول الله ﷺ: «الطاء: طور سيناء، والسين: الإسكندرية، والميم مكة»(١).

قال جعفر الصادق: الطاء: طوبى، والسين: سدرة المنتهى، والميم: محمد المصطفى ﷺ.

---

(١) هذا حديث واضح الضعف وبه علة من علل المتون غير ما فى إسناده من الوهن وفيه أبو عمر حفص بن ميسرة الصنعانى، وقد تكلموا فيه ومنهم من ضعفه، وعبد الله بن محمد بن عقيل بن أبى طالب تكلموا فيه وقالوا منكر الحديث.

﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ﴾ أى هـذه الآيات آيات. ﴿ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ﴾ أى قـاتل: ﴿نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وذلك حين كذبه أهل مكة، فشق ذلك عليه، فأنزل الله سبحانه هذه الآية، ونظيرها فى الكهف.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ ذليلين، قال: لو شاء الله سبحانه لأنزل عليهم آية يذلون بها فلا يلوى أحد منهم عنقه إلى معصية الله عز وجل. قال ابن جريج: لو شاء لأراهم أمراً من أمره لا يعمل أحداً منهم بمعصيته.

أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن حبان قال حدثنا إسحاق بن محمد قال حدثنا أبى قال حدثنا إبراهيم بن عيسى قال حدثنا على بن على قال حدثنى أبو حمزة الثمالى فى هذه الآية قال: بلغنا والله أعلم أنها صوت يسمع من السماء فى النصف من شهر رمضان تخرج له العواتق من البيوت.

وبه عن أبى حمزة قال حدثنى الكلبى عن أبى صالح مولى أم هانئ أن عبد الله بن عباس حدثه قال: نزلت هذه الآية فينا، وفى بنى أُمية قال: سيكون لنا عليهم الدولة، فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة، وهوانٌ بعد عزة. وأما قوله سبحانه: ﴿خَـٰضِعِينَ﴾ ولم يقل خاضعة وهى صفة الأعناق. وفيه وجوه صحيحة من التأويل أحدها: فظل أصحاب الأعناق لها خاضعين، فحذف الأصحاب، وأقام الأعناق مقامهم لأن الأعناق إذا خضعت... [1] خاضعون فجعل الفعل أولاً للأعناق، ثم جعل خاضعين للرجال كقول الشاعر:

على قبضة موجـودة ظهر كفه فلا المرء مستحى ولا هو طاعم

فأنث فعل الظهر لأن الكف تجمع الظهر، ويكفى منه كما أنك مكتف بأن تقول خضعت للأمر أن تقول: خضعت لك رقبتى، ويقول العرب: كل ذى عين ناظر إليك، وناظرة إليك؛ لأن قولك نظرت إليك عينى، ونظرت بمعنى واحد، وهذا شاهد فى كلام العرب أن يترك الخبر عن الأول، ويعمد إلى الآخر، فيجعل له الخبر كقول الراجز:

طول الليالى أسرعت فى نقضى طوين طولى وطوين عرضى

فأخبر عن الليالى وترك الطول.

قال جرير:

أرى مَرّ السنين أخـذن منى كما أخذ السرار من الهلال

وقال الفرزدق:

(١) موضع النقط كلمة غير مقروءة.

نرى أرماحهـم متقلديهـا إذا صدئ الحديد على الكماة

فلم يجعل الخبر للأرماح ورده إلى هم لكناية القوم، وإنما جاز ذلك لأنه لو أسقط من، وطول، والأرماح من الكلام لم يفسد سقوطها معنى الكلام، فكذلك رد الفعل إلى الكناية فى قوله: ﴿أَعْنَـٰقُهُمْ﴾ لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام، ولأدى ما بقى من الكلام عنها، وكان: فظلوا خاضعين لها. واعتمد الفراء وأبو عبيدة على هذا القول.

وقال قوم ذكر الصفة لمجاورتها المذكر، وهو قوله: (هم) على عادة العرب فى تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى مذكر، وتأنيث المذكر إذا أضافوه إلى مؤنث، كقول الأعشى:

وتشرق بالقول الذى قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

قال العجاج: لما رأى متن السماء أبعدت وقيل: لما كان الخضوع، وهو المتعارف من بنى آدم أخرج الأعناق مخرج بنى آدم كقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤)وقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾(النمل: ١٨). ومنه قول الشاعر:

تمررتها والديك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا

وقيل: إنما قال: ﴿خَـٰضِعِينَ﴾ فعبر بالأعناق عن جميع الأبدان، والعرب تعبر ببعض الشىء عن كله كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ (الحج: ١٠) وقوله: ﴿أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ (الإسراء: ١٣) ونحوهما.

قال مجاهد: أراد بالأعناق ههنا الرؤساء والكبراء. وقيل: أراد بالأعناق الجماعات، والطوائف من الناس. يقال: جاء القوم عنقًا أى طوائف، وعُصبًا، كقول الشاعر:

إن العراق وأهله عنق إليـك فهيت هيتا

وقرأ ابن عبلة: فظلت أعناقهم لها خاضعة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ أى وعظ وتذكير. ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ﴾ فى الوحى والتنزيل. ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟﴾ أخبار وعواقب وجزاء ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهذا وعيد لهم. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ لون، وصنف، من النبات مما يأكل الناس والأنعام. ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن يكرم على الناس. يقال: نخلة كريمة، إذا طاب حملها، وناقة كريمة إذا كثر لبنها.

أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا عبد الله بن يوسف قال حدثنا الحسن بن محمد بن بختويه قال حدثنا عمرو بن ثور، وإبراهيم بن أبى يوسف قالا: حدثنا محمد بن يوسف الفريابى قال حدثنا سفيان عن رجل عن الشعبى فى قوله: ﴿كَرِيمٍ﴾ ثم قال: الناس من نبات الأرض، فمن

دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكرت. ﴿لَآيَةً﴾ لدلالة على وجودى، وتوحيدى وكمال قدرتى وحكمتى، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لما سبق من علمى فيهم. قال سيبويه: «كان» ههنا صلة مجازه: وما أكثرهم مؤمنين. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنقمة من أعدائه. ﴿الرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة بأوليائه.



﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ۝ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ۝ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ۝﴾

﴿وَإِذْ نَادَىٰ﴾. واذكر يا محمد إذ نادى. ﴿رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ حين رأى الشجرة والنار. ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بالكفر والمعصية، ولبنى إسرائيل باستعبادهم وسوموهم سوء العذاب.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ وقرأ عبيد بن عمير بالتاء، أى ألا تتقون؟! ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن

يُكَذِّبُونِ۝ وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ من تكذيبهم إياى. ﴿وَلَا يَنطَلِقُ﴾ ولا ينبعث. ﴿لِسَانِى﴾ بالكلام، والتبليغ للعقدة التى فيه[1]. قراءة العامة برفع القافين ردًا على قوله ﴿أَخَافُ﴾. ونصبهما يعقوب على معنى: وأن يضيق ولا ينطلق. ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ ليؤازرنى ويظاهرنى فى تبليغ الرسالة، وهذا كما تقول: إذا نزلت بى نازلة أرسلت إليك أى لتعيننى. ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ﴾ يعنى القتيل الذى قتلته منهم واسمه فاتون، وكان خبّاز فرعون. وقيل: ﴿عَلَىَّ﴾ بمعنى: لهم عندى ذنب. ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ به. ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ أى لن يقتلوك. ﴿فَاذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ سامعون ما يقولون، وما تجابون، إنما أراد بذلك تقوية قلبيهما وإخبارهما أنه يعينهما ويحفظهما. ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يقل: رسولاً، لأنه أراد المصدر، أى رسالة ومجازه: ذو رسالة رب العالمين، كقول كثير:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسرٍّ ولا أرسلتهم برسول

أى: برسالة. وقال العباس بن مرداس:

ألاَ مَن مبلغٌ عنا خُفَافا رسولاً بيتُ أهلك مُنْتَهَاها

يعنى رسالة فلذلك انتهاء، قاله الفراء.

وقال أبو عبيدة: يجوز أن يكون الرسول فى معنى الاثنين والجمع، تقول العرب: هذا رسولى، ووكيلى، وهذان رسولىّ ووكيلىّ، وهؤلاء رسولى ووكيلى، ومنه قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ (الشعراء: ٧٧). وقيل: معناه: كل واحد منا رسول رب العالمين.

﴿أَنْ﴾ أى بأن ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أى إلى فلسطين ولا تستعبدهم. وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة وكانوا فى ذلك الوقت ستمائة وثلاثين ألفًا، فانطلق موسى إلى مصر، وهارون بها، فأخبره بذلك، فانطلقا جميعًا إلى فرعون، فلم يؤذن لهما سنة فى الدخول عليه. فدخل البواب، فقال لفرعون: هاهنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين. فقال فرعون: ائذن له لعلنا نضحك منه. فدخلا عليه، وأديا إليه رسالة الله سبحانه وتعالى. فعرف فرعون موسى لأنه نشأ فى بيته، فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ يعنى صبيًا. ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ وهى ثلاثون سنة. ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يعنى قتل القبطى.

أخبرنا ابن عبدوس قال حدثنا محمد بن يعقوب قال حدثنا محمد بن الجهم قال حدثنا

---

(١) لم تكن العقدة التى فى لسان موسى عليه السلام لسبب عيب فى لسانه إنما كانت العجمة التى اعترته نظرًا لقيامه خارج مصر فى قوم شعيب واختلاف بعض ألفاظ الكلمات عما هى فى ديار فرعون واعتياد موسى عليه السلام على لغة ولهجة قوم شعيب، فكل الأنبياء أسوياء فى الخَلْق والخُلُق.

الفراء قال حدثنى موسى الأنصارى عن السرى بن إسماعيل عن الشعبى أنه قرأ: (فعلت فعلتك التى)، بكسر الفاء ولم يقرأ بها غيره.

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ الجاحدين لنعمتى وحق تربيتى ربيناك فينا وليدًا، فهذا الذى كافأتنا أن قتلت منا وكفرت بنعمتنا. وهذه رواية العوفى عن ابن عباس، وقال: إن فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية.

فقال موسى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أى الجاهلين قبل أن يأتينى عن الله شىء، هذا قول أكثر المفسرين. وكذلك هو فى حرف ابن مسعود: وأنا من الجاهلين.

وقيل: من الضالين عن العلم بأن ذلك يؤدى إلى قتله.

وقيل: من الضالين عن طريق الصواب من غير تعمد، كالقاصد إلى أن يرمى طائرًا، فيصيب إنسانًا.

وقيل: من المخطئين، نظيره: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾(يوسف: ٨)، ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ (يوسف: ٩٥).

وقيل: من الناسين، نظيره: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ (البقرة: ٢٨٢).

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ إلى مدين. ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ فهمًا وعلمًا. ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

اختلف العلماء فى تفسيرها ففسرها بعضهم على إقرار، وبعضهم على الإنكار، فمن قال هو إقرار: قال: عدها موسى نعمة منه عليه حيث رباه ولم يقتله كما قتل غلمان بنى إسرائيل، ولم يستعبده كما استعبدهم، وهذا قول الفراء، ومن قال: هو إنكار معناه: أوتلك نعمة؟ على طريق الاستفهام كقوله: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾ (الأنعام: ٧٦)، وقوله: ﴿فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٤)، وقول الشاعر: همُ همُ[1].

وقال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة:

لم أنسَ يوم الرحيل وقفتها ... وجفنها من دموعها شَرِقُ

وقولها والركاب واقفة ... تركتنى هكـذا وتَنْطَلَقُ

وهذا قول مجاهد. ثم اختلفوا فى وجهها. فقال بعضهم: هذا رَدٌّ من موسى عليه السلام

---

(١) الشاعر هو أبو خراش الهذلى، وتمام البيت هو:

أخافونى وقالوا يا خويلد لا تُرع ... فقلت وأنكرت الوجوه هُمُ هُمُ

وتمام البيت من تفسير القرطبى.

على فرعون حين امتن عليه بالتربية فقال: لو لم تقتل بنى إسرائيل لربانى أبواى فأى نعمة لك عَلَىّ؟

وقيل: ذكره إساءته إلى بنى إسرائيل، فقال: تَمُنّ عَلَىّ أن تربينى وتنسى جنايتك على بنى إسرائيل؟

وقيل معناه: كيف تَمُنّ عَلَىّ بالتربية، وقد استعبدت قومى؟ ومن أهين قومه ذل فتعبيدك بنى إسرائيل قد أحبط إحسانك إلَىّ.

وقال الحسن: يقول: أخذت أموال بنى إسرائيل وأنفقت منها عَلَىّ، واتخذتهم عبيدًا.

وقوله سبحانه: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أى اتخذتهم عبيدًا، يقال: عَبَّدته وأعبدته وأنشد الفراء:

عَلاَمَ يُعْبِدُنى قومى وقد كَثُرَت   فيهم أباعرُ ما شاءوا وعِبْدانُ

وله وجهان أحدهما: النصب بنزع الخافض مجازه: بتعبيدك بنى إسرائيل. والثانى: الرفع على البدل من النعمة.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأى شىء رب العالمين الذى تزعم أنك رسوله إلىّ؟.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أنه خلقها عن الكلبى.

وقال أهل المعانى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أى ما تعاينونه كما تعاينونه، فكذلك فأيقنوا أن ربنا هو رب السموات والأرض.

﴿قَالَ﴾ فرعون. ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من أشراف قومه. قال ابن عباس: وكانوا خمسمائة رجل عليهم الأسورة محيلاً لقوم موسى معجبًا لقومه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ فقال موسى مفهمًا لهم، وملزمًا للحجة عليهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ قَالَ﴾ فرعون. ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ يتكلم بكلام لا يعقله، ولا نعرف صحته. ف ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقال فرعون حين لزمته الحجة وانقطع عنه الجواب تكبرًا عن الحق وتماديًا فى الغى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ المحبوسين.

قال الكلبى: وكان سجنه أشد من القتل لأنه كان يأخذ الرجل إذا سجنه فيطرحه فى مكان وحده فردًا لا يسمع ولا يبصر فيه شيئًا يهوى به فى الأرض.

فقال له موسى حين توعده بالسجن ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ يبين صدق قولى. ومعنى الآية: أتفعل ذلك إن أتيتك بحجة بينة؟ وإنما قال ذلك له موسى لأن من أخلاق الناس السكون

إلى الإنصاف والإجابة إلى الحق بعد البيان.

فقال له فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ فإنا لن نسجنك حينئذ. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ بيّنٌ ظاهر أمره. فقال: وهل غير هذا؟ ﴿وَنَزَعَ﴾. موسى ﴿يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ۝ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ۝ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ۝ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ

أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

قال فرعون: ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وهو يوم الزينة.

قال ابن عباس: وافق ذلك يوم السبت فى أول يوم من السنة، وهو يوم النيروز.

وقال ابن زيد: وكان اجتماعهم للميقات بالإسكندرية. ويقال بلغ ذنب الحيّة من وراء البحيرة يومئذ.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان، ولمن تكون الغلبة لموسى أو للسحرة. ﴿لَعَلَّنَا﴾ لكى. ﴿نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ موسى، وقيل: إنما قالوا ذلك على طريق الاستهزاء، وأرادوا بالسحرة موسى، وهارون وقومهما.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن﴾ لأن ﴿كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من أهل زماننا. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه.

أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن لؤلؤ قال أخبرنا الهيثم بن الخلف قال حدثنا الدورقى عن حجاج بن جريج فى هذه الآية قال: أوحى الله سبحانه إلى موسى أن اجمع بنى إسرائيل كل أربعة أهل أبيات فى بيت ثم اذبحوا أولاد الضأن فاضربوا بدمائها على أموالكم، فإنى سآمر الملائكة فلا تدخل بيتًا على بابه دم، وسآمرها فتقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وأموالهم، ثم اخبزوا خبزًا فطيرًا فإنه أسرع لكم، ثم أسر بعبادى حتى ينتهى إلى البحر فيأتيك أمرى، ففعل ذلك. فلما أصبحوا قال فرعون: هذا عمل موسى، وقومه، قتلوا أبكارنا من أنفسنا وأموالنا، فأرسل فى أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور، مع كل ملك ألف، وخرج فرعون فى الكرسى العظيم.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ﴾ يعنى الشرط ليجمعوا السحرة، وقال لهم: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ عصبة، وشرذمة كل شىء بقيته القليلة، ومنه قول الراجز:

جاء الشتاء وثيابى أخـلاق   شراذم يضحك منها النّوّاق[1]

قال ابن مسعود: كان هؤلاء الشرذمة ستمائة وسبعين ألفًا. وأخبرنا أبو بكر الخرمى قال حدثنا أبو حامد الأعمش قال حدثنا أبو جعفر محمد بن عبد الله بن المبارك المخزومى قال حدثنا يحيى بن آدم قال حدثنا إسحاق عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودى فى هذه الآية، قال: كان أصحاب موسى ستمائة ألف.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ يعنى أعداء لمخالفتهم ديننا، وقتلهم أبكارنا وذهابهم بأموالنا التى استعاروها وخروجهم من أرضنا بغير إذن منا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ﴾ قرأ النخعى، والأسود بن يزيد، وعبيد بن عمرو، وسائر. . .[2] وقراء الكوفة، وأبو عامر، والضحاك: ﴿حَـٰذِرُونَ﴾، بالألف، وهى قراءة ابن مسعود، وابن عباس، واختيار أبى عبيد. وقرأ الآخرون: حذرون، بغير ألف، وهما لغتان.

وقال قوم: حاذرون، مؤدون مقرُّون شاكون فى السلاح ذوو إرادة وقوة وكراع. وحذرون: فرقون متيقظون، وقال الفراء: كأن الحاذر الذى يحذرك والحذر المخلوق حذر ألا يلقاه إلاّ حذرًا. والحذر اجتناب الشىء خوفًا منه.

وقرأ شميط بن عجلان: حادرون بالدال غير معجمة. قال الفراء: يعنى عظامًا من كثرة الأسلحة. ومنه قيل للعين العظيمة الحدِرة، وللمتورم حادر.

قال امرؤ القيس:

وعين لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ   شُقَّتْ مآقيها من أُخَرْ

﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ﴾ قال مجاهد: سماها كنوزًا لأنها لم تنفق فى طاعة الله سبحانه. ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ومجلس حسن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما وصفنا. ﴿وَأَوْرَثْنَـٰهَا﴾ بهلاكهم. ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ فلحقوهم فى وقت إشراق الشمس، وهو إضاءتها. ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أى تقابلا بحيث يرى كل فريق منهما صاحبه. وكسر يحيى، والأعمش، وحمزة، وخلف: الراء فى (ترآى). وقرأ الباقون بالفتح.

﴿قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ لملحقون. وقرأ الأعرج، وعبيد بن عمير: لمدّركون،

---

(١) فى تفسير الطبرى: النواق من الرجال: الذى يروض الأمور ويصلحها.

(٢) موضع النقط كلمة هذا رسمها: «كـ».

بتشديد الدال والاختيار قراءة العامة كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ (يونس: ٩٠).

﴿قَالَ﴾ موسى ثقة بوعد الله: ﴿كَلَّآ﴾ لا يدركونكم. ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ طريق النجاة. ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾.

أخبرنى الحسين بن محمد بن الحسين الفنجوى قال أخبرنى محمد بن الحسين بن على اليقطينى قال أخبرنا أحمد بن عبد الله العقيلى، قال حدثنا صفوان بن صالح قال حدثنا الوليد قال حدثنى محمد بن حمزة وعبد الله بن سلام: أن موسى لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شىء، والمكون لكل شىء، والكائن بعد كل شىء اجعل لنا مخرجًا، فأوحى الله سبحانه أن اضرب بعصاك البحر ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ فانشق ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ﴾ فرقة أى قطعة من الماء ﴿كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ كالجبل الضخم.

قال ابن جريج وغيره: لما انتهى موسى إلى البحر هاجت الريح والبحر يرمى بموج مثل الجبال، فقال له [قومه][1] توسع يا مكلم الله أين أُمرت فقد غشينا فرعون، والبحر أمامنا. قال موسى: هاهنا، فخاض يوشع الماء وجاز البحر يتوارى حوافر دابته الماء. وقال الذى يكتم إيمانه: يا مكلم الله أين أمرت؟ قال: هاهنا. فكبح فرسه بلجامه حتى طال الزبد من شدقيه، ثم أقحمه البحر، فارتسب فى الماء. وذهب القوم يصنعون مثل ذلك فلم يقدروا. فجعل موسى لا يدرى كيف يصنع؟ فأوحى الله سبحانه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ فضربه بعصاه. ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ فإذا الرجل واقف على فرسه لم يبتل لبده ولا سرجه.

﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ يعنى قوم فرعون، يقول قربناهم إلى الهلاك، وقدمناهم إلى البحر.

﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ فرعون وقومه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ قال مقاتل: لم يؤمن من أهل مصر غير آسية امرأة فرعون، وحزبيل المؤمن، ومريم بنت موسى التى دلت على عظام يوسف عليه السلام.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ۝ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ

(١) زيادة يتطلبها السياق.

ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ﴾ قال بعض العلماء: إنما قالوا: فنظل لأنهم كانوا يعبدونها النهار دون الليل.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ قراءة العامة بفتح الياء، هل يسمعون دعاءكم. وقرأ قتادة: يُسمعونكم، بضم الياء. ﴿إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وفي هذه الآية بيان أن الدين إنما يثبت بالحجة وبطلان التقليد فيه.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ الأولون ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ وأنا منهم بريء، وإنما وحد العدو لأن معنى الكلام قال: كل معبود لكم عدو لي لو عبدتهم يوم القيامة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (مريم: ٨٢).

وقال الفراء: هو من المقلوب، فإني عدو لهم لأن من عاديته عاداك.

ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ نصب بالاستثناء، يعني وإنهم عدو لي وغير معبود لي ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فإني أعبده. قاله الفراء. وقيل: هو بمعنى لكن. وقال الحسن بن الفضل: يعني الأمر عند رب العالمين.

ووصفه فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أخبر أن الهادي على الحقيقة هو الخالق لا هادي غيره.

قال أهل البيان: الذي خلقني في الدنيا على فطرته، فهو يهديني في الآخرة إلى جنته.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ يعني يرزقني ويربيني.

وقال أبو العباس بن عطاء يعني ﴿يُطْعِمُنِى﴾ أي طعام شاء، ﴿وَيَسْقِينِ﴾ أي شراب شاء.

قال محمد بن كثير العبدى: صحبت سفيان الثورى بمكة دهراً فكان يستقى من السبت إلى السبت كفًا من . . .[١].

وسمعت أبا القاسم بن شعيب يقول سمعت أبا الحسين محمد بن على بن الشاه يقول سمعت أبا عبد الله محمد بن على بن حمدان يقول سمعت الجراح بن عبد الكريم يقول: خرجت من بلخ فى طلب إبراهيم بن أدهم، فرأيته بحمص فى أتون يسجرها فسلمت عليه، وسألته عن حاله، فردّ عَلَىّ السلام وسألنى عن حالى، وحال أقربائى. فكنت معه يومه ذلك، فقال: لعل نفسك تنازعك إلى شىء من طعام؟ فقلت: نعم. فأخذ رماداً، وترابًا فخلطهما، وأكلهما، ثم أقبل بوجهه عَلَىّ وأنشأ يقول:

اخلط التـرب بالرمـــاد وكله وازجر النفس عن مقام السؤال

فـإذا شئـت أن تقنـع بالـذل فرم مـا حوته أيدى الرجال

فخرجت من عنده فمكثت أيامًا لم أدخل عليه، فاشتد شوقى إليه، فدخلت عليه، وكنت عنده، فلم يتكلم بشىء، فقلت: لمَ لا تتكلم؟ فقال:

منع الخطاب لأنه سببُ الأذى والنطق فيـه معـادن الآفات

فإذا نطقــت فكن لربك ذاكراً وإذا سكت فعد جسمك مات

قال أبو بكر الوراق: ﴿يُطْعِمُنِى﴾ بلا طعام، ﴿وَيَسْقِينِ﴾ بلا شراب، ومجازها: يشبعنى ويروينى من غير علاقة كقول النبى ﷺ: «إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقين» يدل عليه حديث السقيا فى عهد النبى ﷺ، حيث سمع النبى ﷺ ثلاثة أيام يقرأ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود:٦). فرمى بقربته، وأتاه آت فى منامه بقدح من شراب الجنة.

قال أنس: فعاش بعد ذلك نيفًا وعشرينً سنة لم يأكل، ولم يشرب على شهوته.

وقال على بن قادم: كان عبد الرحمن بن أبى نعم لا يأكل فى الشهر إلاّ مرة فبلغ ذلك الحجاج فدعاه، وأدخله بيتًا وأغلق عليه بابه ثم فتحه بعد خمسة عشر يومًا ولم يشك أنه مات، فوجده قائمًا يصلى، فقال: يا فاسق، تصلى بغير وضوء. فقال: إنما يحتاج إلى الوضوء من يأكل ويشرب وأنا على الطهارة التى أدخلتنى عليها هذا البيت.

وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمد النيسابورى يقول: سمعت أبا نصر منصور بن عبد الله الأصبهانى يقول: سمعت أبا سعيد الخراز بمكة يقول: كنت بطرسوس جائعًا فاشتد على

---

(١) كلمة بالمخطوط هذا رسمها: «ومل» وقد تكون «رمل» كما سيأتى فى إبراهيم بعده وهذا طبعًا ليس بصحيح فى كلا الموضعين.

الجوع، فجلست على شاطئ النهر فوضعت رجلى فى الماء، فنوديت: أصرخت من جوعك، هاك شبع الأبد.

قال: فعاش بعده سنين لم يشته طعامًا ولا شرابًا، وكان مع ذلك إذا أراد الأكل والشراب أمكنه.

وبلغنى: أن امرأة أُسرت من حلب إلى الروم فى أيام سيف الدولة على بن حمدان، فهربت منهم ومشت مائتى فرسخ لم تطعم شيئًا. فقدمت إلى سيف الدولة، فقال لها: كيف قويت على المشى؟ وكيف عشت بلا طعام؟

قالت: كنت كلما جُعت أو أعييت أقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات، فأشبع وأروى وأقوى.

وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول سمعت أبا قاسم النصرباذى يقول: سمعت أبا بكر الشبلى يقول فى الخبز لطيفة تشبعك لا الخبز، ولو شاء لأبقى فيك تلك اللطيفة حتى لا تحتاج إلى الخبز.

وقال ذو النون المصرى يطعمنى طعام المحبة ويسقينى شراب المحبة، ثم أنشأ يقول:

شراب المحبة خير الشراب وكل شراب سواه سراب

وسمعت ابن حبيب يقول سمعت أبا عبد الله محمد بن عبد الله الجرجانى يقول سمعت الحسن بن علوية الدامغانى يقول سمعت عمى يقول سمعت أبا يزيد البسطامى يقول: إن لله شرابًا يقال له شراب المحبة ادخره لأفاضل عباده فإذا شربوا سكروا فإذا سكروا طاشوا فإذا طاشوا طاروا فإذا طاروا وصلوا، فإذا وصلوا اتصلوا، فهم ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٥).

وقال الجنيد: يحشر الناس كلهم عراة إلاّ من لبس لباس التقوى، وغراثا إلاّ من أكل طعام المعرفة، وعطاشا إلاّ من شرب شراب المحبة[١].

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ أضاف إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه وإن كان من الله سبحانه لأن قومه كانوا يعدونه عيبًا، فاستعمل حُسن الأدب، نظيرها قصة الخضر حيث قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ

---

(١) ما سبق من كلام أهل التصوف عار من الدليل ومثل هذا الكلام لا يقال إلاّ عن دليل مقطوع بصحته حيث هو من أمور الغيب فلا يجوز أن يقال فى هذا: هذا من قبيل الإشارة إذ إن الله حذر من مثل هذا وبين أن من علامات التقوى تعظيم شعائر الله فقال: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ فعلى المسلم أن لا يتقول على الله ولا على نبيه ما لا علم له به وما لا دليل له عليه نجانا الله وإياكم من الغلو والتساهل فى دين الله.

أَعِيبَهَا﴾ (الكهف: ٧٩) وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ (الكهف: ٨٢)، ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ يبرئنى.

يحكى أن أبا بكر الوراق مرّ بطبيب يعطى الناس الأدوية، فوقف عليه وقال: أيفعل دواؤك هذا أمرين؟ قال: وما هما؟ فقال: رد قضاء قاض، وجر شفاء شاف؟ فقال: لا. قال: فليس ذلك شيء.

وقال جعفر الصادق: إذا مرضت بالذنوب شفانى بالتوبة.

قال يسار بن عبد الله: إذا أمرضتنى مقاساة الخلق شفانى بذكره والأنس به.

﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أدخل ها هنا ﴿ثُمَّ﴾ للقطع والتراخى.

قال أهل الإشارة: يميتنى بالعدل ويحيينى بالفضل، يميتنى بالمعصية ويحيينى بالطاعة، يميتنى بالفراق ويحيينى بالتلاق، يميتنى بالخذلان ويحيينى بالتوفيق، يميتنى غنًى ويحيينى به، يميتنى بالجهل ويحيينى بالعلم.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ﴾ أرجو. ﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ قراءة العامة بالتوحيد.

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن حبش قال حدثنا أبو القاسم بن الفضل قال حدثنا أبى قال حدثنا أحمد بن يزيد قال حدثنا روح عن أبى اليقظان قال حدثنا الحكم السلمى قال سمعت الحسن يقرأ: والذى أطمع أن يغفر لى خطاياى يوم الدين.

قال: إنها لم تكن خطيئة ولكن كانت خطايا. قال مجاهد، ومقاتل: هى قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ (الصافات: ٨٩) وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ (الأنبياء: ٦٣) وقوله لسارة: هى أختى، زاد الحسن: وقوله للكوكب: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾ (الأنعام: ٧٦).

أخبرنى الحسين بن محمد بن الحسين قال حدثنا أحمد بن إبراهيم بن شاذان قال: حدثنا عبيد الله بن زياد الحريرى قال حدثنا أبو سعيد الأشج قال حدثنا أبو خالد عن داود عن الشعبى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله إن عبد الله بن جدعان كان يقرى الضيف، ويصل الرحم، ويفك العانى، فهل ينفعه ذلك؟ قال: «لا لأنه لم يقل يومًا قط رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين».

وهذا الكلام من إبراهيم عليه السلام احتجاج على قومه، وإخبار أنه لا يصلح للإلهية إلاّ من فعل هذه الأفعال.

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ هو البيان على الشيء على ما توجبه الحكمة. وقال مقاتل: فهمًا وعلمًا.

وقال الكلبى: النبوة.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ بمن قبلى من النبيين فى الدرجة وقال ابن عباس: أهل الجنة.

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى ذكرًا جميلاً وثناءً حسنًا وقبولاً عامًا فى الأمم التى تجىء بعدى. فأعطاه الله سبحانه وتعالى الكمال، فكل أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه.

قال القتيبى: وذلك أن اللسان موضع القول على الاستعارة لأن القول يكون به. والعرب تسمى اللغة لسانًا. وقال الأعشى:

إنى أتتنى لسان لا أُسَرُّ بها   من عَلْو لا عجب منها ولا سخر

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۝ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ وقد بينا المعنى الذى من أجله استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه حين وعده التوبة بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع.

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ .

❖ ❖ ❖

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ۝ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ خالص من الشرك والشك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد، هذا قول أكثر المفسرين.

وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو الصحيح، وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر، والمنافق مريض، قال الله سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ (البقرة: ١٠).

وقال أبو عثمان النيسابورى: هو القلب الخالى من البدعة المطمئن على السنة.

وقال الحسين بن المفضل: سليم من آفة المال والبنين.

وقال الجنيد: السليم فى اللغة اللديغ فمعناه كاللديغ من خوف الله.

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ وقربت. ﴿الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ وَبُرِّزَتِ﴾ وأظهرت. ﴿الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ للكافرين.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ يوم القيامة. ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم. ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾.

قال ابن عباس: جمعوا. وقال مجاهد: ذهبوا. وقال مقاتل: قذفوا. وأصله كببوا، فكررت الكاف مثل قولك تهنهنى وريح صرصر ونحوهما.

﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ يعنى الشياطين، عن قتادة ومقاتل. وقال مقاتل: كفرة الجن.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ وهم أتباعه ومن أطاعه من الجن والإنس، قالوا للشياطين والمعبودين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ نعدلكم. ﴿بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فنعبدكم من دونه. ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ أى دعانا إلى الضلال وأمرنا به. ﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ هم الشياطين، عن مقاتل، وقال الكلبى: أولونا الذين اقتدينا بهم. وقال أبو العالية، وعكرمة: يعنى إبليس، وابن آدم القاتل، لأنه أول من سن القتل وأنواع المعاصى.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ قريب ينفعنا ويشفع لنا، وذلك حين تشفع الملائكة، والنبيون، والمؤمنون.

أخبرنى الحسين بن محمد الفنجرى قال حدثنا محمد بن الحسين بن على اليقطينى قال أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلى قال حدثنا صفوان بن صالح قال حدثنا الوليد بن مسلم قال حدثنا من سمع أبا الزبير يقول: أشهد لسمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليقول فى الجنة: رب ما فعل صديقى فلان، وصديقه فى الجحيم، فيقول الله سبحانه: أخرجوا له صديقه إلى الجنة، فيقول من بقى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾، وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن شنبة قال حدثنا سمعان بن أبى مسعود قال حدثنا المضاء بن الجارود قال حدثنا صالح المرى عن الحسن قال: ما اجتمع ملأ على ذكر الله تعالى فيهم رجل من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان شفعاء بعضهم فى بعض عند الله شافعون مشفعون.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا، تمنوا حين لم ينفعهم ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّ فِى ذَ ٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

❖ ❖ ❖

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وصلت التاء للجماعة كقوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ (الحجرات: ١٤).

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعنى نوحًا وحده، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ (المؤمنون: ٥١).

وأخبرنى أبو عبد الله الدينورى قال حدثنا أبو على المقرئ قال حدثنا أبو حميد على بن الحسين بن حرب قال حدثنا الحسين بن محمد بن الصباح قال حدثنا عبد الوهاب عن إسماعيل عن الحسين قال: قيل له: يا أبا سعيد أرأيت قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ و﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٢٣) و﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٤١) وإنما أرسل إليهم رسولاً واحدًا؟

قال: لأن الآخر جاء بما جاء به الأول، فإذا كذبوا واحدًا، فقد كذبوهم أجمعين.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ فى النسب لا فى الدين. ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ على الوحى. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ﴾ قراءة العامة. وقرأ أبو يعقوب: وأتباعك. ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ يعنى السفلة عن مقاتل وقتادة والكلبى. وقال ابن عباس: الحاكة.

وأخبرنى الحسين بن محمد الفنجرى قال حدثنا محمد بن الحسين الكعبى قال حدثنا حسين ابن مزاحم عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ قال: الحاكة (والحجامون). وقال عكرمة: الحاكة والأسافلة.

﴿قَالَ﴾ نوح. ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إنما لى منهم ظاهر أمرهم، وعَلَىَّ أن أدعوهم وليس علىَّ من خساسة أحوالهم فى ديارهم ومحاسبتهم بشىء ولم أكلف ذلك إنما كلفت أن أدعوهم.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وقيل: معناه: أى لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلكم.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ﴾ عما تقول وتدعو إليه. ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ يعنى من المشئومين، عن الضحاك. وقال قتادة: المضروبين بالحجارة.

وقال ابن عباس، ومقاتل: من المقتولين.

وقال اليمانى: كل شىء فى القرآن من ذكر المرجومين فإنه يعنى بذلك القتل إلاّ التى فى سورة مريم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ (مريم: ٤٦) فإنه يعنى لأشتمنك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ﴾ فاحكم. ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾. يعنى الموقر المجهز، عن ابن عباس. وقال مجاهد: المملوء المفروغ منه. وقال عطاء: المثقل. وقال قتادة: المحمل.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ على الرسالة، وقال الكلبى: أمين فيكم قبل الرسالة، فكيف تتهمونى اليوم؟ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ من أجر.

قال الوالبى عن ابن عباس: كل شرف.

وقال قتادة، والضحاك، ومقاتل، والكلبي: طريق. وهي رواية العوفي عن ابن عباس.

وقال ابن جريج عن مجاهد: هو الفج بين الجبلين.

وقال ابن أبي نجيح عنه: هو الثقبة الصغيرة. وعنه أيضًا: المناظر. وقال عكرمة: واد.

وقال مقاتل بن سليمان: كانوا يسافرون ولا يهتدون إلا بالنجوم فبنوا على الطرق أميالاً طوالاً عبثًا ليهتدوا بها يدل عليه قوله: ﴿ءَايَةً﴾: علامة.

وروى عن مجاهد أيضًا قال: الريع بنيان الحمام، دليله قوله: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي تلعبون. وقال أبو عبيدة: هو المكان المرتفع وأنشد لذي الرّمة:

طراقُ الخَوافي مشرق فوق ريعة ... نَدَى ليله في ريشه يترقرقُ

وفيه لغتان: ريع ورَيع، بكسر الراء وفتحها وجمعه أرياع، ورِيَعَة.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: قصور مشيدة. وقال معمر عنه: الحصون. وقال ابن أبي نجيح عنه: بروج الحمام. وقال قتادة: مآخذ للماء. وقال الكلبي: منازل. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية، واحدتها مصنع.

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ قال ابن عباس، وقتادة: كأنكم تبقون فيها خالدين، وقال خالد بن زيد: لعل استفهام، يعني فهل تخلدون حين تبنون هذه الأشياء؟ وقال الفراء: كيما تخلدون.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ أي سطوتم. وأخذتم. ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قتالين من غير حق.

قال مجاهد: قتل بالسيف وضرب بالسياط والجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم ذكر ما أعطاهم فقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ﴾.

روى العباس عن ابن عمير، وبشر عن الكسائي بإدغام الظاء في التاء. وقرأ الباقون بالإظهار وهو الاختيار.

﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ۝ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ قرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب وأيوب، وأبو عبيد، وأبو عاصم بفتح الخاء لقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ (العنكبوت:١٧) وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ (ص:٧) ومعناه إن هذا إلا كذب الأولين، وأساطيرهم، وقرأ الباقون بضم الخاء واللام، أي عادة الأولين من قبلنا يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب، وهذا تأويل قتادة. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ۝ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ﴾ أى فى الدنيا. ﴿ءَامِنِينَ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ ثمرها. ﴿هَضِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: لطيف ما دام فى كُفُرّاه. ومنه قيل: هضيم الكشح: إذا كان لطيفًا وقال الكلبى: إذا كان لطيفًا. وهضم الطعام إذا لطف واستحال إلى شكله. وقال عطية عنه: يانع نضيج. وقال قتادة وعكرمة: الرطب اللين. وقال الحسن: الرخو.

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن شنبة قال حدثنا ابن ماهان قال حدثنا الطنافسى قال حدثنا وكيع عن عبيدة عن أبى إسحاق عن أبى العلاء: ﴿هَضِيمٌ﴾ قال: مذنب. وقال مجاهد: متهشم متفتت وذلك حين يطلع يفيض عليه فيهضمه، وهو ما دام رطبًا فهو هضيم، فإذا يبس فهو هشيم. قال أبو العالية: يتهاشش، وقال الضحاك ومقاتل: متراكم قد ركب بعضه بعضًا، حتى هضم بعضه بعضًا، وأصله من الكسر.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ قرأ أهل الشام والكوفة: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ بالألف وهى قراءة أصحاب عبد الله، واختيار أبى عبيد، أى حاذقين بتخيرها.

وقال عطية، وعبد الله بن شداد: متخيرين لمواضع نحتها. وقرأ الباقون: فرهين، بغير ألف، وهو اختيار أبى حاتم. واختلفوا فى معناه: فقال ابن عباس: أشرين. وقال الضحاك:

كيسين. وقال قتادة: معجبين بصنعكم. وقال مجاهد: شرهين. وقال عكرمة: ناعمين. وقال السدى: متحرين. وقال ابن زيد: أقوياء. وقال الكسائى: بطرين. وقال أبو عبيد: فرحين. وقال الأخفش: فرحين. والعرب تعاقب بين الحاء والهاء، قد مدحته، ومدهته. ويجوز أن يكون فرهين وفارهين بمعنى واحد مثل قوله: ﴿عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ (النازعات: ١١) وناخرة. ونحوها.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المشركين. ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أى المسحورين المخدوعين، عن مجاهد، وقتادة. وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: من المعللين بالطعام والشراب. وأنشد الكلبى قول لبيد:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر

وقال آخر:

❖ ونُسحر بالطعام وبالشراب ❖

أى نعلل ونخدع. وهو على هذين القولين من السِّحر، بكسر السين.

وقال بعضهم: من السَّحر بفتح السين أى أصحاب الرؤية. يدل عليه قوله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ على صحة ما تقول. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ حظ ونصيب من الماء. ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ بعقر. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ﴾ أى على عقرها حين رأوا العذاب ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.



﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٤ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٦٩ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٣ إِنَّ فِى

ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مجاوزون الحلال إلى الحرام.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ من بلدنا. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ يعنى اللواط.

﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ المبغضين ثم دعا فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾. عند نزول العذاب. ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وهى امرأة لوط بقيت فى العذاب والهلاك.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ قال سمعت وهب بن منبه يقول: الكبريت والنار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.



﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ الغيضة وهم قوم شعيب، والأيكة والليكة: لغتان قرئتا جميعًا. ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قال أبو زيد: بعث الله سبحانه شعيبًا إلى قومه وأهل مَدْين وإلى أهل البادية، وهم أصحاب الأيكة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة فى النسب فلما ذكر مدين قال ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (الأعراف: ٨٥) لأنه كان منهم.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإنما دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم فيما حكى الله سبحانه عنهم على صيغة واحدة للإخبار بأن الحق الذى يدعون إليه واحد، وأنهم متفقون على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص فى العبادة والامتناع من أخذ الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين للكيل والوزن. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ﴾ الخليقة. ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ والجبل: الخلق، قال الشاعر:

والموت أعظم حادث ... مما يمر على الجبلة

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١) وهو مجازيكم به وما علَىَّ إلاّ الدعوة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ وذلك أن الله سبحانه حبس عنهم الريح سبعة أيام وسلط عليهم الحر حتى أخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء وكانوا يدخلون الأسراب ليتبردوا فيها فإذا دخلوها وجدوها أشد حرًا من الظلة، فخرجوا وهربوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة وهى الظّلة فوجدوا لها بردًا ونسيمًا، فنادى بعضهم بعضًا حتى إذا اجتمعوا تحتها أمطرت عليهم نارًا فاحترقوا.

قال قتادة: بعث الله سبحانه شعيبًا إلى أمتين أصحاب الأيكة، وأهل مدين. فأما أُصحاب الأيكة: فأهلكوا بالظلة. وأما أهل مدين: فأخذتهم الصيحة، صاح بهم جبريل صيحة فأهلكوا جميعًا.

أخبرنى الحسين بن محمد قال حدثنا موسى بن محمد قال حدثنا الحسين بن علوية قال حدثنا المسيب عن برد الجزرى قال: سلط الحر عليهم سبعة أيام ولياليهن ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل منهم فإذا تحته أنهار وعيون وماء بارد فتمكن تحته وأخذ ما يكفيه ثم جاء إلى أهل بيته فناداهم فآذنهم فجاءوا فأخذو ما يكفيهم وتمكنوا، ثم أذن بقية الناس فاجتمعوا تحته كلهم، فلم يغادر منهم أحدًا، فوقع ذلك الجبل عليهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ

(١) سقط قوله: ﴿إن كنت من﴾ من بين الآيات فأثبته.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

❖ ❖ ❖

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ٢٠٤ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ . يعنى القرآن. ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ قرأ الحجازيون، وأبو عمرو بتخفيف الزاى ورفع الحاء، والنون يعنون جبريل بالقرآن. وقرأ الآخرون: بتشديد الزاى، وفتح الحاء والنون، أى نزل الله جبريل. وهو اختيار أبى عبيد، وأبى حاتم لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ﴾ وهو مصدر نزل على قلبك يا محمد حتى وعيته.

﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ﴾ يعنى نزل بلسان. ﴿عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ وَإِنَّهُۥ﴾ يعنى ذكر القرآن وخبره، عن أكثر المفسرين. وقال مقاتل: يعنى ذكر محمد عليه الصلاة والسلام ونعته. ﴿لَفِي زُبُرِ﴾ كتب. ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وقرأ الأعمش: (زبر) بجزم الباء وغيره بالرفع.

﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً﴾ قرأ ابن عامر: تكن، بالتاء، ﴿ءَايَةٌ﴾ بالرفع، وقرأ غيره: ﴿يَكُن﴾ بالياء، ﴿ءَايَةً﴾ بالنصب. ومعنى الآية: أولم يكن لهؤلاء المنكرين دلالة وعلامة. ﴿أَن يَعۡلَمَهُۥ﴾ يعنى محمداً.

﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عبد الله بن سلام وأصحابه. قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى

اليهود وهم بالمدينة يسألون عن محمد عليه السلام، فقالوا: إن هذا لزمانه وإنّا نجد فى التوراة نعته وصفته، فكان ذلك آية لهم على صدقه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ﴾ يعنى القرآن. ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ هو جمع الأعجم، وهو الذى لا يفصح ولا يحسن العربية وإن كان منسوبًا إلى العرب، وتأنيثه عجماء، وجمعه عُجم. ومنه قيل للبهائم عُجم لأنها لا تتكلم.

قال النبى عليه السلام: «العجماء جرحها جبار» فإذا أردت أنه منسوب إلى العجم قلت: عجمى.

وأخبرنا ابن فنجويه قال حدثنا ابن حبش قال حدثنا أبو القاسم بن الفضل قال حدثنا سهل ابن على قال حدثنا أبو عمر قال حدثنا شجاع بن أبى نصر عن عيسى بن عمر عن الحسن أنه قرأ: (ولو نزلناه على بعض الأعجميين) مشددة بياءين جعله نسبة. ومعنى الآية: ولو نزلناه على رجل ليس بعربى اللسان فقرأه عليهم يعنى بغير لغة العرب لما كانوا به مؤمنين، وقالوا: ما نفقه قولك نظيره قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ﴾ (فصلت: ٤٤) وقيل معناه: ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفة من اتباعه.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ﴾ أى أدخلنا القرآن. ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لتقوم الحجة عليهم، وقيل يعنى: سلكنا الكفر فى قلوب المجرمين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

قال الفراء: من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كى فى مثل هذا ربما جزمت ما بعدها، وربما رفعت، فتقول: ربطت الفرس لا ينفلت، جزمًا ورفعًا. وأوثقت العبد لا يأبق فى الجزم على تأويل إن لم أربطه انفلت، وإن لم أوثقه فرّ، والرفع على أن الجازم غير ظاهر. أنشد بعض بنى عقيل:

وحتى رأينا أحسن الود بيننا مُسَاكَنَةً لا يَقْرِفُ الشَّرَّ قَارِفُ

ينشد رفعًا وجزمًا، ومن الجزم قول الراجز:

لطالما حَلأْ تُماهـا لا تَرِدْ فخلّياها والسِّجال تبترِدْ

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ قراءة العامة بالياء، يعنون العذاب.

أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن حبش قال أخبرنا أبو العباس عبدالرحمن بن محمد بن حماد الطهرانى قال: أخبرنا أبو زكريا يحيى بن الفضل الجرمى قال حدثنا وهب بن عمرو النمرى قال أخبرنا هارون بن موسى العتكى قال حدثنا الحسام عن الحسن أنه قرأ: فتأتيهم بغتة، بالتاء، فقال له رجل: يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بغتة فانتهره الحسن وقال: إنما هى

الساعة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾.

قال مقاتل: فقال المشركون يا محمد إلى متى توعدنا بالعذاب؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ فى الدنيا ولم نهلكهم. ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ يعنى العذاب. ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ۝ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ رسل ينذرونهم. ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي ينذرونهم تذكرة، محلها نصب وقيل رفع، أى تلك ذكرى.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فى تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ بل نزل به الروح. وقراءة العامة الشياطين بالياء فى جميع القرآن لأن نونه سخية وهجاؤه واحد كالدهاقين، والبساتين.

وقرأ الحسن البصرى، ومحمد بن السميقع اليمانى: الشياطون، بالواو.

وقال الفراء: غلط الشيخ - يعنى الحسن - فقيل ذلك للنضر بن شميل، فقال: إن جاز أن يحتج بقول رؤبة والعجاج، وذويهما فهلاّ جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه مع أنّا نعلم أنهما لم يقرآ ذلك إلاّ وقد سمعا فيه.

وقال المؤرج: إن كان اشتقاق الشياطين من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه.

وأخبرنى الحسين بن محمد بن الحسن بن عبد الله قال حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان بن عبد الله قال حدثنا أحمد بن الفرج المقرئ قال حدثنا عُمر بن شنبة قال سمعت أبا عبيدة يقول: لم يعب على الحسن فى قراءته إلاّ قوله وما تنزلت به الشياطون.

وبإسناده عن عمر بن شنبة قال حدثنا أبو حرب البابى من ولد باب قال: جاء أعرابى إلى يونس بن حبيب فقال: أتانا شاب من شبابكم هؤلاء، فأتى بنا هذا الغدير، فأجلسنا فى ذات جناحين من الخشب، فأدخلنا بساتين من ورائهما بساتون.

قال يونس: ما أشبه هذا بقراءة الحسن.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أن ينزلوا القرآن. ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ أى استراق السمع من السماء. ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ وبالشهب مرجومون. ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۝ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

أخبرنى الحسين بن محمد بن الحسين قال حدثنا موسى بن محمد بن على بن عبد الله قال حدثنا الحسين بن على بن شبيب المعمر قال حدثنا عباد بن يعقوب قال حدثنا على بن هاشم عن صباح بن يحيى المزنى عن زكريا بن ميسرة عن أبى إسحاق عن البراء قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ جمع رسول الله ﷺ بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً الرجل منهم

يأكل المسنة ويشرب العس فأمر عليًا برجل شاة فأدمها ثم قال: «ادنوا بسم الله» فدنا القوم عشرة عشرة، فأكلوا حتى صدروا ثم دعا بقعب من لبن فجرع منه جرعة، ثم قال لهم: «اشربوا بسم الله» فشرب القوم حتى رووا، فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما يسحركم به الرجل، فسكت النبى ﷺ يومئذ فلم يتكلم.

ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب، ثم أنذرهم رسول الله ﷺ فقال: «يا بنى عبد المطلب إنى أنا النذير إليكم من الله سبحانه والبشير لما يجيء به أحد، جئتكم بالدنيا والآخرة، فأسلموا وأطيعونى تهتدوا. من يؤاخينى ويؤازرنى ويكون وليى ووصيى بعدى وخليفتى فى أهلى ويقضى دينى» فسكت القوم، وأعاد ذلك ثلاثًا، كل ذلك يسكت القوم ويقول علِىٌّ: أنا، فقال: «أنت». فقام القوم، وهم يقولون لأبى طالب: أطع ابنك فقد أُمر عليك.

وأخبرنى عبد الله بن حامد الأصبهانى، ومحمد بن عبد الله بن حمدون قال أخبرنا أحمد ابن محمد بن الحسن قال حدثنا محمد بن يحيى قال حدثنا أبو اليمان قال أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: قام النبى ﷺ حين أنزل الله سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قال: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله سبحانه لا أغنى عنكم من الله شيئًا، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئًا، يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنكِ من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغنى عنك من الله شيئًا سلونى من مالى ما شئتم».

وأخبرنى عبد الله بن حامد قال أخبرنا مكى بن عبدان قال حدثنا عبد الله بن هاشم قال حدثنا عبد الله قال حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أنزل الله سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أتى رسول الله ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى: «يا صباحاه». فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء وبين رجل يبعث رسولاً، فقال رسول الله ﷺ لبنى عبد المطلب: «يا بنى فهر لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل يريد أن يغير عليكم صدقتمونى»؟ قالوا: نعم، قال: «فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ما دعوتنا إلا لهذا، فأنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١).

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ ولين جانبك. ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من عبادة الأوثان ومعصية الرحمن.

﴿وَتَوَكَّلْ﴾ قرأها بالفاء أهل المدينة، والشام، وكذلك هو فى مصاحفهم. وقرأ غيرهم

بالواو، أى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليكفيك كيد أعدائك.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى صلاتك عن أكثر المفسرين.

وقال مجاهد: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾ أينما كنت.

﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ ويرى تقلبك فى صلواتك فى حال قيامك، وقعودك، وركوعك، وسجودك، قاله عكرمة، وعطية عن ابن عباس. وقال مجاهد: ويرى تقلبك فى المصلين أى إبصارك منهم من هو خلفك كما تبصر من هو أمامك.

قال: وكان يرى من خلفه كما يرى من بين يديه[١].

أخبرنا عبد الله بن حامد قال أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن قال حدثنا السلمى، وأحمد بن حفص، وعبد الله الفراء، وقطن قالوا: حدثنا حفص قال حدثنا إبراهيم ابن طهمان عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أتموا الركوع والسجود فوالله إنى لأراكم من بعد ظهرى إذا ركعتم وسجدتم».

وقال قتادة وابن زيد ومقاتل، والكلبى: يعنى وتصرفك مع المصلين فى أركان الصلاة فى الجماعة قائمًا وقاعدًا وراكعًا وساجدًا، وهى رواية عطاء الخراسانى عن ابن عباس.

وقال سعيد بن جبير: وتصرفك فى أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك تفعله. والساجدون فى هذا القول الأنبياء.

وقال الحسن: يعنى وتصرفك، وذهابك، ومجيئك فى أصحابك المؤمنين.

أخبرنى أبو سهل عبد الملك بن محمد بن أحمد بن حبيب المقرئ قال حدثنى أبو بكر أحمد ابن موسى قال حدثنا زنجويه بن محمد قال حدثنا على بن سعيد النسوى قال حدثنا أبو عاصم عن شهيب عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال: من نبى إلى نبى حتى أخرجك فى هذه الأمة.

وحدثنا أبو الحسن محمد بن على بن سهل الماسرخسى الفقيه إملاءً فقال أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد البصرى بمكة قال حدثنا الحسن بن بشير قال حدثنا سعدان بن الوليد عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس فى قوله سبحانه: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال: ما زال رسول الله ﷺ يتقلب فى أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقراءتك. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعملك.

---

(١) هذه مبالغة من مجاهد رحمنا الله وإياه إن كان قالها ولا أحسبها إلا مدسوسة عليه فرسول الله ﷺ بشر ككل البشر خصه الله سبحانه بالرسالة وفضله على جميع خلقه خُلُقًا وعبادةً ثم بعد ذلك فهو مثلهم فى سائر شئون الحياة.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝﴾

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ثم بين فقال: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب. ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر، وهم الكهنة.

وقال مقاتل: مثل مسيلمة[١]، وطلحة[٢].

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ يعنى يستمعون من الملائكة مسترين فيلقون إلى الكهنة.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ لأنهم يخلطون به كذبًا كثيراً وهم الآن محجوبون، والحمد لله رب العالمين.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ أخبرنا أبو زكريا يحيى بن إسماعيل الحربى قال أخبرنا أبو حامد أحمد بن حمدون بن عمارة الأعمش قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن قهزاد المروزى قال حدثنا حاتم بن العلاء قال أخبرنا عبد المؤمن عن ابن بريدة عن ابن عباس فى هذه الآية: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ قال: هم الشياطين يدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ (الصافات: ٣٢).

وقال الضحاك: تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين، ومع كل واحد منهما غُواة من قومه وهم السفهاء، فنزلت هذه الآية، وهى رواية عطيه عن ابن عباس.

وروى عكرمة عنه: الرواة. وقال على بن أبى طلحة عنه: كفار الجن والإنس.

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا طلحة بن محمد، وعبد الله بن أحمد قالا حدثنا أبو بكر بن مجاهد قال أخبرنى جعفر بن محمد قال حدثنا حسين بن محمد بن على قال حدثنا أبى عن عبد الله بن سعيد بن الحر عن أبى عبد الله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ قال: هم الذين يشعرون قلوب الناس بالباطل. وأراد بهؤلاء شعراء الكفار عبد الله بن الزبعرى المخزومى، وهبيرة بن

(١) الكذاب.

(٢) العنسى. وكلاهما ادعى النبوة.

أبى وهب، ومسافع بن عبد مناف، وعمرو بن عبد الله أبا عزة الجمحى، وأمية بن أبى الصلت، كانوا يهجون رسول الله ﷺ فيتبعهم الناس.

أخبرنا الحسن بن محمد بن الحسين قال حدثنا عبد الله بن محمد بن شنبة قال حدثنا محمد ابن عمران بن هارون قال حدثنا على بن سعيد النسوى قال حدثنا عبد السلام عن إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة عن مكحول عن أبى إدريس عن غضيق - أو أبى غضيف - من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قال النبى ﷺ: «من أحدث هجاءً فى الإسلام فاقطعوا لسانه».

وأخبرنى الحسين بن محمد قال حدثنا أحمد بن محمد بن إسحاق السُّنى قال أخبرنا أبو يعلى قال حدثنا إبراهيم بن عرعرة قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدى قال حدثنا يعقوب القمى عن جعفر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما فتح النبى ﷺ - يعنى مكة - رَنّ إبليس رَنّة، فاجتمعت إليه ذريته، فقال: آيسوا أن ترتد أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا، ولكن أفشوا فيها - يعنى مكة - الشعر، والنوح.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام. ﴿يَهِيمُونَ﴾ حائرين، وعن طريق الحق والجد جائرين.

قال الكسائى: الهائم الذاهب على وجهه. وقال أبو عبيدة: المخالف للقصد.

قال ابن عباس فى هذه الآية: فى كل لغو يخوضون وقال مجاهد: فى كل فن يفتنون. وقال قتادة: يمدحون قومًا بباطل، ويشتمون قومًا بباطل.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ثم استثنى شعراء المؤمنين: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك، فقال عز من قائل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ يعنى ردوا على المشركين الذين هجوا رسول الله ﷺ والمؤمنين.

أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن شنبة قال حدثنا عبد الله بن أحمد الكسائى قال حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة قال حدثنا يحيى بن واضح عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبى الحسن البراد قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ جاء عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون فقالوا: يا رسول الله، أنزل الله سبحانه هذه الآية، وهو يعلم أنا شعراء، فقال: «اقرءوا ما بعدها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أنتم، ﴿وَٱنتَصَرُوا۟﴾ أنتم».

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا القطيعى قال حدثنا ابن حنبل قال حدثنى أبى قال حدثنا أبو

اليمان قال أخبرنا شعيب عن الزهرى.

(ح)[1] وأخبرنا ابن حمدون قال أخبرنا ابن الشرقى قال حدثنا محمد بن يحيى قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الزهرى قال حدثنى عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبى ﷺ حين أنزل الله سبحانه فى الشعراء ما أنزل: يا رسول الله، إن الله سبحانه وتعالى قد أنزل فى الشعراء ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال النبى ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذى نفسى بيده لكأنما ترمونهم به نضح النبل».

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا عمر بن الخطاب قال حدثنا عبد الله بن الفضل قال حدثنا عمرو بن محمد الناقد قال حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن أبى هريرة. أن عُمر مَرَّ بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد، فلحظ إليه. فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبى هريرة وقال: أنشدك بالله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عنى اللهم أيده بروح القدس»؟ قال: اللهم نعم.

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن شنبة قال حدثنا محمد بن على بن سالم الهمدانى قال حدثنا أحمد بن منيع قال حدثنا أبو معاوية قال حدثنا الشيبانى عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ لحسان: «اهج المشركين فإن جبريل معك».

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أشركوا. ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أى مرجع يرجعون إليه بعد مماتهم. وروى نوفل بن أبى عقرب عن ابن عباس رضى الله عنه: (أى منقلب ينفلتون) بالفاء، والتاء، ومعناهما واحد.

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن شنبة قال حدثنا الفريابى قال حدثنا عبيد الله بن معاذ قال حدثنا أبى قال حدثنا ابن عون عن إبراهيم قال: كان شريح يقول: سيعلم الظالمون حظ من نقصوا إن الظالم ينتظر العقاب، وإن المظلوم ينتظر النصرة.



(١) زيادة يتطلبها سياق الإسناد.

سُورَةُ النَّمْلِ

مكّيّة، وهى أربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفًا
وألف وتسع وأربعون كلمة، وثلاث وتسعون آية

أخبرنا أبو الحسن محمد بن القاسم الفقيه قال: حدّثنا أبو عبد الله محمد بن يزيد المعدّل قال: حدّثنا أبو يحيى البزّاز: قال: حدّثنا محمد بن منصور قال: حدّثنا محمد بن عمران بن عبد الرَّحْمن بن أبى ليلى قال: حدّثنى أبى، عن مجاهد بن عبد الواحد، عن الحجاج بن عبد الله، عن أبى الخليل وعن على بن زيد وعطاء بن أبى ميمونة، عن زرّ بن حبيش، عن أُبىّ ابن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بسليمان وكذّب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم، ويخرج من قبره وهو ينادى: لا إله إلا الله».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝﴾

﴿طسٓ﴾: قال ابن عباس: هو اسم من أسماء الله عزَّ وجل، أقسم الله سبحانه به أن هذه السورة ﴿تِلْكَ [1] ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: يعنى وآيات كتاب مبين، وقيل: الطاء من اللطيف، والسين من السميع، وقال أهل الإشارة: هى إشارة إلى طهارة سرّ حبيبه[2].

(١) سقطت تلك الكلمة سهواً من الناسخ.
(٢) سبق أن ذكرت مراراً وتكراراً أن تلك الحروف من معجزات القرآن والتى لا يعلم حقيقة تأويلها إلا الله سبحانه وتعالى وأى محاولة لفهمها ضرب من العبث لأنه سر أراد الله له الحفظ وتعبد تعبد الله به العباد لإسلام القياد إليه سبحانه طائعين.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ : فيهما وجهان من العربية ، الرفع على خبر الابتداء أى هى هدًى ، وإنْ شئت على حرف جزاء الصفة فى قوله ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والنّصب على القطع والحال .

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ : القبيحة حتى رأوها حسنة ، وتزيينه خذلانه إيّاهم .

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ﴾ شدة : ﴿الْعَذَابِ﴾ فى الدّنيا القتل والأسر بيده .

﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ : بحرمان النجاة والمنع من دخول الجنّات .

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى﴾ : لتلقن وتعطى ﴿الْقُرْآنَ﴾ نظيره قوله سبحانه تعالى : ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (القصص : ٨٠) ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ .



﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝﴾

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ﴾: فى مسيره من مدين إلى مصر وقد أصلد زنده[1] ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ : فامكثوا مكانكم ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾: قرأ أهل الكوفة ويعقوب : بشهاب منوّن على البدل ، غيرهم بالإضافة ، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم ، ومعناه : سآتيكم بشعلة

(١) أى قدح زنده فلم يرو أى لم يوقد ناراً ، والزند : زلطتان تطرق إحداهما بالأخرى فيخرج من بينهما شرر يشعل ما يريد الإنسان إشعاله من النار .
وقد كان هذا الزند أو الزناد موجود إلى فترة الخمسينيات وأوائل الستينيات فى مصر ، وقد رأيت من كان يستخدمه ببلدى العاقولة تبع كفر المداور مركز مغاغة محافظة المنيا بمصر ، وأنا صغير ، وكنت أحاول استخدامه ولكن لم أفلح فى ذلك .

نار أقتبسها منها .

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ : تستدفئون ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ .

قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن : يعنى قُدّس مَن فى النار وهو الله سبحانه عنى به نفسه عزَّ وجل ، وتأويل هذا القول أنّه كان فيها لا على معنى تمكُّن الأجسام لكن على معنى أنّه نادى موسى منها ، وأسمعه كلامه من جهتها وأظهر له ربوبيته من ناحيتها ، وهو كما روى أنّه مكتوب فى التوراة : جاء الله عزّ وجلّ من سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران ، فمجيئه عزَّ وجلّ من سيناء بعثته موسى منها ، ومن ساعير بعثته المسيح بها ، واستعلانه من جبال فاران بعثه المصطفى ﷺ ، وفاران مكة ، وقالوا : كانت النار نوره عزَّ وجلّ ، وإنّما ذكره بلفظ النّار لأنّ موسى حسبه ناراً ، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر .

وقال سعيد بن جبير : كانت النار بعينها وهى إحدى حجب الله سبحانه وتعالى ، يدلّ عليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن يعقوب قال : حدّثنا محمد بن إسحاق قال : حدّثنا هاشم القاسم بن القاسم قال : حدّثنا المسعودى عن عمرو بن مرّة عن أبى عبيدة ، موسى الأشعرى قال : قام بيننا رسول الله ﷺ بأربع فقال : «إنّ الله عزَّ وجلّ لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كلّ شىء أدركه بصره» ، ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ .

وقيل معناه : بورك مَن فى النار سلطانه وقدرته وفيمن حولها .

وقال آخرون : هذا التبرك عائد إلى موسى والملائكة ، ومجاز الآية : بورك من فى طلب النار وقصدها بالقرب منها ، وهذا كما يقال : بلغ فلان البلد إذا قرب منه ، وورد فلان الماء لا يريدون أنّه فى وسطه ، ويقال : أعط مَن فى الدار ، يريدون من هو فيها مقيم أو شريك وإن لم يكن فى الوقت فى الدار ، ونحوها كثير .

ومعنى الآية : بورك فيك يا موسى وفى الملائكة الذين حول النار ، وهذا تحيّة من الله سبحانه لموسى وتكرمه له كما حيّا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا : ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (هود : ٧٣) .

وقال بعضهم : هذه البركة راجعة إلى النار نفسها .

روى ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أنّه قال : معناه بوركت النار ، ودليل هذا التأويل ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى قال : حدّثنا أحمد بن

نجدة قال: حدّثنا الحمّانى قال: حدّثنا هشيم قال: أخبرنا سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: سمعت أُبيًّا يقرؤها: أن بوركت النار ومن حولها، وتقديم هذا التفسير أنَّ (من) تأتى فى الكلام بمعنى (ما)، كقوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ (الحجر: ٢٠) وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ (النور: ٤٥) الآية و(ما) قد تكون صلة فى كثير من المواضع كقوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ (ص: ١١) و﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ (المؤمنون: ٤٠) فمعنى الآية بورك فى النار وفيمن حولها وهم الملائكة وموسى (عليه السلام)، فسمّى النار مباركة كما سمّى البقعة مباركة فقال فى ﴿ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ (القصص: ٣٠).

وأمّا وجه قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ فإنّ العرب تقول: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك وبارك لك، أربع لغات، قال الشاعر:

فبوركت مولوداً وبوركت ناشيًا ... وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

فأما الكلام المسموع من الشجرة فاعلم أنّ مذهب أهل الحق أنّ الله سبحانه وتعالى مستغن عن الحدّ والمكان والجهة والزمان لأنَّ ذلك كلّه من أمارات الحدث، وهى خلقه وملكه وهو سبحانه أجلّ وأعظم من أن يوصف بالجهات، أو تحدّه الصفات، أو تصحبه الأوقات، أو تحويه الأماكن والأقطار.

ولمّا كانت كذلك استحال أن توصف صفات ذاته بأنّها متنقّلة من مكان أو حالّة فى مكان، وإذا ثبت هذا لم يجز أن يوصف كلامه بأنّه يحلّ موضعًا أو ينزل مكانًا، كما لا يوصف بأنّه جوهر ولا عرض ولا حروف ولا صوت، بل هو صفة يوصف بها البارى عزّ وجلّ فينتفى عنه بها آفات الخرس والبكم وما لا يليق به.

فأمّا الأفهام والأسماع فيجوز أن يكون فى موضع دون موضع ومن مكان دون مكان ومن حيث لم تقع إحاطة واستغراق بالوقت على كنه صفاته، قال الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١).

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ﴾: الهاء عماد وليست بكناية ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾: تتحرّك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: وهى الحيّة الخفيفة الصغيرة الجسم، وقال الكلبى: لا صغيرة ولا كبيرة.

فإن قيل: كيف قال فى موضع ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: وفى موضع آخر ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾ (الأعراف: ١٠٧) والموصوف واحد؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: أنّها فى أوّل أمرها جانّ وفى آخر الأمر ثعبان، وذلك أنّها كانت تصير حية على قدر العصا ثم لا تزال تنتفخ وتربو حتى تصير كالثعبان العظيم.

والآخر: أنّها فى سرعة الجانّ وخفّته وفى صورة الثعبان وقوّته.

فلمّا رآها موسى (عليه السلام) ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: ولم يرجع، قال قتادة: ولم يلتفت.

فقال الله سبحانه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ فعمل بغير ما أمر ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾: قراءة العامة بضم الحاء وجزم السين، وقرأ الأعمش بفتح الحاء والسين ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

واختلف العلماء فى حكم هذا الاستثناء ومعنى الآية، فقال الحسن وابن جريج: قال الله سبحانه (يا موسى إنّما أخفتك لقتلك).

قال الحسن: وكانت الأنبياء تذنب فتعاقب، ثم تذنب والله فتعاقب.

قال ابن جريج: فمعنى الآية: لا يخيف الله سبحانه الأنبياء بذنب يصيبه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يتوب، فقوله: ﴿إِلَّا﴾ على هذا التأويل استثناء صحيح، وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ ثم ابتدأ الخبر عن حال من ظلم من الرسل وغيرهم من الناس، وفى الآية استغنى عنه بدلالة الكلام عليه تقديرها (فمن ظلم ثمّ بدّل حسنًا بعد سوء فإنى غفور رحيم).

وقال الفراء: يقول القائل: كيف صيّر خائفًا من ظلم ثم بدّل حُسنًا بعد سوء وهو مغفور له؟

فأقول له: فى الآية وجهان:

أحدهما: أن تقول أن الرسل معصومة، مغفور لها، آمنة يوم القيامة، ومن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا من سائر الناس فهو يخاف ويرجو، فهذا وجه.

والآخر: أن يجعل الاستثناء من الذين تركوا فى الكلمة لأنّ المعنى ﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ إنما الخوف على غيرهم.

ثمَّ استثنى فقال عزَّ من قائل: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ يقول: كان مشركًا فتاب من الشرك وعمل حسنةً مغفور له وليس بخائف.

قال: وقد قال بعض النحويّين: ﴿إِلَّا﴾ ههنا بمعنى الواو يعنى: ولا من ظلم منهم كقوله سبحانه: (لئلا يكون للناس عليهم حجّة إلاّ الذين ظلموا منهم).

وقال بعضهم: قوله: ﴿إِلَّا﴾ ليس باستثناء من المرسلين لأنّه لا يجوز عليهم الظلم وإنّما معنى الآية: لكن من ظلم فعليه الخوف فإذا تاب أزال الله سبحانه وتعالى عنه الخوف.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾: وإنّما أمره بإدخال يده فى جيبه لأنّه كان عليه فى ذلك الوقت مدرعة من صوف، ولم يكن لها كُمٌّ، قال المفسّرون.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: برص وآفة ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾: يقول هذه آية مع تسع آيات أنت مُرسَل بهنّ.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾: فترك ذكر مرسل لدلالة الكلام عليه، كقول الشاعر:

رأتنى بحبليها فصـدّت مخافةً   وفى الحبل روعاء الفؤاد فروق

أراد: رأتنى مقبلاً بحبليها، فترك ذكره لدلالة الكلام عليه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾: مضيئة بيّنة يُبصر بها ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.



﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ

ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ : نبوّته وعلمه وملكه دون سائر أولاده ، وكان لداود (عليه السلام) تسعة عشر ابنًا .

قال مقاتل : كان سليمان أعظم مُلْكًا من داود وأقضى منه ، وكان داود أشدّ تعبّدًا من سليمان (عليهما السلام) .

﴿وَقَالَ﴾ سليمان شاكرًا لنعم الله سبحانه وتعالى عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ جعل ذلك من الطير كمنطق بنى آدم إذ فهمه عنها ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ .

قال مقاتل فى هذه الآية : كان سليمان (عليه السلام) جالسًا إذ مرَّ به طائر يطوف فقال لجلسائه : هل تدرون ما يقول الطائر الذى مرَّ بنا؟ قالوا : أنت أعلم ، فقال سليمان : إنّه قال لى : السلام عليكم أيّها الملك المسلّط على بنى إسرائيل ، أعطاك الله سبحانه وتعالى الكرامة وأظهرك على عدوّك ، إنّى منطلق إلى فروخى ثم أمرّ بك الثانية ، وإنّه سيرجع إلينا الثانية فانظروا إلى رجوعه .

قال : فنظر القوم طويلاً إذ مرَّ بهم فقال : السلام عليك أيّها الملك إن شئت أن تأذن لى كيما أكسب على فروخى حتى يشبّوا ثم آتيك فافعل بى ما شئت ، فأخبرهم سليمان بما قال وأذن له .

وقال فرقد السخى : مرَّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرّك رأسه ويميل ذَنَبه فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا : الله ونبيُّه أعلم ، قال : يقول : أكلتُ نصف تمرة فعَلى الدنيا العَفا .

وأخبرنى الحسين بن محمد بن الحسن العَدل قال : حدّثنا عبيد الله بن محمد بن شنبة وأحمد بن جعفر بن حمدان قالا : حدّثنا الفضل بن العباس الرازى قال : حدّثنا أبو عبيد قال : حدّثنا موسى بن إبراهيم قال : حدّثنا عباد بن إبراهيم عن الكلبى عن رجل عن كعب قال : صاحت ورشان عند سليمان بن داود (عليه السلام) فقال : أتدرون ما تقول؟

قالوا : لا .

قال : فإنّها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا .

وصاح طاوُس عند سليمان (عليه السلام) فقال: أتدرون ما يقول؟

قالوا: لا.

قال: فإنّه يقول: مَن لا يَرحم لا يُرحَم.

وصاح صرد عند سليمان فقال: أتدرون ما يقول؟

قالوا: لا.

قال: فإنّه يقول: استغفروا الله يا مذنبين، فمن ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتله.

قال: فصاحت طيطوى عند سليمان (عليه السلام) فقال: أتدرون ما تقول؟

قالوا: لا.

قال: فإنّها تقول: كلّ حيّ ميّت، وكلّ جديد بال.

وصاح خطّاف عند سليمان (عليه السلام) فقال: أتدرون ما يقول؟

قالوا: لا.

قال: فإنّها تقول: قدّموا خيراً تجدوه، فمن ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتله.

وهدرت حمامة عند سليمان (عليه السلام) فقال: أتدرون ما تقول هذه الحمامة؟

قالوا: لا.

قال: فإنها تقول: سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه.

وصاح قُمريّ عند سليمان (عليه السلام) فقال: أتدرون ما يقول؟

قالوا: لا.

قال: فإنّه يقول: سبحان ربّى الأعلى[1]، والغراب يدعو على العشّار، والحدأة تقول: كلّ شيء هالك إلاّ الله. والقطاة تقول: من سكت سلم، والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همّه، والضفدع يقول: سبحان ربّى القدّوس، والبازى يقول: سبحان ربى وبحمده، والضفدعة[2] تقول: سبحان المذكور بكلّ مكان.

وأخبرنا الحسين بن محمد قال: حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال: حدّثنا الفضل بن العباس بن مهران قال: حدّثنا أبو عبيد قال: حدّثنا موسى بن إبراهيم قال: أخبرنا إسماعيل عن عياش عن زرّ عن مكحول قال: صاح درّاج عند سليمان بن داود (عليه السلام) فقال: أتدرون ما يقول؟

---

(١) فى القرطبى: سبحان ربى العظيم المهيمن.

(٢) فى القرطبى: والسرطان يقول: سبحان المذكور بكل لسان فى كل مكان.

قالوا: لا .

قال فإنّه يقول: الرَّحْمن على العرش استوى .

وبإسناده عن موسى بن إبراهيم قال: أخبرنا صالح الهروى عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «الديك إذا صاح يقول: اذكروا الله يا غافلين» .

وروى جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن جدّه عن الحسن بن على قال: إذا صاح النسر قال: يا ابن آدم عش ما شئت آخرهُ الموت، وإذا صاح العقاب قال: فى البعد من الناس أُنس[١]، وإذا صاح القبّر قال: إلهى العن مبغضى آل محمد، وإذا صاح الخطّاف قرأ: الحمد لله ربّ العالمين (إلى آخرها)[٢]، يمدّ الضالين كما يمد القارئ .

﴿وَحُشِرَ﴾: وجُمع ﴿لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾: فى مسير لهم ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أى يُحبَس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا[٣]، وذلك أنّه جعل على كلّ صنف منهم وَزَعَةً ترد أُولاها على أُخراها لئلاّ يتقدّموا فى المسير كما يصنع الملوك .

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: يُوزعون: يدفعون. ابن زيد ومقاتل: يُساقون، السدّى: يوقفون، وأصل الوزع فى كلام العرب الكفّ والمنع، ومنه الحديث: ما يزع السلطان أكثر ممّا يزع القرآن ويُقال للأمر أوزعه. وفى الخبر: لا بد للناس من وزعة. وقال الشاعر:

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت ألمّا أصحُ والشيب وازع

أخبرنى ابن فنجويه قال: حدّثنا طلحة بن محمد وعبيد الله بن أحمد قالا: حدّثنا أبو بكر ابن مجاهد قال: حدّثنا أحمد قال: حدّثنا سنيد قال: حدّثنا حجاج عن أبى معشر عن محمد بن كعب فى هذه الآية قال: بَلَغنا أنَّ سليمان (عليه السلام) كان عسكره مائة فرسخ، خمسة وعشرون منها للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة صريحة وسبعمائة

---

(١) فى القرطبى: الراحة .

(٢) زيادة من القرطبى، وكل ما ورد فى منطق الطير هو من الحكم المأثورة أو بعضه، ولكن لا يصح فى ذلك شىء عن سليمان عليه السلام ولا عن نبينا محمد ﷺ وكفى وضوحًا فى عدم صحة ما ينسب إلى الطير من أقوال ما جاء منسوبًا إلى القُنْبر، إذ يدل هذا على مدى التعصب للفرق والشيع والأحزاب التى يمقتها الإسلام مقتًا شديدًا أما الحكم فهى كثيرة تنسب إلى الطير أحيانًا وإلى الحيوان أحيانًا، وإلى الجمادات أخرى .

(٣) جاء بعد هذه العبارة فى المخطوط تآكل فى حروف المخطوط فى تفسير هذا الجزء من هذه الآية، فنقلت تفسيره عن القرطبى وجعلته بين معقوفين وإن شاء الله سأذكر ذلك عند نهاية الفقرة .

سرية، فأمر الريح العاصفة فحملته وأمر الرخاء فسرت به، فأوحى إليه - وهو يسير بين السماء والأرض - إنّي قد زدت في ملكك أنّه لا يتكلّم أحد من الخلائق بشيء إلاّ جاءت الريح فأخبرتك به.

وقال مقاتل: نسجت الشياطين لسليمان (عليه السلام) بساطًا فرسخًا في فرسخ ذهبًا في إبريسم، وكان يوضع له منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه، وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة، يقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجنّ والشياطين، وتظلّه الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرّواح ومن الرواح إلى الصباح.

أخبرني ابن فنجويه قال: حدّثنا أبو بكر بن مالك القطيعي قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب قال: حدّثنا أبو بكر يعني ابن عياش عن إدريس ابن وهب بن مُنبه قال: حدّثني أبي قال إنّ سليمان (عليه السلام) ركب البحر يومًا فمرَّ بحرّاث فنظر إليه الحرّاث فقال: لقد أُوتي آل داود مُلكًا عظيمًا، فحملت الريح كلامه في أُذن سليمان فنزل حتى أتى الحرّاث فقال: إنّي سمعت قولك وإنما مشيت إليك لأن لا تتمنى ما لا تقدر عليه، لَتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير ممّا أُوتي آل داود، فقال الحرّاث: أذهب الله همّك كما أذهبت همّي.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾.

أخبرني ابن فنجويه قال: حدّثنا مخلد بن جعفر قال: حدّثنا الحسن بن علويه قال: حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال: حدّثنا إسحاق بن بشر قال: أخبرنا أبو إلياس عن وَهب بن منبه عن كعب قال: إنَّ سليمان (عليه السلام) كان إذا ركب حمل أهله وسائر حشمه وخدمه وكتّابه تلك السقوف بعضها فوق بعض على قدر درجاتهم، وقد اتّخذ مطابخ ومخابز تحمل فيها تنانير الحديد وقدورًا عظامًا تسع على قدر عشرة جزائر، وقد اتخذ ميادين للدوابّ أمامه، فيطبخ الطبّاخون ويخبز الخبازون وتجري الدواب بين يديه وبين السماء والأرض والريح تهوي بهم.

فسار بمن اصطحبه إلى اليمن، فسلك المدينة مدينة الرسول ﷺ فقال سليمان: هذه دار هجرة نبيّ في آخر الزمان، طوبى لمن آمن به، وطوبى لمن اتّبعه، وطوبى لمن اقتدى به، ورأى حول البيت أصنامًا تُعبد من دون الله سبحانه، فلمّا جاوز سليمان البيت بكى البيت فأوحى الله

سبحانه إلى البيت: ما يبكيك؟ فقال: يا ربّ أبكانى هذ نبىّ من أنبيائك وقوم من أوليائك مرّوا علىّ، فلم يهبطوا فىّ ولم يصلّوا عندى ولم يذكروك بحضرتى، والأصنام تعبد حولى من دونك، فأوحى الله سبحانه إليه أن لا تبكى وإنى سوف أملأك وجوهًا سجّدًا، وأُنزل فيك قرآنًا جديدًا، وأبعث منك نبيًّا فى آخر الزمان أحبّ أنبيائى إلىّ، وأجعل فيه عمّارًا من خلقى يعبدوننى وأفرض على عبادى فريضة يرفّون إليك رفّة النّسور إلى وكرها ويحنّون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضتها، وأُطهّرك من الأوثان وعبدة الشيطان.

قال: ثم مضى سليمان حتى مرّ بوادى السدير، واد من الطائف فأتى على وادى النمل فقالت نملة تمشى، وكانت عرجاء تتكاوس، وكانت مثل المذنب فى العظم، فنادت النملة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: يعنى أنّ سليمان يفهم مقالتها وكان لا يتكلّم خلق إلاّ حملت الريح ذلك فألقته فى مسامع سليمان (عليه السلام).

قال: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ إلى قوله: ﴿فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ يعنى مع عبادك الموحّدين.

وقال قتادة ومقاتل: وادى النمل بأرض الشام.

قال نوف الحميرى: كان نمل وادى سليمان مثل الذباب[1].

وقال الشعبى: النملة التى فقه سليمان كلامها كانت ذات جناحين.

قال مقاتل: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال. واختلفوا فى اسم تلك النملة.

فأخبرنى أبو عبد الله الحسين بن محمد الحسنى الدينورى قال: حدّثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف الصرصرى قال: حدّثنا الهيثم بن خلف الدورى قال: حدّثنا هارون بن حاتم البزاز قال: حدّثنا إبراهيم بن الزبرقان التيمى عن أبى روق عن الضحاك قال: كان اسم النملة التى كلّمت سليمان بن داود (عليه السلام) طاحية.

وأخبرنى ابن فنجويه قال: حدّثنا طلحة وعبيد الله قالا: حدّثنا ابن مجاهد قال: حدّثنى الفضل بن الحسن قال: حدثنا أبو محمد النعمان بن شبل الباهلى قال: حدّثنا ابن أبى روق عن أبيه قال: كان اسم نملة سليمان حرمى، وهو قول مقاتل.

ورأيت فى بعض الكتب أنّ سليمان لمّا سمع قول النملة قال: ائتونى بها، فأتوه بها فقال:

(١) يريد ذوات أجنحة فتكون من الطير لعلمه لغة الطير دون سائر المخلوقات الأخرى.

لها لِمَ حَذّرتِ النمل ظلمى؟ أما علمتِ أنّى نبى عدل؟ فلِمَ قلتِ: لا يحطمنّكم سليمان وجنوده؟

فقالت النملة: أما سمعت قولى: وهم لا يشعرون؟ مع ما أنّى لم أُرد حطم النفوس وإنّما أردت حطم القلوب، خشيت أن يتمنّين ما أُعطيت ويشتغلن بالنظر عن التسبيح، فقال لها: عظينى، فقالت النملة: هل علمت لِمَ سمّى أبوك داودَ؟

قال: لا.

قالت: لأنّه داوى جرحة فؤاده[1]، هل تدرى لم سمّيت سليمان؟

قال: لا.

قالت: لأنّك سليم وكنت إلى ما أُوتيت لسلامة صدرك وإنّ لك أن تلحق بأبيك[2]، ثم قالت: أتدرى لِمَ سخّر الله لك الريح؟

قال: لا.

قالت: أخبَرك الله أنّ الدنيا كلّها ريح، فتبسّم سليمان ضاحكًا متعجّبًا من قولها، وقال ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ إلى آخر الآية.

أخبرنى ابن فنجويه قال: أخبرنا ابن شنبة قال: أخبرنا الحضرمى قال: حدّثنا حسن الخلاّل قال: حدّثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربعة من الدواب: الهدهد والصرد والنحلة والنملة.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾: أى طلبها وبحث عنها ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾: فتح ابن كثير وعاصم والكسائى وأيوب (لى) ههنا وفى سورة يس ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ﴾ (يس: ٢٢) وأرسل حمزة الياء فيهما جميعًا، وأمّا أبو عمرو فكان يرسل الياء فى هذه ويفتح فى يس، وفرّق بينهما فقال: لأنّ هذه للتى فى النمل استفهام والأُخرى انتفاء.

﴿أَمْ كَانَ﴾: قيل: الميم صلة وقيل: أم بمعنى بل كان ﴿مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: وكان عذابه أن ينتف ريشه وذَنَبه فيدعه ممعطًا ثم يلقيه فى بيت النمل فيلدغه[3]، وقال عبد الله ابن شدّاد: نتفه وتشميسه.

---

(١) فى المخطوط: لأنه داوى جرعه فودّ، والتصويب من القرطبى.

(٢) العبارة فى المخطوط: لأنك سليمان ركنت إلى ما أوتيت لسلامة صدرك.

والتصويب من القرطبى، وليس معنى تصويب العبارات أن الخبر صحيح إنما هو تقويم لنص المخطوط قدر الطاقة أما الخبر فلا نصيب له من الصحة.

(٣) كم فى جعبة البشر من أنواع العذاب والتخيل للانتقام، انظر إلى مدى قسوة هذا العقاب الذى لا يمكن أن يخطر =

الضحّاك : لأشدّن رجله ولأُشمسنّه .

مقاتل بن حيّان : لأطلينّه بالقطران ولأشمسنّه .

وقيل : لأودعنّه القفص ، وقيل : لأُفرّقنّ بينه وبين إلفه ، وقيل : لأمنعنه من خدمتى ، وقيل : لأُبدّدنّ عليه؟ .

﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ : حجة واضحة ، وأما سبب تفقّده الهُدهد وسؤاله عنه من بين الطير إخلاله بالنوبة التى كان ينوبها واحتياج سليمان (عليه السلام) إلى الماء ، فلم يعلم من قصره بعد الماء ، وقيل له : علْم ذلك عند الهدهد ، فتفقده فلم يجده فتوعّده وكان القصّة فيه على ما ذكره العلماء بسيرة الأنبياء دخل حديث بعضهم فى بعض :

إنَّ نبى الله سليمان (عليه السلام) لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم ، فتجهز للمسير واستصحب من الإنس والجنّ والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ معسكره مائة فرسخ ، وأمر الريح الرخاء فحملتهم ، فلمّا وافى الحرم وأقام به ما شاء الله تعالى أن يقيم وكان ينحر كل يوم طول مقامه جملة خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة .

وقال لمن حضره من أشراف قومه : إنَّ هذا مكان يخرج منه نبىّ عربىّ صفته كذا وكذا ، يعطى النصر على جميع من ناوأه ، وتبلغ هيبته مسيرة شهر ، القريب والبعيد عنده فى الحق سواء لا تأخذه فى الله لومة لائم .

قالوا : فبأى دين يدين يا نبى الله؟ قال : بدين الحنيفية فطوبى لمن أدركه وآمن به وصدقه .

قالوا : وكم بيننا وبين خروجه يا نبى الله؟ قال : زهاء ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل وإن اسمه . . .[1] .

= ولو للحظة على قلب نبى وقد أحدث ترك ذكر نوع العقاب الذى سوف كان يعاقب به سليمان الهدهد هذا الخيال وحرك كوامن الشر فى نفوس المفسرين فذهب كل إنسان بخياله إلى ما كان سوف يعاقب به نبى الله سليمان الهدهد فكشف لنا عن مكنونات النفس البشرية وميلها إلى شدة الانتقام إذا كان فى غيرها أما إذا كان العقاب عليها فكان مجرد التوبيخ من أشد أنواع العذاب ولو قال قائل : إن نبى الله سليمان بين مدى ما كان يضمره من عقابه للهدهد بقوله : ﴿أو لأذبحنه﴾ قلت : الذبح سنة الله فى الطيور وليست عقوبة فكل الطير مباح ذبحه وأكل لحمه خلا بعض الطيور المنهى عن أكلها ، فليس فى ذلك ما يدل على أن نبى الله كان يضمر للهدهد كل هذا الشر ، وكيف يكون فى قلبه كل هذا ، وهو يدعو الناس إلى عبادة الله فقليل منهم من يجيب؟ إن الأنبياء هم صفوة الله من خلقه وألينهم قلوبًا وأحرصهم على مصالح الناس وأرأفهم بخلق الله ومخلوقاته فيجب أن يظن بهم كل الخير ، هدانا الله وإياكم إلى سُبل الرشاد آمين .

(١) كلمة غير واضحة بالمخطوط .

قال: فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم أحب أن يسعى إلى أرض اليمن فخرج من مكة صباحًا وسار نحو اليمن يوم نجم سهيل فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضًا وأزهر خضرتها وأحب النزول بها ليصلي ويتغذى فطلبوا الماء فلم يجدوا وكان الهدهد دليله على الماء، كان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى أحدكم كأسه بيده فينقر الأرض فيعرف موضع الماء وبُعده ثم يجيء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الإهاب ثم يستخرجون الماء.

قال سعيد بن جبير: ذكر ابن عباس هذا الحديث، فقال له نافع بن الأزرق: أفرأيت قولك الهدهد ينقر الأرض فيبصر الماء، كيف يبصر هذا ولا يبصر حبتي القمح فيقع في عنقه؟.

فقال له ابن عباس: ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر.

وروى قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوا الهدهد فإنه كان دليل سليمان على قرب الماء وبعده، وأحب أن يعبد الله في الأرض حيث يقول: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً﴾» الآية.

قالوا: فلما نزل سليمان قال الهدهد: إن سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع نحو السماء فانظر إلى طول الدنيا وعرضها، ففعل ذلك فنظر يمينًا وشمالاً فرأى بستانًا فمال إلى الخضرة فوقع فيه فإذا هو بهدهد فهبط عليه، وكان اسم هدهد سليمان بن داود عليه السلام: يعفور، واسم هدهد اليمن عنفر فقال عنفر ليعفور سليمان: من أين أقبلت؟ وأين تريد؟

قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام.

فقال الهدهد: ومن سليمان بن داود؟ قال: ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحوش والريح فمن أين أنت؟ فقال: أنا من هذه البلاد. قال: ومن ملكها؟ قال: امرأة يقال لها: بلقيس، وإن لصاحبكم سليمان مُلكًا عظيمًا ولكن ليس ملك بلقيس دونه، فإنها ملكت الشمس كلها وتحت يديها اثنا عشر ألف قائد، تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل.

فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها؟ قال: أخاف أن يتفقدني سليمان وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء.

قال الهدهد اليماني: إن صاحبك ليسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة. فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها وما رجع إلى سليمان إلاّ وقت العصر.

قال: فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت الصلاة طلب الهدهد وذلك أنه نزل على غير ماء فسأل الإنس عن الماء فقالوا: ما نعلم ههنا ماء. فسأل الجن والشياطين فلم يعلموا فتفقد

الهدهد ففقده ـ قال ابن عباس : فى بعض الروايات : . . .[١] موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسألة عن الهدهد فقال : أصلح الله الملك ما أدرى أين هو وما أرسلته مكانًا، فغضب عند ذلك سليمان عليه السلام وقال ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

روى عكرمة عن ابن عباس قال : كل سلطان فى القرآن فهو حجة.

قالوا : ثم دعا بالعقاب سيد الطير فقال : علىَّ بالهدهد الساعة. فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى استقرَّ بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم ثم التفت يمينًا وشمالاً فإذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض العقاب نحوه يريده، فلما رأى الهدهد ذلك عَلم أن العقاب يقصده بسوء فناشده فقال : بحق الله الذى قواك فأقدرك علىَّ إلاّ رحمتنى ولم تتعرض لى بسوء.

قال : فولَّ عنه العقاب وقال له : ويلك ثكلتك أمك إن نبى الله قد حلف أن يعذبك أو يذبحك، ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما انتهى إلى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا له : ويلك أين غبت فى نومك هذا، فلقد توعدك نبى الله وأخبروه بما قال.

فقال الهدهد : أو ما استثنى رسول الله؟ قالوا : بلى، قال : أو ليأتينى بعذر بيّن. ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيه. فقال العقاب : قد أتيتك به يا نبى الله.

فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض؛ تواضعًا لسليمان، فلمّا دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه وقال له : أين كنت؟ لأُعذّبنك عذابًا شديداً، فقال له الهدهد : يا نبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله سبحانه، فلمّا سمع ذلك سليمان ارتعد وعفا عنه[٢].

أخبرنى الحسن بن محمد الثقفى قال : حدّثنا الفضل بن الفضل الكندى قال : حدّثنا محمد ابن إبراهيم بن أبى الرجال ببغداد قال : حدّثنا إبراهيم بن بسطام عن أبى قتيبة عن الحسن بن أبى جعفر الجعفرى عن الزبير بن حريث عن عكرمة قال : إنّما صرف سليمان (عليه السلام) عن ذبح الهدهد لبرّه بوالديه.

---

(١) موضع النقط عبارة غير ظاهرة بالمخطوط.

(٢) هذه حكاية من نسج خيال قائلها وقد نسبها إلى ابن عباس وغيره وهو منها براء، فإن الخبر فى قصة الهدهد هو ما أخبر الله سبحانه وتعالى من شأنه وليس فوق ذلك مزيد فإن ما ورد فى السورة لا يحتاج إلى زيادة إيضاح.

قالوا: ثم سأله فقال: ما الذى أبطأ بك عنّى؟ فقال الهدهد: ما أخبر الله فى قوله ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قراءة العامّة بضم الكاف، وقرأ عاصم ويعقوب وأبو حاتم بفتحه وهما لغتان مشهورتان.

﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾: علمتُ ما لم تعلم ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ قرأ الحسن وأبو عمرو وابن أبى إسحاق وحميد وابن كثير فى رواية البزى من سَبأ ولسبأ مفتوحة الهمزتين غير مصروفة، ردّوها إلى القبيلة، وهى اختيار أبى عُبيد، وقرأ الباقون بالجرّ، جعلوه اسم رجل وبه نطق الخبر أنّ النبى ﷺ سُئل عن سبأ فقال: كان رجلاً له عشرة من البنين يتيامن من ستة ويتشاءم من أربعة، وسنذكر أسماءهم وقصتهم فى سورة سبأ إن شاء الله عزّ وجل، وقال الشاعر:

الواردون وتيم فى ذرى سبا قد عضّ أعناقهم جلد الجواميس

﴿بِنَبَإٍ﴾: بخبر ﴿يَقِينٍ﴾: لا شكّ فيه.

قال وهب: قال الهدهد: إنّى أدركت ملكًا لم يبلغه مُلكك.

﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾: واسمها بلقيس بنت الشيرح، وهو الهدهَاد وقيل: شراحيل بن ذى حدن بن اليشرج بن الحارث بن قيس بن صفى بن سبأ بن يشخب بن يعرب بن قحطان، وكان أبو بلقيس الذى يسمّى اليشرج ويلقّب بالهدهاد ملكًا عظيم الشأن قد ولد له أربعون ملكًا، وكان يملك أرض اليمن كلّها وكان يقول لملوك الأطراف: ليس أحد منكم كفؤًا لى، فأبى أن يتزّوج فيهم فزوّجوه امرأة من الجنّ[١] يُقال لها ريحانة بنت السكن، فولدت له تلمقة وهى بلقيس ولم يكن له وَلد غيرها.

ويصدّق هذا ما أخبرنى ابن فنجويه قال: حدّثنا محمد بن الحسن بن بشر قال: حدّثنا محمد بن حريم بن مروان قال: حدّثنا هشام بن عمّار قال: حدّثنا الوليد بن مسلم عن سعيد ابن بشير عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشر بن نهيك عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «كان أحد أبوىّ بلقيس جنيًا»[٢].

---

(١) هذا من العقائد الفاسدة، نعم الجن تتناكح وتتكاثر فيما بينها كما يتناكح ويتكاثر بنو الإنسان أو الإنس لكن لا يصح ولم يصح أن أحدًا من الجن تزوج بإنسية أو أن إنسانًا تزوج بجنية ـ كما أن ذلك لم يحدث ولن يحدث لاستحالة ذلك حتى علميًا بعد معرفتنا بالجينات والهندسات الوراثية وتكون الخلايا، ولو جاز ذلك لما نتج عنه خلق سوى.

(٢) هذا حديث غير صحيح وفى إسناده كلام كثير فمنهم على سبيل المثال سعيد بن بشير الأزدى وقد ضعفوه، وقالوا فيه كلامًا كثيرًا، والوليد بن مسلم وصفوه بالتدليس، وقد عنعن، فيصير خبره فى هذه الحالة ضعيفًا إلى غير ذلك مما فى علل المتون، وعلة المتن هنا لا تحتاج إلى توضيح فهى تنطق وتصرح بعدم الصحة.

قالوا: فلمّا مات أبو بلقيس ولم يخلّف ولدًا غيرها طمعت فى الملك وطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون، فاختاروا عليها رجلاً فملّكوه عليهم، وافترقوا فرقتين كلّ فرقة منها استولت بملكها على طرف أرض اليمن.

ثمّ إنّ هذا الرجل الذى ملّكوه أساء السيرة فى أهل مملكته حتى كان يمدّ يده إلى حرم رعيّته ويفجر بهن، وأراد أصحابه أن يخلعوه فلم يقدروا عليه، فلمّا رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت إليه تعرض نفسها عليه، فأجابها الملك (وقال لها)[1]: والله ما منعنى أن أبتديك بالخطبة إلاّ اليأس منك.

فقالت: لا أرغب عنك فإنك كفؤ كريم، فاجمع رجال قومى واخطبنى إليهم فجمعهم وخطبها إليهم، فقالوا: لا نراها تفعل هذا، فقال لهم: إنّما هى ابتدأتنى فأنا أحبّ أن تسمعوا قولها وتشهدوا عليها، فلما جاؤوها وذكروا لها ذلك قالت: نعم أحببت الولد ولم أزل، كنت أرغب عن هذا (معرضه)[2] فالساعة قد رضيتُ به فزوّجُوها منهُ، فلمّا زُفّت إليه خرجت فى ناس كثير من خدمها وحشمها حتى غصّت منازله ودوره بهم، فما زالت تسقيه[3] الخمر حتى سكر ثم حزّت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها، فلمّا أصبح الناس رأوا الملك قتيلاً ورأسه منصوبًا على باب دارها، فعلموا أنّ تلك المناكحة كانت مكرًا وخديعة منها فاجتمعوا إليها وقالوا لها: أنت بهذا الملك أحقّ من غيرك، فقالت: لولا العار والشنار ما قتلته ولكن عمّ فساده وأخذتنى الحميّة حتى فعلت ما فعلت فملّكوها واستتبّ أمرها».

أخبرنى ابن فنجويه قال: حدّثنا ابن خديجة قال: حدّثنا ابن أبى الليث ببغداد قال: حدّثنا أبو كريب قال: حدّثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن أبى بكر قال: ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة».

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدّة.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾: سرير ضخم حسن، وكان مقدّمه من ذهب مفصّص بالياقوت الأحمر والزمرد الأخضر، ومؤخّره من فضّة مكلّل بألوان الجواهر وله أربع قوائم؟ قائمة من ياقوت أحمر وقائمة من زمرّد، وقائمة من ياقوت أخضر، وقائمة من درّ، وصفائح السرير من ذهب، وعليه سبعة أبواب كلّ بيت باب مغلق.

---

(١) زيادة يتطلبها سياق الخبر، وليس معنى ذلك تصحيح الخبر.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) فى المخطوط: فلما جاءه يسقيه. وهو تحريف.

وقال ابن عباس: كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعًا فى ثلاثين ذراعًا، وطوله فى الهواء ثلاثون ذراعًا.

وقال مقاتل: كان ثمانين ذراعًا فى ثلاثين ذراعًا وطوله فى الهواء ثمانون ذراعًا مُكلّل بالجوهر.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ : قرأ أبو عبد الرَّحْمن البلخى والحسن وأبو جعفر وحميد والأعرج والكسائى ويعقوب برواية رويس «ألا اسجدوا» بالتخفيف على معنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا، وجعلوه أمرًا من الله سبحانه مستأنفًا، وحذفوا هؤلاء بدلالة فاعلهما، وذكر بعضهم سماعًا من العرب: ألا يا ارحمونا، ألا يا تصدّقوا علينا، يريدون ألا يا قوم كقول الأخطل:

ألا يا سلمى يا هند، هند بنى بدر وإن كان حيانا عدى آخر الدهر

فعلى هذه القراءة «اسجدوا» فى موضع جزم على الأمر والوقف عليه ألا، ثمّ يبتدئ اسجدوا.

قال الفرّاء: حدّثنى الكسائى عن عيسى الهمذانى قال: ما كنت أسمع المشيخة يقرؤونها إلاّ بالتخفيف على نيّة الأمر، وهى فى قراءة عبد الله: هلاّ تسجدوا لله، بالتاء، وفى قراءة أُبى ألا يسجُدون لله، فهاتان القراءتان حجة لمن خفّف، وقرأ الباقون: ألاّ بالتشديد بمعنى وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلاّ يسجدوا لله فأنْ موضع نصب ويسجدوا نصب بأن، واختار أبو عبيد هذه القراءة وقال: للتخفيف وجه حسن إلاّ أنّ فيه انقطاع الخبر عن أمر سبأ وقومها، ثم يرجع بعد إلى ذكرهم، والقراءة بالتشديد خبر يتّبع بعضه بعضًا لا انقطاع فى وسطه، والوقف على هذه ألا ثمَّ يبتدئ يسجدُوا كما يصل.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ : الخفىّ المخبوّ ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ : يعنى غيب السموات والأرض.

وقال أكثر المفسّرين: خبءَ السماء المطر، وخبءَ الأرض النبات، وفى قراءة عبد الله: يخرجُ الخبء من السموات، ومن وفى يتعاقبان، يقول العرب: لأستخرجنّ العلم فيكم، يريد منكم، قاله الفرّاء.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ : قراءة العامة بالياء فيهما، وقرأ الكسائى بالتاء وهى رواية حفص عن عاصم.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ : الذى كل عرش وإنْ عظم فدونه، ولا يشبهه عرش

ملكة سبأ ولا غيره.

قال ابن إسحاق وابن زيد: من قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ إلى قوله ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: كلّه كلام الهُدهد.

❖ ❖ ❖

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾: قال سليمان للهُدهد ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾: فيما أخبرت ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾:

فَدَلّهم الهُدهد على الماء فاحتفروا الركايا ورَوَى الناس والدوابّ، وكانوا قد عطشوا، ثم كتب سليمان كتابًا من عبد الله سليمان بن داود (عليه السلام) إلى بلقيس ملكة سبأ، السلام على مَن اتبّع الهُدى، أمّا بعد فلا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين.

وقال ابن جُريج: لم يزد سليمان على ما قصّ الله فى كتابه إنّه وإنّه.

قال منصور: كان يقال: كان سليمان أبلغ الناس فى كتابه، وأقلّه إملاءً ثم قرأ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال قتادة: وكذلك الأنبياء عليهم السلام كانت تكتب جملاً لا يطيلون ولا يكثرون، فلمّا كتب الكتاب طبعهُ بالمسك، وختمه بخاتمه وقال للهدهد ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾: فكن قريبًا منهم ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾: يردّون من الجواب.

وقال ابن زيد: فى الآية تقديم وتأخير مجازها: اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم وانظر ماذا يرجعون ثم تولَّ عنهم أى انصرف، كقوله ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ (القصص: ٢٤): أى انصرف إليه، فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به إلى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام، فوافاها فى قصرها وقد غلّقت الأبواب، وكانت إذا رقدت غلّقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها وآوت إلى فراشها، فأتاها الهُدهد وهى نائمة مستلقية على قفاها فألقى الكتاب على نحرها، هذا قول قتادة.

وقال مقاتل: حمل الهدهد الكتاب بمنقاره فطار حتى وقف على رأس المرأة، وحولها القادة والجنود، فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب فى حجرها.

وقال ابن منبّه وابن زيد: كانت لها كوّة[1] مستقبلة الشمس، تقع الشمس فيها حين تطلع، فإذا نظرت إليها سجدت لها، فجاء الهُدهد تلك الكوّة فسدّها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم، فلمّا استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى بالصحيفة إليها.

قالوا: فأخذت بلقيس الكتاب وكانت كاتبة قارئةً عربيةً من قوم تبع بن شراحيل الحميرى، فلمّا رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان (عليه السلام) كان فى خاتمه، وعرفت أنّ الذى أرسل هذا الكتاب هو أعظم مُلْكًا منها؛ لأن مَلكًا رُسله الطير إنّه لملك عظيم، فقرأت الكتاب وتأخّر الهدهد غير بعيد فجاءت حتى قعدت علَى سرير ملكها وجمَعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قائد، مع كلّ قائد مائة ألف مقاتل.

وقال قتادة ومقاتل والثمالى: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل رجل منه

(١) الفتحة أو الشباك النافذ فى الحائط إلى الخارج ومنها أيضًا ما ليس بنافذ.

على عشرة آلاف.

قالو: فجاؤوا وأخذوا مجالسهم فقالت لهم بلقيس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾.

قال قتادة: حسن، نظيره قوله: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء: ٥٨).

وقال ابن عباس: شريف بشرف صاحبه.

الضحاك: سمّته كريمًا لأنّه كان مختومًا، يدلّ عليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا أحمد بن شاذان قال: حدّثنا جيعويه بن محمد قال: حدّثنا صالح بن محمد بن مروان عن ابن جريج عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس أنّ النبى ﷺ قال: «كرامة الكتاب ختمُه».

وأنبأني عبد الله بن حامد قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف قال: حدّثنا عمرو قال: حدّثنى أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى قال: حدّثنا إسحاق بن منصور قال: حدّثنا معاذ ابن هشام قال: حدّثنى أبى عن قتادة عن أنس قال: لمّا أراد نبى الله ﷺ أن يكتب إلى العجم، قيل له: إنّ العجم لا يقبلون إلاّ كتابًا عليه خاتم، فاصطنع خاتمًا، فكأنى أنظر إلى بياضه فى كفّه.

وقال ابن المقفّع: مَن كتب إلى أخيه كتابًا ولم يختمه فقد استخفّ به لأن الختم ختم، وقيل: سمّته كريمًا لأنّه كان مصدّرًا ببسم الله الرَّحْمن الرحيم: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ وقرأ أشهب العقيلى: ألا تغلوا علىّ بالغين معجمة، وأتونى مسلمين مؤمنين طائعين.

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾: قال ابن عباس: كان مع بلقيس مائة ألف قيل، مع كلّ قيل مائة ألف، والقيل تلك دون الملك الأعظم ﴿أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾: أشيروا علىَّ فيما عرض لى وأجيبونى فيما أُشاوركم فيه ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً﴾ قاضية وفاصلة ﴿أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾: تحضرونى.

قالوا مجيبين لها ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾: فى القتال ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: عند الحرب ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾: أيتها الملكة ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾: تجدينا لأمرك مطيعين.

فقالت بلقيس لهم حين عرضوا أنفسهم للحرب ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾: عنوة وغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾: خرّبوها ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾: أى أهانوا أشرافها وكبراءها لكى يستقيم لهم الأمر، وتناهى الخبر عنها هاهُنا فصدّق الله سبحانه قولها فقال ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

أنشدنى أبو القاسم الحبيبى قال: أنشدنى أبى رحمه الله:

إنّ الملوك بلاء حيث ما حلّوا | فلا يكن لك فى أكنافهم ظل
ماذا تؤمّل من قوم إذا غضبوا | جاروا عليك وإن أرضيتهم ملّوا
وإن مدحتهمُ خالوك تخدعهم | واستثقلوك كما يُستثقل الكَلّ
فاستغن بالله عن أبوابهم أبدًا | إنّ الوقوف على أبوابهم ذلّ

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ : وذلك أن بلقيس كانت لبيبة قد سيست وساست، فقالت للملأ من قومها: إنّى مرسلة إلى سليمان وقومه بهديّة أصانعه بذلك عن ملكى واختبرهُ بها أملك هو؟ فإن يكن ملكًا قبل الهديّة وانصرف، وإنْ يكن نبيًّا لم يقبل الهدية ولم يرضه منّا إلاّ أن نتّبعه على دينه، فأهدت إليه وصيفًا ووصائف.

قال ابن عباس: ألبستهم لباسًا واحدًا حتى لا يعرف ذكر من أُنثى.

وقال مجاهد: أُلبس الغلمان لباس الجوارى وأُلبس الجوارى لبسة الغلمان، واختلفوا فى عددهم فقال مقاتل: مائة وصيف ومائة وصيفة. وقال مجاهد: مائتا غلام ومائتا جارية. وقال الكلبى: عشرة غلمان وعشر جوارٍ. وقال وهب وغيره: خمسمائة غلام وخمسمائة جارية.

وأخبرنى ابن فنجويه قال: حدّثنا ابن حنش قال: حدّثنا ابن فنجويه قال: حدّثنا سلمة قال: حدّثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن ثابت البنانى فى قوله: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ قال: أهدت له صفائح ذهب فى أوعية الديباج، فلمّا بلغ ذلك سليمان أمر بالجن فموّهوا له الآجرّ بالذهب ثم أمر به فأُلقى فى الطريق، فلمّا جاءوا رأوه ملقى فى الطريق فى كل مكان، قالو: قد جئنا نحمل شيئًا نراه ههنا ملقًى ما يُلتفت إليه، فصغر فى أعينهم ما جاؤوا به، وقيل: كانت أربع لبنات من ذهب. وقال وهب وغيره من أهل الكتاب: عمدت بلقيس إلى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام فألبست الجوارى لباس الغلمان، الأقبية والمناطق، وألبست الغلمان لباس الجوارى، وجعلت فى سواعدهم أساور من ذهب، وفى أعناقهم أطواقًا من ذهب، وفى آذانهم قُروطًا وشنوفًا مرصّعات بأنواع الجواهر، وحُملت الجوارى على خمسمائة رَمكة والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرس لجام من ذهب مرصّع بالجواهر وغواشيها من الديباج الملونة، وبعثت إليه أيضًا خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجًا مكلّلاً بالدرّ والياقوت المرتفع وأرسلت إليه أيضًا المسك والعنبر وعود الألنجوج، وعمدت إلى حقّة فجعلت فيها درّة يتيمة غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معرجة الثقب، ودَعت رَجُلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمّت إليه رجالاً من قومها من

أصحاب رأى وعقل وكتبت معه كتابًا نسخة الهدية وقالت: إن كنت نبيًا فميّز بين الوصفاء والوصيفات، وأخبرْ بما فى الحقّة قبل أن تفتحها وأثقب الدرّة ثقبًا مستويًا وأدخل خيطًا الخرزة وأمرت بلقيس الغلمان فقالت: إذا كلّمكم سليمان فكلّموه بكلام فيه تأنيث وتخنيث شبه كلام النساء، وأمرت الجوارى أن يكلّمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال، ثمَّ قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه، فإن نظر إليك نظرَ غَضَب فاعلم أنّه ملك ولا يهولنّك منظره فأنا أعزّ منه، وإن رأيت الرجل بشًّا لطيفًا فاعلم أنّه نبى مُرسَل فتفهّم قوله وَرُدّ الجواب.

فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعًا إلى سليمان (عليه السلام) فأخبره الخبر كلّه، فأمر سليمان (عليه السلام) الجنّ أن يضربوا لبنات الذهب والفضة ففعلوا، ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذى هو فيه إلى تسع فراسخ ميدانًا واحدًا بلبنات الذهب والفضة، وأن يجعلوا حول الميدان حائطًا شُرفها من الذهب والفضة ففعلوا، ثم قال: أىّ الدواب أحسن ممّا رأيتم فى البرّ والبحر؟ قالوا: يا نبى الله إنّا رأينا دوابّ فى بحر كذا وكذا منمّرة منقطة مختلفة ألوانها، لها أجنحة وأعراف ونواص. قال: علىَّ بها الساعة، فأتوا بها، فقال: شدّوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذّهب والفضة، وألقوا لها علوفها.

ثم قال للجنّ: علىّ بأولادكم، فاجتمع خلق كثير فأقامهم على يمين الميدان ويساره، ثم قعد سليمان (عليه السلام) فى مجلسه على سريره ووُضع له أربعون ألف كرسى عن يمينه ومثلها عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفّوا صفوفًا فراسخ، وأمر الإنس فاصطفّوا فراسخ، وأمر الوحش والسباع والهوامّ والطير فاصطفّوا فراسخ عن يمينه ويساره.

فلمّا رأى القوم الميدان ونظروا إلى ملك سليمان (عليه السلام) ورأوا الدوابّ التى لم تر أعينهم مثلها تروث على لبنات الذهب والفضة، تقاصرت إليهم أنفسهم وبقوا بما معهم من الهدايا.

وفى بعض الروايات أن سليمان (عليه السلام) لمّا أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعًا على قدر موضع اللبنات التى معهم، فلما رأى الرسل موضع اللبنات خاليًا وكل الأرض مفروشة خافوا أن يتّهموا بذلك فطرحوا ما معهم فى ذلك المكان.

قالوا: ثم جاؤوا، فلمّا رأوا الشياطين نظروا إلى موضع عجيب ففزعوا فقال لهم الشياطين: جوزوا فلا بأس عليكم، فكانوا يمرّون على كردوس كردوس من الجن والإنس

والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدى سليمان (عليه السلام) فنظر إليهم سليمان نظراً حسنًا بوجه طَلق وقال: ما وراءكم؟ فأخبرهُ رئيس القوم بما جاؤوا له وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه فقال: أينَ الحُقّة فأتى بها فحرّكها، وجاءه جبرئيل (عليه السلام) فأخبره بما فى الحُقّة فقال: إنَّ فيها درة يتيمة غير مثقوبة وجزعة مثقوبة معوجّة الثقب، فقال الرسول: صدقت فاثقب الدّرة وأدخل الخيط فى الخرزة فقال سليمان (عليه السلام): من لى بثقبها؟ فسأل سليمان الإنس فلم يكن عندهم علم ذلك، ثمَّ سأل الجانّ فلم يكن عندهم علم ذلك، ثم سأل الشياطين فقالوا: ترسل إلى الأرضة فجاءت الأرضة وأخذت شعرة فى فيها فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان (عليه السلام): حاجتك؟ فقالت: تصيّر رزقى فى الشجرة فقال: لك ذاك، ثمَّ قال: مَن لهذه الخرزة يسلكها الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا رسول الله، فأخذت الدودة الخيط فى فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال سليمان: حاجتك؟ قالت: تجعل رزقى فى الفواكه قال: لك ذاك، ثمَّ ميز بين الجوارى والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله على اليد الأُخرى ثم تضرب به على الوجه، والغلام كان يأخذهُ من الآنية يضرب به وجهه، وكانت الجارية تصبّ على باطن ساعدها، والغلام على ظهر الساعد، وكانت الجارية تصب الماء صبًّا، وكان الغلام يحدر الماء على يده حدراً، فميّز بينهم بذلك ثم ردّ سليمان (عليه السلام) الهديّة[1].

﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾: اختلف القُرّاء فيه فقرأ حمزة ويعقوب أتمدّونّى بنون واحدة مُشدَّدة، غيرهما بنونين خفيفتين وحذف الياء، ابن عامر وعاصم والكسائى وخلف، والباقون بإثباته.

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾: لأنّكم أهل مفاخرة الدنيا والمكابرة بها ولا تعرفون غير ذلك، وليست الدنيا من حاجتى لأن الله سبحانه قد مكّننى منها وأعطانى فيها ما لم يعط أحداً ومع ذاك أكرمنى بالدين والنبوّة والحكمة، ثمَّ قال للمنذر بن عمرو آمر الوفد ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾: بالهدية ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ﴾: لا طاقة ﴿لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾: أى من أرضها وملكها ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾: ذليلون إن لم يأتونى مسلمين.

قال وهب وغيرهُ من أهل الكتب: لما رجعت رُسل بلقيس إليها من عند سليمان (عليه السلام) قالت: قد والله عرفت ما هذا بمَلك، وما لنا به طاقة، وما نصنع بمكاثرته شيئًا، فبعثت

---

(١) هذا حديث طريف ظريف نسجه خيال كاتبه أو واضعه فرسم القصة حسبما صورها له عقله لا كما ذكرها كتاب الله سبحانه وتعالى وفيما ذكر الله سبحانه وتعالى كفاية لمن سطعت عليه أنوار الهداية.

إلى سليمان: إنّى قادمة عليك بملوك قومى حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثم أمرت بعرشها فجُعل فى آخر سبعة أبيات بعضها فى بعض، فى آخر قصر من سبع قصور لها، ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حرّاسًا يحفظونه ثمَّ قالت لمن خلّفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك وسرير ملكى، فلا يخلص إليه أحد ولا يزيّنه حتى آتيك، ثم أمرت مناديًا فنادى فى أهل مملكتها يؤذنهم بالرحيل، وشخصت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت يدى كل قيل أُلوف كثيرة.

قال ابن عباس: وكان سليمان رجلاً مهيبًا لا يبتدئ بشىء حتى يكون هو الذى يسأل عنه، فخرج يومًا فجلس على سرير ملكه فرأى رهجًا قريبًا منه فقال: ما هذه؟.

قالوا: بلقيس يا رسول الله.

قال: «وقد نزلت منّا بهذا المكان؟».

قال ابن عباس: وكان ما بين الكوفة والحيرة قدر فرسخ فأقبل حينئذ سليمان على جنوده فقال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾: أى مؤمنين. وقال ابن عباس: طائعين. واختلف أهل العلم فى السبب الذى لأجله أمر سليمان (عليه السلام) لإحضار العرش فقال أكثرهم: لأن سليمان (عليه السلام) علم أنها إن أسلمت حُرم عليه مالها فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يُحرم عليه أخذه بإسلامها[1].

وقال قتادة: لأنه أعجبته صفته لمّا وصفه الهدهد فأحبَّ أن يراه.

وقال ابن زيد: أراد أن يختبر عقلها فيأمر بتنكيره لينظر هل تثبته إذا رأته أم تنكره؟ وقيل: قدرة الله سبحانه وعظيم سلطانه فى معجزه يأتى بها فى عرشها.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾: وهو المارد القَوى، وفيه لغتان: عفريت وعفرية، فمَن قال عفريت جمعه عفاريت، ومَنْ قال عفرية جمعَه عفارت.

قال وهب: اسمه كوذى، وقال شعيب الجبائى: كان اسم العفريت ذكوان، وقال ابن عباس: العفريت: الداهية، وقال الضحّاك: هو الخبيث. ربيع: الغليظ. الفَراء: القوىّ الشديد. الكسائى: المنكر، وأنشد:

فقال شيطان لهم عفريت ... ما لَكمُ مكث ولا تبييت

(١) حاشا لله أن يكون هذا خلقًا لنبى من أنبياء الله تعالى، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وما كان لنبى أن يغل﴾ فكلاّ ثم كلاّ، وألف كلاّ أن يكون ذلك قصد نبى الله سليمان، وإنما كان قصده توكيد نبوته فى نفسها حتى يكون إيمانها عن يقين وتحقق من أنه نبى مرسل من قبل الله بدون أدنى شك ولا تحتاج بعد ذلك إلى تثبت من أن الله مؤيده ومرسله.

وقرأ أبو رجاء العطاردى قال: عفريه.

وأخبرنى ابن فنجويه قال: حدّثنا عبيد الله بن عبد الله بن أبى سمرة البغوى قال: حدّثنا عبد الله بن محمد بن جعفر بن شاذان البغدادى قال: حدّثنا محمد بن الحسن بن سهل قال: حدّثنا عبد الرّحْمن البحترى قال: حدّثنا عمرو بن عثمان قال: حدّثنا أبى عن عبد الله بن عبد العزيز القرشى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه كان يقرأ: قال عفريه من الجنّ والعفريه البكر بين البكرين لم يلد أبواه قبله شيئًا ولم يَلد هُوَ شيئًا.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾: أى مجلسك الذى تقضى فيه، قال ابن عباس: وكان له كلّ غداة مجلس يقضى فيه إلى منزع النهار.

﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ﴾: على حمله ﴿أَمِينٌ﴾: على ما فيه من الجواهر، فقال سليمان عليه السلام أُريد أسرع من هذا، ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: واختلفوا فيه، فقال بعضهم هو جبرئيل (عليه السلام) ملك من الملائكة أيّد الله عزّ وجلّ به نبيه سليمان عليه السلام.

وقال الآخرون: بل كان رجلاً من بنى آدم.

ثمّ اختلفوا فيه فقال أكثر المفسرين: هو آصف بن برخيا بن شمعيا بن ميكيا وكان صدّيقًا يعلم الاسم الأعظم الذى إذا دُعى به أجاب وإذا سئل به أُعطى[1].

أخبرنى ابن فنجويه قال: أخبرنا مخلد بن جعفر الباقرحى قال: حدّثنا الحسن بن علوية قال: حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال: حدّثنا إسحاق بن بشر قال: حدّثنا جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال: إنّ آصف قال لسليمان (عليه السلام) حين صلّى ودعا الله سبحانه: مُدّ عينيك حتى ينتهى طرفك قال: فمدّ سليمان (عليه السلام) عينه فنظر نحو اليمن ودعا آصف، فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يخدّون الأرض خداًّ حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدى سليمان (عليه السلام).

واختلف العلماء فى الدعاء الذى دعا به آصف عند الإتيان بالعرش، فروت عائشة أن النبى ﷺ قال: «إن اسم الله الأعظم الذى دعا به آصف «يا حى يا قيّوم»».

وروى عثمان بن مطر عن الزهرى قال: دعاء الذى عنده علم من الكتاب (يا إلهنا وإله كل شىء إلهًا واحدًا لا إله إلاّ أنت ائتنى بعرشها) قال: فمثل له بين يديه. وقال مجاهد: يا ذا الجلال والإكرام. وأخبرنى ابن فنجويه قال: حدّثنا طلحة بن محمد بن جعفر وعبيد الله بن أحمد بن يعقوب قالا: حدّثنا أبو بكر بن مجاهد قال: حدّثنا إسماعيل عن عبد الله بن

(١) هذا مما عمت به البلوى فى كون أن كثيراً من المسلمين يعتقدون فى ذلك، وكذلك موضوع الأبدال.

إسماعيل عن ابن زيد قال: الذى عنده علم من الكتاب رجل صالح كان فى جزيرة من جزائر البحر فخرج ذلك اليوم ينظر مَن ساكن الأرض؟ وهل يعبد الله عزَّ وجلّ أم لا يعبد؟ فوجد سليمان (عليه السلام) فدعا باسم من أسماء الله فإذا هو بالعرش حُمل فأتى به سليمان من قبل أنْ يرتدّ إليه طرفه.

وبه عن مجاهد قال: حدّثنى البزى وابن حرب قال: حدّثنا أبو حذيفة قال: حدّثنا شبل قال: زعم ابن أبى بزة أن اسم الذى عنده علم من الكتاب أسطوم، وقال بعضهم: كان رجل من حمير يقال له: ضبّة.

وقال قتادة: كان اسمه بليحا، وقال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمان أما إن الناس يرون أنّه كان معه اسم وليس ذلك كذلك، إنّما كان رجل عالم من بنى إسرائيل آتاه الله علمًا وفقهًا فقال: أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك، قال سليمان (عليه السلام): هات، فقال: أنت النبى ابن النبى وليس أحد أوجه عند الله منك ولا أقدر على حاجته فإن دعوت الله، وطلبت إليه كان عندك.

قال: صدقت ففعل ذلك فجيء بالعرش فى الوقت.

وقوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: اختلفوا فى معناه فقال سعيد بن جبير: يعنى قبل أنْ يرجع إليك أقصى من تركت، وهو أن يصل إليك من كان منك على مَدّ بصرك. قتادة: قبل أن يأتيك الشخص من مد البصر.

وهب: تمد عينيك فلا ينتهى طرفك إلى مداه حتى أُمثّله بين يديك.

مجاهد: يعنى إدامة النظر حتى يرتد الطرف خاسئًا.

وعنه أيضًا قال: يعنى مدّ بصرك ما بينك وبين الحيرة، وهو يومئذ فى كندة.

وعن قتادة: هو أن يبعث رسولاً إلى منتهى طرفه فلا يرجع حتى يؤتى به.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ يعنى رأى سليمان (عليه السلام) العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾: محمولاً إليه من مأرب إلى الشام فى قدر ارتداد الطرف ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾: نعمته ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾: فلا أشكرها ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾: لم ينفع بذلك غير نفسه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودَوامَها؛ لأنَّ الشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾: بالإفضال على من كفر نعمه.

﴿قَالَ نَكِّرُوا﴾: غيّروا ﴿لَهَا عَرْشَهَا﴾: فزيدوا فيه وانقصوا منه واجعلوا أعلاه أسفله وأسفله

أعلاه ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾: إلى عرشها فتعرفه ﴿أَمْ تَكُونُ [مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ][(١)]﴾: من الجاهلين به الذين لا يهتدون إليه، وإنما حمل سليمان (عليه السلام) على ذلك، كما ذكره وهب ومحمد ابن كعب وغيرهما من أهل الكتب: إنّ الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشى إليه أسرار الجن، ولا ينفكّون من تسخير سليمان وذرّيته من بعده، فأرادوا أن يزهّدوه فيها فأساؤوا الثناء عليها وقالوا: إنّ فى عقلها شيئًا وإنّ رجلها كحافر الحمار، فأراد سليمان (عليه السلام) أن يختبر عقلها بتنكير عرشها، وينظر إلى قدميها ببناء الصرح[(٢)]، ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ بلقيس ﴿قِيلَ﴾: لها ﴿أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾: شبّهتهُ به وكانت قد تركته خلفها فى بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها فلم تقرّ بذلك ولم تنكر، فعلم سليمان (عليه السلام) كمال عقلها.

قال الحسن بن الفضل: شبّهوا عليها فشَبّهت عليهم وأجابتهم على حسب سؤالهم، ولو قالوا لها: هذا عرشك لقالت: نعم.

فقال سليمان (عليه السلام) ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾: بالله وبقدرته على ما شاء مِن قبل هذه المرأة[(٣)] ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ هذا قول مجاهد.

وقال بعضهم: معناه وأُوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة وقبل مجيئها، وكنّا مسلمين طائعين خاضعين.

وقال بعضهم: هذا من قول بلقيس لمّا رأت عرشها عند سليمان (عليه السلام) قالت: عرفت هذه، وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان (عليه السلام) بالآيات المتقدمة من قبل هذه الآية وذلك بما اختبرت من أمر الهديّة والرُّسل، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أى منقادين لك مطيَعين لأمرك مِن قبل أن جئناك.

﴿وَصَدَّهَا﴾: ومنعها ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾: وهو الشمس بأن تعبد الله، وعلى هذا القول يكون ﴿مَا﴾: فى محل الرفع.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط سهواً من المخطوط.

(٢) انظر كيف اختلقوا لكل حدث قصة تشين بالأنبياء وما ذلك إلا من صنع بنى إسرائيل حيث دسوا فى كتب المسلمين تلك الأشياء التى تشين إلى الإسلام قبل أن تشين إلى الأنبياء فقديمًا قتلوهم واليوم يشوهونهم حتى فى كتب غيرهم، وكأن سليمان عليه السلام صاحب هذا الملك العظيم ليس فى مملكته امرأة يتزوجها فى جمال بلقيس ثم تصويره بصورة الناظر إلى النساء ومحاسنهن ووصفه بالجهل بحقيقة الجن وهو النبى المرسل مدعين أنها أعلم بهم منه حيث زعموا أن أمها جنية.

(٣) فى المخطوط: المرأة. وهو تحريف.

وقال بعضهم : معناه وصدَّها سليمان (عليه السلام) [عن][(١)] ما كانت تعبد من دون الله أى منعها ذلك وحال بينها وبينه ، ولو قيل : وصدّها الله ذلك بتوفيقها للإسلام لكان وجهًا صحيحًا ، وعلى هذين التأويلين يكون محل ﴿مَا﴾ : نصبًا .

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ۝ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ الآية . وذلك أنَّ سليمان (عليه السلام) لما أقبلت بلقيس تريده أُمرَ الشياطين فبنوا له صرحًا أى قصرًا من زجاج كأنّه الماء بياضًا ، وقيل : الصرح صحن الدار ، وأجرى من تحته الماء وألقى فيه كل شىء من دواب البحر ، السمك وغيره ، ثمَّ وضع له سريرهُ فى صدرها فجلس عليه وحلقت عليه الطير والجن والإنس وإنّما أمر ببناء هذا الصرح لأنَّ الشياطين قال بعضهم لبعض : سخّر الله لسليمان عليه السلام ما سخّر وبلقيس ملكة سبأ ينكحها فتلد له غلامًا فلا ننفك من العبودية أبدًا ، فأرادوا أن يزهّدوه فيها فقالوا : إنَّ رجلها رجل حمار وإنها شَعْراء الساقين لأنَّ أُمّها كانت من الجن فأرادَ أن يعلم حقيقة ذلك وينظر إلى قدميها وساقيها سليمان (عليه السلام)[(٢)] .

وروى محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبّه قال : إنّما بنى الصرح ليختبر عقلها وفهمها ، يعاينها بذلك كما فعلت هى من توجيهها إليه الوصفاء والوصائف ليميّز بين الذكور والإناث ، تعاينه بذلك ، فلمّا جاءت بلقيس قيل لها : ادخلى الصرح ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ : وهى معظم الماء وقال ابن جريج : يعنى بحرًا .

﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ : لتخوضه إلى سليمان عليه السلام ، فنظر سليمان فإذا هى أحسن الناس ساقًا وقدمًا إلاّ أنّها كانت شعْراء الساقين ، فلمّا رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها وناداها[(٣)] ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ : مملّس مستو ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ : وليس ببحر ، فلمّا جلست قالت :

---

(١) زيادة يتطلبها السياق .

(٢) سبق أن علقنا على نحو هذا قبل قليل فى تنكير العرش وبينا أن ذلك من وضع أهل الكتاب على كتب أهل الإسلام حتى يشوهوا صورة الإسلام والمسلمين فى نظر أولى العقول والأفهام الذين يظنون بالأنبياء الكمال ، وحاشا لله أن يفعل سليمان عليه السلام ما يفعل عبثًا أو لهوًا وإنما يفعل ما يفعل دعوة ومصلحة للدين فبإسلام بلقيس أسلم أهل اليمن .

(٣) انظر إلى عجب الكلام كيف تكون من أحسن الناس ساقًا وتكون كثيرة الشعر فيهما ، أليس هذا تناقضًا ، أم أن الجمال صار لا يفرق بين الملساء الناعمة الملمس والشعراء الخشنة ، إن هذا العجب لعجب عجاب ، ممن يختلقون على أنبياء الله الكذب ثم لا يحترمون حتى عقول القارئين ، وهل كان سليمان عليه السلام يعجز عن معرفة حقيقة مثل هذه بأرخص الأثمان بل بلا ثمن أصلاً من أن يجعل امرأة من أهل بيته تنظر إلى ذلك منها بدلاً من أن يكلف جُنْدَهُ وخدَمَهُ بعمل مثل هذا الصرح لمعرفة هذا الأمر البسيط ، فنقلوا القصة من الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، إلى الجنس والشهوة واللذة عافانا الله وإياكم من سوء الظن بالله وأنبيائه ورسله وجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

يا سليمان إنّى أُريد أن أسألك عن شىء.

قال: سلى.

قالت: أخبرنى عن ما ماء رُواء ولا من أرض ولا من سماء. وكان سليمان إذا جاءه شىء لا يعلمه سأل الإنس عنه، فإن كان عندهم علم ذلك وإلاّ سأل الجن، فإن علموا وإلاّ سأل الشياطين، فسأل الشياطين عن ذلك فقالوا له: ما أهون هذا من الخيل فلْتجرِ ثم املأ الآنية من عَرَقها.

فقال لها سليمان: عرق الخيل، قالت: صدقت، ثم قالت: أخبرنى عن لون الربّ، فوثب سليمان عليه السلام عن سريره وخرَّ ساجدًا وصعق عليه فقامت عنه وتفرّقت جنودُه وجاءهُ الرسول فقال: يا سليمان يقول لك ربك: ما شأنك؟

قال: يا رب أنت أعلم بما قالت، قال: فإن الله يأمرك أن تعود إلى سريرك وترسل إليها وإلى مَن حضرها من جنودك وجنودها فتسألها وتسألهم عمّا سألتك عنه، ففعل ذلك سليمان (عليه السلام)، فلمّا دخلوا عليه قال لها: عمّاذا سألتنى؟

قالت: سألتك عن ماء رواء ليس من أرض ولا سَماء فأجبتَ.

قال: وعن أىّ شىء سألتنى أيضًا؟

قالت: ما سألتك عن شَىء إلاّ هذا فاسأل الجنود فقالوا مثل قولها، أنساهم الله تعالى ذلك وكفى سليمان (عليه السلام) الجواب[1]، ثمَّ إن سليمان دَعَاها إلى الإسلام وكانت قد رأت حال العرش والصرح فأجابت وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ : بالكفر ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ : فحسن إسلامها.

واختلف العلماء فى أمرها بعد إسلامها فقال أكثرهم: لمّا أسلمت أراد سليمان أن يتزوجها، فلما همَّ بذلك كره ما رأى من كثرة شعر ساقيها وقال: ما أقبح هذا! فسأل الإنس: ما يذهب هذا؟

قالوا: الموسى فقالت المرأة: لم تمسّنى حديدة قطّ، فكره سليمان الموسى وقال: إنّها تقطع ساقيها، فسأل الجن فقالوا: لا ندرى، ثمَّ سأل الشياطين فتلكئوا ثمّ قالوا: إنّا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا لها النورة والحمّام.

---

(١) انظر إلى كيفية سرد القصة وكأنهما ليس لهما هدف إصلاح ملكيهما أو دعوة الناس إلى ما يصلح شئونهم فى الدنيا ولا فى الآخرة وصورهما فى صورة العابثين اللذين جلسا يتبادلان الفوازير والنكات، ثم أخيرًا تذكر أنه مكلف بدعوة هذه الملكة إلى الإسلام، أخى المسلم عليك أن تميز أثناء قراءة الكتب ما يعرض عليك هل هو موافق للحق أم لا. واعلم أن دين الله موافق للفطرة السليمة.

قال ابن عباس: فإنّه لأول يوم رؤيت فيه النورة واستنكحها سليمان عليه السلام.

أخبرنى ابن فنجويه قال: حدّثنا محمد بن أحمد بن نصرويه قال: حدّثنا محمد بن عمران ابن هارون قال: حدّثنا محمد بن ميمون المكى قال: حدّثنى أبو هارون العطار عن أبى حفص الأبّار عن إسماعيل بن أبى بردة عن أبى موسى يبلغ به النبى ﷺ قال: «أول من اتخذ الحمامات سليمان بن داود عليه السلام، فلمّا ألزق ظهره إلى الجدر فمسّهُ حرّها قال: آوه من عذاب الله».

قالوا: فلما تزّوجها سليمان أحبّها حبًّا شديدًا وأقرّها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعًا وحسنًا وهى: سلحون وسون وعمدان، ثم كان سليمان عليه السلام يزورها فى كل شهر مرَّة بعد أن ردها إلى ملكها، ويقيم عندها ثلاثة أيّام يبتكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام، وولدت له فيما ذكر.

وروى ابن أبى إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب قال: زعموا أنّ سليمان بن داود عليه السلام قال لبلقيس لمّا أسلمت وفرغ من أمرها: اختارى رجلاً من قومك أُزّوجكيه.

قالت: ومثلى يا نبى الله ينكح الرجال وقد كان لى فى قومى من الملك والسلطان ما كان.

قال: نعم إنّه لا يكون فى الإسلام إلاّ ذلك ولا ينبغى لك أنْ تحرّمى ما أحل الله لك.

فقالت: زوّجنى إن كان لا بدّ من ذلك ذا تبّع ملك همذان فزوّجه إيّاها ثم ردّها إلى اليمن وسلّط زوجها ذا تبّع على اليمن، ودعا زوبعة أمير جن اليمن فقال: اعمل لذى تبّع ما استعملك فيه.

قال: فصنع لذى تبع الصنائع باليمن ثم لم يزل بها يعمل له فيها ما أراد حتى مات سليمان ابن داود (عليه السلام)، فلمّا أنْ حال الحول وتبيّنت الجن موت سليمان (عليه السلام) أقبل رَجُلٌ منهم فسلك تهامة حتى إذا كان فى جوف اليمن صرخ بأعلى صوته: يا معشر الجن إنّ الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم قال: فعمدت الشياطين إلى حجرين عظيمين فكتبوا فيهما كتابًا بالمسند[1] نحن بنينا سلحين دائبين سبعة وسبعين خريفًا، وبنينا صرواح ومرواح وبنيون وحاضة وهند وهنيدة، وسبعة أمجلة بقاعة، وتلثوم بريدة، ولولا صارخ بتهامة لتركنا بالبون إمارة، وقال وسلحين وصرواح ومرواح وبنيون وهند وهنيدة وتلثوم حصون كانت باليمن عملتها الشياطين لذى تبع، ثم رفعوا أيديهم وانطلقوا وتفرّقوا وانقضى ملك ذى تبّع وملك بلقيس مع ملك سليمان (عليه السلام).

(١) جاء تحت هذه الكلمة فى المخطوط بقلم دقيق بخط الناسخ عبارة: خط الحميرية.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ۝ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ﴾: يعني بأن ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: وحده ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾: مؤمن وكافر ومصدّق ومكذّب ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾: في الدين.

قال مقاتل: واختصامهم مُبين في سورة الأعراف وهو قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: ٧٥ ـ ٧٧).

فقال لهم صالح: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالبلاء والعقوبة ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: العافية والرحمة، والاستعجال طلب التعجيل بالأمر، وهو الإتيان به قبل وقته. ﴿لَوْلَا﴾: هلاّ ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾: بالتوبة من كفركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا﴾: تشاءمنا، وأصله تطيّرنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾: وذلك أن المطر أمسك عنهم في ذلك الوقت وقحطوا فقالوا: أصابنا هذا الضرّ والشرّ من شؤمك وشؤم أصحابك، وإنّما ذكر التطيّر بلفظ الشأم على عادة العرب ونسبتهم الشؤم إلى البارح، وهو الطائر الذي يأتي من جانب اليد الشومي وهي اليسرى.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾: من الخير والشر وما يصيبكم من الخصب والجدب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: بأمره وهو مكتوب على رؤوسكم، لازم أعناقكم، وليس ذلك إليّ ولا علمه عندي.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾: قال ابن عباس: تُختبرون بالخير والشر، نظيره ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء: ٣٥).

الكلبي: تُفتنون حتى تجهلوا أنّه من عند الله سبحانه وتعالى.

محمد بن كعب: تُعذّبون بذنوبكم وقيل: تمتحنون بإرسالي إليكم لتثابوا على طاعتكم ومتابعتي، وتعاقبوا على معصيتي ومخالفتي.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: يعني مدينة ثمود وهي الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾: من أبناء أشرافهم

﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾: وأسماؤهم قدار بن سالف ومصدع بن دهر وأسلم ورهمى وبرهم ودعمى وعيم وقتال وصَداف.

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ﴾: تحالفوا ﴿بِٱللَّهِ﴾: أيّها القوم وموضع تقاسموا جزم على الأمر كقوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ (الإسراء:٨٨) وقال قوم من أهل المعانى: محله نصب على الفعل الماضى يعنى أنهم تحالفوا وتواثقوا، تقديره: قالوا متقاسمين بالله، ودليل هذا التأويل أنّها فى قراءة عبد الله: ولا يصلحون تقاسموا بالله، وليس فيها قالوا.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾: من البيات فنقتله، هذه قراءة العامة بالنون فيهما واختيار أبى حاتم، وقرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائى: لتبيّتنّه ولتقولنّ بالتاء فيهما وضم التاء واللام على الخطاب واختاره أبو عبيد، وقرأ مجاهد وحميد بالتاء فيهما وضم التاء واللام على الخبر عنهم.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا﴾: ما حضرنا ﴿مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾: أى إهلاكهم، وقرأ عاصم برواية أبى بكر مهلك بفتح الميم واللام، وروى حفص عنه بفتح الميم وكسر اللام، وهما جميعًا بمعنى الهلاك ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾: فى قولنا: إنّا ما شهدنا ذلك.

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾: وغدروا غدرًا حين قصدوا تبييت صالح والفتك به ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾: وجزيناهم على مكرهم بتعجيل عقوبتهم ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا﴾: قرأ الحسن والأعمش وعاصم وحمزة والكسائى أنّا بفتح الألف ولها وجهان:

أحدهما: أن يكون أنّا فى محلّ الرفع ردًا على العاقبة.

والثانى: النصب على تكرير (كان) تقديره: كان عاقبة مكرهم التدمير، واختار أبو عبيد هذه القراءة اعتبار الحرف أى أنْ دمرناهم، وقرأ الباقون: إنّا بكسر الألف على الابتداء.

﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾: يعنى أهلكنا التسعة، واختلفوا فى كيفية هلاكهم.

فقال ابن عباس: أرسل سبحانه الملائكة فامتلأت بهم دار صالح فأتى التسعة الدار شاهرين سيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم.

قال قتادة: خرجوا مسرعين إلى صالح فسلّط الله عليهم صخرة فدمغتهم.

مقاتل: نزلوا فى سفح جبل ينتظر بعضهم بعضًا ليأتوا دار صالح، فجثم عليهم الجبل فأهلكهم.

السدى: خرجوا ليأتوا صالحًا فنزلوا خرقًا من الأرض يتمكنون فيه فانهار عليهم.

﴿وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾: بالصيحة وقد مضت القصة.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾: خالية، قراءة العامّة بالنصب على الحال عن الفرّاء والكسائى وأبو عبيدة عن القطع مجازه: فتلك بيوتهم الخاوية، فلمّا قطع منها الألف واللام نصبت كقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ (النحل: ٥٢) وقرأ عيسى بن عمر ﴿خَاوِيَةٌ﴾: بالرفع على الخبر ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾: أى بظلمهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾: لعبرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: من صيحة جبريل، والخراج الذى ظهر بأيديهم.

قال مقاتل: خرج أوّل يوم على أيديهم مثل الحمّصة احمر ثمّ اصفرّ من الغد، ثمّ اسودّ اليوم الثالث، ثمّ تفقّأت، وصاح جبريل (عليه السلام) فى خلال ذلك فخمدوا، وكانت الفرقة المؤمنة الناجية أربعة آلاف، خرج بهم صالح إلى حضرموت، فلمّا دخلها صالح مات، فسمّى (حضرموت).

قال الضحّاك: ثمّ بنى الأربعة آلاف مدينة يقال لها: (حاضورا) وقد مضت القصّة جميعًا.

❖ ❖ ❖

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: وهى الفعلة القبيحة الشنيعة ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾: أنّها فاحشة، وقيل: يرى بعضكم بعضًا. كانوا لا يتستّرون عتوًّا منهم وتمرّدًا، ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: من أدبار الرجال، يقولونه استهزاءً منهم بهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾: وأهله ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾: قضينا عليها أنها ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أى الباقين فى العذاب وقال أهل المعانى: معنى ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾: جعلناها ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وإنّما قال ذلك لأنّ جرمها على مقدار جرمهم، فلمّا كان تقديرها كتقديرهم فى الشرك والرضى بأفعالهم القبيحة، جرت مجراهم فى إنزال العذاب بها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾: أى على شذاذها ﴿مَّطَرًا﴾: وهو الحجارة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: قال الفرّاء: قيل للوط: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: على هلاك كفار قومى.

وقال الباقون: الخطاب لرسول الله ﷺ، يعنى و﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على هلاك كفّار الأُمم الخالية، وقال مقاتل: على ما علّمك هذا الأمر. الآخرون: على جميع نعمه.

﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾: لرسالاته وهم الأنبياء (عليهم السلام)، عن مقاتل، دليله قوله: ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات: ١٨١) وأخبرنى عبد الله بن حامد قال: أخبرنا السدى. قال: حدّثنا أحمد بن نجدة. قال: حدّثنا الحكم بن طهر، عن السدّى، عن أبى مالك، عن ابن عباس ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ قال: أصحاب محمّد (عليه السلام). وأخبرنى عبد الرحيم بن إبراهيم بن محمّد العدل بقراءتى عليه، قال: أخبرنى عبد الله بن محمّد بن مسلم، فيما أجازه لى أنّ محمّد بن إدريس حدّثهم، قال: حدّثنا الحميدى. قال: سمعت سفيان سُئل عن ﴿عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾: قال: هم أصحاب محمّد.

وقال الكلبى: هم أُمّة محمّد اصطفاهم الله لمعرفته وطاعته، ثمّ قال إلزامًا للحجّة: ﴿ءَآللَّهُ﴾ القراءة بهمزة ممدودة وكذلك كلّ استفهام فيه ألف وصل، مثل قوله: (آلذين وآلآن) جعلت المدّة علمًا بين الاستفهام والخبر، ومعنى الآية: الله الذى صنع هذه الأشياء ﴿خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام، وقرأ عاصم وأهل البصرة (بالياء)، والباقون (بالتاء)، وكان النبى (عليه السلام) إذا قرأ هذه الآية قال: «بل الله خيرٌ وأبقى وأجلّ وأكرم».



﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿أَمَّنْ﴾ : قال أبو حاتم : فيه إضمار كأنّه قال : آلهتكم خير أم الذى ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ : حُسْن.

﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ : هو (ما) النفى، يعنى ما قدرتم عليه ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ : يعينه على ذلك، ثمّ قال : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يشركون ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ : لا تميد بأهلها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ : وسطها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ : تطّرد بالمياه ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ : جبالاً ثوابت ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ : العذب والملح ﴿حَاجِزًا﴾ : مانعًا لئلاّ يختلطا ولا يبغى أحدهما على صاحبه، وقيل : أراد الجزائر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ : أى المجهود، وعن ابن عباس وقال السدّى : المضطرّ الذى لا حول له ولا قوّة، ذو النون : هو الذى قطع العلائق عمّا دون الله، أبو حفص وأبو عثمان النيسابوريّان : هو المفلس.

وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمّد يقول : سمعت أبا نصر منصور بن عبد الله الأصبهانى يقول : سمعت أبا الحسن عمر بن فاضل العنزى يقول : سمعت سهل بن عبد الله التسترى يقول : ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ الذى إذا رفع يديه إلى الله داعيًا لم يكن له وسيلة من طاعة قدّمها ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ : أى الضرّ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ : يهلك قرنًا وينشئ آخرين ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ : إذا سافرتم.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ : قدّام رحمته ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ : للبعث ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ : المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ : النبات ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ : حجّتكم على قولكم إنّ مع الله إلهًا آخر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ : نزلت فى المشركين حيث سألوا رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة.

قال الفرّاء : وإنّما رفع ما بعد ﴿إِلَّا﴾ : لأنّ قبلها جحدًا كما يقال : ما ذهب أحد إلاّ أبوك ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ﴾ : متى ﴿يُبْعَثُونَ﴾ : قالت عائشة : مَن زعم أنّه يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفرية، والله عزّ وجلّ يقول : ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

أخبرنا أبو زكريا الحرى قال : أخبرنا أبو حامد الأعمش قال : حدّثنا على بن حشرم قال حدّثنا الفضل بن موسى، عن رجل قد سمّاه قال : كان عند الحجّاج بن يوسف منجّم، فأخذ الحجّاج حصيات بيده قد عرف عددها فقال للمنجّم : كم فى يدى؟ فحسب، فأصاب المنجّم، ثمّ اعتقله الحجّاج فأخذ حصيات لم يعددهنّ، فقال للمنجّم : كم فى يدى؟ فحسب، فحسب، فأخطأ ثمّ حسب أيضًا، فأخطأ، فقال : أيّها الأمير أظنّك لا تعرف عددها فى يدك.

قال: فما الفرق بينهما؟! قال: إنّ ذاك أحصيته فخرج من حدّ الغيب، فحسبت فأصبت، وإنّ هذا لم تعرف عددها، فصار غيبًا، ولا يعلم الغيب إلاّ الله عزّ وجلّ. ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾: اختلف القرّاء فيه، فقرأ ابن عباس بلى بإثبات الياء ﴿أَدَّٰرَكَ﴾: بفتح الألف وتشديد الدال على الاستفهام.

روى شعبة عن أبى حمزة قال: قال لى ابن عبّاس: فى هذه الآية ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: أى لم يدرك، قال الفرّاء: وهو وجه جيّد كأنّه يوجّهه إلى الاستهزاء بالمكذّبين بالبعث، لقولك للرجل تكذّبه: بلى لعمرى لقد أدركت السلف فأنت تروى ما لا تروى، وأنت تكذّبه. وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب والأعمش وشيبة ونافع وعاصم وحمزة والكسائى ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾: بكسر اللام وتشديد الدال أى تدارك وتتابع ﴿عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: هل هى كائنة أم لا؟ وتصديق هذه القراءة أنّها فى حرف أُبى أم تدارك ﴿عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: والعرب تضع بل موضع أم، وأم موضع بل إذا كان فى أوّل الكلام استفهام كقول الشاعر:

فوالله ما أدرى أسلمى تغوّلت أم البوم أم كلٌّ إلى حبيب

أى بل كلٌّ إلى حبيب، ومعنى الكلام هل تتابع علمهم بذلك فى الآخرة، أى لم يتتابع فصل وغاب علمهم به فلم يبلغوه ولم يدركوه؛ لأنّ فى الاستفهام ضربًا من الجحد، وقرأ أبو جعفر ومجاهد وحميد وابن كثير وأبو عمرو ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾: من الادّراك أى لم يدرك علمهم علم فى الآخرة، وقال مجاهد: معناه يدرك علمهم فى الآخرة ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم لأنهم كانوا فى الأنبياء مكذّبين، وقيل بل ضلّ وغاب علمهم فى الآخرة فليس فيها لهم علم، ويقال: اجتمع علمهم فى الآخرة أنّها كائنة وهم فى شكّ من وقتهم.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾: أى جهلة واحدها عمى، وقرأ سليمان بن يسار وعطاء بن يسار (تدارك): غير مهموزة، وقرأ ابن محيصن (أءدرك): على الاستفهام، أى لم تدرك، وحمل القول فيه أنّ الله سبحانه أخبر رسوله ﷺ أنّهم إذا بعثوا يوم القيامة استوى علمهم بالآخرة وما وعدوا فيه من الثواب والعقاب، وإنْ كانت علومهم مختلفة فى الدنيا وإنْ كانوا فى شكّ من أمرها بل جاهلون به.

وسمعت بعض العلماء يقول فى هذه الآية: إنّ حكمها ومعناها لو ادّارك علمهم فيما هم فى شكّ منها حيث هم منها عمون على تعاقب الحروف.

❖ ❖ ❖

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٦٩ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝٧٠ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٧١ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٤ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ۝٧٥ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٧٨ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ۝٧٩ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ۝٨١ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: يعنى مشركى مكة ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾: من قبورنا أحياء ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا﴾: البعث ﴿نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾: وليس ذاك بشيء ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أحاديثهم وأكاذيبهم التى كتبوها.

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾: على تكذيبهم إيّاك عنك ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾: نزلت فى المستهزئين الذين أقسموا بمكّة وقد مضت قصتهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: أى دنا وقرب لكم، وقيل: تبعكم.

وقال ابن عباس: حضركم، والمعنى: ردفكم، فأدخل اللام كما أُدخل فى قوله: ﴿لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٤) و﴿لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾(يوسف: ٤٣): وقد مضت هذه المسألة.

قال الفراء: اللام صلة زائدة كما يقول تقديرها به ويقدر له ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: من العذاب فحلّ بهم ذلك يوم بدر ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ﴾: تخفى ﴿صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ﴾: أى مكتوم سرّ وخفىّ أمر،

وإنما أدخل الهاء على الإشارة إلى الجمع.

﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾: وهو اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: من أمر الدين ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: يعنى القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾: أى بين المختلفين فى الدين يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: المنيع فلا يردّ له أمر ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: بأحوالهم فلا يخفى عليه شىء.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾: البيّن ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: الكفار كقوله ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ (الأنعام: ١٢٢) وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ (فاطر: ٢٢).

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ نظيره ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ (البقرة: ١٨/ ١٧١).

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾: قرأ العامة على الاسم، وقرأ يحيى والأعمش وحمزة يهدى العمى بالياء ونصب الياء على الفعل ههنا وفى سورة النمل ﴿إِن تُسْمِعُ﴾: وتفهم ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: بأدلّتنا وحجتنا ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾: فى علم الله سبحانه وتعالى.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾: وَجَب العذاب والسخط ﴿عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ قراءة العامة بالتشديد من التكلم وتصديقهم، وقرأ أُبى: تنبئهم.

قال السدى: تكلّمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام، وقرأ أبو رجاء العطاردى: تكلمهم بفتح التاء وتخفيف اللام من الكلم وهو الجرح أى تسمهم.

قال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس عن هذه الآية يكلّمهم أو تكلمهم فقال: كل ذلك يفعل تكلم المؤمن ويكلم الكافر. ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ وقرأ ابن أبى إسحاق وأهل الكوفة بالنصب وقرأ الباقون بالكسر.

﴿كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾: قبل خروجها.

ذكر الأخبار الواردة فى صفة دابّة الأرض وكيفية خروجها

أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن حامد الأصبهانى قال: أخبرنا محمد بن إسحاق، قال حدّثنا عبد الله بن محمّد بن رسمويه قال: حدّثنا الحكم بن بشير بن سليمان، عن عمرو بن قيس الملائى، عن عطية، عن ابن عمر ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ قال: حين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر.

أخبرنا عبد الله بن حامد الأصفهانى عن أحمد بن عبد الله بن سليمان قال: أخبرنى أبو عبد الله بن فنجويه قال: أخبرنا أبو بكر بن خرجة حدّثنا محمّد بن عبد الله بن سليمان الحضرمى عن ميثم بن ميناء الجهنى عن عمرو بن محمّد العبقرى عن طلحة بن عمرو عن

عبد الله بن عمير الليثى عن أبى شريحة الأنصارى عن النبى ﷺ أنّه قال: «يكون للدّابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجًا بأقصى اليمن فيفشو ذكرها بالبادية ولا يدخل ذكرها القرية - يعنى مكة - ثمّ يمرّ زمان طويل، ثمّ تخرج خرجة أخرى قريبًا من مكّة فيفشو ذكرها بالبادية ويدخل ذكرها القرية - يعنى مكة - فبينا الناس يومًا فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله سبحانه - يعنى المسجد الحرام - لم ترعهم إلاّ وهى فى ناحية المسجد تدنو كذا ما بين الركن الأسود إلى باب بنى مخزوم عن يمين الخارج فى وسط من ذلك فينفض الناس عنها وتثبت لها عصابة عرفوا أنّهم لم يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنّها الكواكب الدرّية ثم ولّت فى الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب، حتى إنّ الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان الآن تصلى، فيقبل عليها بوجهه فتسمه فى وجهه، ويتجاور الناس فى ديارهم ويصلحون فى أسفارهم ويشتركون فى الأموال يُعرف الكافر من المؤمن فيقال: للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر».

وأخبرنى ابن محمّد بن الحسين الثقفى، عن عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندى، عن محمّد بن عبد الغفّار الزرقانى، عن أحمد بن محمّد بن هانئ الطائى، عن محمّد بن النضر بن محمّد الأودى، عن أبيه، عن سفيان الثورى، عن شهاب بن عبد ربّه الرحمن، عن طارق بن عبد الرحمن، عن ربعى بن خراش، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «دابّة الأرض طولها سبعون ذراعًا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب تسم المؤمن بين عينيه وتكتب بين عينيه مؤمن وتسم الكافر بين عينيه وتكتب بين عينيه كافر، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان (عليهما السلام)».

وأخبرنى الحسين بن محمّد قال: أخبرنى أبو بكر مالك القطيعى عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبى، عن بهز عن حمّاد عن على بن زيد عن أوس بن خالد عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «تخرج الدابة معها عصا موسى وخاتم سليمان فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتختم أنف الكافر بالخاتم، حتى إنّ أهل الخوان ليجتمعون فيقولون: هذا يا مؤمن ويقولون هذا يا كافر».

وأخبرنا الحسين بن محمّد عن عبد الله بن محمّد بن شنبة عن الحسن بن يحيى عن ابن جريج عن أبى الزبير أنّه وصف الدّابة فقال: رأسها رأس الثَور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيّل، وصدرها صدر الأسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرّة،

وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم البعير، وبين كلّ مفصلين اثنا عشر ذراعًا معها عصا موسى وخاتم سليمان، ولا يبقى مؤمن إلاّ نكتته فى مسجده بعصا موسى نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة حتى يضىء لها وجهه، ولا يبقى كافر إلاّ وتنكت وجهه بخاتم سليمان فتفشو تلك النكتة فيسود لها وجهه، حتى إنّ الناس يتباعون فى الأسواق بكَمْ يا مؤمن وبكم يا كافر، ثمّ تقول لهم الدّابّة، يا فلان أنت من أهل الجنة ويا فلان أنت من أَهل النار، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً ...﴾ الآية.

وأخبرنا الحسين بن محمّد عن ابن شنبة عن ابن عمر، وعن سفيان بن وكيع عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن عبد الملك بن المغيرة الطائفى عن أبى البيلمانى عن ابن عمر قال: تخرج الدّابة ليلة جمع والناس يسيرون إلى منى قال: فتحمل الناس بين يديها وعجزها، لا يبقى منافق إلاّ خطمته ولا مؤمن إلاّ مسحته.

وأخبرنى الحسين بن محمّد عن عمر بن الخطاب عن عبد الله بن الفضل عن إبراهيم بن محمد بن عرعرة عن عبيد الله بن عبد المجيد الحنفى عن فرقد بن الحجّاج القرشى قال: سمعت عقبة بن أبى الحسناء اليمانى قال: سمعت أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرج دابّة الأرض من موضع جياد فيبلغ صدرها الركن ولما يخرج ذنبها بعد قال: وهى دابّة ذات وبر وقوائم».

وأخبرنى الحسن قال: حدّثنا على بن محمّد بن لؤلؤ قال: أخبرنا أبو عبيد محمّد بن أحمد ابن المؤمل قال: حدّثنا أبو جعفر محمّد بن جعفر الأحول قال: حدّثنا منصور بن عمّار قال: حدّثنا ابن لهيعة، عن أبى قبيل، عن عبد الله بن عمرو أنّه ضرب أرض الطائف برجله وقال: من هاهنا تخرج الدّابة التى تكلّم الناس، وأخبرنى عقيل بن محمّد الجُرجانى الفقيه قال: حدّثنا أبو الفرج المعافى بن زكريا البغدادى قال: أخبرنا أبو جعفر محمّد بن جرير الطبرى قال: حدّثنا أبو كريب قال: حدثنا الأشجعى، عن فضل بن مرزوق، عن عطية، عن ابن عمر قال: تخرج الدابة من صدع فى الصفا كجرى الفرس ثلاثة أيّام وما خرج ثلثها.

وبه عن محمّد بن جرير قال: حدّثنى عصام بن بندار بن الجرّاح قال: حدثنا أبى قال حدّثنا سفيان بن سعيد قال: حدثنا المنصور بن المعتمر، عن ربعى بن خراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابّة، قلت: يا رسول الله من أين تخرج؟ قال: «من أعظم المساجد حُرمة على الله، بينما عيسى يطّوف بالبيت ومعه المسلمون؛ إذ تضطرب الأرض تحتهم من تحرّك القنديل وينشق الصفا ممّا يلى المسعى، وتخرج الدابة من الصفا أوّل ما يبدو رأسها

ملمعة ذات وبر وريش، لن يدركها طالب، ولا يفوتها هارب، تسمّى الناس مؤمنًا وكافرًا، أمّا المؤمن فتترك وجهه كأنّه كوكب دُرّى، وتكتب بين عينيه: مؤمن، وأمّا الكافر فتترك بين عينيه نكتة سوداء وتكتب بين عينيه: كافر».

وبه عن محمّد بن جرير قال: حدّثنى أبو عبد الرحمن الرقى قال: حدّثنا ابن أبى مزينة قال: حدثنا ابن لهيعة ويحيى بن أيوب قالا: حدّثنا ابن الهاد، عن عمرو بن الحكم أنّه سمع عبد الله بن عمر يقول: تخرج الدابة من شعب، فيمسّ رأسها السحاب ورجلاها فى الأرض ما خرجتا، فتمرّ بالإنسان يصلّى، فتقول: ما الصلاة من حاجتك، فتخطمه وقال وهب: وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير فتخبر من رآها أنّ أهل مكّة كانوا بمحمّد والقرآن لا يوقنون، وفى هذا تصديق لقراءة من فتح أنّ.

وقال كعب: صورتها صورة الحمار، وروى ابن جريج وروح، عن هشام، عن الحسن أنّ موسى (عليه السلام) سأل ربّه أن يريه الدّابة، فخرجت ثلاثة أيّام ولياليهنّ تذهب فى السماء، وأشار بيده لا يرى واحدًا من طرفيها، فرأى منظرًا فظيعًا، فقال: ربّ ردّها، فردّها[1].



﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

---

(١) كل ما سبق من أحاديث فى أمر الدابة لا يخلو من ضعف وفيها ما هو موضوع وليس المقام مقام مناقشة الأحاديث وصحتها على التفصيل، وإنما أردت أن أشير إشارة مجملة إلى هذه النوعية من الأحاديث وعلى العموم فخبر الدابة عند ربى سبحانه وتعالى أخفاه لحكمة يعلمها.

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ جماعة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يحبس أوّلهم على آخرهم ليجتمعوا ثمّ يُساقون إلى النار، وقال ابن عباس: يوزعون: يدفعون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾: يوم القيامة ﴿قَالَ﴾: الله سبحانه لهم ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾: ولم تعرفوا حقّ معرفتها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فيها من تكذيب أو تصديق، وقيل: هو توبيخ، أى ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها، ولم تتفكّروا فيها؟

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾: ووجب العذاب ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾: أشركوا ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾: لأنّ أفواههم مختومة. وقال أكثر المفسّرين: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾: بحجّة وعذر، نظيره قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (المرسلات: ٣٥، ٣٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا﴾ خلقنا ﴿ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: مضيئًا يُبصَر فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: الذى ذكرت ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: يصدّقون فيعتبرون قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ وهى النفخة الأولى.

أخبرنا محمّد عبد الله بن حامد الوزّان قال: أخبرنا محمّد بن جعفر بن يزيد الصيرفى قال: حدّثنا على بن حرب قال: حدّثنا أسباط قال: حدّثنا سلمان التميمى، عن أسلم العجلى، عن بشر بن شغاف، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فسأله عن الصُّور، فقال: «قرنٌ ينفخ فيه».

وقال مجاهد: الصُّور كهيئة البوق، وقيل: هو بلغة أهل اليمن، وعلى هذا أكثر المفسّرين، يدلّ عليه قول النبى ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته ينتظر متى يُؤمَر فينفخ».

وقال قتادة وأبو عبيدة: هو جمع صورة يقال: صورة وصور، وصور: مثل سور البناء والمسجد، وجمعها سور وسئور وأنشد أبو عبيدة:

❖ سرت إليها فى أعالى السور ❖

فمعنى الآية: ونفخ فى صور الخلق.

وقد ورد فى كيفيّة نفخ الصور حديث جامع صحيح وهو ما أخبرنا الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن إبراهيم المهرجانى قراءة عليه أبو بكر محمّد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعى ببغداد، قال: أخبرنى أبو قلابة الرقاشى قال: أخبرنى أبو عاصم الضحّاك بن مخلد،

عن إسماعيل بن رافع، عن محمّد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ لمّا فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل وهو واضعه على فيه، شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى؟» قال: قلت: يا رسول الله وما الصور؟ قال: القرن، قال: قلت: كيف هو؟ قال: عظيم، والذي بعثني بالحقّ إنّ عظم داره فيه كعرض السماء والأرض، فينفخ فيه بثلاث نفخات: الأُولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لربّ العالمين، فأمر الله عزّ وجلّ إسرافيل (عليه السلام) بالنفخة الأولى فيقول: انفخ الفزع فيفزع من في السموات والأرض إلاّ من شاء الله، فيأمره فيمدّها ويطيلها وهو الذي يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ (ص: ١٥) فيسيّر الله عزّ وجلّ الجبال فيمرّ من السحاب فيكون سرابًا، وترجّ الأرض بأهلها رجًا فيكون كالسفينة الموثّقة في البحر، تضربها الأمواج وتلقيها الرياح، أو كالقنديل المعلق بالعرش يرجّحه الأرواح وهي التي يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ (النازعات: ٦ـ٨) فتمتدّ الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى يأتي الأقطار فتلقّاها الملائكة تضرب وجوهنا، فيرجع ويولّي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضًا، وهو الذي يقول الله عزّ وجلّ ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ (غافر: ٣٢، ٣٣).

فبينا هم كذلك إذ تصدّعت الأرض من قطر إلى قطر ورأوا أمرًا عظيمًا لم يروا مثله، وأخذهم من الكرب والهول ما الله به عليمٌ، ثمّ نظروا إلى السماء فهي كالمهل، ثمّ انشقّت فتناثرت نجومها وانكشفت شمسها وقمرها.

قال رسول الله ﷺ: «والأموات يومئذ يعلمون بشيء من ذلك».

قال أبو هريرة: يا رسول الله فمن استثنى الله عزّ وجلّ حيث يقول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

قال ﷺ: «أُولئك هم الشهداء وإنّما يصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون ووقيهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب بعثه الله تعالى إلى شرار خلقه، وهو الذي يقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ (الحج: ١، ٢) فيمكثون في ذلك البلاء ما شاء الله إلاّ أنّه يطول عليهم، ثم يأمر الله عزّ وجلّ إسرافيل فينفخ نفخة الصعق ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الزمر: ٦٨): فإذا اجتمعوا جاء ملك الموت إلى الجبّار ويقول: قد مات أهل السماء والأرض إلاّ

من شئت، فيقول الله سبحانه وهو أعلم بمن بقى فقال: أى ربّ بقيت أنت الحىّ الذى لا تموت، وبقى حملة العرش، وبقى جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، وبقيت أنا فيقول الله عزّ وجلّ فيموت جبرائيل وميكائيل فينطق الله العرش فيقول: أى ربّ يموت جبرائيل وميكائيل، فيقول: اسكت إنّى كتبت الموت على كلّ من تحت عرشى فيموتان.

ثمّ يأتى ملك الموت فيقول: أى ربّ قد مات جبرائيل وميكائيل فيقول وهو أعلم بمن بقى فيقول: بقيت أنت الحىّ الذى لا تموت وبقيتْ حملة عرشك فيقول ليمت حملة عرشى فيموتون، فيأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل فيموت.

ثمّ يأتى ملك الموت فيقول: يا ربّ قد مات حملة عرشك فيقول وهو أعلم بمن بقى فيقول: بقيت أنت الحى الذى لا تموت وبقيت أنا فقال: أنت خلقٌ من خلقى خلقتك لما رأيت فمتْ فيموت فإذا لم يبق إلاّ الله الواحد الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وكان آخراً كما كان أوّلاً طوى السموات كطى السجلِّ للكتب.

ثمّ قال: أنا الجبّار، لمن الملك اليوم، ولا يجيبه أحد، ثمّ يقول تبارك وتعالى جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه: لله الواحد القهار ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ (إبراهيم:٤٨) ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌ﴾ (الزمر:٦٧) فيبسطها بسطًا ثمّ يمدّها مدّ الأديم العكافى ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ (طه:١٠٧).

ثمّ يزجر الله الخلق زجرة واحدة، فإذا هم فى هذه الأرض المبدّلة فى مثل ما كانوا فيه من الأوّل، من كان فى بطنها، كان فى بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها، ثمّ ينزل الله سبحانه عليهم ماء من تحت العرش كمنى الرجال، ثمّ يأمر السحاب أن تُنزل بمطر أربعين يومًا حتى يكون من فوقهم اثنا عشر ذراعًا، ويأمر الله سبحانه الأجساد أن تنبت كنبات الطراثيث وكنبات البقل حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت، قال الله سبحانه: ليَحىَ حملة العرش، فيحيون: ثمّ يقول الله تعالى: ليَحىَ جبريل وميكائيل فيحييان. فيأمر الله إسرافيل، فيأخذ الصور فيضعه على فيه، ثمّ يدعو الله الأرواح فيؤتى بها، تتوهّج أرواح المؤمنين نوراً والأخرى ظلمة، فيقبضها جميعًا ثمّ يلقيها على الصور، ثمّ يأمر الله سبحانه إسرافيل أن ينفخ نفخة للبعث فتخرج الأرواح كأنّها النحل قد ملأت ما فى السماء والأرض، فيقول الله سبحانه: ليرجعنّ كلّ روح إلى جسده، فتدخل الأرواح الخياشيم، ثمّ تمشى فى الأجساد كما يمشى السمّ فى اللديغ.

ثمّ تنشق الأرض عنهم سراعًا، فأنا أوّل من ينشق عنه الأرض، فتخرجون منها إلى ربّكم

تنسلون عُراة حفاة غرلا مهطعين إلى الداعى، فيقول الكافرون: هذا يومٌ عَسر»[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَفَزِعَ﴾ أى فيفزع، والعرب تفعل ذلك فى المواضع التى يصلح فيها إذا، لأنّ إذا يصلح معها فعل ويفعل كقولك: أزورك إذا زرتنى، وأزورك إذا تزورنى. ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أن لا يفزع وقد ذكرنا فى الخبر الماضى أنّهم الشهداء ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾: قرأ الأعمش وحمزة وخلف وحفص ﴿أَتَوْهُ﴾: مقصوراً على الفعل بمعنى جاءوه عطفًا على قوله: ﴿فَفَزِعَ﴾ و ﴿أَتَوْهُ﴾ اعتباراً بقراءة ابن مسعود.

أخبرنا محمّد بن نعيم قال: حدّثنا الحسين بن أيّوب قال: حدّثنا على بن عبد العزيز قال: حدّثنا أبو عبيد قال: حدّثنا هشام، عن مغيرة، عن إبراهيم، (ح)[2] وأخبرنا محمّد بن عبدوس قال: حدّثنا محمّد بن يعقوب قال: حدّثنا محمّد بن الجهم قال: حدّثنا الفرّاء قال: حدّثنى عدّة، منهم المفضل الضبى وقيس وأبو بكر كلّهم عن جحش بن زياد الضبى كلاهما عن تميم بن حذلم قال: قرأت على عبد الله بن مسعود ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾: بتطويل الألف، فقال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾: قصره وقرأ الباقون بالمدّ وضمّ التاء على مثال فاعلوه كقوله: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ (مريم: ٩٥) وهى قراءة على رضى الله عنه ﴿دَٰخِرِينَ﴾: صاغرين.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ يا محمّد ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾: قائمة واقفة مستقرّة مكانها. ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾: حين تقع على الأرض فتستوى بها.

قال القتيبى: وذلك أنّ الجبال تجمع وتسير وهى فى رؤية العين كالواقفة وهى تسير، وكذلك كلّ شىء عظيم وكلّ جمع يقصر عنه البصر لكثرته وعظمته وبُعْد ما بين أطرافه فهو فى حسبان الناظر واقف وهو يسير، وإلى هذا ذهب الشاعر فى وصف جيش:

بأرعن مثل الطود تحسب أنّهم ... وقوف لحاج والركاب تهملج

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾: نُصب على المصدر وقيل: على الإغراء أى اعلموا وأبصروا ﴿ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: أى أحكم كلّ شىء، قتادة: أحسن. ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾: قرأ أهل الكوفة ﴿تَفْعَلُونَ﴾: بالتاء. غيرهم بالياء، واختار أبو عبيدة بقوله: ﴿أَتَوْهُ﴾ إنّما هو خبر عنهم ﴿مَن

---

(١) هذا خبر غير صحيح وإن كان الثعلبى رحمنا الله وإياه قد أشار فى أوله إلى أنه حديث صحيح قد جمع أمر الصور، والبعث إلاّ أنه أبسط ما فيه من عيوب الإسناد أن فيه رجلاً مجهولاً، وقد اتفق أهل الأثر على أن مثل هذا الإسناد يكون ضعيفًا وعليه فيكون ما تبعه من متن ضعيف وإن كان فى بعض فقرات المتن ما هو صحيح إلاّ أن فى فقراته الأخرى ما هو أشد من الضعيف بل ما يصل إلى حد الوضع، فلا يعتد بمثل هذا الحديث وإن كان زائعًا بين الناس فليست العبرة بكثرة الزيوع فكم من خبر موضوع أزيع منه وكم من خبر صحيح لا يعلمه إلاّ القليل جداً.

(٢) زيادة حديثية يتطلبها سياق الإسناد.

جَآءَ﴾ : أى وافى الله ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ : بالإيمان. قال أبو معشر: كان إبراهيم يحلف ما يستثنى أنّ الحسنة: لا إلهَ إلاّ الله، قتادة: بالإخلاص.

وأخبرنى الحسين بن محمد بن فنجويه قال: حدّثنا محمد بن شنبة قال: حدّثنا عبيد الله بن أحمد بن منصور قال: حدّثنا سهل بن بشر قال: حدّثنا عبد الله بن سليمان قال: حدّثنا سعد ابن سعيد قال: سمعت على بن الحسين يقول: رجل غزا فى سبيل الله، فكان إذا خلا المكان قال: لا إلهَ إلاّ الله وحده لا شريك له، فبينما هو ذات يوم فى أرض الروم فى موضع فى حلفاء وبردى رفع صوته يقول: لا إلهَ إلاّ الله وحده لا شريك له، خرج عليه رجل على فرس عليه ثياب بيض، فقال: يا عبد الله ماذا قلت؟ قال: قلت الذى سمعت، والذى نفسى بيده إنّها الكلمة التى قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ .

﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ : وأخبرنى أبو عبد الله محمّد بن عبد الله العباسى قال: أخبرنا القاضى أبو الحسين محمّد بن عثمان النصيبى ببغداد قال: حدّثنا أبو بكر محمّد ابن الحسين السبيعى بحلب قال: حدّثنى الحسين بن إبراهيم الجصّاص قال: أخبرنا حسين بن الحكم قال: حدّثنا إسماعيل بن أبان، عن فضيل بن الزبير، عن أبى داود السبيعى، عن أبى عبد الله الهذلى قال: دخلت علىّ عَلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، فقال: يا عبد الله ألا أنبّئك بالحسنة التى من جاء بها أدخله الله الجنّة، والسيّئة التى من جاء بها أكبّه الله فى النار، ولم يقبل معها عمل؟ قلت: بلى، قال: الحسنة حُبّنا والسيّئة بُغضنا.

﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ : أى فله من هذه الحسنة خير يوم القيامة، وهو الثواب والأمن من العذاب، قال ابن عباس: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أى فمنها يصل إليه الخير، الحسن: معناه له منها خير، عكرمة وابن جريج: أمّا أن يكون له خير من الإيمان فلا، وإنه ليس شىء خير من لا إله إلاّ الله ولكن له منها خير، وعن ابن عباس أيضًا ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ : يعنى الثواب لأنّ الطاعة فعل العبد والثواب فعل الله سبحانه.

وقيل: هو أنّ الله عزّ وجلّ يقبل إيمانه وحسناته، وقبول الله سبحانه خيرٌ من عمل العبد، وقيل: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ يعنى رضوان الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة: ٧٢).

وقال محمّد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ يعنى الإضعاف، إعطاء الله الحسنة بالواحدة عشرًا صاعدًا، فهذا خيرٌ منها، وقد أحسن بن كعب وابن زيد فى تأويلهما لأنّ للإضعاف خصائص منها أنّ العبد يُسأل عن عمله ولا يُسأل عن الإضعاف، ومنها أنّ

للشيطان سبيلا إلى عمله ولا سبيل له إلى الإضعاف، ولأنّه لا مطمع للخصوم فى الإضعاف، ولأنّ دار الحسنة الدنيا ودار الإضعاف الجنّة، ولأنّ الجنّة على استحقاق العبد، والتضعيف كما يليق بكرم الربّ ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ قرأ أهل الكوفة ﴿فَزَعٍ﴾ منونًا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بنصب الميم وهى قراءة ابن مسعود، وسائر القرّاء قرءوا بالإضافة واختاره أبو عبيد قال: لأنّه أعمّ التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وإذا قال: ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ صار كأنّه فزع دون فزع، وهو اختيار الفرّاء أيضًا، قال: لأنّه فزع معلوم، ألا ترى أنّه قال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ (الأنبياء:١٠٣) فصيّر معرفة؟ فإذا أضفته كان معرفة فهو أعجب إلى ﴿**وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ**﴾ يعنى الشرك.

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان قال: أخبرنا مكّى بن عبدان قال: حدّثنا عبد الله بن هاشم قال: حدّثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن أبى المحجل، عن أبى معشر، عن إبراهيم ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ قال: لا إلهَ إلاّ الله. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قال: الشرك.

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا أبو الحسن محمّد بن شعيب البيهقى قال: حدّثنا بشر ابن موسى قال: حدّثنا روح، عن حبيب بن الشهيد، عن الحسن قال: ثمن الجنّة لا إلهَ إلاّ الله.

﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾: قال ابن عباس: أُلقيت، الضحّاك: طرحت، أبو العالية: قلبت، وقيل لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ يقول الله سبحانه لنبيّه محمّد ﷺ قل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ يعنى مكّة جعلها حرمًا آمنًا، فلا يسفك فيها دم حرام، ولا يظلم فيها أحد، ولا يهاج، ولا يصطاد صيدها، ولا يختلى خلاها، وقرأ ابن عباس «التى حرمها» إشارة إلى البلدة.

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾: خلقًا وملكًا ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ (يس:١٧) نسختها آية القتال[1]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمه، ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يعنى يوم بدر، نظيرها فى سورة الأنبياء: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (الأنبياء:٣٧) وقال مجاهد: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فى أنفسكم وفى السماء والأرض والرزق، دليله قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (فصّلت:٥٣) وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ (الذاريات:٢٠، ٢١) ﴿فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(١) سبق أن تكلمت كثيراً على اختلاف العلماء فى مسألة الناسخ والمنسوخ وذهب قوم إلى أنه لا نسخ فى القرآن وأن للآية أحكام تسرى حسب الوقت المناسب لها.

سُورَةُ القَصَصِ

مكية وهى خمسة آلاف وثمانمائة حرف
وألف وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة وثمان وثمانون آية

أخبرنا أبو الحسن الخبازى قال حدثنا ابن حبش قال حدثنى أبو العباس محمد بن موسى الدقاق وقال حدثنا عبد الله بن روح المدائنى. (ح)[1] وأخبرنا الخباز قال حدثنا ظفران قال حدثنا ابن أبى داود قال حدثنا محمد بن عاصم قالا: حدثنا شبابة بن سوار الفزارى قال حدثنا مخلد بن عبد الواحد عن على بن زيد عن عطاء بن أبى ميمون عن زر بن حبيش عن أُبَىّ بن كعب قال: قال رسول الله: «من قرأ: ﴿طسٓمٓ﴾ القصص، لم يبق ملك فى السموات والأرض إلاّ شهد له يوم القيامة أنه كان صادقًا، إن كل شىء هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝﴾

﴿طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾: قال ابن عباس: استكبر. وقال السدى: تجبر. وقال قتادة: طغى. وقال مقاتل: تعظم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يعنى أرض مصر.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾: فرقًا وأصنافًا فى الخدمة والتسخير ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾: يعنى بنى إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى

(١) زيادة حديثية يتطلبها سياق الإسناد.

ٱلْأَرْضِ﴾ : يعني بني إسرائيل.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ : قال ابن عباس : قادة في الخير يقتدى بهم. وقال قتادة : ولاة وملوكًا. دليله قوله سبحانه : ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ (المائدة: ٢٠). وقال مجاهد : دعاة إلى الخير ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ : بعد هلاك فرعون وقومه، فورثهم ديارهم وأموالهم ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : يعني ويوطئ لهم في أرض مصر والشام.

﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ : قرأ حمزة، ويحيى بن وثاب، والأعمش، والكسائي، وخلف : يرى، بالياء وما بعده رفع على أن الفعل لهم. وقرأ غيرهم : ﴿وَنُرِىَ﴾ بنون مضمومة، وياء مفتوحة، وما بعده نصب لوقوع الفعل عليهم ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ : وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدى رجل من بني إسرائيل فكانوا على وجل ﴿مِنْهُم﴾، فأراهم الله ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾.



﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ : قال قتادة : قذفنا في قلبها وليس بنبوة واسم أم موسى يوخابذ بنت لاوس بنت يعقوب[1] ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى﴾ : عليه ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا

(١) كذا جاء اسمها في المخطوط ولا أرى طائلاً ولا فائدة من البحث عن مثل هذه الأمور حيث لا تكليف لنا في ذلك، وعمومًا قد ذكر القرطبي أسماء أخرى في تفسيره فقال : واسمها : أيارخا، وقيل : أيارخت فيما ذكر السهيلي. =

﴿رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: أخبرنا أبو عبد الله الحسن بن محمد قال حدثنا مخلد بن جعفر الباقرجى قال حدثنا الحسن بن علوية قال حدثنا إسماعيل بن عيسى قال حدثنا إسحاق ابن بشر أخبرنى ابن سمعان عن عطاء عن ابن عباس قال إسحاق: وأخبرنى جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى، ورق خيارهم أشرارهم، ولم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط، فساموهم سوء العذاب إلى أن نجاهم الله على يد موسى عليه السلام.

قال وهب: بلغنى أن فرعون ذبح فى طلب موسى سبعين ألف وليد[1]. [ويقال: تسعون ألف وليد. ويروى أنها حين اقتربت وضربها الطلب، وكان بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها. فقالت: لينفعنى حُبك اليوم. فعالجتها، فلما وقع على الأرض هالها من نور بين عينيه، وارتعش كل مفصل منها ودخل حُبّه قلبها؛ ثم قالت: ما جئتك إلاّ لأقتل مولودك، وأُخبر فرعون، ولكن وجدت لابنك حُبًّا ما وجدت مثله قط فاحفظيه.

فلما خرجت جاء عيون فرعون فلقته فى خرقة ووضعته][2] فى التنور وهو مسجور فطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع؛ قال: فدخلوا فإذا التنور مسجور، ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون، ولم يظهر لها لبن. فقالوا: ما أدخل عليك القابلة؟ قالت: هى مصافية لى، فدخلت عَلَىّ زائرة. فخرجوا من عندها فرجع إليها عقلها. فقالت لأخت موسى: أين الصبى؟ قالت: لا أدرى، فسمعت بكاء الصبى من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله سبحانه النار عليه بردًا وسلامًا، فاحتملته.

ثم إن أم موسى عليه السلام لما رأت إلحاح فرعون فى طلب الولدان، خافت على ابنها، فقذف الله سبحانه فى نفسها: أن تتخذ له تابوتًا، ثم تقذفه فى اليم، وهو النيل فانطلقت إلى رجل نجار من أهل مصر - من قوم فرعون - فاشترت منه تابوتًا صغيراً؛ فقال لها النجار: ما

= ثم ذكر عن الثعلبى بغير ما هو هنا فقال:

وقال الثعلبى: لوحا بنت هاند بن لاوى بن يعقوب.

وذكر محقق القرطبى فى الهامش أسماء أخرى فقال: وقيل فى اسمها أيضًا: بوخابذ، وقيل يوخابيل، وقيل غير ذلك.

(١) بعد هذا جاء الكلام فى المخطوط غير مقروء لسوء فى التصوير نظرًا للعوامل الجوية التى مر بها المخطوط فرأيت إثبات الباقى من تفسير القرطبى لأن الكلام الظاهر فى المخطوط مقارب لما هو فى القرطبى وإن لم يكن بنصه وجعلته بين معقوفين ثم سأضع إشارة أخرى بعد الانتهاء من المحو.

(٢) انتهى النقل عن القرطبى فى هذا الموضع وأعود إلى النقل عن المخطوط حيث اتضح الكلام فيه وكان الكلام فى المخطوط فى هذه الحكاية عن ابن عباس بدل قول القرطبى قبل قليل ويروى.

تصنعين بهذا التابوت؟ قالت: ابن لى أخبئه فيه وكرهت الكذب. قال: ولمَ؟ قالت: أخشى عليه كيد فرعون، فلما اشترت التابوت، حملته وانطلقت، وانطلق النَجار إلى أولئك الذباحين ليخبرهم بأمر أم موسى، فلما هَمَّ بالكلام أمسك الله لسانه فلم يطلق الكلام، وجعل يشير بيده، فلم يدر الأمناء ما يقول، فلما أعياهم أمره، قال كبيرهم: اضربوه، فضربوه وأخرجوه.

فلما انتهى النجار إلى موضعه رَدَّ الله سبحانه عليه لسانه، فتكلم، فانطلق أيضًا يريد الأمناء، فأتاهم ليخبرهم فأخذ الله لسانه وبصره، فلم ينطق الكلام ولم يبصر شيئًا، فضربوه وأخرجوه، فوقع فى واد فهوى فيه، حيران فجعل لله عليه إن رد لسانه وبصره أن لا يدل عليه، وأن يكون معه لحِفْظه حيثما كان. فعرف الله عز وجل منه الصدق، فرد عليه بصره ولسانه، فخر لله ساجدًا. فقال: يا رب دلنى على هذا العبد الصالح. فدله الله عليه، فخرج من الوادى، فآمن به وصدقه، وعلم أن ذلك من أمر الله.

فانطلقت أم موسى، فألقته فى البحر، وكان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه، وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى فرعون، وكان بها برص شديد، مسلخة برصاء، فكان فرعون قد جمع لها أطباء مصر والسحرة فنظروا فى أمرها؛ فقالوا له: أيها الملك لا تبرأ إلا من قِبل البحر يؤخذ منه شبه الإنسان، فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك، وذلك فى يوم كذا، وساعة كذا حين تشرق الشمس.

فلما كان يوم الاثنين غدا فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل، ومعه آسية بنت مزاحم، وأقبلت بنت فرعونْ فى جواريها حتى جلست على شاطئ النيل مع جواريها تلاعبهن، وتنضح بالماء على وجوههن، إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج؛ فقال فرعون: إن هذا الشىء فى البحر قد تعلق بالشجرة ائتونى به. فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه، فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه، وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه.

قال: فدنت آسية فرأت فى جوف التابوت نورًا لم يره غيرها للذى أراد الله سبحانه أن يكرمها. فعالجته ففتحت الباب، فإذا هى بصبى صغير فى مهده، وإذا نور بين عينيه. وقد جعل الله تعالى رزقه فى إبهامه يمصه لبنًا، فألقى الله سبحانه لموسى عليه السلام المحبّة فى قلب آسية، وأحبه فرعون وعطف عليه، وأقبلت بنت فرعون، فلما أخرجوا الصبى من التابوت، عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها، فبرئت فقبلته وضمته إلى صدرها.

فقال الغواة من قوم فرعون: أيها الملك، إنّا نظن أن ذلك المولود الذى نحذر منه من بنى إسرائيل هو هذا، رُمِىَ به فى البحر فرقًا منك، فاقتله. فَهَمّ فرعون بقتله، فلما هَمّ بقتله، قالت آسية: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون، فوهبه لها. وقال فرعون: أما أنا فلا حاجة لى فيه؛ فقال رسول الله ﷺ: «لو قال يومئذ، هو قرة عين لى كما هو لك لهداه الله سبحانه كما هداها، ولكن أحب الله عز وجل أن يحرمه للذى سبق فى علمه».

فقيل لآسية سَمِّيه. قالت: سميته مُوشا لأنا وجدناه فى الماء[1] والشجر. فمو: هو الماء. وشا: هو الشجر. فذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ﴾: أى فأخذه، والعرب تقول لما وردت عليه فجأة من غير طلب له ولا إرادة: أصبته التقاطًا، ولقيت فلانًا التقاطًا، ومنه قول الراجز:

ومنهل وردته التقاطا ... لم ألق إذا وردته فراطا

ومنه اللقطة، وهو ما وجد ضالاً فأخذ ﴿ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ﴾: هذه اللام تسمى لام العاقبة ولام الصيرورة، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين فكان عاقبة ذلك أنه كان عدواً لهم ﴿عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ قال الشاعر:

فللموت تغذو الوالدات سخالَهَا ... كما لخراب الدهر تُبْنَى المَسَاكنُ

﴿عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾: قرأ أهل الكوفة: بضم الحاء وجزم الزاى. وقرأ الآخرون: بفتح الحاء والزاى. واختاره أبو عبيد وقال: للتفخيم. واختلف فيه غير عاصم. وهما لغتان مثل: العَدَم والعُدْم، السَّقَم والسُّقْم[2] ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾: عاصين آثمين.

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ﴾: أى هو قرة عين ﴿لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ﴾: فإن الله أتانا من أرض أخرى وليس من بنى إسرائيل[3] ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: لما هو

---

(١) تراكيب هذه القصة مختلقة هذا بالإضافة إلى أنها لا تطابق ما جاء فى قصته عليه السلام فى القرآن الكريم، ونحن المسلمين لا نقبل فى الأخبار من الآثار إلا ما جاء موثقًا ثقة عن ثقة متصلاً اتصالاً مقطوعًا به إلى رسول الله ﷺ، وثم بعد هذا لا بد وأن يكون موافقًا لما جاء به الإسلام متماشيًا مع خطوطه الرئيسية موافقة للعقل مؤيدًا بالعلم، أما خيالات القصاص، فلا يقرها الإسلام ولا تلزم بطاعة، أو خضوع، أو إذعان.

(٢) زاد فى القرطبى: والرَّشَد والرُّشْد.

(٣) وفى القرطبى قصة تشبه ما جاء فى القرآن هنا فقال: يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم فى البحر فأمرت بسوقه إليها وفتحه، فرأت فيه صبيًا صغيراً فرحمته وأحبته. فقالت لفرعون: ﴿قرة عين لى ولك﴾ أى هو قرة عين لى ولك.

قلت: فهذه قصة لا تتعارض مع ما جاء فى القرآن وهى تحكى ما حكاه وإنما أخذت منه تفسيراً له أما التى سبقت فقد جاوزت التفسير إلى الخيال وتصور الأحداث بطريقة الواضع لها.

كائن من أمرهم وأمره، عن مجاهد. وقال قتادة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أن هلاكهم على يديه. وقال محمد بن إسحاق بن يسار: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنى أفعل ما أريد، ولا أفعل ما يريدون.

أخبرنا ابن فنجويه قال: حدثنا طلحة وعبيد الله قالا حدثنا أبو مجاهد قال حدثنى أحمد بن حرب قال حدثنا سنيد قال حدثنى حجاج عن أبى معشر عن محمد بن قيس: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: لا يدرى بنو إسرائيل أنّا التقطناه. وقال الكلبى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إلاّ وأنه ولدنا[1].

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا﴾: أى خاليًا لاهيًا ساهيًا من كل شىء إلا من ذكر موسى وهمه، قال أكثر المفسرين. وقال الحسن، وابن إسحاق، وابن زيد: يعنى فارغًا من الوحى الذى أوحى الله سبحانه وتعالى إليها به حين أمرها أن تلقيه فى البحر، ولا تخاف ولا تحزن، والعهد الذى عهد إليها أن يرده إليها، ويجعله من المرسلين؛ فجاءها الشيطان، فقال: يا أم موسى، كرهتِ أن يقتل فرعون موسى فيكون لك أجره وثوابه، وتوليت أنتِ قتله فألقيته فى البحر وغرقته.

ولما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه فى النيل قالت: وقع فى يد عدوه، والذى فررت به منه. فأنساها عظيم البلاء ما كان من عهد الله سبحانه إليها. فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا﴾ من الوحى الذى أوحى إليها وقال الكسائى: ﴿فَـٰرِغًا﴾ أى ناسيًا. قال أبو عبيدة: ﴿فَـٰرِغًا﴾ من الحزن لعلمها بأنه لم يغرق وهو من قول العرب: دم فراغ إذا كان هدرًا لا قود فيه ولا دية، وقال الشاعر:

فإن تك أذواد أُصبن ونسوة فلم يذهبوا فرغًا بقتل حبال

وقال العلاء بن زيد: ﴿فَـٰرِغًا﴾ نافرًا. وقرأ ابن محيص، وفضالة بن عبيد: فزِعًا، بالزاى والعين من غير ألف ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾: قال بعضهم: الهاء فى قوله ﴿بِهِۦ﴾ راجعة إلى موسى، ومعنى الكلام: إن كادت لتبدى به أنه ابنها من شدة وجدها.

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان قال أخبرنا مكى بن عبدان قال حدثنا عبد الرحمن بن بشر قال حدثنا سفيان عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ قال: كادت تقول وا ابناه. وقال مقاتل: لما رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر فخشيت عليه الغرق

(١) هذا على أن الكلام لامرأة فرعون: أى حتى لا يشعر بنو إسرائيل إلا أن هذا الولد إنما هو ابن فرعون من امرأته آسية والكلام فى القرطبى أوضح منها إذ يقول: وقيل: هو من كلام المرأة أى وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه ولا يشعرون إلا أنه ولدنا.

فكادت تصيح من شفقتها عليه. وقال الكلبى: كادت تظهر أنه ابنها، وذلك حين سمعت الناس وهم يقولون لموسى بعدما شبّ: موسى بن فرعون، فشق عليها، فكادت تقول: لا بل هو ابنى. وقال بعضهم: الهاء عائدة إلى الوحى، أى كادت لتبدى بالوحى الذى أوحينا إليها أن ترده عليها[١].

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾: قوينا قلبها فعصمناها وثبتناها ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: المصدقين الموقنين بوعد الله عز وجل ﴿وَقَالَتْ﴾: أم موسى ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾: لأخت موسى، واسمها مريم ﴿قُصِّيهِ﴾: ابتغى أثره حتى تعلمى خبره. ومنه القصص لأنه حديث يتبع فيه الثانى الأول ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾: أبصرته ﴿عَن جُنُبٍ﴾: بُعد. وقال ابن عباس: الجنب، أن يسموا بصر الإنسان إلى الشىء البعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به.

وقال قتادة: جعلت تنظر إليه[٢] (بناحية)[٣] كأنها لا تريده، وكان يقرأ: عن جَنْب، بفتح الجيم، وسكون النون. وقرأ النعمان بن سالم: عن جانب، أى عن ناحية ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أنها أخته ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾: وهى جمع المرضع ﴿مِن قَبْلُ﴾: أى من قبل مجىء أم موسى، وذلك أنه كان يؤتى إليه بمرضع بعد مرضع، فلا يقبل ثدى امرأة فهمهم ذلك. فلما رأت أخت موسى التى أرسلتها أمه فى طلبه ذلك وما يصنع به ﴿فَقَالَتْ﴾: لهم ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾: أى يضمنونه، ويرضعونه، ويضمونه إليهم، وهى امرأة قد قتل ولدها، فأحب شىء إليها أن تجد صبيًا صغيرًا فترضعه ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾: والنصح إخلاص العمل من شائب الفساد وهو نقيض الغش. قالوا: نعم فأتيناها. فانطلقت إلى أمها فأخبرتها، وجاءت بها إليهم. فلما وجد الصبى ريح أمه قبل ثديها، فذلك قوله: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: إن الله وعدها رده إليها.

قال السدى، وابن جريج: لما قالت أخت موسى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ أخذوها، وقالوا: إنك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله. قالت: ما أعرفه، ولكن إنما قلت هم للملك ناصحون[٤] ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: قال الكلبى: الأشُد: ما بين

---

(١) قلت: والتفسير الأول أى بكون الهاء عائدة على موسى أوضح، وأقرب إلى الفهم، وذلك حسب السياق فى الآية، وهو القول المباشر للعقل.

(٢) فى المخطوط: إليها، وهو تحريف.

(٣) زيادة من القرطبى يتطلبها السياق.

(٤) زاد القرطبى فى تفسيره: وقيل: إنها لما قالت: ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم﴾ وكانوا يبالغون فى طلب مرضعة يقبل ثديها، فقالوا: من هى؟ فقالت: أمى. فقيل: لها لبن؟ قالت: نعم، لبن هارون ـ وكان ولد =

ثمانى عشرة سنة إلى ثلاثين سنة. وقال سائر المفسرين: الأشد، ثلاث وثلاثون سنة ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾: أى بلغ أربعين سنة.

أخبرنا أبو محمد المخلدى قال أخبرنا أبو الوفا المؤمل بن الحسين بن عيسى قال حدثنا الحسن ابن محمد بن الصباح قال حدثنا يحيى بن سليم قال أخبرنى عبد الله بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قول الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ قال: الأشد، ثلاث وثلاثون سنة، والاستواء أربعون سنة، والعمر الذى أعذر الله إلى ابن آدم ستون سنة، ثم قرأ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ (فاطر: ٣٧).

﴿ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا﴾: عقلاً وفهمًا ﴿وَعِلْمًا﴾: وقال مجاهد: قبل النبوة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ

= فى سنة لا يقتل فيها الصبيان ـ. فقالوا: صدقت والله.

﴿وهم له ناصحون﴾ أى فيهم شفقة ونصح.

فروى أنه قيل لأم موسى حين ارتضع منها: كيف ارتضع منك ولم يرتضع من غيرك؟

فقالت: إنى امرأة طيبة الريح وطيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبى إلا ارتضع منى.

قال أبو عمران الجونى: كان فرعون يعطى أم موسى كل يوم ديناراً.

قال الزمخشرى: فإن قلت: كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها؟

قلت: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع، ولكنه مال حربى تأخذه على وجه الاستباحة.

لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَدَخَلَ﴾: يعنى موسى ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾: قال السدى: يعنى مدينة منف من أرض مصر. وقال مقاتل: كانت قرية تدعى خانين على رأس فرسخين من مصر.

﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾: قال محمد بن كعب القرظى: دخلها فيما بين المغرب والعشاء، وقال غيره: نصف النهار عند القائلة واختلف العلماء فى السبب الذى من أجله دخل موسى هذه المدينة فى هذا الوقت: فقال السدى: كان دخول موسى حين كان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ما يلبس، وكان إنما يُدعى موسى بن فرعون، ثم إن فرعون ركب مركبًا وليس عنده موسى عليه السلام، فلما جاء موسى قيل له: إن فرعون قد ركب، فركب فى أثره، فأدركه المقيل بأرض يقال لها منف، فدخلها نصف النهار، وقد تقلبت أسواقها وليس فى طرقها أحد وهو الذى يقول الله سبحانه: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

وقال ابن إسحاق: كانت لموسى من بنى إسرائيل شيعة يستمعون منه ويقتدون به ويجتمعون إليه. فلما اشتد رأيه وعرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه، فخالفهم فى دينه وتكلم وعادى وأنكر حتى ذكر ذلك منه وحتى خافوه وخافهم حتى كان لا يدخل قومه إلا خائفًا مستخفيًا، فدخلها يومًا ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

وقال ابن زيد: لما علا موسى فرعون بالعصا فى صغره، قال فرعون: هذا عدونا الذى قتلت فيه بنى إسرائيل. فقالت امرأته: لا بل هو صغير، ثم دعت بالجمر والجوهر، فلما أخذ الجمرة وطرحها فى فيه حتى صارت عقدة فى لسانه[1]. فترك فرعون قتله وأمر بإخراجه من مدينته، فلم يدخل عليهم إلاّ بعد أن كبر وبلغ أشده، ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ عن موسى، أى من بعد نسيانهم خبره وأمره لبعد عهدهم به.

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قوله: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ كان يوم عيد لهم

(١) فى هذا الخبر خطأ فاحش وهو ما اشتهر من أن موسى عليه السلام كان به لثغة فى لسانه بسبب هذه الحادثة وهذا غير صحيح فليس هناك نبى فيه عيب صغيرًا كان أو كبيرًا بل هم جميعًا مبرءون من التشوهات الخلقية والأمراض المعدية أو المنفرة أو المقززة كما أشيع عن سيدنا أيوب بل أمراضهم أمراض عادية يحسونها ولا ترى عليهم حتى لا ينفر منهم المدعوون أما من احتج فى قصة سيدنا موسى هنا بقوله: ﴿ولا يكاد يبين﴾ أو بقوله: ﴿هو أفصح منى لسانًا﴾ إنما تلك هى اللكنة التى اكتسبها من معاشرة قوم مدين لا لعيب فى لسانه، وفصاحة هارون عليه السلام إنما هى من معاشرة قوم فرعون واعتياده لغتهم.

قد شغلوا بلهوهم ولعبهم ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ : من أهل دينه من بنى إسرائيل ﴿وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ : من مخالفيه من القبط. قال المفسرون: الذى هو من شيعته: هو السامرى، والذى من عدوه: طباخ فرعون واسمه: فليثون.

وأخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا موسى بن محمد قال حدثنا الحسن بن علويه قال حدثنا إسماعيل بن عيسى قال حدثنا المسيب بن شريك قال: اسمه: قانون، وكان خباز فرعون. قالوا: يسخره يحمل الحطب إلى المطبخ[1]، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما بلغ موسى أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون (يقدر أن)[2] يأخذ أحدًا من بنى إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما هو يمشى ذات يوم فى ناحية من المدينة إذ هو برجلين يقتتلان أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من آل فرعون فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى فغضب موسى عليه السلام واشتد غضبه لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بنى إسرائيل وحفظه لهم، ولا يعلم الناس إلاّ إنما ذلك من قبل الرضاعة من أم موسى، فقال للفرعونى: خل سبيله. فقال: إنما آخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك. فنازع أحدهما صاحبه. فقال الفرعونى لموسى عليه السلام: لقد هممت أن أحمله عليك.

فكان موسى عليه السلام قد أوتى بسطة فى الخَلق وشدة فى القوة والبطش ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾: بجمع كفه ولم يتعمد قتله. قال الفراء، وأبو عبيدة: الوكز الدفع بأطراف الأصابع. وفى مصحف عبد الله: فنكزه، بالنون، والوكز، واللكز، والنكز، واللهز، واحد معناها الدفع ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾: أى قتله وفرغ من أمره. وكل شىء فرغت منه فقد قضيته، وقضيت عليه.

قال الشاعر:

اتقاضون وقد رأوا خفاثهم قد عَضَّهُ فقضى عليه الأشجع

أى قتله.

فلما قتله موسى عليه السلام ندم على قتله، وقال: لم أؤمر بذلك ثم دفنه فى الرمل ﴿قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾: بالمغفرة فلم تعاقبنى ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾: عونًا وعزًا

---

(١) لا يهم ما كان عمل من وجدهم موسى عليه السلام يقتتلان ولا ما أسماؤهما فلا داعى للخلاف فى مثل هذه الأمور التى علمها لا ينفع وجهلها لا يضر.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾: قال ابن عباس: لم يستثن فابتلى[1]. قال قتادة: يعنى فلن أُعين بعدها على خطيئة.

أخبرنا عبد الله بن حامد قال أخبرنا محمد بن خالد قال حدثنا داود بن سليمان قال أخبرنا عبد بن حميد. قال حدثنا عبيد الله بن موسى عن سلمة بن نبيط قال: بعث بعض الأمراء وهو عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك بعطاء أهل بخارى وقال: أعطهم. فقال: اعفنى، فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه. فقال له بعض أصحابه: (ما عليك أن تعطيهم)[2] وأنت لا ترزؤهم شيئًا؟ فقال: لا أحب أن أُعين الظلمة على شىء من أمرهم.

وبه عن عبد الله قال: حدثنا يعلى قال حدثنا عبيد الله بن الوليد الوصافى قال: قلت لعطاء ابن أبى رباح: إن أخًا لى يأخذ بقلمه، وإنما يكتب ما يدخل وما يخرج؟ قال: أخذ بقلمه كان ذلك غنى، وإن تركه احتاج وصار عليه دين وله عيال. فقال: من الرأس؟ قلت: خالد بن عبد الله. قال: أما تقرأ ما قال العبد الصالح: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فلا يعينهم فإن الله سيغنيه[3].

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾: من قتله القبطى أن يؤخذ فيقتل به ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: ينتظر الأخبار ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: يستغيثه. وأصل ذلك من الصراخ، كما يقال: قال بنو فلان يا صاحباه.

قال ابن عباس: أُتى فرعون فقيل له: إن بنى إسرائيل قد قتلوا رجلاً منا، فخذ لنا بحقنا، ولا ترخص لهم فى ذلك. فقال: ابغونى قاتله، ومن يشهد عليه، فلا يستقيم أن أقضى بغير بينة ولا تثبت، فطلبوا ذلك، فبينا هم يطوفون لا يجدون ثبتا، إذ مرّ موسى عليه السلام من

---

(١) يريد أنه لم يقل: إن شاء الله تعالى. وهذه الكلمة وإن كانت واردة فى القرآن وهى قوله: ﴿ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ فإنما هى على سبيل الحض والاستحباب والتذكر، وليس معنى ذلك أنها لازمة واجبة ومن تركها سهواً فسوف يعاقبه الله، لا ليس هذا، ومن المعلوم أن المسلم يعلم تمام العلم أنه لا يكون إلاّ ما هو مقدر ولو ذكر فلن يذكر غير ذلك وإن ترك لفظًا فإنما سلوكه يفيد الإقرار بذلك، وكذا قولهم فى سيدنا سليمان بأنه ترك ذلك فعوقب بنصف مخلوق فهذا أيضًا لا يصح فى حق الأنبياء لأنهم هم الذين علمونا هذا جزاهم الله عنا خير الجزاء.

(٢) زيادة من القرطبى.

(٣) نعم هذا قول طيب، ولكن على من أراد أن يأخذ به فعليه أن ينفذه فى تؤدة وفى هدوء فمن أراد أن لا يعمل تحت مظلة حكومته فلا ضير عليه أن ينصرف عن إعانتهم فى هدوء دون إثارة بلبلة أو جرّ آخرين معه، وسيرزقه الله من حيث لا يحتسب إن شاء الله، أما أن يدعو إلى ترك العمل معهم ويحرض غيره على ذلك فهذه دعوة لا تفيده ولا تفيد غيره بل ستجر عليه من المتاعب ما هو فى غنى عنه، وقد لا يصبر هو على مثل هذا البلاء وليأخذ من دينه بالرخصة.

الغد فرأى ذلك الإسرائيلى يقاتل فرعونيًا آخر يريد أن يسخره، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى فصادف موسى عليه السلام وقد ندم على ما كان منه بالأمس من قتله القبطى، فقال موسى عليه السلام للإسرائيلى:

﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾: ظاهر الغواية حين قاتلت بالأمس رجلاً، وقتلته بسببك، وتقاتل اليوم آخر، وتستغيثنى عليه.

وقيل: إنما قال للفرعونى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ بتسخيرك وظلمك. فالقول الأول أصوب وأليق بنظم الآية.

قال ابن عباس: ثم مَدّ موسى يده وهو يريد أن يبطش بالفرعونى فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعدما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس فخاف أن يكون بعدما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أراده ولم يكن أراده إنما أراد الفرعونى، فقال: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بالقتل ظلمًا. قال عكرمة، والشعبى: لا يكون الإنسان جبارًا حتى يقتل نفسين بغير حق.

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: ثم تتاركا فلما سمع القبطى ما قال الإسرائيلى علم أن موسى عليه السلام قتل ذلك الفرعونى، فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك. فأمر فرعون بقتل موسى ولم يكن ظهر على قاتل القبطى، حتى قال صاحب موسى عليه السلام بما قال.

قال ابن عباس: فلما أرسل فرعون الذباحين لقتل موسى عليه السلام أخذوا الطريق الأعظم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة أى آخرها ـ واختصر طريقًا قريبًا حتى سبقهم إلى موسى عليه السلام، فأخبره الخبر وأنذره حتى أخذ طريقًا آخر، فذلك قوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾: واختلفوا فيه: فقال أكثر أهل التأويل: حزبيل بن صبورا[1] مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون. وقال شعيب الجبائى: اسمه شمعون وقيل شمعان ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾: قال الكلبى: يسرع فى مشيته لينذره. وقال مقاتل: يمشى على رجليه.

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾: أى يهمون بقتلك ويتشاورون فيك. وقيل أمر بعضهم بعضًا. نظيره قوله عز وجل: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ (الطلاق: ٦). وقال النمر بن تولب:

أرى الناس قد أحدثوا سِمةً ... وفى كل حـــادثة يؤتمر

(١) فى القرطبى: حزقيل بن صبورا، وزاد وقيل: طالوت.

﴿فَٱخۡرُجۡ﴾: من هذه المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَخَرَجَ﴾: موسى عليه السلام ﴿مِنۡهَا﴾: ينتظر الطلب ﴿خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ (١): ينتظر الطلب ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾ أى نحوها، وقصدها ماضيًا إليها خارجًا عن سلطان فرعون. يقال: داره تلقاء دار فلان إذا كانت محاذيتها، وأصله من اللقاء، ولم تصرف (مدين) لأنها اسم بلدة معروفة، قال الشاعر:

رهبان مدين لو رأوك تنزلوا والعصم من شعف الجبال القادر

وهو مدين بن إبراهيم نسب البلدة إليه كما نسب مدائن إلى أخيه مدائن بن إبراهيم ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: قصد الطريق إلى مدين، وإنما قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريق إليها، فلما دعا جاء ملك على فرس بيده خبزة، فانطلق به إلى مدين.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ۝ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ۝ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ۝ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ۝﴾

قال المفسرون: خرج موسى عليه السلام من مصر بلا زاد ولا درهم ولا ظهر ولا حذاء، إلى مدين وبينهما مسيرة ثمانى ليال - نحواً من الكوفة إلى البصرة - ولم يكن له طعام إلاّ ورق الشجر. وقال ابن جبير: خرج من مصر حافيًا، فما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه.

(١) قال لى شيخى الشيخ آدم أحمد صالح المعروف بالشيخ آدم صالح رحمه الله تعالى رحمة واسعة فى تفسير هذه الآية: ﴿خائفًا﴾ من فرعون وقومه ﴿يترقب﴾ رحمة الله تعالى به.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ : وهو بئر كان لهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ : مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ : تحبسان، وتمنعان أغنامهما عن أن تشذ وتذهب. وقال الحسن: تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس، وترك ذكر الغنم اختصاراً. قال قتادة: تذودان الناس عن شائهما. وقال أبو مالك، وابن إسحاق: تحبسان غنمهما عن الماء حتى تصدر عنه مواشى الناس، ويخلو لهما البئر، فتسقيان غنمهما لضعفهما. وهذا القول أولى بالصواب لما بعده وهو قوله: ﴿قَالَ﴾ : يعنى موسى عليه السلام ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ : ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس.

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ﴾ : قرأ أبو عبد الرحمن السلمى، والحسن، وابن عامر، وأبو جعفر، وأبو رزين المتوكل: بفتح الياء، وضم الدال وجعلوا الفعل للرعاء، أى حتى يرجعوا هم عن الماء. وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الدال، أى حتى يصرفوا مواشيهم عن الماء. والرعاء جمع راع مثل تاجر وتجار، ومعنى الآية: لا نسقى مواشينا حتى يصدر ﴿ٱلرِّعَآءُ﴾ : لأنّا لا نطيق أن نسقى، ولا نطيق أن نزاحم الرجال، فإذا صدروا سقينا مواشينا ما أفضل من مواشيهم فى الحوض.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ : لا يقدر أن يسقى مواشيه. واختلفوا فى اسم أبيها: فقال مجاهد، والضحاك، والسدى، والحسن: هو شعيب النبى عليه السلام، واسمه: شعيب بن بويب بن مدين بن إبراهيم. وقال وهب وسعيد بن جبير، وأبو عبيدة بن عبد الله، هو بثرون ابن أخى إبراهيم، وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعدما كف بصره فدفن بين المقام وزمزم.

وروى حماد بن سلمة عن أبى حمزة الضبعى عن ابن عباس قال: اسم أبى امرأة موسى صاحب مدين بلوى. قالوا: فلما سمع موسى عليه السلام قولهما رحمهما فاقتلع صخرة على رأس بئر أخرى كانت بقربهما كان لا يطيق رفعها إلاّ جماعة من الناس. قال شريح: عشرة رجال. وقيل: إنه زاحم القوم عن الماء، وأخذ دلواً لهما وسقى غنمهما، عن ابن إسحاق فذلك قوله سبحانه: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ : قال السدى: ظل سمرة[1]. وروى عمرو بن ميمون عن عبد الله قال: أحببت على جمل لى ليلتين حتى صبحت مدين، فسألت عن السمرة التى آوى إليها موسى عليه السلام، فإذا شجرة خضراء برق، فأهوى إليها جملى وكان جائعًا فأخذها فعالجها ساعة فلم يقطعها فدعوت الله سبحانه لموسى عليه السلام وانصرفت.

---

(١) السمرة: شجرة صغيرة الورق قصيرة الشوك لها بذرة صفراء يأكلها الناس.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ : قال قطرب اللام ههنا بمعنى إلى ، تقول العرب : احتجت له ، واحتجت إليه بمعنى واحد ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ : أى طعام ﴿فَقِيرٌ﴾ : محتاج . قال ابن عباس : لما قال ذلك وإن خضرة البقل تتراءى فى بطنه من الهزال ، ما سأل الله تعالى إلا أكلة . قال الباقر : لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

قالوا : فلما رجعتا إلى أبيهما سريعًا قبل الناس ، وأغنامهما حفل بطان قال لهما : ما أعجلكما؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحًا رحمنا ، فسقى لنا أغنامنا . فقال لإحداهما اذهبى فادعيه لى .

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه مستترة بكم درعها . وقيل : قد سترت وجهها بيدها . روى قتادة عن مطرف قال : أما والله لو كان عند نبى الله شىء ما أتبع نفقتها ، ولكنه حمله على ذلك الجهد .

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ : فانطلق موسى عليه السلام معها ، فهبت الريح فألزقت ثوب المرأة بردفها ، فكره موسى أن يرى ذلك منها ، فقال لها : امشى خلفى ، وانعتى لى الطريق فدلينى عليها إن أخطأت فإنا بنو يعقوب لا ننظر إلى أعجاز النساء[1] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ : يعنى الشيخ ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ : وأخبره بأمره والسبب الذى أخرجه من أرضه ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ : يعنى فرعون وقومه لا سلطان له بأرضنا .

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ : وهى التى تزوجها موسى عليه السلام ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ : ليرعى أغنامنا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ : فقال لها أبوها : وما علمك بقوته وأمانته؟ فقالت : أما قوته فإنه لما رآنا حابسى أغنامنا عن الماء قال لنا : هل بقربكما بئر؟ قلنا : نعم، ولكن عليها صخرة لا يرفعها إلاّ أربعون رجلاً ، قالت : فانطلق بى إليها فأخذ الصخرة بيده فنحاها .

وأما أمانته ؛ فإنه قال لى فى الطريق امشى خلفى وإن أخطأت فارمى قدامى بحصاة حتى أنهج نهجها .

(١) هذا تأويل ضعيف غير مستقيم لا يقبله العقل ولا يدل على فضيلة إذ الفضيلة تظهر من سلوكيات بسيطة معظمها غير منطوق ولكن تظهر فى سلوك الناس وتصرفاتهم ، وفى هذه الحكاية هنا وصف لا يحتاج إلى أن يكون دليلاً على الفضيلة أو الأمانة فأهل البدو من شيمهم أن تسير النساء خلف الرجال ولا تقبل امرأة أن تسير أمام رجل وكذا لا يقبل رجل أن يسير خلف امرأة مهما كانت الأسباب ، وقد ظهرت لهما من موسى عليه السلام صفات النبل والكرم والشهامة والمروءة والصلاح والعفة فى تصرفه معهما وفيما لم يذكره القرآن مما تعود القرآن على طيه لكونه معروفًا .

﴿قَالَ﴾ عند ذلك الشيخ لموسى عليه السلام ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ﴾: واسمها صفورة. وأما فى قول شعيب الجبائى قال: وامرأة موسى عليه السلام صفورة. وقال ابن إسحاق: صفورة، وشرفا. وقال غيرهما: الكبرى صُفُرا، والصغرى صَفيرا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾: يعنى أجرتى. قالت الأئمة: على أن تثيبنى من تزويجها رعى ماشيتى ﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾: سنين واحدتها حجة. جعل صداقها ذلك، يقول آجرك الله فهو يأجرك بمعنى أثابك ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾: أى عشر سنين ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾: وأنت به متبرع متفضل، وليس مما أشرطه عليك فى عقد النكاح ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾.

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾: من الوافين بالعهد المحسنين الصحبة ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾: الثمانى أو العشر ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: شهيد وحفيظ.

وقال العلماء بأخبار الأنبياء: إن موسى عليه السلام وصاحبه لما تعاقدا بينهما هذا العقد أمر صهره إحدى بنتيه أن تعطى موسى عليه السلام عصا يدفع بها السباع عن غنمه.

واختلفوا فى حال تلك العصا[1]: فقال عكرمة: خرج بها آدم من الجنة، وأخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقى بها موسى عليه السلام فدفعها إليه. وقال آخرون: لم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وصلت إلى شعيب، وكانت عصا الأنبياء عنده فأعطاها موسى عليه السلام.

وقال السدى: كانت تلك العصا استودعها إياه ملك فى صورة رجل وأمر ابنته أن تأتيه بعصا. فدخلت الجارية، فأتته بها، فلما رآها الشيخ قال: لا هذه لا ائت بغيرها فلما لقيها تريد أن يأخذ غيرها، فلا يقع فى يده إلاّ هى كل ذلك يطير فى يدها حتى فعلت ذلك مرات، فأعطاها موسى عليه السلام فأخرجها معه؛ ثم إن الشيخ ندم وقال: كانت وديعة فخرج يتلقى موسى عليه السلام، فلما لقيه قال: أعطنى العصا. قال موسى عليه السلام: هى عصاى، فأبى أن يعطيه، فاختصما حتى رضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فأتاهما ملك يمشى فقضى بينهما، فقال: ضعوها بالأرض فمن حملها فهى له، فعالجها الشيخ فلم يطقها، وأخذها موسى عليه السلام فرفعها فتركها له الشيخ.

وروى حبان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال: كان فى دار يثرون بيت لا

---

(١) هذا من الجدل الذى نهى عنه الدين والذى لا يهتم به الإسلام فالإسلام يهتم بالذى يخدم النفس البشرية ويجعلها سوية رضية أما عن عصا موسى عليه السلام فهى عصا ككل عصا.

يدخله إلاّ يثرون وابنته التى تزوجها موسى عليه السلام كانت تكنسه وتنظفه، وكان فى البيت ثلاث عشرة عصا، وكان ليثرون أحد عشر ولداً من الذكور، فكلما أدرك منهم ولد أمره بدخول البيت وإخراج عصا من تلك العصى فجعل يخترق الولد حتى هلك كلهم، فرجع موسى ذات يوم إلى منزله فلم يجد أهله واحتاج إلى عصى لرعيه، فدخل ذلك البيت، وأخذ من تلك العصى وخرج بها، ولما علمت بذلك امرأته انطلقت إلى أبيها، فأخبرته بذلك فسُر بها يثرون، وقال لها: إن زوجك هذا نبى، وإن له مع هذه العصا لشأناً[١].

وفى بعض الأخبار: أن موسى عليه السلام لما أصبح من الغد بعد العقد وأراد الرعى قال له صهره شعيب: اذهب بهذه الأغنام فإذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك، ولا تأخذ على يمينك وإن كان الكلأ بها أكثر، فإن هناك تنيناً عظيماً أخشى عليك وعلى الأغنام منه، فذهب موسى بالأغنام، فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين، فاجتهد موسى على أن يصرفها ذات الشمال فلم تطعه، فسار موسى على أثرها حتى غلبته فرأى عشباً وريفاً لم ير مثله، ولم ير التنين، فنام موسى عليه السلام والأغنام ترعى فإذا بالتنين قد جاء، فقامت عصا موسى عليه السلام وحاربته حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى عليه السلام، وهى دامية.

فلما استيقظ موسى عليه السلام رأى العصا دامية والتنين مقتولاً، فارتاح لذلك وعلم أن لله سبحانه فى تلك العصا قُدرة وإرادة وعاد إلى شعيب وكان ضريراً، فمس الأغنام فإذا هى أمثل حالاً مما كانت فسأله، فأخبره موسى عليه السلام بالقصة. ففرح بذلك شعيب، وعلم أن لموسى عليه السلام وعصاه شأناً.

فأراد شعيب أن يجازى موسى عليه السلام على حسن رعيه إكرامًا له وصلة لابنته، فقال له: إنى قد وهبت لك الحوايا التى تضعها أغنامى هذه السنة كل أبلق وبلقاء. فأوحى الله إلى موسى عليه السلام فى المنام، أن اضرب بعصاك الماء الذى فى مستقى الأغنام.

قال: فضرب موسى عليه السلام بعصاه الماء ثم سقى الأغنام منه، فما أخطأت واحدة منها إلا وقد وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء. فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله إلى موسى عليه السلام وامرأته، فوفى له بشرطه وسلم إليه الأغنام[٢].

---

(١) هذا خبر من رواية الكلبى وأبى صالح وقال فيهما أهل الجرح والتعديل ما قالا بما يفيد بعدم قبول روايتهما.

(٢) وكذلك هذه القصة كسابقتها بل هى أشد منها ضعفًا حيث لم يذكر من رواها ولا عمن رواها، بالإضافة إلى ما حوته من أخبار الأساطير وعجائب الأسفار القديمة وليس فيها من الواقع شىء ولا لها من الحقيقة نصيب.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ : أى أتمه وفرغ منه ، وأخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون قال أخبرنا مكى بن عبد الرحمن قال حدثنا عبد الرحمن بن بشير قال حدثنا موسى بن عبد العزيز قال حدثنا الحكم بن أبان قال حدثنا عكرمة ، قال: قال ابن عباس : سُئل رسول الله ﷺ: أى الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ قال : «أبعدهما وأطيبهما» .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله المزنى قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن سليمان قال حدثنا محمد بن عبد الجبار الهمدانى قال حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن زيد بن على بن رباح عن عتبة بن المسيب ، وكان من أصحاب النبى ﷺ يسكن الشام ومات فى زمن عبد الملك ـ قال: سُئل رسول الله : أى الأجلين قضى موسى ؟قال : «أبرهما وأوفاهما» .

وروى محمد بن إسحاق عن حكم بن جبير عن سعيد بن جبير قال: قال لى يهودى بالكوفة وأنا أتجهز للحج : إنى أراك رجلاً تتبع العلم ، أخبرنى أى الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ قلت : لا أعلم ، وأنا الآن قادم على حبر العرب ـ يعنى ابن عباس ـ فسأسأله عن ذلك . فلما قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن النبى إذا وعد لم يخلف ، قال سعيد: فقدمت العراق فلقيت اليهودى ، فأخبرته ، فقال: صدق قال ما أنزل على موسى عليه السلام هذا والله العالم . وقال وهب : أنكحه الكبرى ، وقد روى : أن

النبى ﷺ قال: «تزوج صغراهما، وقضى أوفاهما». فإن صح هذا الخبر فلا معدل عنه.

وقال مجاهد: لما قضى موسى عليه السلام الأجل، مكث بعد ذلك عند صهره عشراً أخرى فأقام عنده عشرين سنة، ثم استأذنه فى العود إلى مصر لزيارة والدته وأخيه، فأذن له فسار بأهله، وكانت أيام الشتاء، وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام، وامرأته فى شهرها لا يدرى أليلاً تضع أم نهاراً، فسار فى البرية غير عارف بطريقها، فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربى الأيمن فى ليلة مظلمة شديدة البرد، وأخذ امرأته الطلق، فقدح زنده، فلم تور المقدحة شيئًا، فآنس من جانب الطور ناراً ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ﴾: قطعة وشعلة ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: وفيها ثلاث لغات: فتح الجيم وهى قراءة عاصم. وضمها وهى قراءة حمزة، وكسرها وهى قراءة الباقين. وقال قتادة ومقاتل: الجذوة العود الذى قد احترق بعضه، وجمعها جُذى، قال ابن مقبل:

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها ... حزل الجذَا غير خوَّار ولا دَعِر

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: تستدفئون، وتسخنون بها من البرد ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ﴾: من جانب ﴿ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾: عن يمين موسى عليه السلام ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾: وقرأ أشهب العقيلى فى البقعة، بفتح الباء ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾: أى من ناحية الشجرة، ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال عبد الله بن مسعود: كانت الشجرة سمرة خضراء ترق. وقال قتادة: عوسجة. وقال وهب: عليق[1].

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾: تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: وهى الحيّة الصغيرة من سرعة حركتها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: هارباً منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾: ولم يرجع فنودى ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: فخرجت كأنها المصباح ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ﴾: يدك. قرأ حفص بفتح الراء وجزم الهاء. وقرأ هل الكوفة والشام بضم الراء، وجزم الهاء. وقرأ غيرهم: بفتح الراء والهاء، دليلهم قوله سبحانه: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ (الأنبياء: ٩٠). وكلها لغات يعنى: الخوف والفرق.

ومعنى الآية: إذا هالك أمر يدك وما ترى من شعاعها، فأدخلها فى جيبك تعد إلى حالتها الأولى. وقال بعضهم: أمره الله سبحانه وتعالى أن يضم يده إلى صدره، فيذهب الله عز وجل ما ناله من الخوف عند معاينة الحية. وقيل: معناه: سكن روعك، واخفض عليك جأشك، لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه، وضم الجناح هو السكون. ومثله قوله

---

(١) كذا الخلاف فى الشجرة ونوعها لا فائدة فيه إذ لو فيه فائدة لعرفها لنا الله سبحانه.

سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء: ٢٤) يريد الرفق. وقوله سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٥) أى ارفق بهم وألن جانبك لهم. وقال الفراء: أراد بالجناح عصاه.

وقال بعض أهل المعانى: الرهب الكُم[1] بلغة حمير وبنى حنيفة. وحكى عن الأصمعى: أنه سمع بعض الأعراب يقول لآخر: أعطنى مما فى رُهُبك. قال: فسألته عن الرُّهُب، فقال: الكم. ومعناه على هذا التأويل: اضمم إليك يدك وأخرجها من الكم لأنه تناول العصا ويده فى كمه.

﴿فَذَانِكَ﴾: قراءة العامة بتخفيف النون. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بتشديد النون وهى لغة قريش وفى وجهها أربعة أقوال: قيل شد النون عوضًا عن الألف الساقطة ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين لأن أصله: فذانك، فحذف الألف الأولى لالتقاء الساكنين.

وقيل: التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام فى ذلك. وقيل: شددت فرقًا بينها وبين التى تسقط للإضافة لأن ذان لا يضاف. وقيل: للفرق بين تثنية الاسم المتمكن وبينها. قال أبو عبيدة: وكان أبو عمرو يخص هذا الحرف بالتشديد دون كل تثنية فى القرآن، وأحسبه فعل ذلك لقلة الحروف فى الاسم فقرأه بالتثقيل.

ومعنى الآية: ﴿فَذَانِكَ﴾ يعنى العصا، واليد البيضاء ﴿بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾: وأحسن بيانًا. وإنما قال ذلك للعقدة التى كانت فى لسانه[2] ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾: معينًا، يقال أردأته أى أعنته. وترك همزه عيسى بن عمر وأهل المدينة طلبًا للخفة ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾: قراءة العامة بالجزم. ورفعه عاصم، وحمزة، وهو اختيار أبى عبيد. فمن جزمه فعلى جواب الدعاء ومن رفعه فعلى الحال، أى رداءً مصدقًا حالة التصديق، لقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ﴾ (المائدة: ١١٤) أى كائنة، حال صرف إلى الاستقبال.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾: أى نقويك ونعينك.

﴿بِأَخِيكَ﴾: وكان هارون يومئذ بمصر.

---

(١) فى المخطوط: «اللم». وهو تحريف.

(٢) سبق أن تكلمت عن أن العقدة التى كانت فى لسان موسى عليه السلام ليست بلثغة نظرًا لما ادعوه من أمر التمرة والجمرة وإنما لكنة كانت من مكثه فى قوم شعيب، وفصاحة هارون عليه السلام كانت من قيامه بين قوم فرعون فكان أبين لهم وأوضح ليس إلا. والأنبياء جميعًا ليس بهم عيب تكوينى.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾: قوة وحجة وبرهانًا.

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾:



﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ۝ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾ الذى تدعونا إليه ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: قرأ العامة بالواو، وقرأ أهل مكة بغير واو، وكذلك هو فى مصاحفهم ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾: بالحق من الباطل ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ﴾: بالياء كوفى، والباقون بالتاء ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾: أى العقبى المحمودة فى الدار الآخرة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾: لا ينجح الكافرون ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾: فاطبخ لى الآجر. وقيل: إنه أول من اتخذ الآجر وبنى به.

قال أهل التفسير: لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح، جمع هامان العمال والفعلة، حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع، والأجراء، ومن يطبخ الآجر والجص، وينجر الخشب والأبواب ويضرب المسامير. فرفعوه، وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعًا لما يبلغه بنيان أحد من الخلق منذ خلق الله السموات والأرض. أراد الله سبحانه وتعالى أن يفتنهم فيه، فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه فأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت إليه وهى ملطخة دمًا.

فقال: قد قتلت إله موسى[1] قالوا: وكان فرعون يصعده على البرازين، فبعث الله سبحانه جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع، فوقعت قطعة منها على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف رجل ووقعت قطعة منها فى البحر. ووقعت قطعة فى المغرب فلم يبق أحد ممن عمل فيه بشىء إلاّ هلك، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾: قصراً ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾: انظر إليه وأقف على حاله[2] ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾: يعنى موسى عليه السلام ﴿مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾: فى ادعائه كون إله غيرى، وأنه رسوله ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾: فألقيناهم ﴿فِي ٱلْيَمِّ﴾: يعنى البحر. قال قتادة: هو بحر يقال له أساف غرقهم الله فيه[3] ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً﴾: قادة ورؤساء. ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ حزنًا وعذابًا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: الممقوتين. وقال أبو عبيدة وابن كيسان: المهلكين. وقال ابن عباس: يعنى المشوهين الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون. قال أهل (المعانى)[4] يقال: قَبَّحَهُ الله، وقَبَّحَهُ إذا جعله قبيحًا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أخبرنا شعيب بن محمد قال أخبرنا مكى بن عبد الرحمن قال حدثنا أحمد بن الأزهر قال حدثنا روح بن عبادة عن عوف عن أبى نصرة عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: «ما أهلك الله عز وجل قومًا ولا قرنًا ولا أمة، ولا قرية بعذاب من السماء منذ أنزل الله سبحانه التوراة غير القرية التى مسخوا قردة ألم تر أن الله سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾». الآية.



(١) هذا قول لا يقوله عاقل. نعم قد كان فرعون جباراً فى الأرض كافراً بالله تعالى غير أنه كان ذا عقل لم يكن بهذه الضعة من التفكير فى أمور الدنيا فهو رجل قد حكم دولة مثل مصر بدهاء ومكر وقهر وظلم وبطش فلا يعقل أن لا يكون لديه أدنى قدر من أن إله موسى الذى يتكلم عنه رب لا يُرى على ما قال موسى عليه السلام على الأقل فمثل هذه الحكايات يجب ترك الكلام بها ولا يجب ذكرها وكأنها لم ترد حتى لا يظن من لا يعرف الإسلام أن الإسلام دين جهل.

(٢) هذا القول منه استهزاء وسخرية فهو يعلم أنه مهما ارتفع فى السماء فلن يصل ولن يرى إله موسى عليه السلام وأما عمل الصرح فهو من العلو فى الأرض بغير الحق واتخاذ البناء بالريع وللخلود وللشهرة وتسخير الناس.

(٣) من المعروف أن البحر الذى غرق فيه فرعون وقومه هو بحر القلزم والمعروف اليوم بالبحر الأحمر.

(٤) زيادة يتطلبها السياق.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ۝ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝﴾

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أى غربى الجبل ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أى أخبرناه بأمرنا ونهينا وألزمناه عهدنا ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ الحاضرين هناك فتذكره من ذات نفسك ﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾: أحدثنا وخلقنا ﴿قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾: فنسوا عهد الله سبحانه وتركوا أمره. نظيره: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحديد: ١٦) ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾: مقيمًا.

﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: يعنى أرسلناك رسولاً، وأنزلنا عليك كتابًا فيه هذه الأخبار فتتلوها عليهم ولولا ذلك لما علمتها ولما أخبرتهم بما تشاهده ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى: خذ الكتاب بقوة.

قال وهب بن منبه: قال موسى: يا رب أرنى محمداً ﷺ قال: إنك لن تصل إلى ذلك، فإن شئت ناديت أمته فأسمعناك صوتهم. قال: «بلى يا رب». فقال الله سبحانه: يا أُمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم.

وأخبرنا عبد الله بن حامد الأصفهانى قال: أخبرنا محمد بن جعفر الطبرى قال حدثنا حماد ابن الحسين قال حدثنا أبو بكر قال حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبى مدرك عن أبى زرعة - يعنى عمرو بن جرير ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾: قال يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعونى، وأعطيتكم من قبل أن تسألونى.

وأخبرنا عبد الله بن خالد الوزان قال أخبرنا أحمد بن محمد بن شاذان قال حدثنا معاوية بن

محمد قال حدثنا صالح بن محمد قال حدثنا قال: (ح)[1] وأخبرنا عثمان بن أحمد قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم الختلى قال حدثنا محمد بن الصباح بن عبد السلام قال حدثنا داود بن سليمان كلاهما عن سليمان بن عمرو عن أبى حازم عن سهل بن سعد الساعدى قال: قال رسول الله ﷺ فى قول الله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ قال: «كتب الله عز وجل كتابًا قبل أن يخلق الخلق بألفى عام فى ورقة آس وضعها على العرش، ثم نادى أمة محمد: إن رحمتى سبقت غضبى أعطيتكم قبل أن تسألونى، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى من لقينى منكم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبدى ورسولى أدخلته الجنة».

﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: قراءة العامة بالنصب على الخبر، تقديره ولكن رحمناك رحمة. وقرأ عيسى بن عمر: رحمة بالرفع يعنى ولكنه رحمة من ربك إذ أطلعك عليه وعلى الأخبار الغائبة عنك ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: يعنى أهل مكة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾: عقوبة ونقمة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: من الكفر والمعصية ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جواب لولا محذوف، أى فهلا لو عاجلناهم بالعقوبة. وقيل: معناه: لما أرسلناك إليهم رسولاً ولكنا بعثناك إليهم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾: يعنى محمد عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُواْ﴾: يعنى كفار مكة ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾: محمد ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾: كتابًا جملة واحدة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ[2] تَظَـٰهَرَا﴾: قال الكلبى: وكانت مقالتهم تلك حين بعثوا الرهط منهم إلى رؤوس اليهود بالمدينة فى عيد لهم، فسألوهم عن محمد ﷺ، فأخبروهم أنه نعته وصفته، وأنه فى كتابهم التوراة. فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود. فقالوا عند ذلك: ﴿سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا﴾ قرأ أهل الكوفة: سحران بغير ألف، وهى قراءة ابن مسعود وقرأ عكرمة واحتج بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾. وقرأ الأخرون: ساحرات بالألف، واختاره أبو حاتم، وأبو عبيدة قال: لأن معنى التظاهر بالناس وأفعالهم أشبه منه بالكتب. فمن قرأ سحران أراد التوراة والقرآن، ومن قرأ ساحران، أراد موسى ومحمدًا عليهما السلام.

(١) زيادة يتطلبها سياق الإسناد.

(٢) جاء الرسم فى المخطوط: ساحران، وأثبت ما هو فى رسم المصحف المطبوع برواية حفص عن عاصم فيلاحظ الفرق فى شرح المؤلف.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝ قُلْ﴾: قل لهم يا محمد.

﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾: ولم يأتوا به.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝﴾

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أى بيناه. قال ابن عباس ومجاهد: فصله. وقال ابن زيد: وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا. وقال أهل المعانى: أى والينا وتابعنا، وأصله من وصل الحبال بعضها إلى بعض قال الشاعر:

فقل لبنى مروان ما بال ذمة ... وحبل ضعيف ما يزال يُوَصَّلُ

وقرأ الحسن: وصلنا، خفيفة. وقرأ العامة: بالتشديد.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾: أى من قبل محمد ﷺ ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾: أى من مؤمنى أهل الكتاب ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: يعنى القرآن ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن

﴿رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۞ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ : لإيمانهم بالكتاب الأول والكتاب الآخر ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ : على دينهم. قال مجاهد: نزلت فى قوم من أهل الكتاب أسلموا فأوذوا ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ : ويدفعون ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ : القبيح من القول ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ : أى لا نريد الجاهلين عند الكلبى. قيل: مجاورة الجاهلين. وقيل: لا نريد أن نكون جهالاً.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ : أى من أحببت هدايته. وقيل: من أحببته. نزلت فى أبى طالب.

حدثنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدى إملاءً قال حدثنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن الحافظ قال حدثنا عبد الرحمن بن بشر قال حدثنا يحيى بن سعيد عن زيد بن كيسان قال حدثنى أبو حازم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة». قال: لولا أن تعيرنى نساء قريش يقلن إنه حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك. فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ :

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان أخبرنا مكى بن عبدان قال حدثنا محمد بن يحيى، وأحمد ابن يوسف قالا: حدثنا عبد الرزاق. قال وأخبرنا محمد بن الحسين قال حدثنا أحمد بن يوسف السلمى قال حدثنا عبد الرزاق. قال: (ح)[1] وأخبرنا أبو سعيد بن حمدون قال أخبرنا ابن الشرقى قال حدثنا محمد بن يحيى قال حدثنا عبد الرزاق (ح)[1] قال أخبرنا معمر بن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبيه عن النبى ﷺ: أنه دخل على عمه أبى طالب فى مرضه الذى مات فيه، وعنده أبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبى أمية، فقال له: «يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أُحاج لك بها عند الله».

فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟

قال: بل على ملة عبد المطلب، فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ : أخبرنا ابن فنجويه قال حدثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك قال حدثنا محمد بن إبراهيم الطيالسى قال حدثنا الحسين بن على بن زيد المدائنى قال حدثنا أبى قال حدثنا الفضل بن العباس الهاشمى قال حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى عن الزهرى عن محمد بن مطعم عن أبيه قال: لم يسمع أحد

(١) زيادة حديثية يتطلبها سياق الإسناد.

الوحى يلقى على رسول الله ﷺ إلا أبو بكر الصديق فإنه أتى النبى ﷺ فوجده يوحى إليه فسمع: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [(١)].

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾: نزلت فى الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، وذلك أنه قال للنبى ﷺ: إنّا لنعلم أن الذى تقول حق، ولكن يمنعنا اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ﴾: مكة.

قال الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾: وذلك أن العرب فى الجاهلية كانت تغير بعضهم على بعض فيقتل بعضهم بعضًا وأهل مكة آمنون حيث كانوا لحُرمة الحرم ﴿يُجْبَىٰٓ [(٢)] إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ﴾: يجلب ويجمع. قرأ أهل المدينة ويعقوب: تجبى بالتاء لأجل الثمار، واختلف أبو حاتم. وقرأ غيرهم بالياء لقوله: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾: واختاره أبو عبيد، قال: لأنه قد حال بين الاسم المؤنث والفعل حائل ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ﴾: أى أشرت وطغت فكفرت بربها. قال عطاء بن أبى رباح: أى عاشوا فى البطر والأشر وأكلوا رزق الله، وعبدوا الأصنام. وجعل الفعل للقرية وهو فى الأصل للأهل. وقد مضت هذه المسألة ﴿فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾: يعنى لم يعمر منها إلا أقلها، وأكثرها خراب قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافر، ومار الطريق يومًا أو ساعة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ نظيره قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ (مريم: ٤٠) وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ (آل عمران: ١٨٠).

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾: بكفر أهلها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾: يعنى مكة ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾: كافرون ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: بالياء أبو عمرو. ومختلف عنه الباقون بالتاء.

❖ ❖ ❖

﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ قَالَ

---

(١) من المعلوم أنه لم يثبت أن أحداً من البشر قط سمع الوحى وهو ينزل على رسول الله ﷺ ولكنهم رأوه ﷺ عندما كان الوحى ينزل عليه ولكنهم كانوا لا يعرفون ما أوحى إليه به حتى يخبره بعد انفصام الوحى عنه ﷺ.

(٢) فى المخطوط: بالتاء، ورسمت ما فى مصحف حفص عن عاصم المطبوع المتداول فلاحظ قول المؤلف على ضوء ما كان رسم.

ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا﴾: يعني الجنة ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾: مدركه ومصيبه ﴿كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾: في النار. نظيره قوله سبحانه: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ (الصافات: ٥٧). قال مجاهد: نزلت في النبي ﷺ، وفي أبي جهل بن هشام، وقال محمد بن كعب: في حمزة وعلي، وأبي جهل. وقال السدي: عمار، والوليد ابن المغيرة.

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾: في الدنيا أنهم شركائي ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾: وجب عليهم العذاب وهم الرؤوس، عن الكلبي. وقال غيره الشياطين ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾: منهم ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ﴾: أي الكفار ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾: جواب ﴿لَوۡ﴾ مضمر، أي لو كانوا يهتدون لما رأوا العذاب. وقيل معناه: ودّوا إذا رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَعَمِيَتْ﴾ : فخفيت واشتبهت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ : يعنى الأخبار، والأعذار، والحجج ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ : كان الله سبحانه قد أعذر إليهم فى الدنيا، فلا تكون لهم حجة ولا عذر يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ : لا يجيبون بهذه ولا يحتجون. وقيل: يسكنون لا يقبل بعضهم بعضًا. وقال مجاهد: لا يتساءلون بالأنساب كما كانوا يفعلون فى الدنيا. نظيره قوله سبحانه: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾(المؤمنون: ١٠١).

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ : هذا جواب قول الوليد بن المغيرة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١)، أخبر الله سبحانه أن لا يبعث الرسل باختيارهم.

وهذا من الجواب المفصول. وللقراء فى هذه الآية طريقان:

أحدهما: أن يمر على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ : ويجعل ﴿مَا﴾ إثباتًا بمعنى الذى أى ونختار لهم ما هو الأصلح أو الخير.

والثانى: أن يقف على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ويجعل ﴿مَا﴾ نافيًا، أى ليس إليهم الاختيار. وهذا القول أصوب، وأعجب إلىّ لقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦)، وأنشدنى أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب قال أنشدنى أبو جعفر محمد بن سراج قال أنشدنى حماد بن على البكراوى لمحمود بن الحسن الوراق:

توكل على الرحمن فى كل حاجة	أردت فإن الله يقضى ويقدرُ
متى ما يرد ذو العرش أمرًا بعبده	يصبه وما للعبد ما يتخيرُ
وقد هلك الإنسان من وجه أمنه	وينجو بحمد الله من حيث يحذرُ

وأنشدنى الحسن بن محمد قال أنشدنى أبو الفوارس حنيف بن أحمد بن حنيف الطبرى:

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر	والدهر ذو دول والرزق مقسوم
والخير أجمع فيما اختار خالقنا	وفى اختيار سواه اللوم والشوم

وروى سعيد بن المسيب عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال: «إن الله عز وجل اختار أصحابى على جميع العالمين سوى النبيين واختار لى من أصحابى أربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى» - رضوان الله عليهم أجمعين - «جعلهم خير أصحابى وفى كل أصحابى خير، واختار أمتى على سائر الأمم، واختار لى من أمتى أربعة قرون بعد أصحابى القرون: الأول، والثانى، والثالث، تترى والرابع فردى».

أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا ابن شنبة قال حدثنا جعفر بن أحمد الواسطى قال حدثنا محمد بن عبيد قال حدثنا يوسف بن يعقوب السلمى قال حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبه عن أخيه فى قوله : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ قال : اختار من الغنم الضأن ، ومن الطير الحمام .

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ : دائمًا لا نهار معه .

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ : لا ليل فيه ، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ وَنَزَعْنَا﴾ : وأخرجنا وأحضرنا .

﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا﴾ : حينئذ .

﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ : يعنى التوحيد والصدق والحجة البالغة .

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ :



﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ۝ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ۝ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ

يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴿٨٢﴾ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴿٨٣﴾ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴿٨٤﴾ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين ﴿٨٥﴾ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين ﴿٨٦﴾ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين ﴿٨٧﴾ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴿٨٨﴾﴾

﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ كان ابن عمه لأنه قارون بن يصهر بن فاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى بن عمران بن فاهث. هذا قول أكثر المفسرين. وقال ابن إسحاق: تزوج يصهر ابن فاهث؛ شميت بنت ثناويت بن بركيا بن نهشان بن إبراهيم. فولدت له: عمران بن يصهر، وقارون بن يصهر. فنكح تحبيب بنت سموئل بن بركيا بن تهشان بن بركيا. فولدت له: هارون ابن عمران، وموسى بن عمران عليهما السلام. فموسى على قول ابن إسحاق ابن أخى قارون. وقارون عمه لأبيه وأمه، قال قتادة: وكان يقال له: المنور لحسن صورته، ولم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ للتوراة منه، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى.

﴿فبغى عليهم﴾: أخبرنى ابن فنجويه قال حدثنا موسى بن محمد قال حدثنا الحسن بن علوية قال حدثنا إسماعيل بن عيسى عن المسيب أن قارون: ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾. قال: كان عاملاً لفرعون على بنى إسرائيل وكان يبغى عليهم ويظلمهم. قال ابن عباس: كان فرعون قد ملكه على بنى إسرائيل حين كان بمصر. وقال سعيد عن قتادة: بغى عليهم بكثرة ماله وولده. وقال شيبان عنه: بالكبر والبذخ. وقال عطاء الخراسانى، وشهر بن حوشب: زاد عليهم فى الثياب شبراً ﴿وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه﴾: وهى جمع المفتاح الذى يفتح به الباب ﴿لتنوأ بالعصبة أولى القوة﴾: أى لتثقل وتميل بهم إذا حملوها لثقلها. يقال: ناء ينوء نوءًا إذا نهض بثقل قال الشاعر:

تنوء بأخراها فلأيًا قيامها ... وتمشى الهُوَينى عن قريب فَتَبْهَرُ

واختلفوا فى مبلغ عدد العصبة فى هذا الموضع : فقال مجاهد : ما بين العشرة إلى خمسة عشر . وقال قتادة : ما بين العشرة إلى أربعين . وقال أبو صالح : أربعون رجلاً . وقال عكرمة : منهم من يقول أربعون ، ومنهم يقول سبعون . وقال الضحاك عن ابن عباس : ما بين الثلاثة إلى العشرة . وقيل : ستون .

روى جرير عن منصور عن خيثمة قال : وجدت فى الإنجيل : إن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلاً غراً محجلة ما يزيد منها مفتاح على أصبع ، لكل مفتاح منها كنز . وقال مجاهد : كانت المفاتيح من جلود الإبل ، (وقيل من جلود البقر لتخف عليه)[1] ويقال : كان قارون أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه ، وكانت من حديد ، فلما ثقلت عليه جعلت من خشب فثقلت عليه فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع ، وكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلاً .

وقال بعضهم : أراد بالمفاتيح الحرائر[2] ، وإليه ذهب أبو صالح ، وروى حصين عن أبى رزين قال : لو كان مفتاح واحد لأهل الكوفة كان كافيًا إنما يعنى كنوزه . فإن قيل : فما وجه قوله : ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِى ٱلۡقُوَّةِ﴾ ؟ . فإنما العصبة هى التى ينوء بها ، قيل فيه قولان : أحدهما : يميل بهم ، ويثقلهم حملها ، والآخر : قال أهل البصرة : قد تفعل العرب هذا تقول للمرأة : إنها لتنوء بها عجيزتها وإنما هى تنوء بعجيزتها كما ينوء البعير بحمله ، قال الشاعر :

فديت بنفسه نفسى ومالى ... ومـا آلوك إلا مـا يطاق

والمعنى : قد فديت بنفسى ومالى نفسه . وقال آخر :

ويركـب خيلاً لا هـوادة بينها ... وتسعى الرماح بالضياطرة الحمر

وإنما يسعى الضياطرة بالرماح ، والخيل ههنا الرجال .

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ : من بنى إسرائيل ﴿لَا تَفۡرَحۡ﴾ : لا تأشر ، ولا تمرح ، ومنه قول الله سبحانه : ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (هود: ١٠) ، وقال الشاعر :

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ... ولا جازع من صرفه المتحـول

أراد لست بأشر لأن السرور غير مكروه وغير مذموم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ : الأشرين

---

(١) زيادة من القرطبى .

(٢) هذا وجه من وجوه التأويل الفاسدة حيث يصرف النص الصريح الواضح إلى معان لا تحملها اللغة ولا المجازات ولا الكنايات بل هى بعض شطحات المفسرين ومدعى الحقيقة الذين يزعمون أن للقرآن ظاهراً وباطنًا وهى دعوة باطلة .

البطرين المتكبرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

أخبرني ابن فنجويه قال حدثنا منصور بن جعفر النهاوندي قال حدثنا أحمد بن يحيى النهاوندي قال حدثنا أحمد بن يحيى بن الجارود قال حدثنا محمد بن عمرو بن حبان عن بقية قال حدثنا مبشر بن عبد الله في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾. قال: لا تفسد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، وقال الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

يعني أفسدتك.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾: قال مجاهد، وابن زيد: لا تترك أن تعمل في دنياك لآخرتك حتى تنجو من عذاب الله سبحانه، وهي رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال علي رضي الله عنه: لا تنس صحتك وقوتك وشبابك ونشاطك وغناك أن تطلب به الآخرة. وقال الحسن: ولا تنس أن تطلب فيها كفايتك وغناك مما أحل الله لك منها.

أنبأني عبد الله بن حامد قال أخبرنا حامد بن محمد قال حدثنا أحمد بن علي الخزاز قال حدثنا سعيد بن سلمة قال حدثنا خلف بن خليفة عن منصور بن زاذان في قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ قال: قوتك وقوت أهلك وقيل: هو الكفن لأنه حظه من الدنيا عند خروجه منها.

﴿وَأَحْسِن﴾: إلى الناس ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ﴾: ولا تطلب ﴿الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۝ قَالَ﴾: قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: يعني على فضل علم، ﴿عِندِي﴾: علمنيه الله ورآني لذلك أهل ففضلني بهذا المال عليكم لفضلي عليكم بالعلم وغيره. وقيل: هو علم الكيمياء، قال سعيد بن المسيب: كان موسى عليه السلام يعلم الكيمياء، فعلم يوشع ابن نون ثلث ذلك العلم، وعلم كالب بن نوفيا ثلثه، وعلم قارون ثلثه، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه، وفي خبر آخر: أن الله سبحانه وتعالى علم موسى عليه السلام علم الكيمياء فعلم موسى عليه السلام أخته، فعلمت أخته قارون، فكان ذلك سبب أمواله، وقيل: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ بالتصرف في التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب وقيل في سبب جمعه تلك الأموال ما أخبرنا: الحسين بن محمد بن الحسين بن عبد الله قال حدثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد قال حدثنا محمد بن موسى الحلواني قال حدثنا خزيمة بن أحمد قال حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال سمعت أبا سلمة الداراني يقول: تبدى إبليس

لقارون وكان قارون قد أقام في جبل أربعين سنة يتعبد حتى إذا غلب بني إسرائيل في العبادة بعث إليه إبليس شياطينه، فلم يقدروا عليه، فتبدى هو له وجعل يتعبد، وجعل قارون يتعبد، وجعل إبليس يقهره ويغريه فخضع له قارون فقال له إبليس: يا قارون، قد رضينا بهذا الذي نحن فيه، لا نشهد لبني إسرائيل جماعة، ولا نعود مريضًا ولا نشهد جنازة؟ قال فحذره من الجبل إلى البيعة، فكانوا يأتون بالطعام؛ فقال إبليس: يا قارون، قد رضينا الآن أن نكون هكذا كَلاً على بني إسرائيل؟! فقال له قارون: ما لي شيء الرأي عندك. قال: نكسب يوم الجمعة ونتعبد بقية الجمعة قال: فكسبوا يوم الجمعة، وتعبدوا بقية الجمعة.

فقال إبليس لقارون: قد رضينا أن تكون هكذا؟! فقال له قارون: فأي شيء عندك؟ قال نكسب يومًا، ونتعبد يومًا ونتصدق ونعطي. قال: فلما كسبوا يومًا، وتعبدوا يومًا، خنس إبليس وتركه، ففتحت على قارون الدنيا، فبلغ ماله ما أخبرنا ابن فنجويه قال أخبرنا موسى قال أخبرنا الحسين بن علويه: قال حدثنا إسماعيل بن موسى عن المسيب بن شريك: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ قال: أوعيته وكانت أربعمائة ألف ألف في أربعين جرابًا[1].

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: الكافرة ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: قال قتادة: يدخلون النار بغير حساب وقال مجاهد: يعني الملائكة لا تسأل عنهم لأنهم يعرفون بسيماهم. وقال الحسن: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ليعلم ذلك من قبلهم فإن سُئلوا سؤال تقريع وتوبيخ.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾: قال جابر بن عبد الله: في القرمز[2]. وقال النخعي، والحسن: في ثياب خز. وقال مجاهد: على براذين بيض عليها سُروج الأرجوان عليهم المعصفرات. وقال قتادة: على أربعة آلاف دابة، عليها رواحلها، وقال ابن زيد: في سبعين ألفًا عليهم المعصفرات، قال: وكان ذلك أول يوم رئيت المعصفرات فيما كان يذكرون لنا. وقال مقاتل: على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليه الأرجوان، ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان، ومعه ثلاثمائة جارية بيض عليهن الحلي والثياب الحمراء على البغال الشُّهب.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: من المال ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾: ولا يلقن ولا

(١) هذه الحكاية لا دليل عليها، ثم هذا الرقم من المال لا دليل عليه حيث بَهَّمَ الله مقدار المال.

(٢) قال القرطبي: القرمز: صبغ أحمر مثل الأرجوان، والأرجوان في اللغة صبغ أحمر.

يوفق لهذه الكلمة ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾: على طاعة الله، وعن زينة الدنيا.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾: قال العلماء بأخبار القدماء: كان قارون أعلم بنى إسرائيل بعد موسى وهارون، وأقرأهم للتوراة، وأجلهم وأغناهم. ولكنه نافق كما نافق السامرى فبغى على قومه، واختلف فى معنى هذا البغى، فقال ابن عباس: كان فرعون قد ملك قارون على بنى إسرائيل حين كان بمصر، وعن المسيب بن شريك: أنه كان عاملا على بنى إسرائيل وكان يظلمهم، وقيل: زاد عليهم فى الثياب شبراً، وقيل: بغى عليهم بالكبر، وقيل: بكثرة ماله، وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم، واختلف فى مبلغ عدة العصبة فى هذا الموضع فقال مجاهد: ما بين العشرة إلى خمسة عشر، وقال قتادة: ما بين العشرة إلى الأربعين، وقال عكرمة: منهم من يقول أربعون ومنهم من يقول سبعون، وقال الضحاك: ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل: هم ستون.

وروى عن خيثمة قال: وجدت فى الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلاً غراء محجلة ما يزيد منها مفتاح على إصبع لكل مفتاح منها كنز، ويقال: كان أينما يذهب تحمل معه وكانت من حديد، فلما ثقلت عليه جعلها من خشب فثقلت عليه فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع، فكانت تحمل معه على أربعين بغلاً، وكان أول طغيانه أنه تكبر واستطال على الناس بكثرة الأموال فكان يخرج فى زينته ويختال كما قال تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾.

قال مجاهد: خرج على براذين بيض عليها سروج الأرجوان وعليهم المعصفرات.

وقال عبد الرحمن: خرج فى سبعين ألفًا عليهم المعصفرات وقال مقاتل: على بغلة شهباء عليها سرج من الذهب عليها الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلاثة آلاف جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب، فتمنى أهل الجهالة مثل الذى أوتيه كما حكى الله فوعظهم أهل العلم بالله أن اتقوا الله فإن ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾. فبغى وطغى حتى هلك. وكان سبب طغيانه كثرة ماله. قالوا: وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله سبحانه أوحى إلى موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا فى أرديتهم خيوطًا أربعة فى كل طرف خيط أخضر لونه كلون السماء.

فقال: يا رب لـمَ أُمرت بنو إسرائيل بتعليق هذه الخيوط الخضر فى أرديتهم؟ فقال الله جل جلاله: إن بنى إسرائيل فى غفلة، وقد أردت أن أجعل لهم علمًا فى ثيابهم يذكرون به إذا نظروا إلى السماء ويعلمون أنى منزل منها كلامى.

قال موسى: يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضراء فإن بنى إسرائيل تحقر هذه

الخيوط. فقال له ربه عز وجل: يا موسى إن الصغير من أمرى ليس بصغير، وإن هم لم يطيعونى فى الأمر الصغير لم يطيعونى فى الأمر الكبير، قال: فدعا موسى بنى إسرائيل وقال لهم: إن الله سبحانه أمركم أن تعلقوا فى أرديتكم خيوطًا خضراء كلون السماء لكى تذكروا ربكم إذا رأيتموها. ففعلت بنو إسرائيل ما أمرهم به موسى. واستكبر قارون فلم يطعه وقال: إنما يفعل هذا الأرباب بعبيدهم لكى يتميزوا من غيرهم ـ فكان بدو عصيانه وبغيه.

فلما قطع موسى ببنى إسرائيل البحر جعلت الحبورة لهارون ـ وهى رئاسة المذبح ـ فكان بنو إسرائيل يأتون بهديهم ويدفعونه إلى هارون فيضعه على المذبح، فتنزل نار من السماء فتأكله، فوجد قارون فى نفسه من ذلك، وأتى موسى فقال: يا موسى لك الرسالة، ولهارون الحبورة وليست فىّ شىء من ذلك وأنا أقرأ للتوراة منكما لا صبر لى على هذا. فقال موسى: والله ما أنا جعلتها فى هارون بل الله جعلها له. فقال قارون: والله لا أصدقك فى ذلك حتى ترينى آية، قال: فجمع موسى رؤساء بنى إسرائيل، فقال: هاتوا عصيكم، فحزمها، وألقاها فى قبته التى كان يعبد الله سبحانه فيها. فجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا وأصبحت عصا هارون قد اهتز لها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز. فقال موسى: يا قارون ترى هذا؟ فقال قارون: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر.

واعتزل قارون موسى بأتباعه. وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهما، وهو يؤذيه فى كل وقت، ولا يزيد كل يوم إلا عتواً وتجبراً معاداة منه لموسى عليه السلام.

حتى بنى داراً وجعل بابها من الذهب، وضرب على جدرانها صفائح الذهب. وكان الملأ من بنى إسرائيل يغدون عليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه، ويضاحكونه.

قال ابن عباس: ولما نزلت الزكاة على موسى أتاه قارون فصالحه عن كل ألف دينار عَلَى دينار، وعن كل ألف درهم على درهم، وعن كل ألف شاة شاة، وعن كل ألف شىء شيئًا، ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده كثيراً، فلم تسمح بذلك نفسه، فجمع بنى إسرائيل وقال لهم: يا بنى إسرائيل، إن موسى قد أمركم بكل شىء فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم. قالوا: أنت كبيرنا وسيدنا، فمرنا بما شئت. فقال: آمركم أن تجيئوا بفلانة البغى، فنجعل لها جعلاً حتى تقذف موسى عليه بنفسها، وإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه، فدعوها، فجعل لها قارون ألف درهم، وقيل: ألف دينار، وقيل طستًا من ذهب. وقيل: حكمها وقال: إنى أعولك وأخلطك بنسائى على أن تقذفى موسى عليه السلام بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل، فلما كان من الغد جمع قارون بنى إسرائيل ثم أتى موسى عليه

السلام، فقال له: إن بنى إسرائيل قد اجتمعوا ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم. فخرج إليهم موسى عليه السلام وهم فى براح من الأرض. فقام فيهم فقال: يا بنى إسرائيل من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة، ومن زنى وله امرأة رجمناه حتى يموت، فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا. قال فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة. قال: ادعها، فإن قالت فهو كما قالت. فلما جاءت قال لها موسى: يا فلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء؟ وعظم عليها فأحلفها بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلاّ صدقت، فتداركها الله سبحانه مما هى فيه، فقالت فى نفسها أحدث اليوم توبة أفضل من أن أؤذى رسول الله ﷺ. فقالت: لا كذبوا، ولكن جعل لى قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسى فلما تكلمت بهذا الكلام سقط فى يده قارون ونكس رأسه وسكت الملأ وعرف أنه وقع فى مهلكة. فخرّ موسى ساجداً يبكى ويقول: يا الله[١].

(فجعل الله أمر قارون إلى موسى عليه السلام وأمر الأرض أن تطيعه، فجاءه وهو يقول للأرض: يا أرض خذيه، وهى تأخذه شيئًا فشيئًا، وهو يستغيث يا موسى، إلى أن ساخ فى الأرض، هو وداره وجُلساؤه الذين كانوا على مذهبه.

وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى: استغاث بك عبادى فلم ترحمهم، أما إنهم لو دعونى لوجدونى قريبًا مجيبًا)[٢].

قال قتادة وذكر أنه يخسف به كل يوم قامة، وأنه يتخلخل فيها لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة. قالوا: وأصبحت بنو إسرائيل يقولون فيما بينهم إن موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وكنوزه وأمواله. فدعا الله موسى حتى خسف بداره وماله الأرض.

وأوحى الله سبحانه إلى موسى إنى لا أُعَبد الأرض لأحد بعدك أبدًا. فذلك قوله سبحانه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[٣]. ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ :

---

(١) جاء بعد ذلك فى المخطوط سوء فى التصوير نظراً لتآكل الحروف فى أصل المخطوط للعوامل الجوية التى تعرض لها وأنا أنقل باقى القصة من القرطبى فقد ذكر نحوها وأجعل ما هو من القرطبى بين معقوفين.

(٢) إلى هنا انتهى النقل عن القرطبى وكل ذى لب يعلم أن هذه القصة مخالفة لصريح القرآن ثم إن ما ورد فيها من أحكام السرقة والزنا مما هو تشريع مفصل إنما وردت به الشريعة الإسلامية التى نزلت على محمد ﷺ أما شرائع من كان قبلنا فإنما كانت مجملة إجمالا كثيراً، فلا يغتر بمثل هذه الحكايات ولا يجب تكريرها على الناس حتى لا يعتقدوها ومن ذكرها بين عوارها.

(٣) واضح تمامًا من نص الآية أن ما سبق من تفسير لا يصح أن يكون تفسيراً لها لمخالفته الصريحة لها.

الممتنعين ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ : العرب تعبر بأضحى وأمسى وأصبح عن الصيرورة والفعل فتقول: أصبح فلان عليلاً، وأمسى حزينًا، وأضحى معدمًا إذا صار بهذه الأحوال، وليس ثَمَّ وقت الصبح والمساء والضحى شيء.

﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ : اختلف العلماء في هذه اللفظة: فقال مجاهد معناه: ألم تعلم. وقال قتادة: ألم تر وقال الفراء: هي كلمة تقرير كقولك: أما ترى إلى صنع الله وإحسانه، وذكر أنه أخبره من سمع أعرابية تقول لزوجها: أين ابنك؟ فقال: ويكأنه وراء البيت. أي أما ترينه وراء البيت؟! وقال ابن عباس، والحسن: هي كلمة ابتداء وتحقيق تقديره أن الله ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ : وقال المؤرج: هو تعجب. وقال قطرب: إنما هو ويلك وأسقط منه اللام، (وضمت الكاف التي هي للخطاب إلى وي)[1]، قال عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقْمَها قول الفوارس ويك عنتر أقْدِمِ

وقال بعض الشعراء:

ويكأن من يكن له نشب يُحببُ ومن يفتقر بعيش عيش ضُرّ

وقال القعنبي: معناه...[2] بلغة حمير، وقال سيبويه: سألت الخليل عنه، فقال: وي كلمة تنبيه منفصلة من كأن، فكأن المعنى الظن والعلم، وبسط الرزق.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ : يقتر ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ : قرأ يعقوب وبعض أهل...[3] والكوفة بفتح الخاء والسين. وقراءة العامة بضم الخاء، وكسر السين ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : تكبرًا. وتجبرًا ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ : عملاً بالمعاصي عن ابن جريج ومقاتل. وقال عكرمة ومسلم البطين: الفساد أخذ المال بغير حق. وقال الكلبي: الدعاء إلى غير عبادة الله.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ : المحمودة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ : قال قتادة: الجنة ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ : أي أنزله عند أكثر المفسرين. وقال عطاء بن أبي رباح: فرض عليك العمل بالقرآن ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ : أي إلى مكة، وهي رواية العوفي عن ابن عباس، قال القتيبي: معاد الرجل بلده لأنه ينصرف ثم يعود.

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق وقد زدتها من تفسير القرطبي.

(٢) موضع النقط كلمة ممحوة من المخطوط يظهر موضعها نقط غير منتظمة.

(٣) موضع النقط كلمة ممحوة من المخطوط لعيب في أصله نظرًا لعوامل الزمن والتعرية وسوء التخزين.

وقال مقاتل: خرج النبى ﷺ من الغار ليلاً مهاجرًا إلى المدينة فى غير الطريق مخافة الطلب، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها وذكر مولده ومولد آبائه فأتاه جبريل فقال: أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال: «نعم». قال: فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أى إلى مكة ظاهرًا عليها.

وقال مقاتل: قال الضحاك: قال ابن عباس: نزلت بالجحفة ليس بمكة ولا بالمدينة. . .[1] قال انطلقت أنا وأبى إلى أبى سعيد الخدرى فسأله عن هذه الآية: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ فقال: إلى الموت، وهى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقال الحسن والزهرى وعكرمة: إلى يوم القيامة وقال أبو مالك، وأبو صالح: إلى الجنة.

أخبرنا عبد الخالق بن على قال أخبرنا أبو بكر بن حبيب قال حدثنى يحيى بن أبى طالب قال أخبرنا عمار بن كثير قال أخبرنا فضيلة عن ليث عن مجاهد فى قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلى الجنة.

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: قال بعض أهل المعانى فى الكلام تقديم وتأخير تقديره: إن الذى فرض عليك القرآن ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب لرادك إلى معاد ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَ﴾ وهذا حين دعى إلى دين آبائه ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ يعنى إلا هو: عن مجاهد. وقال الصادق: دينه. وقال أبو العالية: إلا ما أريد به وجهه.

أخبرنا ابن شاذان أخبرنا ابن جيعويه قال حدثنا صالح بن محمد بن جرير عن الأعمش عن شهر بن حوشب عن عبادة بن الصامت قال: يجاء بالدنيا يوم القيامة فيقال: ميزوا ما كان لله منها. قال: فيماز ما كان لله منها. ثم يؤمر بسائرها فيلقى فى النار.

وبه عن صالح عن سليمان بن عمرو عن سالم الأفطس عن الحسن عن ابن جبير عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه: أن رجلاً سأله، فلم يعطه شيئًا؛ فقال: أسألك بوجه الله. فقال له: كذبت ليس بوجه الله سألتنى إنما وجه الله الحق ألا ترى إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ

---

(١) موضع النقط ثلاث كلمات غير مقروءة، أى ممحوة.

شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ يعنى الحق، ولكن سألتنى بوجهك الخَلق كل شىء هالك إلا الله والجنة والنار والعرش، وقال ابن كيسان: إلا الله. ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.



انتهى بفضل الله تعالى الجزء الرابع من تفسير الثعلبى

ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس وأوله: سورة العنكبوت



فهرس الموضوعات